عبد الكريم ناصيف

مواجع الشتات

(يا أنت يا خارطة الفتات
يا أمة الشتات)
رواية

الفصل الأول

ـ وجدتها!! قلعة الشقيف!! هتف باقر فرحاً وكأنه طفل وجد لعبته الضائعة.
ـ مرحى!! أرخميدس!! هتف أبو الليل وقد جحظت عيناه قليلاً، ألم تجد أسهل منها هدفاً إسرائيلياً نضربه؟
ـ ألا يقول المثل؟ علق شوقي هازاً رأسه، من كبّر الحجر ما ضرب، وباقر بارع دائماً في اختيار الحجر الكبير كيلا يضرب.
ـ بل سأضرب. رد باقر بمزيج من حماسة وغضب.
ـ أجل، ستضرب لكن رأسك بالحائط، قاطعه يسار وهو يقهقه قهقهة مجلجلة كتلك التي اعتاد سماعها منه معسكر الحاصباني. مائة وبضعة عشر فدائياً كانوا في المعسكر. إسرائيل تعرفه جيداً، هو لا يبعد كثيراً عن الشريط الحدودي الذي تحتله، وهي كثيراً ما تقصفه. آثار قصفها أكثر من آثار الجدري في وجه مجدور: هوى، خنادق، تشققات واسعة، أكوام تراب، حجارة... مع ذلك كان معسكر الحاصباني مقيماً لا يتزعزع. ملاجئه في باطن الأرض تنظر بعين السخرية إلى الطائرات الإسرائيلية وهي تشرق وتغرب مرسلة حجارتها التي من سجيل وكل ظنها أنها ستترك كعبة عبد المطلب خراباً يباباً، لكن كعبة عبد المطلب ظلت راسخة الأركان لا تخشى طير الأبابيل ولا تؤثر فيها الحجارة من سجيل، وينفض المعسكر ريشه إثر كل قصف مزيلاً عنه آثار الغبار والحجارة مستعيداً نشاطه وحياته، وكأن شيئاً لم يكن.
الملاجئ كهوف في سفح التلة، تتغلغل عميقاً هنا وهناك، فلا تطولها قذيفة ولا صاروخ. حين دخلها يسار أول مرة صاح "ها نحن نعيد سيرة جدنا الأول"، "لكن جدك الأول كان يعيش على الأشجار، ينط من غصن إلى غصن" "علق شوقي ساخراً" ثم ضحك الجميع، وهم يلجون ملجأهم قططاً تتلمس طريقها في الظلمة... الظلمة وصلت إليها الكهرباء بعد ذلك.. والخلية الفدائية نفسها تبحث عن هدف للعدو تضربه.
ـ لا، أنت مخطئ، عاد باقر مخاطباً صحبه وقد كفكف قهقهته تحت نظرات اللوم والتقريع، لن أضرب رأسي بالحائط، بل سأضرب رؤوس اليهود في قلعة الشقيف.
ـ لكنها قلعة منيعة... تدخل شوقي، ابن لبنان، الخبير بأرض الجنوب وجغرافيته.. من المستحيل الوصول إليها يا عزيزي!!
ـ قل من الصعب... لكن ليس من المستحيل، رد باقر وقد بدا أكثر حماسة وإصراراً.
ـ لكن لماذا القلعة بالذات؟ تساءل نمر هذه المرة، وهو يكبر في رفيقه أفكاره الألمعية التي يفاجئهم بها من حين إلى حين وكأنها شهب السماء.
ـ ها!! هذا سؤال ذكي. هتف باقر، لماذا!! تابع وهو شبه شارد.
ـ أجل، انطق. هتف يسار نافد الصبر.
ـ لأنك يا عبقري، يجب أن تضرب العدو حيث لا يتوقع وتأتيه من حيث لا يحتسب.
ـ في هذا معك حق، صاح أبو الليل مغتبطاً "اظهر حيث لا يتوقعك العدو وحيث يتوقعك لا تظهر". هو ذا لب حرب العصابات، الخلية كلها تعرف ذلك المبدأ. منذ البدء لقنوهم إياه، هم الخمسة، وقد جاؤوا من كل واد عصا:
شوقي من لبنان.. باقر من العراق، نمر من الأردن، أبو الليل من فلسطين ويسار من سوريا. مع ذلك هم متجانسون... متناغمون... وهم فرحون بذلك التناغم والانسجام.
"الاستعمار فرقنا لكن فلسطين جمعتنا"، كان شوقي يردد وكان فرحاً أن يجد على أرض لبنان أبناء الوطن العربي الكبير، وقد جاؤوا يقاتلون من أجل قضية واحدة. "إن لم يكن للبنان فضل إلا أنه جمع العرب في جنوبه، فحسبه وكفى"!!
كان لا يفتأ يقول وكان باقر يستمتع بما يقول، يستمتع بأن يراه تجسيداً حياً لفطرة إنسانية لم تشوهها أدران الحضارة.
ـ لكن، أتعلم ما هي القلعة؟ عاد يسار إلى تساؤله شبه مستنكر.
ـ هي جدار مصمت من أسمنت، ارتفاعه ألف متر! رد باقر وعيناه تلمعان ببريق التحدي.

ـ مع ذلك تفكر بـ .. بدأ يسار ساخراً لكن سرعان ما قاطعه أبو الليل وهو ينظر نظرة خاصة إلى صاحبه.
ـ ولم لا؟ إنه باقر خبير تسلق الجبال... فاسمعوه وأطيعوه.
ـ أنت تسخر أبا الليل؟ رد باقر بنبرة التحدي ذاتها. ثلاث سنوات في جبال كردستان، أليست تجربة تستحق الاحترام؟
ـ بالتأكيد. رد يسار ضاحكاً مقهقهاً، بعدئذٍ تابع. خاصة، أن أهم شخصية فيكم كانت بغلاً، وأطلق يسار من جديد قهقهة مفرقعة كحبات ذرة في مقلاة.
باقر نفسه لم يستطع منع نفسه من الابتسام، فقد تذكر فصيل الرفاق، هناك في كردستان، حيث ذهبوا كي يحاربوا النظام الحاكم في العراق، يحرروا كردستان ثم يمضوا إلى بغداد ليطيحوا بحجاجها الذي لا يحول ولا يزول. في الجبال الوعرة هناك، لم يكن ثمة طرق، ولم تكن قطارات ولا سيارات. فعادوا، رب كما خلقتني. وسيلة نقلهم الوحيدة: البغل. بذيله تتعلق أرواحهم، بحوافره ترتبط مصائرهم، فكيف لا يكون الشخصية الأهم فيهم؟ أحدهم أطلق عليه لقب "المارشال"، وذهب ذلك مثلاً... الكل ينادونه باسم "المارشال"، والويل لمن يرفع صوتاً عليه أو سوطاً فهو أيضاً لديه وسائل زجر وردع. ذات مرة غضب من صاحبه فرفسه رفسة صرعته أرضاً ثم انحدر انحدار جلمود حطه السيل من عل، وصل إلى أقرب واد، سار إلى أن بلغ الحدود التركية، هناك صده الأتراك، فهتف به صاحبه وهو يستقبله متنفساً الصعداء: "الحمد لله! الأتراك لا يستقبلون لاجئين سياسيين مثلك، أيها المارشال"!! كان باقر قد روى لهم قصة "المارشال" أكثر من مرة وأكثر من مرة كانوا قد ضحكوا من مقاتلين، "مارشالهم" بغل.
ـ المهم، تدخل نمر وكله رغبة في إعادة الاهتمام إلى خطة العمل، كيف تصل إلى القلعة يا رجل؟ ما تصورك؟
ـ تصوري، رد باقر وهو يشير إلى خارطة للجنوب أفردوها أمامهم، نذهب حتى يسار أرنون، من هناك نتجه إلى النهر، ومن ضفته نتسلق السفح.
ـ والسفح شديد الانحدار إلى درجة تنقلب معها بطناً لظهر إلى أن تدق عنقك، علق يسار هازئاً.
ـ أو تقع في حقل ألغام تذهب فيه شذر مذر، علق شوقي وهو جاد كل الجد.
ـ أو تظل تتسلق حتى مطلع الشمس لتجد نفسك في مصيدة الجنود الإسرائيليين وقد ألقوا فوقك الشباك، تابع نمر وقد بدا على سيماه شيء من خوف.
ـ أتعلمون ما هي مشكلتنا، نحن العرب؟ فاجأهم باقر بسؤاله، ففتحوا أعينهم تعجباً كله فحيح: ماذا!! لم ينتظر باقر سماع الكلمة نفسها فقد رأى الفحيح في عيونهم، مشكلتنا هي أننا لا يسمع واحدنا الآخر، بل يسمع نفسه فقط، يحدث نفسه ويسمع نفسه، أما الآخر، أفكاره، آراؤه فسقط متاع لا يعنيه في شيء.
ـ حسن!! هات أيها الآخر؟ كلنا آذان صاغية ولسوف نسمعك. عقب شوقي مطرقاً برأسه كأنما شعر بالذنب وقد أدرك صواب الفكرة.
ـ أجل، هكذا!! اسمعوا وعوا!! بدأ باقر بصوت عال ثم أخفض نبرته. اليوم جاءني أحدهم بسر.
ـ سر؟
ـ ما الذي تقوله؟
ـ أي سر؟
جاءت التعليقات من الرفاق جميعاً في آن معاً، فتابع باقر بنبرة الهمس:
ـ ثمة، أسفل الوادي مدخل للقلعة إذا عرفته صعدت إليها مباشرة، ودون أن تراك عين.
ـ واليهود، ألا يعرفون ذلك المدخل؟ سأل شوقي باستغراب واستنكار.
ـ لا، أهل المنطقة فقط هم الذين يعرفونه.
ـ كيف؟ سأل هذه المرة نمر.
ـ تحكي الحكايات أن القلعة، مذ بنيت قبل ألف عام، حفروا لها نفقاً يتصل بالنهر حتى إذا ما حوصرت نزل المحاصرون إلى الماء فجاؤوا به إلى قلعتهم. النفق واسع مدرج يمكن لاثنين أن يصعداه معاً. فقط هو مغلق من أعلى ومن أسفل. حدد ذلك الأسفل ثم أزح ما يغلقه تجد نفسك في قلب العدو. تصوروا نحن الخمسة في منتصف مهجع ينام فيه

عشرون جندياً إسرائيلياً، نفتح رشاشاتنا: طرررر.. طرررررر.. نبيدهم جميعاً ثم نختفي في الممر من جديد. أليست فكرة عبقرية؟
ـ عبقرية، لكن في عالم الجن والعفاريت. علق يسار وهو غير مصدق.
ـ صحيح، باقر. أخشى أن تكون متأثراً بحكايات ألف ليلة وليلة، علق شوقي مازحاً.
ـ بل هو على حق. تدخل أبو الليل بنبرة حاسمة، أنا نفسي سمعت شيئاً من هذا القبيل: ممر ودرج..ـ مدخل ومخرج، لكن المشكلة كيف نهتدي إلى ذلك المدخل؟ أين نجده؟
ـ نبحث عنه. بدأ باقر رده، لكن سرعان ما قاطعه يسار:
ـ في الظلمة الحالكة أم على ضوء المشاعل؟ خارج مجال النظر أم تحت أنظار الإسرائيليين؟ ولم يستطع باقر الإجابة، فقد دوت فجأة صافرة إنذار.
في اللحظة ذاتها حدث عجيج وضجيج. حركة واندفاعات. وبلمحة عين خلا الملجأ. بعضهم ذهب إلى رشاشات الم/ ط بعضهم الآخر إلى الملجأ الكبير، فيما ملأ دوي الطائرات الفضاء وأصم هدير الانفجارات الآذان، واشتعل الليل كله نيراناً وحرائق، فأبصرت النجوم من عليائها صخوراً تتمزق وتراباً يتطاير وأشلاء تتبعثر، بينها أشلاء شوقي وقد تماهت بأشلاء الفولاذ الممزق بين يديهـ
لم ينم المعسكر تلك الليلة ولم يعرف سكينة أو هدوءاً. كانوا يبحثون عن الأشلاء، وكان باقر يبحث. على ضوء النجوم، ضوء المشاعل كان يبحث، يريد جمع ما تبعثرـ شوقي. الطيب... الجميل..ـ صار إرباً، وعليه هو، أن يجمع تلك الإرب. يجمع الشلو للشلو، يضم ما جمع لما جمعه أبو الليل، نمر، يسار، ولا تدمع له عين. قلبه صار من حجر.. مقلتاه من حجر. يحزن على أبي الشوق حتى الموت لكنه لا يستطيع البكاء. يحمل أشلاءه بين يديه لكنه لا يستطيع البكاء، فالمصاب أشد هولاً من أن يقابله بالبكاء.
في الصباح حملوا الأشلاء إلى بعلبك. هناك، استقبلتهم أعمدة القلعة بعيون دامعات، حجارة القلعة بالولولات. وبدا صرح التاريخ وكأنه يلعن التاريخ، وهو يسجل انتصار الباطل على الحق دون أن يرف للناس جفن وقد تحولوا كلهم إلى شهود زور.
بيده أنزل باقر الأشلاء إلى اللحد. "آه، أبا الشوق ها أنت تلقى الموت!! أنت الذي كنت تتعجل لقياه!! كل دورية إسرائيلية تريد الانقضاض عليها!! كل طائرة تتهيأ للتصدي لها، كل مصفحة تريد أن تكون لغماً ينفجر بها وكنا نكبحك، أتذكر أبا الشوق؟ كم كنا نكبحك!! لكن ها قد جاءت اللحظة التي لم نستطع فيها أن نكبحك، فارقد في لحدك!! انعم بالهدوء والسكينة!! لكن نحن، أنى لنا الهدوء والسكينة يا أبا الشوق!! كيف لباقر أن يهدأ وقد لملم أشلاءك الممزقة بنفسه؟ رأى بعينه دمك أحمر قانياً يسيل على الصخور.. ينسكب نحو الوادي.. يسيل مع الليطاني... ربما حتى مصبه في البحر!! لا، لا هدوء ولا سكينة حتى أنتقم لك أبا الشوق!! ولسوف أنتقم!!"
بعد خمسة أيام عاد إلى المعسكر ونصب عينيه هدف واحد: الانتقام. بكاء النساء وهن يودعن الجنازة، وجوه الرجال المدلهمة وهي تأتي للعزاء طوال أيام المأتم، أشلاء الشهيد وقد تحولت إلى كابوس لا يفارقه، كلها كانت تصب الزيت على نار واحدة وهي نار الانتقام.
ـ يجب أن نثأر لأبي الشوق، بادر باقر قائد المعسكر وقد التقاه في الطريق.
ـ أجل، يجب أن نثأر له. لكن ربما ليس الآن. رد قائد المعسكر ذو اللحية السوداء وهو يمسكه من ذراعه ماضياً به إلى غرفة القيادة.
ـ ليس الآن!؟ لماذا وقلعة الشقيف هنا، على مرمى حجر؟
ـ أعلم... أعلم. قاطعه ذو اللحية السوداء وهو يربت كتفه، والسر الذي اطلعت عليه أعلم به، لكن أقول لك ليس الآن. الأوامر هكذا. لا عمليات بعد اليوم.
ـ ماذا؟
ـ لم يبلغك الخبر إذن!!؟ كنت في المأتم حين جاءت الأوامرـ
ـ يوقفون العمل الفدائي؟ كيف؟ لماذا؟ بعينين جاحظتين وشفتين مفتوحتين سأل باقر.
ـ ربما هو الوضع الجديد في لبنان، أنت تعلم، اتفاق الطائف والمصالحة الوطنية، الأمن والاستقرار، اتقاء إسرائيل ومبدأ "ابعد عن الشر وغن له".
ـ لكن هذا كله لا يبرر إيقاف الكفاح المسلح: تحرير الجنوب وطرد الصهاينة.
ـ هم يقولون إن للجنوب من يحرره، أما نحن فما شأننا؟ رد ذو اللحية السوداء والمرارة تقطر من كل حرف يخرج من شفتيه.

ـ آ!! الآن فهمت. المقصود إذن المنظمات الـ... ولم يكمل باقر، لكأن غصة وقفت في حلقه فحالت بين الصدر واللسان. لم يستطع تلفظ الكلمة الأخيرة. رغم أن الكل كان يعرفها، بل منذ اجتاح أرييل شارون الجنوب وغاص عميقاً حتى بيروت ملتهماً في طريقه الأخضر واليابس، بات الكل يعلمون أنها المعركة الأخيرة للمنظمات الفلسطينية في لبنان. فكما أخرجت من عمان، كان عليها أن تخرج من لبنان. ناور بعضها وداور، راوغ وتستر، مع ذلك، راحت تخرج واحدة إثر الأخرى من صور الجنوب حتى طرابلس الشمال. وحده كان الشريط الشرقي ما يزال في منأى: عكار، الهرمل، البقاع، كانت ما تزال تفتح أذرعها لبعض تلك المنظمات تقيم معسكرات وتدرب، وتشتبك وتقاتل فهل جاء دورها اليوم؟ وإن جاء دورها أيغلقون القواعد الفدائية؟ وإن لم يغلقوها ماذا يفعل الفدائيون؟ أيقعدون بانتظار غودو؟ الأسئلة لا تدور في ذهن باقر وحسب بل على شفتيه أيضاً، لكن هل كان ذو اللحية السوداء يملك الجواب؟

ـ لا أدري.. هي أوامر وحسب، وما علينا إلا الطاعة. كان جوابه فانسكب برميل من بارد الماء على نار باقر لتتصاعد من شفتيه آهات رماد وحزم دخان، سرعان ما جعلته يغادر ذا اللحية السوداء وقد تحول إلى هزات رأس وإطلاق زفرات.

ـ لكن ماذا نفعل؟ هؤلاء المقاتلون كلهم ماذا يفعلون؟ سأل الرفاق ما إن دخل الكهف ـ الملجأ.

ـ يريدوننا أن ننتظر حتى التفسخ، أجاب أبو الليل وقد بلغه الأمر من قبل، يريدوننا أن نموت كمداً لمداً، فئراناً محاصرة في جحور.

وأطبق صمت ثقيل على الكهف ـ الملجأ. أبو الليل وضع النقاط على الحروف. باقر أحس بذلك. مذ رأى قائد المعسكر وسمع التعليمات الجديدة أحس أن ذلك هو المقصود، ثم لمسه لمس اليد وهو يعود إلى خليته الغارقة في لباس الحداد، الحزينة على الرفيق الذي قتل... على الأوامر الجديدة القاصمة للظهر.

ـ حقاً.. ما العمل؟ ردد نمر السؤال تقطر سيماه اكتئاباً ويأساً.

ـ لا أدري.. تمتم باقر وكأنما يخاطب نفسه. لكن أنا شخصياً لا أستطيع أن أقعد هكذا مكتوف اليدين..ـ حداداً بلا فحم.

ـ ما لك غير أن تعود إلى العراق، تدخل يسار بشيء من خبث.

ـ ماذا؟ تريد إلقائي لأنياب الوحش؟

ـ أي وحش؟ رد يسار.. هناك في كردستان، يمكنكم أن تقاتلوا، أم تخليتم عن الكفاح المسلح وتحرير العراق؟

ـ تخلينا؟ لا، لا، لا بد من تحرير العراق، لا بد من إسقاط صدام.

ـ إذن، اذهبوا إلى هناك، قاتلوا... أم تظنون أن النظام يسقط من تلقاء نفسه، ورقة في خريف؟

ـ بالعكس، الآن، النظام يعتقد أنه انتصر على إيران، تدخل نمر بنوع من المشاركة، صدام يظن أنه أقوى من أي وقت مضى.

ـ خسئ المغرور الطاغية!! بل هو على شفا السقوط ونحن الذين سنسقطه، صاح باقر بحماسة مفاجئة.

ـ كيف؟ بالمراسلة؟ سخر يسار من جديد. عد إلى العراق. واجه النظام من داخل، ثم تكلم عن إسقاط صدام.

ـ أعود إلى العراق!! أجننت يا رجل؟ أعود إلى الجحيم؟ إلى الموت؟ لا، قسماً لن أعود إلى العراق إلا بسقوط صدام، وأراهن أنه وشيك.

وانفجرت ضحكة ساخرة بدت نشازاً على جو الحداد كله. كان يسار يضحك ملوحاً برأسه. لكن على غير توقع، تدخل أبو الليل وهو يتوجه إلى باقر:

ـ هذه المرة أنا أؤيدك باقر!!

ـ ماذا؟ تساءل نمر باستغراب. أبا الليل... ما الذي تقوله؟

ـ أقول ثمة جيشان بركان تحت الأرض، وربما ينفجر ذلك البركان في أية لحظة، مكتسحاً في طريقه لا صداماً فحسب بل العراق كله.

ـ لا، أبا الليل!! احتج يسار وقد عصي عليه الفهم. أنت تتكلم بالمعميات.

ـ ربما هي معميات الآن، هيولى لم تتبلور بعد. لكن أؤكد لكم: ثمة أزمة خطيرة.

ـ كيف؟ قل لي ماذا سمعت؟ أوضح أبا الليل، رد باقر وقد اشتد فضولاً. وبدأ أبو الليل. تحدث عن أشياء كثيرة كانت قد حدثت خلال الأيام الأخيرة التي غاب فيها باقر، عن تطورات طرأت، كثير منها ينذر بالويل والثبور.
ـ القائمة بالأعمال الأمريكية قالت له ذلك؟ سأل باقر وكله استغراب لما قالته غلاديس لصدام.
ـ أجل، بالحرف الواحد. قالت له: "الخلافات بينكم وبين الكويت داخلية لا علاقة لنا بها ولن نتدخل فيها".
ـ ألم أقل لكم؟ هتف باقر شبه واثب. صدام أمريكي ـ يأتمر بأمرهم. لا يفعل شيئاً إلا بموافقتهم. أسمعتم بآذانكم؟ هم يطلقون يده ضد الكويت كما أطلقوها من قبل ضد إيران!!!
ـ مهلاً مهلاً!! تدخل نمر مقاطعاً. أخشى أن تكون قد أسأت الفهم.
ـ كيف!؟ أنا أسيء الفهم!!
ـ بالطبع. الأمر غير ذلك، بل هو أخطر بكثير من ذلك.
ـ اشرح لي بربك ـ أنا لم أفهم.
ـ ألا يمكن أن يكون بداية مؤامرة؟
ـ مؤامرة!! ردد باقر ساخراً ثم ملتفتاً إلى أبي الليل.... اسمع أبا الليل.. أمريكا تتآمر على أمريكا!!
ـ لا، أنا أخالفك. باقر!! قاطعه نمر متحمساً للتدخل. أمريكا تتآمر على صدام. تقدم له طعماً، تنصب له شركاً!!
ـ لا تضحكني يا رجل!! طعم. شرك.. ما الذي تقوله، نمر؟ إن أنت إلا غر سياسة، جاهل أبسط بديهياتها، ومن العبث الحديث معك.
ـ طول بالك باقر. تدخل أبو الليل مهدئاً. الحوار أخذ وعطاء.
ـ لا، لا، ليس لي رغبة في حوار كهذا. قال وهو يتململ في مكانه ثم يلتفت حوله، بل ليس لي رغبة في البقاء هنا. الجو خانق. قاتل. اسمحوا لي. سأذهب إلى بيروت.
ـ أذهب معك إذن. أيده يسار وهو يهب على عجل.
الطريق إلى بيروت طويلة، تصعد جبالاً، تهبط ودياناً، تمر بمنعطفات حادة وتصطدم بحواجز جند كلها توقف سيارة الجيب شبه العسكرية، تسأل عن الهوية لكن لا أحد يعترض طريق باقر ويسار. أيام الحرب الأهلية ولت، القتل على الهوية مضى وانقضى، لا قناصة ولا حواجز طيارة، هناك آثار حرب: سيارات محترقة، أبنية متهدمة، جدران أشبه بالغرابيل، أشجار مقتلعة، حفر متناثرة هنا وهناك ترفع السيارة عالياً لتحطها واطئاً. شوارع صوفر، عاليه، الحازمية كلها مقفرة معتمة، فظلام الحرب الأهلية كان ما يزال يخيم على بلد النور والإشعاع.
ـ تعلم، باقر؟ أنت رجل عبقري. بدأ يسار وقد أمضه صمت السيارة الطويل، لم يجبه باقر بل اكتفى بالنظر طويلاً إليه. حينذاك استأنف وهو يشير إلى رأس صاحبه، دماغك هذا لا يخرج إلا بالأفكار العبقرية.
ـ أنسيت أنني مهندس؟ رد باقر ضاحكاً.
ـ كيف أنسى والمخترعون كلهم مهندسون؟ هم يهندسون العالم، يهندسون الحياة، يهندسون المستقبل فكيف لا تهندس لنا مخارج من الحزن والسأم؟ ولم يملك باقر إلا أن يبتسم. هو يعلم أن اقتراحه بالذهاب إلى بيروت جاء إلى يسار كما يجيء الفرج بعد الشدة. أكثر من شهر كان قد مضى عليه دون أن يغادر المعسكر. حالة الاستنفار، الاشتباك الدائم مع العدو، التدريب، مهمات الاستطلاع كلها كانت قد شغلت الخلية طويلاً، ولم يكن باقر يشعر بالحاجة إلى مغادرة. لكن يساراً كان يشعر.. أنفاسه في صدره تنكتم والحياة بكل ما فيها تصبح ثقيلة الوطأة إن لم يغادر إلى مرابع حلب أو أعشاش الطرب في دمشق وبيروت، هناك يأخذ قسطاً من الراحة، يزيل بعض ذلك التوتر الذي يشحن جسده كله ثم يعود، لكن أين تراه يذهب باقر؟
منذ تسع سنوات كان العراق كله قد تحول إلى عسكر وهو حرامي، إن وضعوا يدهم عليه ذهب مع الريح، فكيف لا يغادر باقر العراق؟ وهكذا، في ليلة بلا ضياء، لبس اسماً غير اسمه وهوية غير هويته ثم مضى إلى نقطة قريبة من الحدود. هناك ترجل من السيارة، وتحت جنح الظلام بدأ رحلته مشياً على الأقدام، دليله أوصله إلى ثغرة، عبرها شق

طريقه إلى بلاد أخرى حيث لا هي عسكر ولا هو حرامي. ودون أن يشعر، ابتسم باقر وقد توقفت السيارة أمام حاجز عسكري، "العسكر في كل مكان، وحيثما تذهب أنت الحرامي..."

ـ هه!! أراك تبتسم؟ أين شردت؟ سأله يسار وقد غادرت السيارة الحاجز العسكري.

ـ لا، لا شيء. فقط قل لي يسار، لماذا أراك دائماً سئماً قلقاً؟

ـ لا أدري. أجابه يسار وكأنما يتعمد الاقتضاب.

ـ كيف لا تدري وقد عرفتك أنموذجاً للحماسة والفداء؟

ـ أجل، كنت كذلك، بل حين انخرطت في العمل الفدائي كنت على استعداد لأن أفجر نفسي، أقوم بأية عملية انتحارية. لكن شيئاً فشيئاً بدأ حماسي يفتر، ربما بسبب ما رأيته خلال هذه السنوات السبع العجاف: تآمر يحيط بك من كل مكان، جشع وطمع، عمالة وخيانة... فكيف لا يفل سيفك ويتثلم؟

ـ آ!! الآن فهمت، لماذا لم تتحمس لاقتراحي حول القلعة؟

ـ وكيف أتحمس وأنا أرى بأم عيني الشعارات تتحول إلى قميص عثمان؟ غاياتنا النبيلة تصبح وسائل لتحقيق المكاسب والمغانم؟ بل الأخطر من ذلك، بعض قياديينا لم يعودوا يرون في الكفاح المسلح إلا ورقة يلعبون بها على طاولة المفاوضات والسياسة.

ـ يعني، أنت متشائم؟

ـ متشائم!! قل يائس، يا رجل.

ـ كيف تيئس يسار، والانتفاضة تدوِّخ إسرائيل؟

هنيهة من الزمن ظل يسار صامتاً لا يجيب. كان صوت المحرك لا يكاد يسمع وسيارة الجيب شبه العسكرية تنحدر سفح الجبل مع متعرجات الطريق المتلوية تلوي أفعى، وكانت الأشرفية هناك في الأسفل، ترقد ساكنة تلفها العتمة والتوجس. في فلسطين عتمة وتوجس أيضاً. الانتفاضة هناك تستقطب اهتمام العالم كله، في كل صباح تتحول فلسطين أمام عينيه إلى أطفال صغار يخرجون إلى الشوارع وسلاحهم الحجارة، وإلى نساء عزلاوت يواجهن جند إسرائيل، يتحدين جند إسرائيل، أعيناً تقاوم المخارز دون أن يرف لها جفن.

ـ حتى هذه الانتفاضة يتآمرون عليها. رد يسار أخيراً وهو يزفر من عمق الألم، أنا يائس، الكفاح المسلح انحرف عن طريقه الأساسي. قادته صاروا مثل حكامنا العرب. كلهم أناني، نرجسي، لا يفكر إلا بنفسه ومصلحته.

ـ قف!! صاح جندي بالسائق الذي كان ينوي عبور حاجز فرن الشباك دون أن يتوقف. بالمنعكس الشرطي، كبح السائق سيارته فجأة، فأوشك رأس باقر أن يصطدم بالزجاج. سباب مقذع انطلق من داخله لكنه أوقفه عند شفتيه. كان يريد أن يسب الجند والحواجز، السيارات والسائقين، لكنه كظم غيظه آخر لحظة. هم يمرون دائماً بذلك الحاجز، السائق يعرف الجند والجند يعرفون السائق، فيكتفون بالتبسم والإشارة إليه بالعبور، لكن على حين غرة، يظهر لك جندي يقطب جبينه في وجهك ويصوب بندقيته إلى صدرك ليقول لك "قف. انزل". وأحياناً "ارفع يديك". أهي مسألة مزاج، أم مبدأ؟ باقر يحار دائماً في أمر العسكر ولا يفهمهم. مذ بدأ اشتباكاته معهم في بغداد، يحار فيهم ولا يفهمهم. دخل عسكري الحاجز برأسه داخل سيارة الجيب عابس الوجه قمطريراً، تفحص الراكبين والسائق بنظرة كلها لوم وتقريع وكأنه جنرال يتفحص جنده العائدين بأذيال الهزيمة. طلب الهويات. ثم طلب المهمة، بوجهه القمطرير نفسه ونظرته اللائمة المقرعة نفسها. أخيراً، أشاح بوجهه معطياً بطرف إصبعه إشارة الحركة للسائق.

ـ اللعنة على والديك!! غمغم باقر وقد خرجت السيارة من خناق الحاجز، ملتفتاً برأسه إلى الجندي الذي كان قد انشغل بسيارة جديدة.

ـ بل ووالد والديه!! تابع يسار هازاً رأسه ضاحكاً ضحكة الكراهية والحقد.

ـ بربك، يسار، قل لي. دولنا العربية مع العمل الفدائي أم ضده؟ سأل باقر وهو يشير إلى الوراء، بكثير من الامتعاض.

ـ هم معه وضده. أجاب يسار بنبرته الساخرة المعهودة.

ـ كيف؟ أنا لا أفهم.

ـ على طريقة فيروز: "تعا ولا تجي". أو سائق السيارة الذي يشير إلى اليسار، ويسير إلى اليمين.

ـ هذه نكتة، لكنها يبدو أنها أكثر صحة من أية حقيقة جادة.
ـ بالطبع. وإلا كيف تجد الشيء وضده؟ هنا في لبنان كلهم مع العمل الفدائي لكن، على أرضهم كلهم ضده.
ـ صحيح، الآن فهمت. أنظمة كلها غريبة عجيبة. تقول شيئاً وتفعل شيئاً. باطن وظاهر. سياسة معلنة، وسياسة خفية. ودخ أيها الشعب العربي الأبي!ـ قال باقر جملته الأخيرة بنوع من الصياح وكأنه يخطب في حشد من الجماهير. لكن الجماهير لم تسمع ولم تصفق فتابع: بل شعبك العربي الأبي دائخ أصلاً. الإنكليز، الفرنسيون، الأمريكان، كلهم دوخوه، فرادى ومجتمعين، بل حتى أصحابنا السوفييت دوخوه، فما بالك بحكامه الأشاوس؟
ـ هل عرفت الآن سبب يأسي؟ ثمة مؤامرة كبيرة.
لكن لعلعة رصاص قريبة قطعت كلام يسار، فيما أجفل السائق كابحاً سيارته خافضاً رأسه، وكأنما الرصاص يستهدف رأسه.
ـ اللعنة!! بيروت ما تزال خطيرة!! غمغم السائق الفتى وهو يلتفت يمنة ويسرة، متوجساً الشر من اليمين واليسار.
ـ خطرة!؟ ماذا إذن لو كنت هنا في الثمانينات؟ رد يسار وهو يهز رأسه استخفافاً بسائقه الغر. اثنتان وسبعون منظمة وجبهة كانت تقاتل في بيروت.
ـ تلك أيام حرب، لكن الآن، وقد تمت المصالحة، لماذا هذا الرصاص؟
ـ هو الأثر الباقي، تدخل باقر شبه ضاحك، أم تريد لحريق هائل أن يخمد بطرفة عين؟ الحريق إن أطفأته يبقى له أثر: دخان.. جمر تحت الرماد.. حرارة كامنة تظهر هنا... تظهر هناك وهذا ما يدعونه الأثر الباقي.
ـ يا إلهي!! متى يعود الأمن والسلام إلى لبنان؟ سأل السائق الفتى بنبرة كلها كره للعنف وسفك الدماء.
ـ حين لا تبقى في الشوارع ميليشيا واحدة ولا بيد أي لبناني بندقية واحدة.
ـ أجل، أعلم. غمغم السائق من جديد ملوحاً برأسه إلى الأعلى والأسفل، بعدئذٍ بدا وكأنه يستفسر بعينيه لكن دون أن يسأل.
ـ إلى الحمراء. للتو رد يسار الهارب من سأمه ويأسه، وقد أدرك مغزى استفساره. لم تكن المدينة الصاخبة أيام زمان قد عادت إلى صخبها. ملاهيها، مرابعها، لم تكن قد بعثت للحياة من جديد، لكن كانت ثمة خانات، وأوكار لهو تجد طريقها بشكل أو بآخر للحياة، وكان يسار كلما سنحت له الفرصة يؤم واحدة منها، يسمع أغنية، يشهد رقصاً، يجرع خمراً فينسى كل ما ينخر روحه من سأم ويأس.
شبه معتمة كانت حانة "اللوتس". الأضواء الحمراء الخافتة، الستائر المسدلة، الجدران المصمتة كلها كانت قد تكيفت مع ظلام الحرب، رعب الحرب. يسار يعرفها جيداً مذ جاء إلى بيروت وبيروت أتون من نار، بحث في ليالي الفراغ عما يسد الفراغ، وكانت حانة "اللوتس" الأقرب إلى موقع الجبهة، والأقربون أولى بالمعروف. في خضم المعارك وتحت أزيز الرصاص كان يجيء إلى الحانة وكانت الحانة تعمل، كأنما هي غير معنية بحروب الناس وجنونهم. في القبو تحت الأرضي كانت تلطأ، وكانت الأبنية من حولها كلها تحمل آثار الرصاص وشظايا الحرب، ما عداها هي. متطامنة، مصمتة الجدران، خافتة الأضواء ظلت تعمل. صاحبها يعرف دائماً كيف يأتي بأصناف المشروبات وأنواع الفتيات. زادها متوفر دائماً وكهرباؤها لا تنقطع أبداً. جسور مودة قامت بين يسار والحانة، ثم بين هذه وباقر، فهما لا يجدان راحتهما إلا فيها.
ـ من زمان هذا القمر ما بان، بادرهما أبو جوني ناظراً إلى يسار ثم إلى باقر. يا مرحبا!! يا مرحبا!! تابع ترحيبه وهو يشد على يد كل منهما فيما أسرع نادل يهيئ لهما طاولة قريبة من "الحلبة"ـ
ـ مرحباً بك أبا جوني... وألف سلام، رد يسار آخذاً صاحب الحانة بالأحضان متلفتاً حوله. كيف الشغل؟
ـ ألا ترى؟ طاولات معدودات كل ليلة، لكن الشكر للرب، يسوع في الأعالي. وضحك باقر. هذه عبارة أبي جوني، الشكر للرب، يسوع في الأعالي. لا يفتأ يكررها. في السراء..ـ في الضراء، يكررها ويقنع. أليست القناعة كنزاً لا يفنى؟

ـ سيتحسن.ـ الشغل سيتحسن. مع عودة الأمن والسلام ستخرج الفئران من أوكارها أبا جوني، اطمئن. داعبه يسار ضاحكاً.
الحرب الطويلة علمت أبا جوني ألا يطمئن..ـ بل طوال خمسة عشر عاماً كان يحاول ذلك. لكن كل مرة كانت تأتيه ضربة على حين غرة فينقلب على قفاه، أو يغوص في الوحل ولا يخلص نفسه إلا بشق النفس. جزيرة في بحر كانت حانة اللوتس. الأمواج تلطم شطآنها، العواصف تزعزع أركانها، فكيف يطمئن؟ ذات مرة داهمته عصبة مسلحين ناهبة كل ما لديه من مشروبات. في مرة أخرى أخذوا كل ما لديه من نقود وفي مرة ثالثة خطفوا كل من في الحانة من نساء. "الإنسان غريب" قال صاحب الحانة ليسار وذات مرة. "تراه في السلم والطمأنينة فتحسبه ملاكاً، لكن ما إن يحمل السلاح ويدخل حالة الحرب حتى يتحول إلى شيطان بل أسوأ ألف مرة من الشيطان". مقولته تلك هي الناموس الذي لا يحسب حساباً لسواه، وبسببها، هو دائماً حذر، مرتاب. كل من يأتي إلى الحانة متهم حتى يثبت براءته. وأخو أخته من يستطيع لدى أبي جوني إثبات تلك البراءة.
كانت حانة الشراب البسيطة قد تحولت إلى ما يشبه الملهى الصغير، ففي غياب الخيول تشد على الكلاب السروج. أبو جوني يعرف المثل جيداً ويعرف ما تريده بيروت رغم كل ما فيها من حرب ودمار هي المرأة المدمنة على الشراب، هل تستطيع العيش بلا شراب؟ المعتادة على اللهو والطرب، هل تطيق العيش بلا لهو وطرب؟.. وهكذا، شيئاً فشيئاً باتت "اللوتس" تحتضن الراقصين والراقصات، المطربين والمطربات.
جوقة موسيقية كانت تعزف موسيقى "الواحدة ونص"، فيما كانت راقصة بليدة سمينة العجيزة بارزة البطن ترقص "الواحدة وثلاثة أرباع" فلم يملك يسار إلا أن يضحك، لاكزاً صاحب الحانة في خاصرته:
ـ ألم تجد خيراً من هذه البقرة الهولندية ترقص؟
ـ لم أجد أرخص منها، والحال من بعضه كما تعلم، أجاب أبو جوني وهو يشير إلى الحانة شبه الفارغة، شبه المعتمة.
ـ يا مسترخص اللحم عند المرق تندم!! رد يسار مغنياً بنبرة شبه بدوية شبه حضرية، لكن أبا جوني صب في كأسه شيئاً من حليب السباع ثم مزجه بالماء حاثاً إياه:
ـ اشرب يا سيدي.. اشرب. بعد الكأس الثالثة ستجدها أرشق من غزال. وقهقه يسار.
كان يعلم أن أبا جوني على حق، فما يراه وهو صاحٍ غير ما يراه وهو سكران. رفع يسار كأسه داقاً إياه بكأس باقر، ثم هتف وهو يرشق الرّاقصة بنظرة كالسهم.
ـ في صحة الغزلان!!
رشف باقر شرابه على مهل. هو هكذا!! يحب دائماً أن يبدأ على مهل. الشراب مزاج والمزاج رواق، ثم لم العجلة؟ السهرة في أولها، والليل كله أمامه. عينا باقر تمسحان الحانة: ثمة رواد يتقاطرون مثنى وثلاثاً. الطاولات تتكاثر، ثديا الراقصة يتكاثران، ذراعها تندلقان لحماً... رقبتها تتورم غلظة، "لك الله من غزالة لا تضاهيها ريم الفلاة!!" أنهت الغزالة وصلتها دون أن يصفق لها أحد. لكن أيثبط ذلك من عزيمتها!؟ لا، لا، هي متعودة!! فقد توجهت مرحة فرحة إلى ما وراء الحلبة، كأنما تحملها أمواج التصفيق والهتاف.
ـ اسمع. أنا أكره الصفن فلا تصفن. بدأ يسار مشاكساً وقد غادرهما صاحب الحانة.
ـ ومن قال لك إني أصفن؟
ـ لم لا تتكلم إذن؟
وتبسم باقر. "هو ذا يسار. يكره الصمت. يكره التفكير. يكره الشرود. لكأنه يريد أن يعيش الحاضر لحظة بلحظة، يرشفه حتى الثمالة. فلسفته: بما أننا فقدنا الماضي وليس لنا مستقبل فليكن لنا الحاضر على الأقل".
ـ هه.. عدت للصفن؟ قل شيئاً. تكلم يا رجل.
ـ وماذا أقول؟ يا أهل حلب!! يا أهل اللهو والطرب!!
ـ بل قل يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق!! قاطعه يسار وهو يقهقه، فقد وجد الفرصة السانحة لكي يقهقه. الأضواء الحمراء تبدلت بزرقاء وخضراء والجوقة الموسيقية بدأت استعداداتها لجولة أخرى من العزف، فيما كان فتى أمرد يتقدم من مكبر الصوت.

ـ أهذا مطرب؟ سأل باقر صاحبه.
ـ مطرب ونصف.
ـ أرأيته من قبل؟
ـ مرة واحدة. لكن اطمئن. هو يشق طريقه بهمة وعزم. لحظة توقف، ثم بغمزة ذات مغزى تابع ضاحكاً: بعضهم يحبون الغلمان المخلدين.
ـ خسئت. في بغداد ربما، لكن في البصرة؟ لا، نحن قوم متطهرون متبتلون.
ـ حسبك، باقر، حسبك!! لا بصرة ولا بغداد!! الإنكليز حيثما حلوا أفسدوا!! أم تراهم لم يدخلوا البصرة، أولئك الإنكليز محبو الغلمان المخلدين!!
ـ فوق النخل.. فوق.. يا سليمى!! فوق النخل... فوق.. بدأ الغلام الأمرد بصوت رخيم كأصوات النساء. وللتو انسحب قلب باقر. فيما تحولت كل خلية فيه إلى أذن صاغية.
ـ ما أدري خدك لمع. يا سليمى. ما ادري القمر فوق.
"إيه يا نخيل البصرة!! أما تزال شامخاً باسقاً كعهدي بك!؟ عراجينك الكهرمان تلوح بأيديها للمشتهين والراغبين. لامعة مشرقة كخد سليمى، كالقمر الساطع بدراً في ليلة صيف!! أوه، يا نخيل العراق!! كم يشدني إليك الشوق والحنين!!". وعلى أنغام الموسيقى، شرد باقر يستعيد ذكريات: وهو صبي يلعب مع مهيجة على ضفاف العشار ثم يمضيان أبعد وأبعد حتى بساتين النخيل. يهزان النخلة فلا يسَّاقط عليهما الرطب الشهي. هما صغيران ضعيفان والنخلة كبيرة باسقة. هزهما لا يجدي نفعاً، فيلتقطان ما ذرته الريح والإنسان. أطراف البصرة كلها نخيل. سواد العرق كله نخيل. حسبك أن تخرج من المدينة لتجد نفسك في واحات لا تنتهي من النخيل. ثمر بعضه أحمر، آخر خمري، ثالث أصفر. قوس قزح من الألوان يصنع النخيل، تنظر إلى أعلى، أعلى، فترى عراجينه مدلاة، مصابيح كهرمان، وأنامل صبايا مضمخة بالحناء. إن ينس باقر لا ينسى مهيجة. رفيقة صباه وحبه الأول. كانا قد شبعا تمراً. التامر نفسه كان قد أشفق عليهما فأطعمهما رطباً شهياً حقاً. إلى نخلة باسقة لجأا يتفيأان ظلها. لكنها حواء. لا تكره كالسكون. "تلعب"؟ قالت له "لكننا لعبنا كثيراً". أجابها "بل لعبنا حتى تعبنا"، "أنا لم أتعب"، ردت عليه. هكذا حواء. لا تتعب أبداً من إغواء آدم. لا تكل أبداً من مداورته ومراوغته. "ماذا نلعب؟" سألها سؤال البريء. "لعبة العريس والعروس"، ردت عليه، دون حياء، دون احمرار خدين، ثم أردفت "هي لعبة لذيذة، لا تتعب". "لكن كيف!؟ أنا لا أعرفها!" وعلمته مهيجة. حواء دائماً تعلم آدم. أصغى لها فشرحت له كيف تكون طقوس الزفاف، كيف يقودها من يدها إلى السرير. ثم كيف يكون عريساً ليلة الدخلة. ورغم أنها كانت أصغر منه سناً إلا أن مهيجة كانت تعرف الكثير مما لا يعرفه. أتراها هكذا الأنثى؟ تسبق الذكر وعياً وفطنة؟ باقر لا يدري. لكنه يتذكر كيف علمته، ثم كيف نفذ ما تعلم. بل هو يستعيد ذلك الشعور الذي سرى في أوصاله كلها، وهو ينبطح فوقها، بطناً لبطن وجلداً لجلد تحضنه ذراعاها وتقبله شفتاها ليحس فجأة بدفء غامر، بشيء كالرعشة ينتفض لها جسده، ببحر من النشوة يغرق فيه. "لك الله يا مهيجة. ما كان أروع تلك النشوة!!".
تصفيق حاد قطع عليه رحلة الزمن. قرب أذنه اليمنى كانت راحتا يسار تصفقان وكأنهما تتعمدان لفت سمعه وبصره. كان الفتى الأمرد ينحني للمصفقين ملوحاً بيديه كلتيهما فلم يملك باقر إلا أن يصفق وهو لا يذكر من الأغنية إلا النخيل والخد.
ـ اشرب. اشرب. كأسك ما تزال ملأى. حثه يسار وهو يرفع كأس حليب السباع ثم يدلقه دفعة واحدة في جوفه.
ـ مهلاً يا رجل. نصحه نصح اللائم. أم تريد أن أحملك على كتفي الليلة؟
ـ ستحملني فتاتي. أما أنت فما لي ومالك؟ اذهب إلى الجحيم. وقهقه يسار فرحاً بنفسه وقد بدأت حميا الراح تدغدغ تلافيف دماغه.
ـ وأين فتاتك؟ أنا لا أراها الليلة. رد باقر وهو يتلفت يمنة ويسرة في الحانة خافتة الأضواء. لكن قبل أن يجيبه يسار، ظهرت على الحلبة راقصة كستنائية الشعر بيضاء الوجه كأنما هو معجون بالحليب. ثوب رقصها ينكشف حتى مفترق الفخذين عن لحم أبيض كأنما هو الآخر معجون بالحليب. فيما بدأ صنج نحاسي مرنان يدق تحية الاستقبال، وأصوات هتاف وتصفيق أكف يرتفع من الحانة.

ـ أرأيت؟ صفصف لا تخذلني؟ هتف يسار بصاحبه وهو ما زال يصفق، بعدئذٍ استأنف واقفاً ملء طوله محيياً.
ـ إزايك صفصف؟ يا هلا صفصف.
كورت صفصف قبلة من شفتيها ثم قذفتها باتجاه يسار. ضحك باقر من يسار وهو يحاول أن يتلقى القبلة. بعدئذٍ بدأت الجوقة العزف وبدأت الراقصة الرقص.
ـ يا. يا. يقبرني الحلو. يا. يا يا يسلم لي الغزال، راح يسار يهتف بأغلظ ما يعرف من لهجة حلبية فلم يملك باقر إلا أن يضحكـ يسار يعود للهجته تلك في لحظة من لحظات الانتشاء والفطرة، حيث لا مجال لتزويق أو مجاملة. ولكم يحبه باقر حين يكون في لحظات الانتشاء والفطرة تلك!! يسار يصفق وهو يتابع كل حركة من ردف وهزة من خصر، ثم يحدج أبا جوني هناك في طرف الملهى وكأنما يقول له "هو ذا الرقص. لا بقرتك الهولندية تلك" فيبتسم صاحب الحانة وتبرق عيناه كأنما يرد عليه "هي ذي الحياة. خد وعين". كان يسار مولعاً بالراقصة كستنائية الشعر بيضاء الوجه. وكان لا يقصد بيروت إلا من أجلها. باقر يعرف ذلك، بل يعرف قصتها جيداً. هو رواها له. لكنه لا يذكر منها إلا اللمام: ابنة المنصورة. زوج الأمـ الاغتصاب. الهروب إلى الشارع ومن ثم الضياع.
ـ اسمع. هذه الليلة، لن تذهب بها وتتركني وحدي. اشترط عليه باقر وهما يتابعان رقصها الجميل.
ـ ماذا تريدين إذن؟ رد مكشراً ساخراً. أقضي الليل بصحبتكـ أنت؟
ـ لا أدري. جئنا اثنين نذهب اثنينـ
ـ بل نذهب أربعة، رد يسار وهو يغمز باتجاه فتاة في طريق الحانة الآخر، لم يكن باقر قد رآها من قبل. هي صديقتها وسنذهب معاً. هز باقر رأسه راضياً فيما كانت صفصف تدور على نفسها وقد حمي وطيس الرقص واشتد دق الدف وخشخشة الصنج وهي تلف وتدور، زوبعة صيف مجنونة ثم تفسح ما بين رجليها لتستقر على الأرض. علت موجات التصفيق والهتاف استحساناً للراقصة البارعة وهب يسار ملء طوله إعجاباً وحماسة. أسرعت صفصف بالنهوض. أرسلت قبلها إلى يسار خاصة والجمهور عامة. ثم جرت باتجاه الكواليس قطاة تدرج نحو غدير.
ـ حقاً. نساؤها لعب. قال باقر مشيراً إلى القطاة التي اختفت وراء الغدير.
ـ نساء من؟ تساءل يسار وكأنه لم يفهم.
ـ مصر. رد باقر يتوقع أن يأتيه ذلك السؤال. ألم تسمع عمرو بن العاص ما قاله فيها حين ذهب يفتحها؟
ـ لا، ماذا قال؟
ـ ترابها ذهب ونساؤها لعب ورجالها عبيد لمن غلب.
ـ يا إلهي!! كأس عمرو بن العاص!! هتف يسار وهو يرفع كأسه عالياً ثم يجرع ما فيها دفعة واحدة. ظهرت صفصف من الباب الجانبي بثوب آخر يضاهي ثوب الرقص شفافية وعرياً فعادت الأيدي تحييها، والأفواه تدعوها:
ـ صفصف!! أنت ضيفتي الليلة اعترضها أحدهم ملوحاً بيده.
ـ صفصف إلى هنا!! اعترضها ثانٍ هابا ملء طوله.
ـ بل هنا، قال آخر وقد اقتربت منه فيما امتدت يده تمسك بها ثم تسحبها. رأى يسار الحركة فهب واقفاً.
ـ دعها وشأنها أنت!! صاح بالرجل. نظر باقر فرأى قريباً منه رجلاً منتفخ الوجنات والأوداج يمسك بصفية، فيما هي نفسها تحاول التملص منه.
ـ لماذا؟ أهي زوجتك؟ أختك؟ رد البدين الأكرش وهو ما يزال متشبثاً بها، مقهقهاً أعلى قهقهة.
ـ اخرس أيها الكركدن، صاح يسار وقد قدحت عيناه شرراً. دعها قلت لك، دعها.
ـ وإن لم أدعها، ماذا تفعل؟ قال، فيما كانت الراقصة قد تملصت منه. لكنها لم تبتعد خطوة حتى زعق ملء صوته: قفي مكانك، فيما كانت يمناه تشهر مسدساً وتطلق النار. في اللحظة ذاتها انطلقت زعقة فيما شهر يسار مسدسه وأطلق النار. بعدئذٍ اختلطت طلقات من هنا، طلقات من هناك ثم اختلط الحابل بالنابل. زعقات نساء، صياح رجال، ارتطام كراس، سقوط أجسام وقد غدا العالم كله جلبة وظلاماً.

حين عاد الهدوء إلى الحانة، وجد باقر نفسه وحيداً في عمق أحشائها. هو مذ شهر يسار سلاحه، حاول إيقافه، لكن كان التيسان يتنافسان على معزاة وكلاهما تعتعه السكر فكيف يمنعهما باقر من النطاح؟ مع حلول الظلمة وجد نفسه يندفع بالغريزة بعيداً عن ساحة المعركة. في البداية فكر بالانبطاح مختبئاً تحت الطاولة، لكن الفكرة أزعجته. "أنا الفدائي المغوار، أخاف من معركة سكارى؟" لكنه عاد وأنب نفسه. "وماذا إن جاءتك رصاصة طائشة، ألا تذهب فرق عملة؟" أحس باقر بسخف الوضع كله، بسخف موته إن مات، فأسرع إلى الكواليس. تعثر في الظلمة عدة مرات، سقط عدة مرات، لكنه كان ينهض كل مرة، إلى أن وجد نفسه يلطأ صامتاً ساكناً خلف جدار لا يئز عليه رصاص ولا ترتطم به كراس.

مع اشتعال الأنوار، عرف أنها زاوية المشلح الخلفية، تلفت حوله فلم يجد أحداً. تسلل إلى الحانة من جديد، فلم يجد أحداً أيضاً. كان الكل قد ولوا الأدبار، ففي معركة الخمر خير ما تفعل هو أن تفر. كانت الحانة قد غدت محض خراب. تنين بحري مر بها فاكتسح كل شيء، قالباً مكسراً كل شيء. "ياالله!! ما أفظع الإنسان!! ما أشد وحشيته!!" وبكل ذهول راح باقر يتفحص آثار التنين: طاولات مقلوبة، مشروبات مندلقة، أطعمة متناثرة، كؤوساً متشظية، ثم لم يستطع إلا أن يحزن.

ـ كله من صاحبك، ذلك اليسار الزفت. جاء صوت أبي جوني وقد ظهر من طرف الحانة القصي، مشعث الشعر، مصفر الوجه، دامع العينين. خرب بيتي!! خرب بيتي!! ثم مضى يردد العبارة إلى أن وصل إلى باقر، تسبقه شهقات كشهقات النساء.

ـ طوِّل بالك أبا جوني. بسيطة أبا جوني. حاول باقر أن يهدئه. لكن صاحب الحانة استمر ينشج ويعول.

ـ بسيطة!! أطول بالي، كيف، وحانتي خربت؟ بيتي انهدم. ظهري انكسر. الله يخرب بيتك يا يسار!! الله يخرب بيتك!! عاد للترداد ناظراً إلي حيث كان يجلس وكأنه يخاطبه. أدرك باقر أن مصاب الرجل أكبر من أن يستطيع تهدئته فغمغم بشيء من مواساة، واضعاً بضع أوراق نقدية في يد الرجل المنكوب ثم أسرع خارجاً لا يلوي على شيء.

شارع الحمراء مقفر إلا من كلب ضال أو قطة جائعة تبحث في أكياس القمامة عن طعام. "إيه!! سقى الله أيامك يا شارع الحمراء!! يوم كنت تصل الليل بالنهار فلا تنام أبداً!!" راح باقر يسير الهوينى وهو يقلب نظره بين يمين الشارع ويساره. كانت آثار الرصاص وشظايا القنابل ما تزال تشم جدران الأبنية. وكانت دوريات الجند اللبنانية السورية تعبر الشارع بين الفينة والفينة، ترصد وفوهات بنادقها مشرعة، ترصد وحراب بنادقها لامعة. "أين الناس؟ الساعة ما تزال الواحدة لكن لا أحد".

خمس عشرة سنة من الحرب كانت قد علمت الناس ألا يخرجوا إلى الشوارع في الليل فمأمن الإنسان مسكنه. في الخارج يكمن الخطر، تلطأ المخبآت ولا يدري المرء متى ترفع رأسها من مكمنها إحدى تلك المخبآت. "يسار نفسه أين؟ صفصف؟ رواد الحانة!! بهذه السرعة افرنقعوا؟ ذرات ملح ذابت" ولم يستطع باقر منع شعور بالخيبة من التسلل إلى نفسه. "سنذهب نحن الأربعة" كان يسار قد قال له، لكن هاهو ذا يذهب وحيداً مفرداً كنصل السيف، بارداً مقشعر الجلد رغم حرارة آب وبحر بيروت القريب، وهو يرقد ساكناً دافئاً قطاً أليفاً بجانب موقد. "المنحوس منحوس ولو ركبوا على رأسه فانوس"، ولم يملك باقر إلا أن يبتسم.

كانت الليلة قد بدأت ميسرة طيبة وكان الوعد بأن يذهبوا هم الأربعة قد أرخى جملة أعصابه. هو بحاجة إلى المرأة، كل ما فيه متوتر مشدود كأوتار ربابة في ليل كانوني، ولا ترخي الأوتار إلا الشمس والدفء. "أكان على ذلك الكركدن أن يعترض طريق صفصف؟ بيده حق يسار. تحرش مباشر وتعد فاضح، فكيف يقبل به يسار؟ بل كيف أرضى أنا نفسي به؟" صفية صديقة صديقه، بل هي، بشكل من الأشكال صديقته أيضاً ومن الواجب على الصديق أن يهب لنجدة صديقه. يسار لم يخطئ في وصف ذلك الأكرش البدين ذي العنق الغليظ بالكركدن. هو كركدن حقاً. أضاع فرصة من فرص العمر. ربما لولاه لكان الآن في أحضان سوسو أو لولو. هو لا يعرف اسمها، صديقة صفصف تلك. لكنها امرأة على أية حال، وهو يموت شوقاً للمرأة. ثلاثة وأربعون يوماً كانت قد مرت عليه مذ التقى بآخر امرأة، والرجل خلق للمرأة. حاجته هي الأشد لها، لكنه النحس يقف دائماً بالمرصاد. ثلاث مرات حاول الخروج من المعسكر خلال الأيام الثلاثة والأربعين

تلك، لكنه لم يستطع. ثمة دائماً قصف إسرائيلي، استنفار، استطلاع، وفكرة قلعة الشقيف التي تمكنت منه وقد سمع حكاية الممر. أراد أن يتعرف بنفسه إلى المنطقة، أن يذهب إلى النهر، يتسلق سفح القلعة، لكنه لم يستطع الاقتراب. وحده، كانت مجازفة والمجازفة خطر، وهو لا يريد أن يعرض نفسه للخطر. ثمة مهمة، ومهمة رائعة إن استطاع تنفيذها ضرب ضربة العمر. طوال سبعة أيام ظل في الهضاب وبين الوديان هناك. عبر أحراش جزين وبساتين مرج عيون، التقى بمقاتلين، تعرف إلى سكان قرى طيبين. سأل، استطلع ونصب عينيه هدف واحد: أن يغير على قلعة الشقيف. لكن هاهي الأوامر العليا تأتي بإيقاف الغارات، بمنع العمليات. وهاهي ذي الكارثة تكتمل بمقتل شوقي. رفيق الدرب والفداء. شارداً كان باقر يمشي، دونما وجهة، دونما هدف. "لكأنني واحد من كلاب الشارع الضالة أو قططه الشاردة".

كانت تجربته مع التشرد طويلة، بل هي أطول مما يتذكر. صور كثيرة مرت في ذهنه وهو في بغداد، دمشق، عمان، موسكو، صوفيا، تضج كلها بالتشرد. وحدها البصرة كانت مختلفة. باقر يتذكر جيداً ذلك الشعور. "البصرة لي وأنا لها عاشق ومعشوق، ساكن ومسكون". هو يتذكر كيف كان يسير على أرصفتها بمتعة لا تفوقها متعة، ضربه في طرقها، تنزهه في جنانها لا علاقة له بالتشرد. لكأن كل شارع فيها، كل ذرة تراب، كل قطرة ماء، كل نخلة له هو وحده. "آه!! لك الله يا مسقط الرأس ومرتع الصبا!! وحدك تعطينا الشعور بالأمان!!".

هو مذ غادر البصرة تملكه شعور التشرد والشتات. وحيثما ذهب لم يجد إلا المشردين المشتتين. بعضهم مثله، بعضهم أشد سوءاً، بعضهم اقل، لكن شعوراً واحداً كان يجمعهم: التشرد والشتات، وكان باقر لا يفتأ يشفق على نفسه وعليهم!! "مشردون، أبداً، مشتتون". المشرد يسير في شارع الحمراء وحيداً مفرداً كعهده، مذ غادر البصرة. يسار خذله، صفية خذلته، العالم كله خذله. هو ضائع بارد، ذرة ثلج في مهب ريح.

"أين أذهب؟" تساءل بصوت عالٍ وكأنما يود أن تسمعه النوافذ، الأبواب، الجدران، فيجيبه أحدها، لكن أحداً لم يجبه. كانت بيروت ساكنةً جمراً تحت رماد، وكانت بيوتها متكومة على نفسها منطوية، تكره الغرباء، وباقر غريب مشرد لا أهل ولا سكن، فأين يذهب؟

ـ من الطارق؟ جاءه صوت أجش خرج لتوه من بحر النوم.

ـ أنا باقر. افتح همام. رد الطارق وقد كلَّ من قرع الجرس وطرق الباب، فهمام وحيد ونومه ثقيل. باقر يعرفه، لكنه مضطر وللضرورات أحكام. بيت همام هو الأقرب ومفرشه الأطيب، فتوجه إليه يقرع الجرس حتى كاد يقنط. في تلك اللحظة فقط رد همام.

ـ باقر، اللعنة!! أتعرف كم الساعة الآن!؟ قال وهو يفتح الباب.

ـ تباً لك وللساعة!؟ رد باقر بنبرة عاتبة مازحة. منذ متى كنت تهتم بالساعة؟

ـ مذ حلت عليك اللعنة وصرت كلباً ضالاً!! رد، وقد صارا كلاهما داخل المنزل وأغلق همام الباب، أجفانه تطرف في محاولة لاتقاء النور الباهر بعد الظلمة وخفاه يسحنان البلاط وهو يجر قدميه جراً.

ـ أتسبني يـ... بدأ باقر لاكزاً إياه.

ـ وكيف يهنأ لي عيش إن لم أسبك وأشتمك؟ قاطعه همام مازحاً، ملعون الوالدين!! كيف تأتيني في مثل هذا الوقت؟

ـ ويحك!! عربي قح من الحجاز بل من مدينة رسول الله ذاتها وتنهر الأضياف!؟ لا، لقد أفسدتك بيروت. ها أنذا عائد. رد باقر بمزيج من المزاح والجد، وهو يدور على عقبيه مهدداً بالعودة من حيث أتى. تركه همام يسير بضع خطوات، بل تركه يمد يده إلى مقبض الباب ثم بوثبة هر صار بينه وبين الباب. قبلة على هذا الخد ثم قبلة على ذاك وعاد الصديقان إلى غرفة الضيوف.

ـ يا مرحبا!! يا مرحبا!! راح لسانه يلهج بترحيب متواصل، حاتماً طائياً يستقبل ضيفاً. باقر في بيتنا. يا مرحبا!! يا مرحبا!! اطفوا نور الكهربا!!،.

ـ تعلم؟ لست حلواً إلا هكذا. قال باقر وهو يجلس على أقرب ديوان في غرفة القعود.

ـ أكيد. لكن أنت تنسى دائماً أنك في بيروت، وأنها ما تزال تضمد جراحها. أية حركة تنكأ جراحها تلك. أية رصاصة تنخلع لها القلوب. أية رنة جرس في مثل هذا الليل تجعلك

ترتجف. ولم يتابعه باقر. كان قد عاد قليلاً إلى الوراء والكركدن يطلق رصاصته الأولى ليرد عليه يسار فيتحول الناس جميعاً إلى إوز مذعور يلوذ بالطيران. بعضهم طار من الباب الأمامي. بعضهم من الباب الخلفي... الشبابيك.. الكوى... بل من يعلم كيف طاروا وقد اختلط الحابل بالنابل ولف الظلام كل شيء!!

ـ هه. ماذا؟ أنا أتكلم مع أبي الهول؟ سأله همام لاكزاً إياه على حين غرة، فأجفل مرتداً إلى الوراء حصاناً شم رائحة ضبع.

ـ حقك علي، بدأ باقر اعتذاره وقد أحس بآثار رعب تلون صوت صديقه وعينيه. كنت على مقربة من هنا وحسبت أنك ما تزال مستيقظاً.

ـ مستيقظ!؟ هكذا، وأنا وحدي بلا زوج؟ بلا صديقة؟ بلا تلفزيون؟ أم تحسب أن الكهرباء تأتينا أربعة وعشرين ساعة في الأربع والعشرين ساعة؟

ـ لا تؤاخذني. رد باقر هازاً رأسه ساخراً. ظننت أن ثرياً مثلك يملك كل وسائل الترفيه. بل ربما لديه محطة كهربائية لحسابه.

ـ هذا لو كنت ثرياً، لكنك تعلم أنني لست كذلك. وشرد باقر إلى البعيد. همام، مذ تعرف إليه قبل سنوات أربع، لم يتغير ولم يتبدل. "أنا مشرد مشتت مسلوب منهوب" كان يقول دائماً. "لا يملك إلا غربته وضياعه حتى هويته أضاعها، حتى انتماؤه قضى نحبه، لم لا والانتماء يكون لوطن، لأرض وأنا بلا وطن أو أرض؟"

"ذلك صحيح": كان باقر يثني على كلامه. لكن من تراه يسمع الصحيح؟ من يبحث عن الحقيقة، والحقائق تضيع تحت سنابك الباطل والزور؟ همام متمسك بالحقيقة رافض للباطل، ولأنه كذلك غادر مدينة رسول الله دون أن يدري إلى أين. كان همه كله أن يرحل. "لم أعد أستطيع التحمل. كل ما أراه شوك يخز عيني" ورحل إلى عمان، لكن عمان قريبة، آفاقها محدودة وهو يريد الطيران، التحليق عالياً في سماء لا تطوله بها يد، فعاد يشد الرحال: إلى صنعاء فالقاهرة، ثم طرابلس فالجزائر ليحط رحاله أخيراً في بيروت قبل أن تكتسح الحرب الأهلية بيروت.

ـ هه، متعش أم تريد أن تتعشى؟ سأله همام بعد أن تفحصه ملياً.

ـ أكان حاتم الطائي يسأل ضيفه سؤالاً كهذا؟ رد باقر ضاحكاً.

ـ إذن اسمح لي أن أذهب فأذبح لك فرسي، قال وهو ينهض بكل مظاهر الجلد والادعاء، لكن يد باقر امتدت فأمسكته.

ـ اجلس. اجلس. أنا أكره لحم الخيل. لو كان لديك لحم غزال أو مهاة لأكلت. لكن....

ـ آسف يا ضيفي العزيز. لم اذهب اليوم للصيد.

ـ إذن، أنا فقط أريد أن أنام.

ـ تنام؟ حسبتك قلقاً تشغلك الأزمة ولا تستطيع النوم.

ـ أزمة؟ أية أزمة؟

تفحصه همام ثم بدأ هازاً رأسه:

ـ أبله!! أنت مجرد أبله!!

ـ لماذا؟ ماذا هناك؟

ـ النار تشتعل في الخليج وأنت تسأل ماذا هناك؟

ـ أنت تمزح؟ نار الخليج انطفأت منذ عامين. إيران لم تصنع من العراق جمهورية إسلامية تابعة لها والعراق لم يحرر عربستان فعاد كل إلى موقعه، لا غالب ولا مغلوب.

ـ لا، لا، أنا أتكلم عن الأزمة الجديدة بين الكويت والعراق!! قال همام، ومسحة من تعجب ما تزال على وجهه.

ـ آ! أزمة النفط تقصد؟ طبعاً، هذه سمعت بها، لكن ما هي إلا فقاعات صابون، سرعان ما تتلاشى، قال باقر باستخفاف شديد.

ـ لا، هذه المرة أظنك على خطأ.

ـ على خطأ؟ رد وهو يهز رأسه، يا رجل، أنت تعلم أن العراق حتى اليوم لم يعترف رسمياً بحدود الكويت ولا أقام علاقات دولة لدولة معها. فكيف تعطي بالاً لأخذ ورد بين الدولتين؟

ـ هذه المرة، للأخذ والرد نبرة أخرى.

ـ كيف؟

ـ العراق يطالب بأشياء وأشياء، والكويت تسوف وتماطل.

ـ أعلم. أعلم. قاطعه باقر بشيء من غيظ. صدام يريد رفع الأسعار، والكويت تغرق السوق بالنفط كي ينخفض سعره. قالوا لهم لماذا؟ قال الكويتيون: هكذا.
ـ لكن أضف إلى معلوماتك أن أمريكا وراء ذلك كله. هي تريد تعبئة خزاناتها النفطية بأبخس الأسعار، والكويت لا تستطيع أن ترد لها طلباً. تابع ومتبوع، وهل للتابع أن يعترض على ما يأمره به متبوعه؟
ـ ولماذا لا نقول: وراء ذلك كله صدام: هو يريد افتعال مشكلة؟
ـ كيف، وثمة ديون: مليارات من الدولارات؟ الكويت تريدها والعراق يطالب بإعفائه منها.
ـ ولماذا يعفى؟ ليدفع صدام ديونه؟
ـ كيف وهو يقول: "أنا البوابة الشرقية للوطن، أنا الحارس الذي يدافع عنكم؟ أنتم أخوتي. مدوا لي يد العون"، لكن الكويت لا تأبى مد يد العون وحسب، بل تأبى حتى إعفاءه من الديون.
ـ هي على حق طبعاً. على صدام أن يدفع. الدين دين فلماذا المماطلة؟
ـ وجزيرتا دربة وبوبيان. لماذا لا تؤجرهما الكويت للعراق منفذاً بحرياً وقد ضاقت به المنافذ؟
ولم يحر باقر جواباً. كان يعلم أن بريطانيا هي التي رسمت تلك الحدود وضيقت تلك المنافذ. برسي كوكس قطع أوصال العراق على هواه. بسكين شايلوك اقتطع اللحم العراقي وهو يظن أنه الحاكم بأمره، لا راد له ولا معترض، غير واضع في حسبانه أن الملك غازي سيأتي، عبد الكريم قاسم سيأتي، صدام حسين من بطن الغيب سيأتي وكلهم سيطالبون باللحم الذي اقتطع، باسترداد الأوصال التي مزقت.
ـ هه، مالك سكت؟ سد همام الثغرة وقد رأى صاحبه يصمت، ثم ما قولك بالحقل الذي يسرق نفطه الكويت؟ بالتحركات الأمريكية البريطانية في مياه الخليج؟ بالتحرشات على الحدود، ألا ينذر هذا كله بالخطر؟
ـ ينذر؟ لا ينذر؟ أنا أعلم أن أس البلاء كله صدام، هو يبحث بالسراج والفتيل عن مشكلة يفتعلها، أزمة يختلقها.
ـ أنت حاقد. تكره النظام العراقي.
ـ أكرهه فقط؟ قل أريد تمزيقه إرباً... إرباً. قل لو أستطيع أكل صدام حسين بأسناني لفعلت.
ـ مع ذلك، يجب ألا يعميك الحقد عن رؤية الحقيقة.
ـ أية حقيقة؟
ـ هناك مؤامرة تدبر على العراق، محاولة لتوريطه وقد كانت واضحة في لقاء جدة اليوم.
ـ لقاء جدة!!؟ حقاً؟ ماذا جرى في ذلك اللقاء؟ سأل باقر بفضول مفاجئ وهو يلعن الساعة التي ذهب فيها إلى الحانة.
ـ النائب طالب وزير خارجية الكويت بمبلغ من المال مساعدة.. ديناً. أي شيء. فهل تعلم بما أجابه؟
ـ لا، قل، أسرع!!
ـ لا مال، لا مساعدات، واذهبوا بلطوا البحر.
ـ يستاهل، رد باقر فرحاً شامتاً. صدام يستاهل. يريد أن يبتز الناس. أنا أعرفه. دكتاتور متسلط، يجد نفسه قوياً فيفرض "خوّة" على الضعفاء، ينهب أموالهم.
ـ لماذا لا تقول إنها الحاجة فعلاً؟ قاطعه همام بنبرة احتجاج واضحة. العراق خارج من حرب وهو بأمس الحاجة للمال، فلماذا لا يساعده إخوانه العرب؟
ـ يساعدونه بالقوة؟ رد باقر ساخراً، يساعدونه رغماً عن أنوفهم؟ لماذا؟ لكي يقوى النظام!! لكي يرسخ صدام قدميه.
ـ صدام!! صدام!! فلقتني بصدام!! قاطعه همام بكثير من الحدة. أتدري بمن تذكرني؟
ـ لا.
ـ بإيدن، رئيس وزراء بريطانية، يوم أزمة السويس. أتدري ما كان خطابه للعالم؟
ـ لا، لم أكن واعياً يومذاك.
ـ كان يقول: معركتنا ليست مع مصر وليست إطلاقاً مع العرب بل هي مع الكولونيل ناصر. تصور. يختزل الأمة كلها بعبد الناصر، وهكذا أنت تختزل العراق كله بصدام، تلغي شعباً بكامله من أجل فرد؟

ـ لكن، ناصر شيء وصدام شيء آخر. هذا هو الذي ألغى الشعب. هو الذي اختزل العراق. جعله ملكه وحده.
ـ أنت متجنٍ. باقر. العراق أكبر من أن يختزل ـ العراق ملك لكل عراقي بل لكل عربي، فلماذا نتأثرً بدعاية الاستعمار السوداء؟
ـ هه! لا ينقصك إلا أن تقول أننا عملاء للاستعمار؟
ـ لا، ينقصني أن أقول أننا بحاجة لمراجعة حساباتنا دائماً، للأخذ بالمتغيرات المستجدة دائماً، فلا نتحجر على موقف ولا نتجمد.
ـ وأصفق لصدام وأهتف بحياته؟ رد باقر ساخراً سخرية المرارة.
ـ بل تعود إلى العراق وتناضل من داخل.
ـ سأعود. أجل، سأعود إلى العراق لكن بعد أن يتحرر من صدام، ونهض باقر مشيراً بيده إشارة القطع.
ـ أين؟
ـ أريد أن أنام، أم انسحب حاتم الطائي فلم يعد يريد استضافتي؟
ـ بل، على الرحب والسعة. اذهب فنم، ومضى في اتجاه الغرفة الأخرى مترنماً: "ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوم"، لكن دون أن يثير شهية باقر لمزيد من النقاش، هو الذي كان كل ما يشتهيه أن يضع رأسه على الوسادة ويغرق في سبات عميق.
***
الفصل الثاني
ـ باقر. باقر. انهض. جاءه صوت بعيد ربما من الشاطئ الآخر للبحر، لكنه عاد يتكرر بإلحاح لم يملك معه إلا أن يفتح عينيه مغمغماً:
ـ ما... ماذا همام؟
ـ انهض ـ جماعتك احتلوا الكويت.
ـ احتلوا الكويت!؟ جماعتي؟ ماذا تقصد؟
ـ العراقيون دخلوا الكويت، أجابه وهو يشير إلى المذياع.
ـ يا إلهي!! معقول!! صاح باقر هذه المرة. وهو يهب ملء طوله: دخلوا الكويت!! ماذا قلت؟ ضموا الكويت!!؟ ثم أمسك بهمام من كتفيه وهو يثب إلى الأعلى والأسفل، طفلاً يطير فرحاً.
ـ الوثبة نفسها وثبها أبي، والفرح نفسه طغى على أبي، قال باقر رداً على استفسار همام واستغرابه.
ـ حقاً؟ كيف؟ سأل همام. وقد فاجأه فرح باقر باحتلال العراق للكويت، هو الذي يكره النظام في العراق حتى الموت.
ـ ما أزال أذكر جيداً تلك اللحظة: لكأني أعيشها الآن.
ـ أية لحظة؟ سأل همام وقد أثير فضوله أكثر فأكثر.
ـ حين لعلع صوت جارنا فجأة وهو ينادي: أبا جبار! أبا جبار! الزعيم ضم الكويت. ثم أتبعها بصرخة فرح عالية: ضم الكويت!! وللتو رأيت والدي يلقي بكل شيء من يده ويثب. فرحاً فرح الأطفال هاتفاً ملء صوته: "حياك الله يا زعيم! حياك الله يا كريم! أعدت الأرض لأصحابها". لم أكن في تلك اللحظة أعي جيداً ما يعني ضم الكويت ولا أعادتها لأصحابها. لكنني كنت أعلم أن الزعيم هو عبد الكريم قاسم، الرجل الذي بات أبي يحبه كثيراً بعد أن ألغى الملكية، وأعلن الجمهورية. قضى على نوري السعيد وطرد الإنكليز، فلم تبق بعده لا قواعد جوية ولا بحرية لاستعمار بغيض جثم طويلاً على صدر العراق.
ـ التاريخ يعيد نفسه، تعني؟
ـ صحيح، ربما هذا صحيح همام.
وعاد باقر بذاكرته إلى تلك الأيام. حينذاك كان في الحادية عشرة من عمره يساعد أباه في دكانه هناك، حيث سوق "التنكجية" والطرق والدق ينصب عليك من كل حدب وصوب. باقر يذكر جيداً تلك السوق، يتذكر سوق النحاسين القريبة، والضجيج الذي يصم الآذان. مع ذلك كان عليه أن يساعد أباه كلما خرج من المدرسة. أبوه "تنكجي" بارع، وعليه هو أن يتعلم صنعة أبيه فالصنعة في اليد أمان من الفقر. أبوه يصنع المزاريب، المواقد، المدافئ، الصاجات التي يخبز عليها البدو الرحل. أصله من العمارة. ترك مسقط رأسه وغادر إلى البصرة. أحدهم قال له "هناك المدينة أكبر وباب رزقها أوسع"

لكن سرعان ما خاب فأله. فالبصرة أخت العمارة وباب الرزق كان يضيق حتى ليصبح كخرم الإبرة أحياناً فكيف تعبر أسرة من سبعة أفواه خرم الإبرة؟
مع ذلك كانوا يعرفون أن الأب يعمل. الأبناء يساعدونه وما يبيعون به من نقود يأخذونه للتو إلى الأم تشتري به طعام ذلك النهار. جيرانهم كلهم مثلهم من اليد إلى الفم. يعملون ليل نهار، كي يوفروا لقمة العيش. لكن فجأة لمع أمل. قامت ثورة تموز. رقص الناس فرحاً. هزجوا لأحلام العدالة والمساواة. صفقوا للحرية وتوزيع الثروات، ثم جاءت الفرحة الكبرى: ضم الكويت. وثب الأب فرحاً. رقص السوق كله. هزجت بغداد ورقص العراق. لكن سرعان ما هاجت بريطانيا وماجت، أرسلت البوارج وحركت الطائرات. ألبت العرب وحرضت الغرب، أقامت الدنيا على رأس عبد الكريم قاسم ولم تقعدها إلى أن اضطر إلى التراجع وألغى إعلان الضم. "لكن ماذا يا ترى عن إعلان التحرير؟ هذه المرة الأمر مختلف"ـ يفكر باقر، فصدام حسين لم ينتظر رد فعل بريطانيا ولم يحسب حساب بوارجها وطائراتها، بل أرسل في غفلة من بريطانيا، أمريكا، العالم كله، مدرعات كمدرعات غادريان لا يقف في وجهها حاجز، حرك مصفحات وسيارات تسابق الريح، من البحر أرسل السفن الحربية والزوارق الطوربيدية، من الجو بعث الطيران، وفي غمضة عين كان كل شيء قد انتهى. "المفاجأة نصف النصر"، هكذا تقول القاعدة العسكرية، لكن في عملية الانقضاض على الكويت، كانت المفاجأة كل النصر، فالذعر الذي انتشر في القصر، الرصاص الذي انطلق على حين غرة كان قد أهلك سعيداً، فلماذا لا ينجو سعد؟ عشرات السيارات الفارهة انطلقت من القصور الأميرية صواريخ عابرة للقارات، تريد فقط أن تعبر الحدود إلى نجد، حيث الأمن والأمان. الحياة غالية، أغلى من أن يقدرها جند أجلاف يلجون القصر الفخم المهيب ببساطيرهم القذرة، وأسلحتهم التي تتقن زرع الموت وحرابهم المشرعة التي تتعطش لولوج الأحشاء، فلا يميزون بين أمير وحقير، غني وفقير. هو غال ثمنه باهظ. في السوق العالمية يساوي آلاف ملايين البراميل من النفط، وهل يستطيع جندي جاهل أن يحسب ما تساويه آلاف ملايين البراميل تلك؟ حليفه لن يخذله. حلف قديم قدم الدهر يجمع بينهما. مذ انهزم أمير نجد أمام إبراهيم باشا القادم من مصر لم يجد أمامه ملاذاً سوى شيخ القبيلة البعيدة على شاطئ الخليج. ومذ ذبح شيخ القبيلة أخويه ذبح النعاج، لم يجد غير حليفه في نجد من يدافع عن فعلته الشنعاء وينافح عنه. ثمة حلفاء آخرون سيهبون لنجدته، حلفاء كثر أقوياء. المهم أن ينجو . "أسرع. أسرع. بل امض بأقصى سرعة" ومضى السائق بأقصى سرعة يحلق به سرب كبير من السائقين الآخرين قبل أن يدرك جند بغداد أن الطيور أطلقت أجنحتها للريح.
همام مذهول. مذ سمع الخبر ذلك الصباح وهو أشبه بلوحة للذهول: فم فاغر وعينان مفتوحتان على سعتهما ولسان يتلجج بما يقول وكأنه غير مصدق. أسرعا حينذاك إلى المذياع يبحثان فيه يميناً شمالاً عن محطات تتحدث عن الخبر. وأية محطة لا تتحدث؟ الحدث جلل. هز العالم، أصابه كله بالذهول وهو من شرقه... إلى غربه، من عربه إلى عجمه مذهول. "أية سرعة! أية سرية! أية مفاجأة!" كان الكل يقولون وكانوا يتابعون: "الحرب الصاعقة، تكتيك رومل، مفاجأة الخصم، هي ذي الأسس التي انطلقت منها عملية الكويت!!" همام حزين فقط لأن الطريدة أفلتت.
ـ آه!! لو أمسكوا به فقط، قال وهو يتنهد. إذن لكان درساً هائلاً، عبرة عظيمة يرتجف لها حلفاؤه أنفسهم، أولئك الذين يحسبون أنفسهم أنصاف آلهة، يحتقرون الشعب، يدوسون رقاب الرعية وينهبون ثروات الوطن. آه!! لو يتابع طريقه فيلحق بهم إلى هناك يسحقهم هم وحلفاءهم، فلا يترك من العائلتين صافر نار!؟
ـ يحتل نجداً أيضاً؟ سأل باقر وهو يلوك الفكرة الجديدة ولا يستطيع بلعها.
ـ ولم لا؟ إن كان حزب البعث يريد وحده العرب فماذا يفعل؟
ـ ماذا يفعل؟ يسلك طريق القوة؟ رد باقر وقد تشنج فجأة، حزب البعث الفكر القومي، الوحدة العربية كلها كانت تصيبه بالتشنج. تاريخ طويل من العداء والكراهية لذلك الحزب وأفكاره كان يحمله باقر. فقد نشأ أممياً يكره كل ما هو قومي، ترعرع على الصدام مع القوميين، العراك معهم، رفض أفكارهم فكيف يقبل بها الآن؟
ـ أتقول لي؟ رد همام بكل اندفاع، بسمارك كيف وحد ألمانيا؟ غاريبالدي كيف جمع شتات إيطاليا؟ بل إبراهيم لنكولن، كيف أعاد اللحمة لأمريكا يوم أراد الجنوب الانفصال؟

أبالهمس واللمس؟ بالغزل والملاطفة؟ أم بحد السيف ورصاص البنادق؟ ورغم أن الحجة مفحمة، وما يقوله التاريخ من دروس وعبر صحيح إلا أن لسانه أبى إلا أن يحتج.
ـ لا، لا، إن أفلح صدام في ضم الكويت ماذا يخلصنا منه حينذاك؟
ـ ولماذا نتخلص منه؟ إن قضى على كل هذه الكيانات المصطنعة، ألا يكون قد حقق الحلم الكبير الذي يحلم به كل عربي؟
ـ لكن أنا أكرهه. نظام بغداد أكرهه ـ حاكم بغداد أحقد عليه حقداً لو أتيح لي أن أمسك به لأكلت كبده.
ـ تصبح هنداً أخرى إذن!؟ سأل همام ضاحكاً.
ـ أجل، أصبح آكل أكباد كامرأة أبي سفيان، ولا أقبل شيئاً يفعله.
ـ لكن قبل قليل فقط كنت فرحاً؟ وثبت كالقط حين سمعت باستعادة الكويت؟
وأرتج على باقر. رد فعله الغريزي كان الفرح الشديد، شأنه شأن أبيه قبل ثلاثين عاماً. لكن ما إن طرح همام أفكاره حتى تملكه شيء من خوف. الإذاعات بعد ذلك زادت من ذلك الخوف. فبريطانيا التي هاجت وماجت تلك المرة، عادت فهاجت وماجت هذه المرة أيضاً. "لقد رسمنا حدوداً كي تبقى، وأقمنا دولاً كي تدوم". راحت مارغريت تاتشر تصرخ وإذاعاتها تهدد وتتوعد. "الكويت في حمايتنا، فمن يتجرأ على انتهاك ما نحميه؟" مع صوت بريطانيا لعلع صوت أمريكا، قطب العالم الأوحد، والاتحاد السوفييتي يحتضر ـ غورباتشوف كان قد قاده إلى فراش الموت. هيبته، نفوذه، قواه، كلها كان قد وضعها غورباتشوف في سلة البرسترويكا وألقاها في نهر الفولغا دون أن يعلم أحد أين ستستقر؟
باقر يسمع الإذاعة، يشاهد التلفزيون، يتتبع الأخبار يوماً بيوم وساعة بساعة، ويوقن يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة أن الأمر أخطر بكثير مما تصور. في بيروت، في المعسكر، هو لا يفتأ يلاحق نشرات الأخبار، يتتبع التطورات، فالعالم الذي أصيب بالذهول حين جاءه الخبر الصاعق، بدأ يفيق من ذهوله. أغلق فمه، وضيّق حدقتي عينيه وهو يصغي إلى السيدة الحديدية في لندن وهي تزمجر وتزأر. "اليد التي امتدت إلى الكويت سنقطعها". "قوانين الأمم المتحدة تقتضي من كل دولة احترام سيادة الدولة الأخرى وعدم الاعتداء على أراضيها". "لكن هل استعادة العراق للكويت عدوان واعتداء؟" باقر يتساءل ويتذكر حزب البعث وأهدافه في تحقيق الوحدة العربية من المحيط إلى الخليج. ترى إن فعل ذلك ما عساها تفعل الأمم المتحدة؟
(السؤال قديم، كثيراً ما كنا نتجادل حوله وأنا في البصرة، في العمارة، في بغداد، السؤال قديم مثلما الصراع بيننا وبين ذلك الحزب قديم. لم يكن في الشوارع، في المدارس، في المعامل فحسب، بل في البيوت أيضاً. ابن عمي محسن كان ينتسب لذلك الحزب، وكان شديد الإيمان بمبادئه، شديد التعلق بأفكاره محسن شاب جميل، يقرأ ويطالع، يزورنا دائماً ونزوره. أو بالأحرى لم تكن تمر مناسبة إلا ونذهب إلى العمارة، إلى أهلنا هناك أو يأتون هم إلينا. أذكر، مذ كنا صغاراً، كنا في العيد نذهب أنا ومحسن إلى أقربائنا الآخرين، ندور عليهم بيتاً بيتاً نعايدهم ونأخذ العيدية فلوساً صفراء رنانة نجمعها بفرح شديد ثم نمضي إلى المراجيح نلعب حتى غروب الشمس. وكان ذلك يشد الروابط بيننا، حتى غدونا صديقين حميمين أحبه أشد الحب ويحبني أشد الحب. لكن حين كبرنا وجدنا أنفسنا وكل منا في خندق. وهو في الخندق القومي وأنا في الخندق الأممي ـ أبي، أخي الكبير، بل بيتنا كله في الخندق نفسه، لكنني لم أستطع يوماً إلا أن أحب أبا الإحسان كما كنت أسميه. الله كم كنا نتجادل!! ـ "أفكاركم طوباوية! لن يرضى الغرب بتحقيق فكرة واحدة منها. لن ترضى بريطانيا أبداً بإقامة وحدة عربية". كنت أقول له فيهز رأسه "وهل تحسبنا سنأخذ إذناً من بريطانيا!؟ بالطبع. هي لن ترضى، أليس برسي كوكس هو الذي قسم الخليج إمارات ومشيخات!! أليس بلفور هو الذي أعطى فلسطين لليهود؟ سايكس هو الذي قسم بلاد الشام؟ أجل هي عدوتنا اللدود وهي عدوة وحدتنا، فكيف ترضى أن نصنع أية وحدة؟ نحن سنقاتل من أجل هذه الوحدة. باللين بالقوة سنصنع الوحدة لأننا نؤمن أن لا خلاص لهذه الأمة إلا بوحدتها" ـ كان محسن بارعاً في النقاش وكان يفحمني حيناً وأفحمه حيناً آخر لكن ذلك كله لم يفسد للود قضية بيننا. ربما هو الدم. ربما هي صداقة الطفولة والصبا، وربما هو ارتباطه بفاطمة، أختي التي أحببت أكثر من كل من في العالم. لقد أحب كلاهما الآخر، ورغم معارضتي لزواج

الأقارب وكرهي لتلك العادة البغيضة، لم يسعني إلا أن أوافق وقد تعلق كل منهما بالآخر إلى درجة بدا فك ارتباطهما من المحال!!
كان محسن قد ذهب إلى الكلية الحربية وكان قد غدا ضابطاً بنجمة ذهبية لامعة حين بنى بفاطمة وذهب إلى بغداد. محسن تنقل وتحرك، وحدته العسكرية كانت تكلف بالمهمات الصعبة بل أيام الحرب مع إيران. خاض محسن، كما روى لي القادمون من البصرة، معارك طاحنة. جرح في بعضها ونال أوسمة على بعضها الآخر، كما حصل رتباً إلى أن صار مقدماً في الحرس الجمهوري. تصوروا ابن عمي يحرس عدوي!! مع ذلك لم يكن باستطاعتي أن أكرهه، هو ابن عمي وزوج أختي فاطمة التي أحبها اكثر من كل شيء في العالم، فكيف أنت اليوم يا فاطمة؟).
***
فاطمة فرحة سعيدة إلى درجة النشوة، بل العراق كله فرح سعيد إلى درجة النشوة. لقد عادت الكويت إلى الوطن الأم. مدن العراق، قراه، كلها تهزج فرحاً بعودة الكويت. بغداد تتلألأ أنواراً وزينات بهجة برجوع الغائب إلى أهله. أبو نواس، الرشيد، الكاظمية، المنصور، العامرية، شوارع بغداد كلها ترقص طرباً وغبطة. مقاهيها لا تنام. رجالها، نساؤها، أطفالها كلهم يهزجون، بل في كثير من الساحات تعقد الدبكات ويرقص الرجال بالسيوف. محسن بنجومه المذهبة وأوسمته اللامعة يرقص، أولادها الثلاثة يرقصون، ومكبرات الصوت تملأ ساحات بغداد أهازيج فرح وأناشيد حماسة.
ـ أتسمعين؟ كم هو رائع أن نلم شتات هذا الوطن، فيصبح دولة واحدة بعلم واحد وجيش واحد من بغداد إلى تطوان؟
ـ نلمه بإذن الله. طالما هناك رجال، الرجال يصنعون المعجزات. ردت فاطمة وهي تقوده إلى الديوان، يجلسان جنباً إلى جنب يظللهما جناحا الحب والرغد.
ـ والنساء أيضاً. نحن نؤمن أن الرجال بلا نساء لا يصنعون شيئاً.
ـ حقاً، ابن عمي!! أتؤمنون بذلك؟
ـ وهل تشكين؟
ـ لا أدري. أحياناً أجد أناساً بينكم لا تقل أفكارهم تخلفاً عن الحاج صويلح. أتذكر الحاج صويلح؟ محسن يتذكر الحاج صويلح جيداً، لقد كان أعتى عتاة المتمسكين بالملكية في البصرة، المدافعين عن فيصل وحاشيته حتى أنه حزن كل الحزن يوم سحلوا نوري السعيد في الشوارع، وأعلن عليه الحداد.
ـ ربما، بيننا أناس كالحاج صويلح. رد محسن وقد عاد بذاكرته بعيداً إلى الوراء، لكن الأغلبية في الحزب ثوريون يريدون قلب المجتمع رأساً على عقب، تغييره تغييراً جذرياً، يقضون على هذا الموات فيه ويبعثونه للحياة.
ـ آه! محسن!! كم أحلم أن نخلص من هذا التخلف!!
ـ سنخلص، صدقيني. نحن أعلنا حرباً على الجهل والأمية، والجهل والأمية ساقا التخلف اللتان يسير عليهما. اكسريهما يقعد التخلف عاجزاً كسيحاً. وضحكت فاطمة ضحكة السعادة فقد كان محسن دائماً مغرماً بالصور البلاغية. وكانت فاطمة تعبده لصوره البلاغية تلك. أول مرة لفت انتباهها كانت في السادسة عشرة من العمر وكان هو في العشرين. انتهز فرصة وجودها على السطح وحيدة، تجهز قعدة المساء

والبدر أول طلوعه من الشرق. صعد الدرج لكن دون أن يصل إلى السطح. هناك، في أعلى السلم وقف يترنم ببيتين لا تنساهما فاطمة أبداً. كان يريدها أن تسمعه، وكان في الوقت نفسه يرعى حرمة البيت والقربى، فراح يترنم.

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها
في ليلة فأرت ليالي أربعاً
واستقبلت قمر المساء بوجهها
فأرتني القمرين في وقت معاً

منذ تلك اللحظة هوى قلبها مرتمياً بين راحتي محسن وسرعان ما أمسك به ثم لم يفلته بعد ذلك قط.

ـ يعني، لديكم في القيادة يؤمنون حقاً بمساواة المرأة بالرجل؟ سألته فاطمة بكثير من الحب.

ـ كيف لا؟ نحن كلنا نؤمن أن المجتمع يقوم على ساقين هما الرجل والمرأة.

ـ الله!! هو ذا الكلام الجميل!! ساقا المجتمع أختان توأمان فكيف يريدونه أن يمشي بساق واحدة؟

ـ ها، هو ذا ما يقوله حزبنا: حين انقسم المجتمع إلى حرملك وسلملك أصبح الحرملك عبئاً على السلملك وعدواً له: نصفين متضادين متناقضين، فماذا حصل؟ أصيب المجتمع بالفصام.

ـ ما الفصام هذا؟ سألته فاطمة التي قصم الزواج المبكر ظهر دراستها فلم تتجاوز الصف العاشر.

ـ الفصام أن يكون للشخص الواحد شخصيتان مختلفتان، كلتاهما تناقض الأخرى وتعمل ما يعاكسها فتلغي الأولى ما تفعله الثانية والعكس بالعكس.

ـ تعني العطالة؟

ـ بالضبط، وعطالة المجتمع تعني توقفه عن الحركة والتقدم.

ـ يا إلهي!! كم علينا أن نتقدم!! كم ينبغي أن نكافح التخلف!

ـ وهذا ما نطرحه. ألم تسمعي؟ نريد محو الأمية، إزالة الفوارق الطبقية، تحقيق المساواة، العدالة الاجتماعية من أجل هدف واحد بعيد.

ـ صنع دولة حديثة وعراق صناعي متقدم؟ تابعت فكرته وقد توقف لحظة من الزمن ربما شارداً مع أحلام زاهية لا تفتأ تلوح له.

ـ صحيح، صنع عراق مصنّع متقدم. يحرق المراحل ويقفز فوق حاجز التخلف لاحقاً بركب الحضارة. حينذاك فقط يمكنه بسهولة أن يحقق الوحدة!؟

ـ الوحدة!! يا إلهي!! ما أجمل أن يتحقق هذا الحلم!!

ـ سيتحقق. رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة، وقد بدأنا هذه الخطوة. ترى ألم تصبح الكويت المحافظة التاسعة عشرة؟.

مارغريت تاتشر تسمع السؤال فترد بعصبية شديدة وغضب أشد.

ـ لا، لن تصبح الكويت المحافظة التاسعة عشرة. هذا الغزو جريمة نكراء يجب أن ننزل بمرتكبها أشد العقاب. ويرتجف مجلس العموم أمام قبضة المرأة الحديدية وهي تهزها في وجهه مثيرة محفزة، فيهب المجلس كله وهو ينتفض غضباً، وبصوت واحد يرد:

ـ أنزلي به أشد العقاب. نحن معك قلباً وقالباً. سيري ونحن من ورائك.

وتتداح أمواج الصوت مشحونة بالحنق والغيظ تبلغ كاوبوي واشنطن فيرغي بدوره ويزبد.

ـ أولئك في الكويت حلفاؤنا، مرافئهم قواعد لنا، نفطهم يصب في خلجاننا، فكيف نتخلى عنهم؟ وهب جيمس بيكر لنجدة الحلفاء. لندن، باريس، القاهرة، الرياض؟ طائرته لا تحط إلا لكي تطير. رأى اللاجئ المشرد في الرياض فبكى عليه دموعاً لا أغزر ولا أسخن.

ـ بعد ذلك العز، تصبح مجرد منفي لاجئ!؟
وبكى معه الأمير اللاجئ وقد حنى الدهر ظهره فلم يعد يستطيع رفع رأسه، شيّب شعره وكأنما لم يعد في العالم صباغ.
ـ أرأيت؟ أنا حليفكم المخلص يفعلون بي ذلك، فماذا سيفعلون بالآخرين؟ ماذا سيحل بسمعتكم وهيبتكم!؟ أنا واثق أن أحداً بعد اليوم لن يثق بكم، لن تبقى لكم مصداقية فيبتعد عنكم العالم، ولا يظل لكم حليف.
ـ خسئوا! سنفعل المستحيل لإثبات مصداقيتنا. اطمئن، أنت حليفنا وفي عهدتنا، وإعادتك إلى الكويت مسؤوليتنا.
ـ حقاً ستعيدونني!؟
ـ أو تشك في ذلك؟ سأله بعد طول تمعن.
ـ ما أدري. والله ما أدري. الأيام تمر وأنا أسمع جعجعة ولا أرى طحناً.
ـ سترى الطحن. لقد دبرنا كل شيء وفكرنا بكل شيء. الفخ نصبناه بأيدينا وقد وقع فيه. لوحنا له بالطعم فالتهمه. لم يعلم أنه مجرد طعم. الآن نحن سعداء بل أنت نفسك يجب أن تكون سعيداً.
ـ كيف أكون سعيداً وقد فقدت إمارتي؟ رد اللاجئ المشرد وقد توقف دماغه عن استيعاب ما يقوله الوزير الأمريكي شديد الصلف والغطرسة.
ـ أوه!! بودي أن تكون أسرع فهماً!! نحن أردنا من صدام أن يخطئ، أن يغريه الطعم فيلتهمه. حينذاك ننقض عليه ونقصم ظهره.
ـ حقاً، ستقصمون ظهره!؟
ـ لماذا إذن نخطط ونتعذب؟ الجيش العراقي صار جيشاً قوياً يهدد أمن إسرائيل، يخل بالتوازن الاستراتيجي في المنطقة. غايتنا أن نقضي على هذا الجيش.
ـ ويصبح العراق ضعيفاً بلا جيش، مثلنا مثله؟
ـ بالطبع. حرب إيران كلها كانت من أجل هذه الغاية. حرضنا طهران على بغداد وبغداد على طهران وقلنا "ناب كلب بجلد خنزير، ليصفِّ واحدهما الآخر نرتح منهما كليهما"، لكن المخطط أخفق، بل خرج الجيش العراقي أقوى من ذي قبل، فكيف نسكت عنه؟ كيف لا نخطط لإبادته؟
ـ يا إلهي!! هي ذي فكرة عبقرية! فكرة عبقرية!! راح الأمير الهارب يهتف فاركاً يديه الواحدة بالأخرى.
ـ ثم هو يريد رفع أسعار النفط، يريد خمسة وعشرين دولاراً ثمن البرميل الواحد. وقح هذا الرجل!! جشع! طماع! لكأن النفط ملك أبيه. يرفع الأسعار ويجعل أبناء الغرب يعانون. قلنا لك أغرق الأسواق بالنفط، خفض الأسعار، ألا تذكر؟
ـ كيف لا، وقد أغرقت الأسواق وخفضت الأسعار حتى صار البرميل بعشرة دولارات؟ وقهقه اللاجئ الشريد وقد نسي تشرده ولجوءه.
ـ بهذه الضربة سنحرم ابن أنثى من التفكير برفع الأسعار. نحن نريد نفطاً رخيصاً. المستهلك لدينا يريده كالماء متوفراً رخيصاً، وكل من يهدد ما يريده مستهلكنا يمسح عن وجه الأرض.
ـ حياكم الله يا أصدقائي!! حياكم الله يا حلفائي!! هذا البعبع المخيف أريحوني منه!! هذا السفاح المجرم اقضوا عليه!!
ـ لماذا إذن جررناه إلى الشرك؟ هز رأسه وزير الخارجية الماكر هزة مكر ثم ضحك. لا، لا، كل شيء بحسبان.
ـ يا إلهي!! لو قلتم لي ذلك فقط ما كنت قد خفت كل ذلك الخوف. صدقني، عزيزي جيمس، كنت وأنا في قصري أرقص خوفاً منه في بغداد.
ـ هو ذا ما كنا نبغيه: نرخي له الحبل إلى أن يتمادى.
ـ يتمادى وحسب؟ تصور يريدني أن أعفيه من الديون؛ عشرة مليارات دولار، تصور، وفوق ذلك يريد مليارين آخرين. كأنه يريد أن يقاسمني إمارتي، يريد أن ينهبني. لا، والأنكى من ذلك يريد حقل نفط بكامله وجزيرتين يجعل منهما قواعد بحرية، هنا، تحت أنفي. وفجأة توقف ثم تفحص الوزير القادم من واشنطن. بعدئذٍ تابع: ما أريد أن أعلمه فقط لماذا تركتموني وحدي في مواجهته طوال تلك المدة؟
ـ هي ذي أصول اللعب.

ـ أصول اللعب أن تسمعوا تهديداته وتسكتوا؟ أن تذهب سفيرتكم في بغداد فتقول له: "نحن نعتبر ما بينكم وبين الكويت شأناً داخلياً ونحن لا نتدخل في الشؤون الداخلية للدول؟"
ـ أجل... أجل!!
ـ لا، أنا لا أفهم. تميتونني خوفاً وتقولون أصول اللعب؟
ـ يا صديقي الذكي! لو لم نفعل ذلك كيف كان سيغزو الكويت؟ لو لم نتظاهر بالتخلي عنك كيف كان سيجرؤ على التهام الطعم؟
ـ آ! الطعم!! قلت لك الطعم!! راح يردد بلهجته البدوية وأكره ما يكرهه أن يتحول هو وإمارته إلى طعم.
ـ أجل. القرش تصيده بطعم، الحوت تصيده بطعم، بل حتى الليث الضرغام تصيده بطعم.
ـ صح. في هذا تقول الصح!!
ـ الآن أمسكت السنارة بالقرش فأين يفلت؟ سنمزقه إرباً إرباً!!
ـ يا إلهي!! كم سأكون سعيداً!!
ـ ألم أقل لك الآن يجب أن تكون سعيداً؟ في ذهننا خطة كبيرة، قال وهو يشير إلى رأسه. خطة جهنمية تقضي على العراق: جيشاً، صناعة، اقتصاداً، طرقاً، جسوراً، مياهاً، كهرباء، بل حتى بشرا وإلى الأبد.
ـ الله!! هو ذا الحلم! عراق ضعيف لا يشكل خطراً ولا تهديداً.
ـ ولسوف نحقق لك هذا الحلم!! تأكد، سوف نحققه. الكاوبوي بارع دائماً في سوق الثور إلى حيث يريد، في حصاره، ثم إسقاطه وذبحه. بالأنشوطة يوقع الثور، يلفها حول عنقه ثم يسقطه وحين يسقط الثور يسهل عمل السكاكين!!
ـ وسكيني أولاً!! أجل، سأغرز سكيني في عنقه!! ثم أشرب من دمه. أجل، سأشرب من دمه!! ورقص شيء ما في صدر الوزير القادم من واشنطن وهو يرى شرر الحقد يتطاير من عيني اللاجئ الشريد.
ـ فقط نريد المال، انتهز الوزير الفرصة للتو.
ـ المال؟ ملعون أبو المال!! صاح الأمير المنفي وقد التهبت نخوته العربية وفارت أريحيته. أموالي كلها، إمارتي كلها تحت تصرفكم. اطلب وتمنَّ عزيزي جيمس!!
ـ لا، نحن لا نريد الكثير الآن. فقط عشرة مليارات.
ـ عشرة وحبة مسك، فقط أعد لي إمارتي. خلصني من ذلك الوحش المرعب.
وبالسرعة التي كان ينطق بها لسانه الكلمات، كانت يده تخط على شيك أرقاماً وحروفاً تتيح للعزيز جيمس أن يقبض من مصارف نيويورك عشرة مليارات من الدولارات. طوى جيمس الشيك على مهل وهو يبتسم ثم همس في أذن الأمير.
ـ الآن، ضع يديك ورجليك في ماء بارد. الخطة منذ اللحظة قيد التنفيذ.
باقر لم يخطر بباله أن هناك مثل تلك الخطة. لكن نمراً وأبا الليل بل جماعة المعسكر كلهم كانوا في حالة توجس.
ـ أنا خائف، خائف. قال أبو الليل ذات مساء وهم يرشفون كؤوس الشاي.
ـ على من؟ سأل يسار الذي كان قد عاد من حادثة الحانة بجرح في خده وخدوش في صدره وذراعيه لما تشف بعد.
ـ على العراق، أجاب أبو الليل، هو الذي لم يخفِ فرحته يوم سمع بضم العراق للكويت.
ـ لا، لا تخف على العراق، إن كانت مؤامرة فهي على صدام، وكم أرجو أن تنجح فتخلصنا منه. تدخل باقر وهو يكز على أسنانه حقداً على حاكم بغداد.
ـ لا، لا، المسألة تتعدى الفرد. المؤامرة على العراق كله، شرح نمر وهو يحدق إلى باقر تحديقة العتب واللوم، والعراق بلدك، شعبه شعبك وجيشه جيشك.
ـ أياً كان، ليس أحب على قلبي من إسقاط ذلك النظام في بغداد، نظام الدكتاتورية والبغي، الجور والعدوان.
ـ يا سلام!! لو استلمتم أنتم ستكونون أحسن!! علق أبو الليل بكثير من السخرية.
ـ لم لا؟ رد باقر باندفاع غريزي.
ـ رأيناكم أيام عبد الكريم قاسم!! الزعيم الأوحد، الفرد الصمد!؟ تابع تعليقه وهو يعلم أن ذلك قد يجره إلى معركة حامية الوطيس مع باقر.

ـ عبد الكريم قاسم خير من صدام. بدأ باقر رده لكن سرعان ما قاطعه أبو الليل.
ـ أنا لا أقول صدام خير من قاسم أو قاسم خير من صدام. بل أقول: هنا حكم الفرد الواحد الأحد، وهناك حكم الفرد الواحد الأحد. ما عدا ذلك لا يعنيني.
ـ كيف لا يعنيك وهناك ملايين الفارين من ظلمه؟ ملايين المشردين في أصقاع الأرض كافة!؟ حاكم باغٍ طاغية يقتل بكل دم بارد حتى أقرب المقربين إليه.
ـ لكنه صنع عراقاً قوياً. جيشه وقف في وجه إيران ثماني سنوات. صناعته تطورت. اقتصاده ازدهر. وهو الآن قوة حقيقية يحسب لها ألف حساب.
ـ وماذا يهم إن ربحت الدنيا وخسرت نفسك؟ سأل باقر بكثير من الحدة.
ـ أنت لا يهمك إلا نفسك. كلكم لا تفكرون إلا بأنفسكم. أنا أعرفكم. مصلحتكم وحسب. أما الوطن، المصلحة العامة...
ـ ماذا تقول يا رجل؟ قاطعه باقر بحدة أشد. رجل يبغي ويطغي وتدافع عنه؟ يقتل، يسجن، ينفي، يشرد وتدافع عنه؟
ـ كلهم كذلك، في الوطن العربي كله الحكام كذلك، أم هناك حكم ديمقراطي يوفر الحرية والكرامة للمواطن في أي بلد من بلدانه؟ الفرق هو أن نظام الحكم في بغداد يبني لا يهدم، يحافظ على ثروات وطنه لا ينهبها.
ـ يا جماعة!! يا جماعة!! صاح يسار وقد أنهى كأس شايه وسيجارته. تريدون أن نمضي السهرة كلها في هذا النقاش العقيم؟
لكن صفارة الإنذار وحدها هي التي أوقفت ذلك النقاش العقيم، فقد انطلقت فجأة مدوية منذرة، فيما ملأ الليل كله هدير طائرات ودوي انفجارات. أسرع الرفاق جميعاً إلى الملجأ الكبير الغائص في عمق التلة. هناك راحوا يستمعون للدوي والهدير، كانت المعركة تدور في الجنوب والغرب، وكان الإسرائيليون يردون على عملية جريئة قام بها الفدائيون قرب قلعة الشقيف. ساعتين ظل الدوي والهدير، وساعتين ظل الترقب والخوف، فمن يعلم متى تمتد العصا الإسرائيلية إليهم، هي التي لا توفر فرصة لضرب الفدائيين؟
كان باقر يعلم أن العمل الفدائي دخل عنق الزجاجة منذ زمن طويل وأن الضربات التي تلقاها واحدة إثر الأخرى كانت أكثر من قاصمة للظهر إذ كان لا يفتأ يردد "إيه يا أيام العز!! ما أروع العمل الفدائي والدهر مقبل عليه!!" فحين غادر العراق هارباً من النظام، كان العالم كله ما يزال ميدان قتال للفدائيين. العالم كله يفتح عينيه إعجاباً بهم وكان رجال المقاومة يصولون ويجولون: في الداخل، في الخارج، في لبنان، في الغور، بل حتى في ملاعب زيوريخ وسماوات الدنيا السبع. إسرائيليون يقتلون في ملاعب أوروبا، إسرائيليون يسقطون صرعى وهم في مزارعهم، مدنهم، قراهم، طائرات تخطف ليدب الهلع في أوصال إسرائيل كلها وتنطلق الصرخات والزعقات من رجالها ونسائها. لقد كانوا يتوقعون كل شيء إلا أن يفيق مارد علاء الدين ويحطم القمقم الذي أحكموا سده.
كان بحر المقاومة في حالة مد، والناس لا يحبون كالمد. من اليابان، أوروبا، أمريكا، إفريقيا، المقاومة تستقطب أنصار الحرية، المدافعين عن استقلال الشعوب وكرامتها، فكيف لا تستقطب باقراً نفسه؟ جاء إلى قيادة الجبهة، وضع نفسه تحت تصرفها، فدربوه. أشهراً ستة ظل في ميادين التدريب، على السلاح، على القتال القريب، القتال البعيد، أساليب الكر والفر، حرب العصابات، كلها تدرب عليها ثم بدأ التنفيذ. خمس عمليات شارك فيها، من غور الأردن وحتى الناقورة. كان مسرح العمليات واسعاً. في العرقوب نفسه قام بعملية يفخر بها. ثلاثة جند صهاينة قتل يومذاك وتناقلت إذاعات العالم كلها خبر العملية الجريئة لكن دون أن يعلم أحد أنه هو باقر عبد الوهاب التنكجي القادم من عراق العرب قد قام بتنفيذها.
منذ الاجتياح الإسرائيلي للبنان حل الجزر الشديد. أرائيل شارون سدد ضربة قاتلة للمقاومة، حسرها عن الجنوب، أبعدها عن الحدود حيث كانت ضربات المقاومة توجعه، بل حاصر حتى بيروت ولم يفك الحصار إلا وقد حزمت المقاومة أمتعتها راحلة إلى الغرب منفية من جديد إلى حيث يحرم عليها القتال والمقاومة. جبهة باقر ظلت في الشرق. منظمتان أو ثلاث أخريات ظلت في الشرق، حيث أيضاً كان الخناق يضيق، فأين يذهب باقر؟ أيعود إلى بغداد؟ إذن، فوهة الجحيم بانتظاره!! إلى موسكو؟ موسكو نفسها تغوص في الوحل. يوماً بعد يوم تغوص في الوحل. استونيا، ليتوانيا، لاتفيا، ألمانيا كلها تنفصل عنها، تتفرج عليها من بعيد ملوحة لها تلويحة الوداع وهي تغوص في الوحل،

معسكرها الاشتراكي كله يتفكك جزءاً بعد جزء وقطعة بعد أخرى وهي تغوص في الوحل.
بيرسترويكا غورباتشوف تتكشف يوماً بعد يوم عن أنها مؤامرة خطيرة: باسم الثورة على الخراب يحل الخراب، باسم إعادة البناء يمارس الهدم، فماذا يفعل باقر؟ يدخل فلسطين؟ يلحق بالانتفاضة والانتفاضة للأطفال، لمن هم في الداخل؟ باقر ليس طفلاً وليس هو في الداخل. باقر عراقي، جاء إلى المقاومة ذات يوم بهدف العودة إلى العراق لتحريره من دكتاتوره. نصب عيني باقر دائماً ذلك الدكتاتور، يشدد قبضته على العراق ويخنق كل من فيه. تلك هي المشكلة: كيف الخلاص من ذلك الطاغية؟ لكن استرداده للكويت لم يضع باقراً وحسب بل العرب كلهم في حيص بيص: تكره التجزئة وتؤيد الوحدة؟ إذن ستفرح لما فعل وتجد نفسك في صفه شئت أم أبيت. تقف ضده؟ إذن أنت في صف الإمبريالية والصهيونية. فأي مأزق أنت فيه؟
لقد غدت الكويت فجأة محط أنظار العالم. الأنكلو أمريكان يصرخون طلباً لنجدتها والعرب يفضلون ترك المسألة لجامعتهم تحلها. أولئك يريدون تدويلها، وهؤلاء يريدون إبقاءها عربية صرفة. إعلام الأنكلو أمريكان نشط: صحفه، إذاعاته، تلفزيوناته، كلها سخرت للبكاء على الحمل الذي ذبحه الدكتاتور المستبد، لرثاء البلد الآمن الذي غدر به هتلر العصر الحديث، لمهاجمة حاكم بغداد المستبد ذلك الذي بات يشكل خطراً على العالم أشد من خطر الذرة والهدروجين.
"يا حلفاءنا وأتباعنا، احظروا نفط العراق" صدرت أوامر الأنكلو أمريكان فتوقفت شركات النفط، المستوردون، المصدرون عن شراء نفط العراق. ناقلات النفط العملاقة تلك التي كانت متوجهة إلى البصرة والفاو حولت مسارها عن البصرة والفاو. أنابيب النفط التي كانت تضخ النفط إلى الغرب أغلقت بسدادات محكمة فلم تعد تصل قطرة واحدة إلى الغرب.
"يا أصدقاءنا وأصحابنا حاصروا العراق. أوقفوا البيع والشراء معه". انطلقت أبواق الأنكلو أمريكان في شرقي الأرض وغربيها فوجدت الأرض نفسها تتوقف عن الدوران في العراق. جبالها، وديانها، أنهارها، أهوارها، كلها توقفت عن الحركة، تجمدت في مكانها كجبال الجليد. منافذ الحدود كلها أغلقت، حركة الطيران توقفت، وغدا العراق كله جزيرة في بحر لا يربطها بالعالم جسر ولا تصل إليها سفينة. "يا أنصار الأنكلو أمريكان اتحدوا". حملت موجات الأثير إلى كل مكان نداءات لندن وواشنطن فهب الأنصار من كل مكان وقد باتوا أتباعاً وحواشي في بلاط إمبراطور العالم، الحاكم بأمره جلت قدرته، جورج بوش العظيم. أليس الناس كلهم، لا رجال مصر فقط، عبيداً لمن غلب؟ جورج بوش غلب، بل كان قد سجل أعظم انتصارات الأنكلو أمريكان: هزيمة الاتحاد السوفييتي ومعسكره الاشتراكي. كيف إذن لا يسارع الممالئون، المنافقون لتمسيح جوخ بذلته؟ كيف لا يصفقون لكل ما يقول؟ يباركون كل ما يفعل؟ "هو إمبراطور العالم، إذن أمره مطاع وسيفه قطاع. يدين غزو العراق؟ إذن الكل يدينه. يقول إنه عدوان وبغي إذن هو عدوان وبغي. يريد عودة كل شيء كما كان، إذن، ليعد كل شيء كما كان. لكن حاكم بغداد يبتسم من بغداده، قلعة الصمود، تبسم الساخر. "لا شيء يعود كما كان. ثمة أمر واقع ولا بد من احترام الأمر الواقع، متغيرات جذرية حدثت ولا بد من التعامل طبقاً لتلك المتغيرات". جواب صدام على رأس لسانه. ثم تأتي ردود فعله من جنس فعل الآخر. مقابل كل حركة حركة. "نرفض احتلال الكويت" تصرخ أبواق الأنكلو أمريكان فيعين صدام علاء الدين حسين، ابن الكويت، حاكماً للكويت. "لا نقبل إلا بالانسحاب الفوري" فيعلن صدام الكويت محافظة من محافظات العراق. تماماً كما كانت أيام الاستعمار العثماني تابعة لولاية البصرة. يحركون الأساطيل، الجند، الطائرات إلى الخليج، يحرك هو الدبابات والمصفحات إلى حدود الكويت الأخرى، يضربون الحصار على العراق، تضع بغداد يدها على الأمريكان، الإنكليز، الفرنسيين، البلجيك الهولنديين... ممن تجدهم على أرض العراق. "هم رهائن، محتجزون هنا إلى أن ترفعوا حصاركم عن العراق وتوقفوا ارتهانه".
باقر يتابع الأحداث بلهفة وتوجس. معسكر الحاصباني، العالم كله يتابع الأحداث بلهفة وتوجس، وهي تترى سريعة متلاحقة مثلما الأيام تترى سريعة متلاحقة. فلا يفيق باقر على ما نام عليه ولا ينام على ما أفاق. المعسكر، مثلما العراق تجمد، لم يعد ثمة من

يفكر بعملية، تدريب، مهمات. كانوا كلهم يرصدون ما يجري هناك في الشرق عند بوابة الوطن، والأزمة تكبر. أمام أعينهم تكبر ككرة من ثلج تتدحرج على سفح جبل. نمر متشائم، بل يزداد تشاؤمه يوماً بعد يوم: يسار شكاك ساخر لا يفتأ يوجه الاتهامات للنظام في بغداد. أبو الليل بين بين. أحياناً يجده باقر متحمساً فرحاً سعيداً وأحياناً أخرى منكمشاً حذراً خائفاً. باقر نفسه خائف. موجة الفرح الأولى انحسرت لتترك أثرها مزيجاً من خوف وشك، لا تزيده نقاشات الرفاق إلا سوءاً.

ـ ورطة، ما أظنها إلا ورطة، قال نمر ذات مساء وقد استمعوا لمارغريت تاتشر تهاجم صدام حسين. "يحتمي بالأطفال والنساء!! يحتجز مواطنينا رهائن، شأنه شأن أي إرهابي قذر!؟ إذن سنلقنه درساً لن ينساه أبد الدهر".

ـ لا ورطة ولا ما يحزنون، رد أبو الليل محتجاً. احتجاز الغربيين كرهائن هو عين الصواب، فليبارك الله صداماً!!

ـ ماذا تقول يا رجل؟ تدخل باقر بكثير من الضيق. صدام يغوص بالوحل أكثر وأكثر ونحن نغوص معه. ألم تسمع ما قالته المرأة الحديدية؟

ـ وهل تصدقها؟ سأل يسار ساخراً. إن هي إلا لعبة، مؤامرة، الكل شركاء فيها.

ـ ماذا تعني؟ تدخل أبو الليل، هو الذي يكره لغة التشكيك كل الكره. مؤامرة!؟ كيف؟

ـ منذ البداية، هي مؤامرة مدبرة، اتفاق على كل شيء. بوش أوعز لصدام: احتل الكويت، احتل الكويت. ضمها للعراق، ضمها. احتجز الرهائن، احتجزهم. أم تظن أن هناك حاكماً واحداً في وطنك العربي يتصرف من تلقاء نفسه؟ هي أوامر تأتيهم فينفذونها.

ـ وهذا العجيج والضجيج، لماذا إن كان مؤامرة هم فيها شركاء متفقون على كل شيء؟ سارع أبو الليل للرد في عينيه مزيج من استغراب وغضب.

ـ هذا ما يسمونه في الأفلام والمسلسلات: الموسيقى التصويرية.

ـ لا، لا، مستحيل، قال نمر.

ـ يسار، أنت تخلط الهزل بالجد. تهرف بما لا تعرف، تابع أبو الليل، وقد وجد فكرة يسار بالغة السخف.

ـ بل أنا جاد كل الجد، رد يسار بحماسة أكثر، واثق من صحة كل ما أقول، وإلا كيف تفسرون عنتريات صدام وبهلوانياته؟ تحديه لأمريكا وبريطانيا بل العالم كله، وهو وحيد أوحد؟ وبدا السؤال بالغ الأهمية لباقر.

ـ حقاً؟ تابع الفكرة متسائلاً، كيف يمكن أن يفعل ذلك؟ بل من في العالم يستطيع اليوم أن يتحدى سيدة العالم ذات الهيمنة والسيطرة؟ غورباتشوف نفسه يطأطئ رأسه صاغراً أمام بوش، يسير وراءه إن التقيا كأي تابع من أتباعه.

ـ لا، لا، ليس الأمر هكذا. بدأ أبو الليل مستنكراً لكن سرعان ما قاطعه يسار.

ـ ماذا، إذن؟ ملاكم من وزن الريشة يواجه محمد علي كلاي. يتحداه، كيف؟ من أين جاءته تلك القوة؟ تلك الجرأة إن لم يكن قد اتفق معه من قبل على اللعبة وتمثيل الأدوار.

ـ أنا مع يسار، سارع باقر لتأييده، صدام يفعلها. أنا أعرفه. هو من الأساس متفق مع الأمريكان. لا يفعل شيئاً إلا بأمرهم. نحن نعلم ذلك. على يقين كامل منه وإلا لماذا يحارب الشرفاء؟ لماذا يشرد المناضلين؟ لماذا ملايين العراقيين باتوا خارج العراق؟

ـ هذه مسألة أخرى، باقر، أجاب نمر، علاقة صدام بالقوى والأحزاب في العراق شيء ودخوله إلى الكويت شيء آخر.

ـ لا، هما شيء واحد، رد باقر مؤكداً على كل كلمة.

ـ كيف، وقد فرحت فرح الأطفال بما فعل؟ وتلجلج باقر حائراً لا يدري ما يقول.

ـ كلنا فرحنا، سارع أبو الليل لنجدة باقر. من المحيط إلى الخليج، الإنسان العربي يفرح بإزالة أي حدود. هو بحسه الفطري ضد التجزئة. يبارك كل شكل من أشكال الوحدة. أتذكرون يوم الوحدة بين سورية ومصر؟ بين هذين البلدين واليمن؟ أنا أذكرها جيداً. أعراس حقيقية قامت في شرقي الوطن وغربيه، فمن لا يفرح بالوحدة؟ من لا يسعده إنهاء هذا التمزق؟ ذلك الشتات؟

ـ بالقوة؟ سأله يسار.

ـ وهل هناك وسيلة أخرى؟ رد أبو الليل. صدقوني ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة. وحدتنا أخذت بالقوة، إذن ينبغي أن تسترد بالقوة. فلسطيننا أخذت بالقوة، أنستردها بغير القوة؟
ـ الغرب لا يوافق.
ـ ليذهب الغرب فليبلط البحر. صاح أبو الليل ملء صوته.
ـ أخشى أننا نحن الذين سنبلط البحر، رد يسار هازاً رأسه ساخراً.
ـ كيف!؟ هاهو ذا صدام ضم الكويت، فماذا فعل الغرب سوى البعبعة والجعجعة؟
ـ صحيح، هو يبعبع ويجعجع الآن. تدخل نمر بنبرته التشاؤمية، لكن سيأتي يوم يفعل فيه شيئاً. يضرب ضربته الساحقة الماحقة.
ـ لن يستطيع، قال أبو الليل.
ـ وهذه القوى التي يحشدها في السعودية، الإمارات؟ هذه البوارج، المدمرات، حاملات الطائرات التي يوجهها إلى الخليج؟
ـ لا قيمة لها. أمريكا لا تجرؤ على دخول الحرب. فيتنام...ـ
ـ لا، أنا هنا أخالفك. سرعان ما قاطعه باقر، بأذني هذه سمعت نيكسون يقول "نحن لسنا على استعداد لدخول الحرب من أجل أية منطقة في العالم، ما عدا منطقة الخليج. إننا مستعدون لأن ندخل من أجلها حرباً عالمية ثالثة".
ـ لهذا أنشؤوا قوات التدخل السريع، عاد نمر للتدخل. أقاموا القواعد في البحرين والكويت، قطر والسعودية، حتى إذا ما ظهر أي خطر على النفط ضربوا سريعاً مصدر الخطر.ـ
ـ أعرفتم إذن لماذا قلت هي مؤامرة؟ هتف يسار فرحاً وقد جرت الريح بما تشتهي سفينته. لعبة دخلها صدام وأمريكا معاً لغاية.
ـ أية غاية؟ سأل أبو الليل باحتجاج شديد.
ـ ها! أنا أقول لك. تدخل باقر وقد رأى صاحبه يتلجلج حائراً، الغرب يريد إعادة الاستعمار الكولونيالي إلى منطقة الخليج. أنا نفسي قرأت تحقيقاً قديماً عن هذه القضية.
ـ ما الذي تقوله؟ سأل أبو الليل، فتابع باقر:
ـ أجل، جنرال بريطاني عجوز جاء قبل عشر سنوات إلى منطقة الخليج. رآه أحد الصحفيين اللامعين فحاوره... توقف باقر لحظة، فحثه الكل بأعينهم وأيديهم لهفة وفضولاً. عندئذٍ تابع:
"أتدرون ما قاله ذلك الجنرال العجوز؟"
ـ ما قال؟ سأله نمر هذه المرة.
ـ الاستعمار غير المباشر لم يعد كافياً لضمان نفط الخليج. لهذا السبب أبحث هنا عن كيفية إعادة الاستعمار المباشر: قواعد وجند، طائرات وبوارج، ويصبح بيدنا كل شيء فلا يهددوننا بقطع النفط أو زيادة أسعاره.
ـ صحيح، صاح أبو الليل مثنياً، أحد أقربائي كان مهندساً يعمل في الإحساء وقد شارك في بناء مدينة حديثة لا تصلح إلا لسكنى الأجانب: مسابح ومنتزهات، بارات وسينمات.
ـ لهذا، لم يتستر الجنرال البريطاني العجوز على مهمته. هناك مدن تقام في الخليج، مطارات ومرافئ، استعداداً للحظة الحاسمة، وهاهي اللحظة الحاسمة قد جاءت كما خطط لها الجنرال العجوز وكما صرح بذلك علناً لذلك الصحفي البارع اللامع.
ـ إذن، كل شيء بخطة وترتيب، سأل نمر وقد فاجأته معلومات باقر.
ـ بالطبع، بل إن الجنرال العجوز قال بوضوح حينذاك، سندفع الأمور دفعاً بالاتجاه الذي نريد وسنجعل حكام الخليج بأنفسهم يطالبون بعودتنا. نختلق الذريعة التي تجعل وجودنا عندهم ضرورة حتمية لا غنى عنها.
ـ قد فعلوها إذن. وهاهم الحكام يطالبون اليوم بهم، يريدون حمايتهم.
ـ هي ذي المؤامرة، هتف يسار فجأة، الذريعة التي قصدها الجنرال العجوز. صدام يصبح بعبعاً مخيفاً، فيتذرع به الملوك والأمراء ويطالبون الأنكلو أمريكان بإرسال أساطيل وطائرات كي تبعد عنهم شبح البعبع وخطر البعبع.
ـ لكن، ماذا يستفيد صدام؟ ما تراها غايته؟ وجه أبو الليل سؤاله إلى يسار لكن باقراً هو الذي أجاب:

ـ ها! صدام يصبح بطلاً قومياً يصفق له العرب جميعاً. فرح يسار وصفق لفكرة كان يؤمن بها لكنه لا يستطيع التعبير عنها، فيما بدا نمر أقرب للتصديق منه للشك، فالحكام العرب في نظره مدانون جميعاً إلى أن يثبتوا براءتهم، لكن أبا الليل ظل يلوح برأسه يمنه ويسرة:
ـ لا، لا، الأمر أخطر بكثير وأعقد بكثير من أن تنظروا إليه بهذه السذاجة.
وكان الخليج بركاناً يجيش دون أن يدري أحد متى ينفجر، كما كان العالم كله يغلي ويفور. بعضه مع الأنكلو أمريكان، بعضه مع بغداد وبعضه الآخر في حيرة وتردد. القوات تتحرك، الأساطيل تمخر عباب المحيطات، حاملات الطائرات تسرع مهرولة وكلها تتجه إلى الخليج. "انسحب من الكويت أو دمرنا العراق كله". راحت التهديدات تشتد، وأسرع فاعلو الخير يدلون بدلائهم: الجامعة العربية، فرنسا، الاتحاد السوفييتي والكل يريد نزع فتيل القنبلة.
ـ سيدي الرئيس، انسحب من الكويت. أرجوك يا سيدي الرئيس، قال رئيس الجامعة، عصمت عبد المجيد، لصدام حسين وهما يلتقيان للمرة الثالثة.
ـ كيف؟ الكويت أرض عراقية، أينسحب المرء من أرضه؟
ـ لكنك تعلم، سيدي الرئيس. هناك أمر واقع في الوطن العربي لا بد من احترامه.
ـ أمر واقع فرضه علينا الاستعمار ونحن ضعفاء، اليوم نلغيه ونحن أقوياء.
ـ الأمريكان يستعدون العالم كله عليكم، يقيمون التحالفات، يحرضون الدول كلها على محاربتكم!!
ـ لن يخيفنا الأمريكان!! فيتنام هزمتهم بالأمس والعراق ليس أقل قوة ومضاء من فيتنام.
ـ الظروف اختلفت سيدي الرئيس. يومذاك كانت أمريكا دولة واحدة تعتدي وكان هناك قطب ثان في العالم. أما اليوم فهناك ثلاثون دولة تساند أمريكا وليس هناك قطب ثان في العالم.
ـ أنت فقط قل للعرب: ابتعدوا، لا تحالفوا الأعداء وأنا كفيل بالتصدي للأمريكان.
ـ العرب أنفسهم يريدونك أن تنسحب.
ـ هم أتباع لأمريكا، يرددون ما تقوله لهم، وإلا كيف يقلبون مقولة العرب "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً".
ـ لست أنا من يملك الجواب يا سيدي. لكن أرجوك. لا تعطِ ذريعة للأمريكان يدمرون بها العراق؟ يهدمون كل ما بنيت فيه؟
ـ الأمريكان يريدون تدمير العراق بذريعة أو بغير ذريعة. أتذكر ما فعلت إسرائيل بمفاعلنا النووي ما إن نشبت الحرب بيننا وبين إيران؟ أتذكر ما قاله إسحق رابين ما إن انتهت الحرب بيننا وبين إيران؟ رئيس الجامعة العربية يذكر، فرئيس الوزراء الإسرائيلي يومذاك كان واضحاً وضوح الشمس "الجيش العراقي اليوم قوي يهدد التوازن الاستراتيجي ويشكل خطراً علينا، إذن لا بد من القضاء عليه. مع ذلك، يقول عصمت عبد المجيد:
ـ سيدي الرئيس، نحن نعلم أن ذلك ما تهدف له إسرائيل وما تخطط له أمريكا: ضرب الجيش العراقي، تدمير الصناعة العراقية، إيقاف قطار التقدم العراقي، لهذا ينبغي أن نفوت عليهم ا لفرصة، أن نضحي بالجزء من أجل الكل، نقدم الكويت قرباناً لسلامة العراق.
ـ لينسحبوا من الخليج، أنسحب من الكويت. ليرفعوا أيديهم عن المنطقة، أرفع يدي عن الكويت. واعتبر رئيس الجامعة ذلك بشرى سارة نقلها لزعماء العرب، لجورج بوش، لمارغريت تاتشر.
ـ وافق صدام على الانسحاب من الكويت، فقط انسحبوا أنتم. لكن ماغي كشرت عن أنيابها تكشيرة صفراء:
ـ نصدقه؟ كيف وهو ما يزال يحتجز رهائننا الأطفال الأبرياء والمدنيين العزل؟ فيما صرخ كاوبوي واشنطن غاضباً:
ـ بلا شروط، عليه أن يحرر الرهائن وينسحب من الكويت بلا شروط. صاغراً ذليلاً عليه أن يفعل ذلك.
وجاء دور الفرنسيين. الفرنسيون معنيون: ثمة فرنسيون وفرنسيات في الأسر، رهائن لدى صدام فلماذا لا تتوسط؟ حركة فرنسا أسهل وقدرتها على الإقناع أكبر. وأوشكت

وساطة ميتران أن تفلح. بل جاءت لحظة أوعز فيها لطائرته بالاستعداد للطيران إلى بغداد، لكن الكاوبوي زأر وهدر:
ـ قف. حركة واحدة وأطلق النار.
وتسمر ميتران مذهولاً في البدء، أخيراً نطق:
ـ لكن، لماذا سيدي الرئيس. الرجل وافق على الانسحاب من الكويت وتحرير الرهائن. فقط نرفع الحصار عنه وننسحب من الخليج.
ـ اسكت، ولك حصتك من "الطرطة". رد إمبراطور العالم بقدر غير قليل من الغطرسة.
وسكت ميتران وقد سال لعابه لذكر "الطرطة". لكن غورباتشوف لم يسكت. "مطلب بغداد عادل: ينسحبون ينسحب، يفكون الحصار يفك الحصار". ومضى غورباتشوف بنفسه إلى كاوبوي العالم. هو يريد أن يحفظ ماء وجهه، فلا يبدو مجرد كم مهمل في العالم. السوفييت ما زالوا يحلمون بالحد من هيمنة أمريكا، بالتخفيف من قبضة الغرب على الخليج، تلك الجزيرة العائمة على بحر من النفط.
ـ أسفي عليك يا صديقي، رد بوش على اقتراح غورباتشوف. طاغية باغية معتد آثم ونذعن لشروطه؟ لا، لا، هو الذي ينبغي أن ينفذ أوامرنا، هو الذي ينبغي أن يذعن.
ـ لكن تصعيد الأزمة قد يوصل العالم إلى حرب والحرب، كما تعلم، مدمرة سيدي الرئيس. الحرب كلها ويلات وأهوال.
ـ تنوي أنت أن تحاربنا، صديقي غورباتشوف؟
ـ معاذ الله، سيدي الرئيس. نحن معاً، حليفان ما عشت.
ـ ها! هاّ إذن لا تخش الحرب. الحرب ويلات وأهوال حين تكون بين كبار أقوياء، لكن حين تكون بين كبير عملاق وصغير ضعيف، فما الخطر منها؟ ظل أنت بعيداً وانظر كيف سأنزل عقاباً لا نظير له بصدام. قسماً لأسحقنه سحق القملة!!
ـ لكن لماذا يا سيدي، إن كان قد وافق على تحرير الرهائن؟ وافق على الانسحاب؟
ـ دون قيد أو شرط. قل له: ينسحب، يحرر الرهائن دون أن يطالبنا بشيء دون أن يفتح فمه بكلمة. خانعاً، خاضعاً، لكل ما نفعله في الخليج.
وطلع الصباح، فسكتت شهرزاد عن الكلام المباح. وقت جورج بوش ضيق لا يسمح له بمزيد من النقاش، لكن وقت الروس يسمح. وساطتهم يجب أن تسفر عن شيء. العراق حليف وعليهم أن يدافعوا عن الحليف، فليضغطوا عليه طالما لا يستطيعون الضغط على الأمريكان.
ـ لن نستطيع مساعدتكم!! قال بريماكوف المبعوث الروسي الذي يحب بغداد ويتعاطف مع مطالب بغداد. لن نستطيع الوقوف في وجه الأنكلو أمريكان. وضعنا لا يسمح بالتدخل، وأمريكا تجند العالم كله ضدكم.
ـ هي تريد إذعاننا، تركيعنا، رد طارق عزيز، الناطق باسم بغداد، ونحن لن نذعن، لن نركع.
ـ الإذعان خير من الإبادة. إنه أهون الشرين.
ـ بل نموت ولا نذعن. إنها معركة وجود: نكون أو لا نكون، ومن مصلحتكم أنتم أن نكون.
ـ صحيح، لكن..
ـ لا، لا تقل لكن. بغداد تريد إنهاء الوجود الاستعماري في الخليج تريد تحرير المنطقة من قبضة الأنكلو أمريكان، تخليص النفط من ربقة عبوديتهم، ألا يصب هذا كله في مصلحتكم؟
ـ أجل صحيح لكنها معركة خاسرة. قال بريماكوف، المفاوض العنيد، أمريكا تزج بقوى العالم كلها ضدكم وأنتم وحيدون.
ـ لا، لا تخطئ. نحن لسنا وحيدين. الشارع العربي معنا. الأمة العربية كلها من ورائنا، ونحن نراهن على هذه الأمة: نحيا بها أو نموت.
ولم تتزحزح بغداد قيد أنملة، فعاد بريماكوف عله يلين من موقف الأنكلو أمريكان، فيما كان الشارع العربي يتربص ويرقب. أبو الليل مع بغداد يراهن على الشارع العربي، لكن يساراً يضحك:
ـ وماذا باستطاعته أن يفعل، الشارع العربي؟ تساءل وقد جلسوا ثلاثتهم إلى طاولة الغداء.
ـ الكثير، الكثير، رد أبو الليل، لكن باقراً هز رأسه.

ـ لا، يا صاحبي! الشارع العربي مغيَّب، كم مهمل من كل حساب. ما يدخل في الحساب فقط هو الجيوش، الأنظمة العربية، والأنظمة العربية كلها مع الأمريكان، بل إن قواتها بدأت تزحف مع الزاحفين لنهش العراق.
ـ مستحيل، أنا لا أصدق، رد أبو الليل ملوحاً برأسه نافياً. هذا حلف إمبريالي صهيوني. فكيف يكون معه العرب؟
ـ صدق أو لا تصدق، رد يسار، لكن اعلم أن التابع لا يناقش متبوعه في ما يأمره، بل هو ينفذ وحسب.
ـ وهل سيسكت الشارع إن جد الجد؟ هو يغلي الآن فماذا يجري إن وقعت الواقعة ورأى حراب العرب تسدد إلى صدور العرب، ألن ينتفض؟ ألن يزلزل الأرض؟
ـ أنت متفائل كثيراً يا صديقي. الشارع مغلوب على أمره. هو قد يطلق الزفرات، يئن، يبكي، لكنه لن يفعل أكثر من ذلك، ففي كل بلد عربي قبضة من حديد تعرف جيداً كيف تكتم الأنفاس. ولم يعلق باقر. كان قد أصبح في حالة من الحيرة لا يحسد عليها. يريد إسقاط النظام في العراق لكنه يموت خوفاً على العراق. لا يرغب بشيء في الدنيا كالانتقام من صدام وفي الوقت نفسه يرى الخطر المحدق بالوطن. فماذا يقول؟ المأزق صعب والخيار أصعب. يسمع إذاعات الأنكلو أمريكان فيميل باتجاه الأنكلو أمريكان، تتملكه الحماسة لسحق صدام ونظام صدام. لكن ما أن يعود إلى نفسه حتى يتصور البصرة وهي خراب، خرابها أيام الزنج، فيرتد كسيراً حسيراً، خائفاً مذعوراً. احتجاز الرهائن أفرحه. إحساس بالطمأنينة سرى في نفسه. "طالما الرهائن في العراق لن يجرؤوا على ضربه!، الأمر الذي أكده له نمر وقد عاد لتوه من الأردن، ناقلاً لهم أخباراً مفرحة عن الشارع هناك، عن الشارع الفلسطيني، وهو يقف صفاً واحداً خلف العراق.
ـ ضربة معلم: احتجاز الرهائن. فكرة عبقرية!! ثنى أبو ا لليل المعجب كل الإعجاب بحركة الرهائن.
ـ بل، فكرة مجنونة، رد يسار بكل سخرية، لا تخرج إلا من رأس مجنون.
ـ يا رجل!! يا رجل!! مالك، لا يعجبك العجب ولا الصيام في رجب؟
ـ وكيف يعجبني، وصدام يسيء لسمعة العرب؟ يشوه صورتهم.
ـ أتشويه صورة أن يحاول المرء حماية وطنه؟
ـ بالبشر؟
ـ وهل يوفر العدو شيئاً؟ هل يدع وسيلة لا يستخدمها لذبحك وسلخ جلدك؟ إذن. لماذا لا ترد عليه بالمثل؟ لماذا لا تستخدم كل وسيلة يمكنها أن تحميك؟
ـ الغاية لا تبرر الوسيلة.
ـ كيف إذن تبرر لهم حصار العراق؟ حظر نفطه؟ قطع موارد رزقه؟ تجويع نسائه؟ قتل أطفاله؟
ـ مع ذلك لا أستخدم النساء والأطفال درعاً بشرياً أحتمي به.
كان الجدل بين يسار وأبي الليل لا ينتهي. وكانت قضية العراق والكويت هي الشغل الشاغل ليس للخلية الفدائية وحسب، بل للعالم أجمع. ستة آلاف أجنبي كانت بغداد قد وضعت يدها عليهم: نساء، أطفال، رجال، ومن بلدان عدتها بغداد دول بغي وعدوان. ضربة مفاجئة ذهل لها الغرب كله. كما ذهل حين بسط العراق سيطرته على الكويت بأربع ساعات. أياماً عدة ظل العالم كله مذهولاً وأياماً وأسابيع ظل يرسل الوسطاء والموفدين، لكن بغداد تعرف ما تريد: "ارفعوا أيديكم عن العراق نرفع أيدينا عن الرهائن".
تاتشر يجن جنونها، تهدد، تتوعد لكن بغداد لا ترد. ما تقوله فقط "نحن نحترم حياة كل إنسان، لا نريد إيذاء أحد، لكننا نريد حماية أنفسنا". ووزعت بغداد الآلاف الستة على القواعد والمطارات، المواقع المستهدفة والمقرات الهامة، بل حتى على المدن والقرى، "لتضرب أمريكا الآن، إذن ستضرب رعاياها". وصعقت أمريكا. "من أين يأتي حكام بغداد بأفكار كهذه؟ الشياطين وحدها تأتي بمثل تلك الأفكار". وتضحك بغداد وهي تشعر بالطمأنينة. الأنكلو أمريكان لن يعرضوا أبناء جلدتهم للخطر، لن يضحوا بإنسانهم، أياً كان، أو انقلبت الدنيا على رؤوسهم مظاهرات واحتجاجات.
جورج بوش حائر، قلق، يريد أن يتحرك لكنه لا يستطيع. القيود في يديه، في رجليه، فماذا يفعل؟ أمراء الخليج، ملوكه كلهم يضغطون. "اضرب سيدي الرئيس، حرر الكويت

سيدي الرئيس". السيد الرئيس لا يضرب ولا يحرر. خطته اكتملت، قواته صارت في الخليج، بوارجه في مياهه، طائراته، صواريخه، كلها جاهزة للضرب، مع ذلك يشعر أنه مكبل اليدين والرجلين، فقط هو يصرخ من غربي المحيط:
ـ عزيزتي ماغي! أشيري علي، أوجدي لي المخرج. وترد العجوز الشمطاء من شرقي المحيط حائرة مثله، تبحث عن مخرج لكن دون أن تجد المخرج.
ـ المرحلة الثانية يجب أن تبدأ، يلح الكاوبوي الحائر مكبل اليدين والرجلين.
ـ أعلم، أعلم، لكن كيف نضرب ورعايانا هناك؟
ـ هي ذي المشكلة. رعيتنا غالية. أمريكي واحد بشعب العراق كله، بل بالعرب جميعاً.
ـ وجدتها! وجدتها! صرخت المرأة الحديدية كما صرخ أرخميدس قبلها بقرون وقرون.
ـ ماذا؟ قولي، ما الذي وجدته؟
ـ النخوة والمروءة.
ـ لم أفهم. ماذا تقصدين؟ سأل الكاوبوي الذي لم تدخل مصطلحات كهذه قاموسه قط.
ـ العرب مشهورون بالنخوة والمروءة وصدام عربي، إذن لماذا لا نحرك نخوته؟ لماذا لا نستثير مروءته؟
ـ أجل، هي ذي الفكرة، هو ذا الحل.
ومع تباشير الفجر كانت طائرة بوينغ تنقل كارتر إلى بغداد، مجرد وسيط خير، لم يكن يوماً رأس أمريكا ولا رأس الشيطان، بل إنسان وديع ودود لا يسعى إلا من أجل الخير.
عزف كارتر على وتر النخوة، أثار الحمية وحرض المروءة: ـ "أيعقل؟ رجل عظيم مثلك. إنسان فذ على غرارك. عربي كله نخوة ومروءة يتدرع بالنساء والأطفال؟".
وبدافع النخوة والمروءة أطلق صدام النساء من الرهائن والأطفال، فصفقت تاتشر ورقص بوش، لكن باقراً أجفل. قدر كبير من الخوف تملكه "ما الذي فعله صدام؟ كيف يلقي بدرعه البشري أرضاً؟ ألم تستطع بغداد حماية نفسها بذلك الدرع؟ إذن كيف تتخلى عنه؟ ذلك الخوف تحول إلى هاجس "ترى كيف يعيش العراق؟ أهلي، أمي، أخوتي، كيف يعيشون الآن. ماذا سيحدث لهم؟" كان الشتاء قد جاء، والشتاء ليس كالصيف، بساطه ضيق، فكيف إن كان هناك حصار؟ وشد باقر الرحال، "سأكلم أحداً منهم. أريد أن أطمئن. بأي شكل أريد أن أطفئ النار هنا". ودق على صدره وهو يودع صحبه في المعسكر إلى عمان.
باقر يعرف عمان جيداً. مذ فر إلى دمشق أول مرة بعثته الجبهة إلى عمان. هو العراقي الذي لا يضع عليه النظام الملكي إشارة حمراء. على ظهور الفلسطينيين كلهم إشارة حمراء، تمنع دخول هذا، تهدد بالخطر ذاك، تسجن، تنفي، تعذب، تضرب. أما العراقيون فلا إشارات ولا محظورات. طوال سنوات ظل باقر يدخل، يخرج. يأخذ تعليمات، يأتي بأخبار، يعقد صلات ويقيم صداقات. لبانة أعز تلك الصداقات، جاذبيتها هي الأقوى فمضى إليها باقر وفي يده وردة حمراء.
ـ باقر!
ـ لبانة! تبادل الصديقان الهتاف وقد فتحت له الباب. منذ سنة ونيف لم تكن لبانة قد رأته.
ـ أنا مشوق إليك.
ـ أنا مشوقة أكثر، تحدثا وهما يسيران إلى غرفة الجلوس، تلك التي يعرفها باقر جيداً.
هي هي مذ عرف باقر لبانة قبل سنين. في أحد المهرجانات تعرف إليها. هي مناصرة للمقاومة، تشارك في جمع التبرعات لها، توزيع بياناتها، نشر طروحاتها وأفكارها.
وأعجب بها باقر: فتاة سمراء، وجه عربي، عينان عربيتان، كأنهما من نخيل العراق. شعر أسود منسدل كأنه سعف النخيل في العراق. متوسطة القامة، ممتلئة الجسم. كذلك النموذج الذي يحبه رجال العراق. تحدثت إليه فأعجبته أكثر وتحدث إليها فأنتش إعجابها به وتبرعم. كانت لبانة قد تزوجت ذات يوم لكن دون أن تجد في برميل زواجها لحسة من عسل. برميلاً خالصاً من الزفت كان زواجها فألقت به في القمامة لتنطلق حرة كشعاع الشمس. هي تؤمن بالحرية. كل ما يشغلها أن تعيش تلك الحرية. قيود المجتمع، تقاليده، أعرافه، كلها في منأى عنها. أخوها الوحيد في الخليج يسعى هناك في مناكبها، أختاها في أمريكا تزوجاتا مذ جاءهما اثنان من مواطنيهما أغرتهما حضارة الكاوبوي فظلا هناك يستمتعان بلذائذ الكاوبوي: الكوكاكولا والهامبرغر والهوت دوغ.

أمها كانت معها لكن منذ سنتين فقط قضت العجوز نحبها فظلت لبانة وحيدة إلا من نفسها، حرة إلا من جلدها ذاك الذي تود أن تخلعه. لبانة واضحة، تعرف ما تريد ولا تتردد في نيل ما تريد. هي تعمل في أحد مصارف عمان. دخلها يسمح لها بالاستقلال، ليست بحاجة لأخ ولا أخت، فلماذا لا تعيش حياتها كما تشتهي؟ ذات مرة بلغ بها حبها للمقاومة أن تركت كل شيء خلفها ومضت إلى أحد المخيمات تتدرب على فنون القتال، لكن ممارسات هناك نفرتها. المسؤول عن القاعدة يتقرب، المدرب يتودد. الزميل يعرض نفسه، بل لقد حاول أحدهم اغتصابها عنوة فتركت كل شيء وعادت إلى مصرفها سالمة. "أنا بحاجة إلى الرجل أقضي وطري منه، إذن أنا أختار الرجل"، قالت لباقر ذات يوم "لا الرجل يختارني، أو بالأحرى يفرض نفسه علي. أنا أكره القسر، الإرغام. احب الحرية، الحرية". ولأنها تكره القسر والإرغام وتحب الحرية الحرية، نشأت صداقة حميمة بينهما. فكلما جاء إلى عمان جاء إلى لبانة. يمضيان أياماً ثم يمضي كل في سبيله. لا التزام ولا فروض. هو يرغب بها. هي ترغب به. إذن لم لا يستمتعان؟ ولم تمهله لبانة، وهو يتجه إلى غرفة الجلوس، أن يجلس. بل دفعته إلى العمق، وفي العمق مخدع النوم. كانت تلبس ثوباً قصيراً يكشف عن الصدر حتى الثديين وعن الرجلين حتى أعلى الفخذين، وكان الثوب شفافاً، فضفاضاً، مجرد علاقتين واهيتين تربطانه بالكتف. احتضنها بكل الشوق الذي يحمله للمرأة، هو البعيد عن النساء، آخذاً شفتيها بشفتيه بكل العنف والقوة اللذين يحملهما رجال العراق، شاداً إياها إليه حتى العظم. انشدت لبانة، وحرارة جسده تذيبها، قوة ذراعيه ترخي علاقتي الثوب فيتحلل عن الكتفين ثم يسقط على الركبتين فالأرض لتبدو حواء بغير ورقة توت. حملها بذراعيه، شفتاها في شفتيه وذراعاها حول كتفيه، ثم أسرع بها إلى الفراش وحتى الصباح ظلا آدم وحواء وقد التقيا أول مرة عند جبل عرفات: هو آت من بلاد إرم وهي من جزيرة سرنديب.

في الصباح فقط، أبصر باقر الهاتف بجانب السرير فأدرك أنه نسي الهاجس الذي جاء من أجله. كانت لبانة ما تزال نائمة، فحمل جهاز الاتصال ومضى إلى الغرفة الأخرى يدق رقماً في بغداد. جاء صوت الأخت منادياً بالاسم الذي كان يحبه كثيراً ثم خلفه وراءه كما خلف كل شيء في العراق يوم فر إلا من جلده.

ـ أختي فاطمة.

ـ أخي ناصر!! كم أنا فرحة بك!! كم أنا سعيدة لسماع صوتك.

بعدئذ تبادلا التحيات، الأشواق، ثم بدأت السين والجيم. عشرات الأسئلة سألت. رشاً ودراكاً سأل لكن لشد ما صدم حين قالت له:

ـ ناصر أنا خائفة، نحن خائفون.

ـ خائفون؟ لماذا؟

ـ ألم تسمع إذن؟

ـ أسمع؟ ماذا؟

ـ الرهائن ذهبوا.

ـ متى؟ كيف؟ سألها باقر وقد فاجأه الخبر كل المفاجأة.

ـ الليلة وافقوا على إطلاق سراحهم جميعاً، ولا يعلم أحد ما الذي ينتظرنا ناصر، لا يعلم أحد ما الذي سيحدث.

وللتو أحس باقر برعشة تسري من جهاز الاتصال عابرة أصابعه فذراعه بالغة حتى القلب، محطمة حاجز الأمام معكرة بحيرة الطمأنينة. وفي أذنه رنين صوت راعش لأخت حبيبة غالية تردد: لا يعلم أحد ما الذي ينتظرنا، لا يعلم أحد ما الذي سيحدث.

الفصل الثالث

فرح فاطمة جعلها تنسى خوفها، والفرح ينسي. يمسح الأحزان. الأوجاع، المخاوف كلها ليضع جناحين للإنسان يحلق بهما عالياً في السماء. فاطمة حلقت طائرة إلى البصرة، جناحاها أسلاك الهاتف الذي دقت أرقامه حالما أنهى باقر مكالمته. في البصرة أم تموت شوقاً لأخبار ابنها، تصلي الليل والنهار علها تسمع صوته، تبكي الدموع السخان توقاً للاطمئنان عليه. فاطمة تعلم ذلك فلا تضيع لحظة واحدة.

ـ الله بالخير.. أمي!! السندباد يقبل وجنتيك.. يلثم جبينك.

وينفرط عقد دموع غزار من مقلتي الأم وهي تسمع ابنتها من الطرف الآخر للخط، ثم تشرع بالكلام لكنها تغص، فتتابع فاطمة. اطمئني. هو بخير.

ـ حقاً هو بخير؟ صحته، كل شيء عنده على ما يرام؟ رددت الأم وقد ابتلعت غصتها وشربت دموعها، فتابعت الابنة:
ـ حقاً وصدقاً!! صحته، عمله، أحواله كلها على خير ما يرام. اطمئني.
ـ الحمد لله!! ردت الأم وهي تتنفس الصعداء، كأنما انزاح عن كاهلها جبل عال.
آه!! فقط لو يسمعني صوته... لو يحدثني إلى هنا.
ـ هو لا يجرؤ. ثمة مخاطر. أنت تعلمين.
الأم تعلم بالطبع. هناك دائماً من يستمع لكل نأمة وحركة. الحيطان لها آذان فكيف بأجهزة الهاتف؟ لكنها تتحرق شوقاً لسماع صوت سندبادها الذي امتطى بساط ريح وطار. منذ أحد عشر عاماً وهو يطير من جزيرة إلى جزيرة، ومن هند إلى سند. حتى صوته، ذلك الصوت الأبح الذي تميزه من ألف صوت، لم تسمع رنينه يتغلغل إلى أعماقها، يدق شغاف قلبها كما تدق الأصابع الصنج فتنطلق أنغام موسيقية في جسدها كله، وتطرب، تنتشي كما لم تنتش منذ سنين.
ـ وأين هو الآن؟ متى يأتي؟ سألتها وهي تلملم شتات تفكيرها، شتات صوره في ذهنها علها ترى أمامها الفتى الناحل الأمرد الأسمر الذي كان ناصر ذات يوم.
ـ هذا وحده ما لا يعرفه إلا الله. إنه سندباد يا أمي وهل يفشي السندباد سر مكانه؟ ربما في الأردن.. في الجزائر... في لبنان... من يدري؟ متى يأتي؟ أيضاً لا يعلم إلا الله. على كل حال افرحي واسعدي. هو في أمان فقط يريد الاطمئنان!!.
ـ الاطمئنان!؟ أين يبيعونه يا ابنتي، والعالم كله تنين هائل يفتح فمه فوهة جحيم في وجهك!؟
فاطمة تشعر الشعور نفسه. العالم تنين هائل تقدح عيناه شرراً وينفث فمه ناراً وهو ينحدر إليك من جبل عال لا تدري متى يصل إليه فيحرق الأخضر واليابس من حولك. كان الخوف قد أمسك بها مذ سمعت نبأ الرهائن "أسمعت؟" ذهبت إلى جارتها تسألها وليس من أحد حولها تسأله. "سمعت"، "سمعت، ولست خائفة"؟ "ولماذا أخاف؟" "لا أدري. لكنني أشعر كأنني سلحفاة نزعوا عنها قوقعتها" وضحكت الجارة "إن كانوا هم غير خائفين"، وأشارت بيدها إلى الأعلى والبعيد... "فلماذا نحن نخاف" "لا أدري" ردت فاطمة وهي تتنهد "بوجود الرهائن كنت أشعر أن درعاً من زرد الحديد يقي جسدي طعنات الرماح، ترساً يصد عني ضربات السيوف، أما الآن فقد انكشفنا، لم يعد ثمة غطاء".
"فاطمة، لا تفكري عن الحكومة. الحكومة تفكر عنك وهي أفهم مني ومنك."
لكن فاطمة لا تقتنع. كلام جارتها سراب لم يعطها الماء الذي يروي الظمأ، فعادت إلى المنزل وهي تفكر "لو يأتي عبد المحسن فيشرح لي". كلام عبد المحسن يقنعها. زوجها يعلم جيداً كيف يضع النقاط على الحروف، لكنه بعيد. منذ أشهر ذهبت وحدته إلى الجنوب. هو في الحرس الجمهوري، والحرس الجمهوري لم يدخل الكويت، ظل الطوق الآمن الذي يحزم خصر العراق، الترس الذي يقيه الضربات وقد دخلت رأس الحربة إلى الكويت. كل أسبوعين.. كل ثلاثة يأتي. قوافل من الجنود والضباط يأتون إلى عائلاتهم بانتظام. دور عادل ونظام دقيق يحكم مبيت الرجال الذين هم بحاجة إلى نسائهم مثلما نساؤهم بحاجة إليهم. يأتي عبد المحسن فتستمد منه فاطمة القوة والإقدام، الثبات والمعنويات!! كان قد مضى على مجيئه آخر مرة ثمانية عشرة يوماً، وكانت كلها شوقاً لمجيئه. "ربما يجيء الليلة، ربما غداً" كانت تفكر حين رن الهاتف وجاءها صوت ناصر، وللتو نسيت عبد المحسن، نسيت الخوف، لتظل صورة واحدة ملء عينيها، صوت واحد ملء أذنيها وفرح كبير ملء قلبها.
منذ أشهر لم تكن قد سمعت صوته. هو هكذا!! أحياناً يتصل كل شهر ثم ينقطع فلا تسمع صوته طيلة شهور. أهو الحذر؟ الاحتياط؟ فاطمة لا تدري. كل ما تدريه أنها تشعر بشوق دائم إليه. هو أخوها الذي تحبه.. تعجب به مذ كانا صغيرين. كان يزيدها بعامين لكن يخيل إليها أنه أقوى منها بضعفين. "ألهذا قال سبحانه وللذكر مثل حظ الأنثيين؟" لقد كان يسبقها دائماً في الجري، يغلبها في اللعب، يصرعها في العراك، بل كان يصرع الصبية الأكبر منه سناً وجسداً، وفي المدرسة كان الأول دائماً في صفه، فيعينه المعلم عريفاً للصف وأحياناً عريفاً للمدرسة، يرفع العلم ويقود رتل التلامذة إلى الصفوف!

فاطمة تذكره جيداً وهما يلعبان معاً، في المنزل، في الساحة، في الشارع. تذكر جيداً كيف كانا يذهبان إلى بساتين النخيل على ضفاف العشار... يلتقطان الرطب الذي سقط من عل، يقطفان الشفلّح ذا البطون القرمزية المتوهجة ثم يلتهمانه بتلذذ، يجمعان "شيخ اسم الله" تلك النبتة القصبية الصغيرة التي تحوي في داخلها ثمرة غريبة قوامها خيوط كالحرير طرية وذات طعم خاص لا يناظره طعم ثمرة أخرى. ذات مرة، تتذكر فاطمة، وهي ما تزال جالسة بقرب الهاتف، كانا معاً على ضفة أحد الجداول تلك التي تأتي من الأهوار لتصب في شط العرب. رأت ثمرة مخضرة مصفرة تغري بالقطاف، قطفتها وكادت تضعها في فمها حين أسرع ناصر يضرب يدها ضربة أسقطت الثمرة بعيداً في التراب. "ويلك!! هذه بطوش."ـ "وما البطوش؟" سألته فاطمة، "هي سامة فكيف تأكلينها؟" وأنفذها ناصر من سم ربما أودى بها إلى الموت. طوال صباهما كان ناصر أخاها وصديقها، رفيقها وحارسها القديم الأمين، فمن يجرؤ من الصبية على التحرش بها؟ إذن، له الويل والثبور وعظائم الأمور. ناصر، منذ طفولته، لا يعرف الاعتدال... هو متطرف دائماً، مغالٍ دائماً، إن كره فحتى الموت وإن أحب فحتى الموت. لا يعرف الحلول الوسط أبداً، ولا تملك فاطمة إلا أن تحزن، ذلك نفسه ما جعله يعاني الأمرين.ـ يلاحق من رجال الأمن.ـ يزج في السجون وأخيراً يفر سندباداً على بساط ريح ينتقل في بلاد الله الواسعة حيث لا مقام ولا مستقر.

رن الهاتف فأسرعت فاطمة ترد:

ـ رقية!! أهلاً بك!! ثم روت لها مكالمة أخيهما حرفاً بحرف. فهتفت رقية فرحاً: الحمد لله!! أثلجت صدري!!

كانت رقية هي الأخت الصغرى وكانت قد تزوجت قريباً لها من "العمارة"، مهندس تكنولوجيا في أحد المصانع هناك. لكن قبل أشهر فقط رآه الوزير فأعجب به "سأنقلك إلى بغداد". وانتقلت رقية إلى بغداد وقد أصبح زوجها مدير مكتب الوزير.

ـ ألم تنقلي له أخباري؟ سألتها رقية وقد تشربت أخبار أخيها حتى الثمالة.

ـ بالطبع.

ـ أقلت له أن يتصل بي؟

ـ لا، هذا ما لم أذكره. في المرة القادمة إن شاء الله.

وبدت رقية عاتبة:

ـ كيف تنسين؟ أنا مشوقة لصوته. هل أعطاك هاتفه؟

ـ وهل لديه هاتف، هو السندباد الطيار؟

وكان السندباد الطيار يستلقي على بساطه بعد أن دك لبانة دكاً. كانا طوال الليل قد ظلا يمارسان الحب. مع ذلك كانت رغبته ما تزال تتأجج. لكن ما أثار عجبه أنها هي نفسها كانت، مثله، رغبة تتأجج. فتح عينيه تعجباً وقد بدا أنه على وشك الاستنزاف، فضحكت لبانة:

ـ ثلاث لا يشبعن من ثلاثة: أرض من مطر، وعين من نظر، وأنثى من ذكر. ولم يملك باقر إلا أن يبتسم "رحم الله المثلة، كما تقول العامة، لم تدع شيئاً إلا قالته. هاهي ذي أنثى لا تشبع". لكن العمل يقتضي منها الذهاب، فتذهب لبانة إلى مصرفها ليذهب هو إلى أوكار عمان وجحورها. ثمة منظمات في عمان تحاذر أن تظهر إلى العلن. عمان، منذ أيلول الأسود، باتت محظورة على الأنشطة والمنظمات. كل من شارك في خطف الطائرات، كل من طرح شعار إسقاط النظام، كل من قاتل جيش الكفاف الحمر والعقل الميالة كان الملك قد حرم عليه تراب الأردن. مع ذلك كانوا يجيئون. وكانوا ينشطون. جماهيرهم الفلسطينية معظمها يحتشد في الأردن، قواعدهم كلها منطلقها الأردن، فكيف تكون قيادة بلا قواعد؟ وكيف تكون زعامة بلا جماهير؟ عصفورين بحجر واحد أراد باقر أن يضرب بمجيئه إلى عمان: يستطلع أخبار بغداد، ويتصل بقيادة الجبهة في عمان.

في أحد الأوكار وجد ضالته. أوصل الرسائل، ثم انتظر أن يأخذ رسائل. خرج إلى الشوارع، تجول في الأسواق وهو يتنفس الصعداء كأنما وجد له متنفساً.

كانت الإذاعات كلها تلعلع، وكان الناس كلهم يناقشون: إطلاق سراح الرهائن، صحيح أم خطأ؟ بعضهم متحمس كل الحماسة للإجراء، مكبر لما فيه من دلالات.

بعضهم الآخر لائم مقرع.

ـ أهم مجانين؟ في يدهم وسيلة للحماية ويلقونها أرضاً؟ درع واقٍ ويتخلون عنه؟ وكان يخالط لومهم خوف.
ـ الضربة آتية ـ هؤلاء الخنازير الأنجاس لسوف يدمرون العراق.
كان الأردن قد ظل المنفذ الوحيد للعراق. وكان الملك حسين لا يفتأ كالمكوك يطير إلى بغداد ويعود من بغداد، يتوسط، يشاور، ينصح، يجادل. تسمعه بغداد أحياناً ولا تسمعه أكثر الأحيان. مع ذلك، ظل الملك طويل البال، واسع الصدر. إناء كبير لا يسعه إلا أن يحتوي الآنية الأخرى ـ الحظر، الحصار، التطويق، العزل، كلها كان قد عرف بها الملك مسبقاً وحذر منها رئيس بغداد ـ حرص الملك شديد على العراق. كيف لا، والعراق والأردن أخوان توأمان..؟ ذات يوم جاء فيصل إلى الأول وعبد الله إلى الثاني، وفيصل وعبد الله أخوان شقيقان. مملكتان صار لهما فصارتا، مثلهما، نصفين متكاملين وأختين شقيقتين!! صحيح، المملكة الأولى ذهبت. قتل عبد الكريم قاسم ملكها وولي عهدها، لكن العراق يظل العراق، الأحب والأغلى على قلب الحسين، ففتح حدوده له حين أغلقت كل الحدود في وجهه، وأقام معه الجسور حين قطعت كل الجسور. الناس يأتون ويذهبون، البضائع تصل إلى الأردن وتنتقل من الأردن، السيارات، القاطرات قوافل متصلة أولها في بغداد وآخرها في عمان فكيف لا يجد متنفساً له باقر؟
ـ عراقي آغاتي؟ يسأل باقر أحدهم وقد رآه يتبضع من كل ما هب ودب.
ـ إي.. بويا. يرد عليه المتبضع ثم يبدأ حديثاً طويلاً يحاول فيه باقر أن يعرف كل شيء عن الوطن من الداخل. "إيه!! ـ أيها الوطن!! أيها المنغرس في القلب نخلة من نخيل البصرة!! جذورها تمتد إلى الأعماق، فلا يستطيع اقتلاعها أحد. إيه أيها الوطن!! يا دمعة في العين لا ترقأ وناراً في القلب لا تطفأ!! متى أحتضنك أيها الوطن بذراعي؟ متى ألثمك بشفتي؟ فتخمد نار الأشواق وينطفئ أتون الحسرات!!".
على الرصيف يتقرب باقر من امرأة تلتفع بعباءة سوداء هي نفسها العباءة العراقية التي طالما أحبها وغنى لها "يامّ العباية... حلوة عباتج... جمالك آية ـ حلوة صفاتج".
يلقي عليها سؤالاً فترد المرأة دون وجل أو ارتياب.
ـ أجل، أنا ماجدة من ماجدات العراق.
وتحدثه الماجدة عن بغداد، التي تعلم أنها على حافة فوهة قد تنفتح في أية لحظة، لتخرج منها حمم البركان. مع ذلك تقول الماجدة:
ـ بغداد لا تخاف، وأكبر دليل إطلاقها سراح الرهائن.
ـ لكن أليس هذا خطأ؟ يسأل باقر وهو على قناعة أن ذلك خطأ قاتل.
ـ خطأ.. صواب، نحن لا نناقش القيادة. هي تعرف أكثر من أي أحد، وتحسن التصرف أكثر من أي أحد.
ـ لكن القيادة فرد، والفرد قد يخطئ ويصيب.
وتسرع الماجدة في الابتعاد بعد أن سلقته بنظرة خاصة كل ما فيها يقول:
"تريد أن تورطني.؟ لا. أنا أريد العودة إلى العراق".
باقر يود أن يجد من يحدثه بصراحة ـ يشكو له هموم العراق، يعرف منه دخائل العراق، لكن دائماً يصطدم. حاجز الخوف يقف في وجهه.
***
ويتلفت حول: "أهناك مخبرون؟ أيسمعنا أحد؟ أيرانا أحد؟" شبح الأمن يطارد الجميع، الرعب من المخبرين، يعشش في قلوب الجميع، ولا يحصل باقر على شيء مما يريد.
سيارة تحمل لوحة البصرة جذبت ناظري باقر حتى تسمر ـ
ـ الله بالخير!؟ بادره باقر مقترباً منه. الأخ من البصرة!!
ـ إي... مرحوم الوالدين. آكوشي؟
ـ لا، ماكو. يرد باقر وقد دغدغت أذنيه الكلمة النقيضة: آكو، ثم يردف: فقط أردت الحديث وإياك!! أنا الآخر من البصرة.
ـ حق!! أنت من البصرة!؟ وتبدأ سلامات، تحيات، كأنما يعرف واحدهما الآخر منذ سنين.
ودون خوف يبدأ البصراوي حديثه. يجيبه على كل ما يريد، يغوص معه في بحر العراق حتى أعمق الأعماق. أخيراً يسأل الرجل سؤالاً، ويكتشف باقر أن الرجل يعرف أباه.
ـ أبوك عبد الوهاب التنكجي؟ رحمة الله عليه. صديقي كان. مزاريب بيتي كلها عملتها عنده. بيده صنعها لي. رحمة الله عليه! كان رجلاً زين.

ويشرد باقر إلى البعيد، إلى الرجل الزين الذي كان أباه. ماهراً في صنعته كان، لكن منافسيه كثر. لا يقف في مكانه. يريد أن يطور نفسه ما استطاع. يعلم أن هناك دائماً أحسن، وأن عليه أن يسعى دائماً إلى ذلك الأحسن. لهذا، ربما، انتسب إلى حزب العمال البروليتاري، وكله أمل أن يتسلم ذلك الحزب السلطة فيرفع من شأن العمال والبروليتاريا. باقر لا يذكر بيتهم إلا وهو مقر لنشاط العمال والبروليتاريا. اجتماعات سرية تعقد في غرفه الخلفية، مناشير تنطلق منه، نشرات تأتي إليه، والرفاق يحولونه إلى خلية نحل لا تفتأ تعمل لجني العسل.
الكل من حوله مثل أبيه، أممي يتجاوز القوميات، ماركسي يتجاوز الاشتراكيات ثم يحلم بديكتاتورية البروليتارية التي تنتقم للفقراء والمسحوقين. ولا يجد باقر نفسه إلا وهو يحمل الأحلام نفسها، يبشر للأفكار ذاتها، ساعي بريد ينقل للرفاق ما يصل إلى خلية النحل. كان في الثامنة، صغيراً لا يشك أحد فيه، حين أرسله أبوه، عبد الوهاب التنكجي في أول مهمة، ولشد ما أفرحه نجاحه في تنفيذ تلك المهمة. "ولد زين" قال له أبوه "شاطر حسن، لا يخيب فيك رجاء" وكان الأب غالباً ما يرسل الشاطر حسن بمهام ليست في حي القشلة وحسب ولا في سوق التنكجية وحسب، بل إلى سوق الهنود، سوق المقام، حي الخندق، وبيوت على ضفاف العشار وشط العرب نفسه.
كان الرجل شعلة من الحماس، وكان عمله في السوق لا يأخذ إلا القليل من وقته، فالتنكجية كثر والشارون قلة، ولعل ذلك ما كان يدفعه إلى البحث الدائم عما يملأ وقته. كان يلعب الدومينو. وكان مصيره هو وجبار يتوقف على الدومينو إن انتصر أبوه أعطاهما فلوساً، وإن خسر نهرهما "ابعدا عني.. اللعنة عليكما". كان جبار أخاه الكبير وكانا يحبان الذهاب إلى السينما، لكن السينما بحاجة إلى فلوس وهذه لا تخرج من جيب أبيه إلا إذا كان منتشياً نشوة النصر، فكانا كثيراً ما يركعان ويصليان لله متشفعين بعلي والحسين أن ينصر أباهما، أو عادا بخفي حنين.
البصراوي يتذكر أباه جيداً.. الرجل.. الزين... لعله من رفاقه. باقر لا يعرفه لكن البصراوي يعرفه صغيراً ربما لا يتجاوز العاشرة.
ـ ألم تجرني ذات يوم جراً من يدي كي أشتري منك؟
وتذكر باقر. ذلك الصباح، كان البيت بلا مصروف. وكانت الأم تنتظر بضعة فلوس تشتري بها طعام الغداء. وكان المؤذن قد أذن الظهر دون أن يطرق شارٍ واحد دكانهم المليء بالتنك ومصنوعات التنك، ولم يجد باقر بداً من أن يتحول إلى خنفساء يلح ويلح إلى أن يوقع شارياً فيشتري بما يسدون به الرمق.
وسر باقر بالذكرى، سر بالرجل البصراوي وهو يعيد إلى أنفه رائحة البصرة.. عبق بساتينها وأريجها.
ـ تفضل معي... نتغدى. دعاه باقر وهو يفترض نفسه مضيفاً في عمان لضيف قادم من البصرة.
ـ أشكرك يابن أخي. أريد العودة. ألم تسمع الأخبار؟
ـ سمعت، فما رأيك؟
ـ يا ولدي!! ثوب العيرة ما يدفي. وإن دفا ما يدوم. وأطرق باقر ملياً.
"صحيح... بغداد كانت تلبس ثوباً استعارته علة يقيها برد الرصاص وصقيع القنابل، لكن ذلك الثوب لا يبقى. سيطلبه صاحبه إن عاجلاً أو آجلاً". ولقد جاء كارتر، رأس العملاق الأمريكي الأسبق يطالب بالثوب راجياً، لا متوعداً، مستثيراً نخوة بغداد لا متهدداً، "ليس من شيمة العرب أن يحتموا بالنساء. ليس من عادة العرب أن يختبئوا خلف الأطفال" وثارت نخوة صدام في بغداد. مارت مروءته وفارت، فأطلق وعده "سنعيد لكم رهائنكم."
صدام حر ووعد الحر دين، لا بد من إيفائه. زرافات ووحدانا بدأت أسراب الرهائن تنطلق في السماء إلى بلدانها وقد صنع لها الرعب أجنحة، أقوى بكثير من أجنحة الحبارى.
أطفالاً ونساء في البداية، ثم رجالاً في النهاية، لم يكونوا يصدقون أنفسهم. يؤخذون إلى السيارات وهم لا يصدقون. ينقلون إلى المطارات وهم لا يصدقون "أحقاً.. أفلتنا من أنياب الضرغام؟" كان كل منهم يشعر أنه وقع بين فكي ليث، والليث جائع فماذا يفعل به؟ يائسين كانوا، قانطين من الخلاص ظلوا، أربعين... خمسين يوماً... ثم جاء الفرج

فجأة ليبدؤوا الطيران وهم أشد ذهولاً وعجباً من حبارى صحراء وجدت نفسها فجأة فوق بحيرة ماء.

البصراوي ينظر لأمر الرهائن من منظور مختلف.. منظور عبد الوهاب التنكجي الأمي..ـ الإنساني:ـ

ـ مساكين!! ما ذنبهم هؤلاء الأبرياء، أطفالاً ونساء؟ شباباً وشيوخاً؟ إن كانت أنظمتهم تريد ضربنا، فما ذنبهم هم؟ أنظمتهم استعمارية مجرمة، لكن هم مجرد ضحايا مثلنا لتلك الأنظمة، بل ربما ضحايا أكثر منا.

ـ صحيح الرعية دائماً بريئة، رد عليه باقر بشيء من غمغمة، أما السفاح السفاك فهو الراعي.

ـ تريد رأيي يا وليدي؟.. يتابع البصراوي، إن أردت أن تذود عن حياضك فبسلاحك. درع البشر يفيدك لحين، لكن بعد... ماذا بعد؟

ولم يكن باقر يستطيع الرد... بأمان الله، بأمان الله ودع صاحبه آخذاً إياه بالأحضان ثم مضى إلى بيروت.

ـ مجنون صاحبك، عاجله همام ما إن فتح له بابه في بيروت. ليس فيه ذرة عقل واحدة. وفوجئ باقر:

ـ الحمد لله!! أخيراً اقتنعت بأنه مجنون؟ كم قلت لك ذلك من قبل؟

ـ من قبل لم يكن يعنيني. لكن الآن، وهو يمسك زمام الأمر بيده، يفلت كل شيء؟ يرفع مظلة فوق العراق كله، ثم فجأة يتخلى عن تلك المظلة؟

ـ هذا ما يجعلك تشك فيه، تقنط منه وتقول: ربما هي فعلاً لعبة، هو شريك فيها، كما يقول صاحبي هناك، وأشار إلى البعيد، حيث معسكر الحاصباني ويسار.

ـ لا، لا، هذا كلام البسطاء السذج، هو يواجه بحق.. يتصدى بحق... يدافع عن استقلال العرب وكرامة العرب بحق، لكنه فردي نزواتي. ضحك عليه كارتر..ـ ضحكت عليه تاتشر، الوسطاء كلهم دقوا على وتر النخوة والمروءة... الشهامة والعروبة فجردوه من أفضل سلاح يملكه.

***

عبد المحسن يخالف هماماً الرأي. هو يرى أن الحرس الجمهوري أفضل الأسلحة. فرق طويلة عريضة... فيالق جرارة مزودة بأحسن الأسلحة، مدربة خير تدريب، معبأة بشجاعة خالد والمثنى، كيف لا تكون أفضل الأسلحة؟

ـ ولم نبقيهم، رهائن لا تسمن ولا تغني من جوع؟ قال لفاطمة رداً على أسئلتها وخوفاً. نحن قادرون على الدفاع عن أنفسنا.. حماية ترابنا بأسلحتنا، أما هذا الدرع البشري فلعب بالأعصاب. أنا أعلم. القائد أراد أن يلعب بأعصابهم... يلاعبهم لعبة القط والفأر، وكان لاعباً ماهراً. ألم تري كيف ركعوا عند قدميه؟ جاؤوا إليه أذلاء صاغرين؟ هكذا الرجال!

فاطمة مؤمنة أنه هكذا الرجال!! زوجها منهم وهي مشبعة بعبد المحسن إلى حد لا يقبل معه زيادة. حسبها أن ترى طلته... تنعم بضمته. حسبها إشارة منه حتى تسير وراءه حتى آخر الدنيا. لو يسمح لها، إذن لتركت كل شيء وذهبت معه إلى شاطئ الخليج حيث يصب شط العرب بحراً في بحر. وحيث الفاو أنابيب نفط ومصافٍ، موانئ وناقلات. لكن عبد المحسن لا يسمح لها. هو في شغل شاغل. يأتي ليلةً ليذهب ليالي، وهي تنتظر. امرأة لا تعرف من الحياة سوى الانتظار. الأزواج يرحلون وهن ينتظرن. شهوراً.. سنين ينتظرن. بعض أزواجهن يأتون وبعضهم تغيّبهم البحار... تلتهمهم الأسماك... تأكلهم الوحوش. لكن عبد المحسن قوي، شجاع لا تلتهمه سمكة ولا يأكله وحش. في موعد مبيته جاء، وطارت إليه. طار إليه الأولاد. قبلات من هنا.. ضمات من هناك. ثم الحمام الذي يزيل الأوساخ ويفرغ الشحنات. لا، ليس باستطاعة عبد المحسن أن ينتظر الليل... أن يصبر حتى ينام الأولاد. هو في عجلة من أمره فيأكل شطيرة. أليس العصر كله عصر السرعة؟ أليس هو زمن الشطائر والوجبات السريعة؟

إذن، ليأخذ وجبته السريعة في الحمام وتذوب فاطمة متعة ونشوة. تلك الوجبات السريعة أكثر ما يعجبها فيه. هي تعني أن الرجل مشوق، ذائب رغبة وشهوة، وماذا يطرب فاطمة كأن يذوب فيها عبد المحسن رغبة وشهوة؟

ـ لكن، قل لي. هكذا تركهم لوجه الله؟ سألته وقد جلسا يشربان شاي العصر، شأنهما شأن السادة الإنكليز في قصور بكنغهام.ـ
ـ لا، لا، بل مقابل وعود مبرمة ألا يهاجموا العراق، ألا يضربوه، وأن يحلوا الأزمة حلاً سليماً.
ـ حقاً!؟ إذن، نطمئن!؟ لا قصف ولا ضرب؟
ولم يجب عبد المحسن، الأولاد الثلاثة شغلوه وهم يلتفون حوله. الصغير تسلق كتفه محيطاً عنقه بذراعيه حتى كاد يقطع أنفاسه. البنت الكبرى تلتحم به من اليمين، البنت الصغرى من اليسار وكلهم سيل من الأسئلة، على محسن، الأب العارف بكل شيء، أن يجيب عليها.
ـ نريد أن نذهب إلى السينما، أخيراً طلبت البنت الصغرى المدللة كثيراًـ لديه والناطقة عنده باسمهم.
ـ معقول؟ احتجت الأم، أبوكم يأتي ليلة واحدة فتأخذونه إلى السينما؟ لا.. لا.. لا سينما...
ـ بل سآخذهم!! رد عبد المحسن وهو يشد ابنته بين ذراعيه موسعاً إياهم لثماً وتقبيلاً. حبيبتي تأمر، وهل أستطيع إلا أن ألبي أمر الحبيب؟ وهب الأولاد يرقصون فرحاً. الذهاب إلى السينما أمتع المتع لديهم، وهم، مذ بدأت الأزمة، لم يذهبوا إليها. أبوهم مسافر... بعيد، وأمهم لا تأخذهم إلى السينما. ذهبوا إلى الغرف الأخرى وهم يهزجون والصغير ينط عالياً ويمرح، جدياً لبّيت رغباته كلها.
ـ ناصر يسلم عليك، بادرته فاطمة فرحة لذكرى أخيها، وقد عادا وحيدين.
ـ السلام على رسول الله!! اتصل إذن؟ أجاب عبد المحسن بمزيج من السرور والانكماش.
ـ وتحدثنا نصف ساعة!! يا إلهي كم فرحت باتصاله!!
ـ أرجو ألا تكوني قد نسيت الاحتياطات.. الحذر.
ـ لا، بالطبع. أنا حذرة دائماًـ أخاطبه بالرموز والإشارات دائماً. ردت فاطمة ثم توقفت متفحصة إياه مستأنفة: لكن قل لي. ألست موضع ثقة لديهم؟ أيراقبون هاتفك؟
ـ وما المانع؟ هؤلاء، كما تعلمين، وأشار إشارة تعني التجسس، لا يثقون بأحد. البريء عندهم متهم حتى تثبت براءته.ـ
ـ يا إلهي!! لكنك في العب منهم، ضابط كبير في حرسهم الجمهوري!!
ـ مع ذلك يجب اتخاذ جانب الحذر.
ـ أنت تخاف منهم؟
ـ ما من أحد لا يخاف. عيونهم عشرة على عشرة.. آذانهم أكثر بكثير من عشرة على عشرة. يمسكون البلد بقبضة من حديد، والمثل يقول لك: درهم وقاية خير من قنطار علاج.
ـ بيدك حق، غمغمت مطرقة وقد عاودت مخاوف مقلقة. "هل زل لساني بشيء؟ إن كانوا يراقبون الهاتف، ألا أعرض عبد المحسن للخطر؟"
كانت الساعة قد صارت الخامسة، وكانت سماء كانون الثاني ملبدة بالغيوم، ينتظر الناس منها المطر، لكن دون أن تنزل منها قطرة مطر.
ـ جهزي الأولاد. برقة بالغة طلب من فاطمة التي يحب، ثم مضى يلبس ثيابه. خمسة عشر عاماً كانت قد مضت على رؤيته لها: برعماً تفتح، وصدراً نهد. كان قد جاء في إجازة من كليته، ولم تكن تعلم أنه في المنزل، هي التي جاءت على حين غرة. دخلت البيت تمازح أخته تداعبها... صبيتين ترقص البراءة على محياهما. سمع صوتها، ضحكتها، بل المداعبة التي داعبت بها أخته وفتنته. منذ تلك اللحظة فتنته، لكن كان عليه أن يتخرج من الكلية... كلية المدرعات. تخرج، فكان أول ما فعله أن طوق عنقها بعقد، وإصبعها بمحبس، كلاهما من ذهب.
ـ جاهزون!! يا بابا!! جاهزون!! جاء الأولاد تباعاً يتراقصون فيما كان يربط عقدة العنق. كان الكل قد لبس أحسن حلله، ما عدا فاطمة فقد لبست على عجل، وكان حسبها أن تضع العباءة على أي شيء ترتديه، تلك العباءة التي تخفي كل عيب وتستر كل نقص. الكل فرحون يشدون بيدي أبيهم ويدفعونه. يهم بالخروج لكن قبل أن يصل إلى عتبة الباب، يرن الهاتف فينكمش شيء ما في صدر فاطمة.

ـ نعم، رد المقدم في الحرس الجمهوري، بصوت كله جد وصرامة. لم تسمع فاطمة ما قاله الآخر على السلك، لكنها قرأته على جبين عبد المحسن، إذ سرعان ما بدأ يقطب حاجبيه. وسرعان ما بدأ قلبها يهبط من صدرها إلى الركبتين.
ـ علي أن أغادر اللحظة!! بأسى وخيبة نقل لهم الخبر وهو يتجه إلى خزانة ثيابه.
ـ لماذا؟
ـ ماذا هناك؟
ـ ألن تذهب إلى السينما؟
راح الأولاد يصيحون وهم يجرون خلفه.
ـ حقاً، ما الأمر؟ سألت فاطمة بدورها فلم يملك إلا أن ينقل لها الخبر
ـ الغارات الجوية قد تبدأ الليلة، وعلي الالتحاق بالفاو في الحال.
***
مثلما التحق محسن بوحدته بالأمر، التحق باقر بمعسكره دون أمر. لم يكن أحد قد اتصل به، ولا أحد أمره بالعودة. رغم ذلك عاد إلى الحاصباني، ملجئه الغائر في أعماق التلة يكتم الضوء والصوت. لم تكن تنتظره مهمات، ولم يكن ثمة عمل. فآلى على نفسه حين نام أن ينام حتى الضحى.
كانت رحلته إلى عمان ثم بيروت قد استنفدت كثيراً من قواه، لياليه قلما شبع فيها نوماً، نهاراته قلما وجد فيها راحة. همام في بيروت يناقش ولا يشبع. مئات الأسئلة تشغل ذهنه. السياسة، الاجتماع، الاقتصاد، بل حتى الأدب يشغله وليس أحب على قلبه من أن يجادل أياً كان، فكيف إذا كان هذا الأي باقراً؟
في عمان كانت لبانة ومشاغل أخرى، وكان يمضي الليل بطوله دون أن يرقد له جفن. لبانة أعجوبة من الأعاجيب، تتقن كجواري هارون الرشيد فن الإمتاع والمؤانسة. "كلهن جوار" قال أحدهم ذات يوم واستفزه ذلك أيما استفزاز. كان باقر حينذاك ما يزال في ميعة الصبا. كل شيء لديه مثالي. نظرته للحياة، للمجتمع كلها مثالية. ورغم أنهم كانوا يعلمونه المادية التاريخية والجدلية الديالكتيكية في الحزب، إلا أنه لم يكن يستطيع أن يرى في المرأة إلا الصورة المثلى التي تغزل بها جميل وشبب بها قيس. بعضهم كان يحدثه عن المتعة التي يمكن أن تعطيه إياها المرأة، عن ضرورة كسر العادات البالية العفنة، تجاوز مسائل كثيرة متوارثة عن الأسلاف المتخلفين، فتتحلل المرأة من كل ما يربطها بذلك الموروث البالي العفن، وتصبح كالرجل سواء بسواء، إلا أنه، هو باقر عبد الوهاب التنكجي لم يكن يقتنع. كان يرى بأم عينه أحياناً كيف تذهب الرفيقات مع الرفاق، كيف يمارسن حريتهن، يخلعن عن أنفسهن حتى جلودهن، لكنه، هو نفسه، لم يكن يرضى بذلك.
الرفيقة في نظره مصونة، مقدسة، ينبغي ألا يمسها دنس ولا يلحق بها رجس. أليست الرفيقة أختاً في النضال؟ إذن كيف لا يصون أخته ويحافظ على شرفها ما استطاع؟
ثم كانت هناك مهيجة. "آه يا مهجة الروح، يا حبة القلب!! كم حملت لك في حناياي من حب!؟ كم أضناني لك الشوق!! بكل ما أملك كنت أشتري نظرة من عينيك؟ بعمري كله كنت أقايض على ضمة من ذراعيك!! آه يا مهجة الروح يا حبة القلب!! ماذا جرى لك بعدي؟"
كانت مهيجة تسكن الشارع الآخر من حي القشلة نفسه، أسرتها هي الأخرى كأسرة التنكجي، خلية من الرفاق المناضلين ممن يضحون بالغالي والرخيص في سبيل انتصار العمال والفلاحين، ولأنهم كانوا كذلك، كان الأبوان كثيراً ما يجتمعان، وكانا كثيراً ما يرسلان بينهما المراسيل، وكثيراً ما كان هؤلاء المراسيل، وكثيراً ما كان هؤلاء المراسيل باقراً ومهيجة. صغيرين كانا يلتقيان ثم يافعين فمراهقين. شيء ما بدا يشد واحدهما إلى الآخر. خيط عنكبوت في البداية، ضعيف واهٍ ربما لا تراه العين المجردة، لكن سرعان ما ثخن واشتد إلى أن أصبح حبلاً متيناً كحبال السفن.
شيئاً فشيئاً بدأ النضال يحلو بمهيجة، الحزب كله يصبح ذا نكهة خاصة، ثم غدا أمتع ما يمتع باقراً أن يكلفه أبوه بمهمة إلى أبيها، أو يكلفها أبوها بمهمة إلى أبيه. كانا يلتقيان، يتبادلان النظرات، اللمسات، الأحاديث، الأفكار... لكنهما لم يتبادلا القبل. كان ينظر إليها نظرته إلى الطهر المقدس.

كثيراً ما حاول أن يكتب فيها الشعر مقلداً قيساً وجميلاً، لكنه كان دائماً يخفق. يكتب شذرات من أبيات يقرأها ليمزقها ثم يذروها مع الريح.

أحياناً كانا يذهبان إلى السينما.. إلى المتنزه، وفي ظلال خميلة أو عتمة سينما، كانت مهيجة تلتصق به، تتلمس يده، خده، بل ذات مساء تلمست شفتيه بأناملها أولاً ثم بشفتيها، وارتعش باقر رعشة هزته اهتزاز قصبة في مهب الريح. "آه يا مهيجة!! أتذكرين كم كنت دافئة تلك الليلة، كم كنت راغبة في العطاء!!"

لكن نجواه انقطعت وقد دخل أبو الليل مسرعاً.

ـ أما تزال نائماً؟ انهض... انهض.

كان باقر قد أفاق، لكن دون أن يغادر فراشه، فبرد كانون والثلوج البيضاء على ظهر البيدر القريب كانا يدفعان به للالتحاق أكثر والانطلاق أكثر مع الماضي والذكريات، لكن أبا الليل هدر من جديد قاصفاً إياه بالخبر القنبلة.

ـ بدأت الغارات الجوية على العراق!!

وأجفل باقر هابّاً ملء طوله:

ـ ماذا تقول؟

ـ الإذاعات هي التي تقول.

ـ منذ متى؟

ـ منذ منتصف الليل. فوهة الجحيم انفتحت على القوات العراقية في الكويت.

ـ يستاهل صدام وقواته، رد باقر بحقده القديم الأزلي على صدام.

ـ لكنهم يضربون البصرة، بغداد، الكويت، العمارة، مدن العراق وقراه، مزارعه ودساكره.

ـ يا إلهي!! هتف باقر بكل ما يحمله من حب للبصرة وخوف على العراق. هذا ما كنت أخشاه!!

وأسرعا كلاهما إلى راديو الترانزستور الصغير. سبق باقر أبا الليل. فتحه على صوت لندن فقرعت سمعه للتو دقات بيغ بن. أخذ سيجارة على عجل... أشعلها وهو ينتظر النشرة. نفث النفثة الأولى قبل أن تبدأ النشرة. مثله كان أبو الليل ينفث دخان سيجارة أشعلها من قبل، وحين بدأ المذيع الأخبار، صدمه الحقد الذي كان يشوب نبرته:

ـ دكتاتور العراق يتلقى الدفعة الأولى على الحساب.

ولم يملك باقر إلا أن يفتح عينيه على سعتهما ويفغر فاه. كان يسمع لكن دون أ ن يصدق ما يسمع. فالمفاوضات... الحل السلمي... الوعود بعدم قصف العراق، وحدها كانت تسود الجو في الأيام الأخيرة، حاملة الكثير من الطمأنينة للنفوس.

ـ مجرمون!! سفاحون!! غدارون!! راح أبو الليل يقاطع أخبار لندن، وقد بدت أشبه بقاذفة لهب تصب نار حقدها على العرب جميعاً، لا على العراق فحسب.

ـ بل هو المجرم.. السفاح. رد باقر كم قلت لك من قبل؟ يثق بهم ويتخلى عن درعه البشري، لماذا؟ أليست مؤامرة؟ أليست جريمة؟

ـ قذائف المدفعية والصواريخ، جاء خبر لندن من جديد محملاً بالحقد والكراهية. تطلقها البوارج الحربية من مياه الخليج على مواقع الدكتاتور في البصرة.

ـ لكن لماذا؟ صاح باقر صيحة ألم وهو يتصور البصرة تشتعل حرائق وتنهدم بيوتاً، تزعق نساء وتصرخ أطفالاً، فلم يملك إلا أن يضع يده على قلبه. باقر يستعيد في ذهنه صورة البصرة الجميلة التي بناها العرب أول ما بنوا في العراق، ميناء على مصب الشط في الخليج، لكن الخليج انحسر متراجعاً إلى الوراء.. مبتعداً عن البصرة مع ذلك ظلت البصرة منفذ العراق الوحيد إلى عالم البحار. ضفاف نهرها مزينة بالنخيل، تسبح فيه الزوارق والسفن، عليها تنتشر المقاهي والحدائق حيث الصبايا يعقدن حلقات، يرقصن فيها ويغنين. باقر يذكر البصرة التي تتيه فخاراً بشط العرب وقد التحم فيه الرافدان: دجلة والفرات، تظلل ضفافه أشجار التوت والصفصاف، النبق والبمبر... وتتفرع منه وإليه جداول صغيرة كثيرة تتوغل في أعماق البساتين. باقر يتذكر نهر العشار بكل ما فيه من عبّارات ومهيلات تنقل الناس وتحمل التمور. يتذكّر كورنيشه الواسع، حيث الفتية والفتيات يزحمون أرصفته في الأماسي، يتحدثون ويضحكون، يقصقصون البزر ويتغازلون. هو يتذكر جسر سورين، ساحة أسد آشور، مصرف الرافدين. اليانق العثماني بلوحته النحاسية التي أصدأتها الأيام والسنون، يتذكرون سوق الهنود بزحامه الذي يقطع

الأنفاس، سوق المقام، باب المقام العالي بنحاسه اللامع وزخرفته الجميلة، كما يتذكر ضريح الإمام، هناك في الداخل، مجللاً بالخضرة، علامة الخصب والعطاء.

ـ أيذهب ذلك كله؟ أتدمر البصرة؟ سأل فجأة بصوت عال فلم يملك أبو الليل إلا أن يعجب.

ـ ولماذا يقصفونها، إذن؟

ـ يا إلهي!! هي ذي الكارثة!! أيحل الخراب بالبصرة من جديد؟ أيعيد التاريخ سيرته الأولى؟ أيفعل الأمريكان بالبصرة مثلما فعل الزنج؟

ـ ليتهم الأمريكان فحسب، إنه العالم الإمبريالي كله.

ـ أجل الإمبريالية كلها، وذلك المجنون يتحدى الإمبريالية... يتحدى العالم كله.

ـ لا تقل مجنون. هو مخدوع، مورّط به، ربما. لكن مجنون، لا.

ـ كيف لا يكون مجنوناً من يواجه قوى العالم كله الآن: أمريكا..ـ بريطانيا..ـ فرنسا... كندا..ـ أستراليا...

ـ وإسرائيل.ـ لا تنس إسرائيل، قاطعه أبو الليل وقد مل من ذلك التعداد. إسرائيل من وراء تلك الدول كلها، معلوماتها، استطلاعاتها، تكنولوجيتها..ـ كل ما تملكه إسرائيل تضعه تحت تصرفهم ليضربوا.

ـ ألم يعلم ذلك؟ كيف إذن يواجه ذلك العالم؟

ـ هم جروه جراً. رغماً عن أنفه أدخلوه المعركة، عصابة من الكاوبوي التقت بشاب معتد بنفسه. هو في عنفوان الشباب طالع إلى الدنيا كرمح رديني فكيف لا يعتد بنفسه؟ قال له زعيم العصابة "تعال، أشعل لي سيجاري"، "ليس لدي نار" رد الشاب وهو يحاول المرور بسلام. لكن العصابة لا تريده أن يمر بسلام، فسدت عليه الطريق. "كيف؟ ينبغي أن يكون معك نار" رد أحدهم. "أمر الزعيم يجب أن يطاع". قال آخر. "أطيعه وليس لدي ولاعة ولا كبريت؟" "أتهزأ؟ إذن خذها" وسدد الزعيم لكمة له، تفاداها الشاب بحركة بارعة متراجعاً إلى الوراء. فيما شرعت العصابة تتقدم: "دعوني وشأني. مالي ومالكم؟ أنا لم أخطئ بحق أحد منكم. دعوني وشأني". كان يصيح وهو يتراجع، فيما هي تتقدم إلى أن حشرته في الزاوية. "سنقتلك، يعني... سنقتلك" قال الزعيم وقد أحاطت به العصابة إحاطة الطوق بالعنق.

"لكن.. ماذا فعلت لكم!؟ أنا لم أسئ إليكم... لم أؤذ أحداً منكم" "ترى نفسك!؟ تعتز بكبريائك. سنلقنك درساً... سنجعلك عبرة وعظة. اركع" صرخ به الزعيم فأجفل "أركع؟ لا.... لن أركع". "بل ستركع... ستقبل حذائي"ـ "أموت ولا أركع لأحد. أهلك ولا أقبل حذاء أحد." رد الشاب بكبريائه نفسها، وأعطى الزعيم الإشارة لينصب على الشاب وابل من لكمات... رفسات.... نطحات رؤوس، ضربات ركب، إلى أن وجد نفسه يسقط أرضاً ملء فمه الدماء... ملء جسده الجراح... ملء أوصاله الرضوض... ملء رأسه الآلامـ والآلام تبرح، ثم إن اشتدت تفقد المرء الوعي.

ـ من فمك أدينك، صاح باقر وقد وجد حجة دامغةـ يتكبر، ويتجبرـ وهو بمفرده أمام عصابة، لماذا لم يرغ منها؟ لماذا لم يحاول حتى الهرب؟

لم يكن باقر وحده يسأل ذلك السؤال، بل كل مشفق على العراق، كل عارف للحقيقة، كل كاره للبغي والعدوان كان يسأله. مع ذلك كان يرافقه السؤال حنق وغيظ. لماذا تدمير العراق؟ لماذا إبادة الجيش العراقي؟ حرق النفط؟ تخريبـ الاقتصاد؟ قتل الأبرياء؟ مع التساؤلات بدأت الجماهير العربية تندفع، في أكثر من مكان راحت تحتجـ مظاهرات حاشدة في الأردن، فلسطين، لبنان، ليبيا، اليمن، تونس..ـ كلها تطالب الإمبريالية برفع يدها عن العراق. لكن صواريخ الكروز، القاذفات ب 52، طائرات الميراج، السكاي هوك، كلها صماء الآذان، لا تصلها أصوات الجماهير ولا احتجاجات العقلاء من بني البشر. كانت تنطلق من البحر، الجو، البر، من الشمال، من الجنوب، ثم تنقض على مواقع القوات العراقية في الكويت على الحدود داخل العراق، ثم تنقض على الموانئ، المطارات، القواعد العسكرية، المرافق المدنية وقد غدت كلها بلا غطاء. الدرع البشري انتهى، خلعه العراق ليصبح عاري الصدر، حاسر الرأس يتلقى الضربات الموجعة وينوح، نخيله ينوح، دجلته تنوح، فراتهـ كل ما فيه يتمزق شظايا ويتوجع، كل ما فيه يتفتت ذرات وينوحـ غورباتشوف يحاول حفظ بعض من ماء الوجه، فيشعل الخط الأحمر احتجاجاً،

ـ لماذا ضرب العراق نفسه؟ لماذا استهداف المدن والقرى؟ النساء والأطفال؟

ـ نحن لا نضرب المدن والقرى، يرد بوش بكل صلف الكاوبوي وغطرسته، بل مواقع صدام العسكرية، مقراته الرئاسية، نريد تحطيم رأسه فقط.
ـ التقارير تقول غير هذا
ـ الأوامر تقول هذا، لكن إن حصل خطأ، وفي المعارك تحصل أخطاء، كما تعلم، فليتحمل المسؤولية صدام.
ـ الشعب في العراق هو الذي يتحمل المسؤولية الآن يا سيدي... الشعب وحده هو الذي يقتل ويجرح والشعب بريء... أعزل... سيدي الرئيس.
ـ مرة ثانية أؤكد لك، يا صديقي غورباتشوف، شعب العراق ليس هدفنا، بل دكتاتور العراق.
لا بد من سحقه حتى العظم فلا يرتفع لديكتاتور بعد اليوم رأس.
ـ لكن سيدي الرئيس، سحق ديكتاتور لا يحتاج لسحق شعب. القضاء على ديكتاتور لا يبرر القضاء على شعب.
ـ صديقي غورباتشوف، منذ متى كنت رقيق القلب إلى هذا الحد؟
ـ ليس رقة قلب سيدي الرئيس، بل هو ماء الوجه، نحن الذين توسطنا بينكم وبينه يوم الرهائن. أتذكر يا سيدي؟ نحن الذي نقلنا له وعدكم بأن لا تقصفوا العراق، أن تعملوا على حل الأزمة بالمفاوضات... بالطرق السلمية، أنسيت يا سيدي؟
ـ لا، لا مفاوضات مع ديكتاتور معتدٍ، قاطعه الكاوبوي محتداً، وقد نسي كل ما وعد به على لسان غورباتشوف أو لسان كارتر.
ـ معتدٍ؟ كيف وهو بعيد عنكم، سيدي الرئيس؟ بين العراق وأمريكا برارٍ وبحار... محيطات وقفار، فكيف، ومتى اعتدى عليكم؟
ـ حلفاؤنا هم جزء منا. يعتدي عليهم إذن يعتدي علينا. ولقد اعتدى على الكويت.
وبدا غورباتشوف كأنما يدور في حلقة مفرغة. كانت المسألة بالنسبة إليه مسألة كرامة وشرف. في وساطته كلها كان يؤكد لبغداد أن أحداً لن يمس العراق، يداً لن تمتد إليه، لكن هاهي ذي أيدٍ طوال بعصي غليظة تمتد إلى العراق، تهبد العراق. فماذا يقول للناس؟ كيف يواجه شعبه، وفي شعبه ملايين المناصرين للعراق؟ بأي وجه يقابل العالم، والعالم يعرفه عملاقاً كانت الأرض ترتج تحت قدميه؟
كارتر نفسه كان يتساءل الأسئلة نفسها، فقد حمل لبغداد وعوداً سرعان ما تبين أنها كاذبة!؟ "هل أرسلوني واسطة ليورطوني؟ هل حملوني الوعود وهو يعلمون أنها كاذبة؟" اتصل كارتر بإمبراطور العالم، ذاك الذي يتربع على عرشه في البيت الأبيض. يريد الاحتجاج، التذكير بالوعود، لكن إمبراطور العالم مشغول. لم يعد معنياً بالرد على واحد من رعيته، ليس له سوى صوته الانتخابي. وأقفل كارتر الخط كسيراً حسيراً.
ميتران في حالة من الغيظ هو الآخر، فرنسا، أم الحضارة، تلك التي كان مهدها العراق، فكيف تؤمر طائراته الميراج بتدمير مهد الحضارة؟ لماذا يحطم العمود الفقري للعراق؟ لكي يغدو كسيحاً عاجزاً لا تقوم له قائمة؟ والأعداء؟ كيف يحطم العراق والأعداء من حوله كثر وكل يحاول نهشه من جانب؟
ـ لا، ليس من مصلحتنا تدمير مهد الحضارة! ليس من مصلحتنا إضعاف العراق إلى حد العجز؟
ـ Shutup ، مسيو متران، أجابه الكاوبوي المتمرس بأفلام الويسترن، وقد أضفى على صوته مسحة من دعابة. قلت لك ستكون لك حصة من "الطرطة"، أم تريد أن أحرمك تلك الحصة؟
وخرس ميتران وهو يتذكر كيف سال لعابه حين وعده "بالطرطة" من قبل. هو، طوال عمره، يحب "الطرطات"، وإذا ما جاءته حصته من الكعكة دون كبير عناء فلماذا يرفض؟ هو حاول لكنه أخفق، صح منه العزم لكن الدهر أبى. ثم صدام يستحق. يريد أن يحرر العرب، يوحد العرب، يجعل منهم قوة حقيقية في الجنوب تشكل الخطر الأشد على الشمال!؟ الشمال والجنوب عبر التاريخ عدوان. كم شهد البحر الأبيض المتوسط من معارك في خضمه وعلى جنباته وفيها كلها كان الشمال والجنوب عدوين لدودين، فكيف ينسى ذلك ميتران؟ لم لا يحني رأسه للعاصفة ويأخذ جائزته في النهاية؟ "العراق كعكة العالم سيقتسمها الأنكلو أمريكان فيما بينهم رضيت أم أبيت، فلم لا أرضى؟ لم لا أحالف

القوي، والنصر سهل على الضعيف، فأكسب وأغنم بدلاً من أن أحالف الضعيف، والنصر مستحيل على القوي، فأخسر وأهزم"؟
ومضى ميتران إلى منتجعات "كان"، حيث شواطئ اللازورد ودفء البحر الأبيض المتوسط، فيما كانت سماء بغداد، البصرة، الموصل، تمطر حمماً من نار تنزل على الأرض فتسيل الأرض دموعاً ودماء، تتفجر حرائق ودخاناً.
حاول طارق عزيز الاتصال بكارتر "أين السلم الذي جئت تحدثنا به؟ أين الوعود بالمفاوضات والاتفاقات؟" لكن الهاتف العراقي لا يعمل. خطوطه كلها مقطوعة. وللتو، شد الرحال إلى موسكو. وفي موسكو حلفاء قلما خذلوه.
صحيح أنهم لم يرضوا عن احتلاله للكويت، لكن الصحيح أيضاً أن الأمر لا يصل بهم إلى حد الرضى عن تدمير العراق، هم الشركاء الأساسيون في بنائه. أسلحة العراق منهم... على أرضه خبراؤهم. جسوره من تصميم مهندسيهم... سدوده... معامله، كلها بالتنسيق معهم فكيف يتخلون عنه؟
ومن جديد عاد غورباتشوف إلى الخط الأحمر.
ـ طارق عزيز عندي..
ـ ماذا؟ قاطعه كاوبوي واشنطن يمتزج بدهشة الغضب. كيف جاء؟ أية ثغرة عبر؟
لكن غورباتشوف لا يعلم كيف يخبره. الرجل جاء ضيفاً فهل يسأله كيف جئت؟
كان قد سأله لماذا جئت؟ سمع صرخاته، احتجاجاً وحسب، ففي نبرته أسى موجع، وفي سيمائه مسيح آخر دقت يداه وقدماه بمسامير على الصليب.
ـ المهم سيدي الرئيس، يريد إيقاف القصف. هو يقول العراق تحول إلى جهنم...
ـ لم ير شيئاً بعد. قاطعه إمبراطور العالم نافخاً صدره شائلاً برأسه. الآتي أعظم.
ـ لكن، يمكننا حل المشكلة. صدقني سيدي الرئيس. فقط، قل لي ماذا تريد؟
وأطبق صمت على الخط الأحمر. كان إمبراطور العالم يضحك على الطرف الآخر. لو كان لدى غورباتشوف هاتف تلفزيوني لرآه وهو يكتم ضحكات كادت تنفلت وهزات من رأس يلوح يمنة ويسرة "مسكين غورباتشوف!! يريدني أن أقول له ماذا أريد من العراق!؟ ليسأل إسحق شامير.. أرئيل شارون... إسحق رابين... ماذا يريدون من العراق؟" لكن صوت غورباتشوف قطع عليه سلسلة أفكاره.
ـ ماذا سيدي الرئيس! أنت معي؟
ـ أجل، يا صديقي! صاحب البيروسترويكا المبجل!
ـ إذن، قل لي. أرجوك. ماذا تريد من العراق؟
ـ رأس صدام.
ـ أو يسلم عاقل رأسه يا سيدي؟
ـ إذن، رأس العراق.
ـ كيف، والعراق اثنان وعشرون مليون رأس!؟ أتريدها كلها يا سيدي؟
ـ أجل، برج من جماجم كبرج بابل ذاك الذي شهد عذابات اليهود. أتذكر؟ نبوخذ نصر سبى اليهود، ساقهم إلى بابل، صنع منهم عبيداً وإماء، ثم جعلهم شتاتاً في الأرض.
ـ حسن، لكن كيف أترجم هذا الكلام لطارق عزيز؟
ـ ليذهب طارق عزيز إلى الجحيم. أنا لا يعنيني رجل مثله بل لا يعنيني صدام نفسه. أريد بالضبط ما تفعله طائراتي الآن.. ما تفعله بوارجي... صواريخي، أريد مسح العراق عن وجه الأرض.
ـ هذا كلام خطير. سيدي الرئيس. سيحتج العالم كله عليك إن سمعك.
ـ وكيف سيسمعه العالم؟ سيُسمعه إياه؟ أنت، يا صديقي، صاحب البيروستريكا؟ رد الكاوبوي ساخراً سخرية التهديد من رئيس الدولة التي كانت قبل سنوات فقط أحد عملاقين يحسب له العملاق الآخر ألف حساب.
ـ لا، لن أسمعه شيئاً كهذا، لكن كرمى لصداقتنا سيدي الرئيس. من أجل محبتنا، تعاوننا الدائم، وحفظاً لماء وجهي، على الأقل، اطلب طلباً معقولاً سيدي الرئيس.
ـ حسناً!! قل لطارق الزفت ذاك، لينسحبوا من الكويت دون قيد أو شرط، وفي الحال.
وأسرع غورباتشوف يزف البشرى لضيفه الحزين على بغداد وهي تتحول ساعة بعد ساعة إلى أنقاض.
ـ ننسحب، لكن ليوقفوا القصف، كي نتمكن من الانسحاب؟

وعاد غورباتشوف إلى الخط الأحمر، يزف بشرى حسبها سارة للغاية.
ـ هم موافقون على الانسحاب، دون قيد أو شرط. فقط، أوقفوا القصف، سيدي الرئيس..ـ
وأرتج على السيد الرئيس، إمبراطور العالم. العدو يفوت عليه فرصته التاريخية. يوافق على الانسحاب وكم يكره أن يوافق على الانسحاب!!
ـ هه!! ماذا قلت يا سيدي!! سأله غورباتشوف بكثير من اللهفة، هو الذي يريد أن يخرج بشيء من ماء الوجه.
ـ اسمع يا صديقي. إيقاف القصف صعب الآن. لا بد له من قرار. أمهلني بعض الوقت.
وأمهله غورباتشوف ساعتين. استشار فيها الإمبراطور صاحب الجلالة والمهابة مستشاريه وحلفاءه، فأرغت المرأة الحديدية في لندن وأزبدت:
ـ لن نوقف القصف حتى يلقي الجيش العراقي بأسلحته كلها. في الكويت، على الحدود، في الداخل، عليه أن يلقي بكل ما لديه من أسلحة: بدءاً من المسدس وحتى المدفع العملاق ثم يرفع كل فرد فيه الراية البيضاء فنكون على ثقة أنه الإذعان الكامل.
وفرح إمبراطور العالم أيما فرح. "عبقرية هذه المرأة الحديدية. من أين تأتي بمثل هذه الأفكار!! لقد أنقذتنا."
بعدئذٍ سارع إلى الخط الأحمر ينقل لصديقه شرطه الجديد.
ـ لكن هذا مستحيل، سيدي الرئيس، رد غورباتشوف، وقد فاجأته قسوة الشرط.
ـ لا نقاش. إما إذعان كامل أو قصف مدمر متواصل إلى أن يتحقق ذلك الإذعان.
أسقط في يد غورباتشوف، وهو يرى الطرق كلها تسد في وجهه. بغداد لا تقبل بالإذعان. هو واثق من ذلك. الاستسلام، رفع الراية البيضاء، كلمات لا تدخل في قاموس بغداد، فماذا يقول لطارق عزيز؟
بكثير من التأتأة والمأمأة، نقل غورباتشوف شروط الكاوبوي في واشنطن. للتو امتعض طارق عزيز وأربد وجهه، وبالطريقة التي وصل بها إلى موسكو عاد أدراجه إلى بغداد.
ـ هكذا!! رد حاكم بغداد وقد قدحت عيناه شرراً. يريدون منا أن نلقي أسلحتنا حيثما كنا؟ يريدون إذعاننا واستسلامنا؟ إذن، طاب الموت يا عرب!!
وهز تل أبيب دوي انفجار هائل كأنه انفجار بركان. أبنية انهارت، جدران تطايرت، غبار ثار، دخان طار، فيما أضاء ليل تل أبيب نيران حرائق اندلعت هنا وهناك. الانفجار الذي أصم الآذان أول الأمر فتح الأعين على سعتها ذهولاً ودهشة بعدئذٍ، ثم انفجرت تساؤلات واستفسارات، سرعان ما ارتدت على أعقابها جواباً واحداً شديد الهول: "صدام بدأ القصف". تلفت الكل إلى الكل وقد تسمروا في أماكنهم.
ـ معقول؟
ـ يد تطولنا؟
ـ صواريخه تدكنا؟
بدأت تساؤلات ذوي القفاطين السوداء والقلنسوات الصغيرة التي تغطي أعلى الرأس. وكانتشار النار في الهشيم، بدأ الرعب ينتشر موجاً كاسحاً جعل يهود تل أبيب أسراب عصافير جاءها باشق، وصورة واحدة أمام أعينهم: سنابك خيل نبوخذ نصر تدق أبواب أورشليم، وسبي بابل يعود من جديد.
ـ أتسبينا بابل مرة ثانية؟
ـ أهي الدياسبورا من جديد؟
وطار يهود تل أبيب، عصافير مذعورة تريد الخروج من تل أبيب. وحدها مكبرات الصوت أوقفتهم.
ـ اقصدوا الملاجئ؟
ـ انزلوا إلى الأقبية
ـ لا تتحركوا في العراء.
وازداد ذوو القفاطين والقلانس رعباً، مكبرات الصوت تحذرهم من صواريخ جديدة، من انفجارات أشد هولاً قد تقع في أية لحظة، فأسرعوا يختبئون: "تسبينا بابل... ليكن. لكن نموت؟ لا، وألف لا".
وراحت الأكتاف تزحم الأكتاف، الأقدام تطأ الأجسام، الكبار يدهسون الصغار، الصغار يزعقون مستنجدين بالكبار. فالحمر المستنفرة التي فرت من قسورة لا تعي شيئاً مما

حولها، تندفع بقوة السيل، لا تميز بين طفل وشيخ، حامل ومرضعة يملأ عينيها سديم أعمى اسمه الرعب.
صاروخ آخر سقط بانفجار أشد هولاً، ثم سقط ثالث ورابع حتى بدا وكأن آلهة الحرب كلها تنقض، بكل صخبها وجلبتها، على تل أبيب.
وعلى الأثر دماء سالت، أجسام احترقت، أشلا تطايرت فيما ملأت شوارع تل أبيب صافرات إنذار، أبواق إسعاف، صرخات جرحى، زعقات نساء، وخلال دقائق تحولت تل أبيب إلى بحر صاخب الأمواج، مضطرب المياه، وقد أمسكت بها قبضة إعصار هائل يدعونه التنين.
ـ سيدي إمبراطور العالم!!! هتف إسحق شامير لسيده المتجبر المتعالي هناك في واشنطن لا تطوله يد ولا تصله صواريخ، أرأيت ما يفعل صدام؟ صواريخه تدكنا يا سيدي!! تدمر تل أبيب يا سيدي.
ـ اللعنة!! رد إمبراطور العالم وهو يشتعل غيظاً، حسبناه سيركع عند أقدامنا فإذا به يقصفنا!
ـ ماذا أفعل؟ أشر علي يا سيدي. تل أبيب تخرب. خراب الهيكل يحل من جديد. سبي بابل يعود.
ـ خسئوا، عزيزي إسحق!! قاطعه الكاوبوي المتجبر ـ لا خراب ولا سبي... اطمئن سأرسل لك صواريخ الباتريوت تدمر صواريخه قبل أن تصل.
ـ الباتريوت!؟ ومتى تصل؟ بعد خراب البصرة يا سيدي؟
ـ بعد... قبل.. ما الذي بوسعي أن أفعل؟
ـ دمر العراق يا سيدي! اهدم بغداد حجراً على حجر.
ـ وماذا أفعل إذن؟ منذ بدأ القصف والطيران أسراب ذاهبة.. أسراب آيبة. الصواريخ أفواج أفواج.ـ قذائف المدفعية البحرية أمواج أمواج... اذهب إلى العراق وانظر ـ العراق كله كتلة من نار... ساحة من حرائق.
ـ مع ذلك تدكنا صواريخه!؟ إسرائيل كلها بحر من هلع يا سيدي! يجب أن نتصرف. بسرعة نتصرف.
ـ اقتراحك!!
ـ قنبلة ذرية واحدة أدك بها بغداد.
ـ لا، لا، قاطعه الكاوبوي السادي الذي يتلذذ بالتعذيب، التمريغ، القتل البطيء الإفرادي ـ لكن السريع.. الجماعي... لا، فليس في مثل ذلك القتل لذة. قنبلة ذرية!؟ هدروجينية!؟، نهره أخيراً ـ العالم كله حظرها والعالم كله سينقم علينا إن استخدمناها.
ـ إذن. دعني أرسل طيراني يدك بغداد ـ لدي من خيركم، مئات القاذفات الشبح، السكاي هوك، الميراج... دعها تشارك في المعركة يا سيدي. دعها تنتقم لضحاياي هنا. ترفع معنويات حاخاماتي ورعيتي هنا.
ـ تخرب الطبخة كلها. رد الإمبراطور بعد لأي، وقد أغراه الاقتراح إقداماً، لكن الخوف كبحه إحجاماً.
ـ أخرب!؟ طبخة!؟ ماذا تقصد سيدي؟
ـ إن دخلت إسرائيل الحرب، انقلب العرب كلهم علينا. صاروا ضدنا.
ـ لماذا؟ ألا يعلمون أننا شركاء. أن إسرائيل وأمريكا واحد؟
ـ يعلمون، لكنهم يتجاهلون. يظل لديهم هامش للمناورة يناورون فيه على شعوبهم. "لا، أمريكا شيء وإسرائيل شيء آخر"، تقول إذاعاتهم للناس. "أمريكا صديقة حليفة أما إسرائيل فعدوة، ونحن نحالف الأصدقاء لا الأعداء"ـ لكن إذا شاركت الآن في الحرب سينكشف الغطاء ويصبح من المجال التعمية والتضليل، فتخرب الطبخة كلها.
ـ ماذا تريد إذن؟ يضربني صدام وأقف مكتوف اليدين؟
ـ ألسنا واحداً؟ نحن وأنتم، ألا تقول أننا واحد، عزيزي إسحق؟ رد إمبراطور العالم بنبرة التهدئة ـ
ـ أجل، واحد. سيدي، واحد.
ـ إذن، دعونا نحارب واستريحوا أنتم. تابع الكاوبوي، حرب بالوكالة نخوضها عنكم، فلماذا تعذبون أنفسكم؟ لقد جئت بالعالم كله ليخوض حرباً بالوكالة عنكم، بل جندت حتى

العرب ليخوضوا تلك الحرب. يقتل العرب العرب عوضاً عنكم، فماذا تريدون خيراً من ذلك؟
ـ مع ذلك، لا بد من أن أنتقم بنفسي. لن يشفى غل لي وللناس هنا إلا إذا شارك طيراني.. صواريخي... سفني.
ـ لا، لا، بعرضك، عزيزي إسحق!! صواريخ..ـ سفن... لا...
ـ إذن، الطيران؟
ـ الطيران معقول، رد بوش بعد لأي، لكن مموه، أتسمع؟ شرط أن يكون مموهاً فلا ينكشف أمرنا.
وقبل أن ينبلج فجر تلك الليلة، كانت مائة طائرة إسرائيلية تحط على حاملات الطائرات البحرية: الميراج مع الميراج، الهوك مع الهوك، الإف 16 مع الإف 16ـ لكن كلها بغير نجمة داوود ودون أن يأتي على ذكر ذلك إذاعة أو تلفزيون... فيما العكس كان صحيحاً.
لم ينه إسحق شامير حديثه مع إمبراطور العالم حتى كانت وكالات الأنباء، الإذاعات، المحطات التلفزيونية قد بثت للعالم كله أخبار صواريخ السكود، صورها، وهي تهز تل أبيب هز الزلازل.
باقر سمع الخبر فلم يشعر إلا وهو يثب عالياً في ملجئه إلى درجة اصطدام رأسه بسقفه الأسمنتي، فيما لعلع معسكر الحاصباني رصاصاً وهتافاً. أبو الليل رفع بندقيته الكلاشينكوف وأرخى لها العنان.
ـ حيا الله، بارك الله!! حيا الله، بارك الله!!
ـ العراق يضرب إسرائيل!! العراق يدك إسرائيل!!ـ
بدأ الهزج والغناء للتو. فالفدائيون الذين ظلوا سنوات طويلة لا يملكون إلا أن يحنوا هاماتهم لطيران إسرائيل وأن يختبئوا منه فئراناً في جحور، هاهم، ولأول مرة، يرون صواريخ عربية تدك إسرائيل... تبث الذعر في نفوس يهودها فيسرعون إلى المخابئ وقد غدوا هم أنفسهم فئران جحور. الآية تنقلب رأساً على عقب، فكيف لا يثب فرحاً باقر؟ كيف لا يهزج ويرقص أبو الليل؟
جند العرب المتربصون على حدود الكويت، حدود العراق، هزجوا ورقصوا، بل كثيرون منهم خرجوا إلى العراء يطلقون النيران فرحاً وابتهاجاً. قائدهم، الفريق العتلّ، نفسه سمع هزجهم ورصاصهم فاشتعل حيرة. أيمنعهم من الفرح وإسرائيل تدك، أم يفرح معهم هو نفسه؟ قبل تلك الحرب كان يدفع المليارات، لتطوير صواريخ العراق، لتقوية جيش العراق كي يحارب إسرائيل، يقف حارساً لبوابة الشرق، ويحمي الوطن الكبير كله. الآن تقصف بغداد تل أبيب، فمن من العرب لا يفرح؟ كيف لجند عاشوا على حلم تحرير فلسطين من ألا يهزجوا ويرقصوا وهم يسمعون أصوات الصواريخ تدك تل أبيب؟ الحيرة تأكل قلبه، عقله وهو يذرع خيمته جيئة وذهاباً، يكاد يجن جنونه. "ماذا سيقول شوارتزكوف؟ ضباط اليانكي، الأنكلو ساكسون، ماذا سيكون رد فعلهم؟" لكن الجند الذين فرحوا لقصف إسرائيل لم يفكروا باليانكي ولم يكن يعنيهم الأنكلو ساكسون. كانوا قد انطلقوا بعفويتهم يفرحون ويهزجونـ في المعسكر المصري، العماني، القطري، السوري، الظبياني... كانت جموعهم تطلق الرصاص وتهزج، فرحة راقصة تهزج:
"اضرب... اضرب يا صدام
تل أبيب تحت الأقدام"ـ
ثم تعالت أهازيجهم ورصاصهم إلى أن صكت مسامع الفريق الحائر، فأعطى أوامره للتو:
ـ يريدون أن يفضحونا، أسكتوا هؤلاء المجانين، كموا أفواههمـ
وأسرع الضباط، الذين شارك بعضهم في الهزج والرقص، بإسكات الجند. مع العسكر والأوامر العسكرية، لا مجال للنقاش. فقط نفذ ثم اعترض.
لكن الشارع العربي لم يكن له علاقة بالعسكر ولا الأوامر العسكرية، سمع دوي الصواريخ في تل أبيب، رأى على شاشات التلفاز رعب تل أبيب، ولأول مرة، فخرج في كل مكان من الوطن الكبير: نساء، رجالاً، شيوخاً، أطفالاً، والكل يرقصون ويهتفون:
"سكود... سكود... صب النار
على الصهيوني الغدار".

العالم العربي كله في عرس. زغاريد النساء وهناهينهن ملء الأسماع والأبصار. نسي الجميع قصف بغداد، البصرة، العمارة، الموصل، ليمثل أمام أبصارهم شيء واحد: قصف تل أبيب، فخرجوا يحيون السابقة الرائعة التي حلموا بها منذ عقود.
شرطة الأنظمة في عواصم العرب وقفت حائرة مترددة. حلفاء لندن.. حلفاء واشنطن ما تراهم يفعلون، وحشود هائلة من الجماهير تبكي الدموع السخان فرحاً؟ تبح أصواتها هتافاً؟
" قفوا مع العراق لا أمريكا." "قاتلوا أمريكا لا العراق" "صدوا العدوان" "حرروا فلسطين". "وآلاف الهتافات التي أذهلت كاوبوي واشنطن، تاتشر لندن وميتران باريس. "لم يمت العرب إذن!! ما زالت فيهم بقية من روح." فكرت المرأة الحديدية الحاقدة على شعب تريده أن يموت لكنه لا يموت. أخبار الشارع العرب تزيد حقدها اشتعالاً، ثم يجن جنونها أكثر وهي ترى على شاشات التلفاز جماهير العرب ملء الشوارع والطرقات تريد من حراب العرب أن ترتد لصدور الغزاة المستعمرين لا الأشقاء الذين عن أوطانهم يذودون. يجن جنونها أكثر وهي ترى شوارع بغداد نفسها تغص بالناس وقد خرجوا دون وجل أو خوف يهزجون ويرقصون. الطائرات تقصف، الرصاص يئز، الصواريخ تنفجر، ما يهمهم؟ ثمة فرح أكبر يجعلهم ينسون كل شيء، فرح أكبر يمسح كل خوف، إنه دك إسرائيل.
فاطمة نفسها خرجت إلى شارع الأعظمية، رقية إلى شارع المنصور، بل أمهما نفسها خرجت مع جاراتها إلى كورنيش شط العرب. آلاف، عشرات آلاف النساء خرجن في كل مدينة في العراق يهزجن ويهتفن حتى غدت مدن العراق بحاراً تموج بالعباءات السوداء. الرجال في ميادين القتال لا يستطيعون الخروج، فلماذا لا تخرج النساء؟
مع بداية القصف الوحشي وهن مع أطفالهن في المنازل، شعرن بالخوف. الوهلة الأولى ارتعدت فرائصهن. "حان الحين. جاءنا عزرائيل" كان لسان حالهن يقول، فلذن بأقرب ملجأ. اختبأن في الأقبية، يسمعن الإذاعات ويزداد خوفهن. صوت أمريكا تقول "ثلاثة أيام ويغدو العراق كله خراباً يباباً. لا بغداد تظل ولا بصرة تبقى". يعلن صوت لندن: "سنعيد العراق إلى العصر الحجري".
واشتد الهلع في النفوس.
ـ إن لم تبقَ بغداد.. أنبقى نحن؟ قالت جارة فاطمة، حينذاك، لفاطمة.
ـ لا أظن، ردت فاطمة وكلها خوف وتوجس.
ـ يعيدوننا إلى العصر الحجري، كيف؟ قالت امرأة لأخرى.
ـ يقضون على كل أثر للحضارة... للمدنية، ردت الأخرى فعادت الأولى تضرب كفاً بكف: إذن، هو ذا الموت الزؤام!! هي ذي النهاية!!
وطوال الساعات الأولى للقصف، ظل الشيوخ، الأطفال، النساء، ينتظرون الموت الزؤام يحمله إليهم طير الأبابيل الذي لم يكن يكف ساعة واحدة فتشتعل منازلهم ناراً، يتمزق أطفالهم أشلاء، تنهار جسور على دجلة والفرات، تتساقط مستشفيات على مرضاها، تحترق سيارات بركابها، معامل بعمالها، وشيئاً فشيئاً تنخفض المعنويات ويدب اليأس.
"المعركة خاسرة، القوى غير متكافئة، فكيف نواجه وحيدين قوى الشر في العالم كله؟" كانوا يتساءلون في بغداد... في كل مكان من العراق... ولم يكن أحد يملك الجواب.
إذاعة بغداد وحدها تملك الجواب، لكن القلة من نساء بغداد كن يسمعنها. هن يردن أن يسمعن ما يقوله الطرف الآخر. قد شبعن من إذاعة بغداد... فماذا تقول لندن؟ واشنطن؟ أقوال هذه وتلك تدعو لليأس. ثمة أرقام فلكية توردانها: عدد الطائرات، الطلعات بالآلاف، القذائف، الصواريخ... بعشرات الآلاف وكلها تسقط على العراق. ديناميت يتفجر كل دقيقة على تراب العراق بما تشيب له الرؤوس وتقشعر له الأبدان فكيف لا تنخفض معنويات فاطمة؟
مذ غادرها عبد المحسن ظلت وحيدة، فمن يرفع معنوياتها؟ تنظر إلى أطفالها الثلاثة فترتجف خوفاً. ماذا إن نزلت قنبلة عليهم؟ ماذا إن اخترق صاروخ جدار منزلهم؟ ماذا؟ ماذا؟ وهدير الطائرات ملء السماء، دوي الانفجارات ملء الأسماع. أنابيب المياه تتمزق، أسلاك الهاتف تتقطع بل حتى الكهرباء تودع ليبقى ليل بغداد بهيماً مظلماً لا يضيئه إلا لهب الحرائق.
ـ أين طائراتنا؟

ـ أين قاذفاتنا؟
ـ أين صواريخنا.ـ مدفعيتنا؟ لماذا لا تتصدى لطائرات العدو؟
كانت الأسئلة تترى في ذهن فاطمة وأذهان كل من هن بجوار فاطمة، وكانت إذاعة بغداد تصبِّر الناس، تدعوهم للتريث، ففي اللحظة المناسبة سيأتي الرد المناسب.
يسمعون ذلك فترتفع العزائم، لكن، لندن، واشنطن، باريس تثبط العزائم، تقول إن الخطة العسكرية سائرة على خير ما يرام..ـ المهام تنجز خلال أيام. ولا تملك فاطمة إلا أن تصدق إذاعات لندن، واشنطن باريس. فعلى أرض الواقع كانت قد تحققت أهداف. لا ماء، لا كهرباء، لا هاتف. تريد الاتصال بأمها في البصرة، تعلم ما جرى للمدينة، تطمئن على الأم، لكنها لا تستطيع، تريد الاتصال برقية، قربها في بغداد فلا تستطيع.
أخيراً تأتي اللحظة المناسبة. وتنطلق صواريخ سكود. تشعر فاطمة أن الفرح قد جاء. تشعر أن بغداد ما تزال قوية متماسكة، وأن سحق العراق أبعد منالاً بكثير مما تتصور لندن وواشنطن. هاهي بغداد تجمع قواها من جديد.. ترد بضربة مفاجئة تصيب العالم كله بالذهول. (إيه بغداد!! كم أنت قادرة على إصابة العالم بالذهول!!) وتخرج فاطمة، شأنها شأن النساء، الأطفال، بقية الرجال، إلى الشوارع لترى أن بغداد ما تزال بغداد. شوارعها ما تزال قائمة..ـ أبنيتها ما تزال شامخة، نهرها يجري، سفنها تسري، أشجارها... نخيلها... كلها لم تخفها طائرات العدوان، لم تهتز لصواريخ العدوان. صحيح، كان ثمة أبنية دكت، جسور تهشمت، طرقات حفرت. صحيح، كان ثمة قتلى جرحى... خراب هنا.... خراب هناك. لكن بغداد أكبر من ذلك بكثير... العراق أوسع وأعظم من ذلك بكثير..ـ هو صامد. قوي. جبل ضخم لا تحته حتى عاصفات الأمطار.
رأت تاتشر جماهير بغداد، فانتفضت مسرعة إلى الهاتف:
ـ ما هذا يا جورج؟ أين طائرات الفانتوم؟ أين الكروز؟ التوماهوك؟
ـ كلها نرسلها أفواجاً أفواجاً إلى بغداد!!ـ
ـ مع ذلك يخرجون إلى الشوارع!؟ يفرحون بدك إسرائيل؟ لا، يجب أن تزيد العيار. إن كان عشرة فاجعله مائة، وإن كان مائة فاجعله ألفاً.
ـ هذا ما أفكر به، بل أفكر... بدأ جورج ثم توقف، الفكرة تخيفه، بل مجرد خطورها بباله يخيفه.
ـ هه!! قل. بماذا تفكر؟ حثته المرأة الحديدية، وهي تشتعل حقداً.
حينذاك حدثها إمبراطور العالم بماذا يفكر، معيداً على مسامعها طلب إسحق شامير.
ـ ماذا؟ قنبلة ذرية؟ صرخت من شرقي الأطلسي فوصل صوتها هادراً إلى غربيه.
ـ ولم لا؟ هم يريدون الانتقال لتل أبيب، فليفعلوا.
ـ لا، لا، قاطعته المرأة الحديدية بنبرة حديدية. لا. قنبلة ذرية!؟ هذا سيقلب مخططاتنا رأساً على عقب... سيؤلب العرب كلهم علينا.
أنتم لا تعرفون العرب، نحن نعرفهم، جورج!
وتراجع جورج مقتنعاً بأفكار المرأة التي تمسك بريطانيا العظمى بيد من حديد.
ـ أنا قلت لهم ذلك، صدقيني، قلت لهم ذلك كله، لكن. لشدة القهر والغيظ يعود المرء ويفكر: ليسحق ذلك الشعب طالما هو يعادينا، يسبنا، ويشتمنا.
ـ ونخسر العرب كلهم؟ نخسر حلفاءنا!؟ لا، لا، كما قلت لك؛ ثقِّل العيار... كثف الغارات... زد الطلعات.. أريد خلال يومين أو ثلاثة أن تصبح بغداد قاعاً صفصفاً.
واتصل جورج موبخاً مؤنباً:
ـ شوارتزكوف!!ـ أنت قائد فاشل!!
ـ أنا، يا سيدي؟
ـ طبعاً، وإلا كيف تفسر خروج العراقيات يهزجن في الشوارع؟ كيف تفسر بقاءهن على قيد الحياة؟ ألم أقل لك أريد مسح العراق من خارطة العالم؟
ـ نحن نبذل أقصى جهدنا يا سيدي.
ـ أهذا أقصى جهدك، أنت تملك أعظم قوة تدميرية في العالم؟ تبّاً لك إذن!!
ـ وماذا أفعل يا سيدي؟ الخطة التي وضعتموها ننفذها حرفياً. هه! هذا هو الجنرال باول بجانبي.ـ اسأله إن شئت.
ـ لا أريد أن أسأل باول ولا شاول. أريد تدمير العراق شعباً وجيشاً... أريد مسحه عن وجه الأرض. أتفهم؟

ـ أفهم يا سيدي؟ لكن ماذا أفعل؟ آلاف الطلعات الجوية كل يوم، مئات آلاف القذائف تدك العراق، لكن كأن الطائرات لم تعد تخيف الناس، الصواريخ لم تعد ترعبهم، مدفعية البوارج لا تستطيع إبادتهم....
ـ ماذا إذن؟ قاطعه كاوبوي واشنطن غاضباً، أنفشل؟ أنصير هزأة في أعين العالم كله؟
ـ لا، سيدي، لا. يمكننا استخدام أسلحة التدمير الشامل: قنبلة ذرية واحدة... قنبلة هيدروجينية...
ـ لا، لا، ذرة؟ هيدروجين؟ لا. حلفاؤنا لا يوافقون. أريد حلاً آخر.
ـ إذن، ليس هناك سوى الهجوم البري: تكتسح الدبابات العراق، تسود المدرعات فيه وتميد، تحرق الأخضر واليابس.
ـ حسن!! حسن!! قاطعه إمبراطور العالم وقد أوشك صبره أن ينفذ. الهجوم البري. اكتساح العراق، هذا كله لا بد من أن يحدث في موعده وحسب الخطة لكن الآن، كثف الغارات... زد الطلعات... أكثر من الصواريخ... لا أريد لرأس عراقي أن يرتفع، لعباءة امرأة عراقية أن تظهر في شارع.
وانهمرت على البصرة عشرات آلاف القذائف تطلقها بوارج بريطانية ومدمرات أميركية، فوهات مدافعها كفوهات الجحيم تضرب دون توقف وتقصف دون رحمة فتتهاوى جدران وتنهار مبانٍ.. تقتلع أشجار ويحترق نخيل... يجرح أطفالاً وتقتل نساء، مع ذلك لا تخاف أم باقر في البصرة. تسمع دوي الانفجارات، ترى الحرائق، تشهد الانهيارات، مع ذلك تحوقل وتبسمل "يا إمام علي!! يا حسين، سيد الشهداء، يا موسى الكاظم ومحمد الجواد!! احموا العراق يا أئمتنا وأولياءنا!" هي تقرأ المعوذات وتطقطق بحبات سبحتها. إيمانها لا يتزعزع بأن العراق سيظل في أمان، أولياءه سيحمونه من كل شر. هي في السبعين من العمر، وحيدة إلا من ابنها كاظم. جبار في مكان ما من الشمال العراقي، باقر لا تدري أين مكانه من أراضي الله الواسعة، ابنتاها في بغداد. وحده كاظم ظل معها. كاظم تنكجي كأبيه. رجله المقطوعة منذ الحرب مع إيران منعتهم من أخذه إلى الجيش. امرأته لم تنجب، فظلوا هم الثلاثة يعيشون معاً، يذهبون إلى الملجأ معاً.. يظلون في البيت معاً. لم يعد ثمة عمل. لم يعد ثمة سوق تنكجية. كانت عشرات القنابل قد سقطت عليه فهشمته تهشيماً وكان كاظم برجله الوحيدة يحجل مع امرأته وأمه إلى الملجأ ليعودوا منه كلما توقف القصف.
بالها ينشغل على فاطمة ورقية. هما في بغداد. أطفالهما هناك أيضاً. لكن ماذا بوسعها أن تفعل؟ هي تسلم أمرهم إلى الله، كما سلمت أمر جبار وباقر، مثلما تسلم أمرها هي إلى الله!!
"الله أكبر من كل ظالم!! الله لا يتخلى عن عباده الضعفاء"، تتمتم وهي تطقطق بحبات سبحتها، فيما مئات المدافع من بوارج ومدمرات الأنكلو أمريكان تصب حمم غضبها على العراق، واضعة نصب عينها لا خراب البصرة وحسب بل خراب العراق كله. مئات الطائرات تخرج من قواعدها في البحرين...، الكويت...، السعودية، تركيا، من حاملات الطائرات القابعة في الخليج، ثم تحلق سحابة سوداء كالليل، تفترق بعد البصرة سحابات. بعضها يتوجه إلى الشرق، بعضها إلى الغرب، لكن جلها إلى بغداد، إلى الشمال، حيث المطارات، المعسكرات، منصات الصواريخ، الجسور، المدارس، المستشفيات، لتصب كل ما في جوفها حمماً من نار تتحول بعدها المدن إلى حرائق والأحياء إلى أموات.
الساحة خالية أمامها، وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا. طائرات الـ ب 52 كانت قد استهدفت أول ما استهدفت مطارات العراق وقواعده الجوية، ومن ارتفاع عالٍ لا تصل إليه طائرات عراقية ولا قذائف مدفعية مضادة، فتحولت الطائرات الجاثمة إلى مزق وشظايا. وحدها الطائرات المختبئة في الملاجئ، نجت، لكن إلى متى؟ كان الجنرال باول يلاحقها واحدة واحدة. هو يستعرض صور الطيران، الأقمار الصناعية، ويحدد الأهداف. كان يريد القضاء عليها حتى آخر طائرة، لكن لشد ما فوجئ وهو يرى على شاشة راداره الكبير أسراباً منها تنطلق فجأة لتتجه نحو الشرق.
ـ عجيب!! هتف باول لقائده الأعلى، طائرات العراق تتجه إلى إيران!! العدو يلجأ إلى عدوه.
ـ ألم أقل لك؟ أولاء قوم، أمرهم غريب، فهمهم حتى من أصعب الصعيب.

ـ لكن ماذا عن الطائرات؟ أنلاحقها داخل إيران يا سيدي؟ أنهاجم إيران نفسها يا سيدي؟
ـ لا، لا، ذهبت؟ اتركها.
ويتركها الجنرال باول، ليبقى بعدها العراق بلا غطاء جوي، يتلقى القصف صابراً لا يشكو، لا يبكي، بل يفاجأ الأنكلو أمريكان من حين إلى حين بحركة هنا، بضربة هناك حتى بدا شوارتزكوف وكأنه على وشك الجنون، فكلما ظن أن باستطاعته رفع السماعة لزف بشرى النصر لسيده، فاجأته حركة غريبة: مدفعية مضادة تطلق نيرانها على حين غرة فتسقط طائرة، قوات برية تهاجم الخفجة وتهز أركان التحالف، صاروخ سكود يضرب حيفا... تل أبيب... أو حتى الخبر، فترتعد فرائص شوارتزكوف.
ـ يضربوننا هنا في عقر دارنا يا سيدي؟ يصرخ في الهاتف، وهو يدق الطاولة بجمع يده، يقصفون قواتنا في الخبر، قيادتنا في قلب الصحراء. لا، لم يعد ثمة إلا الحل الذي اقترحته عليك، سيدي!
ـ اصبر قليلاً. رد إمبراطور العالم، الذي لم يكن قد شفى غله ما ألحقه من خراب في العراق. قبل أي هجوم، يجب أن تكمل عملية التدمير للبلاد، الإبادة للجيش، فلا يصيب جندنا أذى!!
وصبر شوارتزكوف أربعين يوماً فيما كانت الحرب من طرف واحد. طاحونة مرعبة تهدر ساحقة بين رحييها الحب الذي هو بشر من دم ولحم.
ـ هه!! ما رأيك الآن؟ سأل جيمس بيكر صاحبه، الأمير الذي كان ينتظره على أحر من الجمر.
ـ لم يشف غلي بعد. رد الأمير المفدى وهو يكظم غيظاً عظيماً في صدره، ما يزال في العراق نفس يتردد.
ـ سيشفى غلك يا صديقي!! أنفاس العراق تكتم نفساً تلو الآخر، فاطمئن. لقد دمرناه لبنة لبنة كما بنوه لبنة لبنة، ولن نتركه إلا رماداً.
ـ متى يا سيدي الوزير!؟ متى؟ أريد النهاية بسرعة. أريد العودة بسرعة.
ـ هيئ نفسك. بسرعة ستعود.
ـ حقاً سيدي الوزير!! آه!! أدفع كل ما أملك، فقط، أن أعود.
ـ لا، لا حاجة لأن تدفع كل ما تملك. عشرون ملياراً تكفي.
ومن جديد حرر الأمير الشريد للوزير المنقذ شيكاً بعشرين ملياراً من الدولارات، فثمة قنابل تقصف، صواريخ تتفجر، سيارات تستهلك طاقة، جند يأكلون ويشربون، ولهذا كله ثمن بل ربما باهظ، لا يقل أبداً عن العشرين من المليارات. بعدئذٍ بدأ استعداداته لدخول الكويت مكللاً بغار الأمريكان، ممتطياً حراب الإنكليز. "قد اقترب موعد العودة"، جيمس بيكر وعده، شوارتزكوف طمأنه، وهو يكاد يطير فرحاً، فخلال الأيام الخمسة الأخيرة غدت جبهة الكويت عمياء صماء بكماء. مدافعها لا تطلق، ومضاداتها لا تتحرك.
ـ أنجزت المهمة، سيدي الرئيس! قال شوارتزكوف لإمبراطور العالم الذي يرى بأم عينه الخراب الذي أنزل في العراق.. الموت المنتشر في كل مكان من خنادق العراق.. الصمت المطبق على حدود الكويت والعراق.
مع ذلك ضحك إمبراطور العالم.
ـ أنت متأكد؟
ـ أي نعم يا سيدي متأكد، بل أقول، كما قال حجاجهم ذات يوم؛ والله إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها.
ـ اقطفها إذن يا عزيزي شوارتزكوف.
وخلال ليل لا ضوء فيه، اندفعت مدرعات شوارتزكوف، مصفحات الفريق العتل، سيارات ريتشارد قلب الأسد، آليات شارلمان الكبير... شاقة الصحراء، عاصفة صحراء.
مع الخيوط الأولى للفجر كانت تقتحم الخنادق، تلك التي حفرها جند العراق على عجل، ثم تربصوا أشهراً طويلة فيها يبثون الذعر والهلع في النفوس. كانت المدفعية قد مهدت بقصف شديد لم يتوقف طوال الليل. الطائرات، الصواريخ كلها صبت جام غضبها على خنادق العراقيين حتى إذا ما وصل جند اليانكي المدللون، بمدرعاتهم الهادرة لم يرفع سبابته في وجههم أحد.
ـ لم يخب ظننا!! القصف أجدى نفعاً، هتف شوارتزكوف فرحاً.
-لقد ماتوا جميعاً، صاح بدوره باول.

-أبدناهم عن بكرة أبيهم، هتف الفريق العتل متحمساً.
وشرع الجنود يهتفون فرحين وهم يجتازون الخنادق، جنازير دباباتهم تهبط وتصعد الخنادق، ولا أحد.
-عجيب!! أين هم؟ صاح ضابط يانكي وهو يخرج برأسه للمرة الأولى من فتحة الدبابة.
-أبدناهم إبادة تامة، أجابه ضابط ساكسوني. مسحناهم عن وجه الأرض؟
-لكن أين الجثث!؟ الجرحى؟ فاقدو الوعي؟ المطمورون بالتراب؟ صاح شوارتزكوف ـ وهو ينزل بنفسه إلى الخندق يتفقده. ذاهباً يميناً ذاهباً شمالاً لكن لا أثر لميت... لا أثر لحي. الخنادق خالية، الملاجئ خاوية، المواقع فارغة لا أثر فيها لمدفع، لا أثر لرشاش، لا أثر لجندي. وتجهم وجه شوارتزكوف ـ كان يحلم أن يصل إلى الموقع فيجد جيش العراق كله أشلاء ممزقة، موتى متناثرين، أو جرى مرتمين، يزحفون إليه منبطحين صاغرين، يتمسحون بساقيه، يقبلون حذاءه، لكن ها هو ذا يخرج من أحلامه كلها صفر اليدين.
-يا يسوع الرب!! صاح شوارتزكوف وهو يضرب جبهته براحة كفه، حائر اللب. أين هم؟ أين ذهب العراقيون؟
وللتو بدا لغز كبير يهوّم في سماء الكويت، سحابة دخان سوداء أضيفت إلى سحب سوداء كثيرة كانت قد انطلقت قبل حين من آبار نفط أحرقت، خزانات فجرت، فيما راح الخندق الطويل نفسه يردد صيحة شوارتزكوف ـ صدى سمعه العالم كله:
-أ-. يـ. ن... هـ... م!؟ أ.. يـ... ن... ذ... هـ... يـ... الـ... عر... ا... قيـ.. و.. ن؟
الفصل الرابع
"أصيح بالخليج: يا خليج
يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى
فيرجع الصدى
كأنه نشيج:
يا خليج
يا واهب المحار والردى"
كان باقر يردد، بل كل ما في داخله يردد بصوت مكتوم، في عينيه ضباب كضباب الدموع، وفي قلبه رماد كرماد الانطفاء..ـ فيما صوت أمريكا يبشر العالم ببدء تحرير الكويت: قوات التحالف تندفع الآن مكتسحة المواقع العراقية مدمرة القوات العراقية كأنها السيل الهادر يجرف ـ أمامه كل شيء"
الرفاق يسمعون مثله صوت أمريكا فيهتف يسار:
-افرح باقر، يومين أو ثلاثة ويسقط صاحبك.
-افرح!؟ وجد نفسه يتساءل بصوت كله رعشة وحيرة.
-طبعاً!! أجابه يسار بكثير من اللا مبالاة والاستهتار، ألا تريد الخلاص من صدام؟ ألا تريد إسقاط النظام. ها هم الأمريكان يندفعون..ـ يقضون على جيش صدام في الكويت فيسقط صدام في بغداد.
ـ مستحيل ـ تدخل أبو الليل بانزعاج شديد. بهذه السهولة تسقط المواقع العراقية في الكويت؟ بهذه السهولة يدمر جيش قوي قاتل ثماني سنوات جيش إيران؟ أنا لا أصدق... لا أصدق.
ـ بل صدق. قال نمر من جانبه وهو يستند بخده إلى يده، جيوش إيران لم تظل أربعين يوماً تقصف العراق، تدمر كل ما فيه، ألم تسمع يا رجل؟ لم يدعوا جسراً، لم يتركوا طريقاً. مصانع الغذاء والألبسة دمروها... المحطات الكهربائية، مستودعات الحبوب... بل حتى مصنع حليب الأطفال في "أبو غريب" سووه بالتراب.
ـ ربما. رد أبو الليل وهو ما يزال غير مصدق. لكن القوات العراقية كلها تدمر؟ هكذا بجرة قلم!؟
ـ لم لا؟ أجاب يسار الكاره لصدام، وثمة تفسير. في الأيام الأخيرة لم يعد يصل إلى القوات العراقية أية إمدادات ولم يعد لديها أية حماية. ومع القصف الهائل المستمر دمرت تلك القوات، إما قتلاً وجرحاً أو جوعاً وعطشاً.
ووجد باقر نفسه يطرق ملياً. كانت إذاعات الغرب تصور الوضع على هذه الشاكلة: "آلاف الطلعات كل يوم على العراق". "القصف المدمر يطول كل شيء" "الصواريخ تدمر العراق". "لا أحد يستطيع رفع رأسه من الحدود الكويتية حتى الحدود التركية"ـ

وحسب إذاعات الغرب نفسها، كانت الخطة تقضي بتوجيه ضربة جوية صاروخية قاصمة لا تبقي في العراق ولا تذر، حتى إذا ما تدخلت القوات البرية لم يجد أمامها من يقاوم، فتخرج أمريكا بلا أية خسائر. أمريكا تعرف جيداً كيف تخطط وما تخطط له. غارات الطائرات، قصف المدفعية، إطلاق الصواريخ كلها لا يعنيها. ما يعنيها فقط هو أن لا تخسر جندياً واحداً من جنودها.

"وصلت قواتنا البرية إلى خنادق العراقيين دون أن تطلق طلقة واحدة"، كانت أخبار الهجوم البري قد بدأت بالانتشار، وكانت إذاعة لندن تتباهى "القصف حقق أهدافه. لم تجد قوات التحالف عراقياً واحداً قادراً على إطلاق النار".

ـ يا إلهي!! معقول هذا الكلام؟ صاح أبو الليل محنقاً تكاد الدموع تطفر من عينيه. أين إذن تخطيط القيادة العراقية؟ أين احتياطاتها؟ أتترك قواتها بغير إمدادات؟ بغير دفاع جوي حتى يبيدها القصف الجوي؟

ـ ولم لا؟ رد يسار بنبرته نفسها. صدقوني هو لا يفكر إلا بنفسه، كيف يحمي قصوره ومقراته. أما قواته هناك، في الكويت، فماذا تعنيه؟ هلكت أم نجت ماذا يهم؟

ـ كيف لا تهمه وهي درعه؟ صاح أبو الليل بانفعال شديد: إن دخل الأمريكان من يحميه؟

ـ حرسه الجمهوري. هو يظن أن الحرس الجمهوري كاف لحمايته هو وبغداد، وأن بغداد تكفيه.

"ذات يوم جاء إلى المستعصم بالله من ينذره بأن المغول وصلوا إلى خراسان، فقال "ليأخذوا خراسان" صاروا في الري، "الري بعيدة"، وصلوا إلى أطراف العراق "ومالي ولأطراف العراق"؟ قال المستعصم "بغداد تكفيني": فكر باقر وهو يستمع إلى الحوار غير قادر على المشاركة فيه، وغصة في حلقه، مثلما كان يستمع إلى الإذاعات ومشاعر شتى في نفسه. "أأفرح، كما يقول يسار، لتدمير القوات العراقية على حدود الكويت؟ أأسر لهدم العراق كله حجراً... حجراً؟" إذاعات الغرب كلها تقول: "هي سياسة الأرض المحروقة تطبقها قوات التحالف، فلا تدخل منطقة فيها حياة لإنسان أو حيوان... شجر أو نبات". "في الجزائر فعلت ذلك فرنسا ذات يوم" عادت أفكار باقر تشرد به بعيداً وهو يحاول التخلص من صوت الإذاعة الأشبه بنعيق بوم لا ينذر إلا بالخراب. "حرقت مناطق الثوار كلها... البساتين، الحقول، الغابات كلها حرقتها فرنسا كي تكشف عبد القادر الجزائري فيسهل عليها قصفه بالمدفعية ومحاصرته بالجند"

ـ من شان الله، ابحثوا لنا عن إذاعة مثل العالم والخلق، صاح أبو الليل وقد أثارت غضبه إذاعة لندن بما راحت تتبجح به. "وكالات الأنباء تنشر صوراً لجند عراقيين شبه أموات في الخنادق وهم يركعون عند أقدام الجند الأمريكان يقبلون أحذيتهم." الخبر نفسه أصاب باقر بالغثيان "معقول هذا التبجح!!؟ ينشرون صوراً لجند غير قادرين على المقاومة فيتمادون في تمريغهم بالتراب!! يرغمونهم على تقبيل أحذيتهم؟ لكن البحث لم يجد نفعاً، أخبار الإذاعات منقولة عن الاسوشيتد برس، الفرانس برس، اليونايتد برس... العالم كله ببغاء يردد ما تريد له "بريسات" الغرب أن يردد ويمتنع عما تريد له أن يمتنع.

حاول نمر أن يجد إذاعة بغداد، لكن كل ما ينطق بلسان بغداد كان أخرس. مبانيه كانت من أهداف القصف الأولى، لتصمت بعد ذلك بغداد. صحيح، ظلت هناك محطات صغيرة متنقلة تبث للشعب أخبارها، تنقل له وقائع الحرب وتعليمات الحرب ساعة بساعة، لكن الصحيح أن مثل تلك المحطات لا تصل إلى معسكر الحاصباني في البقاع اللبناني ويخيب أمل أبي الليل كما يخيب أمل باقر في أن يسمع إلا ما تريده لندن وواشنطن.

"أربعمائة وخمسون ألف جندي في الكويت خسرهم صدام"، بشرت إذاعة لندن العالم "قوة صدام الأساسية كلها تنهار... مئات الآلاف قتلى، مئات الآلاف أسرى، فابشروا يا أعداء صدام!! قد ابدنا القوة الضاربة لصدام".

ـ اللعنة!! صاح أبو الليل من جديد.. إنها كارثة ولا كارثة حزيران!! نصف مليون جندي يبادون!! الويل لنا!! الويل لكم أيها العرب!!

ـ بل الويل لصدام فقط!! رد عليه يسار، رجل يركب رأسه ولا يسمع إلا صوته. ناس يتوسطون لديه... دول تتدخل عليه "انسحب من الكويت. انسحب من الكويت" فلا ينسحب. الناس كلهم يرجونه، حتى رئيسنا أرسل له رسالة وضح له المخاطر، شرح،

نصح... لكنه أذن من طين وأذن من عجين. آه!! كم يسرني أن يلقى صدام العاقبة الوخيمة لعناده، فيسقط ويدخل باقر منتصراً مكللاً بالغار.
ولم يشعر باقر إلا وهو ينكمش على نفسه، نافضاً رأسه "منتصراً مكللاً بالغار؟ أي غار سيكلل رأسي إذا خرب العراق؟"
ـ هه!! أتأخذنا معك باقر؟ سأله يسار. بالتأكيد ستكون ذا منصب كبير حين تعود إلى بغداد مظفراً منتصراً. أفلا تأخذنا معك نحن رفاقك؟
ـ آخذكم معي؟ غمغم باقر بكثير من التلعثم والضيق سرعان ما وجد نفسه بعدها يغادر الغرفة ـ الملجأ إلى الخارج، صدره ضيق، أنفاسه مكوّمة وكأنه لا يجد هواء في الملجأ. كان بحاجة إلى فسحة، إلى أن يشم الهواء، لكن ليل شباط قارس البرد وجبال لبنان على مرمى حجر منه.
ـ وجبال لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء؟
للتو، راح باقر يكور نفسه في معطفه متفحصاً في العتمة ما حوله، منطلقاً على ضوء قمر في ربعه الأول نحو قمم جبال مكللة بالثلج، ثم يتجه نحو الشرق. ينظر إلى البعيد البعيد وكل ما فيه يردد بصوت لم يعد مكتوماً:
أصيح بالخليج... يا خليج!!
يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى
فيرجع الصدى
كأنه نشيج"
وشعر بصوت نشيج يخرج من شفتيه. شعر بالنشيج في كل خلية من خلاياه. كان كل ما في باقر ينشج:
"أحقاً دمروا العراق؟ أحقاً خربوا البصرة!؟ إذن ماذا حدث لأمي؟ أخي!؟ أهلي!؟ جيراني!؟ أوه يا إلهي!! أنا لا أصدق.. ربما سقطت على رأس أمي قنبلة فمزقتها شظايا!! لا، لا، أمي!! ينبغي ألا تموتي ـ أنت زينة البصرة!! أنت الطيبة، البراءة، حبل السرة الذي تغذيت من نسغه، ينبوع الحب الذي شربت من مائه. أتذكرين؟ كنت تدللينني دائماً. بحضنك الدافئ كنت تأخذينني، كلما عدت من المدرسة، تغسلين يدي، وجهي، تطعمينني بيديك ـ آه يا لدجاجك المحمر المحمص مع التمن المصفر المضمخ بالتوابل والكشكش. من سيطعمني إياه إن مت؟ لا، ينبغي أن تظلي على قيد الحياة، أماه!! ينبغي أن أراك!! أماه!!"
كان البرد يلسعه، مع ذلك لم يكن يشعر به. كانت أفكاره هناك بعيدة حيث البصرة التي يعشق، أحياء، شوارع، بيوتاً، أزقة، ولا يجد نفسه إلا وهو يعود إلى هناك "ساحة أسد بابل هل صارت مجرد هاوية؟ أسد بابل الفريد هل تهشم فتاتاً وشظايا؟ وكالة سنجر بلوحتها المتلألئة ليلاً؟ صيدلية المختار ببقرتها الضاحكة المميزة، هل غدا ذلك كله حطاماً؟"
واشتد النشيج في داخله وهو يعود بذاكرته إلى منزل العائلة في حي الخندق. تلك الفيلا الجميلة التي اشتراها والده أيام العز. هو يذكر كل صغيرة وكبيرة فيها: واجهتها الجميلة، شبابيكها الواسعة، شناشيلها، حديقتها الممرعة خضرة وأشجاراً.
"آه!! كم تسلقت أغصانك يا شجرة التوت!؟ كم تلذذت بكرزك يا شجرة الكرز!؟ أتراها حرقتك القذائف؟ قتلتك القنابل؟ وأنت أيها المنزل!! هل غدوت كومة من ركام؟ مجنون يسار هذا!! كيف يتصورني أفرح لدمار العراق؟ لخراب البصرة؟ لهدم منزلي؟ لقتل أمي!؟ لا، لا، المسألة أخطر من ذلك بكثير يا يسار!! الخلاص من صدام؟ سحق صدام!؟ أريده، صحيح، لكن سحق العراق!؟ الخلاص من العراق كيف يمكن أن أريده يا يسار؟

وعاد باقر يتكور على نفسه من لسعات البرد. القمر هلال، غيمات تحجبه وتكشفه، الثلج الأبيض على القمم القريبة يظهر ويختفي.
"العراق كريات دمي يا يسار!! البصرة أنفاس روحي، خلايا جسدي يا يسار!! البصرة!؟ وما

أدراك ما البصرة، ألم أستنشق هواءها سنين طويلة؟ ألم أشرب ماءها؟ ألم أتغذّ من تمرها ولبنها، قمحها وذرتها؟ آه!! يا للبصرة!! يا لأمسيات السطوح أيام الحر اللاهب، نخرج إلى السماء والنجوم فتنعشنا بنسيماتها السماء والنجوم!! جيراننا في الشمال، في الجنوب، في الشرق، في الغرب، كلهم من حولنا نتحدث إليهم ويتحدثون إلينا، يفتح أحدهم المذياع فنسمع "حياك... بابا حياك.. ألف رحمة على بياك... هذول العذبوني... هذول المرمروني... وعلى جسر المسيب سيبوني.." وتمدين قطعة النايلون المشجر يا أماه!!، تبسطين فوقها صحائف عشائك، نتعشى لبناً وتمراً، ونحمد الله على نعمة سابغة، البصرة في دمي يا يسار!! شارع العشار العريض كم تسكعت فيه، معي الأخوة والرفقة، نتبادل مع الصبايا النظرات، ونتحين منهن رفة جفن أو حركة يد فنفرح ونهلل، على أمل أن يأتي يوم فنخرج في نزهة من نزهات العشاق في "الأبلام" العشارى، ذلك الزورق الطويل النحيل وقد زينه صاحبه بسعف النخيل وأوراق الزينة!! ونمر بسينما الحمراء الجديدة!! آه منك يا سينما الحمراء!! كم كنت حلماً جميلاً يصعب تحقيقه!! الدخول إليك بفلسين لكن أين نجد الفلسين؟ عبد الوهاب التنكجي ينهزم في الدومين. إذن لا فلوس!؟ بل نهرة في الوجه كما ينهر الكلب أو ركلة على القفا كما يركل الحمار. لكن إن انتصر، أبشر يا

جبار، وأنت يا باقر!! ونذهب إلى سينما الحمراء الجديدة ليستقبلنا تومان بصوته الهادر. "تعال شوف... شلخ... ملخ... تعال شوف. عركات... بوكسات"، ثم يسكت تومان فجأة فتنشد أنظارنا إليه، كما تنشد أنظار الفتيات وهن يعبرن على الرصيف، الفتيات يعرفن تومان جيداً، يعرفن حركاته وشيطناته، يتوقعن منه دائماً مفاجآت. يسود السوق المزدحم هدوء غريب، صمت مترقب. يتفحص تومان لحظة من الزمان الساكنين المندهشين ثم يعاود الصياح بلسانهم متسائلاً "وين بويا؟ قل لي وين... بويا؟ آغاتي.. قل لي وين؟" بعدئذٍ يجيب نفسه بنغمته المتميزة الممطوطة "بسينما الحمراء الجديدة... بويا لحق حالك بويا.. لحق حالك آغاتي... لا يفوتك الفيلم يا بنية!" ولا نملك إلا أن نصدقه فنعجل إلى السينما كي لا يفوتنا الفيلم. تومان علم في رأسه نار، كل من في البصرة يأنسون به، يلاطفونه. ونحن نهابه ونصدقه، بل هو يسحرنا ببشرته السمراء القاتمة، بجسده الرشيق إلى حد الإذهال، بنظراته الشامخة أبداً إلى الأعلى، فعيناه لا تطرقان أرضاً ولا تنظران إلى أفق، بل هما إلى أعلى دائماً. "أنا أحب ذرى النخيل.. أعشق زرقة السماء" يفسر ذلك وينظر إلى الأعلى مكوراً جسده دافعاً صدره إلى الأمام ومؤخرته إلى الخلف على نحو مبالغ فيه إلى درجة تثير الضحك، لكن ما إن يمسك بنايه القصبي ويضعه على أنفه ثم يبدأ العزف

حتى تفتننا ألحانه. تومان لا يعزف الناي بفمه بل بأنفه، خاصة لم تعرف عن أحد سوى تومان، فكيف لا نصدق تومان ونحترمه؟" وتوقفت سلسلة الذكريات، وقد خطرت ببال باقر خاطرة "ترى، ما حل بك يا صديقي تومان؟ هل أصابتك شظية في رأسك؟ هل خرقت رصاصة صدرك ذاك المتكور عالياً المندفع أماماً؟ وسينماك!؟ سينما الحمراء، هل تهدمت على رؤوس روادها؟ أم تراها صارت بلا رواد، وسكان البصرة يواجهون بوارج الأنكلو أمريكان ومدمراتهم، طائراتهم وصواريخهم؟" ومن جديد سمع باقر النشيج في داخله ينطلق من كل خلية من خلاياه، بكاء صامتاً طفرت معه دمعة من عينه اليسرى انحدرت ساخنة على خده رغم قرس لبنان وثلوج لبنان. حاول حبسها فلحقت بها دمعة أخرى من العين اليمنى، وسمع من بعيد في عمق الفيافي شاعراً قديماً يغني:

بكت عيني اليسرى فلما زجرتها
عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معاً

كما سمع من جديد ناي تومان وهو يعزف أغنيته المفضلة، أغنية فريد الأطرش "يا عواذل فلفلوا"، فيما انطلق صوت شجي من ضفة العشار يغني وطيور الغاق تحط على غصون النبق والبمبر، النخيل والتوت، ثم تطير منادية بعضها بعضاً بأصواتها المتميزة وصوت مغن يغني من بعيد: ويتناغك الغاك... يتناغك الغاك... حدك عشيري... يتناغك الغاك.. ومالك نظيري.. مالك نظيري... ولا بواق الواق مالك نظيري... وأنت يالعراق.. انت يا العراق!! روحي وضميري... انت يا العراق!!".
لكن صوت أبي الليل، وهو يلعلع فرحاً، قطع عليه شروده وأغنيته فقد خرج من الملجأ مسرعاً هاتفاً:
ـ باقر!! باقر!! أين أنت؟
لم يكن باستطاعة أبي الليل أن يرى باقراً وقد انتحى ركناً تحت شجرة قريبة مطلقاً لذكرياته العنان.
ـ أنا هنا. ماذا وراءك أبا الليل؟
ـ تعال اسمع... تعال... إذاعة عمان تقول قوات العراق لم تدمر في الكويت!!
ـ ماذا؟ انفجر السؤال من قلب اللهفة واللوعة وهو يسرع إلى أبي الليل.
ـ أجل... أجل... القوات انسحبت من الكويت، انسحبت من الكويت!!
تابع إخباره فرحاً سعيداً حد النشوة.

ـ حمداً لك يا رب!! وجد باقر نفسه فجأة يستخدم عبارة لم يستخدمها منذ زمن طويل. ثم تنفس الصعداء وقد استرخت أعصاب فيه كانت قبل قليل قد توترت إلى حد راحت تنشج باكية وتئن حزينة. لكن كيف؟ متى؟ ماذا قالوا؟ أخبرني ـ

***

ـ مائة مرة قلت لك، لا تسمعي إذاعات العدو. قال عبد المحسن لزوجته بنبرة ونظرة كلها لوم وعتاب.

ـ أنا لا أسمعها، بل هي جارتي. ردت فاطمة بكل ما في الكون من لطف، فهي لا تريد إزعاجه... قبل قليل فقط جاء ولعله سيذهب بعد قليل. الثانية معه غالية الثمن ينبغي استغلالها حتى الثمالة، راحة وإسعاداً.

ـ قولي لجارتك، تابع عبد المحسن وقد زال من نظرته العتاب واللوم. هذه الإذاعات مضللة.. تريد تحطيم معنوياتكم. نحن ما زلنا بخير.ـ سالمين معافين... لم ننهزم أمام التتار، بل انسحبنا.

ـ انسحبتم؟ حقاً!؟ كيف؟ متى؟ صاحت فاطمة وهي لا تكاد تصدق فرحاً.

ـ منذ خمسة عشر يوماً جاء الأمر سرياً مكتوماً "انسحبوا تحت جنح الظلام فلا تراكم حتى الأشباح"، وتحت جنح الظلام بدأ المشاة، المدفعية، المدرعات.. الآليات كلها تسير قوافل.ـ قوافل.. ساحبة القوات المتمركزة داخل الكويت إلى داخل العراق حتى إذا ما بدأوا هجومهم البري لم يجدوا أحداً. كنا قد تركنا بعضاً من الجنود فقط بأوامر واضحة "لا تواجهوا... لا تقاتلوا....ـ فقط إن جاءكم العدو ارفعوا الراية البيضاء". كنا قد أدركنا أن المعركة غير متكافئة وليس من صالحنا أن نزج أنفسنا في معركة غير متكافئة، إذن ننسحب ـ تكتيك عسكري رائع وفر قواتنا وخدع أعداءنا.

ـ يا إلهي!! ما أبرعه من تكتيك!! ما أذكاها من خدعة!! علقت فاطمة وكل ما فيها يطير فرحاً... هاهي الأخبار تعيد إليها الروح بعد أن كادت تزهق، وهاهو الزوج يحمل الأنعاش والسعادة ليس لها وحسب، بل للبيت كله. الأولاد كلهم متعلقون به، عنقاً، ذراعاً، كتفاً... يقبلونه ولا يشبعون، يقبلهم ولا يشبع، الإجازة الماضية قطعت على عجل، استدعي قبل أن يأخذهم إلى السينما ثم بدأ القصف الهائل فلم يسمح لأحد بالحركة ثم استنفار مطلق فلم يتح لأي عسكري مبيتاً أو إجازة. لكن مع مرور الأيام أدركت القيادة أن على الحياة أن تسير. تحت القصف... فوق القصف عليها أن تسير، الجند بحاجة لأن يطمئنوا على أهلهم، الرجال بحاجة إلى النساء الآباء يشتاقون إلى الأبناء، والأبناء إلى الأمهات والآباء، فكيف يحولون دون ذلك؟

وعاد المبيت اثنتي عشر ساعة: ست ساعات سفر وست ساعات في البيت، يأتي الجندي، يرى بعينه، يسمع بأذنه ويطمئن، فثمة من يسمع إذاعات العدو وثمة من يعطي أذناً لشائعات العدو. الشائعات تنتشر، المعنويات تنخفض، والقيادة حريصة على المعنويات. الجيوش بروحها المعنوية. ترتفع، ترتفع سوية صمودها وقتالها، تنخفض تنخفض.

عبد المحسن انطلق مع أذان الظهر، وهاهو مع المغيب في البيت، سيارته العسكرية مموهة... سائقه يطير به فإذا ما أحس بهدير طيران أو دوي انفجار، اتخذ يمين الطريق ليخرج عبد المحسن إلى أقرب خندق وينبطح. على الطريق جثث كثيرة لسيارات عسكرية محترقة وحافلات معطلة، لكن حركة التنظيف ناشطة. ثمة دائماً رافعات تعزل الحطام وقوى أمن توفر الأمن ـ

في شوارع بغداد سر عبد المحسن لمرأى شاحنات توزع الخبز، السكر، الشاي، الأرز، وأخرى توزع الغاز، الكاز، الزيت، والناس من حولها تحتشد، تأخذ حاجتها وتذهب، دون وجل أو خوف. كما سر أكثر حين مر في منطقة السعدون فرأى كثيراً من المحلات والمقاهي فتحت أبوابها، بعض القصابين يشوون لزبائنهم التكة والكباب، بل إن بعض المقاهي مليئة بالرواد يشربون الشاي ويدخنون النارجيلة. وفي أحد صالونات الحلاقة رأى عدداً من الزبائن جالسين على الكراسي بانتظار دورهم. روى عبد المحسن ذلك كله لفاطمة، فقالت له:

ـ لا ادري. نحن لم نغادر بنايتنا إلا إلى الملجأ.

ـ أحسن، قال عبد المحسن مبتسماً، لكن تصوري، رأينا فرق أطفال يلعبون كرة القدم في الشوارع ورجالاً يمشون على الأرصفة ويتسامرون. بل لقد رأينا حي الثورة مليئاً بزبائنه وباعته وقد عرضوا في محلاتهم الطماطم، الخيار، البطاطا، البرتقال.
ـ لا، من هذه الناحية اطمئن. كل شيء متوفر والحمد لله.
داعب عبد المحسن طفلته الصغيرة، فيما لثم خد الكبيرة وأخذ بين ذراعيه ابنه، لكن عينيه كانتا معلقتين بفاطمة.
ـ معي ساعات قليلة فقط!! وعلي أن أعود!!
ـ تريد الحمام إذن؟ ردت مبتسمة وهي تسرع إلى الحمام.
كانت الأنثى بحاجة إلى الذكر كما كان الذكر بحاجة إلى الأنثى. شوق عارم كان يشعل جسدها كما يشعل جسده وتوق هائل يدفع واحدهما باتجاه الآخر!! أهي الطبيعة تريدهما أن يلتحما فلقتي حبة؟ الغريزة تريد أن تجمع الشطرين فيصبحا كلاً واحداً لا انشطار فيه؟ عبد المحسن يشعر بالنار في كل قطرة من دمه، يشعر بذلك التوق في داخله أحمر متوهجاً إلى حد الابيضاض، فماذا يحيله برداً وسلاماً؟ نصفه الآخر!! المرأة التي لا حياة لرجل بغيرها. هو بحاجة إلى الهواء والماء، أو أكلته النار من داخل كما تأكل اللحاء من خارج. وهكذا، حين غادر عبد المحسن منزله عند منتصف الليل، كان إعجاب فاطمة به رجلاً لا يقل عن إعجابها بقيادته التي تحسن تكتيك الاقتحام والانسحاب.
ـ انسحب العراقيون؟ كيف؟ متى؟ أين؟ انهمرت الأسئلة الغاضبة على رأس شوارتزكوف كوابل القنابل التي كان يأمر بانهمارها على بغداد.
ـ آسف!! سيدي الرئيس! هي الأسئلة نفسها التي لا نعرف جواباً لها. أجاب شوارتزكوف رئيسه وقد أخفق حتى حينه في حل اللغز الذي حير لبه.
ـ إذن، أين مخابراتكم، جواسيسكم، أقماركم الصناعية، طائراتكم الأواكس؟
ـ لقد ضللنا يا سيدي. ضلل المخابرات، الجواسيس، الأواكس بعمليات تمويه بارعة. تصور يا سيدي.. آلاف المدافع الخشبية نصبها محل المدافع الحقيقية، مئات الدبابات الخلبية كانت تظهر لأقمارنا وطائرات استطلاعنا وكأنها دبابات حقيقية. جند دمى، مواقع تبادلية للرادارات، للصواريخ..ـ كل ذلك صنعه صدام لكي يوهمنا بما يريد. خدعنا خدعة لم تحدث في حرب.
ـ يا للعنة!! إذن أين التقدم العلمي؟ أين التكنولوجيا؟ كيف يفعل ذلك دون أن تكشفوه؟ كيف يتحرك على الطرق دون أن تروه؟
ـ التستر بالظلام. مثلما أفلح في التمويه أفلح في التستر بالظلام، حين تخفق الأقمار والأواكس في الرؤية ويعجز الجواسيس والمخابرات عن الاقتراب.
ـ وأين إذن الأشعة الحمراء.ـ الصفراء..؟ صرخ إمبراطور العالم غاضباً.
ـ للأسف يا سيدي!! كلها لم تجد نفعاً، رد القائد وفرائصه ترتعد.
ـ إذن لا بد من عقابه أكثر. شوارتزكوف!!ـ هذا عدو شخصي لي، ولا بد من الانتقام منه. حياً أو ميتاً أريد رأسه.
ـ يأتيك رأسه يا سيدي.
ـ شوارتزكوف!!ـ ركز غاراتك الجوية على قصوره، مقراته.
ـ لكنه ثعلب مراوغ يا سيدي. لجحره مائة باب، كلما جئته من باب اتجه إلى آخر.
ـ ثعلب!! جحر!! باب!! رد إمبراطور العالم غاضباً. ما هذا يا شوارتزكوف؟ حدثني بالعلم بالتكنولوجيا... لا بالثعالب والجحور.
ـ أحدثك يا سيدي، بدأ شوارتزكوف وقد أخافته نبرة الكاوبوي في جواب سيده، لقد أفلح صدام في تمويه نفسه وحركته، كما أفلح في استغلال الظلام أثناء سحب قواته...
ـ عجباً! كيف؟
ـ هو يتحرك بسرية، بسرعة وعلى نحو مفاجئ لا يتوقعه أحد يا سيدي، كما يظهر في الأحياء الشعبية أحياناً... في خنادق القتال، إضافة إلى ذلك، يستخدم بدائل يا سيدي.. تصور... يقولون لديه عشرة رجال يشبهونه كل الشبه وكل منهم يمكن أن يكون بديلاً له.
ـ اللعنة!! هو حقاً ثعلب مراوغ.. لكن أين يفلت مني؟ سألاحقه حتى آخر رمق... سأحشره بالزاوية، أحاصره إلى أن أخنقه بيدي.
ـ ماذا تريدني أن أفعل يا سيدي؟ بالتحديد مرني... يا سيدي.

ـ جيمس بيكر يصل إليك اليوم. خذ منه التعليمات بالتحديد.
وأغلق إمبراطور العالم السماعة وهو يوشك أن ينفلق غيظاً.
وصلت طائرة جيمس بيكر إلى الكويت فوجدت تحتها سحاباً أسود كثيفاً يحجب عنها البصر. "عجيب!! لكنهم قالوا سماء الكويت صافية، لا غيوم فيها... يا للأرصاد الخائبة!!".
وعاود الطيار تدقيق النظر في السماء ثم نزولاً إلى الأرض عله يرى المطار الذي سيستقبل وزير خارجية العالم استقبال الفاتحين. لكن السحاب الأسود الكثيف بدا وكأنه سيعرقل حركة الهبوط.
ـ سيدي!! قد نضطر للمناورة قبل أن نهبط، بأدب جم خاطب الطيار وزير خارجية العالم.
ـ ماذا؟ تريدنا أن نتأخر؟ لا، لا، الناس بانتظاري، ثمة احتفال للتحرير وعليك احترام المواعيد.
ـ لكنه السحاب يا سيدي. انظر. لم أر سحاباً بكثافته في حياتي.
ونظر جيمس بيكر إلى الأسفل. كانت سماء الكويت تمور بسحاب ركامي لا مطر فيه. وكانت تظهر في الفجوات التي تتخلله ألسنة لهب تتصاعد وكأنها تتسابق للوصول إلى الجوزاء.
ـ الكويت تحترق!! صرخ وزير خارجية العالم والرعب في عينيه.
ـ صحيح!. يا سيدي!! قاعدتنا تقول.. اسمع يا سيدي. وأصاخ جيمس الخباز سمعه. كان لاسلكي الطائرة يعطي توجيهاته للطائرة "ابتعدوا عن مناطق الآبار المشتعلة.. المصافي.... مستودعات المحروقات. كلها معرضة للانفجار وكلها تهدد الطائرة بالخطر. كابتن جون! خذ الإحداثيات. عرض... طول... وابتعد عن ألسنة اللهب."
من السماء، كان باستطاعة الوزير القادم للاحتفال بتحرير الكويت أن يرى الكويت ناراً ودخاناً. أوامر بغداد لقواتها كانت واضحة: "قبل إكمال الانسحاب عليكم أن لا تدعوا قطرة نفط للأعداء!! أشعلوا النار في الآبار... المصافي... في كل مكان يحتوي نفطاً. يريدون أرض العراق محروقة. إذن ليأخذوا الكويت أيضاً محروقة أرضاً وسماء. العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم".
جن جنون الوزير العتيد وهو يرى بأم عينه ألسنة اللهب المتصاعدة والسحاب الذي بلا مطر، ثم خلع معطفه وقبعته ما إن حطّ طائرته على أرض القاعدة الجوية التي صنعها الإنكليز ذات يوم وتخلى عنها العراقيون، ربما قبل يومين أو يوم، لكن دون أن يعلم أحد كيف. كان الجو حاراً كأنه تموز لا شباط، وكان النفط المشتعل يحيل الكويت كلها إلى أتون من نار، وكان ذلك كله ينعكس تجهماً على وجه الوزير القادم للفرح والبهجة، انكماشاً وذعراً على محيا الأمير الذي كان على موعد معه للاحتفال.
ـ أرأيت ما فعلوا بي؟ حرقوا نفطي!! خربوا بيتي!! كان الأمير العائد إلى بلاده على مصفحة أنكلو أمريكانية يصيح وقد اغرورقت عيناه بالدموع وانحنى ظهره انحناء المفجوع.
ـ لا عليك. كله على الحساب، ولسوف يدفع صدام ثمن فعلته هذه باهظاً.
ـ المجرم! السفاح! هذا النفط كله، كيف سأسترد ثمنه؟ من يعوض لي خسارته؟
ـ هو... هو... طمأنه الوزير بقامته الممشوقة وأنفه الشامخ وهو ينظر إلى الأمير القصير الحزين محني الظهر. أؤكد لك. سيدفع كل شيء مضروباً بثلاثة أضعاف. أترضى؟
ـ لن يرضيني إلا رأسه. أريد رأسه سيدي الوزير... أريد رأس العراق نفسه.
ولم يستطع الوزير الشائل برأسه، المعجب بنفسه إلا أن يبتسم. الكلام نفسه كان قد سمعه من سيده إمبراطور العالم... هو الذي لا يرضى أيضاً بأقل من رأس العراق.
ـ سيكون لك ذلك، أمير!! سيكون لك ذلك. نحن متفقون: لا أقل من رأس العراق. لكن دع هذا سراً بيننا. لا تتحدث عنه لأحد. قل فقط: نريد رأس صدام، الكل يوافق، لكن إن تقل رأس العراق الكل يعترض ويحتج.
ـ هو ذاك سيدي الوزير! رأس صدام!! أجل أريده مقطوفاً... مدمى.. معفراً فألعب به بعصاي، كما لعب يزيد بن معاوية يوماً برأس الحسين، فيشفي غلي. رأسه وحده يشفي غلي سيدي الوزير.
في اللحظة نفسها، كانت إذاعات الأنكلو أمريكان كلها تعلن عن جائزة قيمتها خمسة ملايين دولار لمن يأتي برأس صدام إلى واشنطن أو لندن حياً أو ميتاً، فيما كانت ملصقات كبيرة تلصق على الجدران في شوارع أمريكا، أوروبا، آسيا، تتصدرها كلها صور

صدام وكلمة كبيرة كتب عليها بأحرف سوداء عريضة " Wanted" مطلوب حياً أو ميتاً ورقم الدولارات المغري، بخمسته وأصفاره الستة، يتلامع تحت الأحرف السوداء.
قوات المارينز، مصفحات الأمريكان، هجانة الفريق العتلّ، حرس شرف الكويت، كلها كانت في استقبال الأمير العائد على رأس حربة أمريكية. السفن في البحر أطلقت إحدى وعشرين طلقة وأضافت لسحب النفط سحب دخان جديدة، مدافع الأمريكان الذين احتلوا المطارات، القواعد البحرية، الثكنات، الساحات، أطلقت هي الأخرى طلقاتها ابتهاجاً بعودة الأمير المفدى مكللاً بالغار الأمريكاني، فيما أسرع المحتفلون إلى دخول القصر، وكلهم فضول لمعرفة ما فعله العراقيون في ذلك الصرح الأسطوري الذي أنفق عليه الأمر نصف واردات النفط لسنة كاملة قبل عقد من السنين.
قلوبهم ترتجف خشية أن يكون جند العراق قد عاثوا فساداً في القصر، نهبوا أثاثه، خلعوا أبوابه، بل ربما خلعوا رخامه ومرمره ذاك الذي كان يحيل القصر إلى غابة من المرايا ومهرجان من الألوان. لكن لشدة عجبهم بدا وكأن القصر لم يمس. كل شيء ما يزال في مكانه: الستائر، الأثاث، الرياش، بل حتى كرسي العرش المذهب كان ما يزال في مكانه، ولم يستطع الأمير العائد على حراب أمريكا إلا أن ينكب على كرسي العرش لاثماً ضاماً، متلمساً متحسساً وقد طغى شوقه وتوقه على كل ما في العالم من لياقة و "إتيكيت".
ـ باسم الملكة إليزابيث الثانية، ملكة بريطانيا ورأس الكومنولث كله، خاطب جون ميجور ممثل سيدة بريطانيا الحديدية، الأمير العائد، وباسم كاوبوي العالم وحلفاء الأنكلو أمريكان السميعين المطيعين أعيدك سيدي الأمير إلى عرشك، كما أعيد هذا الخاتم إلى إصبعي، وفيما كان جون ميجور، ممثل السيدة الحديدية، يعيد خاتماً من البلاتين إلى إصبعه، كان جيمس بيكر، ممثل كاوبوي العالم، يأخذ بإبطي الأمير رافعاً إياه من انكبابه على الكرسي ليعيد تنصيبه أميراً في الكويت للمؤمنين، وخانقاناً للبرين والبحرين.
ـ شوارتزكوف!! خاطب الوزير العتيد الشائل برأسه دائماً، المعجب بنفسه دائماً قائد قواته.
ـ نعم، سيدي، رد الجنرال المنتفخ الصدر وهو يقف وقفة الاستعداد أمام سيده.
ـ قد خيبت أملنا وجعلت صداماً يفلت منا، فهل تعوض الآن تلك الخيبة؟
ـ أمر سيدي!!! أنا رهن أمرك سيدي!! أنا بانتظار التعليمات المحددة سيدي.
ـ نريد رأس صدام!!
ـ نحن نقصفه سيدي. بغداد غابة من حرائق. الطائرات، الصواريخ، القاذفات كلها تعمل على إسقاط بغداد فوق رأسه.
ـ لا، لا، ما هذا قصدي. إسقاط بغداد على رأسه لا يكفي، لا بد من رأسه نفسه. ألم تر الملصقات إذن؟
ـ بلى، رأيتها سيدي. وبصراحة... صراحة، أنا أطمع بالخمسة ملايين دولار بل أخطط لكي آتيكم برأسه، بنفسي.
ـ أنت، مهمتك أكبر من ذلك.
ـ أية مهمة يا سيدي؟
ـ تأتينا برأس العراق نفسه، لكن دون أن يأتي ذلك على رأس لسانك.
ـ أبشر سيدي. المهمة على وشك الإنجاز. الغارات لم تبق ولم تذر. والعراق مدمر حجراً على حجر.
ـ لا يكفي. نريد احتلال العراق... إعادة هيكلته من جديد، قال الوزير لقائد قواته وقد جلسا وحيدين في مكتب قابع تحت الأرض ترتعد فرائصه خوفاً من صواريخ سكود.
ـ لم أفهم، رد شوارتزكوف وقد فاجأه الطرح الجديد. كانت مهمته، حين غادر واشنطن واضحة: ضربة سريعة صاعقة تدمر جيش العراق، اقتصاد العراق، البنى التحتية للعراق، ثم تحرير الكويت وإعادة العائلة الحاكمة إلى مكانها. لكن هاهو الآن يفاجأ بعبارات جديدة: احتلال العراق، إعادة هيكلته...
ـ سأفهّمك، رد الوزير بنبرة الهمس وكأنما يخشى آذان الحيطان، كي نحصل على رأس صدام لا بد من غزوه في عقر داره نحاصره ثم نمسك به إمساكة القط بالفأر.

ـ لكن دخول العراق يا سيدي!؟ الوصول إلى بغداد يا سيدي!؟ بدأ الجنرال الذي فوجئ بتكتيك الثعلب العراقي وبراعته في المراوغة إلى حد سحب قواته تحت جنح الظلام دون أن تستطيع حتى الأشعة تحت الحمراء كشفه، لكن نهرة غاضبة انطلقت فجأة فأسكتته. كان الوزير المعجب بنفسه قد التقى في طريقه إلى لندن بالليدي البريطانية ذات القبضة الحديدية، وفي خلوة لم تقطعها حتى رنات الهاتف، أعطته التعليمات النهائية التي اتفقت عليها مع العزيز جورج "بصراحة، عزيزي جيمي، نحن نادمون هنا في لندن، آسفون على الخطأ التاريخي الذي ارتكبه أسلافنا. لو قسم تشرشل العراق إلى ثلاثة أقسام كما فعل سايكس بيكو في بلاد الشام، إذن لكان قد أراح واستراح. أخطأ تشرشل ومن جاؤوا بعده فأبقوا العراق وحدة جغرافية واسعة وعدد سكان كبيراً بحيث بات يشكل خطراً جسيماً على دول الجوار." "بيدك حق، هذا صحيح" رد جيمس الذي كان يحسن فن الإصغاء جيداً، خاصة حين يكون المتحدث سيدة من حديد. "لو فعلوا بالعراق ما فعلوا بالخليج نفسه لكانوا قد فعلوا عين العقل: كل قبيلة دولة، كل عشيرة دولة. محميات سبع، إمارات ومشيخات لا تعد ولا تحصى فأي خطر يمكن أن تشكله وهي خارطة من فتات... لوحة من شتات؟" "صح. ستكون بلا خطر، قطة بلا مخالب أو أنياب، فمن أين يأتي الخطر؟" رد الوزير العابر لندن وقد بدأ يمسك برأس الخيط. "لهذا فكرنا،. عزيزي جيمي. أقصد، نفكر الآن في أن نصلح ذلك الخطأ التاريخي في أن نعيد هيكلة العراق... أقصد تقسيمه إلى وسط، شمال، وجنوب." "عين الصواب، سيدتي العبقرية!!" هتف جيمس فرحاً، هو الذي خطرت بباله الفكرة لكن دون أن يجرؤ على طرحها، فالسيدة الحديدية لا تكره كأن يملى عليها شيء إملاء. "الرأي رأينا والقرار قرارنا، ما نصنعه لا يلغيه أحد، وما نميته لا يحييه أحد"، كانت ترد على أي اقتراح يخرج عن الأفكار البريطانية والمصنوعات البريطانية، لكن هاهو ذا الاقتراح يأتي منها فليطرق الحديد وهو حام. "أجل سيدي!! تقسيم العراق إلى وسط وشمال وجنوب يحل لنا مشاكلنا كلها. يبقى العراق بلا حول أو طول. يلغيه من خارطة الأقوياء إلى الأبد، "قال مسترسلاً مع أفكاره محلقاً مع أحلامه، فرحاً فرح طفل بلقيا جديدة. بعدئذٍ لم يغادر الذئب الذئب حتى اتفقا على كل شيء.

ـ صه!! بدأ الوزير نهرته للجنرال. ماذا تعني بالدخول... الوصول... وأنت تتأتئ وتمأمئ. هل أنت خائف؟

ـ لا، يا سيدي! معاذ الله!! لكن الأمر صعب.

ـ ليس على الأمريكان صعب، أم لسنا يا ترى سادة العالم؟ أغنياء العالم؟ أقوياء العالم؟

ـ بلى يا سيدي الوزير، لكن أخشى أن نجد أنفسنا في ورطة أشد سوءاً من ورطة فيتنام!!

ـ شوارتزكوف!! قاطعه الوزير وقد صمم أن يكون طويل بال. في فيتنام كنا وحدنا، أما هنا، فالعالم كله معنا. ثلاثون دولة يا رجل!! في الحرب العالمية الثانية، لم تستطع بريطانيا العظمى إيجاد مثل هذا الحلف!! نحن نملك العالم. بيدنا هذه نمسك العالم كله، وإذا ما أردنا شيئاً نقول له: كن فيكون.

ـ هذا صحيح، والمسألة مسألة تحرير الكويت، لكن احتلال العراق!؟ قال بشيء من خوف وحذر وكأنه يخشى غضبة مضرية من جيمس المعتد بنفسه دائماً، المعجب بنفسه دائماً.

ـ ماله احتلال العراق؟ ما الفرق؟

ـ الفرق كبير يا سيدي، فهؤلاء العرب قوم متعصبون. مقولتهم المفضلة: أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب.

ـ هراء!! شوارتزكوف! هذا هراء شوارتزكوف.

ـ لا، سيدي. ليس هراء، بل صدقني يا سيدي، معظمهم جاؤوا على مضض، أنا أعرفهم سمعت هتافاتهم ورصاصهم حين ضرب صواريخ صدام إسرائيل والسعودية. فكيف يقاتلونه؟ لا. لا. الجندي العربي لا يقاتل الجندي العربي.

ـ لكنه قاتله، هنا على حدود الكويت.

ـ أبداً... يا سيدي. اشترطوا علينا أن يظلوا في الخلف وأن يكون وجودهم رمزياً. وهم هنا لتحرير الكويت، فكيف يمكننا الاعتماد عليهم في مقاتلة العراقيين؟ في دخول العراق نفسه؟

ـ دعهم جانباً هؤلاء العرب البدو. رد جيمس بيكر بكثير من القرف والاشمئزاز أصلاً، نحن لا نعتمد عليهم. نريدهم فقط كغطاء. ما رأيك ببقية القوات؟ الأنغلو ساكسون بفروعهم كلها؟ الأوروبيون!؟ ألا نستطيع بهم اختراق الجبهة؟ ألا نستطيع إحداث إنزالات هنا وهناك؟
ـ بلى، نستطيع يا سيدي.
ـ حسن، هو ذا بيت القصيد. العراق الآن حمل وعلينا أن نذبح الحمل.. نسلخ جلده ثم نوزعه أشلاء!!
تلك الليلة جاءت الأوامر إلى المقدم عبد المحسن وقد صار عقيداً قبل أيام: "تحرك بسرعة الطير إلى غربي البصرة، حيث الأهوار من ورائك والحدود السعودية من أمامك. بلا أنوار تحرك، بلا ضجيج، وبكل سرية، فلا يعلم بوجودك أحد." وكانت تلك جزءاً من التحذيرات المشددة التي باتت خبز القوات العراقية وشرابها. فوج عبد المحسن دبابات روسية حديثة الصنع يدعونها /ت82/. هي من أقوى الدبابات في العالم وأشدها مناعة، مع ذلك أضاف إليها العراقيون أشياء وأشياء جعلتها أكثر تحملاً للحر والقر وأسرع حركة وأكثر قدرة على المناورة. في الجيش العراقي خبراء ومهندسون يحسنون ويطورون، يغيرون ويبدلون. هم يعلمون أن ما يصلح لصقيع روسيا لا يصلح للهيب العراق، وكان عبد المحسن فخوراً بفوجه، فخوراً بدباباته، مذ خاض بها معارك المحمرة والأهواز، شق بها الطرق والمسالك يحدوه الأمل في استعادة عربستان، أرض تميم المسلوبة إلى الوطن الأم. "الأنكلو أمريكان جبناء" قال لمعاونه المقدم ناظم، استغرب المقدم ناظم القول فتابع العقيد شرح فكرته "بالطبع، هم جبناء، يغيرون عليك بالطيران من ارتفاعات عالية بحيث لا تصلهم مدافعك المضادة. لينزلوا إلى الأرض وليقاتلوا وجهاً لوجه، حين ذاك نرى من يصمد ومن يهزم؟ من الشجاع ومن الجبان؟" وكان ذلك هو ما يردده العراق كله "إن كانوا شجعاناً فلينازلونا جندياً لجندي". ظلت الحسرة تملأ صدر عبد المحسن طوال كانون الثاني وشباط، وهو يرى أسراب الطيران التي تغطي وجه الشمس وكأنها أسراب الجراد تغير على العراق.... تزرعه حرائق وقنابل وتعود.
لم يكن باستطاعته أن يضرب ذلك الجراد ولا أن يوجه له حتى شتيمة، فالتعليمات أن يلبث في موقعه في الفاو مموهاً تمويهاً تاماً لا يراه أحد ولا يسمع له نأمة أحد.
دباباته في ملاجئها مخفية مموهة، تمر فوقها الطائرات فلا تراها، تعبر طوربيدات البحر، الزوارق الاستطلاعية، قريباً منها فلا تكشفها. هي تنتظر لحظة الحسم والحسم لا يكون في الجو أو البحر. بل هناك على الأرض حيث يصدم الكبش الكبش وأيهما أقوى يصرع الآخر مضرجاً بدمائه التراب.
سار الرتل تحت جنح الظلام، بلا أنوار. الدبابات العراقية نمور رقطاء ترى جيداً في الظلام، عبد المحسن بسيارته السريعة، يسبق الرتل. في ذهنه هاجس. مذ عرف أنه سيمر بالبصرة، لم يستطع التخلص من ذلك الهاجس: أم فاطمة، امرأة عمه... المرأة التي أحبها كثيراً مذ وعي الدنيا، ما حل بها يا ترى؟ وهو يقترب من البصرة بدا الهاجس يشتد. كان عليه أن يسبق الفوج فيستطلع الموقع الجديد ويوزع قواته، لكن هاجس امرأة عمه لم يسمح له بعبور البصرة دون أن يطمئن. وأسرع بسيارته. سائقه ماهر. هو يعرفه جيداً عمل ذات مرة سائقاً لسيارة إسعاف. باستطاعته أن يسوق بسرعة البرق. فليسرع ولن يضيع وقتاً أبداً. البصرة مظلمة. الشوارع بلا أنوار. شط العرب، نهر العشار، الطرق، الأبنية، البيوت، كلها صامتة معتمة إلا من مشاعل القصف والحرائق. بسرعة اجتاز محسن شارع الوطن متجهاً إلى حي الخندق، هو يعرف بيت عمه جيداً لكن الحفر الهائلة في الشوارع، البيوت المهدمة، الأبنية المتكومة على نفسها وقد صارت أنقاضاً، الأشجار المقتلعة والملقاة أرضاً معترضة الطريق هنا، معترضة إياه هناك، كل ذلك جعله ينحرف عن طريقه مائة مرة ويلعن الأنكلو أمريكان ألف مرة. كان خراباً هائلاً بالبصرة، فحيثما تنظر ترى الوجه المشوه للبصرة، الجلد المحروق، الأشلاء المبعثرة، الأوصال الممزقة... مع ذلك كان عليه أن يعبرها كلها، يلف يدور فالهاجس مسيطر عليه ولا خلاص له منه.
"هو ذا المنزل" أشار العقيد لسائقه الماهر باتجاه اليمين. هناك، في منتصف الشارع كانت الفيلا التي يعرفها بشناشيلها وشبابيكها المزخرفة قد غدت تلة من حطام. الجدار

الخارجي، السياج، كانا ما يزالان سالمين لكن السطح الواسع الذي دكته القنابل كان قد ركع على أربعة وساحقاً الأعمدة، محطماً الجدران، طامراً المنافذ والشبابيك.

وقفت السيارة صامتة صمت الحزن، فيما أسرع عبد المحسن يفتح الباب ويندفع خارجاً، متفحصاً، متلمساً وكأنه لا يصدق عينيه.

"يا دار فاطمة التي أحببتها

قد صرت بعد العز أطلالاً دوارس"

وأوشكت عيناه أن تغرورقا بالدموع لكنه عض على لسانه فتراجعت الدموع في عينيه.
"لا يجدر بالرجال البكاء. البكاء للنساء." ومضى يطوف حول البيت. ممر الحديقة كله ركام، قصوف أغصان، مزق جذوع، أشلاء جذور وقد اقتلعت القنابل الأشجار من جذورها. الباب؟ لا باب. وأدرك أن كارثة حقيقية حلت. "أتراك تحت الأنقاض، أنت أيتها الأم الحنون؟ يا أم فاطمة ورقية، كاظم وناصر!! أقضيت نحبك دون أن تجدي من يرفع عنك الأنقاض؟" كان يدور حول تلة الحطام وقد أعياه أن يجد منفذاً فيها، أصاخ السمع فلم يسمع شيئاً، تفحص بناظريه ودقق فلم ير شيئاً، لكن ناراً اشتعلت هناك حيث القلب.
"يجب أن أسأل، أعرف شيئاً عنها"، وأسرع إلى المنزل المجاور. كان البيت مزعزعاً مصدعاً، لكنه لم يكن قد تهدم. بابه مغلق.. شبابيكه موصدة، لكن بصيص ضوء كان يتسرب منه. قرع الجرس ثم ارتد هازاً رأسه لائماً نفسه "وأين الكهرباء كي تقرع الجرس؟" فالأنكلو أمريكان، أرباب الحضارة والمدنية، كانوا أحرص ما يكون على إطفاء نور الحضارة والمدنية، قطع ماء الشرب، تخريب كل ما يصل الإنسان بالعالم، بالحياة. وطرق بيده الباب. لحظات ثم جاء صوت وفتح باب وظهرت امرأة.
ـ عفواً!! بكل لطف وأسى، بدأ العقيد الذي ركبه هاجس يقض المضجع. أتعرفون شيئاً عما حدث لسكان هذا المنزل؟
ـ أم جبار حية ترزق هي هنا، لكن ابنها كاظم.. امرأته..ـ ولم تكمل المرأة التي بدت وكأنها تمرست بنقل الأخبار دون أخبار.
ـ رحمك الله يا كاظم، رحمك الله يا امرأته!! لكن، امرأة عمي، أأستطيع رؤيتها؟
أفسحت المرأة الممر للعقيد المستعجل، سابقة إياه إلى غرفة في مؤخرة المنزل تبدو وكأنها أدارت ظهرها للخليج، واهب المحار والردى، فكل ما في الخليج كان قد تحول إلى موت زؤام. سفنه، طائرات، مياهه، نفطه، كل ما في الخليج، عدوان وأعداء، لهب ونار، فكيف لا تدار له الظهور؟
على ضوء الشمعة رأته أم فاطمة بهامته العالية وقامته الضافية.
ـ محسن!!ـ
ـ امرأة عمي!! ثم أخذ كل منهما الآخر بالأحضان، فيما ارتفع نشيجهما كأنه صدى لنشيج الخليج، بكل ما فيه من كره وضغينة، موت ودمار. لحظات ظل واحدهما في حضن الآخر ـ هو صهرها وابن عم أبنائها. ابن حقيقي وقد غاب عنها أبناؤها: جبار ثم باقر، أخيراً كاظم وقد غيبه الثرى. قنبلة من وزن طن ونصف أو طنين ربما، بصقتها إحدى الغولات الحاقدات القابعات في غابة الخليج فجعلت ابنها رماداً وبيتها خراباً. هي نفسها نجت بأعجوبة كانت قد ذهبت إلى جارتها تطلب خبزاً، وجاءها الدوي بدل الخبز... دوي يصم الآذان ويقصم الظهور. أم جبار قصم ظهرها الانفجار أو كاد. إذ ما إن سمعته حتى هوت أرضاً وكأنما غدت بلا رجلين، بلا ظهر. بالحدس عرفت أنه بيتها، وبالحدس أدركت أن كاظماً غاب... امرأته غابت. غيبهما الحديد والأسمنت، الأخشاب والحجارة، ثم اللهب والنار وقد اشتعلت في كل ما يشتعل.
ـ سننتقم منهم!! المجرمون!!ـ السفاحون!! يقتلون المدنيين العزل، النساء والأطفال!؟ سننتقم. صدقيني عمتي سننتقم، فاصبري قال لها مربتاً كتفها، رافعاً من معنوياتها.
ـ صبرنا وسنصبر.
ـ عمة.. لم لا تذهبين إلى فاطمة!؟ هناك رقية أيضاً.
ـ أذهب إلى بغداد؟
ـ لم لا ؟ هناك تتعاونّ، تتآزرن.

ـ وهم؟ سألت وهي تشير إلى الوراء، حيث مياه الخليج وبوارج الأعداء، ألا يريدون تدمير بغداد؟ ألا يجري لبغداد ما يجري لأختها التوأم البصرة؟
السؤال وجيه ومحسن لا يملك جواباً، فيغير:
ـ إذن، اذهبي إلى العمارة. هناك بعد أكثر وأمان أكثر، وهناك الأهل.
ـ أجل. فكرت في ذلك، ردت الأم المفجوعة بولدها، بكنتها، ببيتها، ذاك الذي بنته بدموع عينيها، بعرق جبينها، وهي توفر الفلس فوق الفلس ويقترض أبو جبار القرض بعد القرض إلى أن جاء أرباب الحضارة والمدنية بكل حقدهم وبغضائهم ليهدموا البيوت على رؤوس أصحابها، فتلتغي الحضارة ويعود الناس كما كانوا بداة في الخيام.
ـ لا تترددي ـ غداً ارحلي. هاك، وأخرج من جيبه حفنة من دنانير وضعها في كفها ثم أخذها بالأحضان من جديد، عمة، أنا آسف، علي أن أكون الآن في مكان ما على الحدود.
ـ لا عليك يا ولدي! اذهب برعاية الله! انتبه لنفسك محسن!! وقبلته قبلات الأم المفجوعة التي تخشى أن تفجع من جديد.
ـ سلمي لي على العمارة.. على الأهل. وإن رأيت فاطمة... الأولاد..ـ قبليهم لي. طمئنيهم عني.
ـ الله معك يا ولدي!! الملائكة تحرسك يا بني!!
ـ تحرسنا الملائكة يا عمة، فلا تخافي. لا تخافوا جميعاً. نحن ما زلنا أقوياء ولسوف ندافع عنكم، سنقاتل عن هذا الوطن حتى آخر رمق.
وغيبت عبد المحسن العتمة فيما كانت دموع نساء خلفه تنهمر مدراراً. لقد ظهر كالنيزك وغاب كالنيزك. لكن النيازك ضياء يشق ظلمة الليل، فتجد العيون طريقها رغم حلكة الظلام.
***
باقر يشعر أنه في حلكة الظلام. كل شيء حوله غامض، مبهم يحير الألباب. "أتراها الهزيمة النكراء للعراق؟ هل مسحت قواته مسحاً فغدا بلا قوات؟ هل القصف المستمر دمر العراق فعلاً؟ لم يترك حجراً على حجر، كما تقول إذاعات الغرب كلها؟ أم تراه العكس، كما تقول إذاعات أخرى". هو لا يفتأ ينتقل بإبرة المذياع من محطة إلى أخرى. لم يعد لديه، بل لدى معسكر الحاصباني كله من شغل، سوى حرب الخليج، أخبار العراق والعراق وعل أحاطت به ضباع. أيجديه نفعاً قرناه؟ أم تخور عزيمته بعد حين؟ قلبه على العراق، شفتاه لا تفتآن تصيحان "يا خليج!! يا عراق!!" ويقشعر بدنه وينكمش كل ما في داخله كلما سمع أخبار الإذاعات المعادية الفرحة بتحرير الكويت... بطرد العراقيين أذلاء صاغرين. هاهو ذا الأمير العائد على حراب الأمريكان يخطب متحدياً العراق، ساخراً من العراق فلا يملك باقر إلا أن يحتدم غيظاً "إن البغاث بأرضنا يستنسر" ـ ويتبجح من رواءه "سيذعن العراق... لا بد من الإذعان" وينفض باقر رأسه "تباً لهم!! كانوا يتحدثون عن صدام، سحق صدام وإسقاط صدام، فما لهم اليوم يتحدثون عن العراق، إركاع العراق وإذعان العراق. ترى، المقصود صدام أم العراق!؟" باقر لا يعلم بل بات عاجزاً عن التمييز ـ الأنكلو أمريكان يخلطون بين العراق وصدام. وهو، باقر بن عبد الوهاب التنكجي، المهندس الهارب من العراق، منذ سنين طوال، يميز كل التمييز ـ صدام رجل.. فرد..ـ يعيش ويموت أما العراق فأرض... وطن كبير خالد. منذ دهور كان مهداً للحضارة والمدنية، وسيظل مهداً للحضارة والمدنية، حياً خالداً لا يموت.
مع الغموض يزداد القلق، ومع الإبهام يشتد الخوف، فيرتعش قلب الشجاع في الليل وقد صار كل ما حوله مغلفاً بالغموض. شيء ما يدفعه لأن يبحث عن قبس من ضوء ينير الظلمة ويزيل الغموض فمضى وحيداً إلى بيروت. لم تعد رفقة يسار تسره، هو الذي لا يفتأ يسخر، يشمت ويبدو كأنه فرح باندحار العراق، بهزيمة جيش العراق، بل ربما ليس لديه مانع أن تحتل أمريكا العراق. هو يحسب أن ذلك لصالح باقر. "ألا تريد سقوط صدام؟" "ألا تريد التخلص من النظام؟" لا يفتأ يسأله "إذن، ها قد جاء من يخرج لك الكستناء من النار"، لكن، كل ما يراه باقر، كل ما يسمعه بات يقول له شيئاً آخر. كل ما حوله يجعله يشعر بالانكماش والحزن. الحاضر غامض، المستقبل غامض، ولم يكن في المعسكر كله من يشفي غل باقر، فمضى إلى همام.
ـ همام!! أفهمني بحق الله، ما الذي يجري؟

ـ كارثة.. ما يجري كارثة. رد همام الحزين حتى نقي العظم، الزافر زفرات الحسرة واحدة تلو الأخرى.
ـ صرت على يقين أنها كارثة، لكن كيف؟
ـ لقد قلت لك من قبل، الأنكلو أمريكان يخوضون حرباً بالوكالة عن أنفسهم وعن إسرائيل أهدافهم كثيرة في رأسها: تدمير العراق وإزالة خطره عن إسرائيل ـ لذلك أشعلوا الحرب العراقية الإيرانية على أمل أن يتحقق هذا الهدف لكنه لم يتحقق، فلم يكن أمامهم إلا أن يفتعلوا أزمة الكويت لبلوغ غايتهم.
ـ لكنك كنت فرحاً بدخول العراق إلى الكويت.
ـ أنت نفسك فرحت. إنه رد الفعل الغريزي. إنه حب الوحدة. أجل، أنا فرحت أملاً بأن يتابع العراق ضرباته الخاطفة السريعة فيخلصنا من حكام جائرين وعائلات ظالمة مستبدة لكن واأسفاه!! ذهب كل أمل... ضاع الحلم أدراج الرياح.
ـ ما أريد أن أفهمه، لماذا لا يوقفون قصف العراق؟ وشعر باقر بالغصة. كانت كلمة قصف وحدها تجعله يصاب بالاكتئاب وهو لا يملك إلا أن يتصور البصرة تتهدم وبيوتها تشتعل.
ـ لم يتحقق هدفهم بعد.
ـ لكنهم كانوا يقولون: هدفنا تحرير الكويت، وها قد حرروا الكويت، فما ذريعتهم اليوم؟
ـ لا تخف.. كل يوم يصنعون لك ذريعة جديدة. المهم بلوغ غايتهم البعيدة.
ـ إسقاط صدام؟ قاطعه باقر وقد بات غير واثق من شيء.
ـ لا، لا، صدام ورأس صدام وإسقاط نظامه.. كلها قميص عثمان يتباكون عليه ويلوحون به، تغطية وتعمية ـ غايتهم الحقيقية هي أن لا يبقى في العراق منشأة أو مرفق، مصنع أو معمل يشير إلى أن له علاقة بالحضارة... علاقة بالقرن العشرين، يريدون إرجاعه إلى العصور الحجرية فيحفظون إسرائيل من خطره خمسين عاماً على الأقل.
ـ صحيح ـ كانوا يقولون لا نريد إلا انسحاب صدام... تحرير الكويت... لكن شيئاً واحداً لم يتغير بعد انسحاب صدام وتحرير الكويت.
ـ أرأيت؟ الآن ذريعتهم: أفلت جيش صدام... آلته العسكرية ما تزال قوية، خطرة، ولا بد من تحطيم تلك الآلة العسكرية ـ وتوقف لحظة زافراً ثم تابع، وإذا تحطمت آلة العراق العسكرية، ماذا يمنع من احتلال أراضيه احتلالاً مباشراً؟ وضع يدهم على نفطه وضعاً مباشراً؟
ـ يعني,,, يريدون إلحاق العراق بالخليج؟ إعادة الاستعمار المباشر إليه كأيام الإنكليز؟
ـ بالطبع، يدمرون العراق، جيشاً واقتصاداً، تقدماً وصناعة، ثم يستعمرونه ويقسمونه.
ـ يقسمونه؟ قاطعه باقر مجفلاً منفعلاً.
ـ بالتأكيد، هو ذا مخطط إسرائيل ـ بن غوريون، موشي دايان، موشي شاريت، كلهم وضعوا منذ بداية الخمسينات مخططاً متكاملاً تصبح بموجبه المنطقة كلها دويلات طائفية، شراذم دول، كدول الخليج تماماً، تكون إسرائيل الأقوى فيها جميعاً فتسيطر عليها جميعاً.
ـ هذا في لبنان: أرادوا تقسيمه إلى أربع دويلات.
ـ وهو في سوريا أيضاً... في الأردن..ـ في العراق... أم تظن أن حرب الأكراد لا تدخل في صلب هذا المخطط؟.
وسرعان ما عاد باقر بذاكرته إلى الوراء. "صحيح ـ حين كنت في الشمال بأم عيني رأيت الضباط الإسرائيليين يعملون مستشارين وخبراء. بأم عيني رأيت الأسلحة تأتي من إسرائيل"ـ
ـ تعلم؟ قال وقد تخلص من شروده، كنت أظن أنها مجرد عمليات إزعاج تقوم بها إسرائيل للنظام في بغداد.
ـ بل هو التقسيم يا صاحبي، واليوم يتكلمون عنه علناً. دولة أكراد في الشمال، دولة شيعة في الجنوب، والسنة في الوسط، ومت أيها العراق كمداً لمداً!!
ـ مستحيل، كيف سيحققون ذلك؟
ـ تدخل قوات الأنكلو أمريكان إلى العراق.
ـ ماذا؟ يدخلون إلى العراق؟ قاطعه باقر مستنكراً وهو يعلم ما يعني العراق بأهواره، ومستنقعاته، نخيله وأنهاره.

ـ بالتأكيد، وإلا كيف سيحصلون على رأس صدام؟
ـ لا، لا، أنت متشائم... متشائم كثيراً ـ قال باقر، تكاد الدموع تطفر من عينيه، وقد ازدادت الدنيا قتاماً على قتام.
تأمله همام طويلاً، متفكراً فأدرك ما يعانيه في الداخل. وكي لا يظل رهن المعاناة اقترح عليه:
ـ اسمع باقر، دعنا من السياسة، ولنخرج إلى مكان ما.
كانت بيروت قد استعادت بعضاً من أمنها وطمأنينتها: الميليشيات نزعت أسلحتها، الجيش بدأ يأخذ مواقعه، الحواجز خفت، وبدأ الناس يخرجون من قواقعهم في الأماسي وأطراف الليل... مطعم هنا، حانة هناك، كازينو هنالك، بدأت تفتح أبوابها فيؤمها الناس يستعيدون عز بيروت ويمارسون حياتهم المألوفة في بيروت.

ذهبا إلى أقرب كازينو، مطرب من الدرجة السادسة كان يغني، فيخرج صوته نشازاً يخرش أذني باقر. باقر لا يتحمل المزيد فيفر بجلده يفكر بصفية.. بالحانة، ويمضي الصديقان إلى الحانة. تستقبلهما صفية برقصة العصا التي تتقنها جيداً. مع ذلك لا يطرب باقر... لا يشعر بالمتعة. هوة كبيرة يشعر بها تفصل بينه وبين المتعة والطرب، الموسيقى نشاز، الرقص نشاز، الغناء نشاز، يقول لصاحبه ذلك فيضحك صاحبه ثم ينشد:

ومن يك ذا فم مر مريض
يجد مراً به الماء الزلالا

ويكبس باقر ملحاً على الجرح ويصمت. هو كبالع موس بحدين إن بلعها جرحته وإن أخرجها جرحته ـ وحين تأتي صفية إليه، تمازحه، تدق كأسها بكأسه بل تغريه بأن تدعو صديقتها له، لا يشعر إلا بمزيد من النفور والضيق. ومن جديد يحمل صديقه زوادة تحت إبطه ويمضي.
ـ إلى أين؟ سأله همام صباح اليوم التالي وقد رآه يحضر حقيبته: بالأمس فقط جئت من المعسكر.. ـ هل اشتقت إليه؟
ـ المعسكر؟ رد باقر ملوحاً برأسه، لا، بت أختنق فيه، وقد توقفت عمليات المقاومة. حتى التدريب لا يجد واحدنا قدرة على تحمله.
ـ أين تذهب إذن؟
ـ لا أدري، قال وسمات الحيرة تبدو على محياه. ربما إلى عمان.. ربما إلى دمشق.
لكن ما إن وصلت السيارة إلى دمشق، حتى حزم باقر أمره. كان هناك رفاق وكان يريد أن يراهم. فارون عراقيون كثر هو بأمس الحاجة للتواصل معهم، التعرف إلى مواقفهم. وكان مكتب الحزب محطته التالية:
ـ مبروك!! بادره أبو العز، القائد الكبير الذي يطلق التصريحات الصحفية يميناً وشمالاً وكلها تعج بالفرح والمرح.
ـ على ماذا؟ سأله باقر وهو ما يزال يشعر بأنه بالع موس.
ـ قرُبَ يوم التحرير!! دنا موعد العودة! رد القائد الكبير وهو يخرج من وراء طاولته الفاخرة في مكتبه الفاخر في أحد أحياء دمشق الفاخرة ليجلس إلى جانبه. علاقة معقدة

كانت تربط الرفيقين معاً، باقر، قد رأى قائده أول مرة لم يشعر بالراحة. كان في وجهه الأسمر المكمد شيء منفر، لا يدري ماهيته، لكنه ينفر منه.
مذ كانا معاً في الشمال، كانا يلتقيان وكانا يتفقان حيناً ليختلفا أكثر الأحيان قائد، كلامه مطاع وسيفه قطاع، وكان على باقر أن يحني له الرأس، وأن ينفذ التعليمات.
ـ كيف؟ سأله باقر وقد أراد أن يعرف المزيد.
ـ بسيطة!! الأنشوطة تضيق حول عنقه، قال وهو يشير إلى الأعلى والبعيد، شدة أخرى ويلفظ صدام أنفاسه فنعود منتصرين.
ـ أخشى أن نكون واهمين... بادر باقر وكله رغبة في أن يناور.
ـ كيف وصدام تتلاشى قواه!؟ جيشه ينهزم من الكويت، يفر إلى الداخل، بل إن بعضهم يقولون: الفوضى تعم الجيش، تعم البلاد كلها...
ـ لكن بعضهم يقولون، قاطعه باقر بشيء من حذر، كان انسحاباً دقيقاً، حتى الأعداء لم يشعروا به.
ـ وتصدق؟ سأله القائد الكبير وهو يلوح برأسه ساخراً، الجيوش العربية لا تعرف الانسحاب الدقيق المنظم.. بل الفرار. أم نسيت سيناء في حرب السبعة والستين؟ حتى الأحذية تخلى عنها الجندي كي تفر الأرانب بسرعة أكبر. وضحك القائد الكبير ضحك السخرية والشماتة فأحس باقر بنفور أشد وحيرة أكبر. "ما تراني أقول له؟ كيف أرد؟ هو قائد كبير وأنا مجرد عضو في حزبه؟ أأخالفه؟ إذن، قد يفصلني ملقياً بي في الشارع، فلا يتعرف علي أحد". وسكت باقر متململاً في مكانه مطرقاً أرضاً وكله حرص على أن لا يرى أبو العز عينيه فيكشف ما في داخله.
ـ لا أدري. تمتم باقر بعد تفكير، أشعر هذه المرة أن الأمر مختلف... الجيش العراقي مختلف، ثماني سنوات وهو يقاتل جيوش إيران... زحوف كالجراد تلبس الأكفان البيضاء أملاً في الشهادة والذهاب إلى الجنة، مع ذلك صمد وقاتل تلك الزحوف بل كاد أن ينتصر.
ـ إيران شيء وهذا التحالف شيء آخر. هناك الجهل وهنا العلم، هناك الإيمان الأعمى وهنا التكنولوجيا المتطورة: صواريخ، حواسيب، نظم، طيران... فكيف يصمد جيش صدام؟ بل أين يفلت صدام؟
ـ البعض يقولون: صدام بارع في المراوغة، قادر دائماً على الإفلات... ولكي يضعوا يدهم عليه، لا بد من وضع يدهم على العراق كله.
ـ ليضعوا يدهم على العراق كله، هتف القائد الكبير فرحاً، ليخلصونا من هؤلاء القرميين الشوفينيين الذين يحلمون بوحدة العرب ومجد العرب.
ولم يستطع باقر متابعة القائد الكبير. كان ذهنه قد شرد بعيداً إلى أيام لقائهم في كردستان، أحاديثهم في كردستان. يومذاك لم يكن أبو العز قد صار قائداً كبيراً. كان يصعد درجات السلم ببطء وتأن، لكنه كان يصعد. مذ ترك الحزب القومي الكردستاني وانتسب إلى الحزب بدأ يصعد... كان من الواضح أن له مستقبلاً ما، مستقبلاً يبشر بالخير. هو دائماً مندفع مشتعل الحماسة، في الحزب القومي الكردستاني كان متحمساً مندفعاً... يخطب.. يحاور... يناقش... وكله إيمان بقوميته الكردية متعصب لأهدافها في بناء الدولة الكردية الواحدة التي تمتد من أذربيجان وبحر الخزر شرقاً حتى اسكندرون والبحر المتوسط غرباً مروراً بإيران، العراق، تركيا، سورية.
كان ذلك الحلم قد تملكه عشر سنوات كاملات ونذر حياته له عشر سنوات كاملات. فجأة تخلى عن قوميته الكردية ليعتنق الأممية داعياً إلى ديكتاتورية البروليتاريا وسلطة السوفييت. لكن لم يكن يفوت باقراً في أي لقاء معه تعصبه الأعمى لقوميته، حقده الشديد على كل ما هو عربي. "ألهذا السبب يتمنى أن يدخلوا العراق؟ يقضوا على الحزب الذي يدعوا لوحدة العرب ومجد العرب؟"
وبدا لباقر، وهو يعود إلى محدثه، أنهما يقفان على طرفي نقيض، لكنه لم يرغب في الجدال وهموم الدنيا تحط على كتفيه، أحزان الدنيا تتغلغل في رئتيه، فلم ير نفسه إلا وهو يسرع بالخروج كأنه يولي الأدبار. في دمشق بحث باقر عن عراقيين آخرين أقل تعصباً وحقداً، عراقيين جاؤوا حديثاً من العراق عله يشم فيهم رائحة الوطن، يعرف منهم أخبار الوطن، لكن دمشق مصمتة الجدران، أسوارها عالية كأسوار الصين.
أياماً أربعة ظل باقر يبحث، يفتش، يسأل. ثمة رفاق آخرون التقى بهم، سألهم، ثمة لاجئون من اتجاهات سياسية أخرى وأحزاب أخرى. ناقش بعضهم، دخل في عراك مع

بعضهم لكن دون أن تفوته ملاحظة بدت واضحة كل الوضوح: الكل تضللهم دعاية الغرب. حين جعلوا من صدام العراق كله، حين ألغوا الوطن كله ليحل محله فرد واحد أحد هو صدام. ومن جديد وجد نفسه يهرب إلى عمان "أهذا هو الهروب إلى أمام؟ آه، ليتني أظل هارباً إلى أمام إلى أن أجد نفسي في البصرة، فألقي بنفسي في أحضان أمي، ألثم يديها، أقبل قدميها، أطمئن فقط أنها على قيد الحياة، أخلص من هذا القلق الذي يقتلني، أقضي على هذا الغموض الذي يلفني كظلام ليلة شتائية كثيفة الغيوم، غزيرة الأمطار".
سماء عمان كثيفة الغيوم غزيرة الأمطار، فلم يشعر إلا وهو يفتح يديه بالدعاء للسماء "اللهم، اجعل سماء العراق كلها هكذا كثيفة الغيوم غزيرة الأمطار، فتعمي أعين الطائرات، وتضل الصواريخ طريقها فلا تجد سبيلاً إلى طفل أو شيخ، امرأة أو رجل".
في عمان الأجواء مختلفة، الأبواب مفتوحة وليس ثمة جدران أو أسوار. مع ذلك شوارع عمان خالية، لا سيارات عراقية ولا متبضعين عراقيين. "أين الفارون بمئات الآلاف الذين تتحدث عنهم واشنطن؟ أين أرتال القوافل التي تهجر العراق طلباً للنجاة في عمان؟" وبدا لباقر أن الكذب أضحى ملح العالم وماءه. "اكذب... اكذب... اكذب... فلا بد أن يصدقك الناس"، تلك كانت مقولة غوبلز، فهل يقتنع بأقل منها كاوبوي العالم وامرأة لندن الحديدية؟ "قبل الحرب كان العراقيون زرافات زرافات يقصدون الأردن، يأتون ببضائع ويأخذون بضائع، يتفسحون، يتاجرون، يتواصلون مع العالم." باقر التقى بالكثيرين منهم في المرة الماضية، تواصل، سأل، بل فرح كل الفرح بذلك البصراوي الذي تبين أنه يعرف أباه، بل ربما يعرفه هو نفسه وهو صغير. لكن ما لها هذه المرة عمان خاوية؟ لا تجار، لا طلاب، لا عسكر، لا مسكر. وازدادت حيرة باقر وهو يقف أمام جبل من غموض لا يفتأ يكبر ويكبر... واحدة من محطات التلفاز العربية أطلقت شهاباً في ظلمة الليل والغموض فأضاءت لباقر الحقيقة: طائرات الشبح تقصف الطريق، تدمر الجسور، تلاحق السيارات بقنابلها ورصاصها، فتحرق السيارات وتبعثر
القنابل القوافل، ويتمزق ركابها أشلاء أشلاء. "هكذا إذن؟ لا يسمحون لسيارة أن تسير على طريق؟ يقطعون الطرق التي تصل العراق بالعالم؟ هو ذا الحصار الحقيقي من داخل كما هو من خارج فيختنق الناس ويموتون".
وفي وحشة غرفته وظلمتها، وقد أطفأ التلفاز والأنوار، سمع باقر صوتاً كالنشيج يردد: "أصيح بالخليج.. يا خليج". انتفض باقر باحثاً فيما حوله عن مصدر الصوت وكأنه بجانب خده، لكن لا أحد.شعر باقر بشيء من خوف. "لا، لا، الوحدة مخيفة... الوحشة قاتلة" ومضى إلى الهاتف يدق رقمّاً لم يفكر بدقه من قبل. بعد لأي جاءه صوت لبانة، لكن من مسجلة: "أنا خارج المنزل.. من فضلك.. اترك رسالة". وترك باقر رسالة: "أنا باقر.. أنزل في الفندق.. رقم الغرفة.. رقم الهاتف..". ثم عاد يلقي بنفسه من جديد على فراش يفترض أنه وثير، لكنه تلك الليلة كان من قتاد.
مساء اليوم التالي فقط رن هاتفه، وجاءه صوت لبانة:
ـ باقر، مرحباً!! كيف أنت؟ متى جئت؟
ـ منذ أيام... أين كنت؟
رد باقر بشيء من فرح وقد أخرجه صوتها من لجة الوحشة.
ـ كنت في البتراء.. رحلة سياحية.. تصور.. أنا ابنة الأردن لا أعرف أهم معالم الأردن بل أهم آثار العالم..
ـ حقاً؟ أهم آثار العالم؟ رد بنبرة احتجاج وهو يستعيد إلى ذهنه صوراً عن مدينة عظيمة ملأت الدنيا وشغلت الناس... مدينة هناك في العراق تدعى بابل لم تشتهر مدينة في الدنيا كما اشتهرت ولا ضاهى عظمة آثارها في العالم عظمة آثار.
ـ أجل، أنت لا تعرف البتراء "المدينة الوردية"، تصور، كلها محفورة في الصخر: بيوتها، قصورها، شوارعها، أقنيتها.. يا إلهي!! ما أروع البتراء!!
وتوقفت لحظة ثم أردفت ضاحكة. لكن، لماذا الكلام على الهاتف؟. تعال. هيا، أم آتي فآخذك بسيارتي؟
ـ لا، لا، لن أتعبك، أذهب بسيارة أجرة.
فتحت لبانة الباب فامتلأ خيشوماه فجأة برائحة الصابون وعطر الشامبو وقد خرجت لتوها من الحمام. كان المنزل كله يعبق برائحة الصابون وعطور أخرى غير عطر

الشامبو. أخذته لبانة بالأحضان، قطة باردة تبحث عن دفء. أخذها باقر بين ذراعيه وهو يتصور أن فوهة بركان من شوق ستنفتح ما إن يراها... مقذوفات حمم ستنطلق ما ان يلامسها. لكن ماله؟ دمه فاتر، لا حار ولا بارد، ويسوع يقول: "أحبك حاراً أو بارداً، ولا أحبك فاتراً" هي تشتعل حرارة، شفتاها تتوقدان جمراً.. وتشد بذراعيها حوله ضمة محكمة الشوق ثم تسحبه، كما هي عادتها كل مرة، إلى المخدع بأضوائه الخافتة الحمراء ودفئه المتوهج يشع من الأرض، من الجدران بل حتى من السقف.
ثوبها الشفاف الهفهاف يسقط من تلقاء نفسه قبل أن تصل إلى السرير لتبدو في عريها متوهجة كالنار، تلقي بنفسها على السرير فترقص نوابضه فرحاً باللعبة الجميلة التي تمارسها صاحبته عليه دائماً، وينتظر حركة للموج تأخذ بتلابيبه فترفعه وتخفضه بين مدٍ وجزر، لكن الحركة لا تبدأ. لبانة تشد الرجل إليها، تأخذه بذراعيها، برجليها، تحكم حوله أطواقاً من كل جانب، ترسل إليه أمواجاً من أشعة الرغبة والشهوة، لكن، هو مجرد ماء فاتر، لا بارد ولا حار وهي تكره كل فاتر. تنقلب عليه، تجرده من ثيابه، عاصفة تمزق شراع زورق، تعتليه، فارسة تعتلي متن حصان: تتحسس عنقه، تلكز خاصرتيه، تسوط كفليه، وكلها أمل أن ينبت له وتد، أن تنمو فسلة، ترتفع وتعلو لتصبح نخلة تتسلقها لتقطف الرطب الشهي، لكن السرج يظل بلا وتد وفسلة النخيل لا تكبر. هي هناك، تحتها تماماً. صغيرة كحبة فول، ضامرة كقشة. وتتحرك الأنثى. التحدي قاتل. تبعث في القشة الحياة أم لا؟ تنتش حبة الفول وتكبر أم لا؟ تلك هي المسألة. وترفض لبانة الهزيمة. بفمها، بيديها، تحاول أن تبعث في حصانها الحياة لكن عبثاً. الحصان ضعيف.. لا حراك فيه ولا حياة، كل مافيه منكمش منهزم مع ذلك ينقلب من جديد. يأخذ دور الفارس، ومن جديد يحاول.. ضاماً.. لاثماً.. مقبلاً.. لكن عبثاً.. حبة الفول لا تكبر والحياة لا تعود إلى القشة. "أبشع هزائم الرجل هزيمته في الفراش"، يتذكر باقر قول إحداهن ثم، ملء قلبه الأسى، ملء عينيه الدموع، لا يملك إلا أن يقر بالهزيمة، لا يملك إلا أن ينسحب، وكل مافيه يشعر أنه العراق ذاته ينسحب أمام الأعداء.
***

الفصل الخامس

كسيراً حسيراً باقر لبانة. كانت ما تزال نائمة. جسدها العاري يفضح خيبته. أرض عطشى بحاجة إلى الري لكنه لم يستطع أن يعطيها شيئاً من ري فانطوى على نفسه يتصبب عرقاً وخجلاً. انتحى ركناً قصياً ثم نام، وها هو ذا في الصباح يلقي نظرة على الجسد العاري يشعر أن كل خلية فيه تقرعه، كل خلية تلعنه، هو الذي خذلها، يطأطئ رأسه ثم يمضي. سعادته وحدها في أن لا تراه عينا لبانة. عيناه مغمضتان ربما على أشواك الخيبة، فمها مطبق ربما على مرارة الخزي، يمسحها باقر بنظرة عجلى ثم يغمغم "أسرع باقر. انسحب قبل أن تفيق، وفي معركة ثانية تهزمك".
طوال الطريق إلى دمشق، ظل سؤال واحد يشغله: "لماذا هذا العجز المفاجئ؟ لماذا هذه الهزيمة المنكرة؟". كان باقر ما يزال في الأربعين وكان عازباً يتحرق للمس امرأة، فلماذا يجد نفسه أعزل بلا سلاح؟ كان قد عرف نساء كثيرات من قبل: عشيقات، بائعات هوى، عابرات سبيل ولم يكن قد عرف الخيبة مع أي منهن. صحيح أنه لم يكن فحل الفحول، لكنه رجل. كلهن شهدن له بأنه يرضي المرأة. لبانة نفسها كانت قد شهدت له من قبل، فلماذا يخيب أملها اليوم؟ لماذا يسقط على الفراش متصبباً عرقاً، مهزوماً عاجزاً؟ ألهذا علاقة بما يجري هناك في العراق؟ أله صلة بالهزيمة هناك؟ باقر لا يدري. مشاعره نفسها مختلطة. هو يفكر، يعود بذهنه إلى صدام. في أعماقه لا يشعر بكثير من الأسى، لا يحس بالحزن وحده، ثمة سرور خفي يظهر برأسه بين الحين والحين.
"الانسحاب يعني هزيمة صدام. كل هزيمة لصدام فرحة لي.. فرحة لكل رفاقي المشتتين في الأرض". رفاقه كلهم يشعرون هكذا. في الحزب.. في المعارضة.. كلهم يلهجون بذلك، بل أكثر من مرة شعر بالخجل وهو يشير إلى فرحته باقتحام الكويت أو تحويل هذه إلى محافظة من محافظات العراق، وأكثر من مرة هب الرفاق كلهم عليه، وكر دبابير، يوسعونه لسعاً وتقريعاً. "ماذا؟ أجننت؟ انتصار صدام كارثة لنا. صدام يجب أن يهزم. هزيمته نصر لنا" ومرت لحظات اقتنع فيها باقر أن عليه ألا يفرح بضم الكويت ولا باحتجاز الرهائن ولا بضرب إسرائيل بالصواريخ، فكل ما يعزز مكانة صدام يضعف من مكانة الشتات المشرد شرقي الأرض وغربها.

مع ذلك ظل باقر موزّعاً بين مشاعره المختلطة: الفرح والحزن، الشماتة والخوف، لكن ما إن وصل إلى مقر الحزب في دمشق حتى رأى الفرح والشماتة خالصين.
ـ أرأيتم؟ هذا ما يفعله الغرور.. هذا ما يجره جنون العظمة. كان عزة شيركو وراء طاولته الفخمة وكان يحدث الرفاق حين دخل باقر. حيا الرجل. سلم. سأله القائد سؤالاً مقتضباً ثم تابع: يريد صدام أن يواجه العالم كله.. أن يتحدى الدول. تابع أبو العز القائد الفطحل الذي ساير صداماً فترة ثم ناصبه العداء. مد صدام يده يريد البطش به، لكن أبا العز كان قد أعد العدة من قبل. امتطى متن بغل، كبغل باقر "المارشال" ثم مضى عبر الجبال شمالاً.. شمال.
ـ لكن الكارثة، تدخل رجل أشيب الفودين أشيب الشاربين، محني الظهر قليلاً، لم يكن باقر رآه من قبل، أن تكون أقوال إذاعاتهم صحيحة، أن يكون الجيش العراقي بكامله قد دمر: قتلاً أو أسراً.
ـ حتى لو كان صحيحاً سيسرني ذلك، رد القائد الفرح الشامت. إنه يعني سقوط صدام.
ـ لكنه يعني أيضاً دمار العراق كله. تدخلت صحيفة كان باقر قد رآها ذات مرة، ثم نسي اسمها، بل ربما يعني ذلك احتلال العراق.. عودة الاستعمار إليه من جديد.
ـ لا، لا، التحالف لا يريد سوى إسقاط صدام، لا احتلال العراق واستعماره. هذا ما يقولونه جميعاً.
ـ وهل تصدق ما يقولون؟ عادت الصحفية الشابة وفي عينيها بريق تحدٍ.
ـ لم لا أصدق؟ الرجل هو الغازي المعتدي، هو المصاب بجنون العظمة، وهو الخطر الحقيقي ليس على العراق وحسب بل على العالم كله. إذن لابد من القضاء على ذلك الخطر. و أنا فرح، بل لا أكتمكم أنني فرح غاية الفرح: الآن نجد من يخرج لنا الكستناء من النار دون أن تحترق أصابعنا.
بعد ذلك حدث هرج ومرج احتدم فيه الجدال. كانوا خمسة: اثنان أيدا القائد وثلاثة تحفظوا، بل كان الرجل الأشيب الفودين الأشيب الشاربين على طرفي نقيض مع القائد، فند كثيراً من المزاعم وأوضح كثيراً من الحقائق أيدته في جلها الصحافية الشابة، لكن هاتفاً ملحاً قطع ذلك الجدال.
ـ نعم. رد القائد الذي يريد إسقاط صدام بأي شكل. الآن؟ حاضر.... حاضر.
وما إن أغلق القائد الهاتف حتى اعتذر شبه مغمغم. يريدونني هناك. ضروري، قال وهو يشير إلى الوراء والأعلى، ثم هب من وراء طاولته، فهبوا جميعاً محيين خارجين.
على الرصيف وجد باقر نفسه جنباً إلى جنب مع الصحافية الشابة. متحمسة كانت، شاركت في النقاش فيما وجد نفسه هو، باقر التنكجي ابن البصرة، كتلة الصمت، تمثالاً للدهشة والتعجب. "لماذا هذا الفرح كله بتدمير جيش العراق... اقتصاد العراق... مدن العراق؟... أليس هو ابن العراق؟ ألا يعنيه البتة خرابه؟ موت رجاله، قتل نسائه؟".
ولمعت في ذهنه فكرة "القصف لا يطول كردستان إذن لم لا يفرح؟ الصواريخ، القنابل، القذائف تنصب كلها على البصرة، تكريت، العمارة، بغداد، الموصل.... وما شأن عزة شيركو بالبصرة وبغداد؟ العمارة والموصل؟ شأنه هو كردستان. ما يهمه هو السليمانية، كركوك... الداهوك.. تلك الجبال في الشمال هي وطنه. الجبال لا يأتيها قصف ولا تقربها صواريخ إذن كيف لا يفرح؟".
ـ لم تشارك في النقاش؟ بادرته الصحفية الشابة وقد وجدا نفسيهما رفيقي طريق. أتوافقه الرأي؟
ـ لا، ليس تماماً. رد باقر بشيء من تلجلج وعيناها السوداوان الحوراوان تتغلغلان في أعماقه حتى نقي العظام.
ـ ليس تماماً.. أنت إذن توافقه على جل آرائه!؟ سألته من جديد وهي تسير بجانبه كأنما هو تحصيل حاصل أن يسيرا معاً.
ـ الحقيقة، بعضها صحيح.
ـ لا، مستحيل. أنت باقر، ابن البصرة، تتفق بالرأي مع هذا الحاقد على كل ماهو عربي، الكاره حتى لذكر كلمة عروبة؟
ـ المسألة ليست مسألة عربي أو عروبة. بدأ باقر وهو يحاول جاهداً تذكر اسم الصحافية الشابة بعد أن أدهشه تذكرها لاسمه، لكنها لم تدعه يكمل.

ـ بل هي كذلك، صدقني. لقد رأيت بأم عيني كيف يفيض الحقد من عينيه... رأيت بأم عيني كيف تقوم أحزاب كهذه على الأقليات العرقية والطائفية. ترى، ألم يلفت هذا نظرك؟
من جديد تلجلج باقر. كان ذلك قد لفت نظره ذات يوم. كانوا في اجتماع حزبي هناك في بغداد، نظر حوله فلم ير إلا الكردي والآشوري، التركماني والصابئي، لكنه لم يوله اهتماماً يومذاك.
ـ لكن، ها أنذا نفسي عربي معهم، رد باقر وقد وجد نفسه فجأة يتخذ موقف الدفاع.
ـ هذا لا يعنيني ـ ما يعنيني ويؤلمني حقاً هو ذلك الفرح بتدمير العراق. تلك الشماتة بإبادة الجيش العراقي. والحجة؟ سألت ثم توقفت متسمرة في مكانها، كأنما تريد الجواب منه. باقر لا يجيب، هو في حيص بيص.. حائر متلجلج. تسمر على الرصيف كما تسمرت ثم سار حين سارت وقد قررت أن تجيب نفسها بنفسها، هازة رأسها ساخرة: الحجة أنهم يريدون رأس صدام.
ـ ربما، هذا صحيح. قال باقر بتردد واستحياء.
ـ كيف، صحيح؟ هل يختزل الوطن كله برجل واحد؟ هل يدمر الوطن من أجل رجل واحد؟
ولم يملك باقر إلا أن يعجب بسؤالها، هي الصحافية الشابة التي ما فتئ يحاول تذكر اسمها.
ـ لكنه متعصب شوفيني. وجد باقر نفسه يرد ورغبته الوحيدة أن يجرها للنقاش. العالم كله ضده... العالم كله يكرهه. هل العالم كله على خطأ وهو على صواب؟
ـ أنا لا أدافع عنه، ردّت وهي تسرع الخطا فجأة. بل هو لا يعنيني البتة، ما يعنيني هو هذا البلد العظيم الذي يدك فلا يبقى منه حجر على حجر.
ـ في هذا أنت على حق. أنا نفسي أشعر بالأسى.
ـ إذن، لماذا لا تناقش؟ لماذا لا توقفون مثل هؤلاء الحاقدين عند حدهم؟
ـ هو قائد، وأنا مجرد فرد من القاعدة؟
ـ تخاف منه؟
ـ كيف لا، وحياتي كلها رهن جرة قلم منه؟
ـ ماذا؟ تساءلت الصحفية الشابة وقد اتسعت عيناها عجباً. حياتك كلها من جرة قلم منه؟
ـ أجل.
ـ كيف؟
ـ هذه قصة طويلة يا عزيزتي، قال وهو يزفر زفرة حارقة.
ـ ستروبها لي، ردت وهي تمسك بيده ثم تنطلق. تعال إلى منزلي نتغدى ونتحدث ـ
في الطريق إلى المنزل، كان هم باقر الوحيد أن يتذكر اسمها، يتذكر شيئاً عنها. وطوال الطريق ظل يداور، يناور. وهو يقع في مآزق كهذه عادة، يلتقي برجل يأخذه بالأحضان، يقبله، صديقاً حميماً، فيما لا يذكر هو حتى اسمه. وعليه حينذاك أن يعرف الاسم، أن يستعيد معلوماته عنه، ولا سبيل أمامه سوى المداورة، المناورة. المناورة أجدت، وجاء اسمها على لسانها هي، فكاد باقر يثب فرحاً.
ـ لورا!! لورا!! راح باقر يكرر، وهما يدخلان المنزل، أنا لا أصدق أنها مجرد صدفة أن نلتقي. قبل عام فقط، ومن جديد هذا العام.
ـ ألم يقولوا: رب صدفة خير من ميعاد؟
ـ لكنني لا أؤمن بالصدفة، بل أكره أن تكون حياتنا قائمة على الصدفة؟
ـ سواء آمنت أم لم تؤمن، كرهت أم أحبت: هكذا هي الحياة جملة من الصدف والمصادفات: لقاء، فراق، حياة، موت، كلها مصادفات، توافقات، لا قوانين حسابية ومعادلات رياضية.
ـ أراك تحسمين الأمور كلها، قطع بت.
ـ اليقين خير من الشك وأكثر راحة. قالت وهي تشير له أن يجلس على ديوان أشعث، كالح، عتيق، تتناثر عليه صحيفتان أو ثلاث ويتوزع عند قدميه سبعة كتب أو ثمانية، بل غرفة القعود كلها عبارة عن ساحة عراك بين الصحف والكتب، أيها سبق أخذ مكاناً في الرفوف القليلة المنصوبة على الحائط، وما تبقى يسقط صريعاً على أرض المعركة.

جلس على الديوان وهو ينتقل بناظريه فيما حوله، تتعاوره رغبتان، الأولى أن ينهض فيلملم بقايا المعركة عن الأرض، يرتبها على هذا الرف أو ذاك والثانية أن يحشم نفسه فلا يتدخل فيما لا يعنيه. الفتاة لا يعرفها إلا بالكاد. نزر يسير من المعلومات عاد إلى ذهنه وهما في الطريق إلى المنزل: أبوها، أخوها قتلا في أحداث فتنة قبل تسع سنوات، بقية الأسرة اضطرت للهجرة إلى دمشق. الأم لم تتحمل طويلاً فلحقت بالزوج والابن، لتبقى لورا وأختها وأخ لم يكن يتجاوز حينذاك العامين.
المنزل في أطراف دمشق:غرفة قعود وغرفة نوم على السطح فيما المرافق مشتركة مع الجار في الطابق الأرضي.
ـ قهوتك سادة أم سكر زيادة؟ سألته وقد صارت خارج الباب.
ـ لا سادة ولا سكر زيادة، رد ضاحكاً وهو يهب من ديوانه متوجهاً نحوها، بل غداء كما وعدتني، أم غيرت رأيك؟
ـ لا تقترب... قالت بصوت منخفض مشيرة له بالرجوع، الأحسن أن لا يراك الجيران.
وبدا عليها وهي تلتفت إلي اليمين واليسار، الأعلى والأسفل، كأنما هي خائفة.
ـ عجيب! تخافين الجيران؟ سأل وهو يتذكر أنها، حين دخلا المنزل، كانت تتلفت يمنة ويسرة أيضاً.
ـ هو ذا شرطهم، حين استأجرنا البيت: عدم دخول الرجال.
ـ لكن لماذا؟
ـ حسب رأيهم نحن ضلعان قاصران: فتاتان بغير رجل، أيسمحون بدخول الرجال إلينا؟
وبرم باقر شفته السفلى.
ـ حسنًّ كنت أود المساعدة.
ـ لا عليك. كل شيء جاهز. فقط أضع الصينية في الفرن.
وعاد باقر يجلس على الديوان، جامعاً ما حوله من صحف، مجلات، كتب، مقلباً صفحات بعضها، وكل ما يشتهيه أن يكون قرب ذلك الفرن الذي ستضع فيه لورا الصينية.
كانت الغرفة عارية خالية إلا من الصحف والكتب، وكانت المدفأة في الزاوية لكنها مطفأة، وكان شباط بارداً، ريح قارسة كانت تتسرب عبر الأبنية والأزقة لتدخل الباب المشرع فتحيل الجدران إلى صقيع، الأرض أيضاً صقيع، لكنه يتردد: أيبادر فيشعل المدفأة أم يبقى ساكناً؟ " حين تعود لورا، دعها هي تشعل المدفأة" تمر اللحظات، الدقائق، ربع ساعة... لكن لورا لا تعود. حركتها هناك في المطبخ جلية واضحة وقع خطى أو صوت قعقعة. "وضع الصينية في الفرن، أيستغرق كل هذا الزمن؟"، باقر يشعر أنه أطول من أي زمن. الجرائد قلبها. لم يجد سوى أخبار عن العراق ومعارك العراق باتت قديمة ممجوجة. الكتب، لم يجد فيها ما يثير اهتمامه فألقى بها أرضاً.
أخيراً جاءت لورا، في يسراها زجاجة وفي اليمنى كأسان، فيما عيناها تتلفتان إلى الوراء وكأنما هي خائفة أن يراها أحد.
ـ لدي زجاجة الخمر هذه، أتشرب الخمر؟
ـ ولم لا؟ أجابها فرحاً، وهو يرى بأم عينه طلائع الخلاص من البرد. قليل من الخمر ينعش قلب الإنسان، وضحك فضحكت، فيما بعد مد يده يأخذ الزجاجة والمفتاح، يفتحها على مهل ثم يصب خمراً قانياً كالدم بعدئذ يقدم لها كأسها قائلاً.
يقولون: الخمرة دم المسيح... معين الراحة والخلاص، فلم لا نشرب من معين الراحة والخلاص؟.
ـ تعلم؟ أحياناً لا أجد سوى الكأس مصدراً للراحة؟ قالت وقد بدا على وجهها مسحة شفافة من حزن.
ـ ايه!! كلنا في الهوا سوا!! قال وهو يرفع كأسه، في صحتك!! رفعت كأسها ورشفت فيما لمعت عيناها ببريق حزن دفين، رآه باقر فأدرك كم تخبئ عيناها الحوراوان من أتراح وأحزان!!
ـ لماذا؟ سألها باقر فهزت رأسها جهلاً بما قصد. أعني.. تابع بعد لأي، لماذا كل هذا الحزن في عينيك؟
ـ وماذا تنتظر من فتاة فقدت بلمحة عين أباها وأخاها، بيتها وأصحابها، أمها وأصدقاءها، لتجد نفسها وحيدة بين مخالب الوحشة والموت.
ـ ألهذا الحد؟

ـ كيف لا، وقد كنت أنا نفسي مهددة بالموت؟ بل لو كنت في المنزل لما وفروني. أمي.. أخي... أختي لو وجدوا أياً منهم لما وفروه. كانوا يريدون قتلنا جميعاً.
ـ لكن لماذا؟
ـ كان أبي مناصراً للسلطة، وهم يريدون الانتقام من السلطة.
ـ والسلطة، ماذا فعلت؟...
ـ ردت عليهم بالمثل. دكت المبنى الذي التجؤوا إليه دكاً. كان مبنى من خمسة طوابق لم يبق منه حجر على حجر.
وشرد باقر إلى حيث كانت القنابل تدك بغداد... البصرة... العمارة، الموصل، فلا تبقي حجراً على حجر. "أهي القوة الغاشمة نفسها، حيث توجد تبطش بلا رحمة؟".
ـ هه! ماذا؟ جئت تروي لي فرويت لك؟ تحدثني عن نفسك فحدثتك عن نفسي؟..
قالت لورا وهي تتحرك إلى المطبخ تلقي نظرة على صينية الفراريج في الفرن ثم تعود.
ـ تعلمين؟ بادرها وقد عادت، لم أكن أتصور أن وراء هاتين العينين الجميلتين كل تلك المآسي والأحزان.
ـ لا، اطمئن، في بلدنا لا يوجد سوى المآسي والأحزان.
"يا إلهي!! فتاة في مثل سنها لا تنطق إلا بالحكمة! الله ما أسرع ما علمتها الحياة، وما أكثر ما علمتها الحياة!!".
ـ صحيح. أفلح أخيراً في التخلص من أفكاره، مائلاً نحوها، في العراق يقولون: نحن قوم مجبولون بالحزن. تاريخنا... تراثنا... حكاياتنا... كلها مجبولة بالحزن، بل حتى ألحاننا آهات، أغانينا مواويل وتنهدات.
ـ والآن يزداد الطين بله، قالت زافرة زفرة حرى. تعلم أيها الصديق أن قلبي يتمزق على العراق.
ـ إلى هذا الحد؟

ـ ولم لا؟ ألسنا شعباً واحداً؟ تساءلت ثم بدأت تنشد بنغم شجي:

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا

بالرقمتين وبالفسطاط أخواني

"يا إلهي!! ما أجمل ما تقول!! يا إلهي!! ما أعذب هذا البيت!! حقاً... نحن شعب واحد. آلامنا واحدة... آمالنا واحدة... أتراحنا... أفراحنا... بل... هي نفسها لورا، أليست واحدة من صاحبات عيون المها بين الرصافة والجسر، تلك التي تغزل بها شاعر دجلة؟ ألا يذكرني وجهها بجميلة؟ شفتاها اللمياوان بلا حمرة أو اصطناع ألا تماثلان شفتي جميلة؟ تلك البشرة السمراء المحمرة المقمرة، ألا تشبه بشرة جميلة؟". وسرح باقر قليلاً إلى حيث كانت جميلة، في حي الكاظمية في بغداد، وهما شابان صغيران طالعان إلى الحياة من جديد، يمد رأسه من دار عمته في بغداد وتمد رأسها من دار أبيها فتلتقي الأعين ثم يلتقي الرأسان ثم الشفاه وينمو حب يضوع عبقه ملء الحي كله.
ـ لا، هذه المرة شردت بعيداً. نخب من جعلوك تشرد، قالت وهي تدق كأسها بكأسه، غامزة بعينها، فلم يملك إلا أن يبتسم ثم يلتفت حوله وقد خطرت بباله فكرة.
ـ إذن!! أين أخوك؟ أختك؟..
ـ أخي في مدرسة أبناء الشهداء لا يأتي إلا في العطل، وأختي في الجامعة لا تأتي إلا بحلول الظلام.
"إذن، جئت هنا كي تنفردي بي!؟". وانكمش شيء في داخله. كانت تجربة مع لبانة طرية كورقة حبق، وكانت ذكراها تنغل داخل جمجمته كدود في جيفة، فأربد وجهه وهو ينكمش أكثر فأكثر على نفسه.
ـ ماذا؟ ألا تريد أن تروي لي قصتك الطويلة؟.. سألته ضاحكة مذكرة.
ـ أجل، قال هاشّاً وقد وجد المخرج. جئت من أجل ذلك. بدأ وفي صوته نبرة جرح عميق: مذ قامت حركة شباط في بغداد علمت أنها المواجهة. كنت يومذاك في الثالثة عشرة من عمري، وكان أبي، التنكجي، مع عبد الكريم قاسم، بل كان سوق التنكجية كله مع عبد الكريم قاسم، لكن الحزب المعادي له ولنا قام بحركة أطاحت بكل ما شاده الزعيم وكل ما بيننا نحن من أحلام. كنا نعمل لإقامة الدولة التي ترفع راية الماركسية، ترسخ

ديكتاتورية البروليتاريا، فلا يبقى أثر لبورجوازية أو أرستقراطية، ملكية أو نبلاء بل عمال وفلاحون، لكن عبد السلام عارف انقلب على صاحبه، وكان وراءه الحزب الآخر ـ طلب إلينا أن نرفع الأعلام، وننصب الزينات لكننا أبينا. "وزعوا المناشير، حرضوا الناس على المقاومة". وفعلنا ذلك، لكن لينقض علينا الشرطة والجيش فتسيل دماء وتزهق أرواح.
ـ لكأن العنف، القتل، الدم، هو قدر العراق عبر التاريخ، تدخلت لورا وكأنما تتحدث من أعماق التاريخ.
ـ أجل: لكن منذ ذلك اليوم، علمت أنه لا صلح ولا مهادنة بيننا وبين ذلك النظام. في كل مناسبة نخرج ضده، نتظاهر، نقاتل، نهرب أحياناً، ويلقى القبض علينا أحياناً أخرى. إلى أن جاء يوم زججت فيه بالسجن سنة وثلاثة أشهر لقيت فيها من العذاب ما جعلني أقسم أغلظ الأيمان إن خرجت لا أبقى في العراق يوماً واحداً. وحين خرجت بررت بقسمي، هربت مشياً على الأقدام من الموصل حتى القامشلي، بهوية مزورة، بوجه مستعار، باسم مستعار غادرت الوطن. تلقاني الرفاق في القامشلي. ثم صاروا حبل السرة الوحيد الذي يربطني بالحياة، أنا الذي بلا وطن... بلا اسم... بلا هوية.. كيف أعيش؟ هم تكفلوا بذلك. وفروا لي هوية، بلا ملجأ، راتباً، بل عملاً في إحدى المنظمات، ومضى باقر يروي لها ما فعله مع المنظمات.
ـ يا إلهي!!.. أنت مناضل حقيقي. قاطعته وهي ترفع كأسها مقتربة منه: نخب المناضلين الحقيقيين!! أنتم وحدكم من أحب. ثم رشفا كلاهما رشفة طويلة، فيما عيناها الحوروان تتأملانه ويدها اليسرى تمتد إلى كتفه وقد صار كفلها بجانب كفله. "يا إلهي!! هذه بداية الطريق فأين ينتهي؟". وتحرك بكفله مبتعداً قليلاً "لا، يا صديقي!! بالأمس فقط خضت تجربة فاشلة، ولا أريد أن أعيد التجربة اليوم، أرجوك".
لكن رائحة واخزة جعلت أفكاره تتوقف ـ الرائحة وصلت إلى خيشومي لورا نفسها، دافعة بها لأن تنظر عبر الباب، هناك رأت سحابة من دخان فهبت ملء طولها.
ـ حريق!! حريق!! صاحت وهي تجري باتجاه المطبخ. هناك، لحق بها باقر ليدخلا في قلب السحاب، وبصعوبة يطفئ باقر الكهرباء.. ـ بصعوبة، يخرج صينية الفراريج ـ وهي تحترق ثم يسكب عليها الماء إلى أن تنطفئ، بعدئذٍ ينظر كل منهما إلى الآخر.
ـ ها قد طلعنا بلا غداء، قالت أخيراً وهي تضحك، فيما بدا هو يعطس دامع العينين، وسحابة الدخان ما تزال تملأ المطبخ ـ تحركا خارجاً ثم بدأا يصعدان الدرج.
ـ لحسن الحظ، الجيران لم يرونا. أو كانت فضيحة، قالت وقد كفت عن التلفت يمنة ويسرة، وللتو شعر باقر بانكماش شديد... بخوف أكبر وقد تحول إلى عصفور في شرك. كانا قد طلعا الدرج. فجأة توقف.
ـ ادخل. قالت وهي تشير إليه باتجاه الغرفة. لكنه حرن حصاناً تسمر في مكانه، كانت سحابة الدخان قد ذكرته بمكان آخر كله غبار ودخان... نيران وحرائق.. ـ وكان خلو الدار قد ذكره بخلو دار أخرى.
ـ لورا. قال وهو يزفر حاسماً أمره. يجب أن اذهب.
ـ معقول؟ تذهب دون غداء؟..
ـ لا عليك. سأتناول في طريقي أي شيء. شكراً لك لورا. إلى اللقاء لورا.
قال على عجل وهو يلوح لها بيده، هابطاً درجات السلم مثنى مثنى وحين فتح الباب الخارجي ا لتفت إلى الوراء. كانت سحابة الدخان ما تزال تتحرك بثقل وبطء، سوداء قاتمة تغطي تحتها كل شيء، "(إيه بغداد!! أهكذا الدخان يغطيك؟ أهكذا الحرائق تلتهمك بيتاً بيتاً، شارعاً شارعاً؟) راح يناجي بغداد وهو يسير في شارع خفت حركة سيره وانزوى أهله في قيلولة عصر تلتهم الناس جميعاً. (أهكذا أنت بغداد أيضاً؟ شوارع مقفرة وطرق خالية، حرائق ودخان... دوي مدافع وانفجارات قنابل؟) وفجأة أحس بأفكار أخرى تنثال على شفتيه كلاماً موزوناً مقفى:
الظلمة تعبس في قلبي
والجو رصاص
والريح تهب على شعبي
والريح رصاص
أواه لقد هجم التتر
فالصبح رصاص

والليل رصاص...
****
العراق كله صبحه رصاص وليله رصاص، وقد هجم التتار ليس بخيول تسابق الريح بل بصواريخ تسابق البرق تنقض على كل شيء فتجعله خراباً يباباً. بغداد تحولت إلى أرض من نار تشتعل هنا وهناك وإلى سماء من سحائب سوداء تحجب الشمس والنجوم فلا ليلها ليل ولا نهارها نهار، كل شيء حول فاطمة فرقعة ودوي... فرقعة ودوي... أزيز وطنين. القذائف تنفجر، الصواريخ تدوي، الرصاص يئز. قصف مجنون يحط بكلكله على بغداد. أسراب طائرات لا تختفي حتى تظهر، أشباح ملء السماء، انفجارات ملء الأرض. منذ ثلاثة أيام لم تغادر فاطمة الملجأ. لم يعد قبو بنايتها يكفي. الخطر هناك أشد. تسقط قنبلة من عيار ثقيل على المبنى فيسقط بكل ما فيه من إسمنت وحديد، حجارة وكساء، ساداً الطرق مغلقاً الأقبية، واخرج من القبو إن كنت شاطراً. لا، كلهم قالوا الملجأ خير. الملجأ تحت الأرض لا شيء منه ظاهر ولا خطر من قنبلة تدخله. جاءت بأولادها الثلاثة وربضت في الملجأ. زاوية منه آمنة لجأت إليها. مئات النساء والأطفال معها. كل أخذ له مكاناً، افترش بطانية أو بساطاً، التحف ببطانية أو لحاف. ثمة ماء بل ثمة كهرباء. للملجأ كهرباؤه الخاصة، مياهه الخاصة، كأنما لا علاقة له بشوارع بغداد الغارقة في العتمة... بيوتها التي يسكن صنابيرها الشح والجفاف. صافرات الإنذار لا تفتأ تسكت كي تصرخ. وأسراب الموت لا تفتأ تنقض وتنقض. فاطمة تعلم حقد الأعداء، تصميمهم على تدمير كل شيء. محسن شرح لها كل شيء، أوصاها آخر مرة، بنبرة الآمر الحاسمة "حافظي على نفسك. حافظي على الأولاد.
الحفاظ عليهم مسؤوليتك، ولا تنسي: على الأولاد أن يبقوا لكي يحملوا بعدنا المشعل، يصمدوا، يذودوا عن حياض الوطن".
لكن أتحتاج فاطمة لمن يوصيها؟ هم فلذات كبدها، أتفرط أم بفلذات كبدها؟ هي ترعاهم، تفرش جناحيها عليهم، لكن أيستطيع جناحاها حمايتهم؟ صواريخ كروز، القنابل الذكية، قنابل النابالم، القنابل العنقودية، كلها تهزأ من جناحيها، تسخر من لحم البشر كله، من عواطف البشر كلها، هي تخترق الجدران، الإسمنت الحديد، وتقتل، تحرق. وحده الملجأ، مرسى الأمان، وهي في الملجأ. طعامها معها.... شرابها لديها، كهرباؤها، فلماذا لا تظل في مرسى الأمان؟
كانوا قد أصبحوا عائلة واحدة: نساء... أطفال... شيوخ... عجز... كلهم كانوا يواجهون مصيراً واحداً، يعانون وجعاً واحداً، الرجال كلهم في ا لخارج... في ميادين القتال وساحات المعارك.. النساء يرعين الأطفال، يشددن أزر بعضهن بعضاً، يتلاحمن عائلة واحدة مرصوصة البنيان. زوادة فاطمة كبيرة. أياماً ثلاثة ظلوا يأكلون منها، لكن كل ما ليس من نبع ينضب.
"وماذا في الأمر؟" في المنزل خير كثير خبأته من الأيام البيض للأيام السود وهاهي ذي الأيام السود. "فلأذهب وآت بالمزيد". خرجت فاطمة من الملجأ تصحبها ابنتها الصغرى. كان القصف ما يزال مجنوناً لكن في مكان بعيد، هناك حيث الجنوب والشرق من بغداد، وهي في الشمال والغرب. "سأستغل هذا الهدوء".
الشارع مقفر خال كأنما يسكنه الموت ولا تملك فاطمة إلا أن تردد، وهي تسير، أبياتاً من شعر قديمة.. حزينة حزينة..
الموت في الشوارع
العقم في المزارع
وكل ما نحبه يموت
الماء قيدوه في البيوت
وألهث الجداول الجفاف
هم التتار أقبلوا ففي المدى رعاف
وشمسنا دم وزادنا دم على الصحاف
لكن فجأة انتفضت "خسئوا!!!، لا، لن يكون زادنا دماً على الصحاف. مهما فعل التتار لن يجعلونا نلعق دماءنا، ستظل دماؤنا حرة تنبض بالتحدي والصمود." ثم مضت وكلها تحدٍ إلى منزلها. ا لابنة الصغرى تركض إلى جانبها فرحة كأنما لا تصدق أنها خرجت من الملجأ، لا تصدق أنها سترى منزلها من جديد.

"المنزل سليم". حمدت فاطمة الله، ثم دخلت. ثمة عناكب بدأت تعشش في زوايا البيت "آه!! منك أيتها العناكب!! ما أسرع ما تشمين رائحة الهجران!!"ـ بعصا المكنسة بدأت تضرب بيوت العناكب وكأنما تضرب أعداء يقصفون بغداد.. بعدئذٍ مضت إلى المطبخ. ثمة علب لحم... سردين.. تون... فول.. حمص... الخير كثيرٌ. عبد المحسن كان يأتي بكل شيء إلى المنزل: "من يعلم؟" كان يقول: "قد نخوض حرباً طويلة الأمد وفي الحروب يقل الزاد ويشح الغذاء".
ـ ماما!! أريد تفاحة، طالبت خولة أمها وهي تفتح البراد فلا تجد خضاراً ولا فاكهة.
ـ تفاحة!! ردت الأم ـ لا، خولةَ ليس الآن وقت التفاحة ولا الخضار... لكنها لم تكمل. شيء كالزلزال جعلها تبلع بقية الكلمة. المنزل بكل مافيه من جدران، أعمدة، سقوف، اهتز يمنة ويسرة ودوي يصم الآذان اكتسح الفضاء كله. باللا شعور ألقت فاطمة بنفسها أرضاً ساحبة معها خولة.
ـ انبطحي أرضاً... خبئي رأسك خولة، صاحت بها وهي تخبئ رأسها تحت طاولة المطبخ... صوت الانفجار الهائل يدوّم ويدوّم مرتفعاً في الفضاء. اهتزازـ الأرض، كما لو أنها زلزلت زلزالها، يبعث الرعشة في الأجساد. "يا إلهي!! ما هذا؟!". صاحت فاطمة مخاطبة إلهها لكن الإله لا يكلم البشر ولا يرد على أسئلتهم. لحظات ظلت منبطحة أرضاً، مغمضة نظراً، مغلقة سمعاً، وقد حل محل الدوي طنين هائل كأنما تداول سمع فاطمة أنملها العشر. أخيراً، بدا الدوي وكأنه يبتعد. "لعله وصل إلى الجوزاء."ـ رفعت فاطمة رأسها، فرأت ابنتها ترتجف قصبة في مهب ريح. دنت منها فسمعتها تنشج باكية.
ـ لا تخافي. الانفجار بعيد، راحت تطمئنها وهي تأخذها بين ذراعيها، علها تمنع الريح من إرجاف القصبة، لكن القصبة لم تكف عن الارتجاف ولا عن النشيج. هدهدتها فاطمة بين يديها وهي تجرجرـ خطاها نحو النافذة التي غدت بلا زجاج. فالزجاج أصبح شظايا تغطي أرض المطبخ كله. لكن من يهتم؟ رعب أسود كان يسكن عيني فاطمة "أتراهم ضربوا الملجأ؟". تمتمت وهي تنظر باتجاه الملجأ. كان الانفجار قد حدث في ذلك الاتجاه وفي ذلك الاتجاه كانت قد خلفت فلذتي كبدها الأخريين ـ سحابة من غبار بدت تدوّم في اتجاه الملجأ. لم يكن باستطاعتها رؤية أرومتها، ثمة أ بنية تسد الأفق في وجهها، لكن كان بإمكانها أن ترى الاتجاه، أن تحدده بدقة ـ سحابة من دخان كانت قد بدأت بالتصاعد: "الأغبر والأسود يختلطان لتتشكل سحابة واحدة راحت تغطي حي الأعظمية كله، حاجبة وجه الشمس بعد أن غدا مصفراً سقيماً، ربما حزناً على بغداد. بلمحة عين لمعت في ذهنها الصورة: الملجأ قصف وبلمحة عين امتدت يد إلى قلبها تمرسه بين أصابعها، تفتته، تسحقه.
ـ يا إلهي!! ذهب أخوك وأختك!! صاحت بخولة وهي تمسك بيدها وتنطلق فرساً أصابها مس من جن. الشارع الخالي بات مليئاً بالناس والكل يجري: نساء... أطفال... شيوخ... الكل يجري باتجاه سحابة الغبار والدخان. الدوي الذي كان يملأ الكون تلاشى دون أن تتلاشى آخر أمواج السحاب والدخان. أشباح الموت ما زالت تقصف في الجنوب والشرق. المدافع المضادة ما زالت ترسل حممها إلى السماء حمراء لاهبة.. في الشارع تحاول فاطمة أن تعلم أين الانفجار، أجدهم رد مقطوع الأنفاس:
ـ ما أدري... ما أدري... أظنه... الملجأ. وانشلع آخر جذر من جذور قلب فاطمة، ودون أن تشعر، شمرت عباءتها، واضعة إياها في فمها، عادية عدو الغبراء ـ
الملجأ تلة من تراب مزروعة عشباً أخضر وشجيرات دفلى وورداً. لكنه لم يعد تلة من تراب ولا شجيرات دفلى وورود. التلة تحولت إلى سحابة من غبار ما زالت تدوم عالياً في السماء وشجيرات الدفلى والورود صارت نثاراً من خشب محترق، فيما تمزق سقف الإسمنت مزقاً كمزق خرقة بالية ثم سقط على رؤوس من في الملجأ جميعاً، فيما ألسنة لهب مجنونة شبت من هنا وهناك مجهزة على كل من لم يمت، حارقة كل مافي الملجأ ومن فيه، مرسلة سحابة دخان أخرى اختلطت بسحابة الغبار لتحجب الشمس والطائرات.
ـ السفاحون!! السفاكون!!
ـ القتلة!! المجرمون!!
ـ دمروا الملجأ!!
ـ قتلوا النساء والأطفال!!

كانت الصيحات تتعالى من هنا وهناك، فيما اندفع حشد هائل نحو الملجأ ملء أعينه الرعب والذهول.
صيحات أطفال، زعقات نساء، صرخات رجال كانت تختلط من داخل الملجأ وخارجه، فيما اختلطت بها صافرات إنذار وأبواق إطفاء وإسعاف. بعدئذٍ، اختلط الحابل بالنابل، كأنما هو يوم الحشر. فاطمة تسمرت أمام ألسنة اللهب وهي تتصاعد من الملجأ. هي تعلم أن فلذتي كبدها هناك... جيرانها... ناسها... أصحابها هناك. لحظة من الزمن تسمرت. ثم دون أن تدري، وجدت نفسها تندفع... تقتحم اللهب... ثم ترتد... أيد من خلف... ألسنة من أمام كلها جعلتها ترتد.
ـ عدنان!! ميس!! بدأت تصرخ. أولادي!! أولادي!!
إلى اليمين كان رجلا إطفاء يقتحمان اللهب. لحظات ثم عادا وهما يسحبان من فتحة الملجأ جثة احترقت حتى التفحم. نظرت فاطمة مذهولة. الجثة المحترقة لطفل؟ لطفلة؟ هي لا تدري. لكنها جثة صغيرة الحجم ليست لا امرأة ولا شيخاً.
ـ هي ذي جثة عدنان!! عدنان صار فحماً!! صرخت ملء صوتها. وللتو ملء العالم أمامها غبشة سوداء غابت معها الدنيا. فيما تناقلت وكالات الأنباء في العالم خبر ملجأ الأعظمية كما تناقلت خبر ملجأ العامرية من قبل. الأنكلو أمريكان فرحون مزهوون "لقد أصبنا مقر صدام... دمرنا مخبأ صدام". لكن المراسلين المغامرين الذين يضعون أرواحهم على أكفهم ويخوضون ميادين الموت والقتال ذهبوا إلى حي الأعظمية كما ذهبوا إلى ملجأ العامرية من قبل. رؤوا الملجأ بأم أعينهم، شاهدوا جثث الأطفال، النساء، الشيوخ، العجز ورجال الإسعاف يخرجونها متفحمة محترقة. لم يكن ثمة صدام ولا رمضان، لم يكن حرس جمهوري ولا استخبارات، بل كان ابن فاطمة وابنتها، جارات فاطمة وصاحباتها وكانت قنبلة ذكية من تلك القنابل التي تبحث عن هدفها إلى أن تجد منفذاً فيه قد وجهت إلى ملجأ الأطفال والنساء، بحثت فيه عن منفذ، وجدت كوة وحيدة تصله بعالم الشمس والسماء، ضحكت بكل مافي قلوب الأنكلو أمريكان من لؤم وحقد ثم اخترقت الكوة لتحيل تلة الملجأ إلى سحابة من غبار، سقف الملجأ إلى حطام، وكل من في الملجأ إلى طعام للنيران.
باقر سمع النبأ فارتعش كل مافيه. "الأعظمية حي فاطمة فهل كانت فاطمة فيه؟ أختي التي أحب هل ذهبت مزقّاً وأشلاء؟". لم يكن باقر يعلم، بل لم تكن الإذاعات تذكر أسماء... الأرقام فقط هي التي تتكلم في القرن العشرين، "مئتان وست وثلاثون جثة وجدت في الملجأ"، قالت الإذاعات. "في العامرية كانوا أربعمائة وأربع عشرة جثة"، تقارن الإذاعات ويفكر باقر. "ترى من يعلم لمن تلك الجثث؟ من يدري إن كانت فاطمة بينها؟ أولادها: عدنان، ميس، خولة هل كانوا يلتجئون إليه؟". وبدا قلب باقر يتفتت، يد هائلة تمسك به، تمرسه، ولا يستطيع إلا أن يفكر بفاطمة، أخته التي أحب حتى العبادة. وهو يذكر طفولتهما معاً، أيام البصرة وأعياد النيروز والكسلة والكركيعان!! "إيه فاطمة!! كم كنت بارعة في احتفالات الكركيعان، تلك الخلطة العجيبة من السكريات والموالح، أتذكرين؟ حين نبدأ بالطواف في الأزقة والدروب بعيد الغروب وكل منا يحمل كيساً من القماش معلقاً في عنقه، كنت أنت تحرصين دائماً أن تأخذي الكيس الأكبر، كي تزهي بما تحصلين عليه من كركيعان البيوت التي نهزج أمام أبوابها:
كركيعان، وكَركَيعان
كل السنة... والليعان
انطونا... الله ينطيكم
بيت مكة يوديكم
يا مكة المعمورة
بيها الذهب والنورة.
كريكشون... كريكشون
الله يخلي هالزغيرون...
وكان صوتك يطغى على كل الأصوات الأخرى، رغم صغرك كان صوتك يعلو، زقاء فأرة بارعة في الزقاء فتنالين أكبر قدر من الكَركَيعان أتذكرين يا فاطمة؟ ترى ما مصيرك الآن؟ ماذا حل بك يا أختاه"؟

فاطمة نفسها لم تكن تعلم مصيرها. أفاقت وقد انجلت الغبشة عن عينيها، انقشعت الغيوم عن دنياها لتجد نفسها ممددة على بطانية في قبو، هو الآخر يعج بالنساء والأطفال، الشيوخ والعجز. "أتراه كان مجرد كابوس؟ أما زلت يا ترى في الملجأ نفسه؟". لكن نظرة واحدة من عينيها جعلتها تكتشف أنه لم يكن ملجأ الأعظمية، بل مستشفى ميداني أعد على عجل. النزلاء كلهم جرحى أو محروقون، ملائكة الرحمة تلف وتدور هنا وهناك. أنابيب سيروم، زعقات ألم، أنات توجع، كلها أكدت لها الحقيقة، ثم عادت بها الذكرى شيئاً فشيئاً، إلى الملجأ الذي حولته قنبلة ذكية إلى قبر جماعي، محيلة البشر فيه إلى وقود للنيران... قلوبهم.... وجوههم... عظامهم بل كل ما فيهم إلى فحم أسود.

نهضت بجذعها عن البطانية، مجيلة رأسها إلى اليمين واليسار وقد عاودها الذعر، هناك في ركن قريب كانت خولة، متكومة على نفسها، داخلة في قوقعتها كسلحفاة مذعورة ترصد وترقب. رأت أمها تنهض فأسرعت إليها.

ـ يما!! يما!! صاحت الابنة المذعورة المتكومة.

ـ خولة!! ابنتي!! أنت هنا!؟.. وانهمرت الدموع مدراراً من عينيها كما لم تنهمر من قبل. فاطمة تدرك أن ما مر بها ليس كابوساً بل هو حقيقة واقعة، ربما أشد وقعاً من الكابوس. طويلاً ضمت بين ذراعيها خولة، وطويلاً نشجت الفتاة على كتف الأم، وطويلاً كانتا ستظلان هكذا لولا أن جاء ملاك الرحمة.

ـ تبكين؟ لماذا يا أخت؟ قال ملاك الرحمة، احمدي ربك، أنت بخير لا جرح، لا كسر، سليمة أنت معافاة وابنتك سليمة معافاة.

ـ صحيح، أجل، أنت على حق. ردت فاطمة وهي تتأمل ملاك الرحمة ذات الثوب الأبيض، البشرة البيضاء، الأنامل البيضاء كأنها نزلت لتوها من السماء فلم تعرف دنس الأرض، وقذارتها. الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، ثم طافت بعينيها في وجه الملاك كأنما تستمد منه الأمان والاطمئنان. فقط قولي لي أين أنا؟

ـ أنت في مستشفى. ألا ترين ضحايا القصف من حولك؟

ـ وابني؟ ابنتي؟ قاطعتها وكأنما تذكرت ولديها فجأة.

ـ واأسفاه! كل من كان في الملجأ انطمر في التراب. الجثث القليلة التي أخرجت كانت فحماً أسود لا يمكن تمييزها.

ـ آه!! ليتني كنت معهم!! ليتني مت معهم!! راحت فاطمة تندب داقة صدرها معولة.

ـ لا، لا تقولي ذلك. شرعت ملاك الرحمة تهدئها ـ الأولاد يعوضون. المهم ابنتك بخير، أنت بخير، لست حتى بحاجة للعلاج.

ـ لست بحاجة للعلاج؟ سألت وهي تتلمس نفسها. كانت أطرافها بخير، جمجمتها بخير، صدرها ، بطنها... فقط كان هناك بين الضلوع قلب ينزف دماً، لكن من يرى القلوب التي تنزف دماً؟ من يستطيع اختراق الضلوع وتضميد القلوب؟

ـ لا، لا، الحمد لله، لا إصابة فيك ولا جرح. فقد جاؤوا بك وأنت في حالة إغماء.

فاطمة تعلم انهم جاءوا بها وهي في حالة إغماء. هي تذكر كيف ملأت الغبشة ناظريها، كيف غامت الدنيا أمام عينيها، كيف، بعد ذاك، حملتها أجنحة إلى مكان بعيد.. زمان بعيد.. ربما إلى جزيرة سرنديب، حيث هي حواء تهبط من الجنة ليلقاها ما يشبه الجنة: سندس من عشب أخضر.ـ.. جداول من ماء رقراق..ـ. أشجار باسقة من جوز الهند والنخيل..ـ. وفي كل مكان بلابل زاهية الألوان رائعة الألحان، تشدو وتغني. تلك البقعة الصفراء في ذيل البلبل تلفت نظرها. تتساءل لماذا تلك البقعة الصفراء؟ وتذكر يوم كانت طفلة في البصرة حكاية أمها عن البلبل الأصفر، ذاك الطائر الغادر الذي سرق منديل الرسول الكريم فدعا عليه الرسول الكريم دعوة جعلت منديله الأصفر يلتصق بذيله إلى الأبد، لكن فاطمة لا تملك إلا أن تحب البلبل. هو زاهي الألوان، رائع الألحان والسماء في سرنديب صافية، زرقاء كالبحر، رقراقة كماء الغدير تهبط على قمة جبل، برفق تهبط، ملؤها الحبور والسعادة. "سأنفرد بآدم. ستكون لنا جنتنا الخاصة، مملكتنا المستقلة" لكنها تبحث عن آدم، يميناً، شمالاً، أماماً، خلفاً، لا تدع نقطة من قمة الجبل، في بطن الوادي إلا وتفحصها، لكن ليس هناك آدم، ويتملكها الذعر: "آدم!! أين أنت يا آدم!؟". ويخيل إليها أن الوديان كلها تردد الأصداء: "محسن!! أين أنت يا محسن؟" لكن لا محسن هناك ولا آدم. ويشتد الهلع في نفسها، يشتد صراخها إلى درجة يخيل إليها أن

العالم كله يسمع صراخها.... يخيل إليها أن حنجرتها ستنشق. وتفتح فاطمة عينيها لتجد نفسها في قبو تحول بقدرة قادر إلى مستشفى ميداني.
ـ أمي!! دعينا نخرج من هنا، قالت خولة بنبرة التوسل ممسكة بيد أمها حاثة إياها على النهوض.
ـ نخرج من هنا؟ كررت الأم وهي تتلفت حولها دون كثير من الاستيعاب. امرأة إلى يسراها كانت تزعق زعقات تصم الآذان. ثلاثة كانوا يشدون ساقها العارية إلا من علق الدماء، ربما يريدون تسوية عظامها معاً بغية تجبيرها. كانت العظام تطقطق والمرأة تزعق، فيما كانت رائحة الدم تزكم الأنوف.... رائحة الصديد والقيح تصيب بالغثيان... ومن بعيد تجيء روائح أبغض: بول... براز.... قيء.... كما تجيء آهات وأنين، بكاء وعويل.
وفجأت بدت خولة على حق. "أجل يجب أن نخرج من هنا. لكن إلى أين؟". تساءلت وهي مأخوذة اللب مذهولة كما لو أنها رأت الصاعقة تسقط عند قدميها.
ـ أمي.. دعينا نذهب إلى البيت.
ـ حقاً!؟ نذهب إلى البيت!؟ كررت الأم وكأنما صارت ببغاء لا تحسن سوى التكرار. لكن هل ظل لنا بيت؟ تابعت بعد توقف.
ـ بيتنا هناك!! ما زال في مكانه، أنسيت أمي؟
لا، فاطمة لم تنس، لكن يخيل إليها لحظة من الزمن أن القنبلة الذكية أو صاروخ الكروز المرعب الذي نسف الملجأ قالباً عاليه سافله قد قلب بيتها معه جاعلاً عاليه سافله.
ـ أمي!! سأتقيأ!! أريد أن أتقيأ!! وبدا لفاطمة أن الفتاة تفتح فمها واسعاً مطلقة موجة من هواء وأصواتاً للقيء طالما كرهت سماعها.
وكأنها على نابض أفلت، انتفضت فاطمة هابة ملء طولها. هي تكره القيء. طوال عمرها تكره رائحته، تخشى تشنجاته. يخيل إليها أنه سيقتلع جوفها إن جاء.
ـ هلمي!! هيا!! صاحت بخولة وهي تمسك يدها خارجة بها من الملجأ دون أن تلتفت إلى الوراء ودون أن تسمع صوت ملاك الرحمة وهو يناديها، ربما رغبة في الاطمئنان.
مع حلول الظلام، وصلت إلى المنزل. كانت الشوارع كلها معتمة وقد تقطعت أسلاك الكهرباء، كما كانت خاوية وأشباح الموت ما فتئت تجوب سماء بغداد، صواريخ الموت ما زالت تخترق سماء بغداد تضرب هنا، تضرب هناك لتشتعل نيران وتشب حرائق وتتفحم جثث أطفال ونساء. المنزل بلا ماء لكن في صنابيره، ثمة دماء غسلت وجهها ويديها، وجه خولة ويديها. هو معتم أيضاً لكن ثمة ذبالة شمعة أشعلتها، لكن الخبز، الطعام من أين تأتي بهما، وقد أخذت كل شيء إلى الملجأ؟ خولة تتضور جوعاً. بحثت في الخزانة، في البراد، وعاء الخبز، ثمة كسر من الخبز تعفنت مكتسية ثوباً من بياض.
ـ لا، لن تأكليها، صاحت الأم رادة يد الابنة وقد امتدت تريد الإمساك بها.
ـ لكنني جائعة. أنا أموت جوعاً... يما!!
فاطمة تعلم أن ابنتها تكاد تموت جوعاً. في الملجأ كان إفطارهما، ذلك اليوم، كسرة من خبز وقطعة من جبن، الآن، لا جبن.. لا خبز... لا معلبات، "لكن أين ذهب كل ما أخذته ياترى؟ ألقيته في الطريق؟ وصل معي إلى المستشفى الميداني؟ هي لا تدري. كل ما تدريه أن ابنتها جائعة وأنها هي نفسها تشعر بمخالب الجوع تنهش أحشاءها.
ـ علبة فول!! هتفت بشيء يشبه الفرح وهي تضع يدها على علبة ربما سقطت منها وهي تندفع خارجة ثم تدحرجت حتى المجلى. لكن قبل أن تفتحها، سمعت طرقاً على الباب.
ـ من تراه؟ تساءلت وهي تتسمر مكانها، في عينيها ذعر وفي ركبتيها ارتعاش.
ـ لا تفتحي، يما!! أسرعت الفتاة الخائفة تتوسل ممسكة بساقي أمها... إنهم الأمريكان.
لكن صوتاً من وراء الباب جاء يمسح الذعر ويزيل الارتعاش:
ـ افتحي، فاطمة! أنا أختك رقية!!
ـ أختي رقية!! صاحت شاهقة، وهي تطير إلى الباب عصفورة تطير إلى إلفها.
ـ أأنت بخير؟ أحقاً هذه أنت!؟ أختي فاطمة!؟ راحت رقية تغمغم وهي تنشج داخلة المنزل متلمسة كتفي أختها، ظهرها، متفحصة بعينيها كل شيء.
ـ حمداً على سلامتك!! قال رئبال، زوج الأخت، وهو يدخل بدوره متنفساً الصعداء. سمعنا خبر الملجأ. حسبناك كنت فيه!! تابع زوج الأخت وهو يتفحصها بدوره كأنما يريد التأكد مما ترى عيناه.

ـ كنت... بل كنا، لكن حسن الحظ... وفجأة توقفت، كأنما توبخ نفسها. اللعنة!! بل قل سوء الحظ هو الذي جعلني أجيء إلى المنزل..ـ لو ظللت هناك لذهبنا كلنا معاً رقية!! لم أكن سأفقد عدنان. لم تكن ستضيع مني ميس. كنت سأذهب معهما.
وانهمرت دموع سخية من جديد، اختلطت للتو بدموع رقية مثلما اختلطت أسئلة هذه بأسئلة رئبال، أجوبة فاطمة بأجوبة خولة. كانت ثمة حرب ضروس، وكانت ألسنة لهبها تكوي كل من حولها بشواظ النار.
ـ فاطمة!! اسمعي مني. في منزله، وبعد العشاء فقط اقترح رئبال: اذهبي أنت ورقية إلى العمارة.
ـ العمارة!! رددت فاطمة وكأنما الاسم جديد عليها كل الجدة.
ـ أجل، هناك أقل خطراً وقصف الطيران أخف وطأة!! تابعت هذه المرة رقية، كأنما ثمة اتفاق عقدته مع زوجها من قبل.
ـ لكن، كيف نصل؟ سألت فاطمة وهي تنظر إلى الأعلى حيث السقف يحجب السماء.
ـ لا تخافي. في الليل، الطيران أعمى.
ـ حقاً!! لن يرانا الطيران!؟
ـ ولن يقصف سيارة تسير على طريق، صدقيني، هناك أكثر أمناً وسلاماً.
ـ أجل، هيا!! فاطمة!! قالت رقية راجية متوسلة: هناك الأهل، الأقرباء..ـ
ـ لكن لماذا لا نذهب إلى البصرة وهناك أخي... أمي...؟
ـ البصرة!؟ أخوك؟ أمك؟ ردت رقية زافرة ملوحة برأسها. إذن، أنت لم تسمعي؟ البصرة خراب!؟ هي أسوأ حالاً من بغداد، ومن يدري ما حل بأخي وأمي؟ هلمي فاطمة!! هيا!! أسرعي، نستغل ظلمة الليل.
لجة الظلمة، خاضت السيارة وئيدة بطيئة، إنارة الأضواء ممنوعة، على السائق أن يسير دون أضواء. عيون الطير الأبابيل ترصد الطرق من أعلى... تمسح الشوارع... تفحص الجسور. كل ضوء تراه تقصفه... كل حركة توقفها.. كل نأمة تسكنها. ضوءاً خافتاً فقط، مدهوناً بالزرقة والطين، أشعل السائق فلا تراه طائرة من فوق ولا يرى هو أبعد من أ نفه بكثير. ست ساعات... ثماني... عشر ساعات لا تدري فاطمة كم دامت الرحلة. لكنهم مع خيوط الفجر الأولى وصلوا. كان الخوف أن يتأخروا حتى شروق الشمس فتمسك بهم الطائرات على الطريق وتنهمر عليهم وابلاً من مطر يدعونه الموت.
مناحة استقبلتهم في بيت العم.
ـ أين عدنان؟ أين ميس؟ صاحت أم عبد المحسن، وهي تتفقد الأولاد، لم تجد فاطمة جواباً سوى الندب والعويل ولم تعد الجدة بحاجة إلى جواب، بل انخرطت للتو في مناحة لم تقف إلا بمجيء العم:
ـ ما هذا؟ صاح بالنسوة وقد عرف من السائق كل شيء. تنحن؟ تندبن؟ أيعيد الندب والنواح الأولاد؟ أيعيد آلاف الضحايا التي تسقط كل يوم؟ كان صوته أجش قوياً يبعث الرهبة في النفوس، فهدأ النواح والندب، ووقفن جميعاً احتراماً لصاحب الصوت.
كان أبو عبد المحسن شيخاً في الخامسة والسبعين، أبيض اللحية، أبيض البشرة، مشرب الخدين بالحمرة، كأنما حول رأسه هالة من نور: صورة أشبه ما تكون بصورة قديس نازل من السماء. كان عائداً لتوه من صلاة الفجر وكان الهدوء والسكينة يرينان على نفسه. رأى السيارة، عرف ما حدث.... لكن رمشاً واحداً منه لم يهتز. ماهزه هو صوت النواح والندب.
ـ لكنهما عدنان وميس يا عماه!! حاولت فاطمة أن تبرر نواحها وقد أخذ بيدها العم مسلماً، مصافحاً، فيما انحنت على يده تقبلها.
ـ هذه هي إرادة الله، وهل من رادٍ لإرادة الله؟
السؤال أفحم النسوة، وإن لم يوقف دموعهن.
ـ لكنهم أبرياء يا عمي!! بدأت فاطمة الرد لكن سرعان ما قاطعها:
ـ شعبنا كله بريء، فاطمة! بل ما تراه فعل، كي يصب أولئك الأعداء الحاقدون جام غضبهم عليه؟ ما الذنب الذي ارتكبه حتى تتحول السماء نفسها إلى فوهة جحيم تقذفه نيراناً وحمماً؟ بالأمس فقط دمروا هنا خمسين منزلاً، ثلاث مدارس، مستشفى بأربعة طوابق، وجسرين.... ولا يعلم إلا الله كم سقط من ضحايا لا ذنب لهم ولا جريرة.

وسكت الشيخ المهيب أبيض اللحية، أبيض البشرة، فران صمت كانت العمارة هادئة كأنما طير الأبابيل لم تمر في سمائها ولا عرفت أرضها قط. خيل لفاطمة وهي تصل إليها أن رئبالاً كان على حق: العمارة ساكنة لا قصف ولا دوي... لا أزيز رصاص ولا فرقعة انفجارات، لكن هاهو الشيخ المهيب يبعث في نفسها الذعر من جديد فالعمارة كسواها من مدن العراق، تنال ما تناله من قصف ودمار وموت.

ـ لكن لماذا نحن فقط؟ سألت رقية بصوت راعش كله حسرة، لماذا وحدنا المستهدفون؟

ـ يا بنتي!! رد الشيخ وهو يتنهد. الصدر دائماً هو الذي يتلقى الحراب، ولعلنا نحن الصدر لهذه الأمة، يا بنيتي..ـ العراق هو بوابة هذا الوطن ولابد لكل من يريد دخول هذا الوطن أن يقصد بوابته.ـ العراق هو التاريخ يا بنتي..ـ هو النفط، الثروات.... هو التراث فكيف لا يطمع به الطامعون؟... الفرس...ـ المغول.... الترك... التتار... كلهم جاؤوا طامعين، أرادوه لقمة سائغة، لكنه ظل شوكة في الحلق. موساً في الفم لا يستطيع ابتلاعها أحد.

ـ لكنهم يدمرونه يا عماه!! يذبحوننا يا عماه!! قاطعته فاطمة بحرقة ولوعة.

ـ أعلم. هم يريدونه أن يركع. يريدوننا أن نستسلم، لكن عراقنا لن يركع. ونحن لن نستسلم فلا تبكين..ـ صاح وهو يتلفت بالنسوة جميعاً. بربكن لا تبكين..ـ بكاء النساء يزعزع أركان الرجال. وشعرت فاطمة بدموعها ترقأ، بقلبها يستعيد تماسكه، ذلك الفتات الذي تحول إليه راح يتجمع، يترابط، يعود إلى الحياة من جديد. (إيه أيها العم!! كم أنت قوي!! كم أنت معجبة بصلابتك!! بشجاعتك!! مذ كنت صغيرة وأنا معجبة بك!! أحبك كما تحبني!!ـ أتذكر؟ كنا نجيء من البصرة، أبي وأخوتي جميعاً. كنا لا نحب العيد إلا في العمارة، مسقط رأس أخيك ومنبت العائلة كلها. بالأحضان كنت تستقبلنا. بالهلا... الهلا ترحب بنا.. تقبلنا جميعاً... تحضننا جميعاً وأنت تدخلنا إلى بيت العائلة القديم الواسع، لكن وحدي كنت المدللة لديك. تحضنني أكثر... تقبلني أكثر، وتكون عيديتي فلوساً أكثر. أتذكر؟ السكاكر، الحلويات... النقود كنت تحشرها خفية في جيبي وكان جبار أخي يحسدني... يغار من تدليلك لي... يحاول سلبي ما أعطيتني.ـ لكن، كان ناصر يحميني، كنا نهرب معاً إلى المراجيح. أنا وناصر!! بعدئذٍ نمضي إلى ساحة الألعاب حيث المراجيح والدواخات!! الدراجات والدوامات. هناك نلعب، ننفق النقود يمنة ويسرة ولا نعود إلى البيت إلا وقد صرنا خاليي الوفاض!!).

ـ فاطمة!! صاحت رقية قاطعة عليها شرودها. انظري من هناك!! وأشارت إلى الطرف الآخر من باحة الدار.

ـ أمي!! هتفت فاطمة وهي ترى أمها تعبر الباحة متوكئة على عصا منحنية بطيئة الخطا. وحده صوتها كان راعشاً أبح ربما من كثرة البكاء:

ـ فاطمة!! رقية!! كانت الأم تنادي، فلم تجد فاطمة نفسها إلا وهي تندفع نحوها تقبل رأسها، تقبل يديها، تأخذها طويلاً بين ذراعيها، فقد ظنت وهي تسمع عن خراب البصرة أنه لم يعد ثمة أم.

في باحة الدار جلسن. فاطمة إلى اليمين ورقية إلى اليسار، يسألن، يجبن، يتبادلن الأخبار ويذرفن الدموع. (ترى على ماذا تذرفين الدموع يا فاطمة؟ أعلى أخيك كاظم؟ أم على ابنك عدنان؟ على ابنتك ميس أم على منزل البصرة؟ كل شيء دمار يا فاطمة، كل شيء هلاك... فعلام تبكين..ـ بكاء النساء يزعزع أركان الرجال!! لا... لاتبكي يا فاطمة!! لا تبكي بعد اليوم يا فاطمة!!). وانحبست دموعها كأنما بقدرة قادرة على تنحبس الدموع. الشيء الوحيد السار كان خبر عبد المحسن، رجلها الذي تعبد. في البداية لم تصدقه فاطمة.

ـ أحقاً رأيته أماه؟

ـ أجل، يا بنيتي؟

ـ عبد المحسن بذاته؟

ـ عبد المحسن بلحمه وشحمه، وهو الذي أرسلني إلى هنا. قالت الأم التي كانت قد وصلت إلى العمارة قبل أيام فقط مهدودة، مكسورة، كل أبيض في عينيها أسود، وكل نهار في ناظريها ظلام.

ـ وكيف هو؟ أخبريني أماه!! تابعت فاطمة بلهفة تصل حد الجنون: شكله... لباسه... وجهه...ـ عيناه....

وأخبرتها الأم بكل شيء.
ـ إذن، ما يزال سليماً معافى!؟ غمغمت فاطمة وهي تتنفس الصعداء. ما يزال حياً يرزق؟ لواؤه في البصرة.
ـ بل هناك في الجنوب والغرب، على حدود العراق...
وتوقفت الأم فجأة. تتمة العبارة علقت بين شفتيها. صافرات الإنذار انطلقت تلعلع في فضاء العمارة. النسوة اضطربن في الدار. الأطفال صاحوا خائفين، وأوزات في الحظيرة رحن يزعقن.
ـ إلى الملجأ!! صاحت رقية وهي تحسب نفسها في بغداد.
ـ لا، إلى المغارة!! صاح الشيخ المهيب، وأسرعت النسوة إلى منتصف الباحة. باب المغارة هناك، يختبئ عن كل عين. فاطمة تعرف المغارة. تذكر أيام كانت تلعب الاستغماية فتتسلل إليها. مع ناصر، محسن، خديجة، رقية تتسلل، تختبئ هناك فلا يراها أحد.
المغارة منذ الأزل هي مخبأ العائلة. آل وضاح منذ الأزل يخبئون فيها حنطتهم وشعيرهم... عدسهم وذرتهم... ثم يغلقون الباب فتعجز أعين "العصملي" عن اكتشافه. الرجال أنفسهم كانوا يختبئون هناك، فلا تظل سوى النسوة... يخبئن الرجال ويغطين الأبواب بأكوام الحطب، تضليلاً لعيون الأعداء: فرساً جاؤوا من الشرق أم تركاً جاؤوا من الغرب، وكل منهم يبحث عن طائفة معينة من أهل العراق يصفون حساباتهم مع رجالها، كأنما ليس في العالم سوى رجال العراق. فاطمة تذكر قصصاً كثيرة روتها لهم الجدة عن فضل المغارة تلك، "فهل فضلك مستمر يا مغارة آل وضاح؟".
النسوة، الأطفال، الأولاد كلهم أسرعوا إلى المغارة، صافرات الإنذار ما تزال تدوي فيما بدا عواء الذئاب في المدينة يملأ الفضاء. وحده الشيخ المهيب لم ينزل إلى المغارة.
ـ انزل عماه!! صاحت به فاطمة لكن يداً أطبقت على فمها.
ـ لا، لا تقولي له ذلك. سيغضب منك!!...
وكان ذلك صوت أم محسن ثم يدها تدفعها إلى الصمت والمغارة.
مذ بدأ ذلك القصف المجنون أبى الشيخ أن يلتجئ إلى مغارة أو يلطأ في كهف. "أنا أهرب؟ " أنا أختبئ؟ لا، الاختباء للنساء، أما الرجال فيواجهون، دون أن يخشوا الموت.".
ولم يكن باستطاعة أحد أن يقنعه بغير ذلك، كان يكتفي بالجلوس تحت شجرة التوت الوارفة في باحة الدار، يرفع ناظريه إلى السماء يراقب الصواريخ وهي تعبر الفضاء فوق رأسه، يسمع أزيز الرصاص وهو يخترق ورق التوت، يرصد الطائرات التي ترمي بحجارتها التي هي من سجيل. وفي سره يود لو يطولها بيده فيحطم تلك الطائرات ويصد تلك الحجارة فلا تسقط على طفل بريء ولا امرأة عزلاء. تحت شجرة التوت جلس الشيخ يسبّح بسبحته ويتمتم بشفتيه رافعاً رأسه إلى السماء:
ـ رباه!! ألا ترى ما يفعله أعداء محمد بأمة محمد؟ يهود خيبر عادوا يا رباه!! ينتقمون من علي وشيعة علي!! اللهم رد كيدهم إلى نحرهم!! اللهم فرق كلمتهم!! شتت شملهم!! ابسط جناحك على أمة محمد وعلي... أنت يا أرحم الراحمين يا رب العالم.... ولم يستطع الشيخ إكمال العالمين، فقد دوى انفجار هائل أحس به يرفعه ذراعاً عن الأرض ثم يعيده إلى حيث كان. هب ملء طوله. نظر من وراء سور المنزل إلى حيث الانفجار لكنه لم ير غباراً ولا دخاناً. "لابد أنه بعيد إذن!! لكن كم هو قوي يا ترى!!"، وأسرع إلى المذياع داخل الغرفة. كانت انفجارات أخرى قد بدأت تفرقع بعيداً، قريباً، لا يدري الشيخ مكانها، ولا جدوى من رصدها، كما لا جدوى من الجلوس تحت شجرة التوت.
"سأسمع الأخبار علني أعرف شيئاً". فتح المذياع فلطمه صوت حاقد يهدد ويتوعد: "قد حان حينك يا صدام. يوم حسابك قد جاء، وكتابك في شمالك، فإلى جهنم وبئس المصير!!"، ولم يستطع الشيخ احتمال المزيد فانتقل بإبرة المذياع إلى اليمين. وجاء صوت بغداد راعشاً قليلاً واجماً كثيراً "قوات التحالف الآثم تبدأ هجومها البري على العراق،" وأجفل الشيخ: "فعلها الحاقدون!! يا إلهي!! إلى أي حد يصل حقدهم على العراق؟ يا إلهي ماذا يريدون من العراق؟".
لكن عبد المحسن لم يجفل حين جاء الخبر. كان يعلم ماذا يريدون، وإلى أين يصل بهم الحقد. لواؤه جاء قبل ثلاثة أيام استعداداً للمعركة. المعلومات واضحة "يريد الأنكلو أمريكان احتلال العراق... يريدون قطع الطريق على القوات المنسحبة من الكويت،

تطويقها، ومن ثم إبادتها تمهيداً لاحتلال العراق". الأوامر واضحة أيضاً: "أسرعوا بالتحرك. احتلوا مواقع متقدمة جنوبي وغربي البصرة، دمروا العدو، امنعوا التقدم. بأي شكل عليكم أن تمنعوا تقدم العدو".

وأسرع لواء عبد المحسن إلى الجنوب والغرب. عبر البصرة مضى. بستان النخيل كان قد استطلعه من قبل. لواؤه يتربص فيه. دباباته خاضت آخر معارك القتال مع الغزاة هناك في الفاو ودحرتهم، فهل تعجز عن دحر الغزاة الجدد، أعداء الله والوطن؟ كان عبد المحسن لا يفتأ يتحدث مع ضباطه، جنوده، يرفع من معنوياتهم، يشد من أزرهم، وهم يحفرون الخنادق، يهيئون مواقع الدبابات، يصنعون سواتر لها. النخيل الباسق يرتفع عالياً في السماء فوقها والسواتر تظللها فلا تراها أعين الأنكلو أمريكان، أقمارهم الصناعية بعيدة في السماء، طائرات استكشافهم لا تجرؤ على الطيران إلا عالياً عالياً والنخيل الباسق يفرش سعفه فوق الدبابات والجند، السواتر تغطي الدبابات، سعف النخيل يموه كل شيء فيعجز الأنكلو أمريكان عن رؤيته ما تخبئه واحات النخيل.

مع الفجر جاءت إشارة اللاسلكي "طائرات حوامة تحلق فوق الناصرية. قوات إنزال تحط إلى الغرب من الناصرية"، وأدركت قيادة الجنوب أن هدف التحالف هو احتلال الناصرية بغية قطع الطريق بين البصرة وبغداد... البصرة والعمارة، بل بين الجنوب كله والوسط والشمال كله، فأسرعت تواجه الإنزال.

ـ هل أتحرك إلى الناصرية سيدي الفريق؟ سأل العقيد عبد المحسن الفريق الركن قائد الجنوب.

ـ لا، للوائك مهمة أصعب، أبقِ عليه مموهاً لا تراه عين. رد الفريق الركن، فيما كانت إشارة لاسلكي أخرى تأتي من هنا، من هناك، وكان أركانه يتوزعون المكالمات ويتولون الردود.

ـ كتيبة الحرس السابعة!! توجهي إلى الهدف!!

ـ الجحفل العاشر ابدأ القصف المدفعي.

ـ اللواء التاسع عشر، طوِّق الإنزال.

وتوجهت الكتيبة ثم الجحفل ثم اللواء. رغم القصف رغم الطيران، كانت القوات تنطلق بسرعة الريح. طائرات الأباتشي العملاقة كانت قد وصلت إلى سماء الناصرية، بعضها بدأ يحط على الأرض، لتنفتح بطونها في الحال عن مصفحات ومدرعات... سيارات ومدافع، فالجند الأنكلو أمريكان ليسوا بحاجة لأن يقذفوا بأنفسهم في السماء. ليسوا بحاجة لأن يستخدموا المظلات أو يعرضوا أنفسهم لطلقات المدافع أو رصاص البنادق. الحوامات العملاقة تتسع لكل شيء. تحمل في جوفها كل شيء ثم تبصق كالتنين حمولتها لهباً وناراً، ولا يجد الجندي نفسه إلا وهو على الأرض تحميه الدروع وتسحق أعداءها الجنازير.

قبل أن يصعدوا إلى الحوامات، كان الجنرال شوارتزكوف قد اجتمع بهم مطمئناً قائلاً: "ستذهبون في نزهة... نزهة في حدائق بابل. ألم تسمعوا بحدائق بابل المعلقة، إحدى عجائب الدنيا السبع؟ الآن جاء اليوم الذي تذهبون فيه إلى هناك فلا يرفع في وجهكم وجه ولا تنطلق طلقة. طائرات مسحت كل شيء ستجدون كل من في العراق أذلاء صاغرين يركعون عند أقدامكم، لا ترحموهم.

ابطشوا بهم... اسحقوهم تحت أحذيتكم كالصراصير."ـ وامتطى الجند ا لمصفحات ثم امتطت المصفحات طائرات الأباتشي وكل ظنها أنها ستستعيد أمجاد الغزاة ا لأمريكان الأوائل ضد الأباتشي ومن لف لفهم من قبائل الهنود الحمر.

أسراب هائلة من أشباح الموت: الميراج، السكاي هوك، الجاغوار، الهاريير... سبقت الأباتشي. اكتسحت نيرانها منطقة الإنزال. حرقت الأخضر واليابس ثم مضت مفسحة في الطريق للأباتشي العملاقة وهي تتهادى تحلم بالنصر المبين على عراق لم يعد فيه جند، وأرض لم يعد فيها شعب. أنساقاً أنساقاً اقتربت طائرات الأباتشي، وأنساقاً أنساقاً بدأت تحط على الأرض، مثيرة من حولها الغبار... مثيرة الجلبة، حتى بدت سماء الناصرية وكأنها سماء جراد، أرض الناصرية وكأنها أرض أعاصير. لكن ما إن بدأت أرحام الطائرات طلقها دافعة بأجنتها إلى الخارج حتى انفتحت من كل صوب فوهات مجنونة تبصق اللهب والنار. مئات... آلاف القنابل انسكبت وابلاً من مطر على الجند الذين

جاؤوا يتنزهون في حدائق بابل المعلقة، وأسرعت طائرات الأباتشي تقذف مافي أرحامها، بعضها أفرغ مافيه، بعضها احترق بما فيه، فيما معظمها ولت الأدبار.
إلى بعضهم بعضاً، حدق الجند الذين جاؤوا يتنزهون. تكاد عيونهم تخرج من محاجرها:
ـ لقد خدعونا.
ـ هذه ليست نزهة.
ـ القنابل كزخ المطر فأين نذهب؟ راحوا يتساءلون لكن دون أن يكون هناك من مجيب. كانوا قد أصبحوا في أرض المعركة. البحر من ورائهم والعدو أمامهم، فماذا يفعلون؟...
ـ أخلوا المصفحات. توزعوا على الأرض. انبطحوا. لا يرفع أحدكم رأسه، ولا يطلق طلقة.
لكن اللواء التاسع عشر وكتيبة الحرس الجمهوري السابعة كانا بالانتظار، يعرفان أين هم حتى وإن تحولوا إلى حجارة، حتى وإن لم يطلقوا طلقة. جند العراق كلهم كانوا يحلمون بفرصة التحام، فكيف هؤلاء، هم الذين يحملون في صدورهم غلاً كالجبال، في نفوسهم ضغينة كالبحار على عدو يحارب من بعيد يرسل طائراته وصواريخه لكن دون أن يسمح بالتحام. خمسة وأربعين يوماً ظل يقصف... يدمر... يقتل من عل ومن بعيد. لا يقارب فيقاتلونه ولا يماسك فيباطحونه. هي ذي الفرصة جاءت. لم يعد باستطاعة الطيران التدخل. قنابله ستقصف العدو والصديق. صواريخه لن تستطيع التفريق بين العدو والصديق.
"قواتنا تلتحم بقوات العدو". سمع العقيد عبد المحسن إشارة اللاسلكي، فغلا المرجل في صدره "هنيئاً لكم!! الآن يمكنكم أن تنتقموا للأطفال الأبرياء.... للمدنيين العزل... لكل من ذهب ضحية القصف والعدوان"، وتلمظ بشفتيه، ثم فتح يديه بالدعاء "رباه!! متى تأتيني فرصة التحام؟". وكأنما استجاب ربه لدعائه جاءت إشارة لاسلكي في الحال.
ـ عبد المحسن، استعد. قوات العدو تندفع باتجاهك.
وانطلقت الإيعازات إلى اللواء المدرع المختبئ تحت شجر النخيل الباسق في حفر عميقة يموهها سعف النخيل، فيما كانت دبابات العدو تهدر مندفعة نحو الشمال والشرق. كانت، هي أيضاً، قد وعدت بوليمة من أطايب المأكولات: لحم بشري من شتى الألوان والأصناف يقدمونه لها فتهرسه بجنازيرها وتسحق عظامه.كان ديك تشيني نفسه قد جاء إليها... ربت ظهور جنرالاتها وخطب بجندها خطبة عصماء "العراق مباح لكم. دمه هدر... نساؤه سبايا... كنوزه غنائم... فاسرحوا وامرحوا فيه.". بعضهم احتج على خطابه، فالمدينة... قوانين الحرب.... شريعة الحضارة كلها تمنع سبي النساء وهدر الدماء. "لم نعد في القرون الوسطى يا سيدي، ولا نحن في غابات أفريقيا. نحن في العراق مهد الحضارات ومنبع القوانين أم نسيت قوانين حمورابي؟" لكن "الديك هدر وزمجر، أرغى وأزبد: "لا حضارة مع صدام، لا مدنية في التعامل مع متوحشين.". ذلك أن "الديك" كان قبل ساعة واحدة فقط قد أقام احتفالاً مسبقاً للنصر مع أتباعه الحلفاء... الفريق الأمير والأمير المفدى والشيخ الخطير، وكانوا كلهم قد شدوا على يديه مباركين... طالبين إليه ألا يدع في العراق زرعاً ولا ضرعاً... طفلاً ولا رجلاً، إلى أن يصل إلى رأس صدام فيأتيهم به على طبق من فضة.
لم يكونوا يعلمون أن هناك من استبق خططهم بخطط مضادة، أن العراق سحب قواته من الكويت، وأن حدوده صارت كلها مدججة بالجند والسلاح. كانوا يظنون أن حدوده في الغرب خالية... خاوية، فرسم شوارتزكوف سهاماً زرقاء وحمراء حيث النقطة الأقرب للبصرة، ثم أرسل مئات الآلاف من الجند... المدفعية... الدبابات. الخطة واضحة: تندفع القوات شاقة خاصرة العراق، مقتحمة السواتر، مدمرة حقول الألغام إلى أن تصل إلى البصرة، فيما تنزل قوات مظلية على عقدة الناصرية، وهكذا ينعزل الجنوب كله وتحاصر قوات العراق، نصف المليون، تلك التي انسحبت من الكويت.
اندفعت سهام شوارتزكوف الزرقاء باتجاه الشمال والشرق، الطيران يقصف أمامها، والمدافع تمهد الطريق لها، لكن عبد المحسن لم يحرك ساكناً. الأوامر لديه واضحة: افتح النار فقط بعد أن تعبر قوات العدو بستان النخيل وتصبح كلها في مرمى نيرانك.
عبد المحسن سعيد. سعادته تصل درجة النشوة... أخيراً جاءت الفرصة. سيشتبك وجهاً لوجه مع العدو، سيلتحم صدراً لصدر. "الآن نرى من منا الأصلب حقاً، من هو الصنديد حقاً؟". المنظار بيده، النخيل فوقه، والطيران توقف. لم يعد في السماء غربان سوداء ولا ذئاب من معدن. لم تعد حمم المدفعية تنصب على الطريق يمنة ويسرة. "إذن

دبابات العدو تقترب" وزحف مسرعاً إلى أقرب دبابة. كانت ما تزال في الحفرة تنغرس عميقاً في أحشاء التراب، مموهة بسعف النخيل. هدير الجنازير... دوي المحركات... لجب العجلات، كلها تملأ الفضاء، وهاهي ذي الطلائع تظهر. دبابة... اثنتان... ثلاث... عشر... مائة دبابة مرت هادرة مزمجرة دون أن يفتح عبد المحسن النار. كانت دباباته موزعة على طول الطريق، داخل الحفر وتحت أشجار النخيل، وكان عليه أن يظل صابراً ساكناً إلى أن يصبح أكبر عدد من قوات العدو تحت مرمى النيران.

ـ سيدي، علينا أن نفتح النار، همس المقدم، رئيس أركانه، في أذنه.

ـ ليس بعد. عزيزي المقدم، ليس بعد.

وكانت الدبابات ما تزال تهدر، مسرعة نحو البصرة وكل ظنها أنه لم يعد من أحد في العراق كله يرفع رأسه أو يطلق طلقة، كل ظنها أن الطيران مسح أمامها كل شيء، الصواريخ، المدافع أبادت كل شيء، لكن فجأة ابتسم عبد المحسن. كان قد عد مائتي دبابة مرت على الطريق.

ـ نار!! انطلق الإيعاز عبر اللاسلكي إلى كل نخلة، إلى كل ذرة تراب. سمع النخيل الإيعاز فانفجر قذائف وصواريخ، سمعه التراب فتحول قنابل ورصاصاً، صارت إثره الدبابات المسرعة إلى البصرة أكوام قش تشتعل، علب ديناميت تتفجر، أشلاء جند تتناثر، وفي كل مكان من الأرض مشاعل تضيء ظلمة الليل، حرائق تشعل حلكة الليل، ودخان يهزأ من سواد الليل.

***

الفصل السادس

"الطريق مفتوحة إلى بغداد"، قال صوت أمريكا فأجفل باقر هاباً ملء طوله عن سريره العسكري الضيق. "دبابات التحالف تشق طريقها كالسهم الخارق إلى البصرة.". وشعر بقشعريرة تمسك جلده فيزبئر إبراً حادة كجلد قنفذ. "قوات الإنزال تحتل عقدة الناصرية وتقطع طريق البصرة ـ بغداد". ولم يشعر إلا ويده تمتد إلى مفتاح المذياع فتكتم الصوت الناعق كصوت البوم.". يا إلهي!! أيّة أخبار مرعبة؟ ما الذي يجري؟ لا، لم أعد أفهم شيئاً، لم أعد أفهم شيئاً". راح يدمدم وهو يذرع الغرفة ـ الملجأ ذهاباً وإياباً.

ـ ما الذي لم تعد تفهمه؟ سأله يسار وهو يدخل الملجأ نافثاً دخان سيجارته، بارماً شفته، كأنما يعجب من أمر صاحبه المهموم دائماً، الحائر دائماً.

ـ ألم تسمع الأخبار؟ مئات الآلاف من الجند يقتحمون حدود العراق... آلاف الدبابات تشق طريقها إلى بغداد.

ـ ولماذا أنت زعلان؟ لو كنت مكانك لفرحت.

ـ أفرح؟ تباً لك من وجه قبيح.

ـ ماذا إذن؟ أنت، عدوك صدام، وهم عدوهم صدام. إذن، عدو عدوك صديقك.

ـ صديقي!؟ جورج بوش صديقي؟ ردد باقر وهو يشعر بأن حجة يسار قوية لا ترد.

ـ وحليفك أيضاً. وعليك أن تكون مع حليفك في كل الأحوال، أن تفرح لانتصاراته... تسر لاقتحاماته.

ـ لكنه يقتحم الأرض العراقية؟

دخل نمر حاملاً صينية طعام، مبشراً:

ـ عشاؤنا الليلة دسم. فاصوليا باللحم.

ـ الله على الفاصولياء باللحم!! هتف يسار الذي يحب بطنه كثيراً، فمتعة المتع عنده الطعام، ولذة اللذائذ الأكل. "كلوا من طيبات ما رزقناكم"، كانت الآية التي يرددها دائماً فيضحك الآخرون منه وهم يعلمون أن الأكل والطيبات لديه لا تقتصر على الطعام وحسب بل تشمل المرأة أيضاً.

ـ مالك، لا تأكل؟ سأل نمر صاحبه المطرق أرضاً، المتفكر ملياً.

ـ يا سيدي، أنا لم أر مثل هذا الرجل، رد يسار مشيراً إلى باقر بشيء من السخرية. هو يريد إسقاط صدام ولا يريد من أحد مس صدام، لكنه لا يعرف ما يريد.

ـ كيف لا أعرف؟ تساءل باقر وهو ينتشل نفسه من أفكاره. أرى وطني يقتل... شعبي يذبح... ترابي يطأه المستعمر وتريدني أن أفرح!؟ تصور، نمر، قال وهو يلتفت إلى صاحبه الآخر. يسار يريدني أن أرقص طرباً لاقتحام الجيوش الأجنبية بلادي؟..

ـ هو المعتدي. رد يسار، صدام غزا الكويت والعالم يريد أن يحرر الكويت. هو البادي والبادي أظلم.
ـ حسن، إن كان الهدف هو تحرير الكويت، فلماذا الهجوم على العراق الآن والكويت قد تحررت؟..
ـ بيده حق، يسار، قال نمر منتصراً فجأة لباقر. في البداية قالوا نريده فقط أن ينسحب من الكويت. وافق الرجل وانسحب فلماذا الهجوم البري؟... لماذا احتلال أرض العراق؟...
ـ ألم تسمعهم؟.. رد يسار بعد تلكؤ وكأنما الحجة مفحمة. يقولون صدام مخادع. يفاوضهم على الانسحاب وقد انسحب وانتهى. يقول لهم تفضلوا خذوا الكويت لكن بعد أن يدمر نفط الكويت، يحرق الآبار، المصافي، ثم يقبع على الحدود خطراً دائماً على الكويت. هدف الأمريكان واضح: يريدون اجتثاث ذلك الخطر مرة واحدة وإلى الأبد.
ـ يا عيني!! هتف باقر مغيظاً. يريدون تدمير صدام فيدمرون العراق كله؟ أهذا عدل؟ أفيه ذرة من حق؟
لا يسار، أجاب نمر وهو يزفر بحرقة شديدة، المؤامرة صارت واضحة. هم يريدون رأس العراق نفسه لا رأس صدام، لكن كل... كل، تابع حاثاً باقراً على مد يده، واسمع مني، تفاءل خيراً.
ـ أتفاءل خيراً؟، ومن أين الخير؟ رد باقر وهو يهز رأسه.
ـ ثمة خبر يدعو للتفاؤل.
ـ أي خبر؟ قل، تكلم، حثه باقر متلهفاً.
ـ يقولون: معارك طاحنة تدور جنوبي البصرة... معارك دبابات، لا مثيل لها منذ معارك رومل ومونتغمري.
ـ حقاً؟ أنا لم أسمع بذلك؟..
ـ أنا سمعته للتو... إحدى الوكالات تؤكد أن الأرض ليست، كما يقول الأمريكان، مفروشة لهم وروداً وزهوراً إلى البصرة، ولا الطريق مفتوحة إلى بغداد، بل الأرض للعراقيين مثلما السماء للأنكلو أمريكان.
ودون أن يشعر، وجد باقر نفسه يتنفس الصعداء. كان خوفه على البصرة قد قطع أنفاسه. هو مذ سمع بالهجوم البري ما فتئ يتصور البصرة وهي تتكسر تحت جنازير الدبابات فيمتلكه الفزع. "ماذا سيحل بالبصرة؟ أين تذهب أمي؟ أخوتي؟ الجيران!؟! الأصحاب؟ أيذهبون إلى بغداد؟ لكن حال بغداد أسوأ... شرها لا يقل عن شر البصرة، وآلاف الطلعات الجوية تملأ سماءها اليوم، آلاف القذائف والصواريخ تنفجر فوقها كل يوم..." "إيه بغداد!! ذات يوم كنت ملجأ لي. هربت من البصرة إليك، يا ملجأ الهاربين!! يا مغيثة المستغيثين!! أتذكرين؟ كنت فتى يافعاً ما أزال. وعدني أبي أن يشتري لي دراجة، لكنه لم يفعل. سوق التنكجية كان كاسداً. ولم يكن أبي يمتلك ديناراً واحداً يشتري به الدراجة لكنني لم أكن أعلم. كنت أظنه رجلاً واسع الغنى... واسع النفوذ... عظيم المقام... صورة للأب الذي يقول للشيء: كن فيكون، فلماذا لا يفي بوعده؟ إنه التسويف، ولا شيء آخر. أبي يحب أخي الأكبر أكثر مني. أرسله إلى دار المعلمين، لا يطلب منه عملاً، لا يرد له طلباً، فيما يضغط علي أن أشتغل في دكانه صبحاً إن كانت مدرستي عصراً، وعصراً إن كانت مدرستي صبحاً، فلا يدعني أرتاح ولا يدع لي متنفساً. هو يكرهني. لا يلبي طلبي. إذن، سأنتقم منه. سأهرب إلى بغداد. هناك عمتي. زوجها ساعي بريد في بغداد، حالهم ميسورة. فلماذا لا أهرب إليها؟ بالأحضان استقبلتني عمتي. فرشت لي حنانها حشايا دون أن تسألني: كيف جئت أو لماذا جئت؟ حسن الضيافة عند العرب يقتضي أن تضيفني سبعة أيام بسبع ليالٍ لا تسألني كيف أو لماذا؟... وهي عربية قحة... سليلة حاتم الطائي. لم يكن معي نقوداً فأعطتني. لم يكن معي ملابس فألبستني. وكم لم أعرف الدلال من قبل دللتني.
يومذاك تعرفت إلى جميلة، تلك السمراء الحوراء التي صارت حبيبتي فيما بعد. كنت أسمع المذياع يغني: "يا جميلة يا جملو... يا عشيرة زماني حسنك دخيل العملو. ملولح يالخيزراني". فأردد لها الأغنية وأضحك. لم يكن يخطر ببالي حينذاك أنها ستصبح حبيبتي. فكنت أردد لها الأغنية ونضحك معاً: صبي في الثالثة عشرة وصبية في الحادية عشرة لم يعرفا المراهقة بعد.

لكن أبي جاء. قطع علي أجمل إجازة في حياتي. اعتذر مني أن لم يف بوعده، متعلالاً بالعوز والفقر، معترفاً، لأول مرة ربما، بأن الجيب فارغ، وأن الجيب الفارغ لا يشتري دراجة. ولأول مرة أكتشف أن أبي ليس إلهاً يقول للشيء كن فيكون، بل هو رجل يتعب ويشقى لكي نعيش نحن، فلويت عنقي، وعدت كلي حسرة على جميلة وبغداد!!... فماذا عنك يا جميلة وبغداد؟ ماذا عنك يا أماه!! يا بصرة!! يا عراق!!".

ـ البشرى!! البشرى!!! البشرى!!! كان أبو الليل يهتف فرحاً وهو يدخل الغرفة ـ الملجأ.

ـ ماذا هناك؟ إجازة؟ زيادة راتب؟ رد يسار وقد وقفت يده باللقمة قرب فمه.

ـ بل هي أروع من ذلك بكثير، أكبر من ذلك بكثير.

ـ قل ماهي؟ تدخل هذه المرة باقر وقد حدس أن الأمر يعنيه هو بالتحديد.

ـ بوش قرر وقف إطلاق النار.

ـ ماذا؟ أعد.... أرجوك. قال باقر وهو يمسك بأبي الليل مترجياً، متضرعاً.

ـ اللحظة أعلنوا النبأ: وقف إطلاق النار في العراق.

ـ يعني لا قصف جوي!؟ لا قصف بحري!؟ لا هجوم بري!؟

ـ وقف إطلاق نار كامل منذ منتصف هذه الليلة.

ـ يا إلهي!؟ أية بشرى!! أية فرحة!! وانقض على أبي الليل يوسعه لثماً وتقبيلاً ثم قفز هنا وهناك يريد أن يطير، وقد جعله الفرح قادراً على الطيران.

ـ لكن كيف؟ سأل يسار وكأنما صعقه النبأ. معقول؟ أنا لا أصدق.

ـ بأذني هذه سمعته، رد أبو الليل وهو لا يقل فرحاً عن باقر.

ـ لكن قبل ساعات فقط، تابع يسار بنبرته نفسها، كانوا يقولون طريق بغداد مفتوحة أمامهم، وأنهم لن يتوقفوا حتى الرصافة والكرخ.

ـ القول شيء والفعل شيء آخر، قال نمر وقد فرح بدوره، ثم... الم أقل لكم: ثمة معارك دبابات طاحنة؟ وهذه هي النتيجة.

ـ الحمد لله!! هتف باقر وقد حط أخيراً على الأرض أوه!! يا إلهي!! كم أنا فرحان؟! لن يحتلوا البصرة، أبا الليل!! لن يحتلوا البصرة!!

جورج بوش كان حريصاً كل الحرص أن يحتل لا البصرة وحسب، بل بغداد والموصل.... العراق من أدناه إلى أقصاه. لكن "حساب القرايا لا ينطبق دائماً على حساب السرايا،". فالقوات الهادرة التي اكتسحت السواتر العالية تلك التي تفصل بين العراق وشقيقتها، ثم اندفعت كالسهام الخارقة إلى البصرة لم تستطع الوصول إلى البصرة. قوات الإنزال التي حطت في حقول الناصرية بهدف محدد هو وضع اليد على عقدة الطرق هناك، لم تستطع وضع يدها هي الأخرى على عقدة الطرق. لقد طوقتها قوات وواجهتها كتائب وألوية. التحم الجند بالجند... اللحم البشري يطعن اللحم البشري... الأنياب البشرية تنغرس في الأجساد البشرية. لم تعد هناك طائرات تقصف ولا صواريخ تسرح وتمرح. بل رجل لرجل... جندي لجندي وحربة لحربة والأشجع هو الذي يصمد... الأقوى هو الذي يبقى. وبدا لشوارتزكوف أنه وقع في فخ. كانت تقارير الطيارين واضحة، لم يعد في العراق صاروخ ولا مدفع مضاد، لا دبابة ولا حتى جند. "إذن، اذهبوا في نزهتكم إلى جنائن بابل المعلقة أيها الأنكلو أمريكان!!". وذهب الانكلو أمريكان لكن ليكتشفوا أنها ليست نزهة إلى جنائن بابل المعلقة بل هي مصيدة، راحوا يسقطون فيها زرافات.

ـ سيدي، المعارك ضارية. الدبابات تخرج من تحت الأرض... الجند ينبعون من قلب التراب. قال الجنرال البدين الأبيض الأحمر الذي حمل من واشنطن عاصفة هوجاء إلى صحارى العرب وبواديهم دون أن يخطر بباله أن غبار تلك العاصفة سيرتد عليه فيعمي عينيه ويضله سواء السبيل.

ـ ما الذي تقوله؟ سأله الامبراطور الذي ما فتئ ينظر إلى العالم من علٍ وبكل ازدراء. صدام يقاتل؟ أظل لديه جند؟ أظلت دبابة واحدة في العراق؟

ـ لقد خدعنا يا سيدي. صدام ما يزال لديه الحرس الجمهوري كله.. ما يزال لديه دبابات وجحافل.

ـ اللعنة!! قلت لكم دمروا حرسه الجمهوري... دمروا جحافله... مدرعاته...

ـ قد فعلنا يا سيدي!!.. لكنه ثعلب مراوغ هذا الصدام!! هو بارع في الاختفاء كما تعلم، بارع في التمويه.

ـ دعك من هذا الهراء، شوارتزكوف. قاطعه امبراطور العالم، وقد طغت عليه نزعة الكاوبوي الذي لا يرى العالم من حوله سوى قطيع أبقار يفعل به ما يشاء. يجب أن نحتل البصرة... يجب أن نحتل بغداد.
ـ نحتل البصرة يا سيدي... نحتل بغداد، لكننا سندفع ثمناً باهظاً.
ـ ماذا؟!..
ـ كما أقول لك يا سيدي. سنخسر الكثير من دباباتنا ومدفعيتنا، أسلحتنا وعتادنا.
ـ لا يهم. لا يهم. دبابات... مدفعية.ـ هم يدفعون ثمنها، أصحابنا ملوك النفط وأمراؤه.
ـ وجندنا؟ أرواح الأمريكان؟ من يدفع ثمنها؟ من يتحمل مسؤوليتها يا سيدي؟
ـ اللعنة!! أين إذن هجومك الصاعق؟ أين حربك الخاطفة؟ ألم تقل لي أننا لن نخسر جندياً واحداً؟...
ـ قلت، لكن الواقع شيء آخر يا سيدي. إنهم يقاتلون بضراوة. قواه الضاربة ما تزال قادرة على الضرب، حرسه الجمهوري يقاتل بالسلاح الأبيض... يفجرون أنفسهم بجنودنا. فدائيون. كلهم فدائيون يا سيدي، مصممون على القتال والصمود.
ـ فدائيون!!... أتقول فدائيون؟
ـ أجل يا سيدي. تعال انظر مجازر بشرية أمامنا. الكل يموت ولا يتراجع، وجندنا يموتون يا سيدي.
ـ أوه!! ماي غود!! شوارتزكوف. ما هذا الذي تقوله؟
ـ الحقيقة يا سيدي!! ثم هناك أهوار العراق... سواد العراق... غابات من ا لنخيل على مد البصر. مئات ومئات الأميال تخفي جيوشاً جرارة يا سيدي. وأخشى أن نغرق في الأهوار.... أن تبتلعنا غابات النخيل. أخشى فيتنام جديدة يا سيدي!!
ـ فيتنام جديدة!! ردد امبراطور العالم مذعوراً. لا... لا... كل شيء إلا فيتنام جديدة.
ـ هذا ما أقوله يا سيدي. خاصة أن العرب هنا أشرس من أهل فيتنام....ـ أقوى أجساداً منهم إنهم. يقاتلوننا بأسنانهم.... بأظفارهم... يصنعون جسوراً من الجثث البشرية لكي يعبر رفاقنا إلينا ويقاتلونا. الوضع خطير يا سيدي!!..
ـ إلى هذه الدرجة؟ سأل امبراطور العالم وقد لجمه الذهول أو كاد.
ـ وأكثر يا سيدي. تصور قوات الإنزال أبيدت كلها. طائرات الأباتشي لم نستطع تهريبها إلا بالويل... هجومنا على البصرة فشل.... مئات الدبابات احترقت في أماكنها وأخشى أن الضحايا كثر يا سيدي.
ـ الضحايا كثر.؟ كلهم أمريكان!؟...
ـ لا يا سيدي. ليسوا كلهم. هناك عرب دفعناهم إلى المقدمة.
ـ أحسنت!! شوارتزكوف!ـ أحسنت! غداً انتخابات، وإزهاق أرواح الأمريكان يعني سقوطي في الانتخابات يا شوارتزكوف!.ـ
ـ أعلم... يا سيدي. لهذا قلت أكلمك قبل أن نتورط أكثر...ـ نغرق في مستنقعات فيتنام جديدة أكثر.
ـ عبقري، أنت شوارتزكوف عبقري، فقل لي يا ماذا ترى؟
ـ أرى أن نوقف إطلاق النار.
ـ نوقف إطلاق النار!! وقبل أن نكمل المهمة؟
ـ مهمتنا الأساسية اكتملت يا سيدي. أؤكد لك. المهمة اكتملت.
ـ دمرت البنى التحتية للعراق كلها!؟
ـ البنى التحتية والفوقية... الاقتصاد... الزراعة.... الصناعة.... كل شيء في العراق صار خراباً.
ـ لكن ما يزال هناك صدام؟
ـ صدام نعالجه.
ـ وجيشه؟
ـ جيشه صار بلا غطاء جوي... بلا صواريخ. ذئب انتزعت منه مخالبه وأنيابه يا سيدي.
ـ ألم أقل لك عبقري؟ أنت عبقري، شوارتزكوف.ـ
ـ شكراً لك يا سيدي، رد الجنرال البدين السمين منتفخ الوجنتين والأوداج.ـ
ـ إذن بعد دقائق، أعلن وقف إطلاق النار. حسم الرئيس الأمر، وهو يغلق الهاتف. بعد عشر دقائق فقط سمع الأمير المفدى بأذنه ورأى بعينه على شاشة التلفاز امبراطور

العالم يعلن عن وقف إطلاق النار وقد اكتملت المهمة: تحرير الكويت، وقصم ظهر صدام. "لقد سحقنا عموده الفقري، ولن تقوم له قائمة بعد اليوم". انتفض الأمير المفدى عجباً وحنقاً، ثم أسرع إلى الهاتف.
ـ سيدي الوزير، ماذا أسمع؟ سأل جيمس بيكر، الصديق الذي كان قد وعده بألا تقف جنازير الدبابات إلا على جثة صدام.
ـ الرئيس أمر، ولا راد لأمره كما تعلم.
ـ لكن لماذا يا سيدي؟ هي فرصة ذهبية، فلماذا نضيعها؟
ـ ذلك هو رأيي لكن، للرئيس رأي آخر.
ـ عليك إقناعه من جديد يا سيدي. قل له سأزودكم بالمال. عشرين... خمسين..ـ مائة مليار أعطيكم. فقط. تابعوا الخطة..ـ احتلوا بغداد... احتلوا العراق يا سيدي.
ـ سيكلفنا ذلك الكثير من الأرواح البشرية، والأرواح غالية علينا كما تعلم. لا نستطيع التفريط بأمريكي واحد، أيها الأمير.
ـ سآتي لكم بمرتزقة، أجند لكم جنوداً... أضع النفط كله بين أيديكم... أرصدتي كلها تحت تصرفكم. فقط خلصوني من صدام.
ـ سنخلصك منه، اطمئن..ـ أيها الأمير اطمئن، لكن بوسائل أخرى.
لم يعرف الأمير المفدى ما هي الوسائل الأخرى ولم يشف كلام سيده الوزير غله لكن ما ترى يفعل التابع وقد أمر المتبوع؟
حزيناً مضى إلى مخدعه... كسيراً. آسفاً فرأس العراق لم يأته على طبق من فضة. صحيح، رأس العراق لم يأته على طبق من فضة لكن الصحيح أيضاً أن العراق كله كان جروحاً، كل خلية فيه تنزف دماً. عظامه مسحونة، جلده مزرق، شعره منتوف، مع ذلك عمته الفرحة. مع منتصف الليل توقفت صافرات الإنذار..ـ توقفت فرقعة الديناميت... انفجارات القنابل والصواريخ، وبدا العراق ساكناً سكون بحيرة في ليلة صيفية قمراء.
ـ أتراها انتهت عاصفة الصحراء؟
ـ هل أوقفوا عدوانهم ؟ أم هي خدعة؟
ـ ماذا في جعبتهم بعد؟
كانت أسئلة الناس تتصاعد مدومة في فضاء بغداد، البصرة، الموصل، الكوت، العمارة... وكانت الجراح ما تزال تنزف لكن القلوب كانت ترقص فرحاً، الألسن تهزج فرحاً، الأرجل تدبك فرحاً. في الميادين... الساحات... الشوارع.... البيوت... كان ثمة فرح وكان الناس يضمدون جراحهم ويرفعون رؤوسهم تيهاً. لقد ارتد كيد الأعداء إلى نحورهم، صدت جحافلهم زنود الأبطال السمر، ولعلع صوت المذيع من بغداد.
ـ أيها النشامى!!! يا أبطال القادسية واليرموك تضحياتكم لم تذهب هباء. زنودكم ما زالت قادرة على صنع القادسية واليرموك. حرابكم ما زالت قادرة على صد الفرس والروم.
سمع الشيخ المهيب الصوت، فشال برأسه فخاراً. كان شيء ما في داخله يقول: "عبد المحسن أحد أولئك الأبطال..ـ زنده أسهم في صد الأعداء، فافرح يا أبا عبد المحسن!" وفرح كما فرح كل من في العمارة... السماوة... البصرة... الحلة. نسي الناس أوجاعهم... سلوا جراحهم..ـ تساموا على مصائبهم، وأمضوا الليل بطوله يهزجون ويفرحون، فلم يعد ثمة غربان موت ولا طيور أبابيل.
فاطمة تود لو تفرح. لكن الجرح العميق في صدرها كان ما يزال شديد الإيلام. بصعوبة شديدة كانت تكبت الآهات، بصعوبة شديدة تكتم الأنين. كلما انفردت في ركن تندفع دموعها إلى عينيها، لكن سرعان ما تتذكر قسمها فتعيدها إلى الوراء... هناك إلى ما وراء الآماق. هي حزينة حتى الموت لكنها فرحة. بل لم تستطيع إلا أن تفرح وهي ترى العراق كله مهرجان أعراس.
ـ فقط لو أعلم شيئاً عن محسن!! تمتمت، وكل ظنها أنها تحدث نفسها، لكن رقية بجانبها تسمع أدق ما يدور في نفسها من خلجات.
ـ ستعلمين. قريباً، ستعلمين.
ـ تظنين أنه ما يزال حياً يرزق؟
ـ بل هو بخير، وبأحسن حال. فافرحي... افرحي يا فاطمة! قد هزمنا الأعداء.
ـ أفرح؟ ليت شعري كيف تفرح الثكلى؟

ـ إن ثكلت ولداً فقد أحييت وطناً!!!..
ـ أجل... الوطن ما يزال على قيد الحياة!! قلب العراق ما يزال ينبض!! وزفرت زفرة حارقة أعقبتها آهة، ثم التمتمة نفسها. آه!! فقط لو أعلم شيئاً عنك يا محسن!!ـ
محسن يخرج من خيمة مستوصف ميداني نصب على عجل... حاملاً على كتفه ضماداً شد على جرح لم يعد ينزف. كانت ثيابه كلها مضرجة بالدم، فالشظية التي أصابت كتفه شطبته شطباً. جرح في السطح لم يتغلغل إلى الأعماق لكنه ظل ينزف. طوال المعركة ظل ينزف لكن من يشعر بالجراح وتراب الوطن يداس؟ محسن يخوض معركة المصير إن حطم دبابات العدو ارتد العدو. وإن تركها تمر وصل العدو إلى البصرة. فهل يدع محسن دبابات العدو تصل إلى البصرة؟
كراً وفراً كانت المعركة. الضربة الأولى كانت مفاجئة للعدو وموجعة... لكن العدو ارتد عليه اختبأ بين النخيل مبتعداً، ثم ظهر من جديد ضارباً. ضربات موجعة سدد لواؤه للمعتدين....ـ وضربات موجعة تلقى من المعتدين. لكن كان ثمة تصميم، وكان تحد: "لن يمروا". كان الجند... صف الضباط... الضباط كلهم يرددون "حتى على جثثنا لن يمروا. سنصنع من أجسادنا ألغاماً تنفجر بهم، قذائف تمزقهم شظايا، لكن لن يمروا."ـ
واشتعلت دبابات العدو كتلاً من نار تحولت، حارقة كل من يقترب منها، فكيف يقتربون؟ حواجز هائلة في طريقهم صارت فكيف يتقدمون؟ الوقوف في المكان يجعلهم هدفاً سهلاً لعبد المحسن. إذن... ليتحركوا. الطريق أمامهم مغلق، الدبابات المحترقة تسده، القنابل المتساقطة تشكل سداً آخر يمنع التقدم. وحده الطريق إلى الوراء مفتوح. إذن ليتراجعوا. ولم يستطع محسن منع نفسه من أن يصرخ "الله أكبر" وهو يرى بقايا العدو تتراجع مجرجرة وراءها أذيال الخيبة، مختلطة الحابل بالنابل، لا تدري كيف تفر بجلدها.
أصوات قادة الكتائب جاءته باللاسلكي "سيدي العقيد، بقايا الأنكلو أمريكان يفرون، أنطاردهم؟" لكن الأوامر العليا جاءت "ابقوا في أماكنكم... حافظوا على مواقعكم، احتموا بسواتركم". وأدرك عبد المحسن أن القيادة تخشى أن يكون الانسحاب خدعة يريدون منها أن يخرجوهم من مخابئهم وينقض الطيران عليهم لا يبقي ولا يذر.
وتسمرت الدبابات في مواقعها، يموهها سعف النخيل وتخفيها الحفر والسواتر. لكن ما إن جاءه الخبر بوقف إطلاق النار حتى أدرك أن المعركة التي خاضها كانت حاسمة إلى درجة أرغمت جورج بوش نفسه على إعادة النظر بخططه كلها.
فرح الجند بوقف إطلاق النار مثلما فرح الشعب وهزجوا مثلما هزج بل بعضهم حاول إطلاق النار. لكن أوامر صارمة جاءت "نحن بحاجة لكل رصاصة. حافظوا على ذخيرتكم... تمسكوا بمخزوناتكم،"، وحين عاد عبد المحسن من المستوصف الميداني مضمد الكتف، مضرج الثياب بالدماء، كان الجند قد خلدوا للنوم تلفهم سكينة الليل وغياب أشباح الموت لأول مرة منذ خمسة وأربعين يوماً.
الصباح ساكن سكون الليل. أفاقت شمسه على هدوء عجيب يلف سواد العراق، مدنه وقراه كلها. مسحت بناظريها أرض المعركة فلم تر إلا بقايا دبابات محترقة ومصفحات معطوبة.ـ جثث جند حاولوا الفرار فلم يفلحوا، وحفر قنابل وألغام تفجرت قبل ساعات لتترك طريق الدبابات كله وجهاً مجدوراً ففقئت عيناه.
صوت اللاسلكي وحده هو الذي أيقظ عبد المحسن، فمعركة الأمس وآلام الجرح جعلته عند الفجر يستغرق في سبات عميق.
ـ عقيد عبد المحسن!! قال الفريق قائد الجنوب، القيادة في بغداد تستدعيك. عليك أن تكون هناك الساعة الخامسة.
ـ حاضر يا سيدي. رد العقيد عبد المحسن، وقد وقف استعداداً للقائد الذي عرف قبل يوم واحد كيف يخطط جيداً لكمين ينزل الهزيمة بقوات الأعداء.
سلم عبد المحسن اللواء لنائبه، ومضى إلى بغداد تتعاوره هواجس شتى.
"تستدعيني القيادة، لماذا؟". لم يكن الفريق، قائد الجنوب، قد صرح أو لمح بشيء... صوته كان مصمتاً، ليس في نبرته مايدل على رضى أو غضب. ورغم أنه مع انتهاء المعركة كان قد أثنى عليه....هنأه بالنصر وشد على يده بطلاً مغواراً إلا أن صوته في الصباح كان خلواً من أية إشارة، فانتابت عبد المحسن الهواجس "أتراني قصرت؟ هل وصلهم ضدي شيء؟ أيريدون محاسبتي؟ يا إلهي!! لا أطلب إلا اللطف في ما قدرت، إنهم قساة لا يرحمون"ـ

الطريق طويلة إلى بغداد ـ مهشمة، محفرة، مقطوعة الأوصال، فالقصف الطويل كان قد أحالها إلى حفر وخنادق. سيارات معطلة، دبابات محترقة..ـ وعليك أن تخرج عن الطريق هنا، تلف حولها هناك... وقد سدتها ضحايا الصواريخ والطائرات. "من قال إن الطريق إلى بغداد مفتوحة؟ خسئوا. إنهم، لو حاولوا لوجدوا أمامهم ألف حاجز وسد". ولمعت في ذهنه فكرة "لماذا لا يكون الخوف من سدود وحواجز كهذه هو ما غير وجه المعركة؟ أجل الخوف. عبد المحسن يعلم أن القيادة في بغداد تراهن منذ البدء على مسألة الالتحام..ـ جر العدو إلى معركة برية، وكلها يقين أن في المعركة البرية القول الفصل. الطيران... الصواريخ..ـ القصف كله لا يحسم ولا يفصل. لكن ما تراه يفعل إذا ما اصطدم وجهاً لوجه بالخصم؟ ذلك كان الرهان وانطلاقاً منه، مضى جند العراق، رغم قصف الطيران وضربات المدفعية، مضوا إلى الخفجة داخل أراضي الخصم، فقط كي يحققوا الالتحام.. كي يجروا الخصم إلى القتال وجهاً لوجه. معارك أمس حققت ذلك الالتحام وكسب العراق الرهان في تكتيك يبطل التفوق التكنولوجي، يلغي الطيران والصواريخ ليبقى الجندي في مواجهة الجندي.لكن إذا كان الجندي العراقي يذود عن أرضه، فعمَّ يذود الإنكليزي والأمريكي؟ ماذا يقاتل الفرنسي والكندي؟ وارتد الإنكليزي والأمريكي..ـ الفرنسي والكندي أمام المدافعين عن الأرض والوطن.

بغداد مهشمة ملأى بالندوب والجروح، بيوتها ما زالت تحترق ـ جروحها ما زالت تنزف ـ مع ذلك كانت فرحة، تشيل برأسها عالياً وقد غاب عن سمائها طيور الموت. يمر عبد المحسن في شوارعها فيؤلمه منظر الأبنية المهدمة والجسور المحطمة... الحدائق المخربة والأشجار المقتلعة ولا يملك إلا أن يتساءل "فاطمة! ماذا حل بك؟ ماذا عن الأولاد؟ المنزل؟". لكنه لا يستطيع الذهاب إلى المنزل أو رؤية فاطمة. الساعة تقارب الخامسة وعليه أن يكون هناك في الموعد. أوامر القيادة تنفذ بحذافيرها دون اعتراض أو تردد ـ قلبه يميل به نحو حي الأعظمية، عله يطمئن على منزله، زوجته، أولاده، لكن انضباطه العسكري يدفعه في الاتجاه المعاكس حيث القيادة التي استدعته ولا يعلم لماذا."أخير أم شر؟ نجاة أم هلاك؟". لكن ما ان قدم اسمه إلى حرس الباب حتى خرج له ضابط الحرس، قرع كعبي حذائه، رافعاً يده بتحية عسكرية شديدة القوة والانضباط ثم قاده إلى مبنى القيادة. شيء من طمأنينة "سرى في أوصاله المعاملة حسنة، إذن، خير". لكن شعوراً بالحيرة داهمه..ـ "عجباً!! ماذا يريدون مني؟ إلى أين يمضون بي؟". عينا محسن أسرع من قدميه هاهما تريان مبنى القيادة... ذاك الذي كان صرحاً شامخاً قبل أيام وقد صار تلة من ركام كتلك التلال التي تدفن بابل ونينوى أعظم مدن التاريخ..ـ الطوابق الأربعة كلها خرت أرضاً، صريعة لقذائف ثقيلة العيار وصواريخ خارقة حارقة وكل ما تفتقت عنه تكنولوجيا الأنكلو أمريكان وأحقادهم. مع ذلك قاده الضابط الشاب برتبة نقيب إلى أن دخل الركام نفسه. هناك كان أخدود. دخل النقيب الأخدود، فدخل العقيد وراءه. الأخدود تحول إلى دهليز يحيط به الركام من يمين ومن شمال، من أعلى ومن أسفل. ثم بدأت العتمة ترخي بظلالها على عيني عبد المحسن ـ بعدئذٍ جاء باب من صفائح ثقيلة سميكة ربما كانت من الحديد والرصاص... معدة، ربما لرد الأشعة النووية، لصد القنابل الذرية. بعد الباب، كان ثمة درج، ثم مستراح ومصعد. لا... لا... المصعد لكي تصعد به إلى الأعلى لكن ذاك القفص من حديد وخشب إنما كان ليهبط بهم إلى أسفل. "إذن هو مهبط، فأين تهبط يا عبد المحسن؟ إلى الزنازين أم إلى القيادة يا عبد المحسن؟"ـ هو خائف قليلاً لكن ابتسامة من الضابط جعلته يطمئن أنه ذاهب إلى المقر الذي أعيا الأنكلو أمريكان ـ "كم حاولوا اكتشافه!! كم خربوا من مبان!! كم هدموا من بيوت وكل ظنهم أنها القيادة... والقيادة هنا!! يا إلهي!! ما أذكى من اخترع هذا المكان!! مقر مخفي لا تكشفه عين. وأين؟ تحت القيادة نفسها. نسختان إذن: نسخة في الأعلى ونسخة في الأسفل. أربعة طوابق فوق الأرض ومثلها تحت الأرض. هو ذا الذكاء. تكون حيث لا يتوقع العدو أبداً أن تكون!!" ودخل الضابط بعبد المحسن المهبط. عشرين...ـ ثلاثين...ـ متراً..ـ هبطا. عبد المحسن لا يدري. المهبط سريع إلى درجة خطف معها قلبه. لكن حين خرجا منه، عاد إليه قلبه من جديد وتنفس الصعداء. حوله، كان كل شيء مناراً، حسن التهوية، حسن الترتيب والنظام... دهليز قادهما إلى صالة، فيها أرائك وستائر، سجاد وطنافس وكأنها في أحد قصور الرشيد. "يجب أن يشعر القائد بالراحة والأمان!! كل شيء حوله ينبغي أن يوفر له الهدوء والطمأنينة".

ـ تفضل... اجلس. قال ضابط الحرس وهو يشير إلى أريكة بلون السندس الأخضر..ـ لون الخصب والنضار. عكس الأحمر، لون الحرب والدمار. "ترى أليس في اختيار اللون، أيضاً عبقرية؟". نظر محسن إلى الأعلى، السقف واطئ سميك... سميك." أتراه صُمِّم لأن يحمي حتى من القنابل الهيدروجينية.؟". عبد المحسن فرح "ها أنذا في المقر الذي ظل عصياً حتى على أعين القنابل الذكية. لا هي ولا الصواريخ الجهنمية استطاعت أن تكشفه. صحيح أن كل ما فوقه حطام لكن هاهو ذا سليم معافى يقاوم الحدثان.". وهب عبد المحسن ملء طوله، فقد ظهر من باب إلى اليسار لم يكن قد رآه من قبل الزعيم القائد نفسه. واثق الخطا، حاد النظرات، جهم الوجه، كث الشاربين، مزموم الشفتين وصل إليه. وزير الدفاع.... رئيس الأركان، ضابطان آخران لا يعرفهما عبد المحسن كانوا وراءه. رفع عبد المحسن قدمه، دق بها الأرض دقاً، رافعاً يده اليمنى إلى اليمين والأعلى... تحية من القلب، من صميم الروح خرجت كما لم تخرج من قبل. لكن ها هو ذا القائد يمد يده. "يا إلهي!! القائد نفسه يريد أن يصافحني. مد يدك عبد المحسن... مد يدك!!". وخشي عبد المحسن أن تطول مدة اليد، فيغضب القائد. تردد لحظة من الزمن ثم أسرع يمد يده.
ـ مرحباً بك عقيد عبد المحسن... قال القائد وهو يشد على يده لقد رفعت رأسنا عالياً.
ـ نحن فداء الوطن سيدي القائد!!
ـ حييت وبوركت! هكذا كان جند خالد والمثنى!! هكذا يكون جند الوطن!! قال وهو يسحب يده مربِّتاً كتف عبد المحسن، لكن شرارة ألم انطلقت حيث وقعت التربيتة فعبرت عيني عبد المحسن.ـ آسف، الجرح هنا في الكتف؟ تابع القائد متسائلاً، مشيراً إلى حيث الجرح والضماد.
ـ نعم... سيدي.
ـ هو وسام على كتفك. وهذا وسام آخر نضعه على الكتف الأخرى قال القائد وهو يمد يده إلى حيث رئيس الأركان. مد رئيس الأركان يده بكتافية خضراء تحمل نجوماً أكثر مما تحمل كتف عبد المحسن.ـ
ـ مكافأة لك نرفعك إلى رتبة العميد، قال القائد الأعلى للجيش، رئيس الجمهورية، الزعيم الملهم، وهو يضع الرتبة الجديدة على كتفه، ثم مد يده باتجاه وزير الدفاع. أعطاه الفريق المنتصب القامة كنخل البصرة وساماً تتدلى منه نجمة من ذهب. بعدئذٍ تابع: هذا أيضاً وسام شرف نقلدك إياه، وقد أبليت بلاءً حسناً دفاعاً عن شرف الوطن وكرامته!! وأحس عبد المحسن بعينيه تغرورقان بالدموع!! ذهب ألم الجرح، ذهب عناء المعركة، ذهب الجوع، العطش، التعب... كل شيء غاب ليبقى الشعور بالعزة والفخار.... الشعور بالنصر، الفرح بالنصر!! "إيه يا دموع الفرح!! كم ترقئين من جراح!!".
ـ أنا فخور بك عبد المحسن!!ـ بل كلنا فخورين بك، قال القائد بنبرته المتميزة وهو يشدد على كل حرف مشيراً بيده إلى كل من حوله.
ـ شكراً سيدي القائد!! بل أنا عاجز عن الشكر!! قد أكرمتموني فوق ما أ ستحق.
ربّت القائد من جديد، لكن هذه المرة كتفه اليسرى.
ـ وحدهم الأبطال يستحقون الإكرام... وحدهم من يضحون في سبيل الوطن يستحقون المجد، طوبى لمن يدون أسماءهم الوطن في سجل البطولات والتضحيات.
ومن جديد شعر عبد المحسن بعينيه تغرورقان. كلام القائد يهز الوجدان، نبرته تبعث جيشاناً في المشاعر والأحاسيس ربما لا تجد طريقاً لها سوى الدموع.
مال وزير الدفاع نحو القائد الأعلى ثم همس بشيء، تبسم إثره القائد تبسم العجب والسرور وهو يتفحص عبد المحسن جيداً. بعدئذٍ سمعه يتمتم مخاطباً وزيره.
ـ حقاً!! أترى ذلك؟
ـ أجل يا سيدي، رد الوزير بصوت أعلى من الهمس استطاعت أذنا عبد المحسن أن تلتقطاه لكن ليعود بعد ذلك إلى الهمس فلا يسمع محسن إلا شيئاً من غمغمة خيل إليه أنه ميز منها كلمة "شبيه". هز القائد رأسه هزة الموافقة ثم تابع مخاطباً عبد المحسن:
ـ الآن من حقك أن تستريح استراحة المحارب كما يسمونها.ـ فاذهب سبعة أيام. اطمئن على أسرتك وأهلك. ثم شد على يده من جديد ملتفتاً إلى لواء وراءه قائلاً: لواء شاهر انظر حاجته... لب له كل ما يطلب.

لكن ما حاجة عبد المحسن؟ وماذا يطلب؟ ثمة حاجة وحيدة كان يطلبها: أن يصل إلى فاطمة... يطمئن على الأولاد... الأهل..ـ في بغداد..ـ العمارة..ـ البصرة. وما أسهل على اللواء شاعر أن يلبي له ذلك المطلب.
على عجل مضى محسن، على كتفيه رتبة العميد، وعلى صدره وسام الشرف، وفي قلبه فرح يحلق به عالياً كما النسر. "آه!! يا إلهي!! كم سأفرح برؤيتك يا فاطمة!! كم سأترك نفسي لحضنك يهبني الدفء والحنان... لذراعيك تسقيانني الراحة والأمان!!".
وصل إلى المنزل فاستبشر خيراً. المبنى سليم. بل الشارع، حتى المنعطف، سليم لا دمار فيه ولا خراب. صعد الدرج مسرعاً. المنزل في الطابق الثاني... فرحه، ذو الأجنحة كأجنحة النسر، يجعله يقفز الدرج مثنى وثلاث وعند الباب فقط يقف دون حتى أن يلهث.
رن الجرس، لكنه ابتسم فقد نسي أن بغداد صارت بلا كهرباء. طرق الباب بجمع يده مرة... مرتين... ثلاثاً... لكن لا صوت، لا جواب، "ليسوا هنا!؟ أين هم إذن؟". وسرت في أوصاله رعشة من خوف. فتح الباب، سد من عتمة واجهه. هو يعرف منزله... شبراً شبراً يعرفه. إذن، ما عليه إلا أن يجوس فيه. غرفة القعود، غرفة النوم، المطبخ... المرافق... كل شيء في مكانه لكن لا أحد."الدار قفرٌ والرسوم كما... رقش في ظهر الأديم قلمْ". عاد إلى ذهنه بيت الشعر القديم. "ترى أي ألم كان ينتابهم وهم يأتون إلى ديار الحبيب فيجدونها قفراء خالية؟ أية مشاعر وقادة مضطرمة كانت تجيش في صدورهم والخلاء والوحشة يصدمانهم!؟ ايه يا منازل الحبيب، أنت حقاً، كما قال الشاعر، لك يا منازل في القلوب منازل.. أقفرت أنت وهن منك أواهل."ـ لكنه لم يستطع التحمل كثيراً. أسرع إلى الهاتف وكل أمله أن يتصل برئبال. "عديلي رئبال سيجيب على أسئلتي كلها"، لكن صواريخ الأعداء وقذائفهم كانت قد أودت الهاتف منذ زمن طويل، نبشته طائراتهم من تحت التراب لتصلبه على جسر السنك في بغداد، فماذا يفعل محسن؟ تخيلات وأوهام انتابته في الحال. "أتراهم قضوا نحبهم جميعاً؟ هل قتلت فاطمة وهي في الشارع؟ سقطت قنبلة على الأولاد وهم في الطريق؟". أسئلة كثيرة راحت تنتابه، غادر إثرها المنزل، وقد غدا المنزل أضيق من خرم الإبرة. قرع باب المنزل المقابل، لكن أيضاً لا أحد، "أهم أيضاً قد ماتوا؟ هاجروا؟ خلت بغداد من سكانها!؟ ربما فروا جميعاً هرباً من خيول التتار، فهولاكو ما يزال حياً يرزق... يجوب شوارع بغداد. يتوعد بسبي نسائها جميعاً... بذبح أطفالها كلهم، بالتمثيل بكل رجل من رجالها. حقد التتار أسود، انتقامهم مريع فكيف لا يهرب أهل بغداد؟
ـ رئبال!!
ـ محسن!!ـ
هتف واحدهما بالآخر وقد دخل محسن مكتب عديله. طويلاً أخذ واحدهما الآخر بالأحضان، شاداً على ظهره مربّتاً كتفه... مقبلاً، لاثماً فهما لم يكونا عديلين وقريبين وحسب بل صديقين حميمين.
ـ حمداً على سلامتك!! قال رئبال أخيراً وهو يجلس بجانب محسن.
ـ حمداً على سلامتك أنت!! رد محسن وهو يتفحصه جيداً.
ـ نحن هنا في بغداد..ـ لكن أنت في جبهة القتال في الخندق الأول.
ـ العراق كله جبهة قتال!! العراق كله خندق أول!!
ـ صحيح!!ـ هؤلاء الامبرياليون شوهوا حتى الحروب. ايه!! ياللأيام الحروب النبيلة! حين كانت تنشب بين الجند والجند... في ميادين خاصة للمعارك ولا تشن على مدنيين عزل وأطفال أبرياء!!ـ
ـ صحيح..ـ تلك كانت حروباً نبيلة، لكن هذه حرب قذرة. الأنكلو أمريكان فيها لا يجرؤون على الاقتراب، لا يجرؤون على مواجهة الرجال!!.
وتوقف محسن لحظة ثم تابع ملهوفاً: لكن قبل كل شيء قل لي... أين فاطمة؟
ـ في العمارة!!..
ـ حقاً!! هتف وقد ردت إليه الروح. أسئلته، تخيلاته كلها ذهبت فجأة مع الريح. إذن، لم تسقط قنبلة على رأسها!! ما تزال حية ترزق!! والأولاد؟ هل هم بخير؟ رقية؟ الكل بخير؟ تابع أسئلته رشاً وقد أحس بكثير من الراحة.
ـ الـ... كل... ب... خير..ـ بدأ رئبال بشيء من تلعثم وحيرة "أأخبره؟ هو فرح فلماذا أقتل فرحه؟".

ـ هه... ماذا؟ أراك تتلعثم؟
"لا... يجب أن أخبره الحقيقة. هو رجل والرجل ينبغي أن يواجه الحقيقة الكذب لن يجدي. سيذهب إلى العمارة وتصدمه الحقيقة فيحقد علي وينقم على كذبي" وتململ رئبال حاكاً رأسه.
ـ ماذا، رئبال؟ تكلم... بالله عليك... تكلم!! حثه محسن وقد بدأ قلق غامض ينفث فقاعات فقاعات في رأسه.
ـ للأسف... محسن..ـ عدنان وميس... حياتك الدائمة قال رئبال بشيء من تردد لكن بكثير من الوضوح.
ـ كيف؟ أين! متى؟ أسرع محسن يسأل وقد غدا وجهه لوحة للألم والفاجعة.
ـ في ملجأ الأعظمية ـ كانا هناك، واكمدّ كل شيء في محيا محسن ـ غام كل شيء أمام عينيه... لكن لحظة من الزمن، ثم سرعان ما انتفض.
ـ وفاطمة؟ خولة؟ سأل بمزيج من الدهشة والاستغراب.
ـ لحسن الحظ كانتا في المنزل....
ـ الحمد الله على كل حال!!
تمتم ثم رفع صوته كأنما يخاطبهما أمامه، عدنان... ميس... فلذتي كبدي!! عليكما الرحمة أنتما يا فداء هذا الوطن!! ثم أسرع إلى العمارة كأنما يسابق الريح ـ
بالزغاريد استقبلته الأم، بالزغاريد استقبلته فاطمة... رقية... الأخوات... الجارات ورتبة العميد تلمع نجوماً على كتفيه. الشيخ المهيب أخذه بالأحضان. خولة تسلّقت ساقيه إلى أن وصلت إلى ذراعيه وهو في حميا السلام والتحيات. فرحة اللقاء كبيرة طغت حتى على الأحزان الدفينة هناك في صدر فاطمة... في صدر الشيخ المهيب، الأم، النسوة جميعاً. لقد عاد سالماً من حرب ضارية، من يدخلها مفقود ومن يخرج منها مولود. كانوا جميعاً، بالأمس، لا يشغلهم غير الاطمئنان على محسن... معرفة خبر عنه. وهاهو ذا محسن بشحمه ولحمه بينهم، فأية فرحة!! الأم لا تفتأ تأخذه بين أحضانها وتقبله. خولة تلتحم به ممسكة بعنقه وكأنها تخشى هروبه ـ فاطمة قبالته. عيناها لا تفارقانه فيهما حزن عميق، لكن فيهما أيضاً فرح عميق، "يا الله!! كيف يمتزج الفرح بالحزن؟ كيف يلتقي الصيف و الشتاء على سطح واحد؟ صحيح!! عجيب ابن آدم... فيه تجتمع المفارقات، تلتقي المتناقضات وكأنما هو خارج عن الطبيعة، جامع لكل مافي الطبيعة!!"ـ
حتى مطلع الفجر!! ألم يقل سبحانه؟" ليلة القدر... حتى مطلع الفجر؟ هكذا كانت ليلة آل وضاح. فثمة قصص كثيرة يجب أن تقص، حكايا خطيرة يجب أن تحكى. ومن يستطيع النوم والروح تلتقي بالروح؟ فلقة الحبة تلتحم بفلقة الحبة؟ كان عليهم أن يرووا له كل ما جرى في العمارة، البصرة، بغداد، وما أكثر ما جرى في العمارة البصرة، بغداد...ـ كان عليه هو الآخر أن يروي لهم ما جرى في الفاو... الناصرية، جنوب البصرة، غربيها، حيث الحدود التي اخترقت، الموت الزؤام الذي هجم... وروى لهم محسن. أدق التفاصيل روى لهم حتى ما جرى في بغداد... كانت المفاجأة كبيرة، الآلام كثيرة. لكن كان ثمة ما يعوض الشرف... الكرامة... وقفة التحدي. فلا ركوع ولا استسلام. لا نصر، لكن لا هزيمة ـ وحسب بلد كالعراق أن يقف في وجه الطغيان الثلاثيني كله، وقفة تحدٍ ثم يخرج لا نصر ولا هزيمة ـ
بدأ الفجر ينشر ضياءه، فبدأ آل وضاح يطوون أجنحتهم وقد استبد بأجفانهم النعاس. المنزل مليء بالناس. من البصرة، العمارة، بغداد، كلهم تجمعوا طلباً للأمان فصار المنزل حشداً من الناس كأنه يوم الحشر. خلال الغارات، كانت المغارة تغص بالناس، وبعد الغارات كانت الغرف تغص هي الأخرى بالناس، وكان الشيخ المهيب سعيداً حتى درجة النشوة... أليس هو عوذ الجاني وغوث الطريد؟ ألا يؤمه الأهل، الأقارب أنى كانوا وحيثما كانوا هرباً من العوز، الحاجة والموت؟ لكن في يوم الحشر ينام الناس كلهم أنساقاً أنساقاً، وعلى الأرض، جنباً إلى جنب، لا يطمعون بسرير ولا أرائك ـ حسبهم فراش ولحاف.... بساط أو لباد يمد على الأرض فيلتحف المرء بطانية جديدة أو عتيقة لا يهم. في الحروب ينتفي الدلال، ينتفي الترف... تنتفي الفوارق جميعاً ليصبح الكل سواسية كأسنان المشط.

لكن عبد المحسن جاء. رأسه مكلل بالغار جاء. القائد، بنفسه، وضع على كتفيه رتبة العميد وقلده وسام الشرف. ثم هناك فاطمة... امرأته التي يحب. أفلا يحق لهما انفراد؟ أفلا يحق لهما لقاء حميم؟ وأخلت الأم لهما غرفتها. الشيخ المهيب يذهب مع الفجر إلى الصلاة. جامع الحسين يدعوه للعبادة، فينتضي عكازه ويمضي إلى المسجد، يصلي فرحاً بالنصر... يدعو ربه من جديد أن ينصر أمة محمد وعلي، فلا يغلبها غالب ولا يطأ ترابها أجنبي.

محسن يرى يوم الحشر في المنزل. زحام الأطفال، النساء، الشيوخ العجّز... فيأبى أن ينام إلا مع أهل الحشر، لكن الأم صلبة. كلمتها لا تنزل الأرض، فمضى محسن مع فاطمة.. إلى حيث السرير النحاسي الذي يعود مولده إلى أيام الملك فيصل الأول. "إيه فاطمة!! كم أرعشني الشوق إليك!! لكن ما لك؟ مالي؟ ناري مطفأة يا فاطمة فهل نارك كذلك؟ فرحي مغموس بالحزن، فهل فرحك كذلك؟ الفراش يجمعنا الآن لكن ماله نابياً كأنه من قتاد؟".

شد عبد المحسن فاطمة إليه، شدته، احتضنها... احتضنته. خولة إلى جانبهما ملاك نائم تهدهده أطياف الهناء. هما روح واحدة... جسد واحد. ذراعاه قويتان تحتويانها، ذراعاها دافئتان حنونان تردان له الاحتواء. لكن الشفاه بعيدة. تأبى أن تلتقي. البرد بينهما شتاء قارس لا تذيبه حرارتهما ويغفو كلاهما وهو يشعر أن ثمة موانع بالغة الارتفاع تفصل بينهما... ثمة عدنان وميس يطوفان فوقهما... حلوهما... صانعين حاجزاً من فولاذ يصعب عليهما اختراقه.

***

ـ الاختراق من داخل لا من خارج يا سيدي. قال سكرو كروفت، مستشار الأمن القومي، لإمبراطور العالم وحوله أركان حربه جميعاً في البنتاغون العظيم ذي الأضلاع الخمس.

ـ هذا أفضل. رد الامبراطور وهو يصطنع حنكة العالم كله وحكمته، أفضل من أن نتورط في موحلة فيتنام جديدة.

ـ وأفضل من أن نخسر الانتخابات يا سيدي؟! تدخل جيمس بيكر غامزاً.

ـ إذن، الخطة جاهزة يا سيدي. فقط أعطوا الأمر بالتنفيذ، تابع المستشار بنبرة أشد إلحاحاً.

ـ هكذا، دون أن أطلع على التفاصيل؟ قال جورج بوش وهو يشعر، للمرة الألف، أنه مجرد برغي في آلة حرب عملاقة لا يقدم فيها ولا يؤخر.

ـ تتعب نفسك يا سيدي، رد ديك تشيني الذي نذر نفسه قبل زمن طويل لأن يكون مجرد برغي في تلك الآلة.

ـ وشوارتزكوف، هل انتهى هناك في الخليج؟ سأل امبراطور العالم من جديد وقد أحس بشيء من حنق.

ـ بالطبع يا سيدي. أجاب ديك تشيني شارحاً. وفدنا التقى بوفد العراق. وقعوا اتفاقية وقف إطلاق النار.

ـ لكن... كان عليكم أن تذلوا العراقيين أكثر، قاطعه جيمس بيكر الشائل برأسه دائماً، كان عليكم أن تجعلوهم يأتون إلى مقركم، زاحفين، رافعين راية الاستسلام دون قيد أو شرط.

ـ حاولنا يا سيدي، قال ديك تشيني، العائد لتوه من الخليج، الخائض معارك من أجل استمرار المعارك في العراق، لكنهم أبواـ لا يرفعون راية استسلام، ولا يوقعون دون قيد أو شرط.

ـ اللعنة!! صرخ امبراطور العالم. كل هذا القصف ولا يركعون!! كل تلك الصواريخ ولا يستسلمون!! لا... لابد من تمريغهم بالوحل... لابد من إذعانهم...

ـ اطمئن يا سيدي!! اطمئن!! سيذعنون، قال سكروكرفت من جانبه ولسوف نأتيك بصدام موثق الرجلين مقيد اليدين إلى واشنطن كما جاؤوا بزنوبيا ملكة تدمر إلى روما ذات يوم من ماضي الزمان.

ـ أوه!! ماي غود!! هتف امبراطور العالم فرحاً. هذا أوريجنال، مشهد فانتاستيك!! عزيزي سكرو، هذه فانتازيا تعجبني!! بل أنا أموت بكل ماهو فانتازيا.

ـ من أجل هذا خطتنا اليوم. الاختراق من داخل لا من خارج، فقط وقعها يا سيدي.

ـ هاك توقيعي!! قال وهو يسرع إلى القلم يمسكه ويوقع دون حتى أن يناقش الخطة.
كان حسبه أن يتفق مستشار الأمن مع وزير الحرب... جنرالات الجو مع جنرالات البحر.. هؤلاء مع الأعزاء، اللوبي الصهيوني، ثم ملوك النفط وأمرائه، كي يضع توقيعه. حسبه أنهم سيأتون له بصدام موثق الرجلين، مقيد اليدين، تجره عربة خيل في شوارع واشنطن كي يبصم بالعشرة. صدام.. هذا الرأس اليابس يجب أن يكسره... العراق هذا البلد العنيد يجب أن يسحقه.. العالم كله يركع عند قدميه، فلماذا لا يركع صدام وعراقه؟ أوروبا الغربية.. أوروبا الشرقية.. اليابان... أفريقيا... آسيا كلها تركع رافعة الأيدي فلماذا لا يفعل مثلها؟ المعسكر الاشتراكي دمره.. الاتحاد السوفييتي هلهله... وها هو ذا غورباتشوف قاب قوسين أو أدنى من السقوط أرضاً، وبالضربة القاضية، فكيف يقف في وجهه رجل كصدام؟ كيف يصمد بلد كالعراق؟
وأحس امبراطور العالم بحنق العالم كله يغلي في صدره مرجلاً يوشك أن ينفجر.
ـ هذه المرة لا أقبل حجة ولا أرضى ذريعة، صاح بأركان حربه صيحة زجر. يجب أن يتم الاختراق بأسرع وقت!! ولا تنسوا: الغاية تبرر الوسيلة. اكذبوا.. ضللوا... ادفعوا الأموال... اشتروا العملاء، المهم أن يظل العالم معنا... يساندنا إلى أن نخترق العراق ثم ندمره تدميراً كاملاً. في تلك اللحظة توقف وكأنه يود التأكد من أن عبارته الأخيرة مفهومة جيداً. بعدئذٍ تابع: صديقنا شامير مصر على ذلك، إسرائيل هناك، اليهود هنا لا يرضون بأقل من ذلك.
ـ اطمئن يا سيدي، قال سكرو كروفت وهو ينهض: الآن، ينطلق حصان طروادة.
وكان الإغريق قد حاصروا طروادة عشر سنوات كاملات ظلت الحرب فيها سجالاً. مرة يطرد فيها هكتور أخيل بعيداً عن أسوار طروادة، ومرة أخرى يهزم أخيل هيكتور فيلوذ هذا بأسوار طروادة، وهيلين الجميلة في أحضان باريس تتمتع بالحب ولذائذ الغرام. ترى من بعيد أهوال الحرب والسجال إلى أن سئم الإغريق الحصان والطراد وتفتق ذهن عبقريهم أوديسيوس عن حيلة حصان خشبي يتسع جوفه لمئات الفرسان، يتركه الإغريق وراءهم موهمين طروادة بأنهم تخلوا عن حصارها، وأنهم عائدون إلى اليونان.
انطلت الحيلة على طروادة وأدخلت إلى قلبها هناك في ساحة القصر، الحصان الخشبي ليخرج من بطنه رجال أشداء أخذوا الطرواديين على حين غرة وأعملوا فيهم القتل والذبح إلى أن رفعت يديها مستسلمة وارتد عليها المنسحبون من خارج ليدمروها تدميراً غدت بعده أثراً بعد عين.
أوديسيوس في واشنطن وأخيل في العراق. وقع مع ضباط العراق اتفاقية لكن دون أن يستطيع تركيعهم أو تمريغهم بالوحل. في الاتفاقية تعهد من الإغريق بالانسحاب من طروادة والعودة خارج الحدود. شوارتزكوف وافق. أمر جنده بالانسحاب لكن بعد أن ترك حصانه الخشبي على الأرض العراقية وكل أمله أن يعيد التاريخ نفسه فيضرب أخيل فرسان طروادة، يصل إلى رأس الملك فيقطعه وإلى قصر الملك فيحرقه لترفع طروادة يديها مستسلمة، وتركع عند قدمي الإغريق ذليلة صاغرة. انسحب شوارتزكوف بدباباته ، مصفحاته، مدافعه، آلياته خارج حدود العراق لكن بعد أن زرع مدنه وقراه بنادق ورشاشات، رجالاً ومدافع... وزع دولارات وريالات، دنانير ودراهم... وفي لمحة عين خرج الرجال المختفون في بطن الحصان الخشبي شاهرين بنادقهم ورشاشاتهم، مقتحمين البيوت، الساحات، المنازل، معملين بأهليها الذبح، باثين الذعر... حتى سالت الدماء في شوارع البصرة وشبت الحرائق في بيوتها وتناثرت الجثث على أرصفتها وكأن القصف الجوي ما يزال، وكأن بوارج شوارتزكوف لم تعترف بوقف إطلاق النار في الكوت، الديوانية، النجف، كربلاء.. كان ثمة أحصنة خشبية وكلها تعمل ذبحاً وقتلاً.
جمهرة من الرعاع هنا، كوكبة من مثيري الشغب هناك، مسلحون ملثمون، عصابات لا هوية لها وكلها تهاجم المنازل، المواقع، مقرات الحكومة، مخافر الشرطة، فيما تتناثر قصاصات الأوراق والمناشير الداعية كلها إلى الثورة على "الطاغية السفاح.. عدو الشعب صدام".
وكان على صدام أن يرد. كان على العراق أن يستفيد من عبرة طروادة فلا يدع حيلة الحصان الخشبي تنطلي عليه، ولا رجاله يقطعون رأس الملك.
"وحدات الحرس الجمهوري تحركي. قوات الجحفلين الثالث والرابع انطلقي،". جاءت الأوامر من بغداد. سمع عبد المحسن الأوامر فودع هريرة. لم يكن قد مضى عليهما معاً

سوى يومين، مع ذلك كان عليه أن يودعها وينطلق إلى وحدته في الجنوب والغرب ليجدها في طريقها إلى البصرة. كانت المدينة تشتعل ، وكانت الانتفاضة تنفض كل ما بقي في البصرة بعد الخراب الذي حل بها. هجمات على مقرات الحزب، غارات على ثكنات الجيش، نهب للمصارف، سلب للدوائر، فقد كان على الحصان الخشبي أن يقضي على كل أثر للدولة.

ـ اضربوا بيد من حديد، تلقى عبد المحسن أوامر الأعلى لينقلها بدوره إلى الأدنى. يجب القضاء على كل أثر للحصان الخشبي. وانطلقت الدبابات، المصفحات، الجند كالسيل العرم تكتسح في طريقها كل شيء إلى أن وجد محسن نفسه في ساحة أسد بابل....

"آه يالساحة أسد بابل!! كم عبرت بك تتأبط ذراعي فاطمة، وتلتحم بي عاشقاً ومعشوقاً فيركض إلينا المصورون، يلتقطون الصور لنا، ونحن يشد واحدنا الآخر من كتفه، يطوق خاصرته، يقترب بفمه من شحمة أذنه!! آه!! أتذكرين أيامنا الحلوة تلك يا فاطمة؟".

لكن لا فاطمة ولا ساحة أسد بابل كانت تذكر شيئاً، وملء أذنيها الدوي، ملء عينيها الدبابات وهي تهدر منطلقة إلى شارع العشار، جسر سورين، كورنيش الشط، مقام الإمام علي، سوق الهنود... كان عليها أن تطفئ النار التي اشتعلت، تعيد إلى الشوارع الهدوء بعد القلاقل، السكينة بعد الاضطراب. "هي فتنة وصاحب كل فتنة في النار.. اقضوا على الفتنة. القضاء على الفتنة كالجهاد في سبيل الله... و الجهاد باب من أبواب الجنة فاقضوا على الفتنة. القضاء على الفتنة كالجهاد في سبيل الله... والجهاد باب من أبواب الجنة فاقضوا على الفتنة تدخلوا الجنة."ـ كانت مكبرات الصوت تلعلع من ساحة أسد بابل... من فوق السيارات، الشاحنات، الجسور، الأبنية علها تقف في وجه السيل الهادر من قصاصات ورق تلقيها طائرات الأنكلو أمريكان ومناشير تنثرها آلة حربهم في كل مكان من الجنوب.

معارك ضارية نشبت، حرب مدن شبت.... من بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع كانت دبابات عبد المحسن تطارد رجال الحصان الخشبي. أمام المتاريس تقف... على الحواجز تشتعل بنيران القاذفات. لكنها كانت تتقدم."من حسن الحظ، الحصان الخشبي لم يستطع إخفاء دبابات في جوفه.". قال عبد المحسن لنائبه الذي ترفع بدوره إلى رتبة عقيد."هم مجرد رجال بنادق، ورجال البنادق لا يواجهون الدبابات، فأين يذهبون؟".

بعضهم كانوا يذهبون، ينجون من المعركة فيفرون، لكن بعضهم كانوا يسقطون جرحى... ويستسلمون.

ـ سيدي! ثمة ما يلفت النظر في هؤلاء الأسرى، قال ضابط التحقيق للعميد عبد المحسن.

ـ دعني أر بعضهم. رد عبد المحسن وقد أثير اهتمامه. جاء الأسرى فاستغرب عبد المحسن كل الاستغراب. لم تكن أسلحتهم كلاشينكوف أو إربي جي بل ام 16 أمريكية، بنادق إنكليزية، وحتى رشاشات عوزي إسرائيلية. كذلك لم يكونوا غرباء عن المنطقة وحسب بل كانوا يجهلون حتى العربية، وكان التاريخ يعيد نفسه. رجال الحصان الخشبي الغرباء عن طروادة جاؤوا من أثينا، اسبارطة علهم يستعيدون هيلين الجميلة وينتقمون من باريس.

في النجف، كربلاء، مدن الجنوب، قراه كانت الملاحظة أشد، فمثيرو الشغب يحملون الأسلحة الإيرانية، يرتدون الأزياء الإيرانية، ويتكلمون اللغة الإيرانية، وبدا الصراع مثلث الأطراف: انكلو أمريكان، فرس وعرب. كل طرف يقاتل الآخر طامعاً في بسط سيطرته على الجنوب. لم لا والجنوب هيولى لما تتشكل بعد؟ الجند على الحدود يخشون عودة المعتدين ورجال الأمن في الداخل أضعف من أن يواجهوا الشعب والاضطرابات، إذن لماذا لا يستغل الجار ضعف جاره؟ لماذا لا يحاول الانتقام وثمة أحقاد ومحن؟ وهكذا، تحت ستر الظلام والفوضى اندفع رجال عبروا شط العرب إلى الغرب. رجال كانوا قبل ثلاث سنوات فقط قد حاولوا ذلك العبور ثم ردوا على أعقابهم. لكن من يردهم اليوم؟ طائرات بغداد كانت قد دمرت. ما بقي منها كان قد طار هرباً إلى الشرق عسى أن يقف الشرق مع الشرق كما وقف الغرب مع الغرب. لكن الشرق حاقد لم ينسَ حرب السنوات الثماني... لم ينسَ المطامع القديمة "عراق العرب توأم عراق العجم... وعلينا أن نوحد العراقيين في جمهورية إسلامية واحدة عاصمتها طهران". كان الإمام الأعظم قد قال ذات يوم وصار قوله كما لو أنه أنزل في القرآن.

"الفرصة سانحة، إذن لنستغل الفرصة". وانسل فتيان بلحى، رجال بعمائم سوداء، غلمان بأكفان بيضاء، وكانت حرب شوارع... معارك شرسة خاضوا. "الجنوب لنا، أهله شيعة ونحن الأوصياء على الشيعة، فلتذهب إلى الجحيم بغداد ومن في بغداد". لكن دبابات الحرس الجمهوري، جند الحرس الجمهوري، الجحفل الثالث، الجحفل الرابع كلهم كانوا بالمرصاد. "أن نكون أولا نكون، تلك هي المسألة". كان قائد المعركة قد شرح لضباطه وكان ضباطه يدركون أنها مسألة مصير. الهزيمة تعني الموت ولا شيء إلا الموت. ومضت الدبابات في شوارع النجف، كربلاء، الكوت، العمارة، البصرة.... مدن الجنوب وقراه كلها تحصد بمناجل الموت رجالاً متسللين وعملاء منتفضين حتى لم يعد في سماء الجنوب إلا الموت وعلى أرضه إلا الموت.

ـ ثمة خبر سوء يا سيدي، قال جيمس بيكر العائد لتوه من الخليج، فيما امبراطور العالم يعتلي عرشه في البيت الأبيض وعلى رأسه أكاليل الغار.

ـ ماذا؟ لم يدفعوا لك هناك؟ رد الامبراطور وقد تملكه الذعر. وزير خزانته، قبل عشرة أيام، كان قد أنذره. "احتياطينا في تراجع وأرصدة الخزينة في انحسار"، وللتو ارتجف امبراطور العالم هلعاً، ثم أرسل وزير خارجيته إلى الخليج.

ـ بل دفعوا يا سيدي!! هم كرماء... عرب كما تعلم. والعرب شيمتهم الجود والكرم.

ـ أوه!! الحمد لله! قال الامبراطور وهو يتنفس الصعداء. لكن كم!! قل لي كم!! سأل امبراطور العالم بلهفة شديدة هو الذي لا يعنيه غير الأرقام والكمات.

ـ ثلاثون مليار دولار!! رد جيمس بنبرة الانتصار والفخار.

ـ ثلاثون ملياراً!!؟ أحسنت عزيزي جيمس، أحسنت!! لكن كيف وقد اتفقنا أن تطلب عشرين؟

ـ يا سيدي!! يا سيدي، رد العزيز جيمس ضاحكاً، هؤلاء ليسوا مثلنا.

ـ ماذا هم إذن، أيها العزيز الفهلوي؟

ـ مساومون. المساومة في دمهم يا سيدي. حياتهم مساومات، دنياهم صفقات. صفقة نفط... صفقة رقيق أبيض..ـ وفي الصفقات أنت تطلب الكثير وتحصل على القليل. أتدري كم طلبت يا سيدي؟

ـ كم؟

ـ خمسون ملياراً.

ـ خمسون ملياراً!!! يالك من رجل صفقات!! يالك من فهلوي بارع!! وربت امبراطور العالم كتف وزير خارجيته الذي يعرف جيداً كيف يساوم ويصافق مثلما يعرف وزير حربيته كيف يقصف الأطفال والأبرياء، بعدئذٍ تابع: إذن ماهو خبر السوء؟

ـ الإيرانيون في الجنوب، يريدون وضع يدهم عليه!!!

ـ ماذا؟ صاح الكاوبوي مرتداً إلى الوراء وقد جحظت عيناه ذعراً.. أنخرج من دلف صدام إلى مزراب الإمام؟

ـ هي ذي المشكلة الآن. يستغلون الفوضى ليرسخوا أقدامهم هناك، العتبات المقدسة، أماكن العبادة، الحوزات، المقامات كلها تستغل للدعاية وكسب الأنصار. وفرصتهم قوية يا سيدي!!

ـ أقوى من فرصتنا!؟

ـ يخيل إلي هذا يا سيدي، هم يستغلون الشعور الديني، التعصب الطائفي، فماذا نستغل نحن؟

ـ الأموال... انثروا الأموال.

ـ هذا ما يفعله أصدقاؤنا هناك، الأمير المفدى... الملك المعظم. المشايخ المبجلون كلهم، بسخاء يبذلون، لكن من يرد عليك، إن ثارت ثائرة الدين؟

وشعر امبراطور العالم بإحباط الخيبة.

ـ نبدأ اضطرابات في الجنوب يقطف ثمارها رفسنجاني؟ نصنع انتفاضة تستحوذ عليها طهران؟ لا، لا. هذا خبر سوء حقاً، بل أفظع خبر أسمعه. ينبغي التصرف بسرعة.. ينبغي العمل.

ـ هو ذا السؤال: ما العمل يا سيدي، وأخشى ما أخشاه أن يكون الزمام في الجنوب قد أفلت؟ الأمر برمته قد خرج من أيدينا؟

ـ لا... مستحيل. يجب ألا يخرج من أيدينا. صاح امبراطور العالم مغضباً ثم ضغط على أزرار عدة إلى جانبه، هاتفاً بكل منها على حدة: تشيني، سكرو كروفت، كيسنجر... رئيس الأركان... مدير المخابرات... هلموا إلي... هيا... أسرعوا. وراح يذرع الغرفة نافذ الصبر، متراقص الخطا، متطاير النظرات كأنه على نار.
باقر نفسه في المعسكر وكأنه على جمر النار، يخرج برأسه من الغرفة ـ الملجأ فيلفح وجهه لهب النار. معسكره في حالة عطالة. ما يشبه اليأس يسيطر على الجميع، وهم يرقبون العراق العظيم، ذلك الصرح الذي هدم لبنة لبنة، ليبعثر مزقاً وأشلاء. أبو الليل حزين، نمر، قائد المعسكر، بل القادة الفلسطينيون كلهم حزانى. وقفوا منذ البدء ضد تدمير العراق، رفعوا إصبعهم بالإدانة لكل من يريق دماً في العراق، فغضب الأمير المفدى وثار... أرغى وأزبد، حالفاً بالطلاق من زوجاته الأربع، وكل من في حظيرته من محظيات وجوارٍ أن لا يظل فلسطيني واحد على أرض الكويت، وبدأ نزوح جديد. مئات الآلاف وجدوا أنفسهم في العراء يد من أمام ويد من خلف. تماماً كما وجدوا أنفسهم ذات يوم وعصابات آرغون وشيرن، البالماخ والهاغاناه تطردهم من بيوتهم.... بعيداً... بعيداً خارج الوطن.
ـ كارثة!!! كارثة!!! صاح أبو الليل إثر نشرة لأخبار لندن هو الذي له أخ وأخت في الكويت، أبناء أعمام وأخوال. والكل هناك يدفعون للمقاومة، يزودونها بالوقود، والمقاومة لابد لها من وقود.
ـ هو الشتات يعود من جديد، علق يسار بشيء من لا مبالاته المعهودة.
ـ أجل . تابع نمر بحرقة شديدة، يشتت الفلسطينيون من جديد... بل تشتت الأمة كلها.
ثم بدأ ينشد وكأنما يخاطب كائناً مجسداً أمامه:
يا أنت يا خارطة الفتات
يا أمة الشتات!!
وأطرق باقر إلى الأرض كسيراً... حسيراً. "أجل... هي أمة الشتات. أربعة وعشرين بلداً صار الوطن الواحد بل حتى البلد الصغير نفسه صار مزقاً وفتاتاً. فلسطين، لبنان... العراق... أي بلد عربي ليس بلد المشردين والمشتتين!؟ أي قطر عربي لم يغدُ داراً للتشرد والشتات؟" وشرد بعيداً إلى الجنوب. الجنوب همه... البصرة شغله الشاغل "ماذا ألم بك يا بصرة!؟ كيف أنت يا مسقط الرأس؟" ومضى خارج الغرفة ـ الملجأ. كان الرفاق ما زالوا يتحدثون عن بلوى الفلسطينيين الجديدة، بعضهم يقولون إنهم سيلقون في صحارى الربع الخالي، بعضهم يتحدث عن الدهناء، فلا أرض تستقبلهم والكل يخشونهم لكأنهم الطاعون. نمر وحده كان على يقين أن الأردن سيقبل بهم. "لكن من يقبل بأبناء الجنوب؟ أين يذهب أهل البصرة؟ ماذا سيكون مصيرهم؟". كان باقر يتساءل وهو يسير وحيداً تحت أشجار الصنوبر والسرو حيث يختبئ معسكرهم عن أعين الطيران الإسرائيلي. "ثمة خيارات ثلاثة أحلاها مر يا جنوب!؟ ولمعت في ذهنه فكرة "لماذا الجنوب دائماً يعاني؟ لماذا اللعنة والبلاء ينصبان عليه فقط؟ جنوب لبنان، جنوب العراق، جنوب السودان... جنوب البحر الأبيض المتوسط!! ايه يا جنوب!! خياراتك الثلاثة صعبة كلها، مرة كلها، إن وقعت تحت الاحتلال الأنكلو أمريكاني كانت البلوى، وإن وضع الفرس يدهم عليك كانت الفاجعة. وإن عدت إلى حوزة بغداد...". لكنه توقف فجأة مقلباً الفكر "ماذا إن عدت إلى حوزة بغداد؟ أتدمرك بغداد؟ أتصلب أهلك على عتبات النجف الأشرف؟ أيحرق صدام الأخضر واليابس فيك؟" وبدت الأجوبة كلها بالنفي. ولأول مرة يشعر بما يشبه اليقين أن بغداد حريصة على الجنوب حرصها على نفسها، وأن أهل النجف وكربلاء، العمارة، البصرة، كأهل بغداد والموصل لا فرق بينهم ولا تمييز.
"وصدام!؟ هنا أيضاً توقف "هو قد يسفك دماء، يقتل رجالاً ونساء... لكن كم!! ألف ألفان ثم يعود الجنوب جزءاً من الوطن يسري عليه ما يسري على الوطن.". وبدا لباقر أنه الخيار الوحيد، "لا... لا فرس ولا روم". خاطب شجرة الصنوبر فوقه وكأنما يريد لإبرها أن تنقل رغبته إلى العالم فيخلص الجنوب من استعمار غاشم وأطماع قديمة قدم الأزل تريد أن تستعيد عزها في سواد العراق ورافدي العراق...
"وسوى الروم خلف ظهرك روم.
فعلى أي جانبيك تميل".

وجد نفسه ينشد مخاطباً الجنوب، مخاطباً العراق بل ربما حتى صدام لكن بنبرة تخلو، لأول مرة من الحقد والعداء، فلأول مرة يوقن باقر أن العراق هو المستهدف لا صدام.... وأن الدعاوة الأنكلو أمريكانية تصر على أن تلغي الوطن بحجة الفرد، لكن باقراً يشعر، وهو يسير تحت أشجار الصنوبر، أنه مامن فرد يستطيع أن يلغي الوطن. في البصرة هناك أمه، أخوه، أقرباؤه، جيرانه، وفي العمارة أعمامه، عماته، أخواله، خالاته، وفي بغداد..ـ الله كم له في بغداد من أقارب وأحباء!! أخته فاطمة... أخته رقية..ـ عمته، أبناء عمته... حبيبته جميلة..ـ بل هناك، رئبال، عبد المحسن... "الله يا عبد المحسن!!ـ كم أنا مشوق لأخبارك!! كم أحن إلى أيامنا هناك في العمارة ونحن أطفال يقيمون لنا حفل طهور معاً. يصفوننا نسقاً واحداً يمسكون بنا من خلف. يثبت كل رجل طفله ثم يمر المطهر بموساه الحادة يقطع ويضمد وتنزف دماء وتنطلق زعقات. أتذكر يا عبد المحسن؟ بعد ذاك، أتذكر الهرج والمرج؟ الغناء والرقص؟ كانوا يعمدوننا رجالاً للمستقبل، لكن أين أنت اليوم؟ ما أخبارك؟ كم كنت متحمساً لعروبتك، متمسكاً بقوميتك العربية!!ـ "وحدها عروبتنا رابطتنا، ضمانتنا للمستقبل. وحدها قوميتنا العربية تصنع لنا الوحدة وفي الوحدة وحدها خلاصنا". هكذا كنت تقول يا عبد المحسن، وكنت أخالفك الرأي، ثم ندخل في حوار الطرشان. لماذا كنا طرشاناً يا عبد المحسن؟ لا أنت تسمع ما أقول ولا أنا أسمع ما تقول، بل كل منا يفكر بحجة يدحض بها حجج الآخر، طريقة لإفحام الآخر، لتسجيل انتصار عليه "رباه، احفظ عبد المحسن واكلأه بعين رعايتك،" تمتم باقر رافعاً يديه بالدعاء رافعاً رأسه للسماء، لكن ما إن انتبه لنفسه حتى أطرق خجلاً... كانت المرة الأولى التي يرفع فيها رأسه ويدعو، هو الذي ألغى منذ زمن طويل عادة اللجوء للسماء... كان قد تجاوز كل ماله علاقة بالغيب والسماء، بالقدر والقضاء... ليؤمن بشيء واحد اسمه: العقل. عبد المحسن مثله يؤمن بالعقل، بالعلم، لكن في السياسة كانا على طرفي نقيض. منذ أيام عبد الكريم قاسم، كان الشيخ أبو عبد المحسن قد حدد موقفه "لماذا هذا العنف؟ لماذا القتل والسحل لكل بعثي أو مؤمن بقوميته."ـ وكانت حادثة فظيعة قد حدثت في الموصل. بعثيان خرجا إلى إحدى القرى يشتريان حاجاتهما، فأسواق الموصل مغلقة ومحلاتها لا تقضي حاجة. عرف بهما أحد أنصار الحكم فدعا أصحابه ومضوا بالخناجر والسكاكين يريدون ذبحهما. هرب الرجلان إلى مخفر الشرطة والأمن عله يوفر لهما الأمن، لكن رجال الأمن تخلوا عن مهمتهم أمام هجوم المتطرفين الكاسح... خافوا مواجهة المهاجمين فأسلموهم الرجلين. وانظر بعد ذاك ما حل بهما من ضرب وسحل، تمزيق أعضاء وتشويه أجساد لتمر عليهما مدحلة بعد ذلك تسوي جسديهما بالأرض.

أبو عبد المحسن رفض تلك الفظاعة وعبد المحسن كان على دين أبيه.ـ وهاهو ذا باقر يسير وحيداً، لا يتذكر إلا عبد المحسن، فيما هو على استعداد لأن يبيع نصف عمره كي يعرف ما حل به. هو يحس أن المرء مهما ابتعد عن الوطن يظل الوطن في داخله..ـ مهما انسلخ عن الأهل يظل في قلبه الأهل. أهل باقر في النار. فكيف لا يكون هو نفسه في النار؟

النار دفعته لأن يذهب إلى قائد المعسكر:

ـ عن إذنك!!ـ أود الذهاب إلى بيروت.

ـ إذنك معك!! رد قائد المعسكر الحزين المهموم مثلما باقر حزين مهموم ودون أن يعرف برجيله يسار أو أبو الليل، رحل باقر إلى بيروت.

ـ في أسوأ الأوقات جاءنا عزيز كتابكم!! استقبله همام عند الباب مازحاً، لكن المزحة بدت غليظة فأربد وجه باقر أكثر وانكمش، هاماً بالانصراف.ـ

ـ عفواً... إن جئت في وقت غير مناسب!! لكن قبضة همام أطبقت عليه إطباقة الملزمة ساحبة إياه إلى الداخل.

ـ أنا أمزح معك يا رجل... تفضل!!! ثم مال عليه هامساً، ربما حظي حسن أنك جئت، لدي ضيفان: أم وابنتها، لي الأم ولك البنت. وكاد باقر يعاود الانصراف من جديد، لكن القبضة الممسكة به إمساكة الملزمة دفعته قدماً حتى صار وجهاً لوجه أمام الأمر الواقع. وأمام الأمر الواقع تختلف المواقف وتتغير التصرفات.

كانت الأم في الأربعين حمراء الشعر، حمراء الشفتين، حمراء الوجنتين، على ساعديها نمش، على صدرها نمش، على عنقها نمش، لكن في عينيها الشهلاوين الكثير من الذكاء.

كانت ممرضة في مستشفى، مختصة بالعلاج الفيزيائي. وكان همام قد احتاج ذات يوم لعلاج فيزيائي. عموده الفقري تكلس وليس له من علاج سوى التدليك والتمسيد. في البداية كان يذهب إليها. تدلكه، تمسده، أماً رؤوماً وأختاً حنوناً ثم شيئاً فشيئاً نمت بينهما رابطة وترعرع ود جعلها تأتي إليه في المنزل تدلكه ويدلكها، تمسده ويمسدها، لكن ماذا عن الابنة؟

ـ جاءت أمس من بلغاريا تزورني.

ونظر باقر إلى الفتاة. ربما هي في السادسة عشرة أو السابعة عشرة. هو عمر الورود حقاً. رقة... نضارة... شفافية... ألم يقولوا. الصبا والجمال؟ هما يقترنان معاً واحدهما لا يفارق الآخر. لماذا؟ لأن الورود هكذا ما إن تتفتح حتى تزدهي صباً وجمالاً.

كانت المائدة عامرة بأصناف المأكولات... أصناف المشروبات، وكان الثلاثة قد أبلوا بلاءً حسناً جعل المائدة تبدو أقرب للهزال. صب له همام كأساً، ثم قرعوا الكؤوس كلهم يشربون الوسكي، ما عدا الفتاة تشرب الجن. "لماذا؟ سأشرب بعد اليوم الجن فلابد أنه أروع مذاقاً" لم يكن باقر قد شرب الجن من قبل. كان في العراق يشرب عرق التمر وأحياناً عرق التين وكان يعب الكؤوس حتى الثمالة. لكن في بلاد الشام لا يصنعون عرق التمر وقليلاً ما يصنعون عرق التين، فأحال نفسه إلى عرق العنب. "عرق باليانسون!! الله!! ما أطيب نكهته!! ما أروع مذاقه!!". كان باقر يشرب إذا ما شرب حتى السكر، وكان السكر قد أوقعه في أكثر من ورطة، ذلك ما جعله يجنح إلى الوسكي كلما توفر الوسكي. "هو أ لطف أثراً وأقل خطراً، وما أحوج باقر لأن يظل بعيداً عن الأخطار!!..ـ بعد كأسين خرج همام متذرعاً بحجة من الحجج آخذاً معه الأم. رفع باقر كأسه يداري حرجه وقد ظل وحيداً مع الفتاة. "نخب الصبا والجمال" فرفعت الفتاة كأسها. شرب وشربت، لكن بدا ما بينهما هوة بعيدة لا تجسر. هو في الأربعين وهي في السابعة عشرة زغلولة لما ينبت ريشها بعد، أم لعله نبت؟ تساءل وهو يمسحها بنظرة من طرف العين، رأته فتبسمت ابتسامة من ضياء. ماذا يقول لها؟ هي تعرف قليلاً من الإنكليزية، هو يعرف أقل. في روسيته شيء من بلغاريتها وسألها: اسمك؟ عمرك؟ دراستك؟ لكن... ماذا بعد؟ يتغزل بها؟ ينبوع الغزل لديه كان قد نضب منذ زمن طويل. أيدعوها لممارسة الجنس؟ ما في نفسه رغبة لجنس. أتراها لبانة قطعت أنفاسه تلك الليلة؟ أتراها أحالته إلى رجل يمتلئ قلبه رعباً من أن يتكشف مرة ثانية عن عاجز عنين؟ باقر يتأملها ويفكر. أتراها تنتظر دعوته؟ أتريد أن تفعل ما تفعل أمها؟". "لاحياء في الجنس". هكذا صار شعارهم هناك في أوروبا. لكن هنا... حيث البصرة وبغداد... دمشق وبيروت، ما يزال ثمة حياء في الجنس... ما تزال له خصوصية يصعب على باقر أن يتجاوزها حتى في وكر للجنس.

ـ باقر!! اللعنة عليك!! بادره همام وقد عاد، على محياه سيما الرضا والسرور، ألم تأخذها إلى الفراش بعد؟

ـ لـ... لـ... لم... أشعر برغبة.

ـ تباً لك!! سودت وجهنا مع البنت!! قال همام دون أن ينظر إلى الفتاة.

ـ أنت بيضته مع الأم!! رد باقر ممازحاً وهو يعلم أنها لا تفهم ما يقولون.

ـ لا يكفي. كان عليك أن تعدل كفة الميزان أم نسيت أن الميزان بكفتين؟

ـ لم أنسَ... لكن...

ـ لا تقل لكن يا رجل. هيا.. اذهب الآن قبل أن تعود أمها.

ـ لا... همام!! لا أستطيع!!

ـ منذ متى هذا الزهد يا ربيب عشتار؟

ـ مذ أصبحت ناسك صومعة يا صنو تموز!!

ـ لا... لا. عليك أن تثبت أنك عربي قح. أنت تعلم، شهرة العرب في رجولتهم، كرامتهم في فحولتهم.

ـ لكنني حزين جريح، همام!! وكيف للحزين أن يفرح؟ كيف للجريح أن يمارس الحب؟ رد باقر بنبرة من عتاب وكأنما يذكره بأن هناك جنوباً يشتعل ناراً، أهلاً لا يعرف مصائرهم ووطناً على كف عفريت.. همد همام في الحال، موقد نار سكبت عليه سطل ماء. عادت الأم وقد أعادت شفتيها الحمراوين ووجنتيها الحمراوين، ذكاء عينيها ونمش ساعديها.

ففاجأهما الصمت. كانت الفتاة قد كظمت وهي ترشف الجن، وكان الصديقان يجدفان في بحيرة صمت وقد أدرك كل منهما أن ثمة وجعاً شديداً وجرحاً نازفاً.
جملتان سريعتان تبادلتهما الأم والفتاة، هبت إثرهما الأخرى ملء طولها.
ـ اكسكزي موا، قالت الأم بفرنسية ناعمة معتذرة من همام. علينا أن نذهب.
ولأنه لم يكن يملك حجة لإبقائهما، عذرهما همام مودعاً إياهما إلى الباب.
ـ أرأيت؟ جرحتها!! قال همام، وهو يعود ، بنبرة العتاب الشديد.
ـ أنا جرحتها؟ كيف؟
ـ الفتاة التي لا يغازلها الرجل تعتبر نفسها ناقصة الجاذبية، عديمة الانوثة...ـ وهو أكبر جرح توجهه لامرأة.
ـ أوه!! يا إلهي!! هتف باقر ضارباً صدغيه براحتيه. لم يخطر ببالي شيء كهذا. أرجوك... سامحني... أرجوك. قل لها أن تسامحني، أنا الجريح الذي ينزف دماً... أنا العاجز حتى عن الوقوف على قدميه.
أعلم... أعلم... كم تعاني باقر!! أنا مثلك أعاني وأنا أرى العراق يمزقه الوحش... يريد تقسيمه أشلاء أشلاء.
ـ لكن أتراه يستطيع ؟
ـ تاتشر قالت إن علينا أن ننجز المهمة التي لم ينجزها أسلافنا قبلنا: تقسيم العراق... وما أظنها إلا فاعلة.
ـ يا إلهي!! هذه كارثة إن وقعت!! كارثة!!
ـ أعلم. والكارثة أن الحكام العرب ساكتون، كأنهم لا يعرفون اللعبة ولا يحسون بالخطر.
ـ بل بعضهم يعرف ويشارك، عامداً متعمداً يشارك فيها، وبعضهم يحس بالخطر لكنه لا يبالي.
ـ آه!!! بلوى العرب حكام العرب!! قال همام وهو يتأوه آهته التي يعرفها باقر جيداً.
بعدئذٍ تابع: لكن ربما بلوانا نحن هي الأشد والأدهى، وأشار همام إلى الأعلى والجنوب حيث النجود والصحارى.
ـ أنمشي قليلاً؟ سأله باقر سؤال المترجي. وهو يشعر أن أنفاسه تضيق من واقع عربي بلغ الدرك الأسفل من التردي... من حكام دمى، من أمة رؤوسها لأعدائها.
كان الليل بارداً. المساء جاء بغيمات مسرعات انهمرت مطراً على بيروت ثم انحسرت لضوء قمر شاحب يطل برأسه من وراء القمم. كانت بيروت ما تزال تشكو العتمة وحواجز التفتيش، دوريات الشرطة والجيش. لكن لم يكن ثمة اشتباكات ولا إطلاق نار. كان الهدوء قد بدأ يخيم على بيروت وخيل لهمام أن باقراً مشوق للرقص والغناء.
ـ تذهب إلى أبي جوني؟ سأله متفحصاً مدققاً وقد صارا في أول شارع الحمراء.
ـ لا.. لا حاجة بي لأبي جوني؟ أجابه باقر، وفي نفسه ما يشبه الغثيان من أجواء الرقص والغناء.
ـ وصفصف؟
ـ ولا صفصف أيضاً. حسبي أن أمشي هنا في بيروت، أتسكع على أرصفتها.
ـ لكنها خالية، قال همام وهو يتفحص بعينيه الشارع المقفر. لكن فجأة تسمر في مكانه وقد لفت انتباهه سيارة مسرعة، يزحمهما دويها من خلف. نظر إلى الوراء فهاله أن يرى بندقية تسدد صوبه.
ـ انبطح أرضاً، صرخ بباقر وهو يدفعه نزولاً منبطحاً مستتراً بأول ساتر.أزيز الرصاص مر من فوق رأسيهما... ثقب الجدار قبالتهما، اخترق واجهة محل أو محلين، فيما جلبة السيارة طغت على كل صوت آخر. وحين عاد الهدوء كان باقر ما يزال منبطحاً أرضاً فاغراً فاه وكأنه لم يفهم شيئاً.
ـ هل عادت الحرب إلى بيروت؟ سأل وهو ينهض نافضاً عن ثيابه الوحل والغبار.
ـ بل هي حربنا نحن، رد همام وهو يعاود الإشارة إلى الأعلى والجنوب حيث النجود والصحارى، ساحباً صاحبه جانباً، مسرع الخطا باتجاه أول زقاق جانبي.
ـ تعني يريدون قتلك؟ سأل وهو ما يزال مندهشاً يلهث.
ـ وهل هي المرة الأولى.؟ أعاد السؤال بسؤال وهو يهز رأسه مستغرباً. هذه هي المرة الثالثة التي يحاولون فيها اغتيالي.
ـ لكن لماذا؟ سأل باقر وقد ازداد فغر فم وجحوظ عينين.

ـ لماذا؟ رد همام هازاً رأسه أكثر، كازاً على أسنانه أكثر مشيراً إلى الأعلى والبعيد من جديد. اسألهم هم أصحاب السموّات والجلالات.

***

الفصل السابع

ـ يا صاحب السمو، يؤسفني أن أقول لك إن علينا أن نوقف الانتفاضة!! قال جيمس بيكر وقد وصل لتوه من واشنطن حاملاً رسالة عاجلة من امبراطور العالم.

ـ ماذا؟ انتفض الأمير المفدى بانزعاج شديد، هو الذي تخلى عن خلوته ليلة الخميس كرمى لعيني الساعد الأيمن لامبراطور العالم. بعد كل ما قدمناه من أموال وضحايا نوقف الانتفاضة؟

ـ ليس أمامنا خيار آخر؟

ـ كيف؟ لماذا؟ الانتفاضة ما تزال بخير. رجالنا يعملون هناك، يسيطرون على قرى كثيرة في الجنوب، على مدن....

ـ لا، لا، قاطعه جيمس بيكر وهو يغرس عينيه في عينيه... نحن نقول هذا في الإذاعات والتلفزيونات.

ـ والحقيقة؟

ـ يا سمو الأمير، يا سمو الأمير، رد الساعد الأيمن لامبراطور العالم وفي نبرته شيء من العتب والتقريع.... الحقيقة دائماً شيء آخر....، أما ما نقوله نحن فهو ما يخدم مصالحنا.

ـ صحيح، يا سيدي الوزير، أعلم يا سيدي الوزير. لكن المعلومات كلها تؤكد أن الجنوب يغلي... سكانه شقوا عصا الطاعة على صدام... صوره مزقت... رجال حكومته رجموا...ـ

ـ هذه بعض الحقيقة... جانب واحد منها، لكن ماذا عن الجوانب الأخرى؟

ـ آ... جوانب أخرى؟ لا... لا... الحقيقة، لم أفكر بالجوانب الأخرى.

ـ أما نحن فنفكر. أنت تعلم. نحن دولة عظمى، بل نحن الدولة العظمى الوحيدة في العالم.

ـ تعني... الاتحاد السوفييتي أفل نجمه!؟ ولى إلى غير رجعة.؟

ـ هو في طريقه.. وقريباً، قريباً جداً سيولي كلياً.

ـ وغورباتشوف، الذي يتحدث عن إعادة بنائه؟

ـ لا عليك. غورباتشوف مثلكم أنتم العرب تسمون الأشياء بأضدادها: الملدوغ: سليم، والأعور: ذو كريمة، والنازح: عائد... وهكذا، يمسك بالمعول هادماً صرح الاتحاد السوفييتي ويقول إنه يعيد بناءه.

ـ هذه أجمل بشرى يا سيدي... إذا انهار الاتحاد السوفييتي لك عندي وليمة خراف.

ـ ومالي وللخراف؟ كل ما أستطيع أكله أوقية من لحم.. أنا أحب الذهب...

ـ خذ إذن مائة سبيكة من الذهب!!

ـ هذا، بروميز!؟

ـ برو.. برو... ماذا؟ أنت تعلم... أنا لا أفهم الإنكليزية.

ـ وعد... أقصد هذا وعد؟

ـ بالطبع... لكن عليك أن تتابع خطتنا في الجنوب.

ـ ألم أقل لك لدينا معلومات خطيرة... توجب علينا إيقافها.

ـ يا إلهي!! هتف الأمير المفدى وهو يضرب براحته رأسه. بالأمس فقط كنتم تقولون كل شيء يسير في صالحنا. الجنوب قاب قوسين أو أدنى من الانفصال عن صدام... قوات صدام تكال لها الضربة تلو الأخرى، تتراجع من خندق إلى خندق.

ـ هذا صحيح... كله صحيح في البدء... لكن بعدئذٍ انقلبت الموازين.

ـ انقلبت الموازين؟ كيف؟

ـ ظهر ما لم يكن في الحسبان.

ـ دائماً يظهر لكم مالم يكن في الحسبان. إذن أين مخابراتكم؟ أين جواسيسكم؟..

ـ ماذا؟ قاطعه بنبرة زاجرة، أنت تتطاول أيها الأمير؟ ترى هل نسيت نفسك؟

ـ لا... عفواً، سيدي الوزير. لكنني ملوع. أريدكم فقط أن تتابعوا... بأي شكل أريدكم أن تتابعوا الحملة وأنا على أتم الاستعداد لدفع ما تشاؤون. المهم أن تبعدوا العراق عن حدودي... أن يقوم فاصل بيني وبين حاكم بغداد..ـ فلا يظل بعبعاً يهددني ليل نهار.

ـ ذلك ما نريده ، أيها الأمير، صدقني. لكن... هاهما شهران على قيام الانتفاضة، ولا جدوى. صدام خدعنا... حرسه الجمهوري ما يزال سليماً متماسكاً... قواته الضاربة لا تزال قادرة على المواجهة. هي تضرب الانتفاضة دون رحمة. "جماعتنا" يبادون زرافات ووحداناً.
ـ أنتم السبب. سمحتم له باستخدام الهيلوكبترـ
ـ غلطة، أعترف لك أنها غلطة.
ـ صلحوها.
ـ كيف؟..
ـ ولو سيدي الوزير، ماذا تفعل إذن البوارج، الطائرات، الصواريخ؟..
ـ ووقف إطلاق النار؟...
ـ إلى الجحيم، بوقف إطلاق النار. المهم إبادة قوات صدام... حرسه الجمهوري... طائراته الهيلوكبترـ
ـ ونظام الخميني؟ قاطعه الوزير وهو يكظم غيظه الشديد من عربان لا يستحقون في نظره أكثر من أن يكونوا رعاة أغنام.
ـ ماله نظام الخميني؟.ـ
ـ كيف نبيد قواته وقد تغلغلت في كل مدينة وقرية؟.ـ
ـ إلى هذا الحد بلغ خطره؟..
ـ طبعاً... وهذا ما جئتك من أجله.
ـ لا... كل شيء إلا نظام الخميني، هؤلاء الفرس يرعبونني. من أجل إبعاد خطرهم أعطيت الكثير لصدام. مليارات الدولارات أعطيته، سيدي الوزير.
ـ أعلم... أعلم، قال وهو يهز رأسه بحركة اللوم والعتب. وهذا أكبر خطأ ارتكبتهـ
ـ مكره أخاك لا بطل سيدي الوزير. كانوا يطرحون شعار تصدير الثورة. الخميني لا يريد وضع يده على العراق وحسب، بل على الكويت... الخليج كله... ولم يكن أمامنا غير صدام يقف في وجهه.
ـ المشكلة نفسها تعود اليوم.
ـ لم أفهم سيدي الوزير. اشرح لي.
ـ يا سمو الأميرـ حين بعثنا الناس إلى الجنوب للقيام بالتمرد كنا وحدنا في الساح وكان الناس يميلون إلينا... هم يكرهونه كما تعلم... يريدون التخلص من ديكتاتوريته كما تعلم، لكن ما إن مضت أيام حتى ظهرت قوة ثالثة: رجال الخميني في كل مكان، دعاة الثورة الإسلامية ينشطون... يخطبون في الجوامع... يحرضون الناس. في البدء، لم نحرك ساكناً. قلنا "هذا كله سيساعدنا... التحريض، الإثارة كلها تصب في النهاية في نهرنا إلى أن يفيض فيكتسح صداماً وقوات صدام.
ـ حسن... ثم ماذا؟... سأل الأمير المعظم وقد توقف محدثه ربما كي يلتقط أنفاسه.
ـ ماذا؟ نظام الخميني عاد إلى فكرته الأولى: تصدير الثورة... الامتداد نحو الغرب.
ـ اللعنة!! هذا ما كنا نخشاه!!
ـ وهذا ما بتنا الآن نخشاه. الجنوب مفتوح أمامه. فوضى واضطرابات، فماذا أن ضمه نظام الخميني؟ ماذا إن وصلت قواته إلى حدودك.؟.
ـ لا، هي كارثة حقاً. خميني وثورة؟ فرس وشيعة؟.. لا... لا... يجب إبعاد الخطر.
ـ ولعلمك لن يتوقفـ الخطر عند هذا الحد. قال وزير الخارجية البارع في النقاش والإقناع. معلومات (السي آي اي) عندنا تقول إن مطامع الفرس أبعد من الكويت بكثيرـ
ـ أين؟ يريدون الحجاز؟ مكة والمدينة؟
ـ ربما، لكن المؤكد الآن أنهم يريدون التوسع عبر سورية فالجنوب اللبناني. وبذلك يصبحون على حدود إسرائيل.
ـ يا ساتر!! إذن هو خطر شديد!!...
ـ أصدقاؤنا في تل أبيب يرتجفون رعباً "كل شيء ما عدا الإسلاميين.... كل شيء ما عدا نظام الخميني"ـ لهذا لابد من إيقاف الانتفاضة.
ـ ونترك صداماً وشأنه؟
ـ لا، بل نأتيه من مكان آخر؟
ـ مكان آخر؟ أي مكان؟

ـ هي لعبة قط وفأر. يهرب الفأر من جهة فيأتي القط من جهة ثانية. لكن كن على ثقة. لن يدع القط الفأر حتى يلتهمه وجبة شهية.
مع آخر كلمة، مسد الأمير المعظم كرشه الصغير حانياً رأسه اطمئناناً وراحة، ذاكراً أن عليه أن يدعو ضيفه لتناول العشاء حين هناك وجبة شهية أيضاً. فيها كل ما تشتهي النفس: من طعام وشراب... رقص وغناء... غلمان ونساء.
في الأيام التالية بدا الجنوب وكأن عصا سحرية تمر عليه فتنطفئ نار، ويسكت رصاص، تغمد خناجرهم ويسود هدوء.
ـ البشرى لكم!! هتف رئبال فرحاً وهو يدخل منزله، فتستقبله رقية، أمها، الأولاد الثلاثة، ثم فاطمة وابنتها الصغيرة وقد ارتسمت على وجوههم جميعاً علائم الاستغراب والفضول.
ـ بشرى!! أظلت في العالم بشرى؟ ردت أم فاطمة يائسة النبرة.
ـ أجل، بشرى خير عميم يا عمة!!
ـ ماهي؟ قل لي. أسرع. حثته رقية وقد اشتعلت فضولاً.
ـ تلاشت عاصفة التمرد كما تلاشت عاصفة الصحراء.
ـ ماذا؟ سألت النسوة الثلاث وكأنهن لم يفهمن.
ـ قضينا على التمرد في الجنوب!! أبدنا المتمردين إبادة تامة!!
ـ معقول؟
ـ حقاً؟
ـ كيف؟ سألته الاختان معاً مثلما سألته الأم التي لم يعد لها أحد في البصرة. لا أهل ولا سكن، فجاءت مع ابنتيها إلى بغداد.
ـ بالتصميم... بالصمود... بالعزيمة... رد رئبال وفي صوته الأجش الصفات الثلاثة. لقد صمم قائدنا وصمد جنودنا وكان شعبنا كله عزيمة، فانتصرنا.
ـ بالروح!! بالدم!! نفديك يا صدام!! هتف المثنى أكبر أولاد رئبال، فتبسم الأب وأسرعت الأم تدفعه:
ـ ماذا؟ هل أنت في مظاهره؟... هيا... هيا... إلى الطعام.
كان طعام الغداء قد أعد، وكانت رقية قد دعت أمها وأختها وهما كل مابقي لها من أسرة وارفة الظلال كانت تقطن ذات يوم حي الخندق في البصرة.
ـ يعني.. استرحنا!؟ قالت أخيراً فاطمة قبل أن تمد يدها للطعام، لا حرب... لا تمرد.ـ لا عصيان.
ـ بعون الله. لا تمرد، لا عصيان وبعون الله قريباً يظهر محسن.
ـ بشرك الله بالخير يا بني!! تدخلت الأم وهي تنظر إلى ابنتها بعين كلها رثاء. وإشفاق. الا ترى فاطمة؟ تكاد تيبس لغيابه عوداً من حطب.
ـ أماه! احتجت فاطمة.
ـ لا تقولي أماه!! قاطعتها الأم على عجل: شهران لم تره عيناك فيهما. أي والله!!! والله!! أنا نفسي أكاد أطق عليه قهراً.
ـ كلنا نكاد نطق عليه، أكد رئبال وهو يكاد ينتهي من مضغ اللقمة، لكن شوقاً لا قهراً. ونظر إلى فاطمة، مبتسماً، هو الذي كان يمازحها عامداً متعمداً عله يخفف من شعورها بالحزن.
ـ مسكين!! حظه سيء أن جاءت خدمته في الحرس الجمهوري... هو الذي لا يرتاح ولا يدع أحداً يرتاح، علقت رقية بإشفاق يماثل إشفاق الأم وهي تنظر إلى فاطمة التي يبست عوداً من حطب.
ـ لا، لا يذهب خيالك إلى تلك الأشياء!! ردت فاطمة بغير مزاح. في الحرب لا يفكر المرء إلا بسلامة من يحب.
ـ لكنه يشتاق لمن يحب، بكثير من الدعابة تابع رئبال. المرأة تشتاق لزوجها والزوج يشتاق لامرأته... ألم تسمعي بقصة عمر؟
ـ أية قصة؟ سألت هذه المرة رقية.
لكنه لم يجب للتو. كان الجوع قد جعله أميل لملء بطنه. وكان يحب التمَّن كثيراً، خاصة حين يكون من صنع حماته. ملعقة.. ملعقتين وضع في فمه. مضغ بسرعة، وحين توفر له حيز من فراغ أجاب:

ـ يروى أن الخليفة عمر كان يسير في أحد أزقة المدينة ليلاً، فسمع امرأة تنشج مناجية زوجها الغائب مع جيش اليمن. عاد في اليوم التالي فسأل بعض النسوة "كم تتحمل المرأة غياب زوجها عنها؟". "أربعة أشهر وربما ستة؟". أجابت النسوة، وهكذا، في الصباح بعث عمر إلى قادة جيوشه أن يرسلوا جندهم إلى أهلهم كل أربعة أشهر.".
ضحكت رقية ثم قالت:
ـ يالتلك المرأة!! ماذا فعلت نجواها؟
ـ يالعمر!! بادرت فاطمة إلى التعليق، كم كان عادلاً رحيماً يفكر حتى بأصغر الأمور!؟
ـ لكنها ليست أصغر الأمور. احتجت أم فاطمة. حرب داحس والغبراء دامت أربعين عاماً هلك فيها الزرع والضرع، قل الإنجاب وتضاءل النسل حتى غدت عبس ربع عبس وذبيان ربع ذبيان، أتدرون لماذا؟..
لم يسألها أحد لماذا بلسانه، لكنهم جميعاً سألوها بأعينهم فاستأنفت:
ـ لأن الحرب تبعد الرجل عن المرأة؟ والحزن يصنع هوة بينهما لا تجسر. "أجل يا أم!!".
وشرد ذهن فاطمة إلى يوم التقت بمحسن. كان دم عدنان وميس ما يزال طرياً وكان الحزن قد حفر هوة عميقة بينها وبين الفرح، بينها وبين الحب، فيكف يجسر ما بينها وبين محسن؟ كيف يتجاوزان معاً حواجز الحزن والألم؟ ثلاث ليال ظلا معاً لكن دون أن تلتقي شفتاه بشفتيها، دون أن يلتحم اللحم باللحم، دون حتى أن يذوب الجليد. كانت كلما همت بالاقتراب منه تشعر بوجه عدنان يحول بينه وبينها، بكف ميس تفصل بين جسده وجسدها. وظلت تمني النفس "ثمة فرصة، معنا أربعة أيام أخرى". وظلت تحلم "لابد من أن يذوب الجليد". لكن الفرصة ذهبت والجليد لم يذب. قام التمرد في البصرة فاستدعوه على عجل.
ـ كان عليك أن تعوضي ما ضاع. أنحت عليها الأم باللائمة وقد علمت الحقيقة.
ـ وهل الأمر بيدي؟ ردت فاطمة بكثير من الخجل.
ـ الأمر دائماً بيد المرأة.
ـ لكنني لم أستطع. صدقيني، أماه، لم أستطع.
ـ لكن عليك أن تأتي بولد. بأسرع ما تستطيعين عليك أن تعوضي عدنان... ميس... وأكثر من عدنان وميس فيندمل جرحك ويندمل جرحه.
وهزت فاطمة رأسها، كانت تعلم أن الأم على حق. فقدان الولد جرح غائر شديد الإيلام لا يندمل أبداً إلا بمجيء من يعوضه. "أجل. أمي على حق. حين يعود سأبذل المستحيل بغية تعويض عدنان وميس".
لكن عبد المحسن لم يعد. ذهب إلى البصرة يقاتل. بعضهم في العمارة قال "إن هي إلا أيام، يخمد فيها التمرد وينتهي أمره.". لكن التمرد لم يخمد بأيام ولم ينته. ناره لم تقتصر على البصرة، بل انتشرت إلى الشمال والشرق، الجنوب والغرب. وذات يوم وصلت إلى العمارة ذاتها.
كان المساء قد حل، وكانت العمارة ككل العراق بلا كهرباء. شمعات ذابلات كانت تتوزع في غرف الدار، وكانت فاطمة تطعم خولة حين لعلع الرصاص واقتربت صرخات.
ـ ما هذا؟
ـ لطفك يا رب!!
ـ ويلاه!! ويلي!! بدأت النسوة يزعقن وليس من رجل في منزل آلا الوضاح سوى الشيخ المهيب.
ـ هيا إلى المغارة!! أسرعن!! صاح بهن الشيخ وقد أحس بنذر الشر.
ـ هل عادت الحرب؟ سألته فاطمة وهي تمر به مسرعة.
ـ بل هو يأجوج ومأجوج يزحف بجيوشه من الشرق، وباء أصفر لا يبقي ولا يذر.
ـ ولم يكمل الشيخ حتى كان عشرة رجال بلحى وبغير لحى، بعمائم وبغير عمائم، لكن الكل ببنادق ورشاشات يدخلون بوابة الدار.
ـ أين كلب صدام؟ أين محسن عميل السلطة؟ صاح أحدهم وهو يقترب بحربة مشرعة مسددة إلى صدر الشيخ.
ـ محسن ليس كلب صدام وليس عميلاً للسلطة!!
ـ ماذا إذن؟ بعثي يعمل في حرس صدام ومن يعمل في حرس صدام غير الكلاب!؟
رد آخر بلكنة فارسية ميزها الشيخ المجرب للتو.

ـ محسن يدافع عن وطنه... يقاتل الأمريكان، أعداءنا وأعداء الإمام الخميني.
ـ لا تأت على ذكر إمامنا الخميني. أنتم أتباع صدام وأتباع صدام كلهم كفرة... مارقون. قال ثالث وفي عينيه حقد أسود كالقطران. وكظم الشيخ غيظه. موسى بن جعفر الصادق كان يكظم غيظه فسمي بالكاظم.
ـ نريد عبد المحسن... عبد الشيطان. صاح أولهم وهو يلتفت حواليه كأنما يفتش عنه.
ـ عبدالمحسن في البصرة، رد الشيخ المهيب وقد غدا كل همه أن يقطع عليهم الطريق، فلا يفتشون المنزل ولا المغارة. اذهبوا إليه في البصرة.
ـ أرأيت؟ هو يقتل رجالنا هناك، يسحق انتفاضتنا في البصرة. صاح قائدهم بنبرة الانتصار، إذن، لابد من أن يدفع الثمن. أين زوجته؟ أين أولاده؟..
ـ زوجته وأولاده في بغداد. اذهبوا إليهم هناك.
ـ سنذهب، وسيدفعون الثمن. رد ذو اللحية وعيناه تقدحان شرراً لكن قبل ذلك عليك أن تدفع الثمن.
وهزت المغارة التي كانت تختبئ فيها فاطمة... النسوة... الأولاد، رشة رصاص لم يعلمن حينذاك من كانت تستهدف، لكن ما إن خرجن من المغارة، وقد ذهبت الجلبة، حتى تعثرن بالشيخ المهيب، متمدداً ملء طوله على الأرض فيما تحول فمه، جمجمته، صدره، كل جسده إلى ينابيع ثرة للدماء.
طوال الليل ظلت فاطمة تبكي الشيخ المهيب، هو الذي لم يكن أبا عبد المحسن وحسب، بل أباً لها أيضاً، هو العطوف المحب الذي طالما نقدها العيديات طفلة، وضمها بين ذراعيه يافعة، مغدقاً عليها الحنان... مدللاً إياها ملاطفاً، فكيف لا تبكيه؟ طوال الليل ظلت النسوة يبكين ويندبن، ثم ما إن دفن في الصباح، حتى عقدن العزم: بغداد أكثر أمناً وأهون شراً، وأسرعت الأختان بأولادهما وأمهما إلى بغداد.
أراد رئبال أن يقيموا جميعاً في منزل واحد. منزل رقية واسع لكن فاطمة أصرت "لا.. أقيم في منزلي" وأخذت معها الأم تملأ واحدتهما فراغ الأخرى وتحمل على كتفها بعضاً من هموم الأخرى. رئبال واصل، يده طائلة يوفر لهما التموين والغذاء. وما حاجتهما للتموين والغذاء؟ القليل منه يكفي. نساء بلا رجال. أفواه بلا شهية، كسرة خبز تكفي الواحدة بلعة ماء تسد الرمق، وكلهن انتظار. بغداد كلها تنتظر. طوابير المتموِنين تقف بالدور، أرتال الجائعين تنتظر رغيف الخبز... السكر... السمنة... لكن حذار أن تذكر اللحمة. فبغداد لم تعد تعرف اللحوم.
كانت الأسواق قد خلت من كل شيء. تسير في الشوارع فترى دكاكين بلا مواد، متاجر بلا تجارة. أين ذهبت السلع؟ أين اختفت البضائع؟ كان الكثير يتساءلون. لكن كان دائماً هناك من يجيب "الحرب تلتهم كل شيء. لا خضار، لا بقول، لا ثمار، لا حبوب..."، لكأن الأرض نفسها تأبى أن تعطي شيئاً، تنكمش على نفسها وتبخل على الإنسان عقاباً له على قتله لأخيه الإنسان. إذاعة الحكومة تقول شيئاً آخر: "إياكم والجشع!! إياكم والطمع!! بعضكم يحتكرون. بعضكم يستغلون. أثرياء حرب تريدون أن تكونوا. ثراءً فاحشاً تبغون لكن على حساب من؟ الفقير البائس؟ الضعيف المسكين؟ اتقوا الله أيها التجار وحذار!! حذار الاستغلال والاحتكار؟".
لكن الجشع يصم الآذان والطمع يعمي العيون... يعمه صاحبهما سادراً في غيه وكأن أحداً لم يقل شيئاً ولم يحذر. فماذا تفعل حكومة بغداد؟ ثمة في بغداد عيون ترى وآذان تسمع وانطلقت دوريات المكافحة تبحث، تفتش... تكتشف هنا وهناك مستودعات ومخازن. تكتشف مئات الأطنان من الرز والطحين، السكر والشاي... العدس... الذرة... الحمص... وقد خزنت هناك في أعماق المستودعات بانتظار الأسعار التي تجعل من أصحابها أثرياء حرب. ساقت الدوريات المحتكرين إلى قضبان القضاء، حاكمتهم المحاكم على عجل ثم شنقهم الجلادون على عجل. وفي الصباح أفاق الناس ليروا المحتكرين والمستغلين معلقين بأعواد المشانق. في شارع السعدون، حيفا، الخلفاء، أبي نواس، الرشيد، الشورجة، كانت ثمة أعواد ومشانق... عند جسر الرصافة، المعلق، الجمهورية، الشهداء... كانت جثث تتدلى وقد علق على صدورها يافطات: هذا جزاء أعداء الشعب... من يحتكرون لقمة العيش كي يثروا ويجوع الشعب.". فاطمة نفسها رأت الجثة المدلاة من المشنقة وقرأت اليافطة بليغة العبارات ولأول مرة لم تشعر بالشفقة، مشاعرها الإنسانية لم تتحرك، وكأن من تراه معلقاً يتطوح جسده في الهواء مجرد جرذ نتن.

بعد ذلك عادت الأسواق فامتلأت. دكاكين بغداد لم تعد تشكو الخواء. "حملة ناجحة"ـ قال لهم رئبال "أخافت التجار وقضت على الاستغلال والاحتكار". فاطمة لا تشعر بآثار الاستغلال والاحتكار. رئبال قادر على توفير كل ما يحتاجون، لكن الناس من حولها محتاجون. جاراتها يتضورون جوعاً. أطفالهن لا يفتؤون يصرخون طلباً للطعام. فاطمة لا تضن على من حولها بشيء. ما يزيد عن حاجتها تقدمه لهذه الجارة، لتلك... لكن الأفواه من حولها كثيرة وجائعة فماذا تفعل هي أو رئبال؟
تقول لها رقية "مالك وللآخرين؟ تعالي. ابقي هنا. لن ينقصك شيء. فلا عين ترى ولا قلب يوجع". لكن فاطمة لا تغادر منزلها. هي تجيء إلى غداء أو عشاء، لكن سرعان ما تعود إلى المنزل. في كل ركن منه ذكرى، وفي كل مكان طيف... عدنان... ميس... محسن نفسه، فكيف تراها تستطيع ابتعاداً عن طيوف الأحبة وذكريات السعادة؟
ـ أمي!! علينا أن نذهب!! قالت فاطمة وهي تنهض.
ـ أين؟ احتج رئبال، لم تنهيا الغداء بعد.
ـ شكراً رئبال! ألم تقل تمرد الجنوب انتهى؟ إذن، محسن قد يعود في أية لحظة.
تبسمت الأم وضحكت رقية، فيما أطرقت فاطمة وقد فضحت نبرتها ما في أحشائها من شوق للزوج الذي غاب طويلاً.
لم يظهر محسن في اليوم الأول كما لم يظهر في الثاني... بل مر الثالث والرابع دون أن يبين له أثر. فاطمة تنتظر. أذنها على الباب، عينها على الشباك... تتوقع في كل لحظة أن يطل بقامته المديدة، بمنكبيه العريضين، بزنديه القويين فيهصرها بينهما هصراً لا تملك بعده إلا أن تشهق. المرأة انتظار... مذ توزعا، هي والرجل، أدوار العمل وهي تنتظر. هو يذهب لصيد الطرائد وهي تقعد في البيت تربي الأطفال، تطبخ، تجني الخضار والثمار وتنتظرـ تتعلم الصبر وتنتظر. فلماذا فاطمة لا تنتظر؟ الخوف فقط يبلبل أفكارها. هواجس شريرة تمر ببالها فتنتفض "ماذا لو كان قد قتل؟"، لكنها سرعان ما تزيح تلك الهواجس "هو قائد لواء مدرع، عميد أركان حرب، أيقتل ولا يعلم به أ حد؟". وتشعر بشيء من طمأنينة. لكن، الليل طويل وعيناها قلما تغمضان. الأرق رفيقها ومع الأرق تأتي تصورات وتهيؤات. ذات ليلة، كانت تجلس على كرسي في الشرفة. في قلب العتمة كانت تنتظر. خولة نامت. أمها ربما نامت أيضاً. فاطمة لا تعلم. الأم غالباً ما تذهب إلى فراشها باكراً، عادة اعتادتها مذ كان أبو عبد الجبار التنكجي ينام أبكر ويستيقظ أبكر لكي يحافظ على صحته أحسن وأنضر. لكن فاطمة، ماذا يجعلها تنام؟ السهاد بانتظارها فتمضي إلى عتمة الشرفة حيث لا كهرباء ولا ضوء، في الشرفة تترك لذكرياتها العنان... تترك لخيالها العنان. في تلك الليلة كانت قد تركت لهما كليهما العنان، ومع السكينة والعتمة بدت وكأنها تسمع نقرة خفيفة على الباب. "هو ذا محسن".
وبابتسامة خفية ربما تحاذر أن يلحظها أحد، نهضت فاطمة "هو يعلم أنني أنتظره ـ هو نفسه لا يريد أن يوقظ أحداً، فيخلو الجو لنا، خالصاً لنا"، وعلى رؤوس أصابعها سارت إلى الباب. الشمعة الوحيدة المشتعلة تريها الطريق فلا تصطدم بطاولة أو كرسي يفيق على صوته الآخرون ـ هي أيضاً حريصة على أن يأتي فلا يفيق عليه أحد. "الخلوة!! آه!! ما أروع الخلوة بالحبيب!! يأتي فتكونين معه وحيدة بلا عذول ولا شريك، لا حسيب ولا رقيب.". وعلى مهل فتحت الباب لكن لتفاجأ بحركة سريعة على الدرج. كائن ما في قلب العتمة كان يهبط الدرج كأنه الريح ـ ودون أن تشعر زعقت زعقة الخوف، مرتدة إلى الوراء بأسرع من الريح، مغلقة الباب وهي تلهث مقطوعة الأنفاس. في اللحظة التالية كانت أمها تقف إلى جانبها:
ـ ماذا هناك؟ لماذا زعيقك؟
شرحت لها فاطمة الحادثة فعادت الأم تفتح الباب:
ـ ربما هو لص!! قالت وهي تتفحص الدرج يميناً وشمالاً، أعلى وأسفل. ثم تابعت. في العتمة يكثر اللصوص.
ـ لكنه لم يكن رجلاً. لم تواجهني قامة ابن آدم.
ـ هو جني إذن؟ أكان أسود؟ له قرنان؟
ـ لكنه الظلام الدامس... أمي!! وأنا لم أتبين شيئاً.
ـ ماكان عليك أن تفتحي الباب، إذن.
ـ لكنني سمعت نقراً. بأذني هذه سمعت نقراً خفيفاً على الباب.

ـ اللصوص لا ينقرون الأبواب. لا شك أنه جني، وبتمتمة سريعة بسملت الأم وحوقلت ثم أغلقت الباب بسرعة كأنما فجأة داهمها الخوف. بعدئذٍ تابعت: اقرئي المعوذات يا بنيتي ثم نامي. المعوذات وحدها تطرد الأبالسة والجن.
وأحست فاطمة برجفة. ذكريات قديمة عادت إليها للتو حين كانت صبية صغيرة تستمع إلى قصص الجن ويقشعر بدنها. "حقاً!! كيف نسيت الجن!! ربما هو جني يعلم أنني وحيدة، يريد أن يستغل وحدتي.". اشتدت الرجفة في أوصالها فأسرعت تتمتم "بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس.
ـ هلمي!! هيا!! نامي، ودعك من السهر على الشرفة. قالت الأم وهي تدفعها أمامها إلى غرفة النوم حيث كانت خولة غارقة في سبات عميق.
في اليوم السابع فقط، ظهر محسن. فاطمة تمضي القيلولة في غرفتها، الأرق الذي يمنعها من النوم ليلاً يغيب عنها نهاراً. لهذا ما ان تتناول طعام الغداء حتى تمضي إلى مخدعها. حر الصيف كان قد بدأ ولم يكن ثمة مراوح ولا مكيفات. المراوح والمكيفات تعمل بالكهرباء وبغداد بلا كهرباء.
ـ رحم الله أيام البادكير والعاكول. كانت أمها تترحم على أيام زمان. أتذكرين فاطمة؟ وتذكر فاطمة كيف كانوا أيام الحر يتجمعون عند البادكير... تلك الفتحة التي يتركونها في منتصف المنزل، عالية مفتوحة إلى الأعلى والأسفل فيمر الهواء عبرها إلى المنزل بارداً عليلاً. كيف يصبح بارداً عليلاً؟ فاطمة لا تعلم. لكنها كانت تعلم أن البادكير وحده كان ينقذها من حر تموز وآب. لا بل كان ثمة العاكول: الشوك الذي يضعونه على الشبابيك مربوطاً بالخيش والقنب يبللونه بالماء ويفتحون الشبابيك، تمر عبره الأنسام الساخنة اللاهبة فتتحول إلى باردة عليلة.
فاطمة تفتقد البادكير والعاكول. مع ذلك تستمتع بالقيلولة فحاجتها إلى النوم أشد من أن تستطيع لها مقاومة.
قرع محسن الباب قرعاً خفيفاً، لكنه لم ينتظر بل فتحه بمفتاحه ودخل. هناك، كادت خولة تصطدم به وقد أسرعت تفتح الباب، وللتو انحنى عليها فاتحاً لها ذراعيه رافعاً إياها إلى الأعلى حاضناً، ضاماً، لائماً.
ـ خولة!!.. حبيبتي!! هواية، اشتقت لك. استقبلها بلهجته العمارية، لهجة المحب المشوق.
ـ وأنا هواية.. هواية مشتاقة لك بابا. أين أنت؟ لماذا تأخرت؟
ـ أنا في البصرة، ألم تقل لك ماما؟
ـ بلى!! لكن لماذا في البصرة؟ جدتي هنا... إذن ماذا تعمل هناك؟
ـ أقاتل الأبالسة!!
ـ أمي رأت إبليساً ذلك اليوم.
ـ حقاً!! أجاء الأبالسة إلى هنا؟
لكن امرأة عمه وصلت مسرعة، وقد أدركت أن ابنتها لم تعلم بمجيء محسن، هي الغارقة في سبات عميق.
ـ يا هلا... بوليدي! يا هلا بمحسن! وأخذته بالأحضان فيما أخذ محسن رأسها بين يديه يقبله حباً واحتراماً.
ـ أين فاطمة إذن؟... سألها وهو يتلفت يمنة ويسرة. لم يكن خياله قد تصور يوماً أن يدخل المنزل ولا يجد فاطمة عند عتبة الباب تنتظر قدومه.
ـ اذهب إليها، همست الأم باسمة مشيرة باتجاه غرفة النوم، هي هناك نائمة.
لكن في تلك اللحظة، كانت خولة التي انسلت من بين ذراعي أبيها انسلالاً قد وصلت هاتفة:
ـ يما!! يما!!
ولم تكمل خولة، فقد هبت فاطمة ملء طولها وهي على يقين تام أن محسنها قد جاء. كانت تراه في نومها وكان حلماً جميلاً. هو، من آخر ممر من أشجار السدر والبمبر، يلوح لها مسرعاً باتجاهها، وهي تحاول أن تطير إليه فاتحة ذراعيها كما تفتح الدجاجة جناحيها هامة بالطيران. لكن دون أن تستطيع الطيران، صوت خولة وحده أنقذها من شعورها

بالعجز ذاك. فتحت عينيها على سعتهما فرأت خولة تكاد تطير فرحاً، سمعتها تهتف: بابا جاء!! بابا جاء!! لكن قبل أن تطير إليه رأته يدخل. بحركة انسلال وتخفٍ يدخل. وخلفه الأم، مشيرة لخولة غامزة إياها أن تخرج.
بوثبة واحدة وجدت نفسها عند الباب. ذراعاه المفتوحتين تلقتاها، ضمتاها إلى الصدر العامر. ذراعاها شبكتاه من خلف ثم شدتا. الجسد ينشد إلى الجسد، يريد أن يدخل فيه، ينصهر داخله، ليلتحما لحمة وسداة لا يفصل بينهما شيء.
ـ محسن!! حبيبي!! حمداً على سلامتك!! بدأت سلامها.
ـ سلمك الله فاطمة!! رد السلام لكن دون أن يشعر برغبة في الكلام. هي نفسها شعرت أنها عاجزة عن الكلام. شعرت أنه لا حاجة للكلام. حسبها أن تضمه... تشمه.. تلثمه هنا، هناك... تتلقى لثماته على وجنتها هذه، على وجنتها تلك، على عنقها، أذنها، جبينها، أنفها... كل مكان في جسدها يتحرق شوقاً للثمة من شفتيه. كل خلية بحاجة للمسة من يديه. من قال أن الحب هو توق للاتحاد، لتماهي الروح مع الروح، ذوبان الجسد في الجسد؟ فاطمة كلها توق لذلك الاتحاد. ومحسن مرجل من شوق مجنون لذلك الاتحاد. مذ غادرها في العمارة على عجل وهو يعاني ذلك الشوق والتوق. وخزات الندم ظلت تلاحقه كلما تذكر كيف أمضيا أياماً ثلاثة بلياليها دون أن يحققها ذلك الالتحام. حب ولا التحام؟" ذكر وأنثى ولا اتحاد؟ وكان الشوق يمضه... التوق يقض مضجعه.. ما إن يخلو لنفسه حتى يشعر بغليان في جسده، بكل ذرة فيه تتوق لفاطمة، تضج رغبة وشهوة. "هاهي ذي بين يديك، فماذا تفعل، محسن؟".
دون أن يفكر وجد نفسه يدفعها نحو السرير وقد غدا كله موقداً من نار، شحنة عالية من توتر الكهرباء. وهي تندفع معه وكل ما فيها موقد من نار، شحنة عالية من توتر الكهرباء. لكن فجأة تتوقف متمتمة:
ـ خولة !! أمي!!
التفت إلى الوراء وكأنما نسي الأم وخولة. لكن سرعان ما جاء صوت الباب الخارجي وهو يفتح والأم وهي تنادي:
ـ فاطمة، محسن، نحن ذاهبتان نأتي بالماء. وأحست فاطمة بجبل ينزاح عن كاهلها، زافرة زفرة راحة طويلة... قطعتها على عجل يد محسن وهي تتلمس مسرعة، محمومة، عنقها، صدرها، فيما يده الأخرى تخلع ثيابها. أرادت أن توقفه، لكن صوت الباب وهو يطبق جعل إرادتها تتوقف. كان قد غدا كله فما يلتهم، أنفاً يشم، أنامل تتلمس، راحات تتحسس، وكانت قد غدت هي الأخرى مثله فما يلتهم... أسناناً تقضم.. أنفاً يشم، ذراعاً تضم لم تستلق على السرير مستسلمة منفعلة بل كانت نشطة فاعلة، كل مافيها يدفعها لأن تكون صنوه، تمور، تتموج، تتلوى، وكل مافيها يرغب بأن تعود حواء بلا ورقة توت... أن تعيده هو أيضاً آدم بلا ورقة توت ثم يصهرهما توق بلا حدود للتوحد والالتحام.
ـ انتظرتك في الليل فجئتني في النهار؟ غمغمت بصوت أبح قرب أذنه وقد هدأت عاصفة السرير.
ـ أمك ذكية سوّت الليل بالنهار. رد وهو يتلمس كتفها المعجونة بالحنطة والنار.
ـ أمي تريدنا أن نعوض. بدأت ثم توقفت وقد داهمها فجأة شعور بالذنب: أتراها نسيت ولديها؟ عدنان وميس، أين هما، وقد وقفا بينهما ذات مرة حاجزاً من فولاذ لا يحترق؟ أين غاب طيفهما؟ كيف تلاشى الحزن عليهما؟ "الله!! كم ينسى الإنسان!؟.. كم يحمل له الليل والنهار من سلوان!؟".
ـ بيدها حق. يجب أن نأتي بعدنان وميس فنفقأ حصرماً بأعين الأمريكان!؟
ـ أترى ذلك؟
ـ كيف لا، وهم يريدون إبادتنا!؟ أمك على حق، أجل، يجب أن ننجب الكثير... أن نعوض كل من ماتوا، فنظل الشعب الحي الذي لا يموت.
أعجبت الفكرة فاطمة، لكنها هبت منتفضة على السرير وقد تنبهت لعريها.
ـ ارتد ثيابك!! الآن تعودان، قالت وهي ترتدي على عجل.
ـ من أين تأتي بالماء؟ سأل وهو يلبي طلبها لكن دون استعجال.
ـ الصنبور عند المنعطف، قالت فاطمة، ثم مدت يدها إلى ثيابه تبعدها عنه.
ـ لا... لا. هي أوسخ من أن تلبسها. هاك الدشداشة. ولبس الدشداشة عارية على اللحم، فيما أسرعت فاطمة تلملم الثياب الوسخة المبقعة تفوح منها رائحة العرق والتراب

والدم. نظرت إليه. فبدا لها أنها المرة الأولى التي تراه فيها. كان أشعث، أغبر، طويل اللحية وقد بدأ السلق فيها يختلطان باللبن. فيما الشعر متلبد كأنه لم يغسل منذ شهور.
ـ في البصرة ماء، لماذا كل هذا الـ... ولم تكمل فاطمة لكنه أدرك ما تريد قوله، أمسكها من معصمها ثم شدها إليه ضاحكاً غامزاً بعينه إلى البعيد.
ـ ليس لدينا نساء يأتيننا بالماء. لو كنت في البصرة لما رأيت كل هذا الـ... وتوقف هو الآخر ضاحكاً.
فتح الباب فكفكفت محسن ضحكته، فيما أسرعت فاطمة تخرج:
ـ سأجهز لك الحمام.
ـ سأكون لك شاكراً.
كان محسن يشعر أنه أحوج ما يكون إلى عشرة حمامات، الأيام الطويلة التي قضاها في البصرة كانت عذاباً من نوع فريد. الناس الذين كانوا يقاتلونهم لم يكونوا إنكليزاً ولا أمريكان بل هم مثلهم... أبناء جلدتهم. فقط كان هناك من أغراهم بالتمرد، دفع المال، قدم السلاح، عرض المغريات. وكان على محسن أن يواجه أبناء جلدته. رجالاً بشرتهم سمراء، شواربهم سوداء، عيونهم سوداء، ناساً يتكلمون العربية وينطقون بالشهادة، وكان يصعب على محسن أن يقتل عربياً ينطق بالشهادة. مرات كثيرة وجد نفسه يتردد حيث ينبغي أن يقدم، يتراجع حيث ينبغي أن يقتحم. ذات مرة حدد مصدر نيران كان ينصب على رجاله شواظاً من نار وحمماً من موت. أمر ثلاث دبابات بالتقدم من اليمين وثلاثاً بالتقدم من الشمال. أحكم الطوق، لكن قبل أن ترمي دباباته طلقة واحدة صاح بمصدر النيران: "ألقوا السلاح... عليكم الأمان.". لكن زخة من رصاص انصبت عليه وابلاً من مطر لم ينج منه إلا بأعجوبة، فيما انطلق رد فعل الجند دون أمر العميد: ست قذائف من مدافع دباباتهم أحالت المبنى كله إلى كتلة من نيران.
كل ساعة، كان محسن يواجه مشكلة، في كل شارع كان يصطدم بعصابة. في الليل، في النهار كانوا يقاتلون، يطاردون، يطهرون ولم يكن لديهم ساعة واحدة لراحة أو استحمام. مع الأنكلو أمريكان كانوا يعلمون متى تنطلق أسراب الطائرات وكانوا يرصدون حركة الصواريخ لكن كيف يعلمون متى ينطلق العصاة، أو يرصدون كيف يتحرك المتمردون؟ حتى بعد أن جاءت أوامر امبراطور العالم بوقف عمليات الجنوب لم تتوقف حرب العصابات في الجنوب. محسن تفاءل حين سمع أخبار صوت أمريكا. كانت الإشارة واضحة: "أوقفوا الانتفاضة أيها المنتفضون"، لكن الانتفاضة لم تتوقف. خمسة أيام... سبعة.. عشرة أيام... استمرت أعمال العصابات. القتل والذبح، السلب والنهب. نظام الخميني كان له انتفاضة أيضاً وهو لم يكن قد أوقفها بعد. أحلامه بتوسيع جمهوريته الإسلامية بحيث تشمل الجنوب لم تكن قد انهارت بعد.. وهكذا، اشتدت المعارك ضراوة وانتشرت أكثر وأكثر عمليات الذبح والقتل.
روى محسن ذلك كله وقد التم شمل الأسرتين في المساء.
ـ الحمد لله!! قالت رقية متنفسة الصعداء، انتهت المتاعب!! الآن يمكنك أن تستريح.
ـ استريح حين يدعون العراق يستريح، وما أظنهم فاعلين.
ـ لكن لم كل هذا العداء للعراق؟ سألت فاطمة هذه المرة وملء فمها مرارة القهر.
ـ فقط لأنه يقول: لا... لا لنهب ثرواتنا، لا لاستغلالنا.. لا لاستعبادنا.
ـ لكن هذا حرام!! صاحت الأم من زاويتها. متى استعبدوا الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟..
ـ هم المستعمرون يحسبون أنفسهم هكذا، رد هذه المرة رئبال وهو يشعر أن عليه أن يفسر، فوق البشر: عرق أبيض... دم أزرق.. طبقة نبلاء أرفع، لهم الحق في أن يكونوا السادة المسيطرين الآمرين الناهين، أما الآخرون كلهم فعبيد أرقاء، خدم وأتباع.
ـ يريدوننا خدماً وأتباعاً؟ عبيداً أرقاء!؟ سألت رقية بكثير من الامتعاض.
ـ أجل وهذه هي المشكلة!؟ أجاب محسن متحمساً. نستسلم قانعين خانعين أم نقف على أقدامنا أحراراً مستقلين ندفع الشر عن أرضنا وأمتنا؟..
ـ بل ندفع الشر.. نقف أحراراً مستقلين، صاحت رقية بحماسة وانفعال أشد من ذي قبل.
ـ لكن الثمن باهظ، تابعت الأم متنهدة ربما، وهي تتذكر ابنها الذي طمر تحت تراب المنزل هناك في البصرة، عدنان وميس وقد تحولا إلى فحم أ سود في ملجأ الأعظمية، الشيخ المهيب وقد خر صريعاً معفر الوجه بالدم والتراب في العمارة.

ـ ثمن الحرية باهظ دائماً. ثمن الاستقلال غال غال، فكيف نستكثر عليهما أرواحنا ودماءنا؟ تظل الحرية أغلى بكثير من كل ما نقدمه في سبيلها من بذل وتضحيات.
وكادت الأم تسأله "أتدري أنهم قتلوا أباك؟". لكنها لم تكن تريد تعكير صفو المياه. كانت بغداد هادئة، لا قصف، لا انفجارات، وكان الشمل ملتماً، والفرح يرفرف فوقهم بجناحيه، فلماذا تقصهما؟ لكن نظرتها لمحسن كانت تحمل الكثير. فجأة بدا لها أنه يعرف الكثير.
ـ تحسبون أني لا أدري ما حدث لأبي؟ سأل وقد اكفهر وجهه في الحال: لا.... لا... صحيح أنكم لم تخبروني لكنني سمعت.
ـ كيف؟ سألت فاطمة على استحياء وخجل.
ـ مذ سمعت بالاضطرابات هناك، أدركت أن شراً سيصيب أهلي، أرسلت من يأتي بكم إلي في البصرة أو ينقلكم إلى بغداد، لكن كان الأوان قد فات.
ـ ايه!ـ رحم الله أبا عبد المحسن ـ ترحمت الأم زافرة، وربما ذاكرة أخاً آخر لأبي عبد المحسن كان قد قضى نحبه على فراش المرض قبل أربعة عشرة عاماً. كان رجلاً بكل ما في كلمة الرجولة من معنى!!
ـ أجل، رحمة الله عليه، تابعت فاطمة بحرقة جلية، ضحى بنفسه من أجلنا... كان كبش فداء لنا.
ـ عسى أن يكون آخر المصائب!! علقت رقية وكأنما لا تريد أن يصنعوا عوداً على بدء.
ـ كيف والأعداء يحيطون بنا من كل حدب؟ يحاصروننا حصار الموت؟ قال رئبال بحسرة شديدة، هو الذي كان، من خلال موقعه في بغداد، يعرف ما يواجه بغداد ـ
ـ لكن لابد من أن ينتهي هذا الحصار. قالت فاطمة بمزيج من الغضب والاحتجاج. ليس من حق أحد أن يمنع الطعام والشراب عن شعب بكامله... عن نساء، عن أطفال أبرياء ـ
ـ هكذا ترين أنت، رد رئبال، لكن الأعداء الحاقدين يرون شيئاً آخر.
الحصار يضربونه علينا بكل ما لديهم من وسائل، لا يسمحون لطائرة أن تجيء إلى العراق، لا يسمحون لباخرة أن تجيء إلى شواطئ العراق. من البر يحاصروننا. طرق العراق كلها مقطوعة، اتصالاته بالعالم ممنوعة، فأي بلد في العالم عومل معاملة العراق؟ أي شعب عوقب كما يعاقب شعب العراق؟ وساد صمت مطبق، بدا الكل فيه وكأنهم يرزحون تحت كابوس ثقيل يطبق على صدورهم حتى ليمنعهم من التنفس.
ـ لا.... ليست الصورة بهذه السوداوية، رئبال لا تكن متشائماً، رد محسن وكأنما يحاول أن يفتح ثغرة يفر عبرها من وطأة الكابوس.
ـ بودي ذلك. لكن هو ذا واقعنا!!..
ـ لا... لا... أنا مع محسن، هتفت الأم فجأة، الله لا يقطع. صحيح يبلي لكنه يعين وإلا كيف تفسر فتح الأردن لطرقه؟ لموانئه أمامنا؟
ـ الأردن!ـ صحيح..ـ بدأ، لكن رقية تدخلت مقاطعة إياه:
ـ ولا ننسَ، الشعب العربي معنا. إن كانت بعض حكوماته ضدنا، فالشعب العربي كله معنا. من شام إلى يمن، ومن مصر إلى تطوان، الشعب معنا.
ـ الحقيقة، هو ذا عزاؤنا الوحيد، تابع رئبال بشيء من سرور، أن تكون الأمة العربية معنا، يعني أننا على حق... يعني أننا نجسد رغبة هذه الأمة ـ لكن لهذا السبب أنا خائف أكثر.
ـ خائف؟ مم؟ سألته فاطمة وقد سرى إليها شيء من خوفه.
ـ من ويلات جديدة... مؤامرات جديدة. أعداؤنا بالتأكيد لم ولن يلقوا السلاح. الأنكلو أمريكان حاقدون راغبون في الانتقام ولن يشفي غلهم إلا أن ينزلوا بنا أشنع أنواع الانتقام.
ـ حكومتنا واعية، عقب محسن ـ تعرف حقدهم وانتقامهم وتضع في حسبانها دوماً كيف ترد على ذلك الحقد والانتقام.
ـ أجل... أنا واثقة من ذلك، تابعت فاطمة وكأنما أعجبتها فكرة محسن ـ بل هي ساهرة على الشعب... ساهرة على الوطن... لا تنام لها عين. انظر حولك، محسن، ترَ كل شيء يعاد إصلاحه، كل شيء يبنى من جديد.
في الصباح، كان أول ما فكر به محسن هو التجوال في بغداد..ـ رؤية ما آلت إليه مدينته الغالية. ولكم أدهشه أن أعمال الترميم كانت قائمة على قدم وساق. في كل مكان كانوا يرممون المرافق العامة... الطرق... الجسور... المستشفيات... المدارس ـ ورشات العمل كانت قد بدأت مذ توقفت الغارات الجوية ـ الكل يعملون... يريدون إعمار ما

خرب. شبكات المياه كانت قد دمرت، الطرق حفرت وكانت أولوية فائقة قد أعطيت للمياه. دجلة ينبغي أن يعود إلى شوارع بغداد، أزقتها، حاراتها، هو السخي الجواد يمر في قلب بغداد والعطش يقتل أهل بغداد؟ كانت الحكومة قد أفلحت في تزويد بعض الأحياء بالمياه. نجحت في إصلاح قنوات هنا... مد صنابير هناك. وكان بعض السكان قد بدؤوا يشربون بعد أن مضت عليهم أيام لا يجدون فيه نقطة ماء. شبكات الكهرباء كانت أيضاً لها أولوية. عصب الحياة، ذاك الذي تتوقف عليه الحياة، لم يكن ينبغي، أن يظل مقطوعاً. بعضهم كانوا قد جاؤوا بمولدات كهرباء، وكان بإمكانك أن ترى نافذة مضاءة هنا، نافذة مضاءة هناك... لكن بغداد المتلألئة، بغداد التي كانت ذات يوم مصدراً للإشعاع والنور لا يصح إلا أن تعود مصدراً للإشعاع والنور، وكانت الورش تعمل ليل نهار لإعادة الكهرباء. شبكات الهواتف كانت أيضاً ذات أولوية مماثلة. بغداد بغير هواتف أشلاء ممزقة لا يصل بينها شيء. الأخت لا تستطيع الاطمئنان على أختها، الأم لا تستطيع الاتصال بابنها، والكل يفتقدون عنصراً أساسياً من عناصر الحضارة والحياة. كان محسن يتجول وكان يسره أن يرى النشاط والزخم في كل مكان، وفي كل مكان كان يشعر أن ثمّة شعوراً بالتحدي "هم يريدوننا أن نموت، ونحن نريد أن نعيش، فمن ينتصر؟ هم بإرادة الموت أم نحن بإرادة الحياة؟"، وبدت بغداد أشد عزماً ومضاءً من أن تموت.

بغداد قلعة أسود، وفاطمة فيها لبؤة ترفض الاستكانة والموت. كانت أمها قد قالت إن عليها أن تعوض الأولاد الذين ماتوا، وكانت كل خلية في جسدها قد اقتنعت بأن عليها ذلك. المرأة وحدها تصنع الحياة. هي على قناعة تامة بذلك، إذن، المرأة وحدها يمكن أن تهزم الموت، فلماذا لا تهزمه فاطمة؟ ذلك الموت الذي اقتنص فلذتي كبدها، لماذا لا تتحداه وتصنع فلذات جديدة للحياة؟ في الليلة الثانية، باحت بأفكارها لمحسن فثنى عليها ضاحكاً منشداً:

أمة العرب لن تموتي وإني

أتحداك باسمها يا فناء

ـ أنت تضحك؟ لا تأخذ الأمر جداً؟ سألته وقد حارت في جوابه شعراً.

ـ بل هي ذي قناعتي: الحي دائماً خير من الميت، وبإمكان المرأة دائماً أن تصنع الحياة.

ـ المرأة والرجل!! احتجت فاطمة بصوت عال ونظرة عتاب، فماذا تساوي المرأة بغير الرجل؟...

ـ وماذا يساوي الرجل بغير المرأة؟ تابع محسن وقد أعجبته الفكرة.

ـ هما إذن النصفان المتكاملان اللذان لا حياة لواحدهما بغير الآخر.

كانت الحرب قد علمتهما كليهما أن الوجود، الحياة، السعادة، المتعة، كلها أشياء للمشاركة، لا يمكن للإنسان بمفرده أن يعرف طعماً لها، بل لابد له من طرف آخر يقتسمها معه. في الليالي الطويلة، كانت فاطمة تأرق، تأخذها الأفكار وتأتي بها لتخرج بنتيجة واحدة: "حياتي محسن... محسن حياتي. هو وجودي... هو سعادتي... هو متعتي..."ـ أحاسيسها، مشاعرها كلها كانت تتركز على ذلك الوجه الحنطي الذي حرقته الشمس وذينك الشاربين الكثين المسودين. وفي بعض الليالي كان يقض مضجعها الشوق، تود أن تذوب بين ساعديه الأشعرين الأسمرين يهصرها بينهما فتشعر بأنها تتماهى معه. "أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا".

تشعر بأنهما يصبحان روحاً واحدة وبدناً واحداً. في مكان ما سمعت أن الحب هو ذلك التماهي مع الآخر وكانت تود أن يعود محسن إليها ليحققا ذلك التماهي ويصنعا الحياة من جديد.
في الليلة الأولى حققاه سبع مرات، وكان بوده أن يتابع لكن فاطمة رفعت يديها مستسلمة.
ـ قد استنزفتني. لم يعد بي طاقة لاحتمال.
ـ إذن، عائشة بنت طلحة كانت أشد عزيمة ومضاءً منك، رد محسن ضاحكاً.
ـ كيف؟
ـ ليلة تزوجها مصعب بن الزبير، عدت جاريتها سبع عشرة مرة خرج فيها مصعب إلى الحمام يغتسل.
ـ يا إلهي!! لكن هذا كثير!! أهناك رجل يضاجع امرأة سبع عشرة مرة؟
ـ هكذا كان أجدادنا أم تراك لم تسمعي بقصة أعشى همدان؟
ـ وما قصته؟
ـ أسره الأذربيجانيون وحبسه أميرهم. رأته ابنة الأمير فأعجبت به. جاءت به إلى مخدعها فرأت منه ما سحر لبها وطار بصوابها. قالت له: "تتزوجني أطلق سراحك؟". فقال: تطلقين سراحي أتزوجك". وهكذا في الليلة التالية كانا يمتطيان صهوة فرس ويفران، فقال بهما الشاعر:

ويفدي إسار الناس في الحرب مالها
وهمدان تفديها الغداة عيورها

قهقهت فاطمة قهقهة بلغت مسامع أمها في الغرفة القصية. كانت الأم تؤمن أن الحياة يجب أن تستمر، وأن الرجل والمرأة معاً يمكنهما أن يجعلاها تستمر. كانت تحزن على ابنتها وهي تراها تتقلب في فراشها وحيدة... تأرق الليل بطوله... تبكي... تنشج فتدعو ربها أن يأتي لها بمحسن. الأم تعلم أن الرجل وحده يستطيع أن ينسي المرأة أحزانها، أن يخرجها من طين الاكتئاب وصقيع الأسى. شمعته وحدها تنير ظلمتها... دفئه وحده يذيب الثلوج من حولها.
وهاهو ذا دعاؤها يستجاب... هاهي ذي فاطمة تضحك وتقهقه، فكيف لا تتبسم وتطمئن؟ هي تتذكر أبا جبار حين كان يعود إليها آخر الليل والأطفال نيام فيصنع لها جناحين تطير بهما. هي تذكر جيداً كيف كان بالحب تحلق عالياً في السماء. "حقاً الحب متعة المتع... الحب لذة اللذائذ".
محسن وفاطمة يفعلان الحب... يعيشان متعه ولذائذه. في النهار... في الليل... هما المحرومان طويلاً... المتباعدان كثيراً. خمسة أيام بخمس ليالي ظلا... لا يخرج من البيت إلا لكي يعود، ولا ينام إلا لكي يفيق. تلقمه التمر الذي يقطر عسلاً وتسقيه القرفة والزنجبيل ثم يمارسان الحب كي يصنعا الحياة من جديد.
كانت بغداد تدخل طور النقاهة وكان الجنوب يضمد جراحه وكان محسن يستريح استراحة المحارب... وكله إيمان أن عليه أن يرشف كأس الراحة حتى الثمالة. "تودع من حبيبك كل يوم فما تدري الفراق متى يكون؟".
في اليوم السادس كان الفراق. إذ ما إن فتح المذياع على صوت لندن حتى جاءه الخبر: "الشمال يعلن العصيان".
وأسرع عبد المحسن إلى قيادة الحرس الجمهوري ليجدها خلية نحل، وأسراب العاملات يدخلن ويخرجن. كانت المعلومات هيولى من فوضى ومتناقضات. لا شيء مؤكد، لا شيء واضح. لكنها كلها تشير إلى شيء واحد: نسخة الجنوب تنتقل إلى الشمال.

المخطط الذي فشل في البصرة والعمارة، في النجف وكربلاء، يعاد تنفيذه في السليمانية وكركوك... أربيل وزاخو. "قوات الطالباني تحتل الجنوب والشرق. قوات البرازاني تحتل الشمال والغرب". كانت المعلومات الأولية تقول: "كردستان تعلن الاستقلال"، جاءت معلومات أخرى "والأنكلو أمريكان وراءها"، وللتو ساد هرج ومرج في بغداد. مزيج من الغيظ والعتب ساد هناك "الآن برزاني؟ الآن تستل خنجرك وتطعن الظهر؟" لكن البرازاني كان يتعمد ذلك وقد همسوا في أذنه، "الفرصة سانحة الآن وقد لا تسنح بعد ذلك أبداً". للتو وضع يده بيد عدوه اللدود ليصبحا حليفين رغم كل ما بينهما من أحقاد وضغائن. حرك الطالباني قواته في الشرق وحرك البرازاني قواته في الغرب ليلتقيا معاً: جيشاً عرمرماً يتحدى بغداد.
ـ هل لي من مهمة في الشمال، سيدي؟ سأل عبد المحسن قائد الحرس الغارق حتى شحمة أذنيه في تلقي رسائل اللاسلكي والاتصالات الهاتفية.
ـ بل تعود إلى وحدتك في الجنوب.
ـ وهذا الخطر الجديد سيدي؟ قال العميد عبد المحسن وهو يشير إلى الشمال.
ـ لا عليك، تعالجه قوات عسكرية أخرى، أما أنت، الحرس الجمهوري، فلكم مواقع ومهمات أخرى.
وعاد عبد المحسن يودع فاطمة مسرعاً إلى الجنوب، فيما عيناه، قلبه، كبده، كل مافيه يتوجس خشية على الشمال.
***
ـ انتفاضة في الشمال، باقر، هل سمعت؟ بادر يسار صاحبه وهو يدخل الغرفة الملجأ، وكأنه غير قادر على تأجيل الخبر لحظة واحدة.
ـ في الشمال، أم في الجنوب؟ سأل باقر وهو يفرك عينيه بعد نوم القيلولة.
ـ الجنوب!! رد يساراً ملوحاً برأسه، مشيراً بيده، دمره صدام فانتفض الشمال!!.
ـ ياللعنة!! صاح باقر وهو يجلس من استلقاءاته على سريره الانفرادي. الشمال؟ يعني الأكراد!! ا لانفصال!! تقسيم العراق!! راح يردد بكثير من الفزع.
ـ وماله التقسيم؟ ألن...
ـ لا... لا... كل شيء شيء إلا تقسيم العراق. قاطعه باقر بخوف حقيقي.
كان باقر مذ نشبت الحرب، ما يزال في حيرة دائمة، يتعاوره شعوران متناقضان: الخوف على بغداد والتشفي من نظام بغداد. رفاقه كلهم شامتون يتشفون. "هو يستاهل". كانوا جميعاً يقولون في قياداتهم وقواعدهم. وكان ذلك يدغدغ شيئاً ما في نفسه هو الذي فر من بغداد يلاحقه جلاوذة بغداد. آمالنا تتحقق. النظام يتفسخ، هو يتهاوى كبيت من طين أغرقته المياه "قال أبو العز ذات مرة وهو خلف طاولته القيادية. "افرحوا. سينتهي الطاغية من بغداد. سيزول إلى الأبد حكم الديكتاتورية والاستبداد". وشعر باقر بالفرح يومذاك. الاستبداد عقدته. كراهيته للطغيان لا تحد وإيمانه مطلق بأن حاكم بغداد قد ضرب المثل في الطغيان والاستبداد "الجميع في خدمة الواحد الأحد الفرد الصمد". ذلك شعاره وشعار أتباعه "والفرد الصمد في خدمة نفسه فقط. باقر يذكر مذ كان في بغداد كيف كان الناس يتهامسون فيما بينهم "أجل... نحن المواطنين متساوون... لكن في العبودية!!". فيما يسخر مسؤول من مواطن يتكلم عن الحرية "حر، طبعاً أنت حر، بل لك ملء الحرية في أن تفعل ما أريد أنا". أو يقول له لامزاً "بصفتي أنا المسؤول، الآمر الناهي، لي كل الحق في أن أجردك من كل حق". فكيف لا يحلم باقر باقتلاع شأفة الاستبداد؟.
لكن ما إن يسمع بغارة جوية على بغداد أو صواريخ تدك البصرة حتى يقف شعر رأسه وتعتريه قشعريرة "هو ذا العراق يدمر... الوطن يذبح". ولا يملك إلا أن يخاف على أمه في البصرة... على أقربائه في العمارة... أخته... ابن عمه... حبيبته... رفاقه في بغداد. ويشتد الخوف في نفسه ويعظم حتى لينسى حقده على نظام بغداد ورغبته في الانتقام منه. ذات مرة وكان قد نسي ذلك الحقد، استعر بينه وبين أحد الرفاق النقاش إلى حد صرخ معه رفيقه "لا... أنت مدسوس علينا... أنت عميل لصدام". باقر يتذكر ذلك فيتابع مفسراً.
ـ الحقيقة، أنا خائف على الوطن!!
ـ لكن الوطن بين فكي وحش، وعليك أولاً أن تخلصه من بين فكيه.

ـ صحيح، لكن أيهما الوحش: الامبريالية الشرسة التي تنقض على الوطن تريد مسحه عن وجه الأرض أم صدام الذي يدافع عنه؟
حك يسار رأسه دون أن يحير جواباً، هنيهة من الزمن، خرج بعدها كما دخل، وكأنما هزم في المعركة.
أسرع باقر إلى المذياع يفتحه متنقلاً من محطة إلى محطة باحثاً عن أخبار.
ـ انتفاضة الشمال تشق طريقها إلى النصر، أعلن صوت أمريكا بفرح غامر، البرازاني والطالباني يتحالفان لأول مرة ضد صدام. تابع المذياع بنبرة فرحه الغامر، فلم يملك باقر إلا أن يشرد بعيداً.
(كان ذلك قبل اثني عشر عاماً، وكنت ما أزال شاباً يمور حماسة واندفاعاً. سيراً على الأقدام اجتزت الحدود السورية إلى لبنان. هناك تنقلت بين بقاعه وجنوبه.ـ. بيروته وطرابلسه. كانوا يدربوننا على حرب العصابات، وكنت بارعاً في استخدام المسدس والبارودة. طلقتي لا تخيب.ـ. مناورتي لا ترد، فقررت القيادة تسليمي فصيلاً في حرب العصابات في الشمال. كان الحزب قد أعلن الحرب على نظام بغداد، وكانت جبال كردستان هي الأكثر ملاءمة لحرب العصابات طويلة الأمد. غادرنا بيروت إلى سورية مشياً على الأقدام. ثم غادرنا سورية مشياً أيضاً، إلى العراق. هناك، حيث الحدود العراقية التركية أيضاً، مكثنا ننتظر. ولم أكن أدري حينذاك ما كنا ننتظر. لكن لم يمض زمن طويل حتى اندلعت الحرب بين العراق وإيران. وجاءت الأوامر إلى وحدات الجيش العراقي هناك بالانسحاب. انسحبت فأسرعنا بالدخول إلى حيث انسحبت، وللتو أعلنت قيادتنا ببيان طنان رنان عن نصر مؤزر حققناه على الجيش العراقي بعد أن كبدناه الكثير. من الخسائر في الأرواح والمعدات وأرغمناه على الفرار. "هي لعبة بروباغندا"، أفهمونا حين احتججنا على البيان، فنحن لم ندخل معركة ولم نحقق نصراً. لكن اللعبة أعجبتني يومذاك. فالنظام الذي كنت أكره حتى الموت، كان قد دخل حرباً ضروساً... حقق انتصارات في البداية لكنه اضطر للانكفاء في النهاية. وكانت الفرصة متاحة والساحة خالية في الشمال، إذن، لماذا لا نطبق عليه فكي كماشة: إيران من الجنوب ونحن من الشمال؟ كنا نتدرب ليل نهار، وكنا نجوب جبال كردستان من غربيها إلى شرقيها ومن شماليها إلى جنوبيها، جنود صدام مشغولون هناك في الجنوب وطوال سنوات ثلاث لم نشتبك في معركة واحدة معهم، لم نطلق طلقة واحدة على جند بغداد. كنا مجموعة من الفتية المتحمسين لكن دون عقل مخطط واحد. وكنا فصائل من الرفاق لكن دون قيادي عسكري واحد. والحرب فن، مثلما هي علم، لابد لها من أدمغة تفهم ذلك الفن والعلم وتخطط للحرب والضرب... البرازاني قائد مجرب.. لديه قيادة وميليشيا لكنه لم يكن يخوض معارك، وكيف يخوضها وجنود بغداد كلهم في الجنوب؟ كانت الأوامر أن ننسق معهم، ربما، لكي نقاتل معاً حين يحين الأوان. ذات مرة ذهبت إلى معسكره، باعتباري قائد فصيل، علنا نبدأ الهجوم على مخافر الدرك ومراكز الشرطة في البلدات والمدن... أدخلوني إلى إحدى الخيام، ربما بانتظار أن يعود. ربطت بغلي الأعطر "المارشال" الأشهر، إلى إحدى الحلقات وانتظرت.ـ. لكنني رجل يكره الانتظار. قل لي انتظر خمس دقائق تفقع مرارتي خمس مرات. وهكذا جئت ألقي نظرة على ما حولي في المعسكر. رجل عتل... ربعة القامة، أبيض البشرة، أنفه أقنى، شعره فاحم سبط، كان يعبر الساحة، ربما باتجاه خيمة أخرى، رآني فاقترب مني.. رطن بالكردية فلم أفهم ما رطن به. كنت قد تعلمت بضع عشرة كلمة لم تكن تسمح لي بفهم الرجل... هززت رأسي استغراباً، فقال:
ـ عجيب! في أرض الكرد ولا تفهم الكردية؟..ـ
ـ أنا في أرض العراق... ولغتي العربية!!
ـ مرحباً... مرحباً... عراقي ... إذن... من عصاباتنا.... هناك خبيبي!!
لم يعجبني حرف الخاء في كلامه مثيراً في نفسي الريبة فسألت:
ـ أنت!! من، يا صديقي؟..
ـ نحن... إسرائيل..ـ خبيبي. ورغم الإجفالة التي ردتني إلى الوراء قليلاً والقشعريرة التي أمسكت بجلدي من أخمص قدمي حتى قمة رأسي، فقد شعرت بفضول غامر يدفعني لأن أتعرف إلى الرجل العتل... ربعة القامة، أبيض البشرة، أسود الشعر. دعوته إلى خيمتي. وهناك علمت أنه ضابط الارتباط الإسرائيلي في كردستان وأن الكثير من

الأسلحة، المعدات، الأموال التي تأتي إلى البرازاني من تل أبيب هو الذي يأتي بها. "لازم نفتح جبهة تانية على صدام خبيبي... لازم تستقل كردستان عن العراق... تصير بلد لحالها، نتحالف معها ونضرب منها وقت الضرورة العراق". لم أناقشه حينذاك. كنت أحب أن أسمعه فقط وكنت أسأل ويجيب. ربما كان يشعر بالوحدة وكان بحاجة لمن يؤنسه. ربما كان قد شرب عرق التمر حتى فتح مصاريع قلبه، وربما لم يكن يعتبر ما يقوله سراً، فنحن أصدقاء البرازاني وحلفاؤه، وليس على أصدقاء البرازاني وحلفائه سر. يومذاك باح لي بالكثير "لقاءات بين البرازاني وغولدامائير. أموال وأجهزة تأتي من إسرائيل مهندسون ومدربون... معلومات وأخبار كلها تقدم للحليف العظيم: البرازاني.". لكن قبل أن نكمل حديثنا دخل سامي وهو في عجلة من أمره "حاييم!! أين أنت!؟ منذ ساعة وأنا أبحث عنك،" خاطبه بالكردية... بالكاد استطعت التقاط المعنى... لكن ما إن رآني حتى انتقل إلى العبرية. رطن بشيء ثم أسرع به خارج الخيمة، والدهشة تفتح عيني على مصاريعهما. كنت أعرف سامي عبد الرحمن، لكنه تجاهلني. عيناه التقتا بعيني، لكنه تظاهر بعدم معرفتي، ثم تأبط ذراع حاييم ومضى."اللعنة!!". قلت يومذاك مخاطباً سقف الخيمة وأعمدتها. "سامي يهودي يعرف العبرية؟". كنت قد التقيت من قبل بسامي عبد الرحمن وكان ذلك في بغداد. كان مقرباً من قيادات الحزب لكنه كان مشغولاً بهمٍّ واحد: "استقلال كردستان". وكنا حينذاك لا نرى في ذلك ضيراً. نحن نؤمن بحق تقرير المصير... بحق الأقليات في صنع أوطان مستقلة لها، وكان بعض الخصوم يردون علينا: "لماذا إذن لا يعطي الاتحاد السوفييتي أقلياته استقلالها؟ لماذا لا يؤمن بحقهم في تقرير مصيرهم؟". لكننا كنا ندير ظهورنا لأسئلة كتلك باعتبارها أتفه من أن تستحق الجواب."الاتحاد السوفييتي قوي، إذن هو صاحب الحق في كل ما يقوله، هو صاحب الحق في كل ما يفعله، أم تراه الحق ليس القوة بذاتها والقوة ليست الحق بعينه؟".

سامي عبد الرحمن الكردي كنت أعرفه، وكنت أسلم بأن من حقه أن يسعى لاستقلال كردستان... لكن أن يكون يهودياً يتقن العبرية فأمر أثار استغرابي. اسمه اسم مسلم. سلوكه سلوك مسلم. بل سألت عنه بعد ذاك فقيل لي أنه يصلي ويصوم، وها هو ذا يتكشف عن يهودي لا يعلم إلا الله متى جندته الموساد وما هي المهام التي كلفته بها طوال تلك السنين. منذ تلك اللحظة أدركت أن الأمر أخطر بكثير مما يصرح به القادة والزعماء وما يظهر على السطح. قابلت البرازاني حينذاك وكلي شعور بالانقباض، أوصلت له رسالتي والانقباض يمسك بتلابيبي، لهذا السبب، ربما، لم ننسق ولم نهجم على مخافر الدرك ومراكز الشرطة على الإطلاق.

سنة ونصف السنة ظللت بعد ذلك في كردستان. لكن دون أن أفكر بإجراء عملية أو إطلاق طلقة، وحين أصابتني شظية في كتفي حمدت الله في سري. كان عليهم أن يعالجوني وكان أقرب مكان للعلاج سورية. وهكذا غادرت كردستان دون أن أخوض حرب عصابات ودون أن أحرر كردستان).

شعور الانقباض نفسه تملك باقراً وهو يسمع أخبار الشمال. "قوات الباشماركة سيطرت على الداهوك". "الطالباني يكتسح الحدود الشرقية لكردتسان. السليمانية تخضع له. وعادت إلى ذاكرة باقر الحرب العراقية الإيرانية". يوم هجمت جحافل إيران على "حلبجة" يمهد لها الطالباني والباشماركة، وكل ما يهدف له الخميني أن يلفت أنظار صدام إلى الشمال، يسحب قواته إلى هناك فيضربه في الجنوب. يومذاك اتخذ صدام قراره الجنوني: ضرب الجحافل الإيرانية والباشماركة الكردية بغاز الخردل، فأهلك العروق والأعصاب، حرق الأخضر واليابس. "أيفعلها الآن صدام؟ أيضربهم بغاز الخردل؟" كانت الأسئلة تدور في ذهن العالم كله لا في ذهن باقر وحسب، وهو يرى حاكم بغداد يحشر في الزاوية محاصراً من الجنوب، محاصراً من الشمال فكيف لا يستخدم كل ما لديه من أنياب ومخالب؟ امبراطور العالم نفسه يأمل أن يفعل صدام ذلك، فيجد الذريعة الكبرى لإنشاب مخالبه في العراق. لكن صداماً خيب أمل امبراطور العالم، فلم يستخدم سلاحاً كيماوياً ولا حيوياً... لا غاز أعصاب ولا جرائم. بل أرسل فرقتين مدرعتين بكامل عتادهما تجتاحان كردستان. بيكر، سكرو كرفت، شوارتزكوف بل حتى الجنرال باول الأسود كلهم فتحوا عيونهم دهشة واستغراباً "فرقتان مدرعتان من غير الحرس الجمهوري؟ لكن، علمنا أن القوات العسكرية الأخرى دمرت عن بكرة أبيها!!". قال

بعضهم للبعض الآخر، ثم أطرقوا برؤوسهم خجلاً واستحياءً أمام امبراطور العالم وهو يوبخهم على تقارير زائفة كانوا قد قدموها له، معلومات كاذبة كانوا قد رفعوها لسدته الامبراطورية.
ـ سيسحق الباشماركة!! سيدمر حلفاءنا!! صرخ امبراطور العالم بأعوانه وقد احمرت وجنتاه وانتفخت أوداجه وراحت عيناه تقدحان شرراً.
ـ ماذا نفعل يا سيدي؟.. رد وزير خارجيته وهو يفرك يديه الواحدة بالأخرى. بماذا تأمر؟..
ـ أرسلوا القوات... ابعثوا الطيران.ـ اضربوا الصواريخ..ـ ينبغي ألا يعود صدام إلى كردستان.
لكن قوات صدام كانت قد وصلت إلى أربيل، مجنزرات هادرة ودبابات مزمجرة. دب الرعب في قلوب الباشماركة، فشمر مقاتلوها عن سيقانهم ثم أطلقوها للريح. الهرب ثلثا المراجل، وإن صح فهو كلها.
سمع باقر الأخبار فوثب فرحاً، لم يكن يستطيع تفسير فرحه ولم يكن يريد أن يفسره. كان فرحاً وحسب. لكنه لم يبح بذلك ليسار. باح به لأبي الليل، فأبو الليل يشاركه فرحه.ـ
ـ أنا أعلم. هذا ما تريده إسرائيل، قال أبو الليل مفسراً شافياً غل باقر. فصل الشمال عن العراق... تقسيم العراق وإضعافه فلا يشكل بعد ذلك خطراً عليها.
ـ أجل... هو ذاك، قال باقر بفرح أكبر وقد وجد من يفهم ما يدور في أعماقه ثم روى لأبي الليل ما رآه في الشمال: حاييم وسامي عبد الرحمن.ـ لكن سرعان ما عاد إلى التجهم والانقباض حين جاءت الأخبار في اليوم التالي: انزال قوات أنكلو أمريكية في الشمال تقف في وجه صدام وتحمي الأكراد من صدام.".
ـ يا إلهي!! إنه فصل الشمال!! إنه تقسيم العراق!! صرخ باقر ملء صوته حتى خيل إليه أن المعسكر كله ردد صرخته.
بعد ذلك أحس بأنفاسه تنكتم، بالملجأ يضيق عليه، بالدنيا كلها تصبح أضيق من خرم الإبرة، ودون أن يشعر وجد نفسه يترك كل شيء ثم يسرع إلى الطريق، يمتطي أول سيارة ويمضي إلى بيروت.
***

الفصل الثامن

"حمراء" بيروت تعج بالسيارت، تعج بالناس، وكأنما عادت لها أمجادها القديمة، باقر وهمام يتسكعان. يسرهما الزحام، علامة الصحة والعافية لمدينة أ صابها الفالج ذات يوم فقعدت عاجزة عن الحركة، عاجزة عن الكلام سوى حركة الميليشيات وكلام الرصاص. اتفاق الطائف كان قد سار قدماً، صفيت الميليشيات، سحب السلاح، شكل مجلس نيابي، شكلت وزارة وانتخبت رئيس جديد قال يوم القسم أنه سيعيد للبنان أمنه وطمأنينته، استقراره وازدهاره. زحام الناس، زحام السيارات، العجيج، الضجيج، كلها تقول إن الرئيس يحقق ما أقسم عليه وأن لبنان يسير في الطريق الصحيح لاسترداد عافيته. فجأة لعلع صوت الرصاص. طلقة... اثنتان..ـ ثلاث.. وبدأ الناس يفرنقعون. بلمحة عين علت أصوات، اصطكت ركب، اصطدمت أكتاف وبدا موج الزحام يتلاشى.
ـ ادخل...ـ ادخل. صاح باقر بهمام وهو يشده من ذراعه باتجاه "الهورس شو".
ـ بل دعنا نذهب إلى الزقاق الخلفي، رد همام وهو يحاول التملص من باقر. لكن إمساكة باقر كانت أقوى، دفعته نحو "الهورس شو" أشد.
ـ اجلس لحظة. ما أظنها إلا زوبعة عابرة، قال باقر وقد جلسا إلى طاولة في أقصى زاوية. كانت الطلقات قد توقفت وكان أحد الجالسين في المقهى يحدث زميلاً له:
ـ بسيطة... بسيطة، يا عمي!! هيدا فرد، مش كلاشينكوف.
وابتسم باقر. كان يحب اللهجة اللبنانية أيما حب. يحب العقل اللبناني... طريقته في رؤية الأشياء... في التعامل معها. كل شيء لديه بسيط... كل مشكلة لها حل. بسهولة يفصل بين الأشياء. ببساطة يعطي ما لقيصر لقيصر و ما لله لله. حتى في أيام الحرب، كان اللبناني يقاتل في النهار ويذهب لأكل التبولة وشرب العرق في الليل.
يزرع الرصاص في أجساد البشر، القنابل في هياكل البيوت ثم يذهب لممارسة الحب وبناء البيوت وكأنما لا علاقة لهذا بذاك.
ـ الحمد لله أنها بسيطة، قال همام وهو يتلفت حوله متنفساً الصعداء. الحمد لله أنها انتهت على خير!!!...

في الوقت نفسه دخل أحدهم محدثاً صاحبيه الجالسين إلى الطاولة المجاورة وهو يهز رأسه ضاحكاً:
ـ تصوروا، هالابن الملعونة... الشوفور، قال حتى يخفف عجقة الحمرا، قوص بالفرد. وضحك اللبنانيان الآخران.
ـ ومانه غلطان. هاي خفت العجقة!! فيما لوح همام برأسه وآثار الامتعاض والضيق ما تزال تطغى على سيماه.
ـ هو ذا الأثر الباقي، علق باقر. أرأيت؟ لا شيء ينتهي دون أثر باق. حرب لمدة خمس عشرة عاماً، تنتهي بطرفة عين؟ بمجرد قرار؟
أمَّن همام بهزة من رأسه على كلام باقر، ثم عقب زافراً:
ـ لكن أي حظ سيء!! لم يعجب هذا الأثر الباقي أن يظهر إلا الآن.. وهنا!!؟
همام يخشى صوت الرصاص... يخشى العنف. هاجس مخيف يسكنه في أن يكون هذا الرصاص يقصده، كما قصده ذات مرة من قبل. هو، حين فكر بالهرب أول مرة، كان قد وضع نصب عينيه لبنان، واحة الديمقراطية والحرية.. لم يكن يعرفه حينذاك. لكن كان قد قرأ عنه الكثير. برلمان وانتخابات... صحافة وحرية تعبير.. أحزاب وأحزاب معارضة. وانغرس في ذهنه أنه إن غادر صحراءه لن يغادرها إلا إلى تلك الواحة حيث الفيء والماء... الراحة والأمان، علاقته بالعائلة الحاكمة علاقة حقد وانتقام... هو مكتوم الأنفاس، مغلول اليدين والرجلين... لكن جاء يوم لم يعد باستطاعته تحمل أو كتم. انفجر، فجاء الجلاوذة ينزلون به العقاب.
وما أسرع ما ينزلون بالآخرين العقاب!! عبر الصحراء فر. إلى أقرب حدود مضى ثم غدا سندباداً لا يعرف سوى بساط الريح. بلداناً عربية أمَّ... بلداناً أوربية قصد. هناك راح ينشط... يصدر البيانات... يتصل بالمنظمات العالمية المعنية بالدفاع عن الإنسان وحقوق الإنسان. لكن ما إن ساد الواحة بعض من هدوء حتى عاد همام.
باقر يعلم تاريخ همام... يعلم خوفه من الحرب والرصاص: هاجسه المقيم.
ـ لو لم تقم هذه الحرب، قال باقر بصوت خافت وكأنما يكلم نفسه، كيف كانت الآن بيروت.
ـ أجمل مدن العالم، رد همام وهو يزفر من جديد. بل لبنان كله كان أروع واحة في هذه الصحراء العربية المترامية الأطراف.
ـ إذن، كان عليهم أن يحافظوا عليها.
ـ بالعكسن قاطعه همام، كلهم كانوا يحقدون عليها، يريدون تدميرها.
ـ كيف؟ لماذا؟ قال وهو أشد استغراباً وتعجباً.
ـ يا عزيزي! ألم يقل الشاعر: الضد يظهر حسنه الضد؟
ـ بلى، قال.
ـ إذن، وجود نموذج للحرية والديمقراطية يظهر قبح النموذج الآخر: نموذج الديكتاتورية والاستبداد. الناس يقارنون كما تعلم، وبالمقارنة يفهمون. ولكي لا يقارنوا أزل ذلك النموذج يظل العالم العربي كله من نمط واحد، وما أحد أحسن من أحد.
ـ تعلم، همام!؟ أنت عبقري، عرفت بيت القصيد الذي لم أعرفه.
ـ عرفته وحسب، تصور. في بدايات الحرب كنت تلمس لمس اليد كيف كانت القوى العربية كلها تتصارع هنا... كيف غدا لبنان ساحة لقتال كل العرب... لمؤامراتهم.. دسائسهم، بل لعلمك كانت الميليشيات المتصارعة هنا تقاتل نيابة عن الليبي والسعودي، الكويتي والعراقي... وكانت البترو دولار ينفق بلا حساب.
ـ ولماذا؟ عقب باقر وهو يلوح برأسه، للقضاء على واحتنا الوحيدة في هذه الصحراء المرملة البائسة.
ـ مع ذلك، أحب هذه الصحراء المرملة البائسة.
ـ لم لا؟ علق باقر ضاحكاً، قديماً قال عمر: لولا حب الوطن لخرب بلد السوء.

ـ صحيح، الوطن ليس تراباً بل هو بشر... أهل نتعلق بهم... ناس نحبهم. وفجأة بدأ همام يترنم.

إن تتهمي فتهامة وطني
أو تنجدي إن الهوى نجد

باقر يعرف تعلق همام بنجد، بكل ما يذكره بنجد.
ـ عجباً!! علق أخيراً لا تفتأ تردد هذا البيت من القصيدة اليتيمة التي قتلت صاحبها.
ـ كلنا قتلى في وطن يحكمه القتلة والسفاحون.
وطار باقر بأفكاره إلى حاكم بغداد. كم من القصص تروى عنه. "خالفه، وهو في اجتماع القيادة، أحد الرفاق فسحب مسدسه و.... طق.... طق... ليخر الرجل مضرجاً بدمائه". "في أحد السجون اتفق السجناء على إعلان مطالبهم بإعطائهم أبسط حقوقهم الإنسانية، سمع حاكم بغداد بالعصيان فما كان منه إلا أن أمر آمر السجن بإعدام العصاة جميعاً".
ـ صحيح، كلهم قتلة وسفاحون. تمتم أخيراً باقر، فيما تلفت همام يمنة ويسرة ثم مال بخده هامساً قرب أذنه:
ـ إذن ، دعنا نذهب قبل أن ترانا عيونهم.
ـ لكنا طلبنا قهوة. رد باقر وهو يمسك بيد همام مانعاً إياه من النهوض. باقر يعلم كم يكره همام المقاهي... كم يتحاشى الأماكن العامة. هاجسه المخيف يتملكه... فثمة دائماً أعداء وملاحقون... لهذا، كان لايفتأ يتنقل.
يلاعبهم لعبة القط والفأر. يوشكون أن يجدوه فيهرب من جديد. لعبة يتقنها همام جيداً. حتى آثاره يزيلها، ينشر دخان تعمية هنا... شباك تمويه هناك، ويفلت دائماً من عيونهم التي ترصد. يكون في لندن فتظهر مناشيره في برلين. يذهب إلى مدريد فتصدر مقالاته في صحافة باريس. قط وفأر، فكيف يعرض الفأر نفسه لأعين القط في بيروت؟ جاء النادل بفنجاني قهوة فاستكان همام، أشعل باقر سيجارته، فيما كان همام يتفحص من حوله في المقهى. كان الشارع قد عاد إلى زحامه وضجيج سياراته وكان السائق الأرعن قد فر بسيارته بعيداً قبل أن تصل المصفحة المحملة بجند الجيش اللبناني والعلم المطرز بالأرزة اللبنانية. بضع طاولت فقط كانت مشغولة، فالرصاصات الثلاث جعلت الكثير من الرواد يهربون.
ـ الحمد لله!! تمتم همام شبه مرتاح، في "الهورس شو"، لا يوجد أحد من جماعتنا.
ـ لكن يوجد الآخرون كلهم. قال باقر وهو يمسح بنظره الطاولات الأخرى. ا نظر. ذلك الرجل ليبي. تلك المرأة قطرية. هذا يمني. ذاك سوداني. "الهورس شو" لوحة للشتات العربي.
ـ صحيح، لوحة للشتات العربي، رد همام وهو يلوح برأسه حسرة. مذ كان لبنان واحة للحرية والديمقراطية اعتاد الناس أن يؤموه. كل من يلاحقه نظام أو يطارده جهاز أمن يقصد لبنان، هو ملجأ لكل لاجئ ومغيث لكل مستغيث.
ـ أعلم... أعلم. قال باقر ضاحكاً. حين فررت من بغداد، كان أول ما فكرت به هو لبنان. بعدئذٍ توقف ثم أطلق تنهيدةٍ. لو يعود لبنان تلك الواحة؟...
ـ سيعود، أكد همام بنبرة الجزم. المؤامرة على لبنان فشلت. لبنان أثبت أنه بلد الحضارة. مذ وقعوا اتفاق الطائف انتصر لبنان، وانتصرت الحضارة.
ـ لهذا، أحب لبنان.
ـ العرب كلهم يحبونه، يريدونه أن يبقى، بعجره وبجره يريدونه أن يبقى.
ـ لم لا، وكل عربي مهدد في بلده؟ سيف ديموقليس مسلط فوق رأسه؟ انظر هنا... حولك. من كل قطر أغنية. إنه الإعلان الصريح عن أن في كل قطر حاكماً طاغية، وأسوأ تلك الأقطار حظاً، العراق.
ـ تعلم، قال همام بعد لأي، ذات مرة قرأت مقالاً أعجبني، أتدري ما كان عنوانه؟..
ـ ماذا؟
ـ من كان منكم بلا طغيان فليرم صداماً بحجر. قال همام ضاحكاً لكن باقراً لم يدعه يتابع:
ـ لا، كل الحكام إلا صدام، أنا أكرهه هذا الدكتاتور السفاح.
ـ نحن لا نتكلم عن الحب والكراهية.
ـ أعلم... أعلم. عاد باقر يقاطعه من جديد. لكن ديكتاتورية صدام فاقت كل ديكتاتورية.

ـ بل قل شقاق أهل العراق فاق كل شقاق، ألم يخاطبهم صاحبكم قبل أربعة عشر قرناً بقوله: يا أهل العراق!!! يا أهل الشقاق والنفاق!! وكأنما أفحم باقر، لم يحر جواباً. ظن همام أنه أسكته بالضربة القاضية لكن عيني باقر فضحتاه وهو يلاحق امرأة نصف عارية نصف كاسية دخلت مع أحدهم لتجلس قريباً من طاولتهما.
ـ ماذا؟ خلبت لبك المرأة؟ تابع همام ضاحكاً مشيراً بحاجبيه إلى الطاولة الأخرى.
ـ ومن لا تخلب لبه المرأة؟ ثم لا تنسَ. أنا فدائي أعيش حياة المعسكر، وفي المعسكر لا خمرة ولا امرأة.
ـ وماذا يبقيك في المعسكر؟..
ـ أين تريدني أن أذهب؟ رد باقر وقد فاجأه السؤال كأنما لم يخطر بباله من قبل.
ـ إلى أي مكان طالما لم يعد هناك عمل فدائي، وليس هناك عمليات ضد العدو. لم القعود؟..
ـ مرحلة عابرة ما أظنها إلا موشكة على الانتهاء.
ـ وتعودون لقتال الإسرائيليين!؟
ـ بل ولاحتلال قلعة الشقيف وتحرير الجنوب.
ـ كم أنت طيب، باقر!!
ـ طيب!؟..
ـ ماذا تظن إذن، وفي الأجواء رياح تهب؟
لم يسأله باقر عن تلك الرياح إذ لفت نظره دخول ثلاثة من الرجال، وللتو هب على قدميه، مسرعاً لاستقبالهم.
ـ رفيق أبا العز!! مرحباً!! رفيق!
ـ باقر!!! حظنا حسن إن وجدناك، رد أبو العز وهو يسحب يده من اليد التي امتدت لمصافحته.
ـ وهل كنتم تبحثون عني؟
ـ بالطبع. ذهبنا إلى المعسكر، فقالوا إنك في بيروت.
ـ أهلاً بكم. تفضلوا! هنا... هنا.. قال باقر وهو يدعوهم للجلوس إلى طاولته، لكن أبا العز كان حاسماً.
ـ لا، الأفضل هنا، وجلس إلى طاولة في منتصف المقهى.
حار باقر أيجلس معهم أم يعود إلى همام. لكن هماماً لم يدعه طويلاً لحيرته، إذ هبَّ متجهاً إلى باب المقهى ماراً به.
ـ باقرَ دعنا نذهب. همس في أذنه وهو يتفحص بكثير من الريبة الثلاثة القادمين. حيرة أشد داهمت باقراً. "أأذهب مع همام أم أبقى؟". مرة أخرى جاءه الأمر:
ـ بل ابق باقر. كان ذلك صوت أبي العز، وأبو العز قائد يأمر فيطاع، ينهى الناس فينتهي الناس.
ـ اسمح لي. التفت باقر لهمام هامساً. هذا قائد الحزب وهي فرصة أن أراه الآن. اسبقني ألحق بك. وجلس إلى طاولة أبي العز فيما أسرع همام يغادر الهورس شو، وكأنما أفلت من شراك.
بقدر غير قليل من التهيب، تطلع باقر إلى القائد، هالة من الرهبة والاحترام تحيط برأسه. صحيح هي أصغر، لكن ثمة هالة. هناك. في مكتبه تكون الهالة أكبر. ذلك أنك تذهب لرؤيته فلا يدخلونك إلا بعد انتظار، وقبل أن تدخل يوصونك "الأمين العام مشغول. اختصر كلامك ما استطعت... وفر عليه الوقت والجهد ما استطعت.". وكان باقر في كل مرة يزوره يختصر الوقت والجهد. "هذه المرة سأنفرد به،" وانتقل بناظريه إلى الرجلين اللذين معه. هو يعرفهما، مرافقيه الأمينين. كلاهما عتل مفتول العضلات بارز الصدر عنقه كعنق الثور. أبو العز يبدو مقارنة بهما غزالاً بين ثورين. لكن الغزال لم يكن مرتاحاً كثيراً. كان في عينيه قلق، في يديه عصاب، أصابعه تتحرك ناقرة الطاولة وهو يمسح بناظريه المقهى ثم الرصيف فالشارع. فجأة التفت إليه متغلغلاً بناظريه إلى أعماقه، سائلاً بلهجة عراقية خالصة:
ـ ها!! باقر!! شاكو ماكو؟
ـ ماكوالا الخير، رفيق. رد باقر باللهجة نفسها وقد اعتبرها بادرة طيبة وجسر محبة.
ـ أي خير وأنت تدافع عن صدام؟..

ـ آني!؟ أجاب باقر باللهجة ذاتها وقد فاجأه السؤال الذي كان يحمل الكثير من الامتعاض والعداء.
ـ إي، الحكي وصلني باقر. وأنت تعرف، مامن شيء يتخبى.
"آ!!! هكذا إذن!! ثمة عيون لك وجواسيس... ينقلون لك كل ما يدور في الحجرات، الساحات، الشوارع... لكن لم لا؟ قائد مثلك ينبغي أن يحيط علماً بكل ما يدور حوله... بكل ما يتعلق بأعضاء حزبه".
ـ هه!! ما تحكي؟ تابع القائد، فيما بدا المرافقان متحفزين وكأن شرارة كهربائية مست دارتهما.
ـ شحجي؟ والحجي شيفيد، شحجي؟ بدأ باقر الأغنية العراقية المشهورة مازحاً لكن سرعان ما نهره القائد.
ـ أنا ما أمزح. ولد احك، جد.
واستعاد باقر سيماء الجد وقد تحفز كل مافيه من أعصاب.
ـ أكيد..ـ رفيق. الحكي خطأ. أنا أدافع عن صدام!؟ سأل بكثير من القهر والغيظ. أنا من لا يكره مثله في الدنيا أدافع عنه؟
ـ وفرحك لدخول قواته أربيل؟ كلامك عن تقسيم العراق؟ فصل الشمال؟ المؤامرة الامبريالية؟.
"إذن هي ذي المسألة!؟ شوفينيتك تظهر كعين الشمس. تعصبك الأعمى يتجلى"ـ
ـ هه!! ماترد؟" تابع القائد المهيب ببشرته السمراء المائلة للدكنة وشاربيه الكثين الأسودين كشاربي ستالين، لكن لم يجد باقر ما يقوله. كانت المفاجأة كاملة. لقد فرح فعلاً حين دخلت قوات بغداد إلى الشمال.... طردت البشماركة من الجبال... طهرت أربيل من فلول الطالباني والإيرانيين بعد أن عاثوا فيها فساداً فقتلوا كل من وجدوه في طريقهم من شرطة، موظفين، رجال إدارة بوصفهم عملاء مرتزقة لدى صدام، ثم نهبوا المخافر، دوائر الدولة، مؤسساتها باعتبارها كلها ملكاً شخصياً لصدام. لكن من تراه نقل للقائد فرحه ذاك؟ كلامه حينذاك؟
ـ جاوب، آغاتي، قال أحد المرافقين العتلين وهو يميل عليه لاكزاً إياه من خاصرته.
ـ رفيق، أبا العز، رد باقر أخيراً وهو يرى أنه لابد مما ليس منه بد، أنا ما أنكرـ فرحت.
ـ ها، وتعترف أيضاً؟ قاطعه أبو العز. بدلاً من أن تفرح لخلاص شعبنا من براثن ذاك الطاغية الديكتاتور، تفرح لانتصاره. ترى أنت ما تؤمن بحزبك.؟ بفكره؟ بسياسته؟
ـ كيف... رفيق؟ أ نا رحت للشمال، شاركت بحرب العصابات هناك.
ـ زين. رحت للشمال!؟ شاركت بحرب العصابات؟ لويش؟
ـ على شان نحرر العراق كله. ننهي الاستبداد من العراق كله.
ـ صحيحـ لكن قبل كل شيء نحرر شعبنا الكردي المظلوم المضطهد. نعطيه استقلاله... حريتهـ
ـ ونفصل الشمال نقسم العراق؟..
ـ وكيف إذن، يجيء الاستقلال؟ كيف تكون الحرية؟
ـ بالاستقلال الذاتي، رفيق.
ـ والدولة الكردية؟ شعبنا ماله حق يكون له دولة؟ ماله حق يقرر مصيره مثل كل الشعوب؟
ـ بل... له. رد باقر بشيء من تلجلج وهو لا يدري كيف ورط نفسه مع القائد المهيب الذي لم يكن يناقش قط بل يعطي الأوامر ويصدر التعليمات.
ـ إذن، لازم نفرح إنه الآن بدأ يتحرر... يتخلص من الديكتاتورية.
ـ على يد أمريكا؟ وبسلاح أمريكا؟.. وجد باقر نفسه يقول على الرغم منه وعلى الرغم من رؤية نفسه يغرق أكثر وأكثر في حمأة الورطة.
ـ أمريكا..ـ بريطانيا..ـ لا يهم. نحن نتحالف مع الشيطان من أجل غايتنا، نهر القائد محاوره، وقد ازدادت عيناه قدح شرر.
ـ لكن الحزب علمنا: الغاية لا تبرر الوسيلة، رفيق.
ـ الحزب!؟ رد القائد بمسحة من تراجع لكن سرعان ما اندفع قدماً بعد ذلك. ما الحزب؟ أنا الحزب والحزب أنا. ما أقوله ينفذ وما آمر به يطاع. أتفهم؟

وكان حرياً بباقر أن يفهم، فقد علا صوت القائد إلى درجة لفتت أسماع كل من في "الهورس شو". انكمش باقر داخل جلده وقد عادت إلى نفسه رهبة الآمر الناهي ذاك الذي لا يناقش، رغم رفعه لشعار الديمقراطية الشعبية و الحرية، النقد والنقد الذاتي.
ـ ها، مالك؟ لا ترد؟ صاح به من جديد بكثير من النزق.
ـ لكن، رفيق! رد باقر أخيراً شبه منتفض. إن أردت أن تطاع، فاطلب المستطاع.
ـ وما هو المستطاع؟ سأل القائد بنبرة تخالطها السخرية.
ـ كل شيء إلا تحالف الحزب مع الشيطان الأمريكي...
ـ إذن، أنت فوق الحزب؟ قاطعه، لكن دون سخرية هذه المرة.
ـ ومتى كان الحزب مع أمريكا رفيق؟ متى كان مع فصل الشمال؟ تقسيم العراق...
ـ حسبك!! حسبك، قال وهو ينهض فجأة. بعدئذٍ أشار إلى صاحبيه، ثم إلى باقر، لنذهب، نكمل نقاشنا في مكان آخر.
وبدت الحجة مقنعة، فقد عاد "الهورس شو" يعج بالرواد، وكانوا كلهم قد بدؤوا يستمعون للحوار الديمقراطي، خفيف الروح، خفيف الظل!!..
دون أن يتردد، نهض باقر خلف القائد، وخلف القائد سار، يتبعهما المرافقان أن وصلا إلى منعطف كانت سيارة مرسيدس خضراء تربض إلى جانبه. ركبها الأربعة ثم مضوا. العتل يسوق بهم، الآخر إلى جانبه وهما الاثنان في الخلف. القائد صامت صمت بومة ووجومها في أرض عامرة فكر باقر أن يقول شيئاً لكنه لم يجد ما "لقد ثقلت العيار!! خفف اللعب باقر". وأزمع في سره أن يعتذر من القائد لرفع وتماديه في النقاش حين يعودون إلى النقاش، لكنهم لم يعودوا. كانت السيارة قد اتخذت طريق الكورنيش ثم اندفعت سابقة كل سيارة، داحساً في سباقه مع الغبراء. "أهناك من يلطم وجه داحس؟ أهناك من يكبح هذه السرعة؟" وبدأ الخوف يمد إلى صدر باقر... بدأت الريبة تدب في تلافيف دماغه وهو يرى السيارة تنعطف اليسار تاركة كورنيش صيدا متغلغلة في عمق البيارات والبساتين.
-أين نذهب؟ تجرأ أخيراً وسأل القائد.
-هنا... هنا... وصلنا. رد القائد وهو يتلفت حوله فلا يرى سوى الظلمة والأشجار. أشار بيده فتوقف السائق. نزل فنزل باقر. ثم لم يثبت القدم الأخرى على الأرض حتى كان الرجلان العتلان ينقضان عليه، كل من جانب، لينهمر عليه وابل من لكمات.. رفسات... ضربات... بدت أشبه بوابل المطر. باقر لا يتمالك نفسه فيتهاوى قبل أن يتاح له أن يستخدم قبضة واحدة من قبضتي يديه، تينك اللتين تدرب كثيراً في المعسكر لاستخدامهما وعمل كثيراً على تنمية عضلاتهما.. كان كل ما يريده أن يحمي رأسه، وكان كل ما يخشاه أن تطيح إحدى الضربات بعينه أو فكه أو رأسه نفسه فاصلة إياه عن جسده. كلا العتلين كان محمد علي كلاي يلكم خصمه بحقد وقسوة تبلغ حد القتل. تكوم باقر على نفسه، سلحفاة، بغير درع. ود في سره أن يتحول في التو واللحظة إلى سلحفاة، يختبئ تحت الدرع فلا تطوله مخالب الخصم. لكن مخالب الخصم حادة طويلة تنغرس في كتفيه، ظهره.. خاصرته.. رفسات كرفسات البغال تحط على جسده وهو ينكمش على نفسه، يتقلص.. نائياً برأسه... حامياً إياه بيديه لكن إحدى الرفسات تصيب رأسه.. تفك يديه عنه ثم تأتي أخرى، شديدة، قاسية إلى درجة تسلبه الوعي.
حين فتح عينيه كان الليل قد سجا، وكانت النجوم في قبة السماء تتلألأ متراقصة متضاحكة، كأنما تعابثه مستغربة تكومه هناك تحت شجرة برتقال لما تنضج ثمارها بعد. لحظة من الزمن خيل لباقر أن الكون كله غارق في سبات.. سبات شتاء صقيعي طويل. سكون كسكون ما بعد العاصفة يخيم على كل شيء: أغصان الأشجار... سفوح الجبال.. سهول الساحل الممتدة حتى البحر، الطرقات كلها ساكنة، بل حتى جسده ساكن. صدره بالكاد يخرج الأنفاس ويدخلها. "ماذا جرى؟ ما الذي جاء بي هنا؟" كان كل ما بقي في ذهنه أنه في "الهورس شو" يشرب القهوة مع همام ويتحدثان. لكن فجأة لمعت في رأسه ذكرى: أبو العز والعتلان. وسرت رعشة خوف في جسده "أجل. الرفس.. الضرب.. وابل اللكمات. "أتراني تحطمت؟" وفي الحال تلمس رأسه. شيء ساخن بلل راحتيه. ثم لمعة ألم اخترقت صدغه الأيمن، كأنها لمعة البرق، خارجة من الأيسر. نظر إلى أصابعه وقد بسطها أمام عينيه، بريق النجوم لم يكن كافياً لأن يرى شيئاً لكنه أحس. ربما هي رائحة الدم نفذت عبر خيشوميه إلى هناك، حيث التلافيف الدماغية فانبثقت

تمتمة على شفتيه "دم!! إنه دمي" وعبرت جسده رعدة خوف "جريح!! أنا جريح"
بسرعة راح يتلمس وجهه، صدره، بطنه، رجليه، ومع كل لمسة كانت لمعة ألم تنطلق... وجع شديد يتملكه.. كانت في كل مكان كدمة تورم. وفي كل عضو من أعضائه إحساس بأنه متكسر كغصن يابس مرت عليه مجنزرة. "يا إليه!! كلي جروح.. كلي رضوض وكدمات.. ماذا أفعل؟" يمنة ويسرة راح يتلفت. ليس حوله سوى أشجار البرتقال، لا بد أنهم رموه في طرف البيارة. على بعد أمتار كان الطريق يبدو أسود، أملس متلوياً مثل ثعبان. "يجب أن أصل إلى الثعبان"، وهم بالحركة متكئاً على يده اليسرى، لكنه هجمة ألم شديدة في كتفه كفأته إلى الوراء فانكب من جديد على وجهه. تلمس موضع الألم فكاد يصرخ "كتفي محطمة" واتكأ على اليد اليمنى. ثمة ألم أيضاً لكنه محتمل وبدأ الزحف باتجاه الثعبان. رضوض ساقيه، فخذيه، حوضه، ظهره كلها توجعه. لكن الوجع الأشد في البطن حيث الهشاشة والرقة "ربما مزقوا أمعائي، ربما سحقوا الكبد... هشموا الطحال" وراح يتلمس كل موضع من مواضع بطنه، لتنطلق في كل مرة موجة ألم حادة تكاد تغشى لها عيناه.
ضوء سيارة اقترب، فأسرع في زحفه. "يجب أن يروني" لكن السيارة المنطلقة كالنيزك لم تره... كان ثمة سياج، وكان هو ما يزال يزحف سلحفاة فقدت نصف قوائمها. صرخ ملء صوته، بل خيل إليه أن صراخه كان ملء الدنيا لكن السيارة صماء لا تسمع، والنيازك تعبر دون أن تلوي على شيء. سيل من دموع أغرق عينيه ونهر من قهر ملأ جوانب نفسه، مع ذلك تابع الزحف. ساقاه يجرهما جراً، كتفه اليسرى أتون ألم، بطنه، رأسه، ظهره كلها ينابيع ألم تفور لتلقي بزبدها على قلبه ضعفاً وعلى عينيه غشاوة.
الثعبان الأسود الأملس قريب، يلمس جانبه فيتنفس الصعداء. ثم يلقي بنفسه عليه وكأنما استنزف آخر قطرة احتمال وقوة. النجوم، صغارها وكبارها، ما تزال تتلألأ عالية في السماء. بريقها يتراقص متضاحكاً وكأنما يعابثه، ساخراً من تفاهة البشر، من حقد البشر بعضهم على بعض وتعود سيول الدموع إلى عينيه. "ماذا فعلت للقائد العظيم، حتى يفعل بي هذا؟ أي ذنب ارتكبته سوى التعبير عن رأيي؟ أيستحق التعبير عن رأي عقاباً كهذا؟" وكز على شفته السفلى عله يمنع موجة بكاء دهمته. "الرجال لا يبكون. البكاء للنساء فهل أنت امرأة، باقر؟" وأحس باقر براحة الرجولة تصد أمواج النحيب، عائدة به إلى شاطئ التحدي والعنفوان. "سأنتقم منك. لا بد أن أنتقم يا طاغية لا يضاهيه صادم!!" وهن شديد طغى على مفاصله، أطرافه، حتى خيل إليه أنه عاجز عن رفع رأسه عن التراب. "لا... لا تفقد وعيك باقر. تماسك يا رجل. اصمد أو أكلتك الضباع". وأحس باقر بدفقة من قوة تعاوده وقد تذكر الضباع. "حقاً!! ماذا لو جاءت الضباع في هذا الليل فأكلتني. لا، يجب أن أخرج... أن ألوح بيدي... فيراني أحد، يسمعني أحد". لكن لمن تراه يصرخ؟ لمن يلوح؟ والطريق خال... السفح خال... السماء خالية حتى من نيازك تعبرها دون أن تلوي على شيء.
وكما يظهر النيزك فجأة ظهرت سيارة من جديد "يجب أن يروني... أن يسمعوني" وزحف نحو الطريق "سأتمدد في منتصفه فلا يستطيعون إلا أن يروني" لكن خوفاً مفاجئاً دهمه "ماذا لو دهسوني؟" وكبح نفسه. كان قد صار في ثلث الطريق وكانت السيارة مسرعة. لوح بيده... صاح "النجدة... النجدة..." كانت السيارة تقترب مسرعة. "ستدهسني ستدهسني" وبدأ يتراجع إلى الوراء وضوء السيارة في عينيه باهر، مخيف، حوّل السيارة إلى وحش فاتك ينقض عليه ممزقاً قاتلاً. الرعب يخرج من عينيه وهو يرى الضوء الباهر يقترب. عينا الوحش تشتدان وميضاً ويصرخ: "قف... قف." وهو يزحف هارباً إلى الوراء. فجأة يطغى صوت الكابح وهو يزعق زعقة مجنونة على صوت الاستنجاد، ولا تقف السيارة إلا على بعد أمتار منه، فيما لا يفصل قلبه عن التوقف سوى أجزاء من الثانية. بعدئذ حمله رجلان وهو على شفا التلاشي، يابس الشفتين، ناشف الدم، واهن القوى، عاجز حتى عن الكلام.
في غرفة إسعاف، ضمدوا جراحه، غسلوا كدماته، داووا رضوضه، لكن غرفة العمليات وحدها في مستشفى الأوزاعي عالجت خلع الكتف الذي أصابه. هناك فقط كان الجبس وكان جراح العظام قادراً على تثبيت الكتف بجبيرة شدت ما بين الذراع والجذع. لم يشعر باقر بالألم فالمخدر فعل فعله، إذ ما إن حقنته الممرضة حقنة حتى نقلته في الحال إلى بساط ريح راح يطوف به فوق دجلة والفرات، نخيل البصرة وقصب الأهوار.

أفاق باقر فوجد نفسه على سرير كله أبيض بأبيض... في غرفة جدرانها بيضاء، ملائكتها بيضاء. نظر عبر الشباك. السماء نفسها بيضاء وقد امتلأت بالضياء. "ربما كان كابوساً ما رأيته من قبل، ربما كان وهماً. لكن جبيرة الكتف، وخزات الألم، ضمادات الرأس، ضمادات الوجه كلها أكدت له أن الأمر حقيقة لا وهم.. واقع لا كابوس.
-من فعل بك ذلك؟ سأله أحدهم بهيئة محقق.
-عصابة قطعت علي الطريق، رد باقر دون تلكؤ.
بعدئذ سأله أسئلة تهرب باقر منها كلها دون أن يعلم لماذا أو كيف. ذهب المحقق فتساءل باقر وكله تعجب "لماذا لم أقل الحقيقة؟ لماذا لم أفش باسمه وقد أوشك أن يودي بي إلى الهلاك؟" لكن صوتاً آخر في داخله رد "وما الفائدة؟ القائد العظيم يحمل دائماً جوازات سفر مستعارة، ويتخفى خلف شخصيات زائفة لا يستطيع جهاز أمن واحد أن يفعل حيالها شيئاً". "لكن يجب فضحهم" عاد الحوار داخل رأسه "وماذا تفضح؟ تصفيتهم للرفاق... تعذيبهم لهم؟ زجهم لهم في الزنزانات، وكأنهم دولة وسلطة؟ كتمهم للأفواه؟" وكاد الحوار يطول لولا أن دخل ملاك رحمة أبيض البشرة، أبيض الرداء، أبيض القلب، مسح كدماته، غير ضماداته، ثم وضع بين شفتيه حبيبات لم يجد بداً من بلعها باعتبارها الدواء والشفاء.
-هل يمكنني الخروج؟ سأل باقر ملاك الرحمة فتبسم ملاك الرحمة.
-يا ليت!! لكن هل تستطيع؟
لم يفهم باقر السؤال في البداية. كانت طبقة من ضباب تلف دماغه، وكان ثمة ضوء بعيد، ضعيف، أعجز من أن يستطيع النفاذ منها. لكن سرعان ما جاء ضوء اخترق طبقة الضباب حين تابعت: حاول أن تتحرك... أن تنهض.
حاول باقر لكن ليفاجأ: ظهره كالحجر، رجلاه كالحطب وكتفه اليسرى أثقل من رحى طاحون. نظر إلى ملاك الرحمة مستفسراً، فرفت أهداب الملاك ثم تمتمت شفتاه:
-لا تخف. هي ذي آثار الرضوض والكدمات. سبعة أيام ويزول كل شيء، تعود إلى نشاطك وحركتك بإذن الله.
وأطلق باقر زفرة أشد حرقاً من حمم بركان. "إذن أنت متحجر الظهر يا باقر، محطم الأضلاع، مقيد اليدين والرجلين.. أنت عاجز عن كل حراك، محاصر... مقعد... محاصر... مقعد... يا باقر!" ولم يستطع حبس دمعتين طفرتا من بين أجفانه ليراهما ملاك الرحمة وهما تحفران طريقهما بتمهل وتؤدة على وجنتيه.
على وجنتي العراق دموع تحفر طريقها هي الأخرى لكن بسرعة وحرقة، وهو يجد نفسه متحجر الظهر، محطم الأضلاع. مقيد اليدين والرجلين.. عاجزاً عن كل حراك. الكاوبوي يحاصرونه من كل مكان. في الجنوب كاوبوي، في الشمال... في الشرق... في الغرب... كاوبوي مدجج بالسلاح من قبعته المكسيكية حتى جزمته الجلدية، بنادق، مسدسات، قنابل، سكاكين، خناجر، بل هناك حتى قوس ونشاب يرصد كل حركة للعراق، كل نأمة منه ويسدد. تكنولوجيا العالم كله في خدمة الكاوبوي، اختراعاته كلها مسخرة لأغراض الكاوبوي، وأغراض الكاوبوي واضحة.
"قطعوا أوصال العراق" قال الكاوبوي الأعظم لعصابته. وبدؤوا التقطيع. الجنوب راحوا يحزونه بالسكين. نزف دماء كثيرة... أطلق الصرخات لكن حين تبين أن هناك ذئاباً أخرى تنقض معهم على الفريسة أحجموا ليمضوا إلى الشمال. طائرات الكوبرا... الأباتشي، الغزالة، كلها حملت جنداً سوداً وبيضاً مدججين حتى شحمات آذانهم بالسلاح والمال وأنزلتهم هناك في وديان الكرد... في جبالهم. وقادة الكرد فاتحون لهم الأذرع، مستقبلون بالأحضان. "أخيراً جاء المخلص... قام المسيح من قبره ليخلصنا نحن الأكراد التعساء!!" وانقضوا جميعاً على شمال العراق، لم يعد هناك برازاني... لم يعد طالباني. ماتت العشائر، ولت الأحقاد، وغدا أعداء الأمس الألداء أصدق الأصدقاء!!
رئبال صامت حزين يرى "معلمه" قاعداً في مكتبه، مقيد اليدين والرجلين عاجزاً عن الحركة فيتذكر أيام زمان ويحزن حتى الموت. "معلمه" مسؤول النهضة الصناعية في العراق... دماغ العراق العلمي التكنولوجي التكنوقراطي... إلى آخر ما هنالك من ألقاب تهتز لها عروش. هو صهر القائد وموضع ثقته. كلمته لا تصير اثنتين. معامل العراق، مصانعه، مفاعلاته النووية، صواريخه، مدافعه العملاقة، كلها بتخطيط من "المعلم".
رئبال يعرف ذلك. العالم كله يعرف ذلك، لكنه الآن محاصر... مذ فرض الأنكلو أمريكان

الحصار الاقتصادي على العراق وكامل حسين محاصر... مقعد، عاجز عن الحراك. وكيف يتحرك بلا مال؟ المال عصب الحياة، روح الحياة فكيف يحيا كامل حسين بلا عصب أو روح؟ حظر النفط... إغلاق الحدود.. إرتاج باب البحر كله شد الأنشوطة على عنق العراق. عنق كامل حسين نفسه تضغط عليه الأنشوطة... تشد حتى ليكاد يختنق. والأنكى: الحظر الجوي: لا طائرة تطير ولا صاروخ يسير. من خط العرض كذا وإلى الشمال يمنع تحليق الطيران. من خط العرض كذا وإلى الجنوب يحظر الطيران. فيما أشباح الكاوبوي وغربانه تزرع سماء العراق دوياً مرعباً. يتحرك رادار على الأرض فينهمر عليه وابل من قذائف عنقودية وانشطارية، موشورية ودائروية تمسحه مسحاً عن وجه الأرض. تخرج حوامة إلى الفضاء فتنفتح عليها فوهة جهنم شواظاً من لهب وألسنة من نيران، ولا يملك حسين كامل إلا أن يحرك سيارات الإطفاء عله يطفئ اللهب والنيران. مطاراته بلا طائرات، مدافعه بلا قذائف، صواريخه بلا وقود، فماذا يفعل الرجل؟ هو يملك أفكاراً... لديه مخططات... لكن كل ما كان قد نفذ من أفكار وحقق من مخططات ذهب أدراج الرياح. مصانعه خراب، معامله يباب، والطرق كلها مسدودة في وجهه. البحر، السماء، كلها مغلقة برتاج. والكاوبوي يصول ويجول في الساحة، في يسراه مسدس وفي يمناه مسدس ورجله على عنق الضحية تضغط وتضغط. الضحية تستغيث لكن من يجرؤ أن يغيث؟ يدا الكاوبوي أسرع من الموت، والناس، كل الناس، يخشون الموت.

-سيدي خفف الوطء. قال رئبال "لمعلمه" وقد رآه قلقاً مضطرباً لا يقر له قرار.

-كيف، ربل؟ كيف والشمال احتلوه؟ الأنكلو أمريكان صاروا فيه؟ رد بصوت مشحون بالقهر والغيظ، صهر القائد والرجل الثاني في بغداد.

-نطرد الأنكلو أمريكان يا سيدي... نعيد الشمال كما أعدنا الجنوب يا سيدي.

-لا... ربل. لا. الشمال غير الجنوب، ربل. هنا أناس حاقدون، يتعاونون حتى مع إسرائيل. نحن محاصرون ربل... نحن وحيدون. القائد وحيد.. محاصر أعزل... والأنكى أنهم يريدون الآن رأسه... ألم تسمع الأخبار؟

-بلى. رد رئبال بكثير من الانكسار، فمنذ أشهر كان صوت أمريكا لا يفتأ يعلن عن مكافأة مقدارها خمسة ملايين دولار لمن يأتي برأس صدام.

-سفلة!! تابع الوزير الغاضب وقد اشتد غضباً، كلاب!! أوباش هؤلاء الأمريكان!! لا يستحيون ولا يخجلون. قائد عظيم مثل صدام يعاملونه بهذه الطريقة؟

-كما قلت يا سيدي. لا يستحيون. ومن لا يستحي يفعل ما يشاء.

-لكن يجب أن نفعل شيئاً. القائد يجب أن يخرج. يلتقي بالجماهير... يخطب في المناسبات.

-ليخرج يا سيدي. القائد عين الله ترعاه. هو في حرز حريز.

-غبي!! ألم أقل لك مائة مرة أنت غبي!؟ قاطعه "المعلم" الذي دانت له السند والهند نبوغاً وعبقرية. الحرز الحريز الذي تتحدث عنه تخرقه رصاصة تافهة بأربعة فلوس. حينذاك، ماذا يحدث؟

-يا للهول!! هتف رئبال وقد تصور للتو حجم الكارثة إذا ما قضى القائد نحبه، تاركاً فراغاً وراءه لا يسده ساد، محدثاً زلزالاً لا يعرف عواقبه إلا الله.

-لهذا أقول لا تكن غبياً... فكر بالأمر.

-مرني يا سيدي. أنا فداء القائد. بالدم... بالروح..

-كفى!! كفى!! قاطعه الوزير الألمعي الذي أراد أن ينقل بلاده دفعة واحدة من بلد من بلدان العالم الثالث زراعي متخلف إلى بلد صناعي تكنولوجي متقدم. هل أنت تلميذ مدرسة؟

-لا، يا سيدي، لكنه الحماس. أنا آسف يا سيدي، لكن حقيقة أنا رهن أمرك. ماذا تريد أن تفعل؟

-نبحث عن بديل. قال الوزير وهو يشدد على كل حرف.

-نبحث عن بديل!؟ ردد البغاء الغبي دون أن يفهم شيئاً مما سمع.

-أجل، بديل يشبه القائد فيخرج إلى الجماهير عوضاً عنه.

-عبقري يا سيدي!! أنت حقاً عبقري يا سيدي. هتف رئبال شبه مصفق لفكرة لم تخطر له ببال.

-الآن، فكر معي، أنت، سكرتير العبقري، أتعرف أحداً يشبه القائد؟

-أحد... أحد.. راح رئبال يفكر وقد وضع إصبعه على صدغه.
-ذات مرة، قطع عليه تفكيره معلمه الألمعي الذي لا تفوته فائتة، رأيت ضابطاً من الحرس الجمهوري يعطى وساماً.
-ضابط من الحرس الجمهوري... يعطى وساماً!؟ ردد رئبال وهو ما يزال يفكر.
-أجل، هو يشبه القائد، بل لكأنه هو... الخالق الناطق. اسمه.. حسن.. حسين.. محسن...
-نعم.. يا سيدي.. وجدته.. وجدته... هتف رئبال بفرح الأطفال... لعلك تقصد العميد عبد المحسن.
-أجل... هو... العميد عبد المحسن. صلة قربى تجمع بينكما، أليس كذلك؟
-هو عديلي...
-عديلك!! أجل!! إذن استدعه الساعة!!
وقبل أن تكتمل الساعة كانت برقية من ثلاث كلمات تحط على طاولة العميد عبد المحسن في البصرة "احضر إلي فوراً."
سأل النبي سليمان الطيور من حوله، وكان يكلم الطيور وتكلمه، "أيكم أسرع في إيصال رسالتي هذه إلى بلقيس والعودة إلي؟" تحدث كل طير عن سرعته دون أن يعجب سليمان إلى أن جاء دور الهدهد فقال "أعود إليك قبل أن يرتد إليك طرفك". حينذاك فقط تهلل وجه سليمان وأرسله في مهمة خطيرة. كذلك تهلل وجه رئبال وهو يستقبل عديله عبد المحسن القادم لتسلم مهمة خطيرة لا يعلم عنها شيئاً. هو فقط مغبر أشعث، كأنما أبى خراب البصرة إلا أن يترك عليه بصماته.
-خير!! ماذا هناك؟
لكن لم يكن من صلاحية رئبال أن يقول له ماذا هناك، فقاده إلى الوزير المسؤول، رجل الدولة الثاني وصهر القائد الأول بلا منازع.
أدى الضابط الانضباطي التحية العسكرية ثم وقف وهو بكامل استعداده. الوزير غارق في ملفات عمل تنتهي دقائق الزمن قبل أن تنتهي. رفع رأسه ففتح عينيه على مصاريعهما ثم هب واقفاً دون أن يرد التحية أو ينبس ببنت شفة. اقترب من الرجل الأشعث المغبر، ثم شرع يدور حوله دوران الأرض حول نفسها. تأمل طوله، عرضه، كتفه، ظهره، صدره، بعدئذ اقترب من وجهه، تفحص بشرته، شاربيه، أنفه، عينيه وعبد المحسن يشتد مع كل دورة اندهاشاً ثم خوفاً فرعباً "أيشكون بي؟ أهناك وشاية؟ مخبر كتب بي تقريراً؟ أحدهم تحدث عني بالشر؟ وكانت براغيه على وشك الانفلات حين نطق فاحصه أخيراً.
-أجل. أنت فعلاً تشبهه.
-حمداً لله يا سيدي!! حلت المشكلة!؟ نطق رئبال بفرح غامر.
-بعض المشكلة. نحن بحاجة إلى ثلاثة أو أربعة أيضاً.
-ثلاثة... أربعة... نأتي بهم يا سيدي. الله سبحانه خلق من الشبه أربعين.
-صحيح، يمكن أن نأتي بأربعين. قال الوزير الفرح باللقيا ثم توجه إلى عبد المحسن. المهم أنت جاهز؟
-طبعاً سيدي! جاهز. لكن من أجل ماذا؟ سأل عبد المحسن بعد أن حاول كبح لكن دون أن يستطيع. في الجيش كانوا قد علموهم أن يجيب المرؤوس رئيسه أن يسأله... السؤال تطاول وليس من حق الصغير أن يتطاول على الكبير. هو فقط، لكن الرعب الذي تملكه، التهيؤات التي راودته، والوزير يدور حوله ويتفحصه، أنسته بعض قواعد الانضباط. لقد كان في رأسه تهيؤاته فوهة مسدس تسدد إلى ثم بو... م... ويخر صريعاً على الأرض، فكيف لا ينسى بعض قواعد الانضباط؟
- سأقول لك من أجل ماذا. من أجل... بدأ الوزير وكأنه يريد أن يشرح، لكن فجأة أقلع عن فكرته ثم أمسك بذراعه دافعاً إياه أمامه. القائد سيشرح لك.
وارتعدت مفاصل عبد المحسن. "القائد!؟ لكن مالي وللقائد؟ يا إلهي!! طوال عمري أتجنب القادة والمسؤولين. بودي أن أظل في الظل لا أرى أحداً ولا يراني أحد. فجأة، يأخذونني إلى القائد؟" لكن نظرة رئبال وهو يرافق "معلمه" إلى السيارة، الطمأنة من راحته وهو يصعد إلى المقعد الأمامي دون قيود في اليدين، دون الظهر جعلته يشعر بشيء من الطمأنينة، إنما دون أن تفارقه التهيؤات

خطب!! يا إلهي!! خروف لسيدنا الحسين ومائة دينار للأولياء إن خرجت من لدن سالماً". لجأ محسن لما كان يلجأ إليه آباؤه وأجداده حين يقعون في ضيق، لكن الفارهة اجتازت شوارع بغداد العريضة الواسعة حيث يمكن أن يكون القائد، لتتجه قلب بغداد القديمة، حيث الأحياء الشعبية والحارات العتيقة. "رباه!! أين يأخذونني؟" فيما عيناه تختلسان النظر يمنة ويسرة إلى الأزقة والبيوت القديمة "هنا لا قيادة ولا حرس جمهوري. لا قصر رئاسة ولا مقر وزارة. إذن إلى أين؟ أهناك سجن لا معتقل خفي لم تره عين؟" ومن جديد، بدأت رعدة تسري في أوصاله خفيفة ثم أشد فأشد. التفت إلى الوراء. الوزير صامت شارد، ربما نسي وجوده كلياً. "أأفر فأوفر على نفسي كل مكروه محتمل؟" لكن التفاتة خفيفة إلى الوراء جعلته يرى المرافقة وهي مدججة بالسلاح... شبابيكها، مقدمتها، مؤخرتها، أعلاها، ربما أسفلها أيضاً مدجج بالسلاح" لا مفر!!" وشعر بكل ما فيه من قوى يحبط... عزيمة تثبط. "هو قدرك... فاستسلم لقدرك محسن." هنيهة، ثم وصلت السيارة إلى دار عربية كدور الكرخ تلك التي تحدث عنها أبو نواس. باب الدار واسع عال صنع من الخشب والصفيح، وكأنما يعمل بزر كهربائي فتح على عجل، وعلى عجل دخلت السيارة. باحة الدار واسعة خالية كأية باحة لدار عربية قديمة... صف من الغرف في الصدارة إلى اليمين وآخر إلى الشمال، فيما تسمق عالياً نخلات ثلاث في الطرف المقابل. "ليس هو بالسجن" وسرى شعور بـ الطمأنينة في نفسه. بضعة رجال بأزياء عسكرية رشاشة سارعوا إلى السيارة فاقتلعوا شعور الطمأنينة من جديد "يا إلهي!! لو أعلم مصيري فقط!!"

ـ هلم معي عبد المحسن، جاء صوت الوزير الذي سبقه في النزول فأسرع الرجل به وقد أحاط بهما الجند من اليمين واليسار. عند عتبة أول غرفة وجد محسن نفسه وجهاً لوجه أمام القائد بزيه العسكري المشهور. وبالنطاق يتدلى من مسدسه وبكل من نجوم ونسور. في الحال تسمر محسن في مكانه داقاً كعب يمناه بالأرض، رافعاً يده بأشد تحية عسكرية أخذها في حياته.

ـ العميد عبد المحسن، سيدي، قدمه الوزير مؤدياً التحية بيد، مشيراً إليه باليد الأخرى.

ـ الله بالخير شبيهي!! الله بالخير وهلا!! هلا!! سمع عبد المحسن صوت القائد وهو لا يصدق أذنيه ثم رأى يده تمتد إليه مصافحة وهو لا يصدق عينيه. لمسة يد القائد، وشدة صديق أحس، فأسلم يده وهو يشعر بالشحنة الهائلة من التوتر تفرغ من جسده كما يفرغ دولاب من الهواء.

عشرين، ثلاثين، ستين دقيقة!! هو لا يدري كم ظل مع القائد!!. كان في حالة العطالة... عطالة الزمان والمكان معاً والقائد يتحدث عن المخاطر التي العراق... عن أحقاد الإمبريالية والاستعمار عليه... مخططاتهم للانتقام منه... محاولاتهم الدائبة لتركيعه وإذلاله. محسن يستمع، بشغف يستمع، مسحوراً يستمع، أخيراً القائد:

ـ يذعن العراق، ينتهي كل شيء، لكن العراق لن يذعن. في قاموس بغداد إذعان، ولكي لا نذعن علينا أن نظل صامدين متماسكين جسداً واحداً كأنه البنيان المرصوص، والجسد بلا رأس إنما هو جثة. إذن عليكم أن تحافظوا على الرأس. الرأس هو الضمانة... ضمانة الصمود والتصدي... وأنا الرأس فعليكم الحفاظ علي. بأظفاركم، بأسنانكم عليكم صد الأعداء عني، إفشال المؤامرات علي.

ـ أرواحنا فداك سيدي!! وجد عبد المحسن نفسه ينطق دون سابق تخطيط. تبسم تبسم الحذر المريب فلا يدري من يبتسم له أينوي به الخير أم الشر. بعدئذٍ كتفه ثم نهض متثاقلاً وكأنما على ظهره أثقال الجبال كلها.

ـ عبد المحسن زين، قال وهو يلتفت إلى الوزير. أنا موافق. باشروا باتخاذ الإجراءات.

ومد يده من جديد يصافح الشبيه الذي لم يكن قد عرف بعد على ماذا وافق ماهية تلك الإجراءات.

سبعة وعشرين يوماً ظل عبد المحسن أبا العلاء المعري، رهين المحبسين، لكن محبسي محسن: قصر الرئاسة وقيادة الحرس الجمهوري. هناك تعاوره خبراء، بعضهم طريقة مشي الرئيس، حركات يديه، رأسه، نظراته، آخرون علموه نبرة الصوت، طبقات الصوت، حركات الشفاه، فيما تناوله مدربون آخرون في ميادين أخرى: الإشارة، الإيماء،

الأزيـاء، المكيـاج، السـلام، اللفتـات، اللغـات... وكلهم يعمل فيه صـقلاً وتشـذيباً يجعلون منه الشبيه الأمثل والبديل الأكمل.
في تلك الأيام السبعة والعشـرين علم عبد المحسن مهمته كما أدرك مـدى أهميته كل ما لديه من طاقة كي يتقمص شخصية القائد ويصنع من نفسه ذلك البديل الذي يريده القائد، لكنه في بغداد وفاطمة في بغداد. حنينه إليها كان يأخذه بعيداً أحياناً، يشرد به عن الخـبراء والمـدربين فينهرونه ليعـود وكله أمل أن يـأتي اليـوم الـذي يسـمحون فاطمـة. أيامه كلها تـدريب ومشـاغل، مع ذلك أحس بها طويلـة، لكن ما إن انتهت الإذن بالخروج حتى مضى إلى فاطمة يسابق الريح.
أهو الحس؟ أهي الموجات الكهرطيسـية سـبقته إليهـا؟ فاطمة لا تـدري. كل ما شيئاً ما جعلها تسرع إلى الباب. هناك وجدته أمامها فوثبت إليه تحيط عنقه بذراعيها وتغمره قبلاً ولثمات، ليرد عليها عبد المحسن ضـماً وشـماً، قبلاً ولثمـاً. لكن انتفاخـاً بطنها بدا وكأنه يشكل حاجزاً بينهما. أنزلها إلى الأرض، تطلع إلى البطن ثم تبسم:
ـ ماذا؟ فعلتها؟
ـ بل أنت الذي فعلها!! ردت عليه ضاحكة.
ـ أوه!! حمداً لله!! سنعوض ما فقدنا!!
ـ ونفقأ حصرماً في أعين الأنكلو أمريكان...
بعدئذٍ جاءت الصغيرة تركض، ثم الأم تلهث وتحول المنزل كله إلى عرس للفرح والبهجة.
ـ تأخرت هـذه المـرة!! أين كنت؟ سـألته فاطمة وهي تجلس إلى جانبه فيما إلى الجانب الآخر.
ـ مـ.. مـ.. ما.. ذا.. ألم يـ... بدأ متلعثمـاً ثم توقف متفكـراً "بالتأكيد لم يقل لها رئبـال، نسيت أن مهمتك سرية لا ينبغي أن يعرف بها أحد؟"
ـ من؟ ماذا؟ سألته فاطمة بعد طول انتظار.
ـ لا. لا شيء. كانت لدينا مهمة خارج البصرة، لم تنته حتى اليوم.
ـ آه!! بويا! متى تجي لعندنا؟ متى تصير بيننا؟ قالت الفتاة الصغيرة وهي تشد نفسها إليه كأنما تريد الالتحام به.
ـ كم يوم.. كم يوم... بويا!! أجاب الأب محتضناً مقبلاً.
ـ صحيح محسن؟ سألت امرأة عمه وقد كفت عن اللهاث. الله عليك، صحيح؟
ولم يملك محسن إلا أن يبتسم هازاً رأسه مؤكداً لها تساؤلها لقد سبق وأعطوه تعليمات محددة. "بعد الإجازة تقـول للجميع إنك انتقلت إلى قيـادة الحـرس الجمهـوري، زيادة." شاغل آخر كان يشغل فاطمة: الحمام، وسرعان ما انطلقت تهيئه علها تخلو بالرجل الذي لا تستطيع انتظار خلوته حتى الليل.
في الليل جاء رئبال.
ـ تباً لك!! بـادره محسن ما إن انفـرد به جانبـاً، كـدت تقتلـني خوفـاً ذلك اليـوم. ألم الأجدر بك أن تلمح تلميحاً لمهمتي؟
ـ وهل أستطيع؟ هذا سر لا يجوز لي أن أحدثك به؟
ـ اللعنة!! لا تدري كم تملكني من رعب!!
ـ بل أدري. لكن على من يريدون أن يصبحوا قادة، أن يتدربوا على الخوف.
جاءت رقية وفاطمة بالطعام فقطعتا عليهما الحديث. لكن لم تمر الأمسية دون أن تشعر فاطمة بأن هناك لغزاً ما لا يفتآن يعودان إليه.
ـ ماذا تخبئ عني؟ سألته فاطمة وقد همدا في المخدع بعد فوران.
ـ مـا... ذا؟ لا... لا... شـيء... رد محسن موزعـاً بين توقه لمشـاركتها السر وخوفه إفشائه.
ـ أقسمت إلا قلت لي.
ولأن قسم فاطمة غال عليه، همس في أذنها وكأنما يخشى أن تكون للآذان حيطان.
ـ أنا انتقلت. صرت هنا... في بغداد.
ـ حقاً!! إذن، زغرودة!! ورفعت يدها إلى فمها تزغرد، لكن راحة كفه أطبقت على شفتيها بكل ما لديه من قوة.
ـ لا... لا... هذا ليس للنشر الآن!!
ـ ماذا؟ متى إذن؟

ـ عندما يحين الأوان.
ـ لا... في التمّن بصل، محسن.
ـ لا بصل ولا ثوم... بل هي التعليمات.
ـ التعليمات!؟ إذن... إلى أين انتقلت في بغداد؟
ـ لا.. فاطمة... لا تسأليني هذا.. أرجوك.
ـ لماذا؟ عمل المرء مفخرة لـه.. قـالت ثم تـوقفت. تطلعت إليه بإمعـان ثم سـألت: إلى المخابرات؟
ـ لا!!
ـ السلك الدبلوماسي؟
ـ لا
ـ أين إذن؟
ـ قيادة الحرس.
ـ لا... ما أنت في قيادة الحرس... وإلا ما كنت لتخفيه.
ـ أقول لك فيما بعد.
ـ بل الآن.
ـ لا أستطيع فاطمة!
ـ أهناك ما يخيفك؟
ـ كثيراً.
ـ اترك كل شيء إذن!! لا تعش في ظلمة الخوف. دع كل شيء واهرب محسن.
ـ أهرب؟ أين؟
ـ أرض الله واسعة!!
ـ وأضيع مثل ذلك الشتات العراقي الهارب كلـه؟ تريـدينني أن أهـرب لأضـيع مثل لا... فاطمة، لا.. أموت هنا ولا أضيع مثل ناصر، أفنى ولا أصير من الشتات.

شتات باقر شديد، ضياعه أشد، لم يشعر به كما شعر به تلك الأيام. "التأديبة" التي أنزلها به أبو العـز، لم تخلع كتفه وحسب بل خلعت الكثـير من قناعاته وأفكـاره. على المستشفى، وحيداً في الليالي الطوال، كـان لا يعـرف إلا السـهاد، فـالنوم لا يـأتي الهموم، وكان باقر مهموماً... يفكر ويفكر. "لماذا فعل أبو العز ذلك؟ لماذا اللجوء للعنف وبإمكانه أن يناقشني.. أن يلجأ للحوار معي؟" لكنه لم يجد الجواب. أحياناً يقـول: "هـذه أساليبهم أم نسيت ما كانوا يفعلون بكل من يخـالفهم الـرأي أو يعارضـهم القـول؟" بـاقر يعرف قصصاً كثيرة عن رفاق له ضربوا حتى الموت، عن آخرين سجنوا حتى التصفية بل بعضهم سلموا بهذا الشكل أو ذاك لأجهزة الأمن نفسها في بغداد. وشاية تسـري معلومة تسرب سراً ويـذهب الرفيق إلى غـير رجعـة. بـاقر يعـرف الكثـير من الأمثلة يعرف أقبية الحزب التي حوّلت إلى زنزانات يعذب فيها الرفاق، لكنه كـان يكـذب يصدق القيادة ويكذب نفسه. كـانت القيـادات تنكر دائمـاً وكـان الإنكـار يدفعه إلى لكن، وقد أفلت أبو العز كلبيه "البولـــــــــدوغ" عليه والحمرة، جسده خارطة لتضاريس من الجبال، كتفه انخلاعا وتمزقا، فقد بـات أن قلب القيادة صوان لا يرحم وأن قبضة القيادة حديد يهشم وأن اللقاء الـذي مصادفة كان محض تدبير وتخطيط.

في المستشفى عرف كل شيء. همام جاءه بعد أيام ملهوفاً مـذعوراً. أخـذه بالأحضـان، قبله ثم أكد له أن الرجـال الثلاثة كـانوا قد سـألوا عنه في المـنزل قبل أن يلحقـوا "الهورس شو" ويفعلوا ما فعلوا.

في المستشفى أيضاً راجع باقر حساباته، هناك اكتشف أن بوناً شاسـعاً قيادة الحزب. هي في واد وهو في واد، فيما جبال عالية من الاختلاف تفصل بينهما. "أنا الذي ضعت أم هي التي ضاعت؟" ولم يكن باقر يعرف الجواب. كل ما يعرفه أن آراءهما باتت متباينة، مواقفهما مختلفة... ثمة بـديهيات في نظـره بـاتت مرفوضة رفضـاً لديها!! "أمريكا عدوة الشعوب،" بديهة علمه إياها الحزب، لكن هاهي ذي قيادة الحزب تقـول "لا نتحـالف مع أمريكا وبريطانيا وحسـب، بل نتحـالف مع الشـيطان ضد "الديالكتيك عقيدتنا" تلك كانت ألف باء التربية التي ربـاه عليها الحـزب في البصـرة، بغـداد، في معهد العلـوم السياسـية في موسـكو يـوم ذهب إلى موسـكو يـدرس

السياسية... لكن هاهي ذي قيادة الحزب ترفض أي جدل أو حوار. "ما نقوله هو وكل مخالف لما نقول زنديق مارق." الديمقراطية والحرية، النقد والنقد الذاتي، المبادرة الفردية، القيادة الجماعية، المنهجية والموضوعية، كلها مسائل علمه إياها الحــزب، يـؤمن بها إيمانـاً مطلقـاً، مذ كـان فـتى في الإعدادية وإلى أن تخـرج كـادراً متقـدماً الحزب. هو واثق أن نهج الحـزب صـحيح، ما علمه إيـاه صـحيح... لكن هـاهي ذي تسلك سلوكاً مغايراً، ترتكب ما لا يصح أن يرتكب ويجد نفسه في شك، بكل ما تعلمه... مرتاباً بنفسه، ضائعاً.. ضياعه جعله يسأل هماماً، وقد أخرجه من المستشفى إلى بيته.

ـ للأسف، رد همام ضـاحكاً، في وطننا العـربي ينتفي قـانون الماهيـة. فيصـبح ما هو... بل قد يصبح أنت، أنا، هي، لكن ليس هو.

ـ سؤالي.. لماذا؟ تابع باقر سؤاله وهو أشد حيرة من قبل.

ـ أعتقد أنها مسألة انتماء. أجاب همام بعد إطراقة من تفكير.

ـ انتماء؟ كيف؟

ـ قل لي لمن تنتمي أقل لك من أنت. أجاب همام وهو يمسك جيداً بالفكرة، أتنتمي لمصالحك الشخصية أم للمصلحة العامـة؟ لوطنك وقومك في الـداخل أم لهـذه تلك في الخـــارج؟ وإن كنت في قلب الـــوطن، أتنتمي للشـــعب نفسه الشعب؟

ـ أوضح أكثر... أفصح أكثر، همام!!

ـ سأوضح بـاقر، قـال وهو يتنهـد. للأسـف!! كثـير من قيـادات أحزابنا تنتمي لمصـالحها الشخصية لا لمصلحة الـوطن... للخـارج لا للـداخل، للأقلية لا للأمة وهـذا ما ينفي الماهية، ما يخلق تلك المفارقات والتناقضات. طويلاً فكر بـاقر بـالأمر وطـويلاً أرقه الأمر. أيظل على ما علمه إياه الحزب أم على ما تريده القيادة؟ أيسـير وفق نهج أم وفق نهج القيادة؟ لكن القيـادة هي الحـزب. ما تقوله يصـبح قـول الحـزب وما يصبح ما يرفضه الحزب. الحزب صورة والقيادة إطار، وأنت بحاجة دائماً إلى الذي يحتويك، بغيره ستتعرض للتسـيب والضـياع.. بـاقر ضـائع.. يشـعر أنه على مفـترق طرق، فـأي طريق يسـلك؟ إن سـلك طريق الحـزب قطع مع القيـادة، وإن سـلك القيادة قطع مع الحزب، مع معتقداته وقناعاتـه. أمـران أحلاهما مـر. أيقطع مع تلك؟ أم يقطع مع الاثنين؟ لا.... لا. الحزب هو حبل السرة الذي يأخذ منه الماء والغذاء... يستمد منه الحياة فهل يقطع حبل السرة؟ هل يحكم على نفسه بالإعـدام؟ بـاقر ضائع... لا يستطيع اتخاذ قرار. هو في كل شيء، على كل صعيد، حائر... ضائع. العمل... الإقامة.. الحزب... السياسة، بل حتى على صعيد المرأة، بـاقر يشـعر أنه أكـثر ضياعاً وحيرة...هو الذي أحب "مهيجة" البصرة وهو صبي مراهق، ثم "جميلة" بغداد فآمال، رفيقة النضـال، كـان يـؤمن بـالمرأة بل لا يسـتطيع العيش دون حبها ولا الفصل بين الحب والجنس... بالنسـبة إليه الحب هو الجنس والجنس هو الحب، متكاملان لا يعيش واحدهما بغير الآخر... لهذا السبب ربما.. كـان حيثما يـذهب يبحث المرأة التي يحب.. في شمالي العراق... حيث الجبال الـوعرة والـبرد القـارس بحث الحب. كان بحاجة إلى دفئـه، إلى شـفافيته ورهافته ووجـدها كلها في دكروجـة!! "إيـه!! دكروجة!! يا نضارة الريحـان، ورشـاقة الخـيزران، كم حملت لي من دفء!! كم نفحتـني من عبق!! كنت تخـبزين لنا الأرغفة المحمـرة المقمـرة وكنت تشـاركيننا النضـال عينيك تحرير كردستان لتكون منطلقاً لنا نحرر منه العراق فنبني دولة الحرية والديمقراطية، دولة الاشتراكية والمساواة. لم تكـوني تفكـرين بـالزواج. نضـالنا معـاً الزواج، حياتنا معاً هي الزواج وكنت تعطين... معطاءة أنت دكروجة، حنونة دكروجة، كما لم أر في حيـاتي عطـاء أو حنانـاً، لكن فجـأة جـاءتني الشـظية، أبعـدتني كردستان كلها عن حرب العصابات وتحرير العراق كله."

في بيروت لم يستطع أن يجد المرأة التي يحب. كلهن بنات هوى ولا حب مع بنات الهوى، لكنه وجدها في عمان حيث لبانة، مع لبانة كان يقضي أجمل الأوقات. لبانة تعرف ما تريد وتحصل على ما تريد. تعرف ما يريد الآخر وتعطي ما يريده الآخـر، لكنه آخر مـرة على سريرها عرف أقسى هزائم الرجل فسقط إلى جانبها لا حول ولا طول.

أتراها تلك كانت نقطة التحول؟ أتراه كان المنعطف الذي ألقاه في فيافي الضـياع؟ لا يدري... كل ما يدريه أنه بات بعد لبانة شيئاً آخر. أكـان يخشى الهزيمـة؟ ربما

فيه كانت بحاجة للمرأة لكن الرغبة في حبها كانت قد تلاشت .. صورة لبانة ما ذهنه وهي تنظر إليه بازدراء وصلف. صوتها ما يزال في أذنيه وهي تقرعه: "فاشل... عاجز". ثم تدير ظهرها وتنام. "لك الله يا لبانة!! كيف فعلت ذلك؟ ألأنني أخفقت الليلة؟ إذن نسيت ليالينا الحمراء السابقة؟ نسيت اللذائذ الكثيرة التي سفحناها نسيت كل ما قطفناه من جني النحل وخمرة الحب؟ لك الله يا لبانة يا من لفظتني النواة؟"
منذ لبانة وهو في حيرة. باقر يرغب في الحب لكنه يخشى الجنس. يجد المرأة التي يضاجع لكنه لا يجد المرأة التي يحب. هو لا يجدهما معاً فماذا يفعل؟ باقر حائر ضائع، لكن ما إن خرج من المستشفى إلى بيت همام حتى بدأ يتغير. همام وحيد، ترك عائلته خلفه، هناك حيث النجود والصحارى، وراح يتنقل، حياته لا تحتمل زواجاً جديداً أو استقراراً، فكيف يقضي حاجته؟ هو يؤمن أنه بحاجة للمرأة حاجته للطعام والشراب... طاقة الليبيدو فيه تحتاج إلى منفث، فأين يجد ذلك المنفث؟ هو علمي موضوعي، نقاشه مع باقر لا ينتهي. في السياسة، في الحرب، في الحب، يتناقشان دائماً، هو في طور النقاهة وهمام في استراحة محارب فماذا يفعلان غير الكلام؟ شيئاً فشيئاً بدأ باقر يقتنع "حقاً!! لماذا لا أفصل بين الحب والجنس؟ همام يفصل. يأتي بالمرأة. يقضي منها وطره ثم وداعاً!! فلماذا لا أفعل أنا ذلك؟" لكن صوتاً آخر في داخله كان يتنطح للرد "أنت بذلك تشيئ المرأة.. تجعل منها سلعة". "القاضي راضٍ فما دخل المفتي" "هي مرغمة. ما من امرأة تريد أن تجعل من نفسها سلعة، لكن الضرورة... الحاجة ترغمها، فهل تستغل أنت تلك الحاجة؟ هل تقف إلى جانب الضرورة وتلغي المرأة الإنسان؟" ولكي يخلص من حيرته أراد أن يجرب. جاءته امرأة ولم يكن همام في البيت. اعتذر لغيابه فضحكت.
-بضاعة مخلوفة فلا تعتذر؟ سألها: -بضاعة مخلوفة؟ ماذا تقصدين؟
-أنت تكفي وتفي، أم لست رجلاً؟ وكان التحدي الذي لم يستطع إلا قبوله. اقترب منها، فصدته.
-تدفع أولاً، ودفع. "هي راضية أن تكون سلعة، فلماذا احتجاجي أنا؟" وطرحها على الفراش.
شعور غريب أحس به باقر. شعور بالفرحة لم يشعر به منذ زمن طويل. "إذن أنا لست عاجزاً أو عنيناً!؟ لبانة كانت ظرفاً طارئاً، ورافق الفرحة نوع من الاسترخاء. التوتر في داخله زال، الشحنة أفرغت، لكنه لم يكن قد وجد المتعة.. تلك اللذة المضمخة بالنشوة، المعطرة بالراحة والغبطة، كان يفتقدها.
"لكأنني كنت حاقناً ثم بلت... بلت فعلاً". ونظر إلى المبولة والمرأة تغتسل عارية في الحمام "آه!! ما أجمل المرأة مع الحب!! ما أروع الجنس حبّاً!!" لكن بات باستطاعته بعد ذلك أن يفصل بين الجنس والحب... أن يقبل حتى بنات الهوى، ولم يكن يدري هل أنهى حيرته وضياعه أم ازداد حيرة وضياعاً؟
في المعسكر لم يجد باقر نفسه ضائعاً وحسب، بل وجد رفاقه كلهم في حالة ضياع.
كانت الدعوة إلى مؤتمر مدريد قد وجهت وكان الراعيان الأمريكي والسوفياتي يسعيان حثيثاً لعقده.. يهيئان المناخ له. وكان كل من في المعسكر يتساءل: "من يذهب من العرب؟ من لا يذهب؟" بعضهم يقول: "لن يذهب منهم إلا أهل كامب ديفيد!" بعضهم الآخر يحتج "بل العرب كلهم يذهبون، كامب ديفيد وغير كامب ديفيد" فيما البعض الثالث يؤكد "الثوريون سيرفضون.. وتتعرى الرجعية مرة واحدة وإلى الأبد". لم يكن باستطاعة أحد أن يصل إلى اليقين، فثمة غشاوة على العيون وزلزال تحت الأقدام. كان كل ما في العالم يتزلزل.. يرتج.. وكيف تصح رؤية مع ارتجاج؟
نمر متشائم:
-الآن نخسر كل شيء. قال وهم يجلسون إلى المائدة في أول غداء لباقر في المعسكر.
-توكل بالله يا رجل!! غمغم يسار وهو يلوك لقمة ملأت فمه حتى الشدقين. ما زال هناك أمل.
-أي أمل والعرب يعترفون بإسرائيل!؟
-هناك من لن يعترف. رد يسار وهو يشير إلى الشرق.
-كلهم سيعترفون، تدخل أبو الليل متنهداً تنهد الحسرة. إذا كان أصحاب القضية أنفسهم سيذهبون وسيعترفون، فما بالك بأبناء عمهم وجيرانهم؟

-تقارن أبناء العم والجيران بصاحبك؟ وأشار يسار إلى كوفية على رأسه بما يحدد هوية ذلك الصاحب.
-وما له صاحبك؟ رد هذه المرة باقر بنوع من الاستثارة.
-إي... بايعها. أجاب يسار بلهجته الحلبية المميزة. ضحك الكل ما عدا أبا الليل فقد بدا أنه أكثر من مهموم.
-يا جماعة!! أنتم تعلمون. أنا لست معه، لكن لنكن موضوعيين. ماذا يفعل رجل أعزل محاصر من كل جهة؟
-يرفع يديه ورجليه، صاح يسار ساخراً.
-تعرفون!؟ تابع أبو الليل وكأنه لم يقاطع، أنا أشفق عليه أحياناً. كنا جميعاً في الأردن نقاتل إسرائيل، وكان هو أحرصنا على الاستمرار في القتال... لكنهم افتعلوا المشاكل. اختلقوا الورطة تلو الورطة إلى أن طردونا من الأردن.
-فجاء إلى لبنان ينشئ دولة في لبنان؟ سأل يسار بنوع من التشفي.
-أهو وحده المسؤول؟ لا... كلنا مسؤولون. بدأ أبو الليل لكن سرعان ما قاطعه يسار.
-لا... ياسر عرفات هو المسؤول.... وها هو ذا يدفع الثمن يفر إلى تونس.. حيث لا إسرائيل ولا حدود.. لا سلاح ولا حلفاء..
وزفر باقر، وهو يستعيد في ذاكرته كيف كان المعسكر الاشتراكي، حليف المقاومة الرئيسي، يتداعى: ألمانيا الشرقية ابتلعتها ألمانيا الغربية، بولونيا، هنغاريا، تشيكوسلوفاكيا... دول المعسكر الاشتراكي كلها كانت قد انفصلت عن المعسكر الاشتراكي واحدة إثر الأخرى... مدماكاً بعد مدماك كان ينهار المعسكر الاشتراكي، بل حتى الاتحاد السوفيتي نفسه بدأ يتهاوى لاتفيا.. استونيا... ليتوانيا... كلها كانت قد غادرت الاتحاد السوفيتي طاعنة إياه في الظهر، وقد بدأ يتفكك.
-الحقيقة وضعه صعب. انتبه باقر إلى نمر يقول بهدوء. إسرائيل تقيم المستوطنات في الضفة. بعضهم يقولون: حتى سنة ألفين وسبع ستصبح أغلبية السكان هناك يهوداً وأكثرية العمران مستوطنات.
-لهذا يريد عرفات موطئ قدم يرفع عليه علم فلسطين، تابع أبو الليل.
-وما الفائدة من رفع علم فلسطين إن لم يكن هناك فلسطين؟ عقب يسار بكثير من السخرية.
-لذلك، يجب أن لا يذهب العرب. قال باقر أخيراً وهو يحاول أن يستجمع نفسه من ضياع.
-كيف لا يذهبون وكلهم راكعون منبطحون؟ أجاب أبو الليل سائلاً.
-تعلمون!؟ الآن يخطر ببالي شيء، عاد باقر إلى الكلام ثم توقف فجأة.
-أي شيء؟ سأله يسار بكثير من الفضول.
-تدمير العراق بجيشه، بشعبه، باقتصاده، بنفطه... ألم يكن تمهيداً لعقد هذا المؤتمر؟
-ربما، قال نمر.
-بل بالتأكيد، عقب أبو الليل فيما علق يسار:
-وما دخل العراق بفلسطين؟ لكن أحداً لم يجبه.. نظراتهم وحدها كانت تمسحه بكثير من السخرية والاستخفاف. "من العراق خرج نبوخذ نصر" فكر باقر.
"وإلى فلسطين مضى حيث كان اليهود يقضون مضاجع السكان الآمنين ويعيثون فساداً في ربوع فلسطين... هجوماً كاسحاً شن عليهم نبوخذ نصر، سقطوا إثره أسرى وسبايا... ساقهم وهم موثقون بالحبال إلى بابل، منزلاً بهم العقاب الذي يستحقون، فكيف تقول أيها الجاهل ما دخل العراق بفلسطين؟"
صافرة إنذار دوت فقطعت عليه تفكيره.
-أسرعوا اختبئوا في الملاجئ، جاء صوت من الخارج يؤكد الإنذار. فأسرع الكل إلى الملجأ المختبئ في سفح الجبل يتقون به قنابل النابالم الإسرائيلية وقذائفه العنقودية... إسرائيل تذهب برجل إلى مؤتمر مدريد، وتقوم، بالرجل الأخرى، بغاراتها الجوية على قواعد الفدائيين. "كل من يعارض المؤتمر يجب أن يدمر... كل معسكر للعمل الفدائي يجب أن يمسح عن وجه الأرض"، وبينما كان اسحق شامير يحمل حقيبته ويمضي إلى مدريد، كان جنرالاته يرسمون على الخرائط أهدافاً لطائراتهم في الجنوب والبقاع، بعلبك والهرمل بل حتى مخيم البارد في الشمال.

ذهب العرب كلهم إلى مؤتمر مدريد، وحدها بغداد كانت معزولة كالبعير الأجرب "هي ذي الغاية. يعقد المؤتمر ولا يستطيع أحد رفع رأسه. يتم الاعتراف بإسرائيل وما من أحد من العرب يرفع صوته". وبدا ضباب الحيرة ينقشع عن عيني باقر، بدا نوع من اليقين يترسخ في نفسه أكثر فأكثر. هو يرى مسلسل الأحداث الطويل ذاك الذي افتعله الأنكلو أمريكان. الاستراتيجية الثالثة والأنظمة الإسلامية، ثورة الخميني وتصدير الثورة، احتواء العراق "جمهورية إسلامية تابعة لها"، ضرب إسرائيل للمفاعل النووي العراقي بل حتى الكويت لم تكن إلا طعماً قدمه الأنكلو أمريكان أنفسهم إلى صدام.

"إيه منك أيها الاستعمار!! حقد لا يدفع وجشع لا يشبع!! إيه منكم أيها الأنكلو أمريكان!! لماذا تريدوننا أن نبقى أبداً مطاياكم!؟ عبيداً وإماء في خدمتكم؟

أنتم يا من ينادي بالحرية والمساواة، بالعدالة وحقوق الإنسان، كيف تلتهمون حريتنا ومساواتنا؟ لم تسلبوننا ثرواتنا وحقوقنا... أمة وإنساناً!؟"

جو من الخيبة والإحباط ساد المعسكر كله، وهم يرون كيف يزحف العرب بقضهم وقضيضهم إلى مؤتمر مدريد.

-إسرائيل تحقق حلمها التاريخي، علق أبو الليل.

-العرب يسجلون هزيمتهم التاريخية. تابع نمر.

-لكن ماذا نفعل إذا اعترفوا جميعاً بإسرائيل؟ غمغم يسار وقد أصابه نوع من الاستخذاء.

-هو ذا السؤال. تكلم باقر وكأنما يكلم نفسه. حين يلغى الكفاح المسلح كيف تظل هذه المعسكرات؟ حين تنتهي حرب التحرير الشعبية... لماذا نبقى هنا؟

-الحقيقة.. علق أبو الليل بكثير من الأسى. منذ زمن طويل انتهى الكفاح المسلح، منذ زمن طويل وأدوا حرب التحرير الشعبية.

-ماذا تقول؟ ونحن، ماذا نحن؟ سأل يسار.

-نحن الأثر الباقي لتلك الاستراتيجية، لكنها هي نفسها انتهت منذ... وتوقف أبو الليل فجأة وهو يشعر بغصة.

-منذ انتهى عبد الناصر، حاول نمر أن يكمل.

-وسقطت أنظمة لا أريد التحدث عنها الآن، عاد أبو الليل يكمل وهو ينظر إلى الشرق البعيد كأنما يريد أن يشق الحجب، يعبر سلسلة لبنان الشرقية إلى أرض شهدت أحداثاً دامية قبل أكثر من عشرين عاماً.

-إذن لم قعودنا هنا؟ نحن الشتات البائس المشرد؟

سأل نمر فيما كان باقر يردد في سره "يا أنت يا خارطة الفتات... يا أمة الشتات" لكن دون أن يسمعه أحد أو يجيب نمراً أحد. كان السؤال كبيراً والأسئلة الكبيرة تحتاج إلى الكثير من التفكير. أياماً ظل السؤال عالقاً في المعسكر يدور ويدور... تأتي الطائرات الإسرائيلية كل يوم، تقصف، تدمر، وهو يدور، تقتل الرجال وهو يدور. وحده رأس نمر لم يعد يعرف أسئلة ولا أجوبة. لقد عاجلته قنبلة، ذات غارة قبل أن يصل إلى الملجأ فمزقته إرباً إرباً ليطير في الفضاء أشلاء.

-مسكين!! ذهب نمر سدى!! علق باقر.

-من يدري؟ قد يكون هو من السابقين ونحن من اللاحقين، بدا أبو الليل والدموع تطفر من عينيه، لكن حين جاءت الطائرات التالية لم تجد باقراً يذهب سدى ولا أبا الليل يصبح لاحقاً لسابق. كانا قد حسما أمرهما فقررا أخيراً وضع حد للحيرة والضياع.

***

الفصل التاسع

نزع ولا موت

نطق ولا صوت

من يصلب النساء في بغداد

من يذبح الأجداد والأحفاد

وانتبه باقر، وهو يترنم بقصيدة "جيكور" أنه حاد عن أبيات السياب ليصنع أبياتاً جديدة من عنده. "عذراً بدر!! المصاب أكبر من الشعر الذي نظمت... فاجعة بغداد فاجعة هولاكية جديدة... هولاكوها اليوم ليسوا مغولاً ولا تتراً جاؤوا من صحارى البداوة والجمال، بل أنكلوا أمريكان يلبسون لبوس الحضارة، يتسربلون بسربال المدينة، جاؤوا من لندن ونيويورك حيث هايد بارك وناطحات السحاب، لكنهم يفعلون ببغداد شراً مما فعل

هولاكو. لا، ليس بغداد وحسب بل العراق كله. البصرة خراب يباب يا بدر!! ليتك تراها وقد صارت حجارة مبعثرة، جسوراً مدمرة وشوارع محفرة!! إيه يا بدر!! كم أنا حزين فلا تؤاخذني إن غيرت من شعرك أو بدلت".
الزحام خفيف وهو يتسكع. أنسام الخريف باردة، الساعة التاسعة والناس في بيروت ما زالوا يتذكرون الحرب وأوزارها، ما زالوا يخشون أن ينبق لهم أبالسة الحرب من جديد في أية لحظة وأي مكان فيلزمون بيوتهم. "لكن.. ما تراني أفعل في بيتي؟" ولم يملك إلا أن يبتسم وهو يردد كلمة "بيتي"، بل لو لم يخشَ أن يتهمه المارة بالجنون لضحك مقهقهاً. فأر طريد شريد لا وكر له ولا جحر يقول: "بيتي". باقر منذ زمن طويل فقد حاسة الانتماء. هو بلا سكن، بلا وطن. لا يفتأ يرتحل وينتقل. وكأنما عاد إلى أصله، ذلك البدوي الراحل أبداً خلف الكلأ والماء.
حين غادر المعسكر رافضاً أن يكون نمراً آخر تمزقه الشظايا مجاناً وبلا ثمن، أقنعه أبو الليل أن بيته بيته وأن شاتيلا كلها داره وموطنه. لكن، لدى أبي الليل امرأة وأولاد، وهو لا يطيق نقيق المرأة وزعيق الأولاد، فشد الرحال من جديد إلى همام. همام لا يحتمله مساكناً وحسب بل صاحب منزل يشاركه كل شيء فيه، حتى الريالات التي تأتيه من الأهل، تجد طريقها إلى جيبه فتستر عورة باتت بلا ستر مذ ترك معسكر الفداء وقد غدا بلا فداء. همام مسافر... بل هو لا يفتأ يسافر.
نشاطه يغطي أوروبا. يريد أن يرى لماذا يمتلئ العالم المتحضر عجيجاً وضجيجاً عن حقوق الإنسان وحرية الإنسان، ويخرس بلا كلمة أو نأمة عن كل ما يفعله أبناء الصحارى والنجود، عن كل ما يرتكبه أولاء من انتهاكات لحقوق الإنسان، هو يصدر بيانات في لندن، مناشير في باريس، كتيبات في روما وبرلين، ولا يوفر صحيفة ولا مجلة، إذاعة أو تلفزيوناً يسمح له بالتحدث إلا ويتحدث عن أعدى أعداء حقوق الإنسان. يأتي همام شهراً ليسافر شهرين. خمس مرات سافر ليظل باقر كل مرة وحيداً في شقته المنزوية بعيداً عن الأنظار في شارع جانبي من شوارع المزرعة. باقر يكره الوحدة ويخرج إلى الشوارع يتسكع. التسكع مهنته. يأتي إلى الكورنيش يمسح البحر من السان جورج إلى الروشة... ثم يشق طريقه شرقاً...
حيث الحمراء تستعيد ألقها وضوضاءها شيئاً فشيئاً.
"جيكور يا جيكور
شدت خيوط النور
أرجوحة الصبح
فأولمي للطيور
والنمل من جرحى"
لكنه عاد فأطلق زفرة "أين أرجوحة الصبح وأين خيوط النور يا سياب!؟
الكون كله عتمة لا يخترقها سوى شهب من صواريخ، نيازك من رصاص، وشعبك يموت فقراً وحرماناً يا سياب!! الروم من أمام والفرس من خلف وكلهم يطعن يطعن... يشدد الحصار ويضيق الخناق والجراح كثيرة تنزف لا وليمة للطيور والنمال وحسب بل لكل ذي مخلب وناب من شرقي الأرض إلى غربيها يا سياب!! عراقك بات فريسة لكل مفترس، مطمعاً لكل طامع. قومك يهلكون جوعاً وعطشاً يا سياب. أهلك، كلهم الحسين وذووه وقد حوصروا لا زاد ولا ماء ليلفظوا أنفاسهم واحداً تلو الآخر.. فكيف لا نحزن كلنا يا بدر؟ كيف لا ننفجر مواويل نشيج وأشعار نحيب؟".
أحس باقر بجدران معدته تفرك بعضها بعضاً... فمضى إلى أول مطعم يقدم وجبات سريعة... همبرغر وكولا... طلب وجبته ثم جلس على كرسي ثلاثي القوائم دائروي المقعد، منغرس في الأرض كقنفذ متحفز. أكل شطيرته على عجل. شرب كولاه على عجل، وكأنما يلاحقه أحد. "حقاً... لماذا العجلة؟"
لكنه وجد الجواب في كل من حوله. الفتيات قصيرات الشعور كالغلمان، قصيرات الثياب كالأمازونيات، كن يأكلن بسرعة، الفتيان بجانبهن يأكلون بسرعة، إنها حضارة السرعة.. حضارة الهمبرغر والكولا... وعليه هو باقر التنكجي أن يلبس لبوسها "إن كنت في قوم فاشرب في إنائهم".
خرج باقر من المطعم وهو يبتسم، مستعيداً صورة أم الليل وقد ظلت ساعة على الغداء ذات يوم تشرح لزوجها كم هو متعب شغل المطبخ.. كم قضت من الوقت لإعداد محشي

الباذنجان!!. كلام أم الليل استفز أبا الليل فأقسم يميناً معظماً "سأطبخ بنفسي بعد اليوم، فلا تضربيني بأية منة" لكنها سخرت منه "ومن يأكل ما تطبخ؟"ـ استشهد أبو الليل بصاحبه، فشهد صاحبه أنه طباخ ماهر لأكلات ثلاث:
البيض المقلي، مفركة البطاطا والجظ مظ... ضحكت أم الليل من جديد ثم أردفت وكلها ثقة بالنفس "لن تستطيعوا الاستغناء عن المرأة. بغير المرأة لا حياة للرجل".
هز أبو الليل رأسه استهجاناً ثم عقب "هكذا كل ذي سطوة، يظن أنه كل شيء. الحياة تتوقف عليه والموت رهن يديه. أليس كذلك باقر؟" لكن باقر لم يوافقه الرأي "أم الليل على حق". المرأة هي الحياة... بغيرها يموت الرجل".
فرحت أم الليل بجواب باقر، وهمت بالتعليق لكن سرعان ما سبقها أبو الليل "باقر، أنت تقصد غير ما أقصد". "وما تقصد؟" "التسلط، الطغيان، فالمتسلط الطاغية يتصور نفسه هكذا دائماً قطب الرحى، محور العالم، بغيره لا تتحرك الرحى ولا يدور العالم. أنت معي؟" سأله فجأة وقد أحس به يشرد، فيما كان باقر فعلاً قد شرد بخياله إلى صدام.
انتبه إليه فنفض رأسه ثم قال: "أجل. معك. في هذا أنت على حق. صدام هكذا أيضاً. يظن أنه إن ترك العراق ذهب العراق هباء.
هو هواء العراق وماؤه... حياته وغذاؤه. وهذه هي الكارثة!! "أجل، الكارثة في عقل الطغيان المتحكم في وطننا العربي كله. أرأيت في أي بلد عربي إلا حاكماً يمسك بخناق بلده، مرسخاً في أذهان كل من حوله أن حياة بلده تتوقف عليه، يعيش إن عاش ويموت إن مات، والطامة الكبرى أن ضعاف العقول يصدقون" تابع باقر الفكرة فرحاً بخلاصه من حديث الطبخ والنفخ إلى حديث السياسة والوطن.
"عرفات، مثلاً، أقنع الناس كلهم أن مؤتمر مدريد سيعيد إليه فلسطين. مؤتمر مدريد هو الخلاص فأوقف الانتفاضة وكبل أطفال الحجارة. وماذا كانت النتيجة؟
سنة كاملة على مؤتمر مدريد ولم يخرج بشيء. ورقته الرابحة الوحيدة تخلى عنها لينتظر الصدقة والإحسان من إسرائيل. لكن هل تعطي إسرائيل الصدقة؟ هل يعرف اليهودي الإحسان؟" "لكن... عرفات مسكين... صدقوني" احتجت أم الليل متدخلة على حين غرة "يد وحدها لا تصفق يا باقر!! عرفات صار وحده، العرب كلهم تخلوا عنه.. شلحوه... هناك في تونس." "صحيح. في هذا أنا معك" ثنى باقر على كلامها معجباً بفطنتها "العرب كلهم يريدون تصفية قضية فلسطين... يريدون الحل السلمي والاعتراف بإسرائيل"ـ "مع ذلك كان عليه هو أن يقاوم"، احتج أبو الليل الذي كان يشفق ذات يوم على عرفات، "كان عليه أن يرفض. لديه انتفاضة حجارة ترعب إسرائيل. منظمات فدائية ترهب إسرائيل فيتخلى عنهما معاً ويعلن: نريد السلام. السلام خيارنا الاستراتيجي"ـ
وصل باقر إلى لوحة كبيرة لملصقات سينما فتوقف شريط ذكرياته، زحام الواقفين أوقفه وهم يتفرجون على نساء عاريات ورجال عراة... مشاهد الغرام الكثيرة ومواقف الجنس المختلفة، فسينما الروكسي لا تكف أبداً عن تقديم أفلام الجنس والغرام.
نظر باقر إلى ساعته... خمس دقائق ويبدأ العرض. أحدهم في الباب يهيب بالواقفين أن يشهدوا الفيلم الذي لم تشهد بيروت مثيلاً له "إثارة.. سيكس سسبنس سسبنس" وتذكر باقر "تومان" وسينما الحمراء الجديدة في البصرة... "شلخ... ملخ... تعال... شوف... عركات... بوكسات... تعال... شوف". فإذا ما بدأ الفيلم ويئس من دخول الناس إليه، أمسك بنايه القصب... يضعه على أنفه وينفخ فيه مثيراً استغراب المارة وإعجابهم. فتى الروكسي لا ينفخ ناياً ولا يصرخ "شلخ... ملخ" بل يتكلم الفرانكو آراب" إثارة... سيكس.. سسبنس... سسبنس" ومضى باقر إلى الشباك. قطع تذكرة ثم دخل وقد بدأت الأضواء تنطفئ وغبش العتمة يغشي العيون.
على الشاشة الكبيرة ارتسمت كلمتان: "قريباً جداً"، ثم من قلب السجف والغلالات الشفافة كالضياء انبثقت راقصة مصرية تهز بطنها ورد فيها "عالواحدة ونص". تبسم باقر وهو يرقب الراقصة شبه العارية تندلق شحماً ولحماً. اللحن الراقص يشنف أذنيهـ هو يحب ذلك اللحن... يحب تلك الرقصة. كم مرة طلب من صفية أن ترقص له. "صفية أمهر من رقصت على الواحدة ونص". وتلمظ بشفتيه، وهو يتذكر آخر مرة رقصت لهما صفية تلك الرقصة في بيتها الجميل، بيت يسار، وقد تزوجها. دون سابق إنذار، كان يسار قد أعلن عن زواجه بصفية.

"معقول؟" سأله باقر حينذاك "تترك العمل الفدائي لتتزوج؟" "كلكم تركتم العمل الفدائي فلماذا أظل وحدي؟" أجابه يسار وكل ظنه أن الاحتجاج على ترك العمل الفدائي لا على الزواج من صفية. بعد ذاك استحيا باقر أن يحدثه بالأمر. كانت صفية قد تقدمت في عالم الملاهي، علا كعبها واشتهرت. طلبها كازينو بسعر أعلى بكثير مما يدفعه أبو جوني فتركت أبا جوني دون حتى أن تعتذر. من هناك انتقلت إلى كازينو أرقى وأسعار أرفع أيضاً. هناك، باتت بحاجة لمن يرعى مصالحها، يحرس جسدها الأفعواني الغالي الثمن "تعال نتزوج" اقترحت على يسار "وتتركين الرقص؟" سألها فامتعضت "ولماذا أتركه؟ أهو عار أم سبة؟" ولم يستطع يسار إلا أن يصارحها برأيه. في قريته يعتبرون مهنة الرقص عاراً وسبة. أهل الأرض جميعاً لا يستطيعون إقناعهم بأن الرقص عمل شريف.. لكن صفية صاحبة حجة، إن تكلمت أقنعت وإن فتحت ساقيها أقنعت أكثر، فاقتنع يسار أن يتزوجها ويصبح "بودي غارد" لا يشق له غبار.
"بودي غارد!؟ تصبح حارساً شخصياً لامرأتك؟" احتج باقر موبخاً صاحبه، وهو يستعيد إلى ذهنه كيف كان يسار يشيل برأسه، وكم كان يتباهى ببلده كبرياء وعنفواناً. "كل رجل حارس شخصي لامرأته" رد يسار بحجة أمر أدهى.
"لا.. يسار... هذا عمل لا يليق بك" "ماذا يليق بي إذن؟ صنعة؟ لا أملك.
شهادات؟ لم آخذ والعمل الفدائي تركته". "عد إلى قريتك". "قريتي!؟ نصف أهلها لا يجدون لقمة الخبز!! آه!! لو تعلم ما قريتي؟ بضعة بيوت من طين على أطراف الخط الأحمر للمطر. سنة يأتيها المطر وسنوات لا يأتي فيموت زرعها ويرحل بدوها شرقاً وغرباً يبحثون عن المرعى، لتظل بيوتها التي من طين بغير أهل أو سكان". "لهذا هجرتها إلى المعسكر؟" "كنت أبحث عن رزق ووجدت مورد الرزق، ألا أتمسك به؟" "كان ارتزاقاً إذن؟ وأنت، كنت مرتزقاً؟" "مرتزق!؟ ارتزاق!؟ سمه ما شئت. لكن صدقني. أحببت العمل وكنت على استعداد كل يوم للتضحية بنفسي". حينذاك تنهد باقر وشيء ما يدور في رأسه "المرتزقة كلهم يضحون بأنفسهم... في أفريقيا... أوروبا... أمريكا اللاتينية، ثمة مرتزقة على استعداد للتضحية بأنفسهم". لكنه لم يفصح ليسار عما كان يدور في ذهنه.
دعايات الأفلام القادمة "قريباً جداً" انتهت. الفيلم بدأ.. باقر يطوي أجنحة خياله وتداعياته ليعود إلى الواقع... المقاعد من حوله ملأى، أمامه... خلفه... شماله... لا... لا... ثمة مقعد إلى يمينه فارغ والعتمة تخترقها أشعة سينية تحمل صوراً وظلالاً إلى شاشة من فضة تستقطب العيون كلها.
بداية الفيلم مثيرة سرعان ما تشد إليها الأنظار. شاب إيطالي حنطي البشرة سبط الشعر متهدل العضلات، ينساب جسده رقة ولطفاً كأجساد النساء يتسلل خلسة عبر أيكة من أشجار.. في منتصفها حوض سباحة أزرق الماء، أزرق الرخام، أزرق السياج، بل أزرق حتى ما فيه من عيون نساء.. النساء يسبحن عاريات... يتراكضن عاريات... يتشمسن عاريات... وسبحان الله في خلقه!!
كم هناك من سحر!! كم في العري من جمال!! "وخلقنا الإنسان في أحسن تقويم" فكيف إذا كان هذا الإنسان صبية غضة بضة... رقيقة رشيقة كغزلان الفيافي؟ الشاب الإيطالي يبصبص من وراء الأشجار. الحوض الأزرق بلا رجال. ربما كان مملكة من ممالك الأمازونيات وهو، بكل ما لدى الرجل من فضول، يبصبص. مهنة البصبصة قديمة قدم الزمان. عشتار كانت تبصبص على تموز، زيوس كان يبصبص على أثينا، الجار يبصبص على جارته.
في عهد المماليك كان هناك مهنة قائمة بذاتها تدعى "البص" أو البصبصة وصاحبها يدعى البصاص. البصاص ينزل إلى السوق. يبصبص هنا وهناك، يسجل في ذاكرته، التي تخترع أكثر مما تحفظ، ما تراه عينه وما لا تراه. بعدئذٍ يمضي إلى رئيس البصاصين ينقل له ما سجلت ذاكرته. هذه الأيام لم يعد اسمها البصبصة صار لها اسم أرقى، كما بات معيباً أن يبصبص المرء على الناس، هكذا، عينك بنت عينك، فهناك عدسات تصور، أجهزة تسجل، أقمار صناعية تبصبص من علٍ وبسرعة البرق تنقل للسي آي إي في واشنطن ما يجري في بيروت وعمان، القاهرة وبغداد، وكفى الله المؤمنين شر القتال.
أفكار كثيرة تتداعى إلى ذهن باقر تداعي المصائب على أهله في العراق، وهو يحاول التخلص منها لمشاهدة الفيلم. البطل العاري إلا من "مايوه"، بحجم الكف، يخترق أكمة

الأشجار مقترباً من المرج الأخضر حيث تتمرغ حسناء وتتدحرج مغتبطة ربما بنصال العشب تدخل بين نهديها، تداعب فخذيها، تلاعب إليتيها. الفتى يرقب المشهد فاركاً راحتيه الواحدة بالأخرى. ذلك التمرغ سيأتي بالحسناء إليه، ورب رمية من غير رام. هو فرح يشد عضلات صدره العاري من الشعر، فعهد الرجال بالقردة بات بعيداً. لا شعر على كتفيه... لا شعر على ساقيه... لا شعر حتى في شاربيه ولماذا الشعر؟ إنه يجرح المرأة الرقيقة. ولم لا؟
بتلات الياسمين يجرحها حتى النسيم.
-معك ولاعة؟
وأجفل باقر. كان الاستغراق في المرج الأخضر، المسبح الأزرق، العيون الزرقاء، قد أخذه بعيداً وكان المقعد الشاغر إلى يمينه قد شغلته امرأة، أشرعت لفافة دخان أمريكية أطول من برج ايفل ومالت عليه تطلب ولاعة. كان باستطاعته أن يرى على ضوء الشاشة الفضية وجه المرأة الممتلئ شحماً ولحماً، شفتيها المكتنزتين بالحمرة والسمرة معاً. أخرج ولاعته وكأنه لا يملك إلا أن يطيعها.
-لكن التدخين ممنوع!! قال بنوع من خفة الدم راغباً في ممازحتها.
-أنا أحب كل ممنوع، بل لا أمارس إلا الممنوعات!!
"أي إعلان صريح هذا!!!؟" وشرع يتفحص. امرأة عبلة ربلة كالنساء في أشعار العرب. طرف بأجفانه وهو يتنقل بين المرأة والشاشة الكبيرة حيث تتدحرج ذات الجسد الأرجواني ظهراً لبطن وبطناً لظهر باتجاه الشاب بعيد العهد بالقردة.
-تريد سيجارة؟ سأله الصوت الأنثوي من جديد وقد بدت نبرة التحرش واضحة فيه.
-لا، شكراً. أنا أخشى ممارسة الممنوعات، قال متظارفاً ضاحكاً.
-لكن كل ممنوع مرغوب، ردت بالتظارف نفسه، أم أنا غلطانة؟ ونفثت في وجهه نفثة من دخان تتويجاً لروح الدعابة والظرف.
-صحيح، ما تقولينه صحيح غمغم وهو يلتفت من جديد إلى الفيلم، فالحسناء الأرجوانية كانت قد وصلت إلى الشجرة حيث الفتى الأحلس الأملس يتلمظ وينتظر فاركاً يديه الواحدة بالأخرى وللتو علا صفير وانطلقت تأوهات، فيما حطت أنامل ناعمة الملمس رحالها على فخذه دافئة مداعبة ثم راحت تصعد إلى الأعلى بينما التحمت ساق من مرمر بساقه "يا إلهي!! أية جرأة" لكنه تذكر أنها لا تمارس إلا الممنوعات. هو أيضاً مارس الممنوع، بل مذ فر إلى بغداد هاجرا البصرة غرق في ذلك الممنوع. هو يتذكر جيداً. كانت "آمال" رفيقة نضال، في مثل سنه أو أكبر قليلاً. لعل خبرتها هي التي جعلته يحب الممنوع. عشر سنوات كانت قد أمضت في كوادر الحزب. توزع المناشير، تنقل التعليمات، تحضر الاجتماعات... مثلها مثل الرجال. في أول اجتماع حضراه عادا معاً إلى المنزل.
كانا في الحي نفسه وكانت مقدامة. ربما لا يضاهيها في الإقدام حتى الرجال. هو يذكر تلك الليلة. أمسكته بيده وهما يسيران في عتمة الأزقة وللتو أحس بدفء عجيب.
ضحكت منه "ألا تعرف المرأة" وأطرق حياء. أيقول لها "لا" فتضحك أكثر؟ أيقول لها "نعم" فيكون كاذباً؟ الصمت حل أفضل. لكنها حاصرته "قل لي. ألم تجرب الجنس؟"
"لـ.. لا.. أبداً" تمتم أخيراً متلعثماً وقد حشر في الزاوية. لم يكن يحب الكذب ولم يكن يريد أن يكذب. مهيجة، جميلة كلتاهما كانتا قد علمتاه الحب... الضم... القبل... لكن لا أكثر!! "إذن، سأعلمك إياه. أنت تلميذي منذ اليوم وأرجو أن تكون نجيباً".
الأنامل الناعمة تذكره بالتلميذ النجيب الذي صار لآمال بعد ذلك. كانت الأنامل قد صارت بين الفخذين تبحث عن ضالة لم تعد ضالة. فالأجساد العارية في المسبح الأزرق والجسد الأرجواني المتضوع شهوة وإثارة وهو يتدحرج على المرج الأخضر كانا قد نصبا عمود الخيمة وكانت قبة الخيمة عالية لشد ما فرحت لها الأنامل.
-دعنا نخرج. همست قربه بأنفاس حارة كادت تحرق أذنه.
-دعينا نر الفيلم، رد وهو يبلع ريقه. كانت الإثارة تحاصره من أمام ومن خلف، من يمين ومن شمال. الأنامل تحاول دخول القبة وعلى الشاشة البيضاء جسدان شهيان لذيذان، غضان بضان. يعري واحدهما الآخر ويلج واحدهما في الآخر، ضاماً شاداً، كأنما يريد الذوبان فيه.

-المتعة لدي لا في هذا الفيلم، عادت المرأة تهمس. هلم معي أرك من المتعة ما لم تره في حياتك. والتحمت المرأة به ساقاً وذراعاً... أنامل وكتفاً فارتعش باقر وهو يشعر أن كل من حوله ينظر إليه "أية فضيحة!!" وللتو نهض مسرعاً إلى الخارج دون أن يلوي على شيء.
-عندك بيت؟ سألته وقد لحقت به شاكلة ذراعها بذراعه.
-عنـ.. عندي... لـ.. لكن!! قال متعلثماً وهو يحاول التملص منها.
-لديك امرأة؟ سألته ويدها الممسكة بذراعه من إمساكتها.
-لا.
-إذن كيف أدعك وأنت بحاجة ماسة إلي؟ انظر بين فخذيك أم تراك تمارس العادة السرية؟
ووجد باقر نفسه يطرق استحياء غاذا خطاه باتجاه السيارة. كانت سيارة همام الخمرية تربض غير بعيد وكان باقر يستخدمها كلما كان همام مسافراً. وصل إليها، فتح الباب ثم ركب على عجل. "بيدها حق. أنا بحاجة ماسة إلى امرأة... أية امرأة فكيف إن كانت صيداً جميلاً كهذا الصيد؟" ونظر إليها وهي تركب إلى جانبه وينطلقان. كانت المرأة بدينة قليلاً لكن وجهها جميل يضاهي حسنه حسن النار.
بشرة بيضاء وخدان متوردان يكادان يتفزران صحة وعافية وعينان كبيرتان نجلاوان كحلاوان كتلك العيون التي خلقها الله قوساً ونشاباً لرمي الطيور وهي في كبد السماء، ثم صدر أبيض فسيح كساحة لسباق الخيل. تلمظ باقر وهو يعاود النظر أمامه مغيراً من سرعة السيارة. كورنيش المزرعة خالٍ، باستطاعته أن يزيد سرعته.
"حظك حسن الليلة. هي ذي سيدة مصون جاءت إليك برجليها فاغتنم الفرصة يا عم!!"
كان باقر قد مل بائعات الهوى. يذهب معهن إلى الفراش، يمارس الجنس كأنهن آلة... لا عواطف، لا مشاعر، لا دفء، ولا يتركن في جسده أثراً أو في نفسه ذكرى.
-ما اسمك؟ سألها وهو يحلم أن يجعل منها عشيقته الدائمة. ذلك النمط من المرأة العبلة الربلة إلى درجة التفزر يعجبه. ربما هو من الطراز القديم... أيام امرئ القيس وطرفة.
"وتقطيع يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الطراف المعمد"
-سارة!! ردت البهكنة بلا مبالاة باسمها وكأنما لا يعنيها.
-وأنت؟
-إبراهيم الخليل، أجاب دون كثير من التفكير أيضاً، فضحكت ملء شدقيها:
-زوج سارة، يعني؟ أبو اليهود؟
-بل أبو العرب واليهود. جئت من أور كما جاء هو من أور.
-ها!! عراقي؟ هتفت غامزة وقد تيقنت من لهجته.
-إي، عراقي عندك اعتراض؟
-لا، فقط أنا لا أحب أن يأتيني الرجل من دبر.
-اللعنة عليك قبلاً ودبراً. ومن قال إنني أحب أن أفعل ذلك؟
-كلكم يا عراقيون تحبونه وتوقفت فجأة ضاحكة مقهقهة.
-"يا للعنة!! إذن هي ليست بالسيدة المصون بل من إياهن، ذات باع طويل تعرف الكثير عن العراقيين وغير العراقيين". لكن سلسلة أفكاره انقطعت وهو يتذكر جيبه الخاوي إلا من بضعة دولارات.
-ما بك؟ لماذا توقفت؟ صاحت المرأة بصوت راعش وقد أخافها توقفه المفاجئ.
-كي تنزلي، قال وهو يمد يده، يفتح باب السيارة.
-أنزل؟ هنا؟ قالت بخوف واضح وهي تشير إلى ما حولها.. حيث الليل والقفر وكأنهما ليسا في بيروت.
-أنا آسف!! أنت تريدين مالاً، وأنا لا أملك مالاً.
-لكن أقسم لك أنا بحاجة إلى المال. الحرب جعلتني أرملة مع أولاد ثلاثة، بلا معيل... بلا نقود.
-أنا مثلك، شردتني الحرب أيضاً، جعلتني بلا مورد بلا نقود.. انزلي.
-لا، أرجوك. لا أريد نقوداً. فقط، لا تنزلني هنا، وتلفتت حولها يملأ نظراتها الرعب. أشفق باقر عليها وكما وقف فجأة عاد يدير المحرك وينطلق فجأة.

كلاهما كاظم، كلاهما كاتم أنفاسه، ربما يعيد حساباته. عند باب المبنى أوقف السيارة، ودون أن يلتفت أو يتكلم لحقت به اثنتي عشرة درجة صعداً ثم وصل إلى الشقة، فتح الباب ثم دخل وهي في إثره، ضغط زر الكهرباء في الوقت نفسه الذي أغلقت فيه الباب، وكأنما جاءت صفعة قوية على وجهه وجد نفسه يرتد إلى الوراء جاحظ العينين، فاغر الفم، فالشقة أشبه بساحة حرب.

-ما هذا؟ ما الذي جرى هنا؟ صاحت المرأة فزعة وهي ترى أثاثاً منقلباً، مقاعد مبعثرة، أوراقاً متطايرة.

-من يدري؟ رد باقر بفزع أكبر، وقد دهمته أفكار سوداء "من المقصود؟ أنا أم همام؟ تلاحقني قيادة الحزب أم يلاحقه أمراؤه؟" تقدم بخطا خائفة إلى منتصف المنزل: غرفة القعود، الضيوف، غرفة النوم كلها في حالة مروعة من الفوضى والاضطراب.

-شيء مخيف! غمغمت المرأة وهي تتلفت حولها مرتعدة الأوصال، دعنا نخرج. ربما ما زالوا هنا!!

-ربما، غمغم بدوره وهو يعود إليها حاسماً أمره. أخرج من جيبه ورقة ذات خمسة دولارات، وضعها في راحة كفها ثم دفعها من كتفها باتجاه الباب.

-أجل، يجب أن تخرجي من هنا. هيا.. اذهبي قبل أن تعرضي نفسك للخطر. وحين أطبق الباب وراءها، عاد وليس في ذهنه سوى أن يفتش عن أثر لأولئك الذين دخلوا الشقة، عله يعرف من كانوا يقصدون وعما كانوا يفتشون.

لجان التفتيش في العراق تعرف جيداً ماذا تقصد وعما تفتش. الأنكلو أمريكان حددوا لها مسبقاً أهدافها ومقاصدها. مدير وكالة السي آي إي التقى بالأمريكان الذاهبين إلى بغداد، لجنة تفتيش ترفع علم الأمم المتحدة، حدثهم طويلاً عن أهميتهم، أهمية لجنتهم، أهمية العمل الذي يقومون به خدمة للدولة التي صارت القطب الوحيد في العالم وهو يدخل عصر العولمة. كان الاتحاد السوفيتي قد انهار، تمزق مزقاً وأشلاء... وكانت تعليماته، هو مدير السي آي إي، واضحة:

فككوا العراق، ذرة ذرة فككوه، حجرة حجرة فتشوه... ادخلوا المعامل، الثكنات، الورش، المزارع، القصور، البيوت... لا تدعوا باباً يغلق في وجهكم ولا سراً يكتم عنكم. أريد أن أعرف كل شاردة وواردة في العراق. كل سر وخافية هناك حتى نستطيع مسحه عن وجه الأرض وانطلق رجال التفتيش في كل اتجاه: كلاباً مسعورة تتشمم كل رائحة.

استقبل العراق اللجان، قرار وقف إطلاق النار ينص صراحة على أن عليه أن يدمر أسلحته الكيماوية الجرثومية.. أسلحة الدمار الشامل كلها، ورضي العراق "مكره أخاك لا بطل" بتدمير أسلحته الشاملة كبش فداء بدلاً من تدمير العراق كله.

كان المخطط الأنكلو أمريكاني قد بات واضحاً: تجريد العراق من كل سلاح، إفراغه من كل قوة، إرجاعه القهقرى بلداً زراعياً متخلفاً ضعيفاً عاجزاً لا يهدد أمن إسرائيل ولا يدخل بالتوازن الاستراتيجي في المنطقة كي تظل كلها كما أراد لها تشرشل أن تظل "محميات ومشيخات، إمارات وممالك" تدور في فلك الأنكلو أمريكان، كواكب تدور حول الشمس لا حياة لها بغيرها ولا وجود.

لجان التفتيش انقضت أول ما انقضت على وزارة الدفاع. دخلت مقر القيادة... فتشت الأدراج.. بحثت عن الوثائق، اطلعت على الخرائط، حددت المواقع، ثم بدأت تحركها الميداني، حيث مواقع الصواريخ، والحقد شديد على الصواريخ. أليست هي التي ضربت تل أبيب؟ ألم تتسبب في مقتل العشرات من شعب الله المختار هناك؟ في ترويع ذلك الشعب الآمن المسالم الذي لا يريد من العالم سوى ملاذ يلوذ به من اللاساميين، أعداء اليهود؟ ثم ألم ترعب تلك الصواريخ الحلفاء في الرياض والظهران؟ الجنود الأمريكان، ألم تفاجئهم انفجارات الصواريخ في الخبر والخفجة، بكل ما لها من دوي ودخان، نثار شظايا فسقط من سقط وهرب من هرب؟ إذن، لتنزل لعنات العالم كله على أسلحة غاشمة فاتكة وقعت في أيدي طغاة جهلة لا يعرفون كيف يستخدمونها ولا يفرقون بين عامة وصفوة، شعب همج وشعب مختار!! وزرعت لجان التفتيش عشرات المستودعات، القواعد، المنصات، عبوات ديناميت وحشوات تي ان تي لتنفجر بعد ذلك الصواريخ مزقاً وأشلاء.

كان مسلسل التفجير طويلاً، حلقاته متصلة، تسير على مدى الساعات والأيام. في الشمال، الجنوب، الشرق، الغرب... دوي انفجارات ونثار شظايا وسحب من غبار

وأطفال العراق يرتعدون فرقاً. علمُهم أن الحرب انتهت لكن ها هي ذي الانفجارات لا تنتهي. يكون أحدهم نائماً فينتفض صارخاً ملء صوته وقد أفزعه دوي انفجار. كم من شيخ توقف قلبه وقد دب فيه الذعر لصوت انفجار مفاجئ!! كم حامل أسقطت حملها هلعاً وذعراً!! وكم شياه شردت وحمر استنفرت، بيوت تداعت وثمار تساقطت، فالصواريخ المتفجرة كانت تطول بأهوالها كل شيء.

-الوثائق تؤكد، قال رئيس لجنة التفتيش للضابط العراقي، أن لديكم ثلاثمائة وأربعة وعشرين صاروخاً، لكننا لم نفجر سوى مائتين وستة وستين صاروخاً، فأين البقية؟

-لم تبق بقية. هذا كل ما لدينا!! رد الضابط العراقي كاظماً غيظه مستنفراً كل ما لديه من حلم.

-يجب أن يكون لديكم. معلوماتنا مؤكدة... بصاصونا لا يكذبون.

وكان يقصد بالبصاصين عشرات الأقمار الصناعية التي أطلقها الأمريكان إلى الفضاء يتجسسون بها على العالم ويرصدون كل حركة ونأمة فيه. الضابط العراقي يعرف ذلك لكنه لا يريد التحدث فيه... "البصاصة" صارت مهنة العظماء، رغم أنها عبر التاريخ كانت مهنة الصغار الحقراء، والبصاصون كانوا دائماً موضع احتقار من الناس جميعاً.. هو يعلم أن القيم انقلبت وأن كل ما يمت للشرف، الكرامة، الصدق، الأمانة... ذهب أدراج الرياح. للكاوبوي الأمريكي قيمته الخاصة، مفاهيمه الخاصة هي وحدها يجب أن تسود وما عداها يمسح فكيف يجادل الضابط العراقي؟

-ماذا؟ أنت لم تجبني؟

بماذا أجيبك إن كنت قد ذهبت بنفسك إلى مواقع الصواريخ كلها، مستودعاتها كلها، منصاتها كلها... رأيتها بنفسك ودمرتها بنفسك؟

-لا، لا، ثمة مخابئ وضعتم البقية فيها، قال رئيس اللجنة الذي كان يضع نصب عينيه إرضاء الأنكلو أمريكان ولا أحد غير الأنكلو أمريكان. عمله مغر وعائداته أكثر بكثير من مغرية: أربعمائة ألف دولار راتبه الشهري فلماذا لا يفعل المستحيل كي يحافظ على عمله؟

-أؤكد لك ليس هناك من مخابئ..

-وأنا أؤكد لك هناك مخابئ ولا بد من كشفها. قاطعه رئيس اللجنة الملكي أكثر من الملك لتنفيذ مهمة التدمير والتفجير.

-والحل؟ سأل الضابط العراقي وهو يتمسك بآخر هدب من أهداب الصبر.

-تأخذوننا إلى تلك المخابئ، أو أرفع تقريراً إلى نيويورك بأنكم غير متعاونين.

-لكنك تعلم أننا متعاونون. لم تسألوا عن موقع إلا أخذناكم إليه.

-ثمة موقع شمالي الحلة لم تأخذونا إليه.

-شمالي الحلة!؟ أتشك في أن هناك صواريخ؟

-نحن نشك في كل شيء.

-حسن، غداً نذهب إليه. قال الضابط وهو يعلم أن عليه أن يكون متعاوناً.

القيادة أعطته تعليمات واضحة "نحن بحاجة لالتقاط الأنفاس. بحاجة لاسترداد قوانا. سايروا لجان التفتيش. لبوا طلباتهم. لا تستعدوا الأنكلو أمريكان، علينا أن نكسب الوقت فنعيد البناء والترميم". وكانت حركة البناء والترميم على قدم وساق. العراق كله ورشة عمل. هو محاصر صحيح، محظور عليه أن يستورد أي شيء، صحيح. لكن في العراق صناعة: ثمة آجر، اسمنت، حديد، خشب، نفط... العراق غني بكل شيء وباستطاعته أن يكتفي بذاته. "يظنون أننا سنركع عند أقدامهم، صاغرين عاجزين" قال أحد بيانات القيادة، "يا نشامى العراق!! يا ماجدات العراق!! أثبتوا أننا قادرون أن نقف على أرجلنا من جديد... أن نبني العراق من جديد. بما لدينا... لا نأتي بشيء من خارج ولا نستورد شيئاً من أحد.

العراق مهد الحضارة والعمران وعليه أن يستعيد ما دمره أعداء الحضارة والعمران". العمران هو شغل الحكومة الشاغل. كل في قطاعه: الدفاع يعيد بناء الجيش، المواصلات تعيد بناء الطرق والجسور، الصحة المستشفيات والمستوصفات، التعليم المدارس، الصناعة المعامل.

رئبال كتلة موارة من الحركة والنشاط. "معلمه" وزير الصناعة وعليه أن يعيد ما تهدم في ميدان الصناعة. بلاده بحاجة لكل آلة، لكل برغي وعليه أن يلبي تلك الحاجة بأسرع

وقت. "الدماغ المتحرك" يسمونه. وانطلق "الدماغ المتحرك"، تحت إبطه رئبال وفي أثره مهندسون وخبراء، تقنيون وصناعيون، مسحوا في البداية معامل البلاد كلها. رأوا بأم أعينهم المصانع... ما بقي منها وما دمر... ما يحتاجه كل مصنع وما لا يحتاجه، فالطائرات الأنكلو أمريكانية لم تكن تستهدف القطعات العسكرية بقدر ما تستهدف المصانع.
صاروخ على القوات المسلحة وعشرة على المعامل والمصانع. هم يريدون تحرير الكويت، وتحرير الكويت لا يتم إلا بتدمير المصانع العراقية، بتخريب بنية العراق التحتية والفوقية، بتجويع شعبه، بقتل أطفاله. "ألا يمكن أن يهددوا في المستقبل الأمير المفدى وعرشه الغارق بالدمقس والحرير؟"
كان على وزير الصناعة أن يشغل قبل كل شيء مصانع الغذاء... مطاحن الحبوب، مصانع المعكرونة، الأفران، معامل التمور، الزيوت، الأجبان. الشعب الجائع لا يحتمل مزيداً من الجوع، الشعب المحاصر من خارج يجب إسعافه من داخل، وفي الداخل، حنطة، شعير، ذرة، حمص، فول... عدس... تمر... زيت... كل ما يمكن أن يوفر القوت لأفواه جائعة تنوف على العشرين من الملايين. "نحن أسرة واحدة" قال بيان آخر للقيادة أذاعته محطات الإذاعة والتلفاز "نجوع معاً ونشبع معاً" لا فرق بين مواطن وآخر، صغيراً كان أم كبيراً، أجيراً أم وزيراً، نقتسم ما لدينا بالتساوي "وامتلأت بغداد في اليوم الثاني بطاقات تموينية، تبعتها في الأيام التالية مدن العراق كلها وقراه... الطحين... السكر.. التمّر.. الزيت... الفاصولياء، الحمص، الفول، العدس، اثنتان وعشرون مادة قررت حكومة بغداد توزيعها على المواطنين، طبقاً لعدد أفراد العائلة وحاجة كل فرد. وبدا وكأن الحكومة رب أسرة يفكر بكل صغيرة وكبيرة مما تحتاجه الأسرة.
كما بدا المجتمع وكأنه يعود إلى مرحلة التبادل العيني، يوم لم يكن هناك ذهب ولا فضة.. دينار ودولار. كان الدينار العراقي قد انهار انهيار الليرة اللبنانية في حربها الأهلية والروبل الروسي وقد اختزل الاتحاد السوفيتي العظيم إلى روسيا واحدة مفردة تتناهشها الذئاب.
وكان على الحكومة العراقية أن تقدم مواد عينية للناس بدلاً من دينار لم يعد يساوي أكثر من عبد أجرب في سوق نخاسة. "الدماغ المتحرك" يتحرك. خطته واضحة. ورئبال يده اليمنى أنى تحرك وأنى ذهب هو معه. الأفواه الجائعة لا تفتأ تصيح مفتوحة على مصاريعها مطالبة بالغذاء. في شمالي الحلة معمل للمعكرونة، كانت الطائرات الإيطالية قد قصفته نيابة عن الأمريكان وغيرة من بلد راح ينافسه في صناعة المعكرونة. "هذا اختصاصنا أيها العراقيون، فلماذا تنافسوننا في اختصاصنا؟" وانهمرت حجارة سجيل على المعمل المسكين شمالي الحلة لتحيله قاعاً صفصفاً. المعكرونة غذاء جيد يمكن صنعه بأيدي العراق... هو يسهم في الاكتفاء الذاتي وعلى رئبال و "معلمه" أن يعملا المستحيل لتحقيق الاكتفاء الذاتي.
شمالي الحلة التقى رئبال بلجنة التفتيش وهي ترفع أعلام الأمم المتحدة.
-ماذا يفعلون هنا؟ سأل رئبال ضابط الارتباط وهو يشير بيده إلى أعضاء اللجنة.
-يظنون أن هنا موقعاً نخبئ فيه الصواريخ، أجاب الضابط وهو يتمسك بآخر قطرة من جلد وصبر.
وضحك رئبال. "حقاً شر البلية ما يضحك". فالمعمل الذي حطمته طائرات الطليان كان قد غدا أكواماً من حجارة وتراب برزت بقايا آلة هنا.. حطام أنابيب هناك، تلمع كلها تحت الشمس فحسبها بصاصو الأنكلو أمريكان مدافع وصواريخ.
نقل رئبال لرقية الطرفة المعكرونية فضحكت، لكن صوت الهاتف الذي رن قطع عليها ضحكتها فأسرعت إليه. رقية فرحة به. منذ أيام فقط كانت شبكة الهاتف قد أصلحت. صار باستطاعة أهل بغداد أن يستخدموا الهاتف ككل خلق الله، شأنهم شان أهل الحضارة جميعاً ورغم أنوف الأنكلو أمريكان.
-ألو!! فاطمة؟ بادرت رقية بفرح وقد جاءها صوت فاطمة.
-ألو.. رقية... تعالي إلي بدأ المخاض. ردت فاطمة وهي في عجلة من أمرها.
-أنا آتية. مسافة الطريق. ثم أغلقت السماعة وقد ارتعش شيء ما في داخلها... ربما هو خوف الأنثى الأبدي من لحظة المخاض.
-اطلب سيارة إسعاف، قالت لزوجها وهي تلبس ثيابها على عجل.
-لماذا سيارة الإسعاف؟ أنا آخذها إلى المستشفى بنفسي.

-لكن لماذا لا يأخذها محسن؟ تساءلت باستغراب وهي لا تدري كيف يغيب زوج عن زوجته في لحظة كهذه. "محسن؟ وأين محسن؟" غمغم ملوحاً برأسه، هو الذي كان يعلم لماذا غاب محسن رغم معرفته بأن فاطمة على وشك المخاض.
كانت فاطمة قد أحست بوخزة خفيفة هناك أسفل البطن. تجربتها السابقة في المخاض علمتها أن أوله وخز خفيف مثلما أول الغيث قطر متفرق ثم ينهمر. هي وحيدة. أمها ذهبت قبل أيام إلى البصرة كم ترجتها أن لا تذهب. لكنها أصرت، نصب عينيها هدف واحد: زيارة البيت... ذلك الذي تركته مهدماً والذي كان يقض مضجعها دائماً. ليالي بطولها كانت تظل مسهدة لا يقاربها النوم. كان البيت عزيزاً عليها غالياً، معزة أبي جبار وغلاوته.. هي لا تنسى كم تعبوا وشقوا أيام زمان إلى أن بنوا ذلك البيت... هي وأبو جبار يجمعان الدينار فوق الدينار لكي يخلصوا من سكنى بيت بالإيجار. بيتك ملكك!؟ الله ما أعظم أن يكون بيتك ملكك!!. أن تشعر أن لك مملكة تسرح فيها وتمرح على هواك، تعمل فيها ما تشاء، تبدل ما تشاء، وربح أبو جبار ذات يوم ورقة يانصيب. صحيح، كانت الجائزة صغيرة لكن مع القرض وما ادخروه من قبل كان كافياً لبناء ذلك البيت. بنفسه اشترى أبو جبار الأرض في حي الخندق أحسن أحياء البصرة: ألف متر.. لا.. بل ثمانمائة وأربعون ثم بنفسه أشرف على البناء. ويا للعيد!! حين انتقلوا إلى الفيلا الجميلة الزاهية كان أكثر من عيد. ذبحوا ذا القرنين عند العتبة بل قبل أن يطؤوا البيت، ثم فرقوا اللحم على الجيران والأصحاب، رتلوا آيات من القرآن الكريم في جنباته كما أشعلوا البخور في كل غرفة وزاوية منه. "بيتاً طاهراً مطهراً أريد. لا يدخله جن ولا شياطين" كانت أم جبار تقول، وكان يعز عليها أن يخدشه ولد من أولادها بطرف مسمار. لكن ها هي ذي البوارج الأمريكية قد دمرته. والطائرات الإنكليزية أجهزت عليه. "الحمد لله أنك لم تر ذلك المنظر، أبا جبار!!" تنهدت وهي تستعيد إلى ذاكرتها أبا جبار. ثلاثة عشر يوماً فقط طريح الفراش. ارتفعت فيها حرارته، ذبل وجهه، ذوى عوده ثم انقصف دفعة واحدة.
"لكنك ما تزال حياً يا أبا جبار!! هنا في هذا القلب الذي حمل لك كل حب، في كل خلية من خلايا هذا الجسد الذي خبرك وتمرس بك حتى صرت أنت وهو كلاً واحداً يا أبا جبار!؟" وشرعت الأم تدور حول المنزل، تتفحص ركامه، تنقب في حطامه، إلى أن وصلت إلى آخر غرفة تحاذي الحديقة من الداخل. كان شباكها ما يزال قائماً. صحيح أنه بلا زجاج وأن صرعة أو صرعتين منه قد طارتا، إلا أن الشباك كان باقياً، نظرت إلى الداخل فرأت الجدران ما تزال قائمة... السقف ما يزال متماسكاً وحده الجدار الداخلي كان قد تشقق وتضعضع. طبقة من تراب وغبار كانت تغطي الأثاث. "يا للفرحة!! بقليل من الجهد... بقليل من المال... يمكن إصلاح الغرفة ومن ثم السكن فيها" وقررت العجوز الوحيدة، التي جاءت إلى البصرة لزيارة البيت فقط، أن تصلح البيت وتسكن فيه، ناسية أن فا طمة دخلت شهرها التاسع ولا تدري متى يأتيها المخاض.
وخزة أخرى كإشارة اللا سلكي انطلقت من الرحم. هو ذا الطلق يأتي وخزات متباعدة في البدء ثم متقاربة إلى أن تمسك واحدتها بتلابيب الأخرى.
جنين كبير الرأس.. عريض الكتفين... كامل الأطراف، يحاول اختراق فوهة ضيقة. ينطح برأسه الفوهة فتصده. فم الرحم لا يتسع لرأس الجنين، لكن الجنين يريد أن يخرج. جاءت الساعة التي يخرج فيها إلى النور فأية قوة توقفه؟
بالغريزة يعرف طريقه... يتجه إلى المخرج الوحيد: فوهة الرحم. ينطحها النطحة تلو الأخرى لتنطلق الوخزة تلو الأخرى شرارة ألم وكهرباء تعبر الجسد كله إلى الرأس.
رأس الجنين ينطح والرحم يتوسع. فمه ينفتح. مليماً بعد مليم ينفتح ومع كل انفتاحة موجة ألم تخترق الجسد كله وشرارة كهرباء تبلغ حتى الرأس.
هي تعرف آلام المخاض. كل امرأة تعرف تلك الآلام. ترتعد خوفاً منها، مع ذلك تحبل، تقدم على تجربة الضنى والألم، أهي اللذة؟ متعة الجنس تنسيها ألم المخاض!! "إيه!! لك الله من لذة تنسي ومتعة تأخذ بالألباب!!".
رن الجرس فمضت فاطمة إلى الباب متثاقلة.
-أين محسن إذن؟ ألم تتصلي به؟ سألت رقية وهي تدخل متعجلة لاهثة في إثرها رئبال.
-اتصلت لكن لا أحد في المكتب. أجابت فاطمة.
-هيا.. ننقلك إلى المستشفى. قال رئبال وهو يعلم أنه كان على عبد المحسن أن يدشن جسراً أعيد بناؤه على الفرات.

لم تكن هي المرة الأولى التي يحضر فيها عبد المحسن مناسبة أو يشارك في تدشين، بديلاً للرئيس. ثلاث أو أربع مرات كان قد حضر. هو متفرغ للأمر. مكتبه في قصر الرئاسة، حاشيته حوله... الكل يعلم أن لديه مهمة خاصة. صحيح أنهم لا يعرفونها بالتحديد لكنهم يعرفون أن لها علاقة مباشرة بالقائد.
بطانة القائد وحدها كانت تعرف تلك المهمة وكانت تعده لها كلما دعت الحاجة. يدعى إلى جناح القائد ذاته. هناك يتولى أحدهم إلباسه، الآخر مكياجه، الثالث تلقينه ما يفعل وما يقول ثم يمضي عبد المحسن لينفذ ما لقنوه.
على الفرات كانوا قد شادوا جسراً دمرته قنابل الأنكلو أمريكان. الجسر حيوي يصل شرقي العراق بغربيه حيث بادية السماوة المترامية الأطراف وحيث العتبات الشريفة وحجاج النجف وكربلاء أولئك الذين لا ينقطعون عن النجف وكربلاء. خمسة عشر شهراً ظلوا يعملون في الجسر. كان التخريب كاملاً، والترميم يحتاج إلى وقت. أنجزت المهمة فأعلن المذياع والتلفاز أن القائد بنفسه سيحضر التدشين. وزراء... مدراء... ضباط... قادة... كلهم كانوا قد ذهبوا وكانت ثمة حشود... كلها تنتظر مجيء القائد كي يقص الشريط الحريري وينطلق بسيارته على الجسر، أول سيارة تدشن عودته إلى العمل والحياة.
رتل من السيارات العسكرية وصل إلى طرف الجسر. لم يكن أحد يعلم أيها يركب القائد. حين نزل فقط عرفوا. بعدئذٍ بدأ، بقامته الفارعة وطلته المهيبة وشاربيه الكثين، يستعرض القادة والوزراء ملوحاً بيده للجماهير، متطلعاً بعينيه إلى البعيد والأعلى إشارة إلى حيث ينبغي أن ينظر الجميع فلا يخيفهم استعمار ولا يرهبهم أنكلو أمريكان.
"بالدم... بالروح... نفديك يا صدام".
بدأت الهتافات تتعالى، فيما مضى صدام إلى الشريط الحريري. فتاة بعمر الورود قدمت له صينية من فضة عليها مقص من ذهب، أمسك به صدام، ودون أن يحني قامة أو يخفض هامة، قص الشريط فانطلقت موجة من تصفيق وموجات من هتاف بدت أشد جلبة ودوياً من طائرات الأنكلو أمريكان وهي تحلق عالياً منتهكة سماء العراق.
في الوقت نفسه كان بعضهم قد بطح جمالاً، صرع ثيراناً، ألقى خرافاً على الأرض لتعمل فيها السكاكين ذبحاً وتشرخ عروقها دماء سالت على عتبة الجسر فدية للجسر وتقدمة لعشتار إلهة الخصب والحب والحياة فلا يلحق بالجسر بعد ذلك خراب.
بود عبد المحسن أن يعود للتو. هو يعلم أن زوجته على وشك المخاض، لكن ما عساه يفعل والجسر يجب أن يدشن. ركب السيارة ثم انطلق على الجسر الذي ظن الأنكلو أمريكان وهم يدكونه قنابل وصواريخ أن قائمة لن تقوم له أبد الدهر. لكن ها هي ذي قوائمه قامت، أعمدته انتصبت وسيارته تتهادى الهوينى عليه، ثم أثرها سيارات وسيارات. الحشود تودعه عند طرف الجسر، ثم تستقبله عند الطرف الآخر وهو يلوح من بعيد ومن علٍ. يود محسن لو يلقي بنفسه بينهم واحداً منهم، يشد على أيديهم، يحضن أطفالهم يقبل ماجداتهم لكن الأوامر واضحة: "ظل على مبعدة. لا تكلم أحداً. لا تصافح أحداً. فقط هز رأسك. لوح بيدك، وامض مرفوع الهامة منتصب القامة رمزاً للشموخ والإباء".
حين عاد رمز الشموخ والإباء إلى بغداد كانت الساعة العاشرة ليلاً وكان بيته خاوياً على عروشه. ورقة صغيرة على طاولة الطعام نقلت له الخبر فأسرع إلى المستشفى.
هناك وجد فاطمة وهي تستريح على السرير استراحة المحارب. المعركة التي خاضتها طوال أربع ساعات كانت قد استنفزت قواها محيلة إياها إلى خرقة مبللة ودماء وأشياء أخر. لكن ما إن جاؤوها بالوليد حتى ارتدت إليها روحها وغدت كلها نشاطاً وحيوية.
-مبارك! قالت لها رقية وهي تقبلها يمنة ويسرة.
-حقاً!! صبي!؟ هتفت فاطمة وهي تمسكه بلفائفه التي أعدت على عجل ثم تتشممه تشمم غزالة لوليدها.
أهي غريزة لا يعرف أحد كنهها تجعل الأم تتشمم وليدها، أياً كانت تلك الأم، تحضنه، تتلمسه، وحينذاك ترقد الهواجس في نفسها وتسري الطمأنينة في عروقها. الطمأنينة سرت في عروق فاطمة.. أغفت بعدها إغفاء المحارب المتعب الذي يريد أن يستريح.
دخل عبد المحسن فاستقبلته رقية:
-صبي!! جاءك صبي!! ألف مبروك!!

في اللحظة نفسها فتحت فاطمة عينيها وكأنما فتحتهما ضغطة زر.
-محسن!! هتفت فرحة موردة الخدين وكأنها لم تدخل معركة ولم تعش مخاضاً.
-فاطمة!! ألف مبارك!! حمداً لله على سلامتك!! هتف وهو يأخذ بجانبي وجهها، لاثماً مقبلاً.
-مبارك عليك ولي عهدك، ناصر!!
-مبارك عليك ناصر، رد دون تردد، فقد سبق واتفقا على أن يسمياه باسم أخ عزيز ضاع في منافي الشتات.
ناصر، الذي صار باقراً في دمشق، ضائع مضيع، شتات مشتت. هو مذ جاء إلى المنزل مع صيده الجميل ووجده منقلباً عاليه سافله، لم يعد يشغله سوى هاجس واحد: اكتشاف الفاعل. طوال تلك الليلة ظل يفتش عن أثر، لكنه لم يجد. أعاد الأثاث إلى ما كان عليه، جمع الأوراق المبعثرة، لملم الثياب والملابس مرتباً منظماً كل شيء فلم يغمض له جفن حتى الصباح. مع أذان العصر أفاق فأسرع إلى أبي الليل يروي له ما حدث. "ربما الهدف همام" كان رأي أبي الليل.
"وإن كنت أنا الهدف؟" أجاب باقر. "استبعد ذلك". "لماذا؟" أنت لا تشكل خطراً ولا تهديداً. فركة الأذن عملوها لك فلماذا يستهدفونك؟" "حقد أبي العز، حبه للانتقام، وأنت لا تعرف حبه للانتقام" "لا.... لا... ما أظن المسألة مسألة انتقام... بل هي أكثر من ذلك" ولأنها أكثر من ذلك مضى باقر إلى دمشق.
هناك، التقى بزهير، رباح، فاتح، ندى، لورا.. الكل أكدوا له أن أبا العز لم يأت على ذكره، روى لهم ما فعل به فاستغربوا... "يشرف بنفسه على ضربك!؟ لا بد أنك استثرته إلى درجة رد عليك فيها للتو" كان رأي فاتح "ما أحسب القصة كلها إلا ابنة ساعتها... لم يخطط لها من قبل ولم تترك أثراً في نفسه بعد،" أكد رباح، هو الذي يعرف أبا العز جيداً... ولكي يتأكد أكثر أرسل باقر زهيراً الأقرب إلى أبي العز يتعمد الإتيان على ذكره فيعلم رد فعله.... وعاد زهير ليقول "لا تعليق. عرضت بك فلاذ بالصمت. قلت إنك انحرفت عن طريق الحزب فلم يقل شيئاً". وأيقن باقر أنه لم يكن هو الهدف في بيروت بل همام. مع ذلك فكر أكثر من مرة بالذهاب إلى أبي العز يرى بنفسه، يحكم بنفسه لكن كل مرة كان يتراجع.
كان حقده يمنعه من الذهاب إلى القيادة، كرهه للرجل يصده "أنا أضرب هكذا؟ أنا أعاقب بهذه الطريقة؟" وكان قد صمم على قطع حبل السرة مع الحزب، هو الشريد الذي لا يربطه بالعالم سوى ذلك الحزب. باح بذلك لرباح فشد على يده قائلاً:
-أنا نفسي أريد أن أترك. تجربة الحزب فاشلة. حتى في الاتحاد السوفيتي فاشلة.
وكان عقد الاتحاد السوفيتي قد فرط. جمهورياته الأربع عشرة صارت شذر مذر. غورباتشوف ذهب إلى أهله يتمطى هو والبروسترويكا، يلتسين أطاح بهما كليهما، كما أطاح بالحزب الشيوعي نفسه حالاً إياه... لاعناً الساعة التي انتسب فيها إليه، نادماً على أنه كان يوماً من الأيام أميناً عاماً له. التطورات الخطيرة التي انعكست على الأحزاب الماركسية في شرقي العالم وغربيه انحسارات وتراجعات.
زهير قال "معنويات أبي العز منخفضة بين كل حين وآخر يصيح: آخ ظهري!! انكسر ظهري يا زهير!! لم يعد وراءنا أحد... لا سند، ولا معين!!" وفرح باقر بذلك، هو الذي كان أقصى ما يحلم به أن ينكسر ظهر أبي العز فعلاً، فيقعد أرضاً عاجزاً حتى عن الحراك.
-لكن ما هو البديل؟ قال فاتح وهما يجلسان ذات مساء في هافانا دمشق.
تترك الحزب؟ إذن يجب أن تبحث عن بديل.
-نصنع حزباً جديداً، رد باقر بعد لأي.
-ألم نشبع أحزاباً؟ منذ ربع قرن ولا عمل للأحزاب إلا أن تفرخ وتنقسم.
الحزب يصبح أحزاباً ثم الأحزاب تصبح أحزاباً أكثر. لا، لا، هذه تجارة بائرة يا صاحبي!!
-ماذا إذن؟ تصور نفسك معلقاً في الفضاء لا واصلاً إلى السماء ولا نازلاً على الأرض.
الفراغ قاتل وأنا أكره الفراغ بل هو أخشى ما أخشاه.
-افعل مثلي!! همس في أذنه وقد مال عليه حتى صار لصقه..
-وماذا فعلت أنت؟ سأله باقر بكثير من الفضول والاستغراب.
-ذاهب إلى اسكندنافيا.
-ماذا!؟ صاح شبه هاتف وقد فاجأه الخبر

-منذ ثلاثة أشهر قدمت طلب لجوء إلى السويد، وأمس فقط جاء الجواب بالإيجاب.
-جد؟ تتكلم الجد؟ سأله باقر وقد تحول الاستغراب إلى ذهول.
-بل جد الجد. وخلال نصف شهر تجد صاحبك في استوكهولم.
-وتتمرغ في أحضان الشقراوات؟
هلم معي، نتمرغ في أحضان الشقراوات.
-أنا؟ سأل باقر وكأن الأمر لم يخطر بباله قط.
-أجل أنت. كلهم يفعلون ذلك. العراقيون كلهم يذهبون إلى الشمال.
باقر يعلم ذلك. يعلم أن الشتات العراقي البائس يبحث عن ملاذ. أرض الله الواسعة كلها تضيق به. عشرات الآلاف في سورية.. مثلهم في الأردن... لبنان... مصر... أوربا... بعضهم يقول هناك ثلاثة ملايين عراقي في الشتات.
كلهم لاجئون بسبب معتقد أو رأي، اختلفوا مع النظام في بغداد وفروا من النظام في بغداد. لاجئو الرأي شعراء وأدباء... سياسيون وصحفيون... وكلهم يبحثون عن مكان آمن يوفر لهم المناخ الملائم لحرية الرأي. فاتح صحفي.. عمل في جريدة الحزب زمناً طويلاً. كتاباته مشهورة... آراؤه ينتظرها الناس بفارغ الصبر، وبسبب تلك الكتابات والآراء سجنه النظام في بغداد، ثم قبل أن يفرج عنه أخذ منه تعهد بأن لا يكتب في الصحافة ولا يمارس تخريب الرأي في البلاد. لكنه لم يستطع الوفاء بتعهده. كانت الكتابة بالنسبة إليه هي الماء الذي يشربه والهواء الذي يتنفسه، ولم يكن باستطاعته إلا أن يكتب. فلم يجد أمامه من خيار سوى الفرار. فر إلى دمشق. انضم إلى قافلة الشتات الموزع بين القامشلي ودمشق. وكلهم خائف من نظام بغداد، يترصد أول فرصة تلوح للعودة إلى بغداد، لكن ها هي ذي المفاجأة. فاتح يتخلى عن حلمه بالعودة، يقرر الهجرة إلى أقصى الأرض حيث الجليد والثلج... الضباب والسحاب... وحيث لا شمس ولا نخيل.
-لا، لا أستطيع الذهاب إلى الشمال، قال له أخيراً، وهو يعلم أن الخيار مغرٍ وأن الأمل ضئيل بالعودة إلى العراق.
-لكن هناك دولارات. أغراه فاتح أكثر. ثلاثة آلاف دولار يعطون اللاجئ السياسي كل شهر.
منذ سنة أو يزيد كانت اسكندنافيا قد بدأت سياسة عجيبة. كانت تريد تعويض نقص السكان فراحت تبحث عن مهاجرين: آشوريين من العراق وسورية... سريان.. كلدان... صابئة... إضافة إلى هاربي الرأي. قرى بكاملها خلت في شمال العراق وسوريا... أحياء في المدن خوت وفاتح وضع رأسه بين الرؤوس ثم قال "يا قطاع الرؤوس". لعل أصله السرياني مهد له السبيل، لعل الأقرباء الذي سبقوه فعلوا ذلك. الاسكندنافيون واضحون. هم يميلون لأبناء دينهم... يريدون استقطاب المهاجرين منهم فلا تتشكل لديهم أقلية دينية مغايرة قد تكون ذات يوم سبباً في إثارة المشاكل.
-أعلم أن هناك دولارات. أعلم أن هناك حسناوات شقراوات ذوات عيون زرق وخضر يغرين أبانا آدم نفسه، لكنني لن أذهب. لا أستطيع الابتعاد عن العراق... هنا... في دمشق... في بيروت أشم رائحة الأهل تأتيني ريح صبا فأتنشق رائحة البصرة وبغداد... دجلة والفرات. وسمعت الهافانا زفرات تحسر طويلة أطلقها فاتح على الصاحب الذي لم تفت في عضده المغريات.
في اليوم التالي نصحته لورا:
-كلهم يقدمون طلبات لجوء سياسي إلى هنا، لماذا لا تفعل أنت ذلك؟
وقدم باقر طلباً..
قالوا له، شهر أو شهران وتأخذ النتيجة. وحين نقل الخبر إلى لورا فرحت.
-هنا، الحياة رخيصة، قالت له وهما يتمشيان في شارع الصالحية. تستطيع العيش بأهون السبل.
-يعني، كم أحتاج؟ سألها وهو راغب في التعرف.
-لا تخف. هم يحسبونها جيداً، قالت ضاحكة مشيرة إلى الأعلى والأمام.
قوت اللايموت يعطون اللاجئ، لكنهم يعطونه. وأنت. يمكنك أن تستأجر غرفة في دار مثل دارنا. تعيش عيشة بسيطة مثلنا ثم تبحث عن عمل، وتعمل.
لورا تعمل. أختها تعمل أيضاً. أجرهما ضئيل لكنهما يجدان قوت اللايموت. بل تستطيع لورا أحياناً أن تدعو صديقاً مثله إلى الغداء. ذلك اليوم كان باقر ضيفهما على الغداء.

هذه المرة لم تحترق صينية الفراريج ولم ينطلق الدخان ضباباً كضباب كانون. باقر يذكر ذلك الضباب، يذكّر لورا به ويضحكان. هو يشعر أنه يقترب من لورا وأن لورا تقترب منه، لكن ما إن يحاول الاقتراب أكثر حتى يأتي البعد فينهال عليهما سيفاً قاطعاً. هوة كبيرة تعود فتفغر فاها بينهما. كيف لا وكلاهما يعيش في مكان. مساحات، وحواجز تفصل بينهما... فما تراه يفعل؟ ماذا يقترح عليها وهو عائد إلى بيروت؟

-تذهبين معي؟ أخيراً تجرأ فاقترح.

-إلى بيروت؟ سألته فأومأ برأسه إيجاباً.

-ليتني أستطيع. قالت وهي تتنهد.

-أشعر أننا يجب أن نعرف بعضنا أكثر، أن نلتقي أكثر.

-ابقَ في دمشق.

-لاحقي لي الطلب وأعلميني النتيجة.

-أفعل، وكلي أمل أن يقترن بالموافقة.

لكنه لم يستطع، وهو يودعها إلا أن يميل عليها ثم يطبع قبلة على كلتا وجنتيها.

في الطريق إلى بيروت، كان كل أمله أن لا يكون همام قد عاد. أكثر من مرة حاول الاتصال به من دمشق، لكن المسجلة كانت ترد دائماً "لست هنا الآن. سجل رسالتك بعد الإشارة" عبارة سجلها هو بصوته عندما أقام عنده في المنزل، فلا يسمع أحد صوت همام. أمله كبير في أن يتصل به من أوروبا فينذره. باقر على يقين من أن همام هو الهدف وأن عليه أن يتخذ الاحتياطات. هو يريده أن ينتقل من البيت فور عودته. خصومه عرفوا بيته وفتشوه، إذن سيظلون في أثره إلى أن ينتقموا منه. حقدهم عليه كبير كبر نشاطه ضدهم، محاولاتهم للتوصل إليه مستمرة دؤوبة استمرار محاولاته لكشف حقيقتهم وتعريف الناس بهم.

هاجسه رفع الحيف عن شعب ينوء تحت كلكل الجور والطغيان، تحقيق العدالة في مجتمع تستغله عائلة صغيرة تكاثرت تكاثر الأرانب وكل من فيها يتسلط ويستنزف... ينهب ويسلب ليتركوا الوطن كله جلداً على عظم، فيما أموالهم تنفق بلا حساب على عاهرات أوروبا وملاهيها، مقاصفها وكازينوهاتها. همام بارع في التفاصيل، يجمع قصص أمراء النفط، ويعيد نشرها على أوسع نطاق.

"أمير النفط الفلاني فعل هذا، أمير النفط العلاني فعل ذلك"، وكلها أفعال يندى لها الجبين.

في مناشيره لا يفتأ همام يتساءل "كيف تتحدثين يا أوربا عن حقوق الإنسان وتسكتين عن حقوق الشعوب؟ أليس الشعب أولى بالحرية والعدالة والمساواة من الفرد الإنسان؟ أليس المجتمع الكبير أهم من الإنسان الواحد؟ ها هم أمام عينيك يبطشون بالناس، يقمعون الحريات، يكبلون الأيدي والأرجل، يكمون الأفواه ولا يرتفع لك صوت؟ لماذا يا أوروبا؟". وتصل مناشير همام إلى خصومه فترتعد لها فرائصهم، ثم يكزون على شفاههم وهم يرغون ويزبدون. "فقط لو تقع!!" لكن... همام سمكة في بحر.. عقاب في جو وقد أعيت الحيلة الصيادين في الوصول إلى تلك السمكة أو بلوغ ذلك العقاب. خمسة عشر عاماً والسمكة تنتقل من بحر إلى بحر والعقاب يطير من جو إلى جو وهم يترصدونه. فهل حددوا موقعه الآن؟ وإن حددوه أفلا ينبغي أن ينأى العقاب؟

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها إذا خاف القلى متعزل

باقر متفائل بأن ثمة متسعاً لإنذار همام وإبعاده عن الخطر. أكثر من مرة، قال له همام إنهم حددوا موقعه، كادوا أن يرموا عليه الشباك، لكن أكثر من مرة استطاع الإفلات. هذه المرة أيضاً ينبغي أن يستطيع الإفلات.

وصل باقر إلى المنزل، فتح الباب وبنظرة سريعة من عينيه ثم انصاتة عميقة من أذنيه مسح المنزل "الحمد لله. لم يعد همام" غمغم وهو يتنفس الصعداء. دخل الصالون: لا أثر لمجيء همام. غرفة القعود؟ لا أحد. لكن ما إن دخل غرفة النوم حتى صدمته حقيبة السفر وقد عادت من السفر... أسرع إلى الخزانة. ثمة حقيبة "السمسونايت" أيضاً. "إذن همام عاد، لكن متى؟" ومضى إلى المطبخ. لا أثر لدولة القهوة أو إبريق الشاي.. باقر يعرف. همام يعبد القهوة والشاي، وإذا ما أقام في البيت راحت فناجين القهوة وكؤوس الشاي تتبعثر في كل مكان من المنزل.

"أتراه عاد للتو؟ خرج لجلب حاجة على عجل؟" وانتظر باقر عودة همام لكن دون أن يعود همام.
***
الفصل العاشر
-البشرى لك!! جاءه صوت زهير بعيداً قريباً وكله فرح وسعادة، وافقوا هنا على طلبك. وأحس باقر أن سماعة الهاتف ترتعش فرحاً.
-شكراً لك! شكراً لهم! رد بكل الفرح والسعادة أيضاً فقد انتظر طويلاً ذلك الجواب، وكان بأمس الحاجة إلى موافقتهم.
-متى تأتي؟
-ثلاثة أو أربعة أيام. أنهي أموري وأرحل.
-دمشق ترحب بك.
-فقط... دمشق!؟ قال باقر ممازحاً، وهو يرغب في سبر غور رفيق من القاعدة ربما تأثر بموقف القيادة.
-الرفاق كلهم في دمشق. نحن هنا ننتظرك على أحر من الجمر. وأحس باقر بشيء يثلج صدره. "إذن ما زال الرفاق كعهدك بهم يفكرون بك.. يولونك الاهتمام والرعاية!!" وحين أغلق السماعة وجد نفسه يرتمي ملء طوله على السرير، متنفساً الصعداء. كأنما كان يحمل ثقلاً على ظهره أنزله للتو.
هو مذ عاد إلى المنزل ووجد حقائب همام بغير همام بات يشعر وكأنه يحمل ثقلاً على ظهره. بيروت كلها صارت أضيق عليه من خرم الإبرة "ابتلعت همام، هذه الضبعة النتنة التهمت صديقي. كيف؟ متى؟ أين؟" وراح باقر يبحث عن الرجل الذي التهمته بيروت. صاحب البقالية المجاورة قال إنه رأى بأم عينه هماماً وهو ينزل من سيارة أجرة ذات مساء، معه حقيبة سفر و "سمسونيت"، كلتاهما سوداء. الحقيبتان موجودتان.. ما تزالان هناك لم تفتحا. "إذن همام عاد لكن... أين هو؟" سأل بعد ذلك الأصحاب المشتركين، راسل أهله هناك في مسقط رأسه، كلهم كانوا يؤكدون أنه عاد إلى بيروت. "لكن ماذا بعد؟" لم يكن ثمة جواب. همام شبح سلط عليه ضوء واختفى. وكان ذلك هو الهم الذي ظل شهوراً يقلقه. باقر لا يفتأ يفكر... يقلب الاحتمالات كلها بطناً لظهر "هل هم أنفسهم الذين فتشوا البيت؟" ويشعر باقر بالذنب.. لو استطاع أن ينذره إذن لتغير مصيره.
"ما تراهم فعلوا به؟ يسجنونه؟ يعذبونه؟ أم تراهم صفوه؟" باقر يعلم أنه إن وقع بين أيدي أعدائه لن يدعوه على قيد الحياة. قلوبهم لا تعرف الرحمة. بل السلطة والرحمة كالصيف والشتاء لا يلتقيان على سطح واحد، إن امتلأ قلب رجل بحب السلطة انتفت من عالمه كل شفقة أو رحمة. "فماذا حل بك يا صديقي؟ أي مصير أسود تواجهه يا همام؟"
وكان همام قد عاد إلى بيروت حقاً، لكن عصابة من أربعة داهمته فور وصوله إلى المنزل. اثنان وقفا على السطح، واحد لطأ جانباً فيما دقت الباب امرأة جميلة مغناج تكشف عن جسدها أكثر مما تستر. رآها همام عبر العين الساحرة فلم تثر في نفسه ريبة. "لعلها إحداهن" كان ثمة غبشة وكانت الرؤية غير واضحة. فتح الباب فتنحت للتو، فيما انقض عليه اللاطئ جانباً. بركبته وجه ضربة صاعقة أسفل بطنه فيما أطبق بكفه على فمه. الآخران أسرعا إليه، أكملا تعصيب عينيه وتكميم فمه ثم حملاه بسرعة البرق إلى السيارة، ألقياه في صندوقها، ثم انطلقوا به أسرع من الريح.
منذ تلك اللحظة لم يعد همام يرى شيئاً أو يعرف شيئاً. كان كل شيء حوله قد تحول إلى ظلمة دامسة ومجهل مقفر. ربما هو يسمع أصوات أقدام، أو جلبة سيارات، طقطقة مفاتيح أو صرير باب، ما عدا ذلك بات كل شيء بحراً من وحشة وظلمة. ساعات، أياماً، ربما ظل همام ملقى على الأرض.. لم يكلمه أحد، لم يسأله أحد، بل لم يطعمه أحد.
الحجارة لا تأكل، لكنها تسمع. سمع همام هدير طائرة ثم أحس بإقلاع، وعلى نحو غامض شعر أنه يطير في السماء. رجرجة ثم استواء... استواء ثم رجرجة فانسياب بغير اهتزاز واضطراب جعله يوقن أنه يطير في السماء.
حين حطت العجلات على الأرض أحس بثقالة الأرض، أحس بطمأنينة من نوع ما تحل محل ذلك الخوف وهو بين الأرض والسماء، لكن خوفاً من نوع آخر داهمه. "قد صرت الآن في فم الضبع، فماذا تفعل يا همام؟" حين أمسكوا به حاول أن يخبط... يلبط... يصيح وكله أمل أن يأتي من ينقذه. حين وضعوه في صندوق السيارة حاول أن يضرب

الغطاء بظهره، يرفس الجوانب بيديه، برجليه، والأمل نفسه يدغدغه. بل حتى في الطائرة ظل هناك ذماء من أمل في أن تسنح له فرصة ما فينجو بجلده، لكن أي أمل يظل وقد صار في فم الضبع؟ ماذا تبقى له وقد رفعوا العصابة عن عينيه ليلقوه في قبح كالح الجدران رطب السقف متقشر الطلاء لم ير الشمس قط.
"لقد وقعت... الآن وقعت أيها الحر فهل تخبط؟"
أول وجه رآه كان وجهاً قاتماً شديد السمرة في بشرته آثار لأقدام جدري.
-ها!! ايش اسمك؟ سأله الرجل شديد السمرة أجدر الوجه، فكاد همام أن يضحك.
-جئتم بي من بيروت إلى هنا ولا تعرفون اسمي؟ رد ساخراً.
-وتسخر!؟ ملعون الوالدين تسخر؟ وانهال عليه بسوط لف ظهره لفاً إلى أن بلغ جانب وجهه الأيسر فسفعه سفعاً كأنه لهب نار. كاد همام يصرخ، يسب، لكن سرعان ما كظم وهو يتذكر أن الحر إن وقع لا يخبط. كان ملقى على الأرض موثق اليدين، مكبل القدمين، وكان الرجل فوقه يتمنطق بمسدس وصف من الرصاص، في يده سوط وفي حذائه مهماز. "أهو ماضٍ لسباق خيل؟ داخل معركة فرسان؟" وكظم همام أكثر، وقد أدرك أن المهماز لكي ينخزه والسوط لكي يسوطه والمسدس لكي يقتله إن اقتضت الضرورة.
-ها!! تكلم. ايش اسمك؟
-أريد محامي. ما أتكلم بغير محامي.
-محامي!؟ لا!! أنت بلندن!؟ تريد محامي!؟ ها!! وانهالت على ظهره السياط. صمت همام وقد عقد العزم على ألا يتوجع أو يتكلم.
-أسألك، تجيب. تسمع؟ صرخ به بعد أن سأله عشرة أسئلة دون أن يجيب همام. كان يريد أن يعلم من يمده بالمال.
-ها!! قل. من يعطيك المال؟ الموسكوف... الملاحدة... أعداء الله!؟
لكن هماماً لم يرد. زم شفتيه وكظم وجهه وقطب حاجبيه، صخرة من صوان أصم ليس فيها منفذ.
-ايش؟ مالك لسان؟ ما تعرف الكلام؟ خجلان من نفسك ما تقدر ترد؟ أنت يا لتتطاول على أسيادك وتيجان راسك ما تخجل على نفسك؟ ما تستحي.. يا ملعون الوالدين!؟
واشتد همام تقطيب حاجبين وزم شفتين. حاول الرجل صاحب المهماز والسوط أن يفتح شفتيه، أن يفك عقدة لسانه لكن عبثاً... ضربه بالسوط أكثر من مرة، نخزه بالمهماز أكثر من مرة، لكن همام حجرة من صوان.
أخيراً نفد صبره فانهال عليه وابلاً من سياط وسيلاً من وخزات مهماز إلى أن غطت وجهه الدماء وغشي عينيه الضباب.
نكاية بعشتار اختطفت ربة الجحيم تموزاً ثم ألقته في غياهب الظلمة والقرس. كان الصقيع يلفه من كل جانب وكان تموز يرتعش... يجس ما حوله بيديه فلا يجد غير الجدران، يحاول أن يتبين ما حوله فلا يرى غير الظلمة. وحين جاؤوه بالطعام كادت أسنانه تتكسر فقد كان طعامه الحصى، وكان شرابه الزقوم وكانوا الساعة تلو الساعة يطحنون على صدره الملح. حجر الرحى تدور على صدره وهو مطبق الشفتين لا يئن ولا يتوجع. ربة الجحيم ترقبه، كل ما تتمناه أن يئن ويتوجع فتشفي غلها منه ومن عشتار.
همام كتموز جاء به رب الجحيم، ألقاه في غياهب الظلمة والقرس، راح يطعمه الحصى، يسقيه الزقوم، يطحن على صدره الملح ثم يذروه في عينيه، أياماً وليالي... أشهراً وفصولاً ظل ذلك دأب رب الجحيم. لكن دون أن يستل من تموز آهة أو يحصل على اعتراف.
أخيراً قرر رب الجحيم:
-ألم يقل إن بلادنا جحيم، شعبنا كله يعيش في الجحيم، إذن ألقوه في الجحيم!!
ومن جديد أعيدت العصابة إلى عيني همام، ثم حملته ناقلة إلى مكان عرف فيما بعد أنه طائرة حلقت به عالياً في السماء... تهدر وتهدر... تسير وتسير... إلى أن وصلت إلى مكان بعيد. رفعوا العصابة عن عينيه فرأى تحته صحراء مترامية الأطراف. لم يكن باستطاعة همام أن يعرف أية صحراء هي فكل ما دونه أمداء لا حدود لها من كثبان ورمال، وشمس تموز تشعل كل ما دونها من كثبان رمال. اللهب يتصاعد من أسفل إلى أعلى. سحب الرمل تتصاعد مع اللهب تسفوها رياح من شواظ هي الأخرى تصل إلى الطائرة فتسفع وجهه.

-الآن... ترى الجحيم الذي كنت تتحدث عنه، قال المحقق وهو يلكزه في وجهه.
-الآن أخلص منك ومن سادتك! الآن أجد الخلاص، فمرحباً بالخلاص!!
نطق للمرة الأولى همام وقد علم أنها النهاية. "هنا يطلقون علي الرصاص وينتهي الأمر"، لكنه لم يكن يعلم أن مصيراً أشد قسوة كان بانتظاره... حكماً أكثر رهبة كان قد صدر بحقه. يموت يستريح، لكن أن يعيش في الجحيم فذلك هو العذاب العظيم، "ألقوه في الجحيم"، قالوا للجلاوذة، "بلا ماء، بلا طعام، بلا كساء، بلا حذاء، فيتعذب قبل أن يموت مر العذاب".
وهكذا، لم يطلق عليه أحد الرصاص، بل أسرع أحد الجلاوذة يعريه من ثيابه ليتركه كما ولدته أمه، لا نعلاً يقي رجليه ولا ستراً يستر عورته. بعدئذٍ ربطوه بحبل من فولاذ ثم حملوه إلى باب الطائرة، فتحوا الباب على مهل، ثم بأرجلهم رفسوه. اثنان... ثلاثة، صار بعدها في الفضاء يشهق طلباً للهواء فلا يجده.
صرخ مستغيثاً وما من مغيث. على مهل راحوا ينزلون الحبل. بكرة في مكان ما كانت تكر لينزل إلى أسفل بكل تؤدة، كان الحبل يكر وعلى مهل كانت الطائرة تطير، وهو معلق بين السماء والأرض.
-إلى الجحيم وبئس المصير. صاح به المحقق من علٍ وهو يقهقه قهقهة التشفي والحقد.
-بل أنت وأسيادك إلى الجحيم، صرخ راداً وقد عاد إليه عنفوانه، أيها المجرمون!! القتلة!! يا أعداء الشعب والله!!
لكن سحابة من رمل كانت قد وصلت إليه، ملأت فمه حتى لم يعد باستطاعته أن يصرخ، شواظ من لهب كان قد بدأ يلفح وجهه، يحرق عينيه ثم أحس بشيء كالنار يلسع قدميه وقد وصلتا إلى الأرض فيما كان كثيب من رمل يتحرك باتجاهه، وحشاً فاتكاً يريد التهامه.
بعد عشرة أشهر فقط، عرف باقر ما حل بصديقه، لم يكن ذلك رسالة من أخ أو أخبار من صديق، بل كان بياناً من منظمة حقوق الإنسان ندد بالعمل الوحشي الذي ارتكب ضد إنسان ينادي بحقوق الإنسان، يسعى من أجل أهله وأبناء وطنه لتحقيق الحد الأدنى من شروط الحياة الإنسانية، الكرامة الإنسانية، الحرية والديموقراطية. وكان في البيان وصف للمصير الأسود الذي واجهه همام وقد ألقي في صحراء لاهبة بلا غذاء ولا ماء، بلا لباس ولا حذاء.
أكثر من عشر مرات قرأ البيان وهو بين مصدق ومكذب "أيعقل أن يفعل ذلك إنسان بإنسان؟ إذن إلى أي درجة يمكن أن يصل الحقد بالإنسان؟ إلى أي حد يجعل حب الانتقام منه وحشاً ضارياً لا علاقة له بالإنسانية؟ أنت تعذب إنساناً أشهراً طويلة ثم تلقيه في الصحراء... هكذا!؟ دون شفقة أو رحمة!؟ ويقولون صدام ديكتاتور مستبد يطلق النار على خصومه فيرديهم قتلى!؟ لا، هذا أهون بكثير. إطلاق النار يريح الآخر من العذاب، يوفر عليه المعاناة، أما عقاب كهذا فأمر لا يقبله عقل بشري". وبكى باقر على صاحبه دموعاً حرى لم يكن يحسب إلا أنها نضبت من قبل.
هم آخر بات يثقل على صدر باقر: حاجات همام الخاصة، ملابسه، أوراقه... ما تراه يفعل بتلك الأشياء؟ ثلاث... أربع... خمس رسائل أرسل باقر إلى أهله، لكن عبثاً، أهله صم بكم لا يفقهون.
"لعلهم صفوا أخاه أيضاً... لعلهم صفوا أهله جميعاً. هو لا يعرف غير ذلك العنوان. وجده بين أوراق همام. بإلحاح كتب لهم "تعالوا خذوا حاجاته... تعالوا استلموا أشياءه"، لكنه سرعان ما كف. "من يدري؟ ربما ينتبهون إلي فيصفونني أيضاً. شاهد عيان يشهد على جريمتكم فلماذا يبقونه؟" وغدا باقر يخشى السكنى حتى في البيت. كان يأتي إليه لماماً وعيناه تطوفان كل مكان "أهناك من يراقب المنزل؟ أهناك من يترصدني؟" ثم لا يلبث أن يغادر إلى منزل أبي الليل، فليس باستطاعة باقر أن يأخذ لنفسه منزلاً. كان راتبه من المعسكر قد توقف، وكانت الجبهة التي احتضنته مذ جاء إلى لبنان تعاني ضيق ذات اليد، الحلفاء تهاووا واحداً بعد الآخر وأنصار الكفاح المسلح تلاشوا كأنهم بخار ماء، وكان باقر يعلم أنه لم يعد باستطاعته أن يثقل على الجبهة. حسبها أنها زودته ببطاقة هوية عوضاً عن هوية بغداد، حسبها أنها احتوته سنين طوالاً... دربته على قتال الشوارع، حرب العصابات، فك الألغام، استخدام كافة صنوف الأسلحة بل صقلت عضلات جسده لتجعل منه جسداً للتحمل والصعاب. الأكثر من ذلك أنه هو الذي فك الارتباط، هو اختار الخروج من المعسكر، فكيف يطلب راتباً، ما معه من مال كان ينفد بسرعة وكان الخوف من

الفقر يمثل أمام عينيه باستمرار، شبحاً في الليل وغراباً أسود في النهار "ماذا إن بلغ بك الأمر أن لا تجد كسرة خبز تأكلها؟ اللعنة يا باقر!! ها هي ذي أمورك من سيء إلى أسوأ. ها هو ذا الفقر يعود ليتهددك وحشاً مفترساً ينقض عليك!! فماذا أنت فاعل؟"
وجاء هاتف زهير: يداً تمتد لغريق على وشك الاختناق. حمل باقر فرحه ومضى إلى أبي الليل وكل ظنه أنه سيشاركه ذلك الفرح.
-مبروك!! رد أبو الليل ورعشة أسى تغلف صوته.
-ماذا؟ أراك حزنت؟ سأله باقر بشيء من استغراب.
-كيف لا ونحن نفترق؟
-ماذا أفعل أبا الليل!؟ لم يعد أمامي من خيار. أنا لا أخفيك بت أخشى الجوع، ولا مورد لي ولا عمل في بيروت.
-يا حيف!! رد أبو الليل بنبرة عتاب: تخشى الجوع وأبو الليل هنا؟ لا.. نحن أخوة. والأخوة يقتسمون بينهم كل شيء.
باقر لا ينكر أن أبا الليل أكثر من أخ. عرض عليه بيته سكناً دائماً له، قدم أهله أهلاً له، ماله يأخذ منه ما يشاء. لكن باقراً رجل يتحلى بالذوق، يعرف الحياء ولم يكن يكره، كأن يعد يوماً بين الضيوف الثقلاء! ذات مرة، عرض عليه أبو الليل أن يعملا معاً، يفتحا مشروعاً ما، وأعجب ذلك باقراً. استعرضا الأعمال المتاحة عملاً عملاً ومشروعاً مشروعاً، لكن كلها بدت بالنسبة إليه عجفاء. "التجارة!! مالي وللتجارة؟ اللهاث وراء المال؟ ما أنت من يلهث وراء المال يا باقر. لو شئت لكان معك أكوام منه!! كان حسبك أن تظل في بغداد، تغض النظر عن كل ما يجري هناك وتعمل في اختصاصك مهندساً صناعياً يصنع أي شيء. فيجد نفسه فوق الريح". وحده مشروع مجلة كان يحمل بعض الإغراء.. مجلة سياسية ثقافية كتلك المجلات المنتشرة في بيروت انتشار الفطور على جذوع الصفصاف. المهندس الصناعي، مذ فارق العراق، بات ملء أضلاعه الحنين للعراق... والحنين عواطف تجيش أحياناً في الصدر لتحيل المهندس الذي درس الصناعة في بغداد ثم الأيديولوجيا في موسكو إلى شاعر تترقرق عيناه بالدموع لأبسط ذكرى وأخف موجة من حنين...
أبو الليل تربطه علاقة ما بعالم الثقافة والصحافة... في المعسكر كان يحرر نشرة أسبوعية، مجلة الجبهة، يبعث لها بين الحين والحين مقالة عن إسرائيل، دراسة عن الشتات الفلسطيني، رأياً في الكفاح المسلح... وتشكل ذلك كله رصيداً لأبي الليل في الساحة الثقافية. هو مشروع صحافي وباقر مشروع شاعر، بحثا معاً إنشاء مجلة، فتبين أنها بحاجة إلى أموال وممولين وارتدا حينذاك على أعقابهما ناكصين.
-لكن مشروعنا ما يزال قائماً، مشروع المجلة، قال أبو الليل بنبرة كلها حب.
-حين تجد المال، أنا على أتم الاستعداد. أترك كل شيء وأعود، وعد باقر.
-بل وجودك في دمشق قد يزيد المشروع قوة لا ضعفاً.
وهو كذلك!! ثم أخذ كل منهما الآخر بالأحضان.
ودع باقر أسرة أبي الليل، وكأنه يودع أسرته هناك في البصرة... أخاه وأخته، أمه وأباه. حزيناً، كئيباً دامع العين، "مرحلة تنتهي ومرحلة تبدأ"، هكذا شعر باقر وهو يمتطي السيارة متجهاً إلى دمشق.
(إيه، دمشق!! أيتها الفيحاء، يا أخت الجنة!! مرتين كنت البداية من قبل.
المرة الأولى جئتك على ظهر دبابة. أتذكرين؟ كنت تخوضين حرباً شرسة يا دمشق، وكانت الطائرات الإسرائيلية تقصف أحياءك ومبانيك، تقتل بناتك وأبناءك... فرحت تستنجدين وأنجدتك بغداد... أختك التوءم. أتذكرين يا دمشق؟ قوافلنا العسكرية وهي تغذ الخطا إليك. مصفحاتنا، مدافعنا، شاحناتنا كلها تمر بك وأنت تتكومين على نفسك اتقاء صواريخ العدو وطائرات العدو ذاك الذي كان قد اخترق الجبهة... اندفع شرقاً. وأنت في الشرق. تنظرين إليه فترتعدين خوفاً، تصل مسامعك انفجارات قذائفه فترتج عظامك!! آه!! كم كنت مذعورة يا دمشق!! الكثيرون من أهلك شدوا الرحال عنك، حملوا أجبانهم، زيتونهم، مكدوسهم، وهرولوا مبتعدين. ولكم فرحت حين رأيتنا يا دمشق؟ أتذكرين؟ بالأزهار استقبلتنا، بالأحضان أخذتنا، وجنة وجنة لثمتنا، ودفعت بنا نحو الغرب بعد أن استثرت نخوتنا وحفزت مروءتنا، نخوة النشامى ومروءة الفرسان الآتين من بغداد ينجدونك ولا منجد، يغيثونك ولا مغيث، أتذكرين يا فيحاء؟ أنا أذكر. أذكر وجهك

الحزين وأنت ترين طائرات العدو تصول وتجول في سمائك، أذكر شوارعك المرتعدة وصواريخ العدو وقنابله تنفجر مدوية هنا وهناك على أرضك، أذكر الطريق الملأى بحطام السيارات.. ونحن ننطلق إلى سعسع، حيث العدو يدفع بدباباته قدماً... يريد أن يصل إليك قبل أن نصل نحن. سباق كان بيننا. حاولت طائراته أن تعيقنا، قصفتنا ونحن في "أبي الشامات"، قصفتنا ونحن في "الضمير". لكننا كنا مصممين تصميم من لا يثبط عزيمته شيء، ووصلنا.

سبقنا العدو ووصلنا. حاجزاً من نار أقمنا في وجهه، خنادق جحيم حفرنا له، وبدأت دباباته تشتعل، مصفحاته تنفجر، ونشامى بغداد يستقتلون دفاعاً عنك، يجودون بأرواحهم لإنقاذك من براثن الأعداء يا دمشق؟ أتذكرين؟ أجل... أنت وفية مخلصة والوفي المخلص لا ينسى. أنا أذكر كيف استقبلتنا بعد أن عدنا من المعركة وقد رددنا العدو.

أذكركم كنت سعيدة بنا، فرحة بلقائنا. بيوتك فتحت. قلبك قدمت. وأهلك الطيبون كم كانوا كرماء. كل منهم يبذ حاتماً كرماً وسخاء.

وأنت تنثرين علينا فلك وياسمينك. آه!! يا لعبق فلك وياسمينك، عطراً ولا أبدع، أريجاً ولا أروع، فهل تذكرين يا دمشق؟".

وبدا له أن دمشق تذكر، فقد استقبلته ساحة الأمويين، ثم شارع بيروت بمهرجان أضواء خيل إليه معه أن ثغر دمشق يفتر عن ابتسامة لألاءة وهي تراه. كان الشهر أيلول وكانت أنسام بردى عليلة بليلة ورشاش الماء يتطاير من بردى لينشر سحابة من رذاذ تبلل الأنسام صانعة منها برداً وسلاماً يطفئ ما بقي من حر الصيف. باقر يتنشقه فينتعش كل ما فيه، تنفتح كل المسامات في صدره ليعب الهواء عباً وقد أضنته طويلاً لزوجة الهواء في بيروت ودبق الصيف في بيروت.

باقر يعرف دمشق جيداً. شارع بيروت المتلألئ يذكره لكنه لا يذكره بذلك اللألاء. هو لم يره من قبل يلبس حلة المعرض القشيبة... هو يعرف الحميدية، الحجاز، الصالحية... مقاهي دمشق يعرفها جيداً. (أتراه ما يزال في مكانه مقهى الحجاز!؟ هناك حيث كنا نجلس أنا ورفاقي الجنود فيلتم علينا الدمشقيون، يسألون، يستفسرون، ونجيب ثم نسأل بدورنا. كنا نريد أن نتعرف على أحد من رفاقنا، كنا بشوق لأن نقرأ شيئاً من صحفهم، أدبياتهم. وكنا نتشمم ونتقصى. ذات يوم رأينا شاباً يقترب منا. سألنا... سألناه... لمح.. لمحناه وعرفناه رفيقاً طمأناه طالبين منه جرائد.. كراسات.. كتباً. فالجبهة قفراء نفراء لا كتب فيها ولا ثقافة. ولشد ما فرح "هيا.. هلموا معي إلى المنزل"

وفي المنزل رأينا فيه الرفيق والأخ... تغدينا.. أكلنا التفاح الشامي الأحمر إيه!!

يا عاذل التفاح في وجناتها
لو ذقت بعض شمائل التفاح

وفي النهاية زودنا بأعداد ثلاثة من "نضال الشعب" تلقيناها كما يتلقى العاشق معشوقه. لكننا كنا نخاف. إن رآها أحد من زملائنا في الكتيبة وشى بنا، ونظام بغداد لا يرحم. كان قد حرم على حزبنا العمل في صفوف الجيش والطلبة، وكانت الوشاية بنا تعني السجن والتعذيب، وربما السحل والقتل. في حذائي العسكري خبأت عدداً من "نضال الشعب"، وفي حذائه العسكري خبأ زميلي العددين الأخيرين. وهنا... قرب تل العدس حيث جرت آخر معارك القتال بيننا و بين الدبابات الإسرائيلية وصددناها على أعقابها كسيرة حسيرة، رحنا نقرأ المقالات، نتلذذ بأفكارها ثم نطمرها تحت شجيرة في خندق لكي نعود إليها في اليوم التالي.

وهكذا إلى أن فليناها تفلية الأم لفروة رأس ابنها. آه!! كم كان يسعدنا أن نقرأ تلك الأيام!. أن نحلم!! وما كان أزهى أحلامنا!! أحلام الاشتراكية.. العدالة... زوال الطبقات فلا برجوازي ولا بروليتاري، كم كنا نطير وراء تلك الأحلام فنرى العالم كله تسوده المساواة والإنصاف، العمل والإنتاج، التعاون والتآزر فلا مستغل ولا مستغل، لا غني ولا فقير... بل الكل سواسية كأسنان المشط. تلك كانت المرة الأولى وكنت يا دمشق ما أزال في عمر الأحلام. كنت في أول الصبا أريد أن أغير العالم، أن أمسح تشوهات وجهه فأعيده متسق السمات متناغم القسمات، وجهاً جميلاً كوجه يوسف، وكنت من أجل ذلك أحمل روحي على كتفي، وكلي استعداد لأن أضحي بما أحمل على كفي.

المرة الثانية كنت قد تجاوزت مرحلة الصبا يا دمشق، كان الكفاح والنضال قد قادني إلى مسارب ومسارب. هذه المرة رجعت إليك مستنجداً فأنجدتني. أتذكرين يا دمشق؟ أنا باقر التنكجي الذي جاءك أول مرة على ظهر دبابة، جاءك في المرة الثانية على ظهر شاحنة.. كيس بطاطا أو بصل. كانت الشظية قد اخترقت لوح الكتف وكنت في حالة يرثى لها. جبال كردستان الوعرة كانت قد أعاقتني. يوماً وليلة ظللت إلى أن حملني "المارشال" البغل إلى ضفة دجلة هناك في الشمال، وفي زورق بائس انتقلت إلى الضفة الأخرى ثم إسعافات أولية فرحلة طويلة شاقة إلى دمشق، لكن على ظهر شاحنة، سقيم الوجه، عليل الجسم، تكاد الروح تزهق لكنك أغثتني يا دمشق. أدخلتني إلى شغاف قلبك، وطوال شهرين كنت تسهرين علي، تضمدين جروحي، تجبرين ما انكسر من ضلوعي. شيء واحد عجزت عن فعله لي: إخراج نثار الشظية داخل رئتي فأرسلتني إلى صوفيا، علك تردين لي الجميل فأعود إليك شافياً معافى كما جئتك أول مرة شافياً معافى يا دمشق!!".

ستة أشهر كان باقر قد ظل في سورية أيام الحرب.. وكان كلما سنحت له الفرصة ينزل مع رفاقه إلى دمشق، وكانت مدينة الياسمين الجميلة المغرية تجذبهم إليها جذب النور للفراش، في ربوعها عرف باقر الأمان والطمأنينة. عاش أحاسيس الود والمحبة، وبين أحضانها نسي الغربة. كان كل من يراهم يرحب بهم، يتجاذب معهم أطراف الحديث، بل الكثيرون كانوا يدعونهم إلى بيوتهم يطعمونهم المحشي والكبة، التبولة والبرغل. ثم يقدمون الحلويات الشامية تلك التي كان باقر يسمع بها ولا يعرفها: المبرومة، البلورية، زنود الست "آه، يا لزنود الست!! ترى أيهما أشد حلاوة وطراوة: زنود "ست" شامية حقيقية، أم زنود الست هذه؟" وتلمظ باقر وهو يعبر أول محل حلويات قرب كراج بيروت. لقد وصل باقر إلى قلب دمشق دون أن يشعر أنه دخل دمشق: سمة من سمات هذه المدينة العجيبة تصل إلى قلبها وأنت تظن أنك ما تزال في أطرافها. هكذا تستقبل دمشق القادمين إليها مدخلة إياهم مباشرة إلى القلب.

في قلب دمشق قضى باقر أيامه الثلاثة الأولى. لم يكن يريد أن يثقل على أحد. قصد نزلاً رخيصاً يعرفه. أنزل فيه حقيبتين واحدة له والأخرى لهمام فقد كان حريصاً أن يعيد حاجاته لأهله إن وجد طريقاً لأهله. في اليوم التالي ذهب إلى مقر القيادة. ثمة إجراءات، أوراق، أسئلة لا بد من الإجابة عليها قبل أن تكتمل الموافقة. الموافقة اكتملت والطلب مهر بخاتم وتوقيع المسؤول لتفتح بعدها الأبواب:

بطاقة جديدة. "أتريد اسماً مستعاراً؟" سأله صاحب الشأن المبجل وهو يجلس خلف مكتبه كقيصر روما "لماذا واسمي الآن مستعار؟" باقر يذكر يوم فر من بغداد ورجال الأمن يلاحقونه. كان لا بد له من بطاقة. صاحبه ذاك الذي حاول عشرات المرات أن ينسِّبه إلى الحزب ورفض، وافق على إعطائه بطاقته. أخذ البطاقة، نزع عنها الصورة ليضع بدلاً عنها صورته هو، ثم مضى متسللاً يعبر الحدود.
مع البطاقة أعطاه المسؤول، النافخ أوداجه كقيصر روما، أوراقاً وقعها، وتعليمات قال له إن عليه حفظها عن ظهر قلب. في النهاية قدم له ظرفاً في داخله نقود. حين وصل إلى الفندق فقط فتح الظرف. كانت ثمة بضعة آلاف وكان عليه أن يعيش بها لاجئاً سياسياً شتان ما بينه وبين اللاجئين السياسيين. "في السويد يأخذ اللاجئ خمسة عشر ألف كراون، في بريطانيا يعطونه ألفاً وخمسمائة جنيه، في الولايات المتحدة ثلاثة آلاف دولار". باقر يستعرض الأوراق المالية الضئيلة القيمة أمامه، ثم يتابع: "لكن... لا بأس. هنا المعيشة أرخص والحياة أسهل". في دمشق الدخل متردٍ والمعيشة صعبة، إذن عليه أن يكون كالناس في دمشق، دخله كدخلهم ومعيشته كمعيشتهم. باقر مقتصد ثم هو لاجئ. الحظ وحده جعلهم يقبلونه لاجئاً ويعطونه راتباً وامتيازات، حدثه عنها الأشبه بقيصر، وإلا لظل طريداً شريداً مهدداً بالجوع.
-تسكن معنا، بادره زهير وقد قصده باقر حاملاً الأخبار.
-من أنتم؟ سأله باقر وهو يعلم أن زهيراً يساكن آخرين.
-أربعة فتصير أنت الخامس!!
وللتو ازدحمت في رأس باقر مشاهد سكنى جماعة، كل من فيها مشرد بعيد عن أهله، يعاني الحرمان والغربة، "فأية مشاكل ستقوم؟ وأية حرب ستنشب!!".
-لا، أنتم في حي ناء، وأنا أفكر باستئجار غرفة في قلب دمشق.
كان على باقر أن يفعل ذلك، فزهير وأصحابه كانوا ما يزالون في التنظيم، وكان هو قد ابتعد... لم يقطع ما بينه وبين الحزب لكنه صار بعيداً، بينه وبين قيادته ما صنع الحداد، فقط، هو صاحب لا يتكلم والقيادة صامتة عنه لا تتكلم.
-أنا أعرف مثل هذه الغرفة. قال زهير بعد نقاش غير ذي جدوى، ثم مضى به إلى أم رجوة، امرأة في حدود الستين، دارها في قلب البلد، وغرفتها شبه مستقلة توفر جل شروط باقر للسكن... فقط كان عليه أن يساومها وقد اكتشف أن المرأة محترفة إيجار واستئجار بارعة في المساومات وعقد الصفقات... لكن حين نقل حقائبه إلى الغرفة، حينها فقط تنفس الصعداء وقد أحس أنه بلغ شاطئ الأمان.
في المساء نفسه دعاه زهير:
-نتعشى معاً ونسهر معاً! لكنه اعتذر:
-التعب يهدني. دعني ارتح الليلة فقط.
لم يكن باقر يريد أن يرتاح وحسب، بل يريد أن يرتب أموره من داخل "ماذا يقول للرفاق؟ كيف يتصرف؟ هو واثق أن بيت زهير مضافة يؤمها الغادي والصادي من هاربي الرأي العراقيين، ولاجئيه السياسيين، وعليه أن يبدأ بداية جيدة معهم، لا جدال ديالكتيكي ولا اشتباك تكتيكي. لقد قرر باقر أن يعيش بسلام.
حين أفاق في الصباح كان العالم كله يبدو وكأنه يفيض سلاماً، المنزل هادئ.
لا صوت، لا حركة، لا مذياع يصيح، لا قعقعة أوانٍ في المطبخ "أين تراها أم رجوة؟ تتأخر في الاستيقاظ أم تكره شغل المطبخ؟" لم يكن باقر قد عرف الكثير عن المرأة.
زهير زوده بذلك القليل. "ممرضة قديمة ومتعصبة ضد الرجال، كل الرجال". وبرم باقر شفته "مالي ومالها؟ متعصبة أم متساهلة؟" كان كل ما يهمه أن تدعه وشأنه، عدم تدخل متبادل يمكن أن يعقدا بينهما فيرتاح وترتاح. لكن ما إن عاد بحقائبه حتى لمح ابنتها رجوة، فتاة في ميعة الصبا، فخطر أول ما خطر بباله سؤال آخر "إن دعتني الأم وشأني، أتدعني البنت؟" طوال تلك الليلة لم يكن بحاجة لأن يخرج من غرفته أو يقصد المطبخ. لكن مع أنسام الصباح تطيب لباقر القهوة، فهل يصنعها بنفسه أم تصنعها أم رجوة؟ حام السؤال أيضاً في الغرفة فيما كان باقر يتمطى، فاركاً عينيه، فاركاً دماغه وقد حطت عليه سحابة من كسل واسترخاء.
طويلاً انتظر باقر، لكن أحداً لم يأت، صوتاً لم يسمع. المنزل ساكن سكون القبور "إذن، عليك أن تصنع قهوتك بنفسك". ونهض وقد زالت من رأسه سحابة الكسل

والاسترخاء.حين كانا معاً، كان همام يعد القهوة أكثر الأيام، هو النشيط الذي يستيقظ باكراً وكأنه يأبى أن يفوّت ساعة من ضوء فلا يراه. عند أبي الليل كانت أم الليل هي التي تعد القهوة ويشربونها هم الثلاثة معاً، لكن ها هو ذا وحيد في دمشق، من يعد القهوة؟ إختلس باقر وهو يتوجه إلى المطبخ النظر، لكن لا أثر لأم رجوة. استرق السمع لكن أيضاً لا أثر لصوت، فدغدغه شعور بالراحة: "خلا لك الجو فبيضي واصفري"، وراح باقر يبيض ويصفر أياماً وليالي لا يرى في البيت أحداً.
-ألو!! لورا!! صباح الخير، بادرها بالهاتف ذات يوم وقد وجد أن عليه أن يكلم أحداً.
-صباح النور. من؟ ردت لورا وقد غابت عنها نبرة الصوت.
-احزري.
-هشام!!
-ها!! كشفتك!! هشام!! من هشام هذا؟
-تريد أن تشاكس؟ أليس لديك عمل، نترت لورا بصوت مشحون بالغضب.
-لا، لا، لا تغضبي، سارع باقر يهدئها. أنا باقر.
-أوه!! باقر!! أهلاً ومرحباً بك.. أين أنت؟ من أين تتكلم؟
-من فمي، وقهقه كلاهما ضاحكين.
بعدئذٍ انهمرت أسئلة لورا رشاً، في نبرتها الكثير من الاعتذار.
-أنا الآن في دمشق لاجئ سياسي كما نصحتني.
-عظيم... مبروك... وألف أهلاً وسهلاً بك.
-أنت مشغولة؟
-حتى لو كنت كذلك، أتفرغ لك. تعال نتغدَّ اليوم.
-وتحرقين الدجاج؟
-لا... لا... أمي هنا تطبخ لنا. سأطعمك أكلة لم تذقها في حياتك.
-أف!! أف!! ما هي؟
-اللوف... أتعرف اللوف!؟ أكلته يوماً؟
-لا... أبداً. رد باقر وقد عزم على شيء. لكن صدقيني. أنا في الطعام لا أحب أن أجرب، مطبقاً المثل القائل "ما تعرفه خير مما تتعرف عليه".
-المعنى؟
-نتغدى معاً، لكن أنا من يدعوك، وضحكت لورا ضحكة رنانة.
-الظاهر، جيبك ملآن!!؟
-قليلاً.
ولكي يؤكد لها أن جيبه ملآن قليلاً، اقترح الذهاب إلى مطعم أربعة نجوم، لكنها أبت إلا أن تذهب إلى مطعم بنجمتين.
-هنا الطعام أطيب، قالت وقد أتى النادل بلائحة الطعام، أنا أعرفه وواثقة منه. ثم هو هادئ يمكننا أن نتحدث فيه على هوانا.
وتغديا ثم تحدثا على هواهما. أشياء كثيرة تحدثا عنها. لكن حين انتهيا، كان ما يزال هناك الكثير مما يجب أن يتحدثا عنه فدعاها إلى منزله.
-هو قريب... تتعرفين عليه.
-أجل، بودي ذلك، قالت ثم سارت دون أي تلكؤ. عند الباب فقط تلكأت، إذ ما إن فتح باقر الباب ودعاها إلى الدخول، حتى برزت أم رجوة من مطبخها وقد ائتزرت بمئزر العمل.
-نعم!! نعم!! من هذه؟ سألته بصوت أجش وحركة فظة أشارت بها إلى رفيقته وكأنما تشير إلى بائعة هوى.
-ماذا تعنين أم...؟ بدأ باقر لكن دون أن تدعه يكمل.
-أعني، لا أسمح لك. صاحت مهددة بسبابتها، أمازونية جاهزة للحرب والضرب. نساء من "إياهن" لا تأتي بهن إلى هنا. مبغى!؟ لا أسمح أن يكون بيتي مبغى؟
-لـ.. لـ.. كن.. بدأ باقر متلعثماً وقد احمر وازرد.
-اسمع. نقاش؟ لا أريد. هذا شرطي. إن لم يعجبك، احمل حاجاتك وامض الآن.
لحظة من الزمن ارتعش باقر... حائراً مضطرباً ارتعش. هو يريد السلام وها هي ذي تعلن الحرب، يريد أن يفسر لكنها لا تسمع، فهل يحمل حاجاته؟ هل يمضي؟ كان يتساءل

وهي في وقفتها تلك، عيناها تقدحان شرراً، شفتاها ترتعشان، يداها تهتزان وهي تتفحصه بكل عداء.. بكل حقد تتفحصه ثم تنتقل إلى رفيقته، وفي الحال تطلق زفرة طويلة عالية وقد رأت لورا تنفتل على عقبيها ثم تهبط السلم درجتين درجتين.
-لورا!! لورا!! صاح باقر منتفضاً وقد التفت فلم يجد لورا.
-لا... لوراك هذه لديها بقية من حياء، علقت الأمازونية، الجاهزة للحرب والضرب. خجلت على نفسها فانصرفت.
-لا.. أم رجوة. لا أسمح لك.
-ما أنت من يسمح أو لا يسمح!! تغرر بالفتيات وتأتى بهن إلى هنا؟ لا... تجيء ببائعات هوى؟ لا... أتفهم؟
رأى باقر في عيني الأمازونية شراً مستطيراً فكظم غيظه ودار على عقبيه هابطاً درجات السلم مثنى وثلاث.
كان الموقف قد أصابه بالذهول. فعلي حين غرة وجد نفسه يخوض معركة لم يكن قد اتخذ لها استعداداته.. الأمازونية فاجأته بوجودها ثم بهجومها ولورا فاجأته بهروبها دون أن تحاول الدفاع عن نفسها.
-لورا.. لورا.. راح يصيح وقد وصل إلى باب المبنى. الرصيف خال. يمين.. شمال.. لا أحد هنا. المنعطف القريب إلى اليمين. أسرع إليه باقر. لكن أيضاً لا لورا ولا ما يحزنون. كان المارة يسيرون غادين آتين، وكان طلبة المدرسة المجاورة يخرجون أفواجاً أفواجاً فيشكلون زحاماً، "أتراها ضاعت في الزحام؟" وتسمر في مكانه حائراً، متردداً "أين ذهبت، لورا؟ لماذا فررت من المعركة؟ قد أثبت علينا التهمة ونحن بريئان فلماذا لورا؟ لماذا؟ ومضى باقر في الاتجاه المعاكس يبحث عن لورا.
كان ينبغي أن يراها.. يشرح لها.. يعاتبها، لكن لورا سحابة من بخار تطايرت في الجو. "أذهب إلى منزلها؟ أختها وأخوها هناك.. فماذا أقول؟ وبم نتحدث؟ ولوى عنقه ماضياً إلى أقرب مقهى يشرب القهوة وينفث الدخان.
للمرة الأولى يشعر باقر أن السيكارة لم تشف غله فطلب نارجيلة ثم شرع يعب القهوة فنجاناً إثر فنجان، يمص دخان نارجيلته فتقرقر قرقرة بطن مقرور ثم يطلق الدخان نفثة إثر أخرى وكأنما يطلق رصاصة على عدو أمامه.. كان في صدره مرجل يغلي وكان في رأسه زوبعة تلف وتدور "أم رجوة، لماذا فعلت ذلك؟ لماذا أساءت بنا الظن وليس بيننا ما يسيء الظن؟ بالأمس لم تشترطي ولم تأتي على ذكر الضيوف أو الضيفات فلماذا موقفك اليوم؟" كان لا يفتأ يعيد ويكرر، مجتراً الأسئلة نفسها اجترار شاة لما أكلته من أعشاب. "هذه المرأة نمرة متوحشة قد تنقض عليك في أي لحظة.. فانأ بنفسك باقر.. إنأ بنفسك" لكن صوتاً آخر عاد إلى الرد "والأجرة التي دفعتها لها؟" "تعيدها لك" "وإن لم تفعل؟" "صاغرة تعيدها" "وتحسب نفسك قادراً أن تجعل الناس يفعلون ما تريد صاغرين؟" وسمع باقر ضحكة سخرية تعلو حتى درجة القهقهة، ثم الصوت نفسه يتابع "لملم نفسك واحتشم إلى أن ينتهي شهرك على الأقل"، وأحس باقر بمرجله يهمد، وكأن الصوت الأخير كان الأمر القاطع الذي لا يقبل نقاشاً.
-الله بالخير آغاتي!! هلا ورحب نور عيني!! سمع باقر أحدهم يرحب بآخر وهو ينهض من كرسيه لاستقباله. رد عليه الآغاتي باللهجة نفسها. "هما عراقيان ولا شك" وسرعان ما انشد بسمعه وبصره إلى الطاولة القريبة وقد جلس الصديقان يتحدثان. الأول يسأل والآخر يجيب "يا إلهي!! هو ذا عراقي قادم لتوه من هناك!! أية فرصة!!" واقترب باقر من الرجلين:
-الله بالخير شباب!! أنا باقر التنكجي من البصرة، ممكن أقعد وإياكم!!
-يا هلا!! يا هلا!! انطلق صوتان معاً يرحبان بباقر ثم قدم كل منهما نفسه. سعدون، قمران. كان ذلك كل ما علق في ذهنه من اسميهما، وقد اتجه للتو إلى الهدف:
-اى.. قل لي قمران. كيف العراق؟ كيف الأهل؟ كيف العيشة؟
-العيشة موت. رد قمران وهو يزفر زفرة حارقة. العراق كله يموت.. موتاً بطيئاً يموت.. نخيله.. ترابه.. شعبه.. كل ما فيه يختنق شيئاً فشيئاً ويموت.
***
إمبراطور العالم في غاية السعادة وهو يرى العراق يموت. كان بوده أن يموت موتاً سريعاً لا بطيئاً. أن يختنق في الحال فيستريح من هم مقيم ما انفك يشغله كما شغل

سلفه من قبل. "بيل كلينتون" الشاب الأشقر الناعم الجميل كالنساء ليس أقل حقداً من بوش المتجهم القمطرير، سلفه، كلاهما يريد تشديد قبضته على عنقه إلى أن تنقطع أنفاس العراق ويموت. أوامرهما إلى القيادة العسكرية في الخليج واحدة:
"البوارج الحربية تظل قبالة أم القصر، الفاو، شط العرب، فلا يخرج منها كلها صافر نار ولا يدخل إليها صافر نار. سدوا البحر سد يأجوج ومأجوج. احظروا النفط. امنعوا الحركة، التجارة، الصيد، الذهاب، الإياب، فلا يظل أمام العراق سوى الموت". أوامر مماثلة ذهبت إلى القيادة الجوية "لا طائرات تطير ولا وحش يسير.. لا فوق الجنوب ولا فوق الشمال.. مطارات العراق مخربة، لتبق مخربة فلا تستقبل طائرة ولا تودع طائرة. حظر.. حظر... حظر.. حتى الأنفاس طبقوا عليها الحظر.
أما مدير السي آي إي فقد ذهبت إليه تعليمات أشد مكراً ودهاء. "لم نستطع إدخال قواتنا المسلحة إلى العراق فلتدخل قوات من العراقيين أنفسهم" وسر المدير الجديد الذي كان كلينتون قد اختاره ثعلباً ماكراً يجيد الختل والخداع. "هو ذاك يا سيدي. لندع العراقيين أنفسهم يخرجون لنا الكستناء من النار" "هذا رأيي أيضاً" تابع كلينتون، وقد وضع منذ أول يوم دخل فيه إلى البيت الأبيض، ملف العراق أمامه، هو الذي لا يرى في العراق سوى حصان جموح لا ينبغي ترويضه وحسب بل إرغامه وإذلاله. "لكن ما خطتك؟" سأل الكاوبوي الأشقر الجميل الذي يعشق النساء وتعشقه النساء فأجاب الثعلب الماكر "نسير في اتجاهين: تحريك المعارضة وتشديد الحصار" "أحسنت.. أحسنت" هتف الكاوبوي وقد طار لبه فرحاً ثم تابع "أضف الاغتيال". "هذه خطة سابقة سيدي". أجل خطة سابقة فمنذ سلفه كانوا قد وضعوا مكافأة لرأس صدام. "الاغتيال!! آه! لو أستطيع قتله بنفسي!!" فصورة الكاوبوي لم تفارق إمبراطور العالم، هو الذي كان يحب أفلام الويسترن، ويعشق أبطال الكاوبوي وكلهم مدجج بالسلاح حتى أخمص القدم، سريع في الإطلاق سرعة البرق.. فكم هو رائع أن يأخذ دور الكاوبوي ذات يوم!! يرى صدام بغداد فيخطف مسدسه بسرعة البرق ثم يطلق: طق.. طق.. طق.. ويخر صدام مضرجاً بدمائه ممرغاً بالتراب.
كان المدير قد سار حثيثاً في الخط الأول. دعوات سرية وعلنية أرسلت إلى الأحزاب الفارة من العراق. في لندن، باريس، أنقرة، روما، القاهرة، دمشق، بيروت.. كانت ثمة أحزاب معارضة. أربعون.. خمسون حزباً لا أحد يدري كم فرخ العراقيون في الخارج من أحزاب. كل عشرة.. عشرين يشكلون حزباً.
الحجاج قبل أربعة عشر قرناً عرف فيهم تلك الصفة فخاطبهم بأهل الشقاق. قد يجتمع اثنان منهم على رأي لكن من الصعب أن يجتمع ثلاثة، هكذا كانوا أيام الحجاج وهكذا ما يزالون. "قد وجدنا آبائنا على سنة وإنا على أثرهم مقتدون".
المدير الثعلب مسرور بتلك الظاهرة، فإن تتعامل مع شراذم ضعيفة خير من أن تتعامل مع كتلة ضخمة قوية. جاء إلى واشنطن ببضعة رؤوس منهم. "الآن جاء دوركم.. تقاتلون نظام بغداد وتدخلون إلى قلب بغداد" "عند عيونك" صاح الشلبي الهمام وقد مد جسور صداقة وود مع المدير الثعلب حيث رسمت الخطة:
"عقد مؤتمر عام شامل لأحزاب المعارضة العراقية كلها بغية وضع استراتيجية عامة شاملة هدفها إسقاط نظام بغداد". وهلل الحضور جميعاً للخطة. "خذوا ما تشاؤون من المال". قال المدير الثعلب ثم فتح خزانته العامرة بأموال البترودولار موزعاً إياها بكل كرم وسخاء. "المال من برّا واصرف يا...". البترودولار من نفط الخليج. كل أمير معظم، كل ملك مفدى يدفع. سبعين مليار دولار كانوا قد دفعوا نفقات حرب الخليج.. مسكينة أمريكا!! هي تضحي في سبيلهم، ترسل طياراتها، سلاحها، جنودها.. المرينز وحدهم يثيرون الشفقة. تقول: "المارينز" فيقولون "شبيك لبيك عبدك بين يديك". إذن لماذا لا يدفع الأمراء المعظمون والملوك المفدون؟
سخاء هؤلاء انتقل إلى المدير الثعلب، فنال منه رؤوس المعارضة ما يتمنون ويشتهون: هذا مليونان، ذاك ثلاثة، ثالث خمسة وكانت للشلبي حصة الأسد:
عشرون مليوناً عداً ونقداً يحضِّر بها للمؤتمر ويسيّر أعماله.
"الشمال تحت تصرفكم" قال لهم الثعلب الماكر وهو يضع أمامهم خارطة.
"هذا هو الشمال وقد حررناه من قبضة صدام. قواتنا هناك، تحميكم، طيراننا يبسط مظلته فوقكم وحلفاؤنا رهن أمركم: البرزاني، الطالباني، بل كل البرازانيين والطالبانيين

رهن أمركم. فقط نريد مؤتمراً يوحد صفوف المعارضة وينهي هذا الشقاق فيجتمع الكل على رأي واحد ونهج واحد نقضي به على صدام".
صفق رؤوس المعارضة للمدير الهمام وقد خلب ألبابهم ببلاغته وحماسته. لقد بدا ملكياً أكثر من الملك، بل بدا وكأن هناك عداوة شخصية بينه وبين العراق، ثأراً شخصياً بينه وبين صدام. لم يسأله أحد لم تلك العداوة، وما ذلك الثأر، لكنهم باركوه، كان ذلك ضماناً لاستمرار تدفق البترودولار عليهم فيسرحون ويمرحون في عواصم الحضارة والنور: لندن، واشنطن، باريس.
بفرح الغالب، ذهب أبو العز إلى الشمال. بزهو المنتصر دخل زاخو دخول الجنرال ديغول باريس وقد طرد منها الجرمان المتغطرسين. أبو العز مطمئن. لم يعد هناك جندي عراقي في الشمال، لم يعد ثمة موظف عربي فيه، كانت العاصفة قد اكتسحتهم جميعاً. قوات الباشماركة طاردتهم. الطائرات الأمريكية قصفتهم فلاذوا بالفرار. وقبل أن يمضي إلى المؤتمر مضى إلى أهله.
هناك في قرية صغيرة تقبع في سفح جبل صخري أجرد، كانوا يقيمون. لا كهرباء.. لا ماء.. لا طرق، لا مدارس، لا مستوصفات، لا وسائل اتصال وكأن الحضارة لم تطرق أبوابهم قط,. هناك شال برأسه "ها قد جئتكم منتصراً". ربطة عنقه من فرنسا، جوخ بذلته من اسكوتلندا، حذاؤه من إيطاليا، فالدراهم تأبى إلا أن تظهر برؤوسها. فرح به الأهل، زغردت الأم، ذبحوا له الجديان، لكنه في عجلة من أمره، أمثاله من المسؤولين لا يملكون الوقت لإضاعته في قرية مشلوحة على أطراف العالم، فنظر شذراً إلى أمه "كنت بالفاشل تنعتيني، يائسة مني تقرعينني، موبخة تنهرينني: (دراسة لم تدرس، شهادة لم تأخذ، فما الجدوى منك؟) لكن ها أنذا فوق كل ذي شهادة. وها أنذا أثبت جدواي، فماذا تقولين الآن، يا من كنت يائسة مني؟ متحيزة لأخي؟" لكن الأم التي صارت عجوزاً شمطاء، ظهرها منحن كقوس نشاب وفمها أجوف كفوهة كهف، لم تقل شيئاً. رأت نظرات التشفي في عينيه فعلمت أنه لم يجئ لرؤيتها، معترفاً بجميلها بل جاء لغاية أخرى في نفس يعقوب.
"وصفي!! هلم معي"، كان قد قال لرجل في أربعيناته وخط الشيب فوديه والعرج الخفيف أصاب إحدى رجليه فجاء وصفي معه عكازاً يتكئ عليه، وينفخ به صدره. لكن الزغرودة التي استقبلته بها الأم حين جاء، انطفأت على شفتيها حين غادر، يحف به سكرتيره من اليمين، ووصفي من الشمال، دون أن يرفع يده لها بتلويحة وداع.
وصفي تابع من أتباعه الخلّص في الشمال. هو شيء وأخوه باقر شيء آخر.
مذ جاء أول مرة إلى الشمال أيام حرب العصابات عرف أبو العز أنه شيء آخر.
اسمه جبار، موطنه البصرة، انتماؤه عربي فوضع نصب عينيه أن يغير فيه كل شيء: الاسم وصفي، الموطن كردستان، الانتماء كردي، فقد زوّجه بابنة عمه، وابنة العم دقت له أوتاداً في الشمال، أصبح بعدها التابع الخاضع والسميع المطيع.
في زاخو، السليمانية، كواليس المؤتمر، قاعته، وصفي وراءه دائماً، يلبي الأوامر، يستجيب للتعليمات، ويشعر أبو العز بزهو أكثر "ها قد حطمت أنفك مرة ثانية يا باقر! ها هو ذا أخوك جبار عبد بين يدي!! تتناولني بلسانك؟ تروي عنه الأقاويل والوشايات؟ ها هو ذا أخوك لا من فمه ولا من كمه.. أطوع لي من بناني" ولم يقل أبو العز "لوصفي" كردستان ما فعله بأخيه باقر في بيروت، فمن يدري؟ قد تثور نخوته العربية وعواطفه الأخوية فيفعل ما لا تحمد عقباه.
ثمانية أيام دام المؤتمر. الأحزاب السبعون كلها اجتمعت، ولم لا تجتمع وقد وفر لها البترودولار إنفاقاً بلا حدود، وتغطية إعلامية لم يسبق لها مثيل؟ هم أبطال معارضة. يواجهون الطغيان والاستبداد في بغداد. تمثال الحرية وراءهم، ديمقراطية أمريكا تدعمهم فلماذا لا يفخرون؟
في المؤتمر يخطبون الخطب الرنانة، في الإذاعة والتلفزيون يهددون ويتوعدون. كل منهم يدلي بدلوه، وكل منهم يريد الانقضاض على بغداد، يحررها من ربقة طاغية جبار ويقيم فيها حكم أمريكا بكل ما يتصف من ديمقراطية وعدالة!!.
المدير الثعلب مسرور بمجريات المؤتمر، أهل الشقاق اتفقوا، ولأول مرة، على موقف واحد هو: السمع والطاعة، هدف واحد هو: رأس صدام. وتعبيراً عن فرحه بتلك المجريات، ثم بتلك النتائج، وضع في حسابهم سبعة وتسعين مليون دولار قابلة للتجديد

كلما اقتضت الحاجة. كلينتون راض هو الآخر. لكنه يريد نتائج أسرع ومباشرة أكثر. هو يكره الانتظار فكيف ينتظر تدريب عناصر المعارضة في واشنطن ومن ثم إرسالهم إلى بغداد؟ "هذه تأخذ وقتاً طويلاً" قال لمدير مخابراته ذي العينين الماكرتين كعيني الثعلب. "ما أريده عملية مباشرة تطيح بذلك الديكتاتور الذي لا يفتأ يتحداني شخصياً.. يسبني ويشتمني شخصياً"، وبدا كلينتون لأول مرة، غاضباً أشد الغضب. "أخشى أن نفشل يا سيدي كما فشلنا في هجومنا على البصرة وجنوب العراق؟" "أيرضيك إذن أن يسبني ويشتمني هو وأجهزته، هكذا جهاراً نهاراً؟" "الكلاب تعوي يا سيدي الإمبراطور والقافلة تسير" "صحيح.. لكنها قد تحرض كلاباً أخرى وقطيع كلاب قد يقتل أسداً" منطق كلينتون صحيح، لكن المدير الثعلب لا يلعب إلا على المضمون. الكمبيوتر لديه يعمل بدقة. يقدم له المعطيات والأرقام فيعطيه الخلاصات والاستنتاجات. وما أعطاه الكمبيوتر آخر مرة واضح "تهاجمون صداماً من الخارج، تكونون أشبه بوعل يناطح صخرة. الصخرة لا تتفتت لكن يوهي قرنه الوعل" "فما العمل؟" "دود الخل منه وفيه، فابحثوا عن الدود في خل صدام ومن داخله". وأعجب ذلك كلينتون. رؤوس المعارضة كانت قد قدمت للمدير الثعلب أرقاماً وحقائق "لدي حزبي أربعة وسبعون ضابطاً في الجيش" قال أحد الرؤوس، آخر تباهى مصعِّراً خده: "لي مائة ضابط وضابط.. إضافة إلى الكثير من الأتباع الخلص، إن قلت لهم "موتوا ماتوا، عيشوا عاشوا" فيما تحدث ثالث ورابع عن خمسين وتسعين، مقسمين الأيمان الغلاظ إن ولائهم مطلق وطاعتهم لا تشوبها شائبة.. ونقل المدير الثعلب لسيده إمبراطور العالم تلك الأرقام والحقائق.

-إذن هي مسألة ضبط وربط، وقت وتنسيق، قال كلينتون وقد تنفس الصعداء مسترخياً.

-أجل سيدي. الآن اتفقوا على التنسيق والعمل، وما أحسبها إلا أشهراً فقط حتى يصبح بإمكان المعارضة أن تضرب من داخل.

-وإن لم تستطع؟ سأل إمبراطور العالم وقد عادت إليه حماسة الكاوبوي وحميته.

-نرسل من ندرب من عناصر هنا إلى الداخل، فيقلبون النظام ويأتوننا برأس صدام.

- Very great. Darling. Very great قال كلينتون بأمريكيته ذات اللسان المعوج تلك التي يكرهها أهل لندن كثيراً، ثم تابع والان، لنركز على الخط الثاني، لنشدد الحصار.

وللتو طارت برقية من المدير الثعلب إلى القوات البحرية، البرية، الجوية كافة لتشديد الحصار على العراق، بحيث تمنع عنه الغذاء، الماء بل حتى الهواء. كما طارت برقية أخرى إلى رئيس لجنة نزع السلاح العراقي وتدمير أسلحة الدمار الشامل فيه "لماذا هذا اللين والرخاوة" شددوا رقابتكم، كثفوا عملياتكم، تغلغلوا عميقاً في أحشاء العراق. ادخلوا أعمق خلاياه. فتشوها خلية خلية ولا تعفوا عن شيء.. أخص المواقع، أكثرها سرية، أبعدها عن الشبهات. فتشوا الوزارات، الإدارات، المؤسسات، مدنية، عسكرية، لا يهم. المهم أن نعرف أدق الدقائق عن العراق".

في اليوم التالي تلقى رئبال قائمة طويلة عريضة تحدد المواقع التي تريد لجنة المراقبة والتفتيش تفتيشها مع جدول بالأزمنة المقترحة لذلك.. عرض رئبال القائمة على "معلمه"، الدماغ العبقري، فانتفضت تلافيفه جميعاً".

-ما هذا؟ يريدون دس أنوفهم حتى في أدبارنا؟ وكتم رئبال ضحكة، فالوزير الألمعي إن سمعها أقام الدنيا على رأسه ولم يقعدها.

-الحقيقة!! هم يتجاوزون حدودهم يا سيدي، قال رئبال وهو يتذكر أغنية لمحمد عبد الوهاب: "أخي جاوز الظالمون المدى" مع أنه يعلم أنه هو وعراقه كله مكبل اليدين والرجلين.. فأنى له الجهاد الذي حق وأنى له الفدا؟

-نرفض هذه القائمة. قل لهم ما علاقتهم بمواقع الحرس الجمهوري داخل بغداد؟ ما علاقتهم بمراكز فروع المخابرات؟ أتراها مصانع لغاز الأعصاب؟ معامل للأسلحة الجرثومية؟.

ونقل رئبال ذلك لرئيس اللجنة، الملكي أكثر من الملك في تنفيذ الأوامر.

-لكننا نصر. صاح بنبرة من تهديد، لا بد من أن نفتش كل ما حددناه من مواقع. ومن جديد، عاد رئبال، ضابط الارتباط الذي يكره كل ما له علاقة بذلك الارتباط، مثبط العزيمة، واهن القوي إلى معلمه، يبلغه إصرار اللجنة على تفتيش كل ما تريد تفتيشه دون تلكؤ أو تذمر.. أليست هي عسكرية؟ إذن، يجب إطاعة الأوامر دون تلكؤ أو تذمر.

زفر حسين كامل زفرة كادت تطير برئبال عبر الشباك وتلقيه إلى دجلة الذي كان يجرف معه سيول السباب والشتائم تلك التي صبها حسين كامل على اللجنة ملعونة الوالدين التي ابتلي بها العراق.
-بوارد أزمة، همس رئبال قرب أذن عبد المحسن، وقد التقت الأسرتان عشية اليوم نفسه.
-فال الله ولا فالك، تدخلت فاطمة للتو وقد سمعت الهمس.
-الله! تسمعين دبيب النمل؟ سأل عبد المحسن باستغراب.
-كيف لا والقضية قضية أزمة.؟ أينقص العراق أزمات؟
-أية أزمة؟ ما هذه الأزمة؟ سألت رقية وهي تدخل حاملة بعض الأطباق من المطبخ.
على مائدة العشاء، شرح رئبال الخطوط العريضة للقصة دون الدخول في التفاصيل.
-افتعال مشكلة، علق عبد المحسن، هم يريدون افتعال مشكلة.
-اللعنة عليهم!! علقت فاطمة.. ألن يريحونا من مشاكلهم؟
-يريحوننا؟ كيف وليس لهم اليوم من هم سوى العراق؟ أجاب رئبال هذه المرة، بل في العالم كله لا يوجد سوى العراق.
-لكن لماذا؟ سألت رقية، أنا حقاً أريد أن أعرف.
-السبب واضح: يريدون إحكام السيطرة على منابع النفط كلها. يريدون استعمار منطقة الخليج كلها استعماراً مباشراً فلا يظل باستطاعة أحد أن يرفع رأسه أو يرفع صوته. يفرضون سعر النفط الذي يشاؤون ويأخذون منه ما يشاؤون.
-يا رب!! لم بليتنا بالنفط؟ صاحت فاطمة برعشة من حزن. لولاه لكنا بخير. لا أحد يفكر بنا ولا أحد يريد استعمارنا.
-لولا النفط لكان هناك سبب آخر. هم يختلقون الأسباب، يفتعلون المشاكل. فقط كي يبقونا مقيدين، مستعبدين ويظلوا هم وإسرائيل أحراراً في المنطقة يسرحون على هواهم ويمرحون.
-لكن لماذا نحن بالذات؟ سألت رقية هذه المرة وهي تتناول شريحة البطاطا.
لماذا لا يذهبون إلى الفيليبين، البيرو، غينيا بيساو؟ وضحكت فاطمة وهي تردد:
-غينيا بيساو!! هذه أعجبتني، لكن عبد المحسن لم يضحك وهو يتنطح الرد.
-لأن وطننا مهد الحضارة. بلاد الرافدين، بلاد الشام، وادي النيل.. هنا مركز العالم. عبر التاريخ كان مركز العالم، والمركز يستقطب دائماً أنظار الأطراف مثلما يستقطب ضوء المصباح الفراش.
-يا ليتنا كنا الأطراف!! قالت فاطمة هازة رأسها. إذن لما غزانا المغول ولا التتار ولا الترك.
-صحيح، هذا صحيح. قاطع عبد المحسن زوجته مسروراً بضربها الأمثلة تلك، ما من أمة في التاريخ همت بصنع حضارة إلا وحاولت المجيء إلى هنا للسيطرة على هذا الوطن: إغريق.. روم.. فرس.. الأمم كلها غزتنا.
كلها حاولت السيطرة علينا، لهذا السبب عانينا، ولهذا السبب، سنظل نعاني على ما أظن.
-على ما تظن؟ هتف رئبال محتجاً، بل بالتأكيد. نيكسون قبل عشرين عاماً قال "المنطقة الوحيدة التي يمكن للولايات المتحدة أن تدخل حرباً من أجلها هي منطقة الشرق الأوسط." تصوروا الولايات المتحدة مستعدة أن تشعل حرباً عالمية ثالثة من أجل إبقاء السيطرة على وطننا العربي.
-وقد أشعلتها. تابع عبد المحسن، أم تظنون أن الحرب التي خضناها ليست حرباً عالمية؟ ثلاثون دولة ضدنا. أحدث الأسلحة.. أحدث التكنولوجية.. ونحن لا نصير ولا حليف.
-ما يهمني. صدقوني. ليس بريطانيا وفرنسا. تدخلت رقية بنوع من الحدة والغضب، بل هؤلاء العرب يروننا نذبح هنا وهم يتفرجون، كأننا لسنا منهم، كأن العراق صار من العجم.
-لا.. لا تغلطي رقية. العرب معنا. شعبنا العربي من محيطه إلى خليجه مع العراق لكن المشكلة في الحكام.
-الحكام؟ تلك الدمى على مسرح العرائس؟ صاحت فاطمة من جانبها، ترى أليست فيهم نخوة؟ أليس لديهم ذرة من مروءة؟ أهلهم في العراق محاصرون. شعبهم يموت جوعاً وهم ساكتون؟ لا يحركون ساكناً؟

-النخوة!! المروءة!! رد رئبال وهو يلوح برأسه. هذه عملة بطلت منذ زمن طويل.
-لكن إلى متى سيستمر هذا الحصار؟ تساءلت رقية أتعلم؟ الناس بدؤوا يتهالكون. احتياطيهم نفد. جيوبهم فرغت، وراتب الموظف لا يكفيه خمسة أيام!!.
-خمسة أيام؟ احتجت فاطمة.. قولي يوماً واحداً.. بل ساعة، أم نسيت أن راتب أعلى موظف لم يعد يساوي عشرة دولارات؟
-صحيح، هز عبد المحسن رأسه زافراً، كلنا صار راتبنا بلا قيمة. التضخم التهم الدينار. الدولار بخمسة آلاف دينار!! من يصدق يا ناس؟ من كان يتصور ذلك؟
الآتي أعظم، الآتي أعظم على ما أظن!! ردد رئبال بكثير من الحسرة والأسى.
-ماذا؟ أما يزال هناك أعظم؟ صاحت فاطمة محتجة، الناس بدأت تبيع سجادها، ثرياتها، بل كتبها. جارنا أبو سميع رأيته بالأمس يحمل سلة كتب ويذهب بها إلى السوق.. كتب أبيه وجده يبيعها، فهل هناك أعظم؟
-بكثير، أجاب رئبال، ألم أقل لكم ثمة بوادر أزمة؟ لجنة التفتيش تريد أن تفتش كل شيء، حتى فروع المخابرات.
-يا الله!! أيعقل هذا؟ صاحت فاطمة باستغراب شديد.
-بل أكثر من هذا. تريد تفتيش المدارس.. المستوصفات.
-بأية حجة؟ تدخلت رقية متسائلة.
-حجة إخفاء الصواريخ فيها.. تحويلها إلى مستودعات للأسلحة الكيميائية والجرثومية.
-ووافقتم؟ كان رد عبد المحسن هذه المرة.
-طبعاً لا. "المعلم" رفض. لكن اللجنة ملحة. تريد الدخول إلى أي مكان يخطر ببالها.
-اللعنة!! قد يخطر ببالها أن تفتش منازلنا.. غرف نومنا.. صاحت فاطمة.
-إذن، تفتشها.
-لا توافقوا. بكثير من الغيظ هتفت رقية.
-ومن قال إننا سنوافق، رد رئبال، المسألة الآن بين يدي القائد نفسه.
لكن الهاتف رن فجأة فقفز رئبال من مكانه مسرعاً إليه. فيما تابعت زوجته:
-خير!! اللهم اجعله خيراً!.
كانت الساعة قد صارت الحادية عشر ليلاً، وكانت بغداد ترقد ساكنة سكون المرهق وقد وجد مكان راحته. بعض السيارات كانت تعبر الشارع لكن بغير ضجيج. بغداد سئمت الضجيج وقد تألب عليها العالم ذات يوم صاباً عليها كل ما لديه من عجيج وضجيج، حرب وضرب، ناسياً كل ما قدمته له من أسباب رقي وحضارة.. من إشعاع نور ومحبة؟.
-ألو!! رد رئبال على نداء الهاتف، فيما أعناق الآخرين مشرئبة إليه، عيونهم مركزة عليه. حاضر سيدي. مسافة الطريق سيدي وعرفت رقية أن صفاء السهرة قد تعكر وحبل المسرة قد انقطع.
-ماذا؟ بادره عبد المحسن وقد عاد يعتذر.
-يريدونني هناك!! وأشار بيده إلى البعيد والأعلى. القائد لم يوافق.
في اليوم التالي تناقلت الإذاعات أنباء الأزمة الجديدة في العراق تهدد بانفجار البركان. سمع باقر الأخبار فوجف قلبه.
-يا إلهي!! كلما قلنا فرجت تشتد، ترى إلى أين تريد أمريكا أن تصل؟.
-لا.. يا صديقي. جاء رد عمران، قل إلى أين يريد صدام أن يصل؟ كانا في منزل زهير وكان هناك لاجئون آخرون راح كل منهم يصب جام غضبه على الدكتاتور السفاح الذي يريد أن يبيد الشعب العراقي.
-هو المجرم الطاغية لا يستطيع العيش إلا بإثارة المشاكل. قال أحدهم وقد عاد لتوه من مؤتمر المعارضة ذاك الذي انعقد في الشمال.
-أنا أعرفه، قال ثان، يريد جذب الأنظار إليه فيفتعل الأزمات.
-لا فائدة. قال ثالث، لا يهنأ له عيش إن لم يثر عليه أمريكا ويغضبها أكثر فتشدد الحصار وتضيق الخناق أكثر.
وروى آخر العائدين من بغداد أن النظام لا يفتأ سادرا في غيّه. في كل يوم بغي أكثر، طغيان أكثر. لهذا على المعارضة أن تقتحم.. أن تخترق الحدود.. أن تقاتل بالسلاح، بالأيدي، بالنواجذ، فصدام لا يجدي معه غير القتال والقتل.

ظل باقر صامتاً لا ينبس ببنت شفة. كان يشعر أن هناك وجهاً آخر للمسألة، فلماذا لا يراه الآخرون؟ "صدام المجرم؟ صدام المخطئ؟ صدام المسؤول؟ ربما هذا وجه ممكن لكن أين أمريكا؟ أين بريطانيا؟ ألا تتحملان المسؤولية الأكبر؟ ألا تلعب إسرائيل دوراً أساسياً في التحريض والتآمر؟ المفاعل النووي من قصفه؟ أكراد الشمال من يزودهم بالسلاح والمال؟ تدمير العراق من قام به؟ بحجة الفرد يقضون على شعب كامل، كيف يصير هذا؟ لإزاحة حاكم يدمر وطن بكامله، بأي منطق يصح هذا؟".
وآثر باقر الصمت. كل منهم راح يدلي بدلوه، ساباً، شاتماً محملاً نظام بغداد المسؤولية وهو صامت. بون شاسع بات يشعر أنه يفصله عن موقف الحزب.. عن أحزاب المعارضة. من قبل كان مثلهم، يسب، يشتم، لكن الآن، ماذا؟ قلبه يجف كلما سمع بنائبة جديدة تحل بالعراق. إحساس بات يتملكه بأن العراق أكبر بكثير من أي فرد. العراق يضرب شعبه هو الذي يضرب، يدمر؟ يخرب؟ أرضه، ترابه، مصانعه، مزارعه، ثرواته هي التي تخرب وتدمر فكيف تعمى العيون عن ذلك كله بحجة الفرد؟ كان باقر يريد أن يعرف أخبار المؤتمر خطة المعارضة من أجل المستقبل، وكان العائد من المؤتمر على إطلاع. حدثهم عن كل ما رأى، عن كل ما سمع، بل حدثه بالذات عن جبار، أخيه، ذاك الذي صار اسمه "وصفي"، وصار تابعاً مطيعاً لأبي العز. "أمثال هؤلاء هم الذين تمشي أمورهم". رجل بلا دماغ، كجبار، هو الذي يرضى عنه قائد كأبي العز. يريدون أدوات طيعة بين أيديهم ـ امعات فارغة العقول، فارغة النفوس لا يعرفون أن يردوا: "سوى شبيك لبيك عبدك بين يديك" ـ وأحس باقر أن آخر خيط من أمل ينقطع.. كان يعلم أن جباراً ما يزال في الشمال، وكان يعلم أنه تزوج من كردية هناك، وأنه مخلص لخط الحزب لا يناقش ولا يجادل، مع ذلك كان ما يزال لديه بقية من أمل في أن يعمل تفكيره ذات يوم ويكسر الطوق المضروب حوله ليلحق به إلى بيروت أو دمشق، لكن ها هي ذي أخباره تخيب أمله فيدرك باقر أن لا أمل من جبار.
حزيناً، غاضباً كان يستمع لآراء صحبه اللاجئين، آسفاً خائفاً كان يتتبع الأزمة.ـ من إذاعة إلى إذاعة ومن تلفاز إلى تلفاز كان يلاحق الأخبار وهو يمسك قلبه بيده "رباه!! احم العراق!! رباه!! خلصه من براثن الأعداء" وغدا يأرق كثيراً.
وحيداً يجتر أفكاره طيلة الليل، وحيداً يسير في شوارع دمشق ويتسكع.. كان فاتح قد سافر إلى السويد وكان رباح قد لحق به إلى النرويج وكان الصحب الآخرون من المعارضة لا يتحدثون إلا بما يورث الضيق والإزعاج.
بحث عن لورا علها توفر له بعض الراحة، لكن لورا غائبة، هي مذ طردتها أم رجوة، غائبة. بل تتغيب عمداً عنه. قصدها أكثر من مرة كي يشرح لها، يعتذر، لكنها آثرت أن لا تراه وأن لا تسمع شرحاً أو اعتذاراً. مرات عدة ذهب إليها في المنزل لكن دائماً يأتي الجواب "غير موجودة" "يجب أن أراها". بإصرار شديد قال لأختها آخر مرة. "اسمع. لورا غاضبة وهي لا تحب أن ترى أصدقاءها إن كانت غاضبة". "لكن هناك الكثير مما ينبغي أن نتحدث عنه" "الأفضل أن تؤجله الآن. اسمع مني. لورا غاضبة منك.. عاتبة عليك" "لكن لماذا؟ ماذا فعلت؟" "دعوتها إلى منزلك وأنت لا تعرف من في منزلك. أحرجتها. وضعتها في موقف لا تحسد عليه فاتركها الآن. لورا تغفر لكن بعد حين.. تنسى لكن هي بحاجة لوقت".
وأعطاها باقر وقتاً. راح يقرأ. القراءة باتت تملأ جل فراغه. يستلقي على سريره ويقرأ. لا صوت، لا ضجة. المنزل مريح. حيه مريح ـ سكانه مريحون. لهذا بقي فيه. يوم فعلت أم رجوة ما فعلت فكر أن يتركه في الحال. لكن غياب لورا والأجرة المدفوعة والخوف من الوقوع في الأسوأ جعله يستمر ـ لا يقترب من المرأة ولا تقترب المرأة منه. أم رجوة ممرضة متقاعدة، بدينة مترهلة، وزنها ثقيل، حركتها ثقيلة، لا تقدم خدمات ولا تتملق لمستأجر. "لكم دينكم ولي دين" كان كل ما فيها يقول لباقر. ولم يكن باقر حريصاً على شيء كتلك القاعدة. كان حب الاستقلال في دمه، وكانت غرفته شبه مستقلة توفر له المناخ الملائم لنمو ذلك النازع. المطبخ قبالة غرفته. يذهب إليه إن أراد فنجان قهوة فقط. غداؤه في الخارج، عشاؤه في الخارج والإفطار قهوة وحسب. دولة قهوة يصنع ثم يبدأ العب. فنجاناً، فنجانين ثلاثة. هو لا يحب كالقهوة في الصباح، عبقها ينعشه، نكهتها تحمله عالياً في السماء ويستغني بها عن كل طعام.

وحده، سر تلك المرأة كان يشغله: "لماذا تلك العدوانية كلها؟ لماذا ذلك التشنج؟ ذلك الانطواء"؟ ذات مرة فكر أن يتقرب منها، يسألها، وفعل ذلك، لكنها صدمته، كلمة أو كلمتين بادلته ثم أدارت ظهرها وابتعدت. "قد تكون رجوة المفتاح" فكر وقد ازداد لغز المرأة غموضاً ورغبته في حله شدة، لكن "أين رجوة؟" رجوة تعمل في إحدى وزارات الدولة. تفيق في الصباح الباكر حين لا يكون قد أفاق وتعود مع الظهيرة حين يكون قد خرج يسعى في مناكبها ولم يكونا يلتقيان.
بضع مرات فقط لمحها. عند الظهر إن عاد للقيلولة أو في الليل حين يأتي للنوم في كل مرة كانت تترك لديه انطباعاً غريباً "الفتاة مقموعة.. قمع شديد يكتم أنفاسها"، وقرر أن يعرف سر ذلك القمع.. أن يختلس فرصة يبادلها الحديث، يعقد معها آصرة ما عله يعرف سر الأم- معقدة كانت تبدو، خائفة كانت تنظر. فإذا ما التقت عيناها بعينيه أطرقت أرضاً وأسرعت تختفي. لا تبادله نظراً أو كلاماً.
ذات صباح تعمد أن يفيق باكراً. فتحت الباب الخارجي للمنزل ففتح باب غرفته الخارجية، هناك التقيا وقد صارا، على السلم.
-صباح الخير، بادرها بابتسامة، حاول أن يغمسها بالطيبة والبراءة.
-صباح النور، أجابت وهي تتلفت وراءها إلى الباب.
-رجوة. نحن جيران ويجب أن يرى واحدنا الآخر-
-أمي لا تسمح.- غمغمت وهي تعاود التلفت.
-لكن لماذا؟.
-لا أدري. هي فقط لا تسمح. كل من سكن في هذه الغرفة قبلك محرم علي رؤيته، محظور علي الكلام معه.
-مع ذلك، يجب أن يرى واحدنا الآخر- أرجوك رجوة.
لم تجب رجوة. بل اكتفت بالنظر إليه ملياً ثم دارت على عقبيها وهي تغمغم.
-آسفة. تأخرت. يجب أن ألحق بدوامي. وأسرعت تهبط السلم كأن عفريتاً يطاردها.
هنيهة من الزمن وقف باقر في مكانه وقد غابت عنه. وقع خطاها فقط كان يأتيه مسرعاً مضطرباً "لماذا هي خائفة إلى هذا الحد؟ لماذا هي بهذا الحذر؟" غمغم، يساوره العجب، بعدئذ عاد إلى غرفته يستعيد بالتفصيل سيماء وجهها، الكلمات التي قالتها، التعابير التي ارتسمت على وجهها. لم تكن رجوة فتاة صغيرة في سن المراهقة.- انطباعه الأول أنها كانت في الثامنة أو التاسعة والعشرين، متوسطة الطول، حنطية البشرة، سيماؤها دون كبير اتساق. ليست جميلة لكنها ليست قبيحة- ربما هي في حدود المقبول، شعرها "الغارسون" يصغِّرها قليلاً لكنه يجردها من كل أنوثة أو جاذبية. "لكن لماذا هي في هذه السن ولم تتزوج؟" وبدا السؤال لغزاً آخر ينبغي أن يحله "أأذهب إليها في مكتبها؟" وأحس بمصدات رياح تصده "ماذا لو طردتني؟ ماذا لو أخبرت أمها؟ ألا تطردني من الغرفة؟" وقرر أن ينتظر-
هو بادر. قدم الطعم، إذن عليه أن ينتظر: تقدم السمكة على التهامه أم لا تقدم؟.
شيء راح يدغدغ بصيلات الشم في خيشومه.- رائحة لذيذة منعشة راحت تتغلغل في مسام أنفه.. "إنها رائحة قهوة.. من أين جاءت؟ كيف؟" راح يتساءل وهو بين النوم واليقظة "لعله حلم!!. لعله واقع!!" ولكي يقطع الشك باليقين فتح عينيه على مهل.
عمود متسربل بالأحمر الشفاف كان يقف أمامه. "أجل.. ثمة ساقان. الأحمر الشفاف يظهر ربلتيها" وفتح عينيه أكثر. رائحة القهوة أكثر نفاذاً، الأحمر الشفاف أكثر وضوحاً. رفع ناظريه إلى الأعلى، الفخذين، الحوض، الخصر... "يا إلهي!! التهمت السمكة الطعم". وجلس باقر في فراشه ملؤه اللهفة والفضول.
-صباح الخير، بادرته بصوت بذلت أقصى جهدها لأن تفعمه أنوثة.
-أهلاً.. رجوة!! أهلاً. صباح.. الخير. قال بكثير من الاضطراب والتلعثم. تفضلي اجلسي. تفضلي. تابع وهو يشير إلى حافة السرير، لكنها أسرعت إلى كرسي في الزاوية، حملته ثم وضعته بجانب السرير، مقدمة له صينية القهوة.
-اليوم عطلة. قلت أعد لك قهوة الصباح.
-كلك لطف، رجوة، كلك ذوق. وأخذ فنجان القهوة وقد باتت رائحتها ملء الغرفة. لكن سرعان ما لفت نظره الباب المغلق. التفاتته جذبت انتباهها.
-أمي نائمة، فسرت بصوت أقرب للهمس ولا أريدها أن تستيقظ.

-فهمت عليك، رد بنبرة الهمس ذاتها. إذن، ما تزال أوامرها سارية المفعول؟.
-هذه قاعدة لا تخرق أبداً. قالت ثم عقبت بشيء من حياء، لكن.. أنت رجوتني تلك المرة أن نلتقي.
-أجل، وأنا أشكرك على قبولك رجائي. لكن بالله عليك رجوة، قولي لي، لم هذا التشدد كله؟ لم هذه العدوانية من أمك؟
-أمي تكره الرجال كلهم!!
-ماذا؟ تكره الرجال كلهم؟ رد باقر كالببغاء، وقد تذكر وصف صاحبه لها قبل أن يجيء إلى منزلها.
-أجل. بل هي لا تراهم إلا ذئاباً لا تسنح لها الفرصة إلا وتغدر.. تنهش، لهذا تظل بعيدة عنهم، وتريدني بعيدة عنهم. لا أقترب من أحد ولا يقترب أحد مني. "إياك والرجل"، تقول لي "لسانه عسل وفعاله بصل لا يترك لك إلا الرائحة الكريهة". وضحك باقر لكن دون صوت، فالخوف من الأم التي يمكن أن تستيقظ جعله يكتم ضحكته وقد وضع يده على فمه.
-هي معقدة من الرجل إذن؟
-معقدة وحسب، قل معقدة حتى الموت وقد عقدتني أنا أيضاً!!.
-لكن لماذا؟ ألم تعرفي سر هذه العقدة؟.
-لا.. لا أدري. ربما هو أبي.
-ماله؟ أبوك هذا؟.
وأطلقت رجوة تنهيدة طويلة. متلفتة حولها، مترددة قبل أن تجيب.
-كان أبي وأمي يعملان في المستشفى ذاته. هو طبيب وهي ممرضة. قواسم كثيرة مشتركة جمعتهما وربما عقدت أواصر حب بينهما كنت أنا ثمرته. لكن ما إن بدأت بوادر الحمل حتى طالبته بالزواج. حاول أن يراوغ. أن يتملص لكنها حاصرته "تفضحني إن لم نتزوج". قالت له متوسلة باكية، "لكن أهلي يرفضون" رد عليها وقد استمزج أهله من قبل. "نذهب إلى الكنيسة دون موافقة أهلك" "سيحرمونني الإرث، وإرثهم كبير" "أنا أغلى من إرثك؟" "لا تضعي نفسك موضع المقارنة" "والحل؟ أنا بحاجة إلى حل" "سنجد الحل، بعض الوقت ونجد الحل". "الوقت ليس في صالحنا، الزمن يمر". "سأقنعهم. فقط اصبري" وصبرت أمي شهراً بعد شهر، ثم قبل أن تنفجر في وجهه من جديد، ذهبت إلى المستشفى فلم تجد له أثراً!!.
-لم تجد له أثراً!؟ أين ذهب؟.
-إلى أمريكا، دون حتى كلمة وداع.
-ومنذئذ لم تقرب الرجل؟.
-بل بات لها العدو المبين. تتصور حية الكوبرا ولا تتصوره، فهو الذئب وهو الضبع وهو الخائن وهو الغادر.
-لهذا لم تتزوجي حتى الآن؟.
ولن أتزوج. هي تمنعني من مقاربة أي رجل. تحرم علي حتى التفكير بالرجل.
وفتح الباب على حين غرة. أجفلت رجوة شاهقة ثم انتفضت واثبة من كرسيها وكأنها على نابض. عيناها، مثل عيني باقر، طارتا إلى الباب فيما سد الباب جرم بشري هائل أجال نظره في الغرفة لحظة ثم انقض على الفتاة: لسان يصرخ بأقذع السباب ويد تشد الشعر وأخرى تضرب وتلطم. على الوجه، الظهر، الكتفين، وابل من الصفعات انهال على الفتاة والجرم البشري يشدها إلى الخارج.
-تعالي يا سافلة بنت السافل!! تريدين أن تفضحيني!؟ سأؤدبك يا كلبة يا بنت الكلب.
وخرجت بها من الباب كما جاءت فيما صرخاتهما كلتيهما تملأ المنزل.
بمثل لمح البرق راح باقر يرتدي ثيابه.. الجرم البشري الهائل سينقض عليه ولا شك. لعناتها، سبابها، ركلاتها، كل ذلك ينبئ بالآتي "لن تهمد قبل أن تشفي غلها مني". أنهى ارتداء ثيابه ثم انسل من الباب الخارجي هارباً لا يلوي على شيء.
كانت الساعة ما تزال السابعة وكان اليوم يوم عطلة ولم يكن ثمة مكان يذهب إليه. أصحابه كلهم نائمون ولا شك. الشوارع خالية، حتى المقاهي لم تكن قد فتحت أبوابها بعد. "إلى بيروت" لمعت بذهنه الفكرة فجأة وفجأة التف نحو اليمين سائراً باتجاه مركز انطلاق السيارات.

-حسن أنك جئت، بادره أبو الليل وهو يفتح الباب ليأخذه بالأحضان. كنت سأذهب إليك في دمشق.
-قلبي قال لي ذلك فجئت. رد باقر وهو ينهي عناقه، أليس قلب المؤمن دليله؟.
مؤمن؟ منذ متى أنت مؤمن؟ تساءل وهو يلوح برأسه ساخراً سائراً به إلى غرفة الصالون.
-التغيرات تجتاح العالم. تريدني وحدي أن أظل بمنأى عنها؟ وضحك أبو الليل.
-حقاً.. كل شيء يتغير في هذا العالم.. تغيرات خطيرة تحدث كل يوم، فما الذي جرى؟
-الله وحده يعلم!! قال باقر وهو يرفع يده إنكاراً لكل معرفة بعدئذ جاءت أم الليل، الأولاد وعاد باقر إلى جو الأسرة البهيج ذاك الذي كان قد افتقده منذ أشهر.
بعد الغداء فقط سأل باقر أبا الليل:
-لم تقل لي. لماذا كنت تريد الذهاب إلي.. في دمشق؟.
-مشروع المجلة!! يبدو أنه سيدخل الآن حيز التنفيذ.
-حقاً!؟ هذا خبر سار!!.
وطوال ما بعد الظهر راحا يبحثان في التفاصيل التي كان يحملها أبو الليل.
أخيراً صرح:
-فقط، الممول في عمان وعلينا الذهاب إلى عمان.
-نذهب إلى عمان.
-هيء نفسك إذن. غداً نسافر.
لكن مع أخبار المساء جاء الخبر – الصاعقة:
-الإسرائيليون والفلسطينيون يعقدون اتفاقاً في أوسلو!! وفغر كل منهما فاه، فيما جحظت عيناه.
-أولاد الكلب!! هتف أبو الليل. متى بدؤوا الاتصالات؟ متى أجروا المفاوضات؟
ثم تبين بعد البحث والتقصي أن وفود البلدين ظلت طوال تسعة أشهر تلتقي في النرويج، حيث لا أضواء ولا صحافة. في السر.. وخفية عن أنظار العالم جميعاً كانوا يلتقون. تحوطهم رعاية الدولة المحايدة وتموه عليهم وسائل الإعلام، حتى نما الجنين وكبر. في رحم النرويج نما الجنين. تسعة أشهر ظل في بطن أمه.
وحين اكتمل نضجه شق طريقه عبر الفرج الاسكندنافي الكتوم وعلى يد القابلة الأمريكية المتمرسة كثيراً بفن القبالة والتوليد.
-لكن، ماذا يعني لك اتفاق أوسلو هذا؟ سأله باقر في اليوم التالي وقد رآه ينسى المجلة والممول وعمان، ملاحقاً الأخبار، متتبعاً الإذاعات.
-كيف يا رجل؟ هو منعطف خطير بالنسبة إلى قضيتنا كلها.
-ما أظنه إلا حبراً على ورق.
-كيف، وهم سيعطونه غزة؟ سأل وهو يشير على ما يجسد شخصية عرفات.
-وما أهمية ذلك؟.
-سيقيم دولة..
-وماذا يعني ذلك؟
-دولة في غزة، وغزة بلدي، ألا يعني ذلك شيئاً؟.
-قد يعني ذلك لعرفات.
-بل.. لي أنا أيضاً. قال أبو الليل، وهو يهب ملء طوله، فرحاً تتراقص عيناه في محجريهما، إن قامت دولة في بلدي، أياً كانت تلك الدولة، عدت إلى بلدي.
***

الفصل الحادي عشر

كانت قد مرت سنتان على اتفاق أوسلو ولم يكن أبو الليل قد عاد إلى بلده.
"تعود إلى غزة حين أعود أنا إلى العراق، "كان باقر يقول له مشاكساً وهو يراه يحرق الإرّم غيظاً في غدوه إلى عمان ورواحه منها خائب الرجاء مرفوض الطلب.
"بل سأعود"، يرد أبو الليل بتحدي المقاتل العنيد. "نحن الشتات فكيف نعرف الوطن؟"
"لن أظل شتاتاً، سأعود رغماً عن أنوفهم سأعود". كان أبو الليل يجزم، دون أن يفت في عضده الخيبات المتتالية التي تلقاها من ذوي الشأن الجدد في غزة.

كانت إسرائيل، بحجارة الأطفال، بزنود الفتيان، بالعمليات الانتحارية قد انسحبت، غير راغبة في شيء. "فقط حلوا عن ظهري. لا أريد بلاء غزة.. مشاكل غزة". وفي ليل بلا ضوء انسحبت، مخلية مواقع الشرطة، المخابرات الجيش، الإدارة المدنية، العسكرية.ـ تركت كل شيء وخرجت من المدينة التي لم تكن ترقد إلا لتهب، تكنّ إلا لتنتفض قاذفة إياها بالحجارة، صابة عليها حمم المقاليع والنقافات، نيران البنادق ونصال الخناجر حتى غدت غزة الجحيم التي لا تريد إسرائيل شيئاً في الدنيا قدر الخروج منه. وخرجت إسرائيل، ليجيء رجال السلطة المحلية. منتصرين دخلوا، رافعين أصابع أكفهم برقم سبعة وكل ما في ذهنهم أنهم انتصروا وأنهم نالوا الحرية والاستقلال.. لكن ما إن راحت السكرة وجاءت الفكرة حتى تكشفت لهم حقائق جديدة: إسرائيل على أبواب غزة.. على شاطئ غزة، في كل مكان من محيط غزة تحكم حولها الطوق فلا يخرج أحد أو يدخل إلا بإذن هاموشال أو حزقيال، إسحق أو كوهين.. حتى رأس السلطة الفلسطينية لا يدخل أو يخرج إلا بإذنهم، فكيف يدخل أبو الليل؟
إسرائيل تعلم من هو أبو الليل. موسادها يعرف الكثير عنه، ملفه امرأة حبلى في شهرها التاسع فكيف يخدعهم بأنه مجرد مواطن يريد العودة إلى وطنه؟ صحيح أن إسرائيل كانت قد تخلت عن غزة لكن الصحيح أيضاً أنها لم تكن قد تخلت عن القطاع.. الشاطئ، الجنوب، الشمال، ثمة مستوطنات لا تتركها إسرائيل في مهب الريح وغزة ريح عاصفة إن وجدت لها منفسحاً لم تبق ولم تذر من مستوطنات ومستوطنين. كانت إسرائيل تعلم جيداً ما تريده. شوارع غزة لاهبة مثل جحيم حارق، إذن لتدع تلك الشوارع، ولتبق في كل مكان آخر. "عنقهم في قبضتنا.. فأين يذهبون؟ نحن من أمامهم والبحر من ورائهم فأين يفرون؟. وبدا، وهلة من الزمن، وكأن السلطة المحلية في غزة دخلت عنق الزجاجة ثم أغلقت إسرائيل الزجاجة بسدادة محكمة إلى درجة يمكن أن تقطع عنها الهواء.
"المفاوضات" صاح رأس السلطة وشفتاه ترتعشان، يداه ترتعشان، كأنما أصابه "أبو هازوز" في المنفى، حيث تونس وقرطاج، كان يملك حرية الحركة وورقة الانتفاضة سلاحاً يقاتل به عدواً أخبث من ضب وأكثر مراوغة من ثعلب.. لكن وقد سكنت شوارع غزة وعاد المنتفضون إلى بيوتهم فرحين بالأصابع التي رسمت أرقام سبعة كثيرة، ثم صار هو نفسه داخل عنق الزجاجة، ماذا يقول الإسرائيليون؟
"نفاوض، لكن بعد أن ننتهي من مسار آخر". وكان ذلك المسار لملك همام ينحدر من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب، سبق وأن مد جسوراً وأقام صلات وعقد مفاوضات خرج منها صفر اليدين. لا. لا.. لم يخرج صفر اليدين فقد كسب علماً أبيض أزرق في وسطه نجمة داوود السداسية، ارتفع في سماء عاصمته فشهقت نساء وبكت أيامى وأجهشت يتامى ودماء رجالهم وآبائهم، أخوتهم وأبنائهم لما تجف بعد عن يدي رابين، الرجل الذي خطط في حزيران لتدمير طائرات مصر وسوريا وهي جاثمة في مطاراتها، والذي استفرد بالجبهات العربية واحدة واحدة إلى أن اكتسحها كلها واحدة واحدة. ذلك السليل نفسه كان في حيص بيص. لقد درس في التاريخ أن جده الأعلى فتح باب خيبر وقطع بسيفه، ذي الفقار، رأس مرحب باعثاً به إلى الجحيم، مجتثاً آخر جذر من جذور اليهود الخبيثة التي امتدت إلى أرض الحجاز ومدين فكيف تراه، وهو سليل ذلك الجد العظيم يرسخ جذورهم؟ اليهود يريدون وادي الغور أرضاً يستأجرونها، ككل خلق الله يستأجرون، يفلحون ويزرعون، يريدون أبواب الأردن مفتوحة على مصاريعها، يدخلون معززين مكرمين ويخرجون معززين مكرمين. وهو خائف متردد، مقدم محجم، هم يفاوضون بصبر وأناة، فلماذا يفكرون بغزة أو بالتفاوض مع من في غزة وقد اعتادوا دائماً الانفراد بالعرب جبهة جبهة فلا تجتمع قبالتهم جبهتان.
تململ رأس السلطة ذو اليدين الراعشتين والشفتين الراعشتين وتقلقل. "ما على هذا اتفقنا"، "مهلاً أيها الشريك!!" جاء الرد "صبراً يا أخا العرب". ولم يكن الرجل يملك إلا أن يصبر. كانت مفاوضات أوسلو السرية قد جردته من السلاح العربي كله.. كشفت ظهره فليس وراءه حائط عربي ولا أمامه درع فلسطيني. كان قد ذهب إلى أوسلو سراً، فاوض سراً، اتفق سراً، دون أن يستشير أشقاءه من الحكام العرب فأخذ أشقاؤه على خاطرهم وحردوا، أحسوا بالإهانة والغدر فكظموا. بل بعضهم هاجمه بشراسة "كيف

تفعل هذا؟" "من وراء ظهورنا تفاوض؟ خفية عنا تعقد اتفاقات؟ "هذا شأن فلسطيني محض"، رد رأس السلطة.
"بل فلسطين شأن عربي" "تركناه لكم نصف قرن فما ازداد الطين إلا بلة. دعوه لنا علنا نجد خلاصنا" "خلاصك بالاستسلام!؟" واشتعلت حرب من كلام بين هذا الحاكم ورأس السلطة، فيما اكتفى حكام آخرون بالحرد فلا يكلمون رأس السلطة ولا يستقبلونه.
وضاق الخناق على الرجل الراعش. هو مقتنع أن فلسطين يجب أن تكون للفلسطينيين لا يشاركه في التفاوض على مصيرها أحد. ألم يقل مجلس الجامعة العربية قبل عشرين عاماً أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني؟.
إذن هو ينفذ ما قالته الجامعة، يقوم بما خوله إياه مجلس الجامعة، وليذهب الحكام العرب إلى الجحيم.
لكن وحده، رأس السلطة الراعش اليدين والشفتين، بدا وكأنه قد ذهب إلى الجحيم. هو يريد الخروج من عنق الزجاجة لكن دون ذلك خرط القتاد. يفتحون له سدادة الزجاجة، يتنفس بعض الهواء، يغلقونها فلا يملك إلا أن يصرخ مستنجداً وقد أوشك على الاختناق. طعامه، شرابه، تموينه، عمالته، كلها بيد رابين. يفتح الصنبور فيسيل الماء، يدير مفتاحاً فتشتغل الكهرباء، يعكسه فتغرق غزة كلها في الظلام. هو لا يملك من أمره شيئاً، فكيف لا يرتد طلب أبي الليل المرة تلو المرة مذموماً مدحوراً "أنا ذاهب إلى مصر"، قال لباقر بعد سهرة تسكع في شوارع دمشق كادت تتلف لها قدما باقر. "ماذا تفعل في مصر؟ "من هناك أتسلل إلى غزة" ولم يمض يومان حتى كان أبو الليل قد صار قرب حدود مصر يتسلل منها إلى غزة. باقر يتسلل أيضاً. هو يعرف التسلل جيداً. ذات يوم كان قد تسلل من بيت رجوة وأمها، الجرم البشري الهائل، هرباً من عقاب قد يحط عليه حط السيل من علٍ. فمن يدري؟ قد ترغمه المرأة الشكاكة المعقدة أن يصلح خطأً لم يرتكبه؟ ألم تحاول ذلك مع رجلها الطبيب الذي لم يجد أمامه من خيار سوى الفرار؟ كان باقر قد ظل شهراً أو بعض الشهر في بيروت. رأى هناك صحبه، ذهب إلى قاعدته، عاش مع أبي الليل في بيته، قصد حانة أبي جوني، سهر مع يسار وصفية، مع هذه الراقصة وتلك ولم لا؟ كلهن راقصات. ألم يكتب سارتر يوماً مسرحية بعنوان "كلهن فاضلات"؟ باقر يتسلى في بيروت. يقطع الوقت مع صاحب قديم بات كل همه أن يجمع المال، والراقصة المبدعة تعرف كيف تجمع المال. تعرض جسدها في سوق النخاسة وعلى حلبات الملاهي والكازينوهات فينصب المال عليها صباً. "سأدعها تعمل إلى أن نجمع قدراً من المال، نعيش به حياة النعيم والرفاه في دمشق دون أن تضطر للعمل". شرح له يسار خطته فبارك باقر تلك الخطة وفي نفسه شك كبير في أن تغير الدجاجة "كارها" حتى لو قطعوا منقارها.
غادر باقر بيروت وهو يعلم أنه لا بد مما ليس منه بد. وصل إلى دمشق فمضى إلى حيث تعمل رجوة. قبل انتهاء الدوام بدقائق وصل. وانتظر على ناصية الطريق يرقب المدخل. خرج الموظفون والموظفات، الآذنون والآذنات فأسرع إلى رجوة لمحته من بعيد فتأخرت عن السرب متشاغلة بحقيبتها تبحث فيها عن شيء.
"رجوة" "باقر" هتف كل منهما بالآخر وهما يسلكان زقاقاً قريباً يبعدهما عن أعين المتطفلين والمتطفلات. "هكذا تهرب وتتركني وحيدة في الساح؟" "وماذا باستطاعتي أن أفعل؟" "الفارس يدافع عن ظعينته". ليس أمام غولة كأمك.
"غولة؟ لا تقل عن أمي غولة" "أعتذر.. كنت أحسبك تشاركينني الرأي" "كيف وهي لا تريد إلا مصلحتي؟" "مصلحتك أن تصبحي عبدة لها، مزرعة لعقدها؟" "أمي تدافع عن شرفي.. تريد لي زوجاً صالحاً وبيتاً مستقراً، فلماذا لم تثب إليها بنخوة العربي ومروءته قائلاً: دعيها.. سأبني بها الليلة؟ "ها.. هكذا إذن.. كنت تريدينني أن أتزوجك" "ولم لا؟ الزواج حلم كل فتاة" "لكن لم نكن يعرف واحدنا الآخر "لا يهم، نتعرف بعد الزواج"، وبدت رجوة مرآة تعكس أفكار أمها، تلك التي شربتها مع الحليب الذي رضعته. فآثر باقر الصمت وفي نيته أن لا يثير ضده الفتاة. "هل أستطيع العودة إلى الغرفة؟" "بشرط واحد: تطلب يدي". وخيل لباقر أن وراء الأكمة ما وراءها منذ البدء، تشديد الأم على الفتاة، تقرب الفتاة منه، تسللها إليه في الصباح، كل ذلك بدا كأنه مدبَّر وبغاية وحيدة: إدخال العصفور إلى القفص. دعاها إلى الغداء. فكادت تولول "وماذا أقول لأمي؟" "لكنك فتاة ناضجة، عمرك فوق الثامنة عشرة فكيف تتصرفين كقاصرة؟" "أنا أطيع

أمي" "أنت عبدة تابعة تنفذ وتخضع"، "وهل تريدني أن أعارك أمي؟" "أريدك كائناً حراً مستقلاً له رأي وموقف"، "وأعصى أمي؟" "اعصي.. تمردي.ـ كسري القيود.. أجل.. فقط لا تكوني خاضعة خانعة" "أنت مجنون"ـ "أنا رجل يحب الحرية.. يريد الناس كلهم أحراراً.ـ رجالاً.. نساءً.. كلهم يجب أن يقاتلوا من أجل الحرية.. كي ينالوا الحرية"ـ "لا، أنا لا أقاتل. أنا ضلع قاصر لم تخلق للقتال" "إذن، ابقين أيتها الضلوع القاصرة إماء وجواري" ومضى باقر لا يلوي على شيء.
في الصباح التالي تسلل إلى المنزل وقد رأى الغولة تخرج لشراء حاجات البيت. أخذ حقيبته ومضى إلى منزل جديد لا غولات فيه ولا معقدات. صاحبه صديق لورا وبيته أشبه ببيت لورا: أربع غرف: الغرف الخارجية لباقر والثلاث الداخليات لعبد الرحيم. عبد الرحيم أعزب لا امرأة له ولا ولد. "عجيب، لم لم تتزوج حتى الآن؟" سأله باقر. فأجابت عنه لورا ضاحكة "ومن تتزوجه؟ عبد الرحيم عكس اسمه: عبد إبليس، نصاب محتال، وأنا أحذرك منه". فغر باقر فاه متعجباً لكن عبد الرحيم فتح فاه مقهقهاً "الصديقة لورا تحت الدعابة دائماً"، لكن حين اختلى باقر بلورا أكدت له الصديقة أنها كانت مازحة مداعبة ولا شك، لكن في مزاحها الكثير من الجد، وأن عليه أن يتخذ كل حيطة وحذر، فالرجل الأنيق الجميل، الفارع الطويل، الرهيف الخصر لا يتورع عن نصب أية أحبولة تعود له بصيد، بخساً كان أم ثميناً.
شهر، شهران، خمسة عشر شهراً مرت ولم ير باقر ما يشين سلوك الرجل.
هو غاية في الدماثة، غاية في الكياسة، يلتقيان قليلاً، صحيح، لكنهما يلتقيان صديقين حميمين. عبد الرحيم بارع في كسب الأصدقاء، ذلق اللسان، واسع المخيلة، سريع البديهة، يستطيع بكل يسر أن يخلق الجو الملائم والمناخ المريح لحديث يتجاذبانه أو قهوة يشربانها. بل أحياناً لغداء أو عشاء يأتي به عبد الرحيم من المطعم.. هو ينفق بسخاء، ثيابه من أرقى المحلات... ربطات عنقه، أحذيته.. كلها تدل على ذوق رفيع ومال وفير. "من أين تأتي بالمال؟" سأله ذات مرة وهما يشربان قهوة الصباح. "أعمل" "وماذا تعمل؟" "بيزنس" والبيزنس واسع الأمداء رحب الآفاق أوله على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وآخره على الجانب الآخر للمحيط الهادي، حيث كاليفورنيا والمكسيك.
لم يستطع باقر أن يتغلغل أكثر: عبد الرحيم دهليز ملتوٍ عميق لم يعرف قط الكهرباءـ هو يتحدث كثيراًـ عن الماضي لكن قلما يتحدث عن الراهن. شغوف باستشراف المستقبل، بتخيل الغد، لكنه حريص على إبقاء الحاضر طي الكتمان. "لماذا؟" نظرية عبد الرحيم واضحة "الماضي ملكك، يمكنك التحدث عنه، إفشاء أسراره، لكن الحاضر لا. هو عجينة ما تزال قيد التشكل فكيف تبوح بأسرارها"؟ وعرف باقر عن ذلك الماضي أشياء وأشياء. بعضها روته له لورا وبعضه الآخر رواه له بنفسه.
كان أبوه قد أودعه صغيراً لدى شيخ من مشايخ الصوفية، يعلمه طريقة الصوفيين ويربيه على أخلاقهم هو الذي كان يرى في ابنه مخايل الذكاء وأمائر الفهم، فلماذا لا يكون شيخاً ذا طريقة وأتباع، حواريين ومريدين؟ عاش الصبي ابن الثامنة في كنف الشيخ الجليل، يعلمه القراءة والكتابة، الدين والشريعة، ثم أشياء وأشياء.. بدا معها الصبي يتفتح، وجهه يزداد نضارة، بشرته تشتد ألقاً، حتى بات أبوه يتوسم فيه أن يخرج من لدن الشيخ نوراً على نور تضيء أشعته العالمين.
كبر الصبي، صار غلاماً يافعاً ثم بلغ سن الرشد، وهو يتعلم على يد الشيخ الجليل، يرى الشيخ الجليل، يخدم الشيخ الجليل، حتى صار يده ورجله، عينه ولسانه. هو للداخل، هو للخارج، موضع ثقة، ومؤتمن أسرار. في رغد وهناءة عاشا، طعامهما واحد، شرابهما واحد، ينامان معاً، يقومان معاً، وعبد الرحيم في الجنة إلى أن دخلت حواء وأخرجته من الجنة. حواء عبد الرحيم ابنة الجيران رأت الفتى يشتد عوداً ويحسن وجهاً فبدأت تنصب الشباك: نظرة من هنا، غنجة من هناك واشتعلت النار في قلب الغلام. "هناك جنس آخر، إذن؟" وبدأ المغناطيس يجذب المسمار.. قانون الفيزياء يقول:
إن وضعت مسماراً بين كتلتي مغناطيس جذبته الأقوى، وكانت حواء الأقوى. عبد الرحيم لم يكن يعلم. شيء ما بالفطرة كان يدفعه نحو تلك الكتلة التي تلبس الثياب الهفهافة الشفافة، شعرها يتطاير في الهواء، عيناها تذبلان وتغمزان، لينشد إليها مبتعداً عن كتلة أخرى كانت تحسب أنها الوحيدة في ساح عبد الرحيم لا منافس لها ولا منازع.

لكن ما إن اكتشفت أن هناك كتلة أخرى حتى هاجت وماجت. "تدع الشيطان يغويك..؟ ألا بئس من أغواه الشيطان" وانقضت صواعق الشيخ الجليل على رأس الفتى الذي كان قد ذاق تفاحة حواء فأعجبه مذاق التفاح، عائفة نفسه كل ما عداه من مذاق. "اللعنة عليك!! اخرج من جنتي. كما خرج آدم من جنته". خرج عبد الرحيم تلحقه لعنات الشيخ، وتتلقاه لعنات أبيه: حديداً محمراً بين مطرقة وسندان فكيف لا يحاول النجاة من المطرقة السندان؟.
سافر إلى المغرب.. سنوات سبعاً ظل هناك.. لا خبر.. لا علم.. لقد ترك عبد الرحيم البلاد بمن فيها كأية امرأة ترك زوجها. كان لديه معارف في المغرب وكان ثمة عناوين تركها العرافون الحسابون.. مشايخ الطرق الذين كانوا يؤمون شيخه في غدوهم إلى المشرق ورواحهم منه، وكان قد عقد صداقات مع بعضهم فلماذا لا يفيد منها؟ هناك، اكتشف عبد الرحيم العجب العجاب. عرف أن معظم أولئك الذين ذهبوا إلى المشرق حاملين علوم الفلك وفنون السحر، أسرار الكنوز المخبأة وألغاز الماضي المحيرة.. ليسوا إلا يهوداً ترسلهم منظمات هناك في فاس ومكناس، مراكش والرباط. لكن ما بث في نفسه الروع أكثر وأكثر اكتشافه الأخطر: شيخه الصوفي الجليل، شيخ الطريقة والعرافة، لم يكن سوى يهودي ابن يهودية أرسلوه قبل ثلاثين عاماً ليصبح معلماً من معالم دمشق القديمة. أسرع عبد الرحيم إلى دمشق يكشف السر لكنه وجد الأوان قد فات، فقبل أشهر فقط كان الشيخ قد وري الثرى ليصبح قبره ضريحاً يزار.
وفتح باقر عينيه على سعتهما "معقول"؟ سأل لورا وقد روت له ذلك الجانب من قصة عبد الرحيم. "معقول ونصف.. ولديه الوثائق". "يا إلهي!! إذن كم من ألغام يزرعون بيننا ولا ندري!!" تابع باقر وكأنما يخاطب نفسه "أجل جئت بها، زراعة الألغام، هو ذا ديدنهم عبر التاريخ". ردت لورا، المعنية كثيراً بالتاريخ والجغرافيا، علم السياسة وعلم الاجتماع. "أتذكر عبد الله بن سبأ؟ كعب الأحبار؟ اليهود الذين تسللوا بإسرائيلياتهم إلى تاريخنا وتراثنا، ديننا وفقهنا، فعاثوا فساداً؟" "أجل أنا الذي يذكر" باقر قرأ التاريخ ذات يوم ولا ينسى أبداً ما فعل علي بن أبي طالب بابن سبأ حين دعا هذا لتأليهه، فانقض عليه يريد قطع رأسه بالسيف، لكن، وقد حالوا بينه وبينه نفاه إلى اليمن. "في الماضي، في الحاضر، اليهودي يعيش على التآمر، الدسائس، المكائد، تخريب الشعوب، أتدري لماذا؟" سألته لورا، التي تعلم لماذا، فالمسألة اليهودية كانت قد شغلتها ذات يوم حتى قرأت كل ما كتب فيها ماركس وأنجلز، لينين وستالين. "لا، لماذا؟" سألها وهو يعلم، راغباً فقط في أن يعرف أفكارها أكثر فأكثر. "لكي يبقوا الأقوى.. السادة الذين لا منازع لهم" "كيف؟" "ها.. ها.. تقول لي كيف؟.. حين يكون الآخر ضعيفاً، بأقل قوة لديك تكون أنت الأقوى.. وحيث يكون جاهلاً بأقل معرفة تكون أنت الأعلم، فقيراً تكون أنت الأغنى. وهكذا.. ينفث اليهود سمومهم في صدور الناس، يبتزون أموالهم يبثون الفرقة والشتات، ينشرون الفساد والإفساد.."
"ها.. ها.." قاطعها باقر "لهذا السبب، المحطات الفضائية المختصة بالبورنو والإفساد كلها لليهود" "طبعاً.. طبعاً.. يبثون الأفلام الإباحية والجنس، يلهون الناس ويفسدونهم، ليظلوا السادة المهيمنين ويظل الآخرون "الغوييم" البهائم، الضعفاء المستضعفين" "العجيب كيف يتوصلون إلى ما يتوصلون إليه؟ "بسيطة. الغاية تبرر الوسيلة. هذا قانون مقدس لديهم، وهم يعرفون كيف يوظفون جيداً ذلك القانون.. المكيافيلية. أليسوا هم وراءها؟، البراغماتية أليست من صنعهم؟" كيف؟ "البراغماتية فلسفة الأمريكان وفلاسفة الأمريكان جلهم يهود." "معقول لورا؟" "لم لا باقر؟ اليهود يملكون مفصلين أساسيين في المجتمع الأمريكي: المال والإعلام، فما الذي لا يستطيعون فعله في ذلك المجتمع بالمال والإعلام؟" "بيدك حق.. لكن أن يملكوا مثل هذه المفاصل هنا؟" سأل باقر وهو يعود بذاكرته إلى شيخ عبد الرحيم وإلى العراق حيث كان اليهود يخربون ويفسدون. "لم لا والتربة هنا مناسبة؟ التخلف يولد السحرة والمشعوذين. يوفر لهم شروط الحياة والاستمرار..
فلم لا يستغلها يهود المغرب ويهود المشرق؟" وأطلق باقر تنهيدة طويلة هو الذي كان يحز في نفسه على الدوام أن يكون هناك أناس يستغلون شعبه الطيب ويضللونه.
كان عبد الرحيم قد روى له شيئاً عن رحلته إلى المغرب، مركزاً خصيصاً على نيته في أن يتعمق أكثر في العرافة وكشف الغيب. لكنه فوجئ بما اكتشف من خبايا يقف لها

شعر الرأس فعاد لا ليجد سيده الجليل قد مات وحسب، بل ليجد أباه وأمه أيضاً.. وليجد أخواته الثلاث قد تزوجن فظلت الدار الواسعة قفراً خاوية، اضطر أن يسكنها وحيداً، والوحدة موحشة.. بل الجنة بلا ناس لا تداس. "لكن ما تراه يعمل عبد الرحيم؟ أي بيزنس يمارس؟" مرة ثانية سأل باقر لورا. "كل شيء ولا شيء". "كيف؟ لم أفهم". "يا عزيزي، هو بذلاقة لسانه، وسعة معارفه، وما تعلمه من فنون العرافة والشعوذة، قادر أن يدخل كل دائرة، يقيم علاقة مع كل ذي شأن، وما الذي لا يفعله من يعرف ذوي الشأن؟".

"مع ذلك ترينه متواضعاً لبقاً، أنيساً، كيساً". "هي ذي شروط المهنة.. تلبس أفخر الملابس، تحمل بيدك السمسونايت، تشرع في فمك الغليون.. فأي باب لا ينفتح أمامك؟". وكان باقر يعلم أن الأبواب كلها تفتح أمام عبد الرحيم، هو الذي يعرف جيداً كيف يقطع رؤوساً ويركب رؤوساً، يصل ما انقطع ويقطع ما انوصل لا يجاريه في ذلك أحد.

"لكن لماذا؟" عاد في مرة أخرى وسأل لورا "لماذا يفعل ذلك وهو وارث غني؟ وحيد وليس بحاجة إلى مال؟" "لا، هنا تخطئ. المال ليس حاجة بل هو طمع.. جشع، والطمع والجشع لا يقفان عند حد. ظمأ أبدي لا يعرف الارتواء.

لعل معلمه اليهودي هو الذي زرع في نفسه ذلك الجشع.. رعاه ونماه حتى صار أرسخ جذوراً من أن يستطيع اقتلاعه".

"ألهذا لم يتزوج؟" "لا، للزواج قصة أخرى لا علاقة لها بالجشع والمال" "أية قصة؟ "عبد الرحيم غير معني بالمرأة" فسرت لورا وهي تغمز ضاحكة، "هو معني بالرجل إذن؟" سأل باقر وقد لمعت في رأسه الفكرة فجأة. "هنا يقوم حدى ولا أتجاوزه. وعليك أنت أن تجيب على سؤالك؟" "خربه ذلك اليهودي إذن؟" "لا أحد يدري.. هو متكتم كثيراً لا يقارب أمراً كهذا مطلقاً" "تقصدين أنه لم يحاول مغازلتك أو التقرب إليك؟" "أبداً" "لكنكما صديقان حميمان، بل حين رأيتكما أول مرة خيل إلي أنكما عاشقان متيمان" "هو يبدو كذلك، لكن في حقيقته هو لا يبالي بالمرأة، لا يفكر بها كأنثى، هكذا قال لي وهكذا سلوكه" وشرد باقر بعيداً.

في العراق بذر الإنكليز بذرة الفساد تلك. نمت وترعرعت حتى كان بإمكان باقر أن يرى نباتاتها متناثرة هنا وهناك.. لكن لم يكن يقاربها فتربيته البيتية المتشددة، أصوله العمارية، نضاله الحزبي، كل ذلك جعله دائماً في منأى عن تلك النبتة. "لعله خنثى لا ذكر ولا أنثى؟" سأل لورا فسارعت إلى إجابته للتو "لا.. لا.. هو ذكر. لكن ككل ذكر حصل لديه في سن معينة ما يسميه علم النفس: الاستقطاب" "لورا.. أنت تدهشينني" "لا، لا تندهش. أنا فقط أنقل لك ما قرأت. ذلك الاستقطاب يكون في أحد اتجاهين إما: نحو الأنثى وإما نحو الذكر، وعلى نحو يلغي واحدهما الآخر. المستقطب ذكورياً يصبح محايداً تجاه الأنثى والعكس بالعكس". "لورا.. بالله عليك صارحيني. أعرفت ذلك عن تجربة؟". "أجل.. سأصارحك" بدأت ثم توقفت وهي تشرد بناظريها بعيداً. بعدئذ تابعت: "ذات يوم دعاني إلى نزهة في السيارة. كان لديه سيارة فاخرة لا أدري من أين أتى بها" "هو دائماً يأتي بسيارات فاخرة" علق باقر ضاحكاً، "ثم يوماً أو يومين وتختفي كما ظهرت" "وهكذا كان. سألني إن كانت تعجبني السيارة، فقلت: حلم أن يركبها المرء". دعاني لركوبها ثم مضى بي إلى أحد المنتزهات، غابة صنوبر كان الربيع يزيدها ألقاً وأريجاً. هناك تمشينا. الأرض تحت أقدامنا بساط من سندس أخضر، العبق من حولنا بخور ينعش الصدور وشمس الربيع ترسل دفئها مناخس تحرك الحياة والشباب. ساعة وبعض الساعة ظللنا نسير في غابة الصنوبر، مواضيع كثيرة طرح، آراء عجيبة أبدى. وكنا نتناقش وكأننا كهلان يدبان إلى الشيخوخة. بكل موضوعية، بكل حياد، بكل برود، كان ينظر إلي. وكانت شمس الربيع قد فعلت فعلها في عروقي فثارت في داخلي الأنثى. "اللعنة عليه!! لم هو جامد كالجلمود؟ سأثيره.. سأغويه" وبدأت بيده أتلمسها.. أفرك بين أصابعي أصابعه. ثم صعدت إلى خصره طوقته بذراعي.. ألصقت جسدي بجسده. وحين شببت بقامتي أريد الوصول إلى فمه وضع بيننا راحة كفه "لا، لورا" قال بكل برود "أنا لا تعنيني فيك الأنثى". "ماذا يعنيك إذن؟" "الصديقة، فلنكن صديقين لورا" "لكن الجنس يدعم الصداقة" قلت له وقد ازددت توهجاً واشتعالاً "ربما، لكنه كثيراً ما يجر الويلات، فاسمعي مني.. دعينا

بعيداً عن هذه الويلات لورا" وأدركت، وهو يبتعد عني، أن الأمر مبتوت فيه، وأنه غير معني بالمرأة على الإطلاق.
معلومات لورا مدهشة، حوارها مدهش، باقر لا يملك إلا أن يستعيده، وينكمش أكثر وأكثر من عبد الرجيم. نظرته تتغير أكثر وأكثر لعبد الرحيم. هو ينظر إليه بحذر، يتحاشاه بلطف. عقدة قديمة كانت تسكن في نفس باقر من قوم لوط وأصحاب لوط لكن لشد ما فوجئ حين جاءه عبد الرحيم ذات صباح:
-صباح الخير جار- حياه ببشاشته المعهودة وكياسته غير المحدودة.
-صباح الخير.. أهلاً وسهلاً، رحب به باقر وقد نسي حذره وتشنجه كله.
تفضل.
-لا.. شكراً.. لدي أعمال. فقط أردت أن ألفت نظرك، وتوقف الجار الطويل الجميل، الأسيل الخد، الأشقر الشعر فكاد يتوقف معه قلب باقر.
-تلفت نظري.. إلى ماذا؟ هل أخطأت معك لا سمح الله؟
-لا.. لا.. بل ألفت نظرك إلى أنني أريد الغرفة.
-تريد الغرفة؟ لماذا؟
-أريد أن أكمل نصف ديني؟
-معقول؟
-لم لا؟ ألست رجلاً؟ ألا يحق لي أن أتزوج؟ أن يكون لي أولاد؟
وشعر باقر بخديه يحمران وجبينه يتفصد عرقاً. كان سؤاله قد أثار أكثر من ريبة في نفس جاره وأكثر من حدة في نبرة صوته، وإجفالة في أوصاله.
-بلى. بلى. هو كذلك. هو كذلك، يا صديقي.
وغادر باقر الغرفة وهو يشعر أنه يسير على سطح ماء.. كل شيء دونه رجراج.
كان عيد الأضحى يدق الأبواب: أراجيح ودواخات، قلابات ودوامات، أصحابها مشغولون.. يلهثون وهم ينصبونها في الساحات. باقر ينظر إليها ويعود إلى الوراء.
(ايه.. يا بصرتي الحبيبة؟ ايه يا شارع العشار! يا كورنيش الشط!! يا ساحة أسد بابل!! أتذكريننا ونحن صغار نجيء إليك؟ نصعد الدواخة، ندوم بالدوامة، نتأرجح بالأراجيح. نركب الخيل، نأكل الحلو.. البزر.. الكازوز.. ونلعب.. نلعب ونضحك.. كما لم يلعب أحد ولم يضحك أحد). باقر يتنهد وهو يعلم أن بصرته الحبيبة قد أصبحت خراباً.. صور التلفاز، الصحافة، الأقمار الصناعية كلها تعرض بعضاً مما فعلته بها قذائف البوارج وصواريخ المدمرات، دك المدفعية وقصف الطائرات. هو يشعر أنه لم يبق من البصرة شيء.
بيتهم القديم في حي القشلة.. بيتهم الجديد في حي الخندق.. بيوت أصدقائه.. أحبائه..
(مهيجة.. ماذا حل بك يا حبيبتي؟ وأنت يا أختي.. أخي.. أمي.. آه!! كم أحن إليكم جميعاً!! كم أنا مشوق لمعرفة أخباركم!! أبيع عمري لو تتكحل عيناي بمرآكم!) ويتابع باقر تسكعه في أزقة دمشق الضيقة.. حيث الباب الصغير وباب الجابية. مسالك أضيق من عيون الخزر وبيوت متلاصقة تتزاحم صدوراً ومناكب، ولا يملك باقر إلا أن يعود إلى حي القشلة القديم وإلى البصرة القديمة حيث حرقها الزنج ذات يوم، قلبوا عاليها سافلها، لكنها عادت من جديد تتحدى الفناء. باقر يستعيد في ذاكرته لحظة بلحظة احتفالات الربيع في المدينة التي تحدت الخراب وقاومت الفناء. صبية وفتيات يتجمعون في زوارق تمخر العشار، هذا يدق الدف، تلك ترقص، الثالث يغني.. وكل على ليلاه..
("آه!! ما أحلى تلك الليالي!! مهيجة.. كم كنت حلوة يا حبيبتي!! يا حباً أولاً لا ينافسه حب!! بيتك كان ملاذي، بيتي كان ملاذك وكانت الأواصر متينة. أهلنا معاً تجمعهم عقيدة واحدة. نضال واحد.. وأعياد واحدة، فنخرج، نمرح معاً، نفرح معاً. نرقص معاً. تنتهي رحلتنا الزورقية فنتمشى في الكورنيش.. أتذكرين مهيجة؟ ذلك الكورنيش حيث يلتقي العشار بشط العرب، وحيث الدنيا كلها صفصاف ونبق، نخيل وتوت.. أشجار من كل صنف ولون تحيل الدنيا إلى رياض والشوارع إلى جنان نستفيء فيئها ونختبئ بين أغصانها، نختلس النظرات، البسمات، القبلات. أتذكرين مهيجة؟ وفوقنا طيور أبي الزعر ترصدنا.. البلبل المبقع بالأصفر يغرد لنا؟ أتذكرين البلبل؟ كم كنا نحبه رغم كل ما كانوا يتقولون عنه من خيانته للرسول، من سرقته لمنديله، ثم معاقبته بتلك البقعة الصفراء وصمة تلحق به إلى الأبد، كنا نحبه بألوانه الزاهية، بأغاريده الجميلة، كنا نتعلق به، وذلك

الطير الآخر، أتذكرين مهيجة، طير السمرمر وهو يمرق بنا مروق النيزك فلا نملك إلا أن نضحك. إيه مهيجة!! أتراك تتذكرين؟".
عند باب الجابية، مر بمطعم، روائح الشواء أيقظت فيه أحاسيس وذكريات.
أبوه وهو يشوي لهم لحم الضأن، أمه وهي تضع على المائدة صينية التمن الأصفر تغطيه طبقة من الدجاج المحمر والصنوبر المقمر، اللوز والجوز.. طعمها كلها ما يزال ملء فيه يشعر به باقر ويتلمظ. بهارات الهند كلها في أنفه يستطيع أن يتنشق رائحتها وينتعش.
(لكن.. ما حل بك يا أم وقد خربت البصرة؟ في أي أرض أنت وقد أحال الأعداء مدينتنا الجنة إلى جحيم؟)
أمه في البصرة لكنها لا تستطيع جواباً، البصرة خربت دوراً وجسوراً، أبنية وشوارع، لكنها لم تخرب أرضاً ومقابر. ترابها ما يزال ذلك التراب الذي عرفه باقر، وبنوها الذين يفارقون الدنيا بشظية قنبلة أو رصاصة رشاش أو نار حريق مما يفعله الأنكلو أمريكان بالبصرة وأهلها يعودون إلى ذلك التراب فيضمهم أباً حنوناً وأماً رؤوماً. أم باقر عادت إلى مثواها، التراب، تتخفف في طياته من كل ما علق بها من أدران الدنيا وأحزان الحياة.
كان حزنها على باقر الذي لم تره عيناها منذ أزمان، جبار الذي لا تعرف له أرضاً منذ سنين، كاظم الذي طمره التراب والحصى قبل أن يطمره تراب القبر وحصاه، تلك الأحزان كلها كانت قد أذبلتها شيئاً فشيئاً حتى غدت قصبة متيبسة عجفاء لا تحركها حتى الريح. فاطمة.. رقية.. زوج هذه، زوج تلك، كلهم حاولوا إعادتها إلى بغداد.. إبعادها عن البصرة علها تنسى. لكن القصبة اليابسة العجفاء أبت التحرك.. "إذا اقتلعتموني من أرضي مت." وأبقوها في أرضها، شجرة بلا أوراق، بلا فروع، كل ما حولها خراب ودمار، بكاء وعويل، وهي بحاجة لأن تبكي.. تبكي، فكيف تغادر البصرة؟
ثلاث سنوات ظلت هناك وحيدة فريدة.. تندب حسينها وتدق على عترته صدرها، حتى تحطم الصدر وانكتم على أنفاس لم تعد ترغب في الخروج.
حين سمعت بناتها بالموت كان الجيران قد دفنوها. لم لا وإكرام الميت في دفنه؟ بل الإسراع أكثر في الدفن زيادة أكبر في الإكرام.. ومن العمارة، بغداد، أطراف الأهوار جاء أهل وأقرباء يقومون بواجبهم تجاه الموت الذي كان عزرائيله مقيماً في العراق.. لا ينفك يجوب سهوله، جباله، جنوبه، شماله، ولا يفتأ يصرع ويجندل أطفالاً بلا أمهات، أمهات بأطفال صدورهن بلا حليب، فيذوي واحدهم جوعاً وعطشاً يهبون لمعالجته فلا يجدون دواء للعلاج كما يصرع ويجندل رجالاً بلا نساء ونساء بلا رجال فينكشفن.. في أرض عراء، لا سقف يحميهن ولا جداراً يسترهن. يشرد بعضهن في الأزقة والشوارع، ماجدات كما لم يعهد المجد مثيلاً لهن. لكن الجوع كافر، والحياة غالية يفعل المرء كل ما يستطيع للتشبث بحبالها فلا تنقطع. الأنكلو أمريكان يعملون على قطعها. بكل وسيلة.. بكل سبيل يعملون على قطعها، فلا تجد الماجدة لقمة خبز ولا حبة تمن. حصارهم يضربونه منذ سنين. لا طائرات تطير في سماء العراق ولا باخرة تسير في بحار العراق. الطوق أحكموه فمن أين يأتي الغذاء؟ من أين يأتي التمن وقد تحولت أهوار العراق شهوراً وسنين إلى محارق تشتعل ناراً. برديها، قصبها، ماؤها، مستوطناتها، كلها تشتعل ناراً..
العراق كله رهين النار والحصار: حصار من داخل وحصار من خارج.
"إما أن تسقطوا حكامكم أو نبيدكم عن بكرة أبيكم"، كان الأنكلو أمريكان يقولون في إذاعاتهم وتلفازاتهم. صحفهم ومجلاتهم وكانت ماجدات العراق يولولن "نسقطهم، كيف وهم يدافعون عنا؟ نعاديهم، كيف وأنتم أعداؤنا؟ نقتلهم كيف وأنتم الذين تقتلوننا"؟ لكن الأنكلو أمريكان لا يولون أهمية كبيرة لما يعتمل في صدر الماجدة، في ذهن الطفل، في رأس الرجل في بغداد أو البصرة.. كان لديهم هدف ولم يكن يعنيهم سوى أن يتحقق ذلك الهدف.. ماتت نساء العراق، قضى أطفاله، أبيد رجاله، كلهم، كلهم، لا يهم. المهم أن يصل الكاوبوي إلى هدفه، يركع خصمه، يجعله يزحف عند قدميه، يلثم حذاءه. ثم يطلق عليه طلقة الخلاص. حينذاك يرقص فرحاً وهو يراه يتخبط على الثرى في بركة من دماه.
رأت فاطمة المدينة المثخنة بالجراح تضمد جراحها، لكن ما إن تفعل ذلك حتى تأتي الطائرات الأنكلو أمريكية لتنكأها من جديد. عدة مرات دوت صفارات الإنذار، وعدة مرات دوت الانفجارات هائلة مروعة وكأنهم ما يزالون في الحرب.
البصرة جنوب، والجنوب مصطاف ومتربع لطائرات العم سام تسرح فيه وتمرح..

إن رأت عربة جر حسبتها عربة مدفع فقصفتها، أو رأت طائرة ورقية يلعب بها طفل حسبتها صاروخاً موجهاً إليها فقصفت الطائرة والطفل، أو رأت صحن التقاط للمحطات الفضائية حسبته راداراً فصبت عليه جام غضبها. ثمة جنون. فاطمة، رقية، محسن، رئبال يرون ذلك الجنون بأعينهم، يسمعونه بآذانهم ويرثون حظ المدينة العاثر.. حظ الشط الكبير وهو يتحول إلى أمواج من دم، نهر العشار وهو يتحول إلى مياه من دم. لا سفن ولا زوارق، لا أعياد ولا احتفالات.. بل أحزان.. أحزان.. أحزان.

محسن، رئبال، رقية كلهم عادوا إلى بغداد. وحدها فاطمة لم تعد. كانت تريد التكفير عن ذنب بات يؤرقها ليلاً ويعذبها نهاراً. لقد ماتت الأم دون أن تجد من يسقيها كأس ماء، يسمع آخر وصاياها.. يطبق شفتيها وأجفانها. قبل نصف شهر كانت قد أرسلت إليها تموينها من تمّن وسكر، شاي وطحين.. وكان السائق قد طمأنها. "هي على حالها. لا جديد". وكانت حالها كما تعلم فاطمة، حال قصبة ذابلة، لكنها لم تحسب أن القصبة الذابلة قد جفت حتى لم يبق فيها عرق يحمل نسغاً ولا جذر يمتص غذاء. لم تكن الأم قد نبست ببنت شفة، لم تشك، لم تبك.. فكيف تعرف فاطمة أن القصبة على وشك الموت؟

كانت فاطمة تحس بقلق يعتمل في الصدر، بانشغال بال على الأم، لكن ماذا تفعل والأنكلو أمريكان لم يدعوا جسوراً ولا اتصالات. بين البصرة وبغداد صارت بحار وقفار، فكيف تقطعها فاطمة؟ محسن في انشغال دائم، هو في القصر، في ثكنات الحرس الجمهوري، هنا، وهناك. فاطمة وحيد.. فريدة.. وهل تصفق يد وحيدة فريدة. "لو كان ثمة هاتف"، كانت لا تفتأ تردد سراً وعلانية، حزينة ومتحسرة وكان محسن يرد "ثمة هاتف" "لا.. لا أقصد هنا، بل بين بغداد والبصرة فأطمئن على أمي" لكن الأنكلو أمريكان حريصون أن لا تطمئن البنت على الأم أو الأم على البنت فقطعوا كل الجسور الاتصالات.

وحيدة عاشت أيامها الأخيرة، موحشة قضت لياليها لتموت أخيراً وحيدة موحشة ويصل النبأ إلى فاطمة فتهرع وشعور الذنب يلاحقها. "لماذا لم أكن إلى جانبها؟ لماذا لم أطبق لها أجفانها؟" وتبكي عليها الدموع السخان.

كانت كل صباح تذهب إلى المقبرة، ترى كم اتسعت ونمت، كم تتسع كل يوم وتنمو، تريد أن تصبح كمقابر النجف، حيث الموتى يؤمونها من كل حدب، وهي تمتد، طولاً وعرضاً تمتد، حتى لتكاد تملأ بادية السماوة كلها؟ فاطمة تجثم على رأس القبر.. تعفر بترابه شعرها، تلطم صدرها، خديها وتبكي الدموع السخان.

أخوها.. ابنتها.. ابنها.. عمها.. كلهم يتحولون إلى صور تمر أمام ناظريها.

هذا قتلته رصاصة، ذاك مزقته قذيفة، ذلك حرقه نابالم، وتجيش في نفس فاطمة الأحزان. تثور المواجع. فاطمة تسير بمحاذاة نهر الخندق.. نهر العشار.. ترى الأبنية التي تحولت إلى أنقاض.. واجهات العمائر المسودة.. هياكل السفن المحترقة.. بقايا الجسور المحطمة فلا تملك إلا أن تتمتم: "هو ذا خراب البصرة يعود من جديد!! "ثم تولول على البصرة وتبكي الدموع السخان فاطمة لا ترقأ لها دمعة. كل ما تراه محزن. الشوارع مقفرة.. الساحات خاوية. العيد بلا أراجيح..

بلا دوامات بلا دواخات، وتتذكر أيام زمان. تتذكر أطفال البصرة وهم يلبسون أزهى الثياب.. يرقصون، يلعبون، يركبون الأراجيح ويهزجون. "لكم الله! أنتم يا أطفال البصرة!!".

أطفال البصرة حزانى. هي تراهم بأسمالهم، بجوعهم، بوسخهم الذي لا تجد أمهاتهم له صابوناً للتنظيف. ترى فاطمة ذلك وتحزن. أحدهم رسم لنفسه ملعباً يلعب فيه "الروة"، لكن من يلعب معه "المحيبيس"؟ من يلعب "الولي جاك"؟

"ليس ثمة أحد أيها الطفل الذي يلاحقه الأنكلو أمريكان بطائراتهم وصواريخهم!!

ليس ثمة أحد أيها البريء الأعزل الذي يحاسبه الأعداء على ذنب لم يرتكبه، يشدون حول عنقه الأنشوطة، يقتلون فيه البراءة، يقتلون السعادة، يقتلون الحياة!!".

سبعة أيام ظلت فاطمة تطفئ نار الحزن بدموعها السخان. سبعة أيام ظلت تكفكف شعورها بالذنب وهي تنوح وتنشج، بصوت حيناً وبغير صوت أكثر الأحيان، لكن كان عليها أن تعود إلى بغداد، فهناك البيت، الأولاد. الزوج، هناك الأحياء، والأحياء أبقى من الأموات. في الطريق إلى بغداد كانت لا تنفك تسمع أزيز طائرات تحوم عالياً في السماء. "هذه شبح، تلك تورنيدو، هاتيك هارير"، كان يشرح لها السائق وهو يراقب الطريق بعين

والسماء بعين أخرى، فالمنطقة المحظورة على طائرات الأصدقاء مباحة لطائرات الأعداء. غابة نخيل محترقة هنا.. غابة نخيل مخترقة هناك كانت تملأ عينيها شوكاً، لكن ما ملأ قلبها نفسه شوكاً كانت الرؤوس المقطوعة لغابة نخيل كان الأنكلو أمريكان قد حكموا عليها بالإعدام فوجهوا إليها صواريخ تقطع الرؤوس. رأتها فاطمة فلم تملك إلا أن تذرف الدموع السخان "آه يا نخيل العراق، يا رمز شموخه وإبائه، ماذا فعلوا بك؟" مع ذلك كانت فاطمة ترى فلاحين يعملون هنا، فلاحات يعملن هناك.. قطعاناً ترعى إلى اليمين، قطعاناً ترعى إلى الشمال "هنيئاً لكم!! أنتم يا من لا تخشون طائرات ولا قاذفات!! الأرض حياتكم فتتمسكون بحياتكم. تحرثون.. تبذرون.. تحصدون، وكأن شيئاً لم يكن!! كأنما ليس ثمة أعداء. أأنتم أقوى من الخوف؟ أشد مضاء من الدهر. فلا تنحني لكم هامة ولا تنكسر قامة؟ أجل.. أنتم كذلك يا زنود بلادي السمراء، يا قلبها النابض أبداً بالحرارة والدم لنستمد منه الحرارة والدم!!" وأعجبت فاطمة بما رأته. كانت الطبيعة الممتدة سهولاً خضراء على مد البصر، بكراً كأنما لم يمسها أحد. غابات هائلة من نخيل العراق كانت ما تزال هناك لم تحرق ولم تقطع رؤوساً. أنهار العراق.. حقوله.. زروعه، فلاحوه، عماله.. كانوا ما زالوا هناك يعملون بدأب.. بصبر.. بشجاعة. حتى رؤوسهم لا يخبئونها إن مرت بهم طائرة، وكأنما لسان حالهم يقول: "خسئت!! ماذا باستطاعتك أن تفعلي؟ يقتل منا عشرة.. مائة.. ألف.. مليون.. نحن هنا باقون منذ الأزل وإلى الأبد. أقوى من الصواريخ، الطائرات، أقوى حتى من الموت".

نهر دجلة هادر، تراه فاطمة وهي تتجه إلى بغداد فترى في امتلاء ضفتيه امتلاء وطن بكامله زخماً وقوة. ترى تدفقه فترى فيه تدفق الحياة في شعب رفض على مدى الزمن أن يموت. هولاكو.. تيمورلنك. سامان.. أرسلان.. عثمان.. كلهم جاؤوا يدكون العراق.. يبيدون شعبه، يوقفون أنهاره. لكن لا العراق دك ولا شعبه أبيد ولا الأنهار توقفت، بل ظل كل شيء كما كان. مضى هولاكو.. تيمورلنك.. أرسلان.. عثمان وظل كل شيء كما كان. فماذا تستطيع فعله طائرات الأنكلو أمريكان؟

محاريث الفلاحين، معازق الفلاحات، عصي الرعاة.. وجوه هؤلاء وأولئك، أعينهم التي لم يخبُ لها بريق. كل ذلك بعث في نفس فاطمة الأمل من جديد، جعلها تعيد حساباتها..

"العراق ليس بغداد ولا البصرة، بل هو كل هذه الجبال والسهول، البوادي والأهوار، السهوب والوديان... فماذا تفعل الطائرات؟

قد تحرق أبنية. تخرق جسوراً، تحفر شوارع، تدمر قصوراً، لكن ما يدمر غابات النخيل كلها؟ ما يحفر هذه الحقول، يخرب هذه الزروع، يمسح هذه السهول والجبال؟ لا.. العراق أقوى من كل الأعداء".

بتفاؤلها ذاك مضت إلى بغداد، وكأنما استمدت من شمس البصرة، هواء السواد، أنفاس النخيل، زخماً جديداً دخلت به إلى المنزل وكلها عزم أن ترضعه حليباً لأطفالها، غذاء لزوجها، لأصحابها، لجيرانها. "لا تخافوا. العراق أوسع من أن يحشروه في زاوية. أكبر من أن يضعوه في قنينة. العراق هو الشمس التي تستطيع التجدد كل يوم، الطبيعة التي تعود إلى الحياة كل ربيع". وفرح رئبال بالفكرة. فرح محسن. فرحت رقية.

-تعلمون؟ هتفت رقية. حقاً. الطبيعة وحدها هي التي تمدنا بالقوة، فلماذا لا نلجأ لأمنا الطبيعة دائماً؟

-هذا ما تفعله الحكومة اليوم، عقب محسن. تدعم الزراعة.. تدعم الفلاح.. تعيد الاعتبار للطبيعة، تعيد الاهتمام بالأرض.

-كلنا يجب أن نفعل ذلك، تابعت الفكرة رقية، بل كل من جاء إلى المدينة يجب أن يعود إلى الريف، يعمل، ينتج، فنحقق الاكتفاء الذاتي.

-يا إلهي!! ما أبدع أن يفعل الكل هذا، هتفت فاطمة بدورها، هجرة معاكسة يتحقق فيها التوازن من جديد، فلا يبقى في المدينة إلا المضطر، من تقتضي المصلحة الوطنية بقاءه والآخرون يذهبون إلى الحقول، يزرعون، يحصدون.. يَطعمون ويُطعِمون. فماذا يساوي حينذاك حصار الأنكلو أمريكان؟

طوال السهرة ظل ذلك شغلهم الشاغل: الاكتفاء الذاتي.

-لماذا لا نحققه؟ تساءلت رقية الأكثر حماسة واندفاعاً. ليس في العراق فحسب بل في كل مكان من هذا الوطن المهدد بالحصار، المهدد بالدمار.

-أجل. لماذا؟ تابع محسن، ولدينا كل ما يحتاجه الإنسان: حبوب، خضار، بقول، فواكه.. بل غابات النخيل تكفي عشرات الملايين تمراً والتمر غذاء كامل.. كاف واف.
-وقطعان الغنم، قاطعته فاطمة مكملة. بأم عيني رأيت مئات القطعان.. آلاف الشياه.. وكلها تعطيك اللحم، اللبن، الصوف.. فلماذا نحتاج الاسترال أو الطليان؟.
-وماذا لا يوجد في العراق؟ عقبت رقية من جديد. لا.. لا شيء يحتاجه الإنسان إلا وهو فيه. الماء، الخشب، النحاس، الحديد.. وقبل كل شيء النفط.
النفط أعظم ثروات الدنيا.
-صحيح، كلامكم كله صحيح، الزراعة وافرة، الطبيعة خيرة. تدخل رئبال فجأة وكأنما تذكر شيئاً، لكن هناك الصناعة.
-أيضاً لدينا صناعة، صاحت فاطمة.
-للأسف. لا.. رد رئبال والحسرة على سيماه، مصانعنا مدمرة وليس باستطاعتنا إعادتها إلى الحياة. كل ما أنجزناه خلال العقدين السابقين من صناعة وتقدم عملت به الآلة الأنكلو أمريكية خراباً ودماراً لتعيدنا إلى الصفر.
-لكننا لم نعد. نحن نعيد المصانع.. نبني المعامل من جديد، ردت رقية.
-صحيح، لكن بغير معدات.. بغير آلات، وهذا ما يقض مضجع "المعلم".
قال رئبال وقد تجهم وجهه كأنما قاله مرغماً:
-وزيرك، يقض مضجعه؟ سأله محسن وقد شعر به متأسياً حزيناً.
-بل هو لا يعجبني هذه الأيام، لكأن هناك بذور شقاق معه، وأشار إلى الأعلى والبعيد، مطبقاً شفتيه بكثير من الحزن، ناظراً حوله وكأنما أفشى سراً لا يريد إفشاءه.
-شقاق!! ما الذي تقوله؟ همس محسن وقد اقترب بفمه من أذن عديله.
-هذا ما أشم رائحته.
-لكن هل هناك من يجرؤ على التفكير بشقاق، بل حتى بنقاش؟ سألت فاطمة بكثير من الاستغراب، وهي تشير بعينها إلى صورة القائد المعلقة على الحائط، فالإذاعات، محطات التلفاز الخارجية لا تفتأ تقول إن زعيم العراق واحد أحد فرد صمد لا يناقشه أحد ولا يجادله أحد.. بل كل من يخطر بباله أمر كهذا يذهب مع الريح.
-بالطبع هناك، أجاب رئبال بكثير من الثقة.
-أين المسدس الذي سرعان ما يشهره فيردي كل من يناقشه صريعاً؟.
-فاطمة!! ما هذا الذي تقولين؟ سألها بكثير من العتاب.
-لست أنا من تقول، بل هم، وأشارت إلى البعيد والأعلى. هم الذين يصورونه وحشاً كاسراً لا كلام معه ولا حوار.
-غير صحيح. الصحيح أنني أسمع "معلمي" يحاوره على الهاتف، ويعلو صوتهما أحياناً حتى لأحسبهما في اشتباك.
-شجاع معلمك!! تدخلت رقية وقد جاءت بصينية وفناجين يشربون قهوة آخر السهرة.. بل ربما هو الوحيد الذي يجرؤ على مخالفته الرأي.
-لكن فيمَ يخالفه الرأي؟ سأل محسن فجأة وكله حب استطلاع.
-المصانع والغذاء. رد رئبال من إطراقته وقد بدت أطراف سحابة من هم تمر بسيماه.
-ما لها المصانع والغذاء؟ حثته فاطمة وقد رأت أطراف تلك السحابة.
-أنتم تعلمون، مصانعنا أعدنا بناءها، معظمها عاد كما كان. فقط، ينبغي أن نأتي بالآلات، وهي وحدها لا تستطيع توفيرها بإمكاناتنا الذاتية.
-لكن يمكن توفيرها من الخارج؟ عاد محسن يسأل:
-أجل يمكن. طريق تركيا مفتوح.. طريق الأردن.. بل حتى عبر الخليج يمكننا تأمين كل شيء. فقط يريد "معلمي" المال.
-ولا يعطيه القائد؟ سألته رقية.
-القائد يقول: علينا أن نوفر الغذاء أولاً والدواء ثانياً. أطفالنا، نساؤنا، شعبنا كله يموت جوعاً ومرضاً. لهذا، الأولوية المطلقة للغذاء والدواء.
-هذا صحيح. كلام حق. هتفت كلتا الأختين.
-لكن "معلمي" يقول: المصانع تأتي بالغذاء والدواء. هي أولى برصد الأموال. وبها فقط يعود العراق قوياً قادراً على الصمود.

واندلع نقاش حام بين الأربعة كما تندلع معركة فجأة. رشاش من هنا، بندقية من هناك، مدفع من هنالك. وغدت غرفة القعود ساحة صراع، كل منهم يطلق رأيه رشاً حيناً ودراكاً حيناً آخر، لكن فاطمة كانت الأكثر حماسة لفكرة توفير الغذاء والدواء. لقد رأت بأم عينها أطفال البصرة يلتقطون بقايا الطعام من أكوام القمامة، مشوهي الحرب يقتعدون ساحة أسد بابل بما بقي لديهم من أسمال وهزال يمدون أيديهم ويتسولون.. النساء يشحذن، وهن على استعداد تام لتقديم أي شيء مقابل اللقمة التي تسد الرمق. كان الفقر والجوع قد حفرا عميقاً في نفسها، وكانت طوال تلك السهرة تحاول التخلص من صور البؤس والفقر تلك التي رأتها في البصرة.. صور الجائعين والجائعات وقد هزلت أجسادهم إلى درجة تتفتت لها القلوب.
قلب باقر يتفتت أيضاً وهو يسمع عن الجوع والجياع في العراق.. عن المرضى والمصابين الذي لا يجدون الدواء، فتشيع بغداد عشرات الموتى كل يوم صغاراً وكباراً، نساء ورجالاً فقط لأنها لا تستطيع إعطاءهم مضاداً حيوياً أو مخفض حرارة. أحدهم كان قد جاء للتو من العراق، روى لهم مآسي شعب يحاصره أعداء حاقدون ولا يرحمه حكام قائمون، فيسقط ضحية الجوع والمرض، العوز والحاجة صارخاً مستغيثاً لكن دون أن يجد من يسمع أو يستغيث. ذلك المساء أمضاه باقر وهو يتسكع في شوارع دمشق.. حدائقها، ساحاتها. في حلقه شجى وفي عينيه قذى. تكاد الدموع تغشى ناظريه وكل ما فيه يردد:

هذا طعامي أيها الجائعون
هذي دموعي أيها البائسون
هذا دعائي أيها العابدون
أن يقذف البركان بنيرانه
أن يرسل الفرات طوفانه
كي تشرق الظلمة
كي نعرف الرحمة

لكن بدا له العالم وكأنه خال من الرحمة، العراق سيزيف وسيزيف يحمل صخرته على كتفيه. ثقيلة ثقيلة صخرته، يصعد بها السفح، والسفح وعر صعب المسالك، فيسقط تحت الصخرة لينهض ثم يسقط لينهض وليس من أحد حوله ينجد أو يغيث.

جيكور يا جيكور
شدت خيوط النور
أرجوحة الصبح
فأولمي للطيور
والنمل من جرحي

يتابع باقر تسكعه وترنمه، وهو يشعر أن جسده كله مثخن بالجراح مثل بصرته هناك، مثل بغداده حيث الأطفال جياع، النساء معوزات بائسات، الرجال حلقوا شواربهم وقد أصبحوا أعجز من أن يدافعوا عن كرامة الشوارب.
وصل إلى المنزل فإذا زهير في انتظاره:
-القائد يريدك.
-يريدني؟ لكن كل ما بيننا مقطوع، رد باقر باستغراب. أنت تعلم، قال زهير بنبرة من حزم ذكرته للتو بالعتلّين اللذين عالجاه على طريق صيدا.
في اليوم التالي مضى إلى أبي العز وكل ما يريده أن ينهي معه أية صلة.
مهموماً، قلقاً، حزيناً، دخل مكتب القيادة لكن سرعان ما صدم. ضحكات القائد ملء المكتب تصل غرفة غرفة سكرتيره، فيتساءل باقر:
-ماله القائد؟
-هو فرح سعيد، يجيب السكرتير الذي لم يكن يعرف ما بين القائد وضيفه.
الضحكة تشق شدقيه حتى الأذنين.
-خير؟. وماذا هناك يضحك؟ سأله باقر وهو يسحب نفسه من حمأة الصدمة.
-الدولارات.. الدولارات. أمريكا ترسل لنا الملايين من الدولارات!!
واشتدت صدمة باقر. قبل يومين، كان قد سمع من زهير وسعدون أن أمريكا خصصت خمسة وسبعين مليون دولار للمعارضة التي تعمل للإطاحة بنظام العراق. لكن لم يخطر

بباله لحظة واحدة أن حزبه يمكن أن يكون مشمولاً بالقرار الأمريكي. حزبه الذي نذر نفسه طوال عمره لمحاربة الإمبريالية والرأسمالية يأخذ الأموال من الإمبريالية والرأسمالية؟ كان يظن أن المساعدات ستذهب إلى عملاء السي آي إي.. لزعماء التمرد الكردستاني.. لركائز الطائفية والرجعية، لكن أن تذهب للحزب اليساري التقدمي، طليعة الكفاح ضد الاستعمار ورائد التحرر والتقدم، المناضل أبداً من أجل الحرية والاستقلال، فأمر يحمل الكثير من المفارقة؟
-لكن، هل نأخذ منهم، رفيق؟
-ولم لا؟ المال محرك العالم.. المال هو العصا السحرية التي تغير بها ونبدل.. ومضى السكرتير يعدد مناقب المال كأبرع رأسمالي نذر نفسه للمال، فيما كان باقر يشرد بخياله بعيداً "إذن، هو ذا ما يفسر حركة التملك الجديدة التي بدأت تظهر هنا وهناك: دور نشر، مطابع، بيوت... ولا يدري أحد أين تنتهي السلسلة؟"
-لكنهم طوال عمرهم كانوا أعداء فكيف نمد يدنا إلى الأعداء؟.
-في السياسة لا أعداء ولا أصدقاء. ألم تسمع تشرشل؟ في السياسة لا عداوة دائمة ولا صداقة دائمة، بل مصالح دائمة.
-ومصلحتنا الآن أن نتحالف مع الأنكلو أمريكان؟
-نتحالف مع الشيطان، رد عليه القائد وقد خرج فجأة من مكتبه جهم الوجه مقطب الجبين، تقدح عيناه شرراً.
هب السكرتير مرتعد الفرائص وهو يرى قائده يدخل. باقر نفسه هب واقفاً. أربكته المفاجأة، لكن دون أن يتكلم. ألم تذهب إلى الشمال لمقاتلة نظام صدام؟ تابع سائلاً وهو يجلس قبالة باقر.
-بلى. رد باقر وقد جلس هو الآخر، وهناك التقيت بضباط إسرائيليين.
-ها!! أرأيت؟ نحن نتحالف حتى مع الإسرائيليين لإسقاط صدام. عدو عدوك صديقك، والأنكلو أمريكان الآن أعداء صدام، فلماذا لا نكون أصدقاء؟ ولهم حلفاء؟
-كيف نحالفهم وهم يحاصرون شعبنا؟ كيف نمد يدنا لهم وأهلنا يعانون منهم، أطفالنا بسببهم يموتون؟
-لهذه الأسباب بالذات، يجب أن نمد يدنا لهم وأن نفرح بهم.
-نفرح؟.
-أجل، نصرنا بات وشيكاً. معاناة الشعب، جوع الأطفال، تفشي المرض، كل هذا يراكم النقمة، يضيق الخناق، يزيد الضغط فيتولد الانفجار. ألا يقولون. شدة الضغط تولد الانفجار؟. إذن لا بد من أن ينفجر الشعب قريباً.
-وماذا إن لم يكن هذا الانفجار قريباً؟.
-لا.. لا.. اطمئن. قوى التحالف تشدد الحصار على صدام.. تمنع عنه حتى الهواء. غذاؤه نفد.. دواؤه نفد.. رصيده نفد.. نفطه لا يباع فمن أين يعيش؟ لا.. لا. افرح وامرح.. الأزمة الآن في أشدها واشتدي أزمة تنفرجي.
-أخشى أن ننفلج بدلاً من أن ننفرج، رفيق.
-ماذا تقول يا رجل؟ أنت تفسد علي فرحتي. لكأنك أعمى لا ترى.
-بل أرى. جنازات الأطفال وهي تملأ شوارع بغداد.. ماجدات العراق وقد استباحهن العوز والفقر.. الرجال وقد غدوا أشباه رجال أو لا رجال.
-يستاهلون. لماذا يسكتون على ديكتاتور طاغية؟ لماذا لا يهبون هبة الرجل الواحد فيسقطونه؟
-عجز الإنسان لا يبرر لنا قتله، فكيف إن كان شعباً بكامله؟
-ماذا؟. لكأني بك عدت سيرتك الأولى، صرت مع صدام؟ سأله القائد وقد ازداد وجهه تجهماً وعيناه قدح شرر.
-أنا لست مع صدام ولن أكون. لكنني لم أكن مع الأمريكان والصهاينة ولن أكون.
-أنت تخالف نهج الحزب.
-هذا نهجكم أنتم وليس نهج الحزب.
-وما الفرق؟ القيادة هي الحزب والحزب هو القيادة.
-ديغول قال ذلك مرة: فرنسا أنا وأنا فرنسا.. لكن ها هو ذا ديغول ذهب وبقيت فرنسا.

-تريدني أن أذهب؟ أنت رجل حاقد، لم تتربَّ من المرة الماضية ولم تتعلم. كلامك عن الشعوبية، عن الحقد الشعوبي وصلني، انتقاداتك لي وللقيادة وصلتني. تريد أن تكون أنت القائد. تضع نفسك مكان القيادة. تسب وتشتم.
-أنا أنتقد الخطأ. أسب الضالين.. أشتم المنحرفين.
-ليس هذا من حقك، صرخ به فجأة فكادت ترتعد فرائص باقر لولا أن شدها آخر لحظة. أتفهم؟ أنت مجرد عضو في تنظيم، واجبك إطاعة الأوامر. تنفيذ التعليمات، دون تردد أو تلكؤ.
-عسكر.. يعني؟
-عسكر.. مسكر.. لا يعنيني.. ما يعنيني الانضباط، الالتزام، أتفهم؟
التنظيم بأمِّس الحاجة للانضباط والالتزام، وعليك أن تكون منضبطاً ملتزماً أم تريد أن يتحول التنظيم إلى حارة كل من فيها يده له؟
-لكن هناك أخطاء فاحشة.. انحراف قاتل.
-كفى!! كفى!! صرخ به من جديد وهو يهب ملء طوله فلم يجد باقر نفسه إلا وهو يهب ملء طوله أيضاً. القيادة لا تخطئ، أتفهم؟ القيادة لا تنحرف.
بل الأتباع مثلك هم الذين يخطئون وينحرفون. أفكارك "القومجية" هي التي تدفعك إلى الخطأ والانحراف. أم تحسبنا أهملناك ونسيناك؟ لا. نحن نعرف كل شيء. تخرصاتك على القيادة، إشاعاتك، دعاياتك المضادة كلها نعرفها. والآن يأتي يوم الحساب.. هيا انصرف. ولسوف يأتيك الحساب.
فكر باقر بألا ينصرف. لكنه نظر في عيني القائد فرآهما عيني ثور هائج. نظر إلى الباب فرأى في العتبة العتلّين نفسيهما وقد ظهرا فجأة.
-هيا.. انقلع. لا ترني وجهك بعد اليوم. جاءته صرخة أخيرة من القائد جعلته يلوي عنقه ويمضي. المعركة غير متكافئة. بلمحة عين رأى ذلك، هو الذي كان بوده أن يصفع القائد ولو صفعة واحدة يشفي غله بها. "أنا منحرف؟ أنا أفكاري قومجية؟" وتذكر باقر أيام زمان. كان صبياً ربما لا يتجاوز العاشرة حين تحول إلى "بوسطجي". يحمل نشرات الحزب، جرائده، تعليماته، ليوصلها إلى أعضاء الحزب ولا أحد يشك فيه. تذكر أباه، أخاه، أهله كلهم وقد نذروا أنفسهم للنضال من أجل التقدم والاشتراكية. تذكر بيتهم هناك في حي القشلة وقد تحول إلى خلية نحل، الداخلون إليه أكثر من الخارجين حتى صار اسمه في الحارة كلها "بيت الشعب". والده نفسه قضى نحبه في سبيل الحزب، أخوه وصفي ما يزال في خدمة الحزب، حملاً طيعاً، يفعلون به ما يشاؤون. تذكر باقر، حزيناً حتى الموت، مفطور القلب حتى التمزق، هربه إلى بغداد، معاركه مع النظام في بغداد.. سجنه الطويل المضني. كم شبحوه هناك إلى الدولاب!! كم صدموه بالكهرباء!! جلدوه بالسياط!! غطسوه بالماء!! أساليب تعذيب لم تكن تعد ولا تحصى ذاقها كلها واحدة واحدة. كان يعلم أن السجن هو المحك، يفرز القمح من الزؤان. تصمد فيه تخرج قمحاً يبذر في الأرض، ينبت زرعاً ويطلع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، تضعف وتهن، تتحول إلى زؤان يلقى بك على مزبلة التاريخ.
باقر على يقين أنه لم يخرج زؤاناً. شهادات رفاقه كلهم تؤكد ذلك.. أعضاء القيادة المركزية أنفسهم أولئك الذين التقوا به وشدوا على يده.. بل الأمين العام الذي استقبله حينذاك صبوح الوجه طلق المحيا آخذاً إياه بالأحضان، مؤكداً له أنه المناضل الصلب الذي يستحق أعلى أوسمة الحزب.
أطباق الحزن في نفسه دفعته بعيداً عن منزله. هو يشعر أنه بحاجة إلى فضاء رحب لا إلى منزل ضيق يكتم أنفاسه. ساعتين، ثلاثاً، ظل في الشوارع متجولاً متسكعاً، لكن التسكع يتعب. "أين أذهب؟" لو كان رباح ما يزال في دمشق لذهب إليه باقر.. لكن، رباح، فاتح، وهاب، حكيم، كريم.. كثير من الرفاق كانوا قد ذهبوا. بعيداً إلى أقصى الأرض كانوا قد ذهبوا يسعون في مناكبها وإليه النشور، لكن متى النشور؟ "رباه!! لو تقوم القيامة، فنخلص من هذا العذاب كله. يمضي كل بكتابه، فإن كان في يمينه ذهب إلى الجنة، وإن كان في يساره ذهب إلى جهنم وبئس المصير" باقر على ثقة أن أبا العز سيحمل كتابه في شماله. أحقاده كلها فجرها دفعة واحدة. "انقلع.. لا أريد أن أرى وجهك بعد اليوم، كيف يخاطبني هكذا؟ أأنا خادم من خدمه؟ عبد من عبيده؟ أجل. هو قالها صراحة. أتباع. نحن الرفاق الذين ناضلنا مثله أو أكثر، ضحينا مثله أو أكثر. نصبح أتباعاً،

فأية مهزلة؟ وبلمحة عين، عادت إلى ذهنه ذكريات: رفاق سجنتهم القيادة، رفاق صفتهم.. رفاق سلمتهم للسلطة. صديقه كريم كان خائفاً من أبي العز أكثر من صدام. ذات يوم همس في أذنه بمخاوفه تلك، حاول باقر أن يبددها. أن يطمئنه، لكن كريماً لم يطمئن، مخاوفه لم تتبدد، فآثر الابتعاد. كتب إلى بلد هناك في أقاصي الشمال طالباً اللجوء السياسي وجاء الجواب بالإيجاب. كثيرون مثله فعلوا ذلك وذهبوا لتتسع دائرة الشتات وتزداد بلدان الشتات، أتراه صدام وحده المسؤول عن ذلك الشتات؟ وحده من يوسع دائرة الشتات؟ وبدا لباقر أن الجواب أبعد ما يكون عن الإيجاب.
وجد باقر نفسه قرب منزل تامر. تامر رفيق وصديق، فمضى إليه وكل ما في ذهنه أن يستريح. قرع الجرس، لكن أحداً لم يرد. مرتين، ثلاثاً، عشرة.. المنزل أصم أبكم لا يسمع ولا ينطق. "عجيب أين يذهب تامر؟" باقر يعلم أن المنزل لا يخلو من أحد. هو، بشكل من الأشكال، مقر لمجلة الحزب. تامر سكرتيرها، يأتي بالمواد إليها، يرد على هواتفها، يتلقى الفاكسات، رئيس التحرير يذهب، يجيء، يحل، يرحل.. أما تامر فمقيم ما أقامت ميسلون. يعمل في المنزل ويقيم. "إذن، أين أنت يا تامر؟" لكن المنزل الصامت ظل صامتاً فدار على عقبيه حزيناً حتى الموت، ومضى يقطع الطريق شبه المعتم، شبه الخالي في مدينة تنام باكراً وقد فرض عليها ذوو أمرها أن تصبح من فصيلة الدجاج.
كان بحاجة إلى أحد يحدثه، يخفف عما في صدره، لكن أين يجد ذلك الأحد وهو في الشتات؟ "إيه بصرة!! لو كنت فيك لالتقيت برفيق هنا، صديق هناك. على ضفة العشار، في الكورنيش، في سوق الهنود.. في سوق المقام، حيثما ذهبت كنت سأجد الأصحاب والأحباب لكن هنا، من أجد يا بصرة؟ الصحب قلة، وأكثرهم ولوا الأدبار، الرفاق لم يعودوا رفاقاً وقد كشروا عن الأنياب؟ لا.. لم يعد ثمة أحد. أنا موحش بعدك يا بصرة!! وحيد يا بغداد، فإلى أين أذهب؟ ومن يفتح لي الأبواب؟".
خطر بباله أن يمر بلورا، لكنه نظر إلى ساعته. "التاسعة والنصف، لا بد أنها وأختها هناك تأخذان راحتهما بعد عناء اليوم". الأختان نحلتان عاملتان لا تنفكان تطيران. من زهرة إلى زهرة تنتقلان ولا تأتي العشية إلا وهما مرهقتان بل لورا تعمل حتى في الليل. هواية جديدة كانت قد طغت على اهتماماتها كلها: رسم المنمنمات. رأى باقر بعضاً منها فضحك في البداية. لوحة بقدر راحة اليد إن خلعت منها الأصابع. ترسمها بقلم من رصاص نقاطاً وخطوطاً دقيقة دقيقة حتى لتحتاج لتفحصها إلى مجهر. باقر من تلك النمنمات واحتج، لكن لورا شرحت له الفكرة: "الجدّة، هو ذا ما أبحث عنه. والمنمنمات جديدة، بل هي الجدة بعينها وسأكون صاحبة براءة اختراعها". لم يستطع باقر بعدها أن يضحك بل أبدى إعجابه: "الفتاة تكره القديم.. تحب كل جديد. ومن يملك إلا أن يعجب بما هو جديد؟".
"وحده جديد الموت غير لذيذ"، هكذا قال الحطيئة، لكن ما عداه، كل جديد لذيذ.
واستغرقت لورا بالجديد "سأقيم معرضاً للمنمنمات. "صرحت له بعد ذلك "أين؟ متى؟ كيف؟" سألها فضحكت لورا "الجواب ما تراه لا ما تسمعه". وأفحم باقر ثم أطبق شفتيه بانتظار الجواب الذي سيراه، لا يسمعه.
لم يكن قد رآها منذ أيام. "هاجس المنمنمات يسيطر عليها". بغير الهاجس ربما كانت هي التي تبحث عنه.. تدعوه إلى سندويشة فلافل، يدعوها إلى صحن فول، ويتسكعان في الشوارع يرغيان رغاء الإبل. مودة راسخة صارت تربط بينهما بعد تلك القطيعة، هو معجب بفرادة شخصيتها، هي معجبة بصلابة شخصيته، وكانا يتحدثان، يتفقان، يختلفان، لكن بكل مودة وحب. "كم أرتاح لك يا لورا؟" تمتم باقر وهو يسير وحيداً موحشاً في شارع شبه خال، شبه معتم في مدينة تنام باكراً كالدجاج. أخيراً يقلع عن فكرته "لا، لن أعكر صفوها الليلة. لأذهب إلى المنزل".
وغذا الخطا باتجاه المنزل. هناك خلع ثيابه، لبس منامته ومضى إلى الحمام.
لكن قبل أن يدخل سمع صوتاً. تسمر يصيخ السمع. ثمة أنات موجعة. "عبد الرحيم في غرفته. "عجيب.. ذلك على غير عادته". باقر يعلم أن جاره نادراً ما يعود قبل أنصاف الليالي.. نادراً ما يفيق قبل أذان الظهر. "نهاركم سبات وليلكم معاش" ولم لا؟ أليس كل شيء في الدنيا قد انقلب؟ المفاهيم، القيم، المعايير.. كل شيء تغير باتجاه العكس ليصير الأبيض أسود والأسود أبيض، الحق باطلاً والباطل حقاً. إذن، لماذا لا يكون عبد الرحيم ابن هذه الدنيا؟.

-عبد الرحيم، مالك؟ ناداه وهو يقترب من غرفته.
-ظهري.. يوجعني.. يا جار.. جاءه الصوت من الداخل.
-سلامتك.. سلامتك.. رد الجار الذي كان الدهر عليه قد جار.
-آخ.. آخ.. بدأ عبد الرحيم يتأوخ وهو ينقلب من بطنه إلى ظهره.
لا.. لا تعرف قيمة الظهر حتى يوجعك. ويل لمن يوجعه ظهره!! ويل لمن ليس له ظهر!!.
-لكن ممَّ وجع ظهرك؟ كيف حدث ذلك؟ قال باقر وهو يقترب من سرير الجار الذي كان يتأوه.
-لا أدري. بعد الظهر، جاء النجار بغرفة النوم. قلت أساعده، "وبرق ظهري".
-برق!!
-أجل، صدقني، شعرت بشيء كلمعة البرق تخترق عمودي الفقري من أسفله إلى أعلاه..
-إلى هذه الدرجة؟.
-قل أكثر. ألم خاطف ضرب دماغي فأوقعني أرضاً وها أنت ذا تراني. لم أتحرك مذ ذاك.
-سلامتك!! جار!! لكن عليك أن تذهب إلى الطبيب.
-الطبيب جاء إلي، وهذه العقاقير وصفها لي.
-سامحك الله!! جار!! كنت على خير ما يرام، فما الذي جعلك تفكر بالزواج؟
-ألم أقل لك؟ صاحبك لم يعد صغيراً.. خمسة وثلاثون عاماً.. قلت أجيء بولد.
-وتأتي المرأة، ومع المرأة يأتي الضرر، الأذى.. الشر..
-أعلم. أعلم. قاطعه المستلقي على جانبه، طوال عمري لم تكن تعنيني المرأة، وتوقف فجأة. باقر يعلم ذلك.. لورا شرحت له كل شيء، وكما توقف فجأة عاود الحديث فجأة، لكن ماذا نفعل والولد لا يأتي بغير المرأة؟.
وشرد باقر "حقاً!! تريد ولداً؟ إذن، لا بد لك من المرأة، لولا ذلك ربما انشطر المجتمع شطرين، وكل منهما استغنى عن الآخر. الرجال اكتفوا بالرجال والنساء بالنساء.. جيلاً أو جيلين وانتهى المجتمع ثم انقرض الإنسان".
انتظر عبد الرحيم أن يتكلم جاره، أن يجلس، لكنه ظل واقفاً صامتاً فاستأنف:
-باقر!! مالك.. اجلس!!
-لا.. أشكرك. أشعر بنفسي متعباً.. أود أن أنام.
-وتتركني وحدي؟ أتألم وأتوجع؟
وشعر باقر بشيء ما في داخله ينكمش. لم يدر ما هو تماماً، لكنه أحس به.
"ما تراني أفعل لك"؟ وهامت أفكاره بعيداً. لم يكن باقر طوال سنتين قد استطاع أن يقيم آصرة صداقة حقيقية بينه وبين جاره. أسلوب الحياة، نمط التفكير، نظام المعيشة كل شيء كان مختلفاً.. قلما يلتقي واحدهما بالآخر، قلما يدخل غرفته، لكن ها هو ذا يطلب من باقر ألا يدعه وحده.
-هل من خدمة أؤديها لك، سأل باقر فأطلق الجار المستلقي على جنبه آهة توجع ممطوطة ثم أردف:
-أجل. هذا المرهم.. أرجوك.. دلك لي به هنا، ومد يده إلى فقرات ظهره ما بين الخصر والإلية.
كان المرهم على طاولة الرأس، رآه باقر وهو يمسك به ثم يقدمه له.. في الآن نفسه كان ينبطح على بطنه لينحسر قميصه الداخلي عن أسفل ظهره، فيما يده الأخرى تشير بدقة إلى موضع الألم.
-هنا!! هنا!! آخ!! آخ!! كم يوجعني باقر!!.
أخذ باقر أنبوبة المرهم، وضع شيئاً منها على رؤوس أصابعه، ثم جلس إلى جانب الرجل المنبطح منحنياً على أسفل ظهره. بشرته البيضاء ساطعة.. رقيقة.. ناعمة لا أثر فيها لشعرة واحدة. رآها باقر وهو يكشف القميص الأبيض، ماسحاً برؤوس أصابعه منطقة الفقرات القطنية بادئاً التدليك، فيما كانت تأوهات الرجل الممدد على السرير تتصاعد، فيها مزيج من ألم وشيء آخر لم يستطع باقر تمييزه.
-أوه!! أية أنامل!! بدأ عبد الرحيم بين الأنة والأنة، أنت تريحني.. كثيراً تريحني.. تابع.. تابع.. دلّك.. دلّك.. يا إلهي!! ماذا كنت سأفعل لولاك!؟.

-كان عليك أن تأتي بخطيبتك!! قال باقر مازحاً.
-خطيبتي!! لكنني لم أخطب بعد!!
-كيف وأنت تهيء المنزل؟.
-أهيء المنزل ثم أخطب.
-وإن لم تجد الفتاة؟
-الفتيات على قارعة الطريق. فقط أشر بيدك.
-تعلم؟ ظننت أنك في عجلة من أمرك وأنك تريدني أن أخلي المنزل غداً؟
-تخلي المنزل غداً؟ لا. لا.. بل يمكنك ألا تخلي المنزل البتة إذا تفاهمنا.. توقف ناظراً من أسفل إلى أعلى ثم تابع. أعني إذا كنا متفاهمين، أتزوج وتظل في المنزل.
-حقاً جار!؟
-طبعاً.
ومن جديد شعر باقر بانكماشة. أيضاً لم يعرف لماذا، لكن ذلك الشيء في داخله انكمش أكثر وأكثر. وتوقفت أنامله عن التدليك لحظة، كأنما شردت أفكاره بعيداً.
-دلّك!! دلّك!! جاءه الرجاء. يا إلهي!! ما أكثر ما في أناملك من دفء.. راحة.. وارتعشت أنامل باقر. فجأة عادت إلى ذاكرته قصة عبد الرحيم. حياته وهو صبي مع الشيخ المغربي، تعلقه به، عزوفه عن المرأة.. وللتو توقفت أنامله.
-يكفي؟ سأله وكل ما يوده أن يخلص من مهمة لم يقم بها من قبل.
-لا.. لا.. تابع. أرجوك. تدليكك لذيذ.. أنت لذيذ.. وشعر بيد تمتد إلى يده، تمسك بها ثم تدفع بها نحو الأسفل. هنا.. هنا.. وكان ثمة عظم العص ثم منفرج الإليتين.
-لكن.. احتج باقر وقد ازداد انكماشه الداخلي.
-لا تقل.. لكن.. أنتم العراقيين تحبون هذا.
وانتفض باقر
-اللعنة عليك!! مأفون!! قذر!! راح يسب ويشتم وهو يغادر الغرفة، فيما كان عبد الرحيم بفغر فاه دهشة ويتجهم وجهه حسرة. لقد وصلت اللقمة إلى الفم، لكن ها هي ذي تسقط على الأرض وتتلوث بالتراب.
اللقمة لم تسقط على الأرض وحسب بل خرجت من المنزل كله. ومن جديد راحت تسير على الأرصفة في شوارع معتمة خالية وقد تقدم الليل. "أين أذهب؟ أين أذهب؟" ولم يخطر بباله غير تامر.
مسرعاً مضى باقر من حيث جاء، في صدره جيشان، كره أن يجمعه سقف واحد بجار مأفون. وصل إلى منزل تامر. قرع الجرس.. مرتين.. ثلاثاً لكن أحداً لم يفتح. حينذاك فقط تذكر أنه قبل ساعتين، ثلاث كان في المكان نفسه يقرع الجرس لكن أحداً لم يرد. "مستحيل. لا بد أن يكون قد عاد". وعاود قرع الجرس قرعاً غليظاً متصلاً. فجأة فتح الباب وجاءه صوت تامر مغيظاً:
-أنت مرة ثانية؟
-إذن، كنت هنا تلك المرة؟ قال باقر دون أن يدرك ما وراء لهجة صاحبه المغيظة.
-طبعاً. رد الرجل وهو يقف بطوله وعرضه ساداً فتحة الباب.
-إذن، لم لم تفتح؟ سأله وهو يحاول الدخول، فيما مرق جسد عار أبيض مسرعاً في الممر.!؟ ألديك دجاجة؟ لا تخف.. لن أزعجك.
-لا.. ليس هذا هو السبب.
-ما هو إذن؟
-ماذا فعلت اليوم هناك؟ سأله وهو يشير إلى الوراء والأعلى.
-مـ.. ما.. ماذا؟ لا شيء. رد باقر وقد نسي أبا العز وقيادته كلها.
-لماذا فصلوك إذن من الحزب؟؟
-فصلوني؟ من الحزب..؟؟
-مع أوامر صارمة بأن نقطع كل علاقة لنا بك.
وللتو ردد الشارع صوت باب ينطبق بكثير من العنف.
***

الفصل الثاني عشر

يا أيها المشردون

بأي أرض تدلجون
أرصفة، شوارع
تلفظكم، تمانع
وأنتم تسكعون
حياتكم بلا قرار
وليلكم بلا نهار
يا أنتم يا أيها المشتتون
معذبون دائماً مشردون

وكان باقر قد صار مشرداً حقيقياً: لا وطن، لا بيت، لا حزب. هو، منذ تلك الليلة البائسة، اضطر أن يترك البيت. عبد الرحيم لم يعد يستطيع رؤية وجهه، وكيف يراه وقد خذله أيما خذلان؟ هو نفسه لم يعد يستطع رؤية عبد الرحيم، وكيف يراه وقد لمس حقيقته لمس اليد؟ وما تلمسه غير ما تسمع عنه.

باقر يكره الشذوذ. أمه في البصرة أرضعته من حليبها كره أبي نواس وهو يلاحق الغلمان، كره الإنكليز وهم يسنون سنناً مخالفة للطبيعة. أبوه، أخوته، أعمامه في العمارة، أقرباؤه كلهم كانوا يحذرونه. وانغرس في ذهن الصبي الصغير الخوف من رجال قد يكونون أخطر من ثيران حادة القرون، هائجة... ذلك كان أيام الطفولة في البصرة، لكن ما إن جاءت أيام النضال الحزبي في بغداد، ثم موسكو، بلغاريا، لبنان وسورية حتى غاب ذلك كله عن ذهنه، وكأن العالم كله صار سوياً لا يعرف شذوذاً ولا انحرافاً، فجأة يظهر عبد الرحيم ليقول له "أنتم –العراقيين- تحبون ذلك الشيء" "لا.. من قال لك ذلك يا عبد الرحيم"؟ كان لا ينفك يخاطبه كلما تذكر تلك اللحظة وهو ينتفض مجفلاً مرتعشاً كأنما لامسته حية.

في الشوارع تسكع، على الأرصفة سار وقد أقسم ألا ينام مع عبد الرحيم تحت سقف واحد. أمله كان تامر، لكن الآخر خيب أمله. كان يقضي ليلة حمراء مع إحداهن- هو يعرفها. رفيقة مندفعة متحمسة تركت أهلها هناك في جبل أشم وجاءت إلى دمشق عل دمشق تفتح لها الأبواب. تامر الصديق الرفيق، سد في وجهه الباب. ذريعته أن الأوامر صارمة من قيادة الحزب: فصله وعزله.. بعيراً أجرب ينبغي ألا يقربه أحد. حاول باقر إقناع صاحبه من وراء الباب "فقط مأوى ليلة". لكن تامر ملتزم بأوامر الحزب سميع مطيع. "أبداً" "لكن.. تامر.. ما الذي يجعل الحزب يدري؟" "للحيطان آذان وللأبواب ألسنة" "تخشى صاحبتك هذه؟ وصرخ تامر من وراء الباب محمراً مزرداً.

"أنا لا أخشى أحداً.. فقط دعني وشأني" وكانت الصرخة قوية إلى درجة ارتجت لها فرائص باقر. ومن جديد، وجد نفسه على الأرصفة. رصيف يأخذه ورصيف يأتي به إلى أن هده التعب، فألقى بنفسه على أقرب مقعد من مقاعد الحدائق.

في اليوم التالي وجد غرفة، انسل إلى منزل عبد الرحيم انسلالاً.. أخذ ماله من حاجات ثم مضى. أربعة أشهر أمضى في الغرفة، على مضض أمضاها، فالدار العربية مسرح لعدد لا يحصى من الأطفال، كأنما الأم ملكة نحل.. مهمتها إكثار الذرية. وكان الأطفال يصرخون.. يبكون.. يعولون.. وكان ذلك كله يتحول إلى مطارق تطرق رأس باقر، فحمل متاعه ذات ليلة ومضى إلى غرفة ثانية.

في الغرفة الثانية أمضى سبعة أشهر. غرفة فسيحة، مريحة، هادئة، لا أطفال فيها ولا صراخ، بعيدة عن ضجيج السيارات وصافرات القطارات.. في آخر منزل من منازل مخيم اتخذ اسم أشهر معركة من معارك التاريخ بين العرب وبيزنطة، وكان باقر سعيداً. أهل المنزل لطفاء. شعارهم: "ابعد عن الجار وغنِّ له". ولم يكن يسر باقراً كهذا. لم يقيموا جسوراً معه ولم يقم هو جسوراً معهم، يدخل غرفته لكي ينام، وإذا أفاق يجلس إلى كتابه.. مجلته.. جرائده.. يقرأ ويكتب.. باقر صار يمارس الكتابة شعراً حيناً، ونثراً أكثر الأحيان. هو المهندس الصناعي صار كاتباً.. شاعراً.. سبحان الله!! يغير ولا يتغير- وأحس باقر أنه وجد ضالته. في تلك الغرفة يمكنه أن يقيم ما دام من أهل الشتات... لكن فجأة جاءهم قريب من نابلس. باقر لا يدري كيف يأتون من الضفة إلى دمشق؟ تلك تحت الاحتلال ودمشق ترفض أي علاقة مع من هم تحت الاحتلال. لكن جاء، طالباً يريد أن يدرس الطب. وأتى صاحب المنزل. "أنت تعلم، جار! الطالب قريبي والأقربون أولى بالمعروف" ولأنه أولى بالمعروف وجد باقر نفسه يبحث من جديد عن غرفة.

محنقاً مغيظاً كان يبحث، ومحنقاً مغيظاً كان يرتد. إما لأجر لا يستطيع دفعه أو لشروط لا يمكنه تحملها، ووجد نفسه أمام حائط عال مصمت لا شباك فيه ولا باب. "رجوة، ما رأيك أصالح أمك وأعود إلى المنزل"؟ سألها وقد قصدها في مكتبها فعل اليائس. "أمي لديها لاءات ثلاث لا تتنازل عنها أبداً: "لا مفاوضات، لا صلح، لا اعتراف" وضحك باقر وهو يتذكر لاءات مؤتمر القمة العربي في الخرطوم. "لكن المواقف تتغير واللاءات تصبح نعمات". "عند ملوك العرب وليس عند أمي" واحمر وجه باقر وازرد "ها هو ذا باب آخر يسد". لكن فكرة جديدة لمعت في ذهنه فجأة "حسن.. رجوة!! ما رأيك أن نتزوج؟" لحظة من الزمن ارتعشت شفتا العانس المزمنة. هنيهة بدت متلجلجة حائرة لا تعرف الرد، فتابع باقر: "ماذا؟ أنا لا أعجبك؟" "لا تعجبني،؟ أنت تعلم باقر أنك تعجبني كثيراً، لكن هل هذه هي المسألة"؟ "ما المسألة إذن؟" "أمي" "ما لها أمك؟ هي تحتج أن تحبي.

تقيمي علاقة مع رجل.. لكن الزواج، أهي ضد زواجك بشكل مطلق؟" "لا.. لكن، المرة الماضية حدثتها بما دار بيننا.." "حدثتها؟ لماذا؟" "لم أستطع إلا ذلك، فازدادت كرهاً لك وحقداً عليك، كما اشتدت تعصباً في مسألة زواجي، حتى صار لها اثنا عشر شرطاً..". "اثنا عشر شرطاً؟ ما هي؟" "أولاً، أن يكون مسيحياً أرثوذكسياً. ثانياً.."

"لا.. لا.. حسبك.. حسبك". قاطعها باقر يائساً هو شرط كاف واف لأن ترمي بي إلى الجحيم" "ألم أقل لك؟ أمي صنعت منها الخطيئة امرأة متعصبة زميتة".

"وأنت، أليس لك شخصية؟ أليس لك رأي؟" "شخصية؟ رأي؟ ما هذا الذي تتحدث عنه باقر؟" "يا إلهي!! لكنها حياتك رجوة!! وحياتك تمضي. سريعاً سريعاً تمضي، قطاراً بلا محطات". "أعلم. لكنها أمي، ولا أستطيع أن أخالف لأمي رأياً". "مع ذلك دعيني أحاول" "تحاول وأنت تعرف النتيجة سلفاً؟ لماذا؟" ولم يقل لها باقر إنه يريد أن ينهي تشرده.. يريد أن يجد بيتاً يؤويه.. أهلاً يلقي بنفسه بين أحضانهم فيمنحونه الدفء والحنان وقد افتقد منذ زمن طويل الدفء والحنان.

من جديد أنقذته لورا. "تبحث عن غرفة؟" سألته وهما يشربان القهوة في مقهى لا يجتمع فيه إلا الشتات. "يدي بزنارك". "وصلت!! لدي غرفة" "حقاً؟" "حقاً وصدقاً" "لكن، ليست عند جارٍ كعبد الرحيم؟" "لا، بالتأكيد.." وقهقهت لورا.. فقد روى لها باقر قصة صديقها بأدق التفاصيل. لم تفاجأ لورا. حدس المرأة كان قد أوصلها لتلك النتيجة من قبل. "المواصفات؟" "ما تحب وتشتهي" "ماذا تنتظرين إذن؟ هلمي نذهب إليها".

وذهبا إلى شمالي شرقي دمشق.. حيث بقايا الغوطة ما تزال تفصل جناح دمشق الأيسر عن جسد دمشق، فتحلق به عالياً حتى مناكب قاسيون. "دكتور زياد، صديقي باقر" قامت لورا بتعريف واحدهما بالآخر. وكاد باقر يفغر فاه دهشة، فالدكتور صغير السن، ربما لم يتجاوز السابعة والعشرين. تخرج قبل عام أو عامين من بلد في المعسكر الاشتراكي. لوحة عيادته تقول إنه طبيب عام: داخلية، نسائية، أطفال، لكن لورا أخبرته، وهما في الطريق، أن أحداً لا يدخل عيادته: لا الداخلية ولا النسائية ولا الأطفال. "لماذا؟" "لا أحد يدري" "وماذا يفعل إذن؟" سألها وهو أكثر استغراباً. "يتسلق" "ماذا؟" عاد يسأل وقد فاجأه التعبير. "أرأيت العرائش كيف تتسلق؟ هو كذلك.. عريشة تبحث دائماً عن دعامة ما، عمود... سقيفة... فتمد استطالاتها وتتسلق". "أيضاً لم أفهم". "يا عزيزي، زياد معجب بنفسه، بجماله، وهو يحسب أن كل فتاة تراه تقع صريعة هواه، لكنه هو لا يريد أية فتاة. يريد ابنة عمود، أقصد ابنة مسؤول يمكن أن يكون عموداً له يرتكز عليه ويتسلق فيصل إلى أعلى المناصب" "آ!! هكذا إذن؟" "لهذا، تراه يبحث دائماً عن عمود.. أقصد مسؤولاً، لديه فتاة في سن الزواج؟" "ألم يجد ابنة عمود.. عفواً...

مسؤول؟" "بل وجد أكثر من واحدة لكن في كل مرة يكتشفه الأب. تصور. قبل شهر فقط كان قد علق على إحداهن. فتاة عانس أكبر منه بسبع سنوات: شبه بلهاء، عجفاء، لا تقرأ ولا تكتب. مع ذلك أبدى لها كل علائم الحب والغرام، أقنعها أنه قيس بن الملوح، عارضاً عليها أن تكون ليلاه.

وجنت الفتاة بالعرض. صار لها قيس، هي التي لم تعرف قيساً من قبل، وهامت به حباً. الأم موافقة، الأخوة موافقون، فهم لم يصدقوا أن أحداً يمكن أن يحب أختهم. لكن الأب وحده طلب مهلة. درس الدكتور، أخذه، جلبه. ليكتشف أنه يريده سلماً يتسلق درجاته". "أبهذه السهولة كشف أوراقه؟" "غبي، وثق بحميه، فصارحه برغباته وطموحاته".

لم يكن باقر معنياً برغبات الدكتور وطموحاته. كل ما كان يعنيه هو غرفة توفر له المأوى، تمنع عنه التشرد والضياع ووجد في غرفة زياد ذلك. زياد على الطرف النقيض من عبد الرحيم. هو معني كثيراً بالمرأة لكن فقط بالمرأة التي تفتح له أبواب المجد والسلطة، الثروة والمال، وكان يبحث. "أؤجرك الغرفة"، قال لباقر: "لكن بشرط: تتركها حين أجد زوجة" "على راسي وعيني" وافق باقر، هو الذي يعلم أن مشرداً مثله لا يستطيع رفض أي شرط، أن ابن الشتات لا يطمع باستقرار أبدي، وأن مع الشتات والتشرد كل شيء زائل، عابر: الزمان.. المكان.. الأصحاب.. الأعداء.. كلهم زائلون عابرون.

رفاقه في الحزب لم يعودوا رفاقه.. أصحابه منهم لم يعودوا أصحابه. لقد غضب أبو العز منه.. أرغى وأزبد فأفرغت القيادة كلها وأزبدت وصدر "الفرمان الهمايوني"، الذي يقضي بإخراجه من جنة الحزب، إلقائه إلى جحيم الضياع. تامر صفق في وجهه الباب تلك الليلة.. زهير.. مزاحم.. حليم.. كلهم باتوا يرونه فيزورون عنه وكأنهم لم يعرفوه قط. "يا الله!! ألهذا الحد تصل سلطة الحزب؟ يقطع الرحم ويهدم الجسور، يحطم السلاسل ويمزق العرى؟" وكان باقر لا يملك إلا أن يحزن. كم قاتل في سبيل الحزب!! كم عانى!! كم ضحى!! وها هو ذا بجرة قلم يمسح من كتاب الحياة كله، يلغى من تاريخ الحزب وكأنه لم يكن بالأمس!! "لكن أين المناشير التي وزعتها؟ أين الرفاق الذين نظمتهم؟ أين المظاهرات التي سرت فيها وأنا أهتف لعبد الكريم قاسم ضد علي صالح السعدي وأحمد حسن البكر. حردان وصدام؟ أين عذابات السجون؟ التخفي، الملاحقة، الفرار، المنفى؟ كله يذهب فسوة نسر؟ لا.. لا.. يا حزبي الجميل!! أيها الحزب الذي نذرت لك حياتي!! أهلي كلهم نذروا لك حياتهم!! قدموا الغالي والرخيص لكي يرتفع مجدك، أتتخلى عنا هكذا أيها الحزب العظيم؟" وكان كل مرة يذرف دمعة. يذكر أباه وهو على فراش الموت يوصيه "بني!! لا تنسَ الفقراء، ناضل من أجل الفقراء. كن دائماً مع حزب الفقراء". وكان باقر يظن أن لا حزب للفقراء سوى حزبه، لكن ها هو نفسه فقير، مشرد، مشتت، مع ذلك يتخلى عنه حزبه لافظاً إياه لفظ النواة، فماذا يفعل؟.

أشهراً طويلة ظل باقر يقلب الأمر "أذهب وأعتذر من القائد"، ثم تبين أن القائد لا يقبل اعتذاراً، بل رد بكل غطرسة وصلف "يركع ويخضع، يسمع ويطيع بعد أن يعلمن انحرافه وتوبته على صفحات الجرائد". لكن شيئاً أكبر من باقر كان يمنعه من الاعتراف بالانحراف والإعلان عن التوبة. "لكنني لم أخطئ مواقفهم السياسية هي الخاطئة. مد يدهم للأعداء هو الخاطئ. تحالفهم مع الإمبريالية والاستعمار هو الجريمة". لكن لا أحد يسمعه. الناس من حوله كلهم آذان صماء، هم يعلمون أنه على حق، لكنهم لا يتكلمون. مزية جديدة حملها معه القرن العشرون: تسمع دون أن تتكلم.. المذياع، السينما، التلفاز، الفاكس، التليكس.. كلها تسمع منها دون أن تتكلم. الحضارة الجديدة تقوم على موهبة الاستماع والإنصات، لا أحد يطلب منك رأياً. حسبك أن تمتثل.. أن تخضع.

واللجنة المركزية الملقبة "بليلى مراد"، بنت هذه الحضارة فكيف لا تريد من جماعتها ذلك؟ "اسمعوا وعوا" كانت تقول لهم "لا نريد نقاشاً أو مجادلات.

الامتثال والخضوع هو كل ما نريد". لكن باقراً كان قد نشأ على أن أعظم مبادئ الكون مبدأ وحدة الأضداد، فلا ليل يكتمل بلا نهار، ولا شتاء بلا صيف، ولا رجل بلا امرأة، والأعظم الأعظم من تلك المبادئ. هو الجدل الديالكتيكي، فالأضداد تتجادل، تأخذ وتعطي، تتماحك وتتصارع والأصح، الأجدر بالحياة يبقى، فكيف يريد أبو العز أن يلغي أعظم مبادئ الكون؟ هل أصبح رجلاً من رجال الكهنوت؟ من أتباع الإمام الغزالي؟ "يكفيك في منفعة العقل أن يهديك إلى صدق النبي ويفهمك موارده وإشاراته، فاعزل العقل بعد ذلك عن التصرف ولازم الأتباع فلا تسلم إلا به"، هكذا قال الغزالي ذات يوم. "اتبع. اتبع.. اتبع.. لا تجتهد. لا تُعمل عقلك.. لا تجادل.. لا تجتهد. الاجتهاد حرام. إعمال العقول جريمة. الجدل جريمة، فهل صرت كذلك يا أبا العز؟" ولا يملك باقر إلا أن يشفق على الحزب الذي قدم له الكثير، ضحى من أجله بالكثير...

ليراه وهو يصبح آلة للقمع.. للتسلط.. لارتكاب الأخطاء. من قبل، كان قد رأى حزباً آخر في بلاد أخرى، وهو يتحول إلى مثل تلك الآلة، أداة بأيدي الأعداء، مطية للحاقدين المتآمرين حتى أفسدوه، مضحين بأعظم صرح للتقدم، محطمين أعظم مطامح البشرية. الاتحاد السوفيتي برمته انهار نتيجة أخطاء وارتكابات لم تكن تختلف كثيراً عن ارتكابات أبي العز. غورباتشوف كان يزعم أن هدفه إعادة بناء الاتحاد السوفيتي فهدم

كل شيء في الاتحاد السوفيتي. يلتسن كان يتذرع بالإصلاح فخرب كل شيء.. لماذا؟ مدوا أيديهم إلى أعدائهم.. سمعوا نصائح الخصوم وعملوا بمخططات الحاقدون وما كان يريد الأعداء الحاقدون؟

"بعد انتهاء الحرب، سنسخر كل ما نملك من ذهب وقدرات ذهنية" صرح دالاس للكونغرس الأمريكي عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية. "من أجل إشاعة الحمق والعته والتفسخ بين الروس، سوف نبذر الفوضى في صفوفهم، وخفية سنبدل قيمهم بقيم زائفة فنرغمهم على الإيمان بها. إننا سنجد أنصاراً وحلفاء لنا في روسيا، ثم حلقة إثر حلقة سندير مأساة هائلة المقاييس هي مأساة أعتى شعب على الأرض وستكون مأساة انطفاء وعيه الذاتي انطفاء نهائياً مبرماً، وشيئاً فشيئاً سنقضي على الجوهر الاجتماعي في الفن والأدب ليصبح كل شيء تعبيراً عن أحط المشاعر البشرية وتجميداً لها.

كذلك يجب أن نخلق ونرسخ في الوعي البشري عبادة الجنس والعنف، السادية والخيانة، أي باختصار جميع أنواع الانحطاط الأخلاقي، كما سنزرع الفوضى والتخبط في إدارة الدولة" تصريح آلان دالاس للكونغرس الأمريكي ذاك، لم ينتبه له غورباتشوف ويلتسين بل ربما لم يسمعا به، فقد كانا حينذاك صغيرين لا يقرآن ولا يكتبان. أبو العز نفسه لم يقرأه. لو قرأه لما مد يده إذن إلى الأمريكان ينسق معهم الخطط لغزو العراق، يأخذ منهم الأموال لتفجير القنابل في العراق، إثارة القلاقل والبلابل في العراق، ورأى باقر نفسه يتجه اتجاهاً جديداً.

"ليلى مراد هذه، فالج لا تعالج، فلماذا أتحسر عليها؟ لماذا أحاول رأب ما انصدع معها؟" وخطرت بباله فكرة سرعان ما بدأ يعمل لها.

كان ثمة آلاف اللاجئين العراقيين في دمشق، بعضهم من الحزب ومعظمهم من خارج الحزب، وكانوا كلهم يشكون عنت الاستبداد وعسف الديكتاتورية. من داخل ومن خارج، فلماذا لا يناضلون من أجل الديمقراطية؟ راح باقر يلتقي بهؤلاء. بأولئك، يتحدث عن تجربته المرة مع "ليلى مراد" والناس الذين يريدون أن يجعلوا من الحزب مزرعة لهم يفعلون بها ما يشاؤون ويمنعون عنها ما يشاؤون. "الديمقراطية هي الحل" راح ينادي "ليسمع واحدنا الآخر، لا هيمنة ولا طغيان، لا فردية ولا تفرد". وبدأ الآخرون يتجاوبون. صحيح لا ينقصنا إلا أن يعترف واحدنا بالآخر، لا أن يحاول إلغاءه، أن نؤمن بأهمية المعارضة، بالرأي والرأي الآخر فتكتمل دائرة الديالتيك". واتفق باقر في اجتماع ضم خمسة من أصحابه الجدد أن يشكلوا تياراً جديداً يسمونه "تيار الديمقراطية" يبينون فيه بسلوكهم لا بأقوالهم الطريق القويم للنضال من أجل الشعب والوطن، مصالح البروليتاريا والكادحين..

أول نشرة أصدروها كتب باقر افتتاحيتها، وعمل الكل على طبعها وتوزيعها. تجربة جميلة أحس باقر أنه يبدأ بها حياة جديدة سلخ معها جلده القديم ليلبس جلداً جديداً لا شائبة فيه ولا لطخة. "لا تقدم بلا ديمقراطية.." أضحي بحياتي من أجل أن أتيح لك الحرية كي تعبر عن رأيك". "اختلاف الرأي إغناء للرأي" كان بعض ما كتب باقر شارحاً، محللاً وضع الأحزاب العربية منددأ بالأنظمة العربية التي تسير كلها على نهج واحد: لك ملء الحرية في أن تفعل ما آمرك به" "كلكم سواسية لكن في التبعية والخضوع"..

قرأت لورا الافتتاحية فهللت وهزجت:

-أخيراً نحطم الأصنام.

-أتظنين ذلك؟ سألها باقر فرحاً برد فعلها.

-ماذا أظن إذن؟ علة هذه الأمة صاحب السلطة الفرد، سواء كان ملكاً أو شيخ عشيرة، قائداً أو رئيس حزب.. بل حتى رب العائلة لدينا، ما هو؟ فرد متفرد، حاكم بأمره لا يأتيه الباطل من أمام ولا من خلف.

-لهذا قلت: الديمقراطية ولا شيء غير الديمقراطية.

-وأنا أشد على يدك. هذه هي البداية الصحيحة والبداية الصحيحة تقود إلى النهاية الصحيحة.

-آه.. لورا.. ما أحوجنا إلى أن يحترم بعضنا بعضاً، أن يسمع بعضنا بعضاً، أن نتجادل ونتحاور.

-هذا ما آمنت به دائماً: الحوار، ومن أجل الحوار تركت الرابطة التي انتسبت لها ذات يوم، وقاتلت من أجلها بحماسة منقطعة النظير.

كانا يتمشيان في شارع هادئ بعيداً عن ضوضاء السيارات وزحام المارة، وكان باقر يعرف طرفاً من تجربتها في تلك الرابطة، لكنه لم يكن يعرف السبب المباشر لتركها التنظيم.
-حقاً؟ من أجل الحوار تركت الرابطة؟ سألها.
-أجل، فإلغاء الحوار يقود إلى ما هو أخطر: الاستعباد.
-كيف؟ لم أفهم.
-أنت تعلم، في الاجتماعات كنا نلتقي فتياناً وفتيات وكان ذلك يسرنا: نكسر به طوق التقاليد ونحطم القيود التي كان المجتمع قد صنعها للمرأة فلا تخرج إلى الحياة ولا تعرف الحرية.
-إيه!! عقب باقر وقد توقفت لورا لحظة من الزمن، كأنما تستجمع ذكرياتها، ما كان أجمل تلك اللقاءات!! أنا أيضاً أحمل ذكريات جميلة عنها.
-ربما ذكرياتي أجمل.. لكن ثمة ذكرى ما تزال إشكالاً بالنسبة إلي، فلا أدري أهي جميلة أم قبيحة؟
-معقول؟ ألهذه الدرجة تحيِّر؟
-أجل.. عشر سنوات مرت عليها وما تزال كذلك.
-ما هي؟ إنك لتثيرين فضولي.
تنهدت لورا تنهدة طويلة ثم بدأت:
كنا في أحد الاجتماعات وكان المسؤول عنا قد انتهى من قراءة النشرات، إصدار التعليمات موشكاً أن ينهي الاجتماع. فجأة توقف سائلاً إيانا وهو يمر بناظريه، على الفتيات، "هل فيكن من هي عذراء؟" واستغربنا السؤال. كنا سبع فتيات وأحد عشر فتى، وكنا قد اعتدنا أن نخرج من كل اجتماع إلى الطريق العام نتمشى ونحن في أطراف المدينة، إلى بساتين الأشجار القريبة نغيب بين أشجارها، إلى حقل من حقول الذرة يمارس بعضنا حريته على أكمل وجه. وحدي أنا لم أكن قد مارست حريتي على أكمل وجه لا أدري لماذا، لكن ظللت طوال سنة وبعض السنة أخرج مع هذا الفتى، أتأبط ذراع ذاك، نتنزه، نتبادل القبل، المعانقات، المداعبات.. ثم نتوقف. جدار كجدار الصوت كان يقف في وجهي فيمنعني من التمادي أكثر. ولربما عرف المسؤول ذلك، فعيناه، وهو يسأل ذلك السؤال، تركزتا علي أخيراً مصدرتين إشعاعات خارقة أحسست أنني لا أستطيع معها الكذب.
"أنا"، أجبت بمزيج من فخر واستحياء.
وأطلق للتو ضحكة مجلجلة سرعان ما حاكاه بها الآخرون، فتية وفتيات وكأني ارتكبت إثماً عظيماً.
".... ماذا؟ أفعلت ما يوجب السخرية؟". استأنفت بشيء من امتعاض.
"بالطبع.. أنت تتصرفين كأية فتاة متخلفة، أمية جاهلة".
وانتبهت إلى نفسي "اللعنة!! أنا هكذا ولا أدري؟" لكن صوته الحاد، وهو يتابع، قطع علي تفكيري. "وحدهن الجاهلات المتخلفات يحرمن أنفسهن من الحياة الطبيعية المعطاء، من الحرية التي لا تعرف القيود".
مضى المسؤول بعبارات بليغة وجمل طنانة يهاجم العقلية المحافظة والموروثات البالية التي كثيراً ما كنا نهاجمها معاً. لكن لم يخطر في بالي يوماً أن بقائي عذراء هو نتيجة لعقلية محافظة ما تزال تعشش في رأسي، لأحمال من الموروثات البالية ما أزال أحملها على كتفي، فخجلت. صدقني، حينذاك شعرت بجبيني يتفصد عرقاً، بوجنتي تلتهبان ناراً وبكل ما في داخلي ينكمش على ما في داخلي متقوقعاً خجلاً واستحياء. "لكن.. رفيق.." بدأت مدفوعة غامضة في الدفاع عن نفسي.
"لا تقولي لكن." قاطعني للتو وهو يتابع تساؤلاته.
"ترى كيف نكون طليعة؟ كيف نتميز عن القطيع؟ بل كيف تكونين حرة متحررة، ثائرة متقدمة؟" وشعرت في الحال بوخز الضمير، لكنه لم يدع لي فرصة، فقد تابع: "هذه خطيئة فادحة ينبغي أن تخجلي من ارتكابها، أن تعملي على إصلاحها في الحال".
"إصلاحها؟ كيف؟" سألت باستغراب وقد فاجأني طرحه.
"بسيطة.. تنفذين ما آمرك به"
لحظة من الزمن ارتج علي لا أدري ما أقول.

"قلت ماذا"؟ سأل المسؤول من جديد وفي صوته حدة الأمر.
"كما تريد، رفيق"، قلت وأنا أشعر أنني مسلوبة الإرادة، لا أملك إلا أن أنفذ ما أؤمر به.
"هـ.. يـ.. هـ.. يـ.." صاحت أصوات من هنا وهناك لإناث وذكور ثم انفرد صوت أنثى:
"هيا.. أسعد! أنت صديقها. إذن، هي ذي مهمتك"ـ
"لا" قاطعها المسؤول، "بل هي مهمتي أنا".
-معقول؟ أمام الجميع؟ سأل باقر وقد صار كله أعيناً جاحظة وفماً فاغراً حتى الأذنينـ
لم تجب لورا بالقول بل بهز الرأس.
-تجربة غريبة!!! علق باقر. لم أسمع بمثلها من قبل.
-صحيح!؟ ألم يحدث شيء كهذا معكم، هناك في العراق؟
-أبداً. كنا نلتقي، صحيحـ نمارس حريتنا صحيح، لكن بكثير من الخصوصية، بكثير من الاحترام للجنس..
-هذا ما كنت أؤمن به دائماً وهذا ما كنت أتوق له دائماًـ لكن هذا ما حصل.
-وبعد ذلك؟
-بعد ذلك، صار يريد استعبادي. ألم يكن فارسي الأول؟ إذن، يجب أن أظل له الفرس دائماًـ يركب، ينزل، ملكاً شخصياً له، بل ربما جارية من جواريه، ليس من حقها إبداء رأي أو اشتراك في حوار.
-لكن ما علاقة هذا بالحزب؟
-هي ذي المسألة، فالحزب كان يؤمن بالحرية، شتى أشكال الحرية وكان أكثر ما يغيظني أن أفقد أبسط أشكال تلك الحرية: حريتي الشخصية.
كانا قد وصلا إلى مفترق طرق: يذهبان باتجاه بيتها أم يذهبان باتجاه بيته.
-بل نذهب إلى بيتي اقترحت لورا، هو أقرب وطعامه أطيب.
وضحكا معاً وقد أحسا أنهما على مفترق طرق آخر لا يعرفان أي طريق فيه يسلكان.
***
العراق نفسه كان على مفترق طرق: الموت جوعاً ومرضاً أو نفض الكفن والانبعاث إلى الحياة من جديد. كان الحصار الذي فرضه الأنكلو أمريكان قد أصبح صخرة على الصدر وأنشوطة في العنق وسلاسل في اليدين والرجلين. المواد ندرت، الغذاء شح، الأدوية فقدت، وكيف لا تكون كذلك ومصانع العراق مدمرة والطرق مقطوعة فلا إنتاج في الداخل ولا واردات من الخارج؟ راتب الموظف أربعة دولارات في الشهر وكيف تعيش أسرة بأربعة دولارات؟ القوة الشرائية للدينار سقطت حتى الحضيض والقوة الشرائية هي محرك الاقتصاد فكيف يسير اقتصاد بغير محرك؟ الجمل إذا جاع يرتد إلى مخزونه. سنامه من شحم ولحم فيذيب الشحم ويأخذ حريراته، يعيش بها إلى أن يجد الكلأ والمرعى. في بغداد، البصرة، الموصل، العمارة.. صار الكل إبلاً تأكل سناماتها. هذا خبأ فلساً أبيض ليوم أسود فمد يده إليه وقد جاء اليوم الأسود. تلك لديها أسوارة فمضت تبيعها وتشتري بثمنها خبزاً وتمّناً. ذلك لديه أدوات كهربائية ثمينة يمكنه الاستغناء عنها، تلفزيون، براد، غسالة صار يبيعها الواحدة تلو الأخرى كي يوفر لأولاده القوت. رابع لديه سجادة، مكتبة، بلوريات، لوحات، كل شيء في العراق صار للبيع، السنام وحده هو ما يرجع إليه الجمل ومن السنام وحده يعيش إلى أن يجد القوت. لكنه يهزل، كل يوم يهزل، مع ذوبان الشحم يذوب، حتى غدا العراق بلا سنام، صار هيكلاً عظيماً لا شحم فيه ولا لحم. نفخة هواء توقعه أرضاً بعد أن كان ذلك الطود العالي، حمال حمائل العرب كلهم، وحارس البوابة الشرقية للوطن كله. العالم كله بحاجة لنفط العراق لكن الأنكلو أمريكان يحظرون نفط العراق.. النفط الذي عرفه الناس في بلاد الرافدين منذ فجر التاريخ، يفتح فتحة هنا وفتح هناك ليسيل أسود كالقطران، الغاز الذي ينبثق من هنا، من هناك انبثاقات لا تراها العين لكن يدور لها الرأس، كله ختم عليه الأنكلو أمريكان بخاتمهم، أدخلوه القمقم ثم سدوا عليه كي لا يفيد منها العراق ولا يفيد العالم، وجفت ينابيع الذهب الأسود تلك التي كانت ترفد دجلة والفرات. الحظر، الحصار، المنع، وحدها الكلمات التي بات يتداولها الناس في العراق. كل شيء محظور: الغذاء، الدواء، اللباس، السيارة، الطيارة.. فطائرات الأنكلو أمريكان تصول وتجول راصدة، مراقبة، متدخلة، ضاربة، وتدوي انفجارات القنابل مبعثرة شظايا القتلى والجرحى هنا وهناك. لجان المراقبة والتفتيش تفجر هي الأخرى، لا الأسلحة الكيماوية والجرثومية التي تضع يدها عليها

وحسب، بل مواقع الأسلحة، الثكنات، قواعد الصواريخ، بقايا المصانع تلك التي لم تستطع مسحها عن وجه الأرض من قبل.
-قد بلغ السيل الزبى؟ فإلى متى؟ راح السؤال يتردد. في بغداد، العمارة، تكريت.ـ بل في كل مزرعة وقرية من جنوب العراق إلى شماله. إلى متى يستمر هذا الحال؟.
-إلى أن تركعوا. جاءهم الجواب من هيئة الإذاعة البريطانية. إلى أن تذعنوا إذعاناً كاملاً لما نريد.
-لكن ما الذي تريدون؟ سأل صوت بغداد وهو يعلم جيداً ماذا يريدون.
-نريد رأس العراق. نريد تغيير النظام.
-لكن هذا تدخل في الشؤون الداخلية لبلد مستقل!!
-تدخُّل.. تخرُّج!؟ لا يهم!! ما يهم هو أن نصلح خطأ أجدادنا.ـ بيرسي كوكس، تشرشل، مكماهون.ـ أولئك الذين تركوا العراق بلداً شاسعاً يمكنه أن يشكل قوة حقيقية تهدد مصالحنا.. تهدد حلفاءنا. ترى لماذا لم يقطعوا أوصاله كما فعلوا في بلاد الشام، في ساحل الخليج فجعلوا من كل قبيلة دولة؟
-هذا أمر فات، وما فات مات.
-لا.. لا شيء فات ولا ميتنا يموت. اليوم نصلح الخطأ. خطأ تشرشل لن يستمر. عراق قوي لن يظل. عراق واحد لن يظل.
-لكن ما ذنب الأطفال، النساء، الشيوخ، العجز؟ ما ذنب هؤلاء الناس الذين يعذبون ويجوعون.. يعانون ويموتون؟.
-ذنبهم في رقبة صدام. هو يتحمل الوزر.
-لكن أنتم الذين تفرضون الحصار، فإلى متى؟
-إلى أن ينفذ الشروط.
-قد نفذت الشروط.
-لجان الرقابة والتفتيش تقول غير هذا.
-اللجان متحيزة.. كاذبة.ـ تنفذ أوامر الحاقدين.
وبدا الحوار حوار طرشان، لا بغداد تستطيع إقناع لندن وواشنطن ولا هاتان تستطيعان إقناع بغداد. أخيراً نفد صبر بغداد.. يئست من الحوار فخرج طارق عزيز يعلن:
-العراق يكف يد رئيس لجنة الرقابة والتفتيش عن العمل. يمنع لجنته من الرقابة والتفتيش. ووقف العالم مذهولاً. كيف يتجرأ طارق عزيز؟ لماذا فعل العراق ذلك؟ ولم يكن العالم يعلم أن اليأس هو الذي دفع العراق، واليأس يفعل أي شيء، يدفع باليائس إلى حد الانتحار.
فجأة اعتكر الماء في بحيرة العالم واضطرب. الحجر الذي ألقاه طارق عزيز، خبط ماء البحيرة، صنع دوائر دوائر اصطدمت بشطآن العالم كله. واختلفت ردود العالم. بعضها مؤيد، بعضها معارض، بعضها مشفق، بعضها لائم. لكن السكون الذي كان يلف العالم تحطم، السكوت الذي ضرب أطنابه سنين ستاً على مأساة شعب يموت كل يوم ألف ميتة ذهب مع الريح. حل محله كلام. أصوات ارتفعت من الصين، اليمن، روسيا، الجزائر، السودان، الباكستان، بل حتى فرنسا التي تراجع ذات يوم "ميترانها" عن مناصرة الحق، أملاً في أخذ حصته من "الطرطة"، وقفت تذكر بحقوق الإنسان وضرورة حماية حقوق الإنسان، فكيف بحقوق شعب كامل لا يقل عن اثنين وعشرين مليون إنسان؟. أصوات أخرى ارتفعت تردد بانبهار وتعجب ما كانت بغداد تردده منذ سنين: الكيل بمكيالين. "حقاً"؟ كيف يكيل الأنكلو أمريكان بمكيالين؟ هم يطلبون من العراق تنفيذ أتفه قرارات الأمم المتحدة، بل يوقفون حياته كلها على ذلك التنفيذ، فيما يربتون كتف إسرائيل وهي تنتهك أخطر قرارات الأمم المتحدة؟ يا للعجب!! عين الرضا عين كليلة والأنكلو أمريكان راضون عن إسرائيل. تسرح وتمرح.. تفعل ما تشاء، ضاربة عرض الحائط بكل شرائع الأرض. بكل قوانين الحضارة. "ماعليش. عرف الحبيب مكانه فتدللا.
أليس كذلك يا غسبار واينبرغر"؟ غسبار واينبرغ يجيب بكل وقاحة الكاوبوي وصفاقته: "وماذا إذن؟ تريدوننا أن نعامل خصومنا كما نعامل أصدقاءنا؟ أعداءنا مثل حلفائنا؟ بالطبع نحن نكيل بمكيالين: للأصدقاء مكيال وللأعداء مكيال، ومن لا يعجبه ذلك ليذهب فيشرب ماء البحر الميت".

لكن لا أحداً يذهب إلى البحر الميت ليشرب ماءه. هم يعلمون إنه ملح أجاج يقتل الكائنات الحية كلها، فلا سمك يعيش فيه ولا عوالق. في الوقت نفسه لا يقتنعون. وتظل دوائر الماء التي أحدثها حجر العراق تتحرك وتضطرب لاطمة صادمة.

-حق الحياة أهم حقوق الإنسان، فكيف نحرم منه شعباً بكامله؟.

-الجزاء من جنس العمل، وإذا كان العراق أخطأ، فإن خطأه أتفه من أن يكون جزاءه الإعدام.

-أيها الأنكلو أمريكان.. أشفقوا على الإنسان!!

-الرحمة الرحمة يا من قدت قلوبكم من صوان!!

-ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء!!

تتعالى الأصوات وتشتد الجلبة في كل مكان من العالم، ومن كل مكان في العراق سهوله، جباله، مدنه، قراه، يصيح السياب دامع العينين مخنوق الأنفاس، مجرح الصوت:

الأقّة صاحَ القصابُ

من هذا اللحم بفلسين

اقطع من لحم النهدين

اللحم لنا والأثواب

ستكون لمسح السكين

الصوت يتداح.. داخل العراق، خارج العراق فترتعش أوصال العالم، يرتجف قصبة في مهب ريح ثم يحبس أنفاسه وهو يرقب أزمة جديدة يهدد فيها الأنكلو أمريكان بضرب بغداد، بتدمير العراق.. لكن الأصوات الأخرى، وقد حركها عذاب الضمير حتى درجة الانفجار، انفجرت فجأة في مجلس الأمن مطالبة ببعض الإنصاف.. ببعض الحق يقدمونه لشعب ألقي طوال سنوات ست عجاف في فوهة الجحيم والكل يتفرجون عليه، بعضهم يفركون أيديهم فرحاً وأكثرهم صامت كاظم لا يستطيع حتى أن يفرك يديه.

في مجلس الأمن معركة. ليست بالصواريخ والدبابات، القنابل الجرثومية والكيميائية.. بل بالكلام والحجة.. وللمرة الأولى يضطر الأنكلو أمريكان، مذ نصبوا فخاخهم لصدام، دافعين به إلى الهاوية، لأن يتراجعوا أمام صدام.

الاحتجاجات كاسحة من كل مكان في العالم. أفراد، دول، جمعيات، منظمات، كلها تحتج.. تصرخ.. الثعلب البريطاني يراوغ، يحس بغريزته الماكرة أن الرياح لا تجري كما تشتهي سفينته. فهل يتابع الإبحار أم يوقف السفينة؟ كانت مارغريت تاتشر، بكل ما في صدرها من غل أسود، قد ولت، وكان جون ميجر تلميذها وتابعها قد ولى هو الآخر. فيما نبق شاب من غامض علم الله يزعم أنه مع العمال والكادحين فاستلم دفة القيادة. رأى الموج يتعاظم من حوله والرياح تعصف، فآثر أن يحيد بالسفينة، أن يلطأ في مرسى من المراسي حانياً رأسه للعاصفة كيلا تقتلعه.

في المرسى التقى بكلنتون. همس في أذنه شيئاً. هز كلاهما رأسه بالموافقة، بعدئذ صدر قرار الأمم المتحدة: النفط مقابل الغذاء.

زغاريد النساء ملء العراق، هتافات الرجال، صيحات الأطفال وكلهم فرحون يهزجون.. "ها هي ذي الأنشوطة تنحل قليلاً. عقدة من عقدها تنفك. قد أجدى اليأس نفعاً. حجرك يا طارق عزيز أصاب مرماه، فافرح يا شعب!! ألف مليون دولار ستأتيك عائدات نفط!! سيأخذون منه تعويضات خسائر الحرب؟ لا بأس. الصنبور مفتوح والخزان مليء.. أرضك يا عراق تقوم على بحر من النفط، أنت ثاني احتياطي في العالم فلماذا تخاف؟ يحسمون حصة الكويت، حصة الأمم المتحدة؟ لا بأس.. أنت لك حصة الأسد. لن يكون بعد اليوم جوع. لن يقطع القصاب بعد اليوم من لحم النهدين ليبيعه بفلسين.. الكوة تنفتح وشعاع الأمل يطل منها، أنفاس الحياة تتسرب فلا تخف يا عراق"!! كان محسن يخاطب تراب العراق، نخيل العراق، دجلة العراق وهو عائد بسيارته إلى بيته. الفرح ملء صدره ينفخه حتى ليشعر وكأنما صنع له أجنحة يستطيع بها الطيران.. لكن ما إن دخل منزله حتى تسمر عند العتبة مصدوماً خائباً. كان نشيج رقية في غرفة القعود يرتفع، وصوت فاطمة المهدئ ينخفض، وكأنما يئست من أن تستطيع التهدئة..

-رقية!! هتف محسن بها مسرعاً إليها. ماذا هناك؟

-ابني يموت. حرارته اثنتان وأربعون. ردت وهي تشير إلى طفل لم يكمل عامه الأول ملقى على الديوان.

-لماذا لم تتصلوا بي؟ سأل زوجته أكثر مما سأل رقية.
-اتصلنا بك، فلم نجدك. ردت فاطمة وفي نبرة صوتها لوم.
-خير!! خير!! ماكو غير الخير!! قومي رقية. قومي نأخذه إلى المستشفى.
وقامت رقية. حملت ابنها وأسرعت، فيما مشت فاطمة تودعهما حتى العتبة. بعين دامعة وقلب تقطعت نياطه ودعتهما. قلبها، حبها كله لرقية. هما مذ كانتا طفلتين في العمارة تعلقت واحدتهما بالأخرى. سنة وبعض السنة كانت تفصل بينهما، سنتيمترات أو ثلاثة كانت فاطمة تزيد رقية طولاً، لكن لا العمر ولا الطول كانا يظهران فتبدوان توءمين متماثلين في كل شيء. الملابس نفسها، تسريحة الشعر نفسها، الأحذية نفسها فمن يستطيع تفريقهما؟ في الدروب نفسها درجتا، في المدارس ذاتها تعلمتا، كتباً واحدة قرأتا.. فقط جاء الزوج الأول، محسن، فأخذ فاطمة. ثم جاء الزوج الثاني رئبال، فأخذ رقية. سنتين أو ثلاثاً ثم عادتا لتجتمعا. بغداد جمعتهما لتظلا توءمين. يداً واحدة دائماً، قلباً واحداً دائماً.
تفرحان معاً. تتقاسمان اللقمة الواحدة معاً. الحصار.. الحظر.. المنع.. كله لم تشعر به فاطمة ورقية. كان زوجاهما من الصفوة –والصفوة لا تجوع. لها ميزات دائماً، وإلا لماذا هي الصفوة؟ اللحم، السمك، السمن، التمن، الخضار، الفواكه، كلها كانت تصل إلى بيت محسن، كما تصل إلى بيت رئبال وكان كل شيء على ما يرام، إلى أن أفاق رئبال ذات يوم، فإذا الأرض تنخسف تحت قدميه.
كان ذلك قبل ستة أشهر، وكان الهزيع الأخير من الليل. رئبال نائم في فراشه. رنين الجرس يفتح عينيه باسترخاء، لكن قرعات الباب بقبضات كالمطارق جعلت عينيه تجحظان وكل ما فيه يتشنج. "من؟" "افتح.. أمن" واصطكت ركبتا رئبال، فيما سرت قشعريرة في جسد رقية، وهي تلبس مئزرها، تلطأ خلف الباب المجاور، تسترق النظر والسمع، فتح رئبال فاندفعت إليه أفراس بحر مشافر كل منها بحجم الرحى وشواربها كشوارب الفقم. "هيا معنا" "إلى أين؟" "تعرف فيما بعد" "ألبس ثيابي" "لا حاجة بك للثياب. منامتك تكفيك" وسحبوا الضيغم الرئبال وكأنه فأر دون حتى أن يستطيع توديع فأرته. "اتركوه!! ماذا تريدون منه؟ حرام عليكم" صاحت فأرته خلفه، وهم يجرجرونه نازلين به السلم، لكن أحداً لم يسمعها.. ومنذ تلك اللحظة ما من أحد سمعها. يوسف غيبه الجب وعلى يد من؟ أخوته. "ايه أيها الأخوة، ماذا فعلتم بأخيكم يوسف؟ هو البريء الذي لم يرتكب ذنباً، كيف ترمونه في الجب؟ ولماذا؟ غيرة؟ حسد؟ لا.. يا أخوة يوسف ما كان يليق بكم أن تفعلوا بأخيكم ذلك"؟ لكن أحداً لا يسمع نجواها. هي تبكي، تعول، ومن جديد لا أحد يسمعها. المنافقون الذين كانوا يأتون إلى رئبال يمسحون له الجوخ، يكيلون له قصائد المديح، كلهم انفضوا عنها، الوصوليون الذين كانوا يتمرغون عند قدميه كي يقول في حقهم كلمة، يجر عليهم منفعة. هم أيضاً اختفوا، ذباباً جاءته موجة صقيع. وحده محسن وقف إلى جانبها. اتصلت به فأسرع إليها، ومعه فاطمة، يحوقلان ويتعوذان من الشيطان، فكلاهما يعلم أنه لا محسن ولا غير محسن يستطيع التدخل. الكل إزاء "الأمن" عاجز لا حول له ولا طول، فكيف إذا كان إزاء القائد نفسه؟
قبل أشهر كان رئبال قد سرب نتفاً من أخبار عن خلاف ما بين معلمه والقائد. حسين كامل صهره، زوجته ابنته، أبناؤه أحفاده. إذن لم لا تكون له دالة على القائد؟ لم لا يكون المدلل لديه؟ واعتاد حسين أن يفرش جناحيه دائماً ويطير حيث يشاء، يخطط، ينفذ، يأمر، ينهى، كلمته لا تصير اثنتين وغدا شيئاً فشيئاً أشبه بنجم ساطع يخطف الأبصار. يوسف كان، هو الآخر، نجماً ساطعاً يخطف الأبصار. فأوغرت صدور.. وأثيرت غيرة وأحقاد. الشمس لا ترضى أن يكون في السماء كلها سواها، لتكسف الكواكب كلها.. تمسح النجوم الأخرى، وتبقى وحدها الساطعة المشعة التي تنشد إليها الأنظار. صدام يرضى أن يكون حسين كامل زحلاً، مريخاً، مشترياً... يدور في فلكه ويستمد منه ضياءه، لكن أن يكون شمساً مثله؟ لا. وبدأت شمس بغداد تبعث بسحائب أشعتها إلى الشمس الأخرى، وبدأت تقصفها خفية بنثار صخورها، بغمائم غبارها. أحست الشمس الجديدة بما يحدث، فأدركت أن انفجاراً نووياً آتٍ قريباً، انفجاراً قد يمسحها من كل الكون.
ولكي لا تمسح، قررت الهرب إلى فلك آخر وسماء أخرى وأفاقت بغداد على خبر صاعق "حسين كامل يفر من بغداد ليس بمفرده بل مع أخيه". بغداد تعلم أن الأخوين عديلان، كلاهما صهر القائد، وكلاهما يسرى ويمنى القائد. لكن ثمة خطر الموت والمرء يهرب من

خطر الموت. وقع الصاعقة وقع النبأ على بغداد.. على القيادة.. على القائد. جملاً هائجاً صار. رغاء وزبداً صنع. صياحاً وصراخاً أطلق. لكن ما الجدوى؟ فالأخوان كامل كانا قد أحكما الخطة وأتقنا التنفيذ.
"ائتوا بكل من يلف لفهما"، صدرت أوامر القائد المطاع الذي فاق الحجاج صولة والرشيد جولة، والذي لا يجرؤ ابن أنثى أن يرفع في وجهه وجهاً أو في حضرته صوتاً، وكان رئبال أول من يلف لفهما. هو أمين سر الوزير، موضع ثقة "المعلم" الذي كان ذات يوم عبقري بغداد وصاحب الدالة، كلمته لا تصير اثنتين، أمره لا يرد أبداً.
"لكن ما ذنبي؟" قال لهم وهو يحمي رأسه من وابل كوابل البَرد لكمات وصفعات. "أنت تعلم بهربه". "كيف أعلم والقائد نفسه.. حموه نفسه لا يعلم"
"تتطاول على القائد؟ تأتي بلسانك على ذكره؟" وانزل يا وابل البرد من جديد لكمات، صفعات، رفسات تركت جسد رئبال كله كدمات زرقاء وأخاديد حمراء.
"ما الذي فعله؟ كل ما أود معرفته هو ما فعله رئبال؟" كانت رقية لا تفتأ تسأل: فاطمة، عبد المحسن، نفسها، الجدران، الأبواب.. لكن أحداً لم يكن يعلم ما الذي فعل الزوج. أفراس البحر عندما تنقض لا تقول شيئاً. هي تنقض وحسب. وليس هناك من يمكن سؤاله. عبد المحسن يعلم ذلك. حتى لو سأل عنه، لا أحد يجيب. ظنهم أول الأمر اتجه نحو ذنب ارتكبه رئبال: رشوة.. كلمة تنال من النظام.. انتقاد للقائد. لكن رقية أكدت أن الرشوة لم تدخل بيتهم قط، كلمة لم ينطق ضد النظام، ثم إن إعجابه بالقائد الملهم لا حدود له فكيف ينتقده؟ عبد المحسن تأكد أيضاً من ذلك. "إذن.. لماذا يعتقل رئبال؟"
كان عبد المحسن نفسه يتساءل لكن سرعان ما جاء الجواب مع انتشار أخبار الفرار. "لا بد أنه قال لك.؟ شممت رائحة مخططاته"؟ سأله ضابط التحقيق الهمام وقد شمر عن ساعديه لكي يري رئبالاً كم عليهما من شعر، وكم سمرتهما الرياضة تحت الشمس.
"أقسم لك، سيدي.. لم يقل لي ولم أشم أية رائحة!!" "كم سرق من الوزارة؟ كم نهب من الأموال؟" "أيضاً لا علم لي ولا خبر.. أقسم لك، سيدي!" "كاذب. أنت كاذب نصاب. التقارير تقول إنه كان يعتمد عليك كل الاعتماد" وانهمر وابل من البرد من جديد على رأس رئبال، كتفيه، ظهره، وهو بلا مظلة. البرد موجع. حباته كبيرة ضخمة يبلغ وزن واحدتها خمسين.. ستين كيلو غراماً. رئبال لا يدري تماماً لكنه يشعر بها ثقيلة موجعة تصيب وجنته فتدميها، كتفه فيزرق. "الله!! ما أقسى الإنسان على أخيه الإنسان!! أتراها الوحوش أكثر وحشية؟"
لكن شفتي رئبال لا تندان عن شيء سوى الآهات، ثم تأتي لحظة من الزمن تغيب فيها حتى الآهات وقد غاب صاحبها عن الوعي.
شبه غائبة عن الوعي باتت رقية، تمشي كأنها نائمة، تحكي كأنها شاردة، وتحضر كأنها غائبة، ماله الرجل يفعل بالمرأة هكذا؟ يغيب عنها فتصبح رحى بلا قطب.. بيتاً بغير سقف؟ "يا إلهي!! أنا ضائعة فاطمة.. أنا تائهة في بيداء وكل ما حولي كثبان وسراب.. كثبان وسراب". وتعمل فاطمة على تهدئتها، تهدهدها كالطفلة الصغيرة. الضربة الموجعة جاءت فجأة وعلى أم الرأس فكيف لا تضيع رقية؟ كيف لا تصبح بلا وعي؟ لو كانت تعلم ما يخطط له حسين كامل، إذن لأعدت للأمر عدته، لكن أحداً لم يكن يعلم. كانت هي ورئبال يتربعان على قمة جبل، وعلى حين غرة جاءتهما دفعة، فإذا هما يتدحرجان على السفح، يهويان إلى القاع. هي تعلم أرضها. لكن من يعلم أراضيه هو؟ مجرد السؤال عنه حرام.
محسن يريد أن يسأل عنه لكنه لا يجرؤ. النقمة عارمة على حسين كامل، الغادر الخائن، على كل من له صلة به فمن يجرؤ على السؤال عن رئبال؟
حسين كامل صار في عمان. أخوه معه أيضاً.. زوجتاهما.. أولادهما كلهم صاروا هناك في أمان وسلام. كيف رتبوا كل شيء؟ لا بد أن الرجل عبقري كي يفلت وهو بين أنياب الضرغام. لا بد إنه يملك قوة السحرة كي يضرب بعصاه بحر العراق الزاخر، فينشق ليعبره، كما عبر موسى البحر، وهو فار من فرعون وجلاوذته.. فرعون العراق بكل ما يملك من كلاب بوليسية وأجهزة الكترونية.. عيون رصد وآذان تنصت، وعلى نحو لم يعرفه فرعون مصر قط.

في الأردن راح حسين كامل يطلق التصريحات.. يجري المقابلات، يفند مزاعم القائد الملهم ويتهم حجاج بغداد. "الطاغية المستبد يريدنا أن نعبده كما يعبد الله. كل العراق في خدمة واحد أحد فرد صمد والفرد الصمد في خدمة نفسه".
"ويطير صواب القائد الملهم!! يسمع تصريحات حسين كامل وينط دون أن يحط.
"هاتوه. بأي شكل هاتوه، اقتلوا أولاده، دمروا عمان على رأسه". لكن أحداً لا يستطيع الإتيان به، أو قتل أولاده، أحداً لا يستطيع تدمير عمان وعمان أمنع من عقاب. هي تعلم مذ جاءها فذ الأفذاذ، أن الأفذاذ الآخرين سيلاحقونه ولا بد.. سيدمرونها على رأسه ولا بد، مع ذلك فتحت له أحضانها. الكرم العربي.. حسن الضيافة العربية لا تسمح لمليكها المعظم إلا أن يفعل ذلك. أليس هو في أرومة الكرم ذاتها؟ من ذؤابة قريش وهاشم؟ إذن، لا بد من أن يستقبله حتى ولو كان في ذلك خطر تدمير عمان. وارن كريستوفر وثب فرحاً وهو يسمع النبأ الصاعقة. كلينتون نفسه طيّر قبضتين في الهواء وأرسل صرختين في التلفاز "هورا.. هورا" وهو يسمع النبأ- الصاعقة، فكيف لا تستقبله عمان؟ لكن كي لا تدمَّر، وكي لا يقتل الضيف المستجير بها، سارعت عمان تقيم متاريس من رجال، وحصوناً من فولاذ لحماية عبقري بغداد، وقد فر بأخبار بغداد، أسرار بغداد، يقدمها لكلينتون فيهتف كلينتون بفرح الأطفال "قد وقعت يا صدام!! ذراعك اليمنى تخلت عنك... حملت إ لي كل ما يدينك: سجن الأبرياء، تصفية الأعداء، مخططات العدوان، صنع الجراثيم القاتلة، إخفاء القذائف المدمرة.. الصواريخ، البيوكيمياء، الذرة.. كلها سيكشفها لي صهرك.. عبقري بغداد".
وفي بغداد، كان حموه يتمزق. "حتى أنت يا بروتوس". كان يصيح وهو يرغي ويزبد "أنت يا من وضعتك في عب اللحم.. يا من زوجتك ابنتي.. أمنتك على نفسي.. هكذا تغدر بي؟ بأرخص الأثمان تبيعني؟" وشدد القائد النكير على الصهر الهارب.. على أهله.. أقاربه.. فكيف لا يشدد على رئبال؟
أشهراً ثلاثة ظل رئبال يتنقل بين "السيلون" البارد الرطب وغرفة التحقيق المرعبة بكل ما فيها من عجلات ودواليب، سياط وأسلاك.. يجد فيها المرء كل ما لذ وطاب، "رباه!! لماذا تدخلنا التجربة ونحن لا إثم ولا جريرة؟ ألكي تعلم مقدار إيماننا بك؟ صبرنا وتحملنا؟ لكننا نؤمن بك يا رب!! أنت الواحد الأحد الفرد الصمد.. نصبر كما يصبر أيوب، نتحمل كما لم يتحمل. فخفف عنا الوطء يا رب!!".
طوال تسعين يوماً، ظلت شفتا رئبال تطلقان الدعوات آناء الليل وأطراف النهار. بعد ذلك، استجاب الرب سبحانه. لعله طول المسافة بين الأرض والسماء.. لعلها الأبواب الفولاذية المصمتة التي لا يخترقها حتى الرصاص والتي كان عليها أن تعبرها. لعل... ولعل.. لكن بعد تسعين يوماً بالتمام والكمال توقفت رحلة العذاب. منهكاً غدا رئبال، محطماً، ضعيفاً، سقيماً صار، حتى ليثير شفقة الجلاوذة أنفسهم. رئبال رأى مثل تلك الشفقة في عيني أحدهم. كانوا ما انفكوا يسألونه. يريدون أية معلومات عن حسين.. عن ارتكاباته. عن آثام يمكن أن يلاحقوه بها، لكن "المعلم"، عمره لم يخطئ أمام رئبال.. لم يبح بسر.. لم يقم بشين، فماذا يقول عنه رئبال؟ "اكتبوا ما تريدون عنه، أوقع لكم. اتهموه بما تشاؤوم أصادق لكم. فقط أريحوني. لم أعد أتحمل. أنا على شفا الموت. صدقوني. أنا أموت.. أموت." ولكي لا يموت فقط أوقفوا تعذيبه.
لكن تعذيب رقية لم يتوقف. لديها أربعة أولاد، أكبرهم في العاشرة، الأصغر ابن عام وهي بلا رجل. بيت بلا سقف. مكشوفة للريح.. للبرد.. للمطر.. بل تشعر أحياناً أنها أكثر من مكشوفة. هي عارية.. بلا ستر.. عرضة للأعين، للسهام، للحراب وتطير إلى فاطمة.. إلى محسن. "أرجوك. ابحث لي عن رئبال. اسأل عنه، اعرف ما حل به. أهو حي؟ ميت؟" لكن عبد المحسن ليس بحاجة إلى رقية ترجوه أو تتوسل إليه. رئبال أكثر من أخ، هو رفيقه.. صديقه.. فكيف لا يسأل عنه؟
في نهاية الشهر الرابع فقط، عرف بعض الجواب، فهرع إلى رقية يخبرها "اطمئني هو حي يرزق" "أخرج لي أياه. توسط من أجله. أرجوك. أبوس يدك". واحتجت فاطمة "لا.. رقية! محسن نشمة، صاحب نخوة، فلماذا بوس الأيادي؟" وتابع محسن. بهدوء، بحذر، بذكاء تابع جهوده. كلمة هنا.. لقاء هناك. هو رجل ذو أهمية.. ذو مكانة وكلمة. أليس ضابطاً في الحرس الجمهوري؟ ألم يحصل على وسام البطولة؟ وأكثر من هذا وذاك أليس هو الآن في قلب القصر؟ صحيح، أن أحداً لا يعلم ما يفعل، أحداً لا يعرف وظيفته

بالتحديد، لكنهم على يقين أنه موضع ثقة. يدخل القصر متى يشاء. يخرج متى يشاء. تحت تصرفه سيارات.. حرس.. مرافقون.. إذن. بإمكانه أن يتكلم. لكن من تراه يسمع له؟
بعد ستة أشهر فقط، وجد محسن من يسمع له. "سأحاول، أعدك، سأبذل قصارى جهدي لإطلاق سراحه". وعده رأس الأمن الكبير بعينه الكبيرتين وأنفه الكبير وكل شيء فيه كبير. شكره محسن لكن دون أن ينقل ذلك لرقية.. دون أن يخبر حتى فاطمة، فمن يدري؟ قد تبوء المحاولة بالفشل ويظل رئبال رهن الأغلال؟
ابن رئبال مصاب بالتفوئيد. رقية لا تدري من أين جاءت تلك اللعينة التفوئيد. لعلها الأوساخ.. الخضار الملوثة.. من يدري؟ الطبيب زرقه إبرة، أعطاه شيئاً ما، لكنه شكا "أدوية التيفوئيد مفقودة. ربما تفيد هذه"، وقدم لمحسن علبة قرأ عليها كلمة أسبرين، فلم يملك إلا أن يهز رأسه زافراً زفرة الحرقة والحسرة.
"أدخلوه المستشفى. خلوه عندكم"، طالبت رقية الطبيب، فقد كانت تعلم أن حمى التيفوئيد تعدي، وكانت أحرص ما تكون على أن تبعد العدوى عن أطفالها الآخرين.
"لا شواغر في المستشفى"، أجاب الطبيب وهو يتنهد، كأنما يحمل على ظهره صخرة سيزيف، ففي المستشفى أطفال بلا أسرة ومرضى بلا أدوية، وهو بكل ما في قلبه من رحمة يرى ويلات الإنسان، أوجاع الموجعين ولا يملك لها دفعاً.
بكثير من الخيبة حملت الأم ابنها وسار بهما محسن إلى السيارة.
لم تكن حرارة الطفل قد خفت، ولم تكن عيناه قد انفتحتا، مع ذلك كان عليهما أن يعيداه إلى البيت فليس في بغداد أدوية وليس في مستشفياتها شواغر.
-من؟ رئبال؟ صاح محسن وهو يصعد الدرج سابقاً رقية. هناك، قرب الباب، وكان يتكوم رجل شعره أشعث، وجهه أسود، ثيابه أسمال، رجل خيل لمحسن أنه رئبال.
-معقول؟ لا.. ما هذا برئبال. صاحت رقية وهي تقف إلى جانبه تتفحص الرجل المتكوم وقد طوق ركبتيه بذراعيه ووضع رأسه بين خديه.
-بل أنا رئبال. رد الرجل المتكوم قرب الباب بصوت مخنوق مجروح كأنما مر على شفرات سيوف.
-حمداً على سلامتك، هتف محسن وهو ينحني عليه، يرفعه بين يديه ويحضنه، فيما بدأت رقية تتلمسه شبه مولولة:
-يا ويل ويلي!! يا رئبال!! ماذا عملوا بك؟
ثم انقضت عليه بيدها الفارغة تشده إلى صدرها وتلثمه هنا وهناك.
-حمداً على سلامتك!! حمداً على سلامتك!!
هاتي المفتاح، ندخل. صاح بها محسن وهي ما تزال بيدها الفارغة تتلمسه، تحضنه، تلثمه ولا تشبع منه، فيما اليد الأخرى تحمل الطفل الغارق في حمى التيفوئيد. فتح محسن الباب ثم سار برئبال يسنده من جهة ورقية من جهة، فالرجل أضعف من أن يسير على قدميه. مع ذلك تنفس محسن الصعداء. هو، مذ دخل رئبال السجن، أحس بأن أنفاسه تنكتم. صخرة هائلة تحط على صدره مانعة عنه حتى الهواء. محسن يعلم ما معنى السجن.. يعلم ما معنى أن يقع المرء في يد الأمن وأجهزته. خوف شديد تملكه منذ اللحظة الأولى، هم كبير سكن فؤاده، فقد كان عليه أن يعيل أسرة رئبال، أن يوفر لها الغذاء في وقت شح فيه الغذاء، اللباس في وقت لم يعد فيه وفرة من لباس. كان عليه أن يحمل عبئاً جديداً كبيراً وكان هناك الخوف من أن تطوله هو نفسه الشكوك.
-إي رئبال!! تكلم. كيف حالك؟ سأله أخيراً وقد أجلسه.
-حالي!؟ ردد بصوته الضعيف المخنوق. ثم فجأة بدأ ينشد: من هوى نجمه فكيف يكون؟ وانهمرت دموع من عينيه، جعلت قلب رقية ينفطر. رئبال القوي يضعف؟ الصلب يصبح هشاً؟.
-لا.. لا تتكلم. استرح، عقبت وهي تمسد خديه، تمسح بكلتا راحتيها دموع عينيه، فقد تخلصت أخيراً من حمل طفلها.
-ما به.. مجيد؟ سأل رئبال وهو ينظر إلى اللفافة البشرية وقد ركنت على الديوان الآخر.
-مجيد!؟ لا.. لا شيء.. أجابته رقية، وهي تحاول إشغاله بشيء آخر. قل لي. أين كنت؟ كيف خرجت؟ متى؟

-مهلاً عليه!! مهلاً عليه!! أجاب محسن قبل أن يفتح رئبال فمه، فقد أشفق على الرجل الذي كان قد أحاله السجن إلى شبه رجل.
-صحيح، ما أغباني!! ما أقل ذوقي!! راحت توبخ نفسها وهي تتفحص رجلها الذي بدا وكأنه شبه رجل. كان كل شيء قد حدث فجأة وعلى عجل: فتح باب الزنزانة، إنهاض الحارس له.. عصب عينيه.. دفعه إلى حيث لا يدري.. ركوبه السيارة، انطلاقها به. إنزاله على الرصيف.. رفع العصابة عن عينيه، كل ذلك حدث على عجل.. حتى الأمر الأخير أطلقه الضابط على عجل: "لم تكن لدينا. لا نعرف عنك شيئاً، مفهوم؟".
وعلى عجل أيضاً، هز رئبال رأسه "مفهوم"، وللتو مضى الضابط على عجل. بعدئذ سار كل شيء على مهل.. تلفته حوله.. عبه شهيقاً طويلاً من هواء بغداد.. صعوده الدرج.. رنه للجرس ثم تكومه قرب الباب، ملء صدره الخوف واليأس. "ما الذي حل بعدي؟ هل أخذوا الأسرة كلها إلى السجن؟ هل اكتسحهم كلهم طاعون فلم يبقِ ولم يذر؟" ووجد نفسه مكتوماً خائفاً، لا يدري ما يفعل.
-أكيد. هو جائع. تدخل محسن وهو ينتقل بناظريه بين رئبال ورقية وكلاهما ينظر إلى الآخر، متحيراً، متلجلجاً، لا يدري ما يقول أو يفعل.
-أوه!! تباً لي!! هتفت رقية في الحال وهي تهب ملء طولها. أنت جائع؟,. أليس كذلك؟
-جائع حتى الموت. رد بصوته الضعيف وهو يحاول اغتصاب ابتسامة.
أجل. أنا أعلم الآن ما يعني الجوع؟ كيف يمكن للمرء أن يموت جوعاً في الصومال؟ في الحبشة؟
-حالاً!! حالاً!! سآتي لك بالطعام، وأسرعت رقية إلى المطبخ.. هدهداً أرسله سليمان إلى بلقيس.
-عذبوك كثيراً؟ سأله محسن بنبرة الهمس، كأنما لا يريد لصوته أن يصل إلى الحيطان، تلك التي قد تكون لها آذان.
-لا.. لا تسأل عن العذاب. لا تذكرني بشيء.
-بيدك حق. أنت بحاجة لأن تنسى.
-أنت حكيت بشأني؟
-لا.. أنا لم أفعل شيئاً.
-بل فعلت. توسطت وحكيت، أنا أعلم. لولاك لم أخرج قط. لكن مع من حكيت؟
-لا يهم.. المهم، خرجت. انسَ كل شيء.. لا تتكلم بشيء.. كيلا تخسر مستقبلك.
-أجل. المستقبل هو المهم. مستقبلي.. مستقبل أولادي.
-أحسنت رئبال. وكن على ثقة. المياه يمكن أن تعود إلى مجاريها. كل شيء يمكن إصلاحه.
-افتح فمك. هتفت رقية وقد عادت من المطبخ، بيدها اليسرى صحن وباليمنى لقمة أعدتها من قبل. أنت نصف رئبال. ويل.. ويلهم.. ما كانوا يطعمونك يا ترى؟
لكن لم يكن باستطاعة رئبال أن يجيب فقد كانت اللقمة تملأ فمه وكان قد شرع يمضغ بسرعة واستمتاع.
-أجل.. رئبال. كل.. كل. حثه عبد المحسن وهو ينهض. لا تتكلم. فقد استرح. أما أنا فسأذهب الآن.
-لا، دعك هنا، صاح رئبال من بين فتات طعامه.
-بل سأتركك تستريح، وفي المساء أعود.
محسن على حق. رئبال بحاجة إلى الطعام.. بحاجة للراحة.. ثيابه المتسخة، شعره الأشعث الطويل. ذقنه النامية كإبر القنفذ، رائحته التي تزكم الأنف، كلها كانت بحاجة إلى علاج وبدأت رقية العلاج. حمت الحمام، قادته كالطفل، نزعت ثيابه، أنزلته في الحوض الممتلئ ماء ساخناً ثم بدأت تغسل.. تدلك، ترغي الصابون.. تفرك.. فارسة في ساحة الوغى. رئبال هيكل عظمي بين يديها، تنظر إليه فيمتلئ قلبها حزناً، تمتلئ عيناها دموعاً "يا إلهي!! أين عضلاته المفتولة؟ أين صدره العامر؟ بطنه، فخذاه.." بين يديها الرجل يثير الشفقة. عظمتا وجنتيه بارزتان. صدره قفص من أضلاع، بطنه ملتصق بظهره حتى لكأنه لم يعرف طعاماً قط.. بل حتى ذاك الذي بين فخذيه لم يكن أكثر من زائدة دودية تكاد لا تراها العين. "ماذا فعلوا به هو الآخر؟" عيناها لم تستطيعا إلا أن تختلسا النظر إليه، هو الذي استولدها أربعة أطفال وأطعمها اللذائذ أصنافاً شتى. أكثر من شيء كان

يدفعها لأن تطمئن عليه، هو الذي كان هاجسها طوال غيابه. في النهار كانت تنسى.. تنشغل بالبيت، بالأولاد، لكن ما إن يأتي الليل وتسلم نفسها للمضجع حتى يهزها إليه المضجع، تتذكره فارساً يعدو بها في حلبة سباق. تتذكر نفسها فارسة تمتطي حصان المتعة وتجري.. تجري.. حتى لتشعر أنه يطير بها عالياً، يحلق بعيداً في السماء. لكن ها هو ذا بين يديها الآن. زائدة دودية لا يحركها شيء. لا دفء الحمام.. لا حرارة الماء.. ولا حتى لمسات الأنامل. فلا تملك رقية إلا أن تندبه باكية:

-قتلوك!! المجرمون!! السفلة!! قتلوك!؟

-لا.. لا تقولي ذلك. أرجوك.

-أنت خائف!؟

-أنا أموت خوفاً، فلا تزيدي الطين بلة أرجوك!!

-ماذا فعلوا بك؟ قل لي. عذبوك؟ ضربوك؟ وصلوه بالكهرباء!؟

أفصحت أخيراً وهي تشير إلى ما بين فخذيه.

-لا. لا.. لم يصلوه بالكهرباء. صحيح، عذبوني.. ضربوني، لكن. هو.. لا. لم يصلوه بكهرباء.. لم يحدث شيء. وأطلقت رقية زفرة.

-الحمد لله!! خفت أن يكون المجرمون.. السفلة..

-لا.. لا. قاطعها رئبال وقد استرد بعض أنفاسه. لا تأتي على ذكرهم أبداً.. أرجوك.

-كيف لا آتي على ذكرهم وقد فعلوا بك ما فعلوا؟ انظر إلى نفسك.. أنت البريء الذي لم يرتكب ذنباً فكيف لو كنت مرتكباً؟

-حين يدخل المرء هناك، يستوي المذنب والبريء.

-اللعنة عليهم. كيف ذلك؟ أليس في قلوبهم رحمة؟ أليس في عقولهم قدرة على التمييز؟

-لا يهم، رقية. ما يهم أنني خرجت.. سليماً.. معافى..

-سليم!؟ معافى!؟ سألته وهي تمسح بناظريها عظام وجنته البارزة وصدره وقفص أضلاعه لتستقر أخيراً على الزائدة الدودية التي تكاد لا تراها العين..

-أجل.. أجل.. أنا فقط بحاجة للإنعاش. رجل انقطعت أنفاسه زمناً طويلاً، ما الذي يحتاجه؟

لم تجب رقية، فتابع رئبال:

-أن يستعيد أنفاسه، ومع أنفاسه ينتعش، يستعيد توازنه، دورته الدموية، حرارة جسده، فيعود كل شيء على أحسن ما يرام.

ولكي تعيده على أحسن ما يرام، نقعته في البانيو ساعة كاملة، ثم غسلته المرة تلو المرة حتى بلغت العشر. بعدئذ حلقت ذقنه، قصت شعره، ألبسته منامة جديدة ومثوراً جديداً حتى إذا ما عاد محسن مع فاطمة والأولاد، كان رئبال قد قطع شوطاً حسناً على طريق الراحة والانتعاش.

--ها!! هذا هو رئبال!! هتف محسن وهو يأخذه بين ذراعيه من جديد.

-بابا!! بابا!!

-صهري!! رئبال!!

راح القادمون يصيحون، وهو يحضنهم الواحد بعد الآخر.. يقبلهم ولا يشبع، يشدهم إلى صدره ولا يشبع، فالأطفال ينغلون في القلب.. يسكنون في المخ ويملأون تلافيفه شوقاً وحنيناً لشد ما أرقه في ليالي السجن.

سألوه، سألهم. أجابوه، أجابهم. كانوا يريدون أن يعرفوا كل شيء عن الداخل: سجنه، تعذيبه، التحقيق معه، وكان هو يريد أن يعرف كل شيء عن الخارج: السياسة، الحصار، الحرب، النفط مقابل الغذاء، وخصوصاً حسين كامل.

-وماله حسين كامل؟ أجابته فاطمة بكثير من الحدة. هو في عمان ينعم بالدولارات والدنانير وأنت تتعذب في السجن.

-اللعنة عليه!! بكثير من الحقد والغيظ تابعت رقية. هو رأس البلاء، قسماً لو أمسكت الآن برقبته لخنقته.

-لا.. لا.. الرجل لا ذنب له؟ تدخل محسن بارماً شفته هازاً رأسه.

-لا ذنب له؟ علقت رقية. كيف؟ أليس هو الذي فر؟ أليس هو سبب سجنك؟

-صحيح، رد رئبال، لكنه لم يكن يريد أن يسجنوني.ـ لم يكن يريد بي الشر.. هو لا ذنب له ولا جريرة.. أنا أعلم.. تحمل الرجل حتى لم يعد باستطاعته التحمل ففر بجلده.
-فكر بنفسه فقط، فلماذا لم يفكر بك أنت؟ ردت رقية.
-كيف؟
-يحذرك. يعرض عليك الفرار معه.
-أجننت؟ همس رئبال وهو يتلفت حوله هلعاً.
لا، لم تجن. بل رقية على حق، ثنت فاطمة على كلام أختها. هو وزيرك وعليه أن يفكر بك كما يفكر بنفسه.
-لعله خشي إفشاء السر، تدخل محسن شبه هامس. يخاف رئبال فيشي به إلى الأمن.
-ليته فعل. بكثير من حذر غمغم رئبال، إذن لهربت معه.
-لذلك هو مسؤول عنك، أكدت رقية بكثير من الحماس، وعليه أن يتحمل تلك المسؤولية حتى النهاية.
-ماذا تقصدين؟
-أقصد. هو الآن في الأردن، حر طليق، وملك متوج، فلماذا لا نذهب إليه وننعم بما ينعم به هناك؟
ولم يجب رئبال، فيما جحظت عينا محسن. "حقاً!! المرأة إبليس رجيم! دائماً تأتيها الأفكار الشيطانية أولاً، وإلا كيف فكرت حواء بأن تجرب طعم التفاح؟".
-صحيح!؟ تابعت فاطمة، وكأنما كانت على علم مسبق بما طرحته رقية.
لم لا تلتحق به هناك؟ لم لا تفر إلى عمان!؟
-لا.. لا.. انتفض رئبال، وكأنما لدغته أفعى. كل شيء إلا الفرار. كل شيء إلا حسين كامل، كل شيء إلا عمان.
***
باقر ليس بحاجة لفرار كي يذهب إلى عمان. باستطاعته، أن يركب سيارة جهاراً نهاراً ويذهب إلى عمان. هو مذ فر حسين كامل خطرت بباله فكرة الالتقاء به. باقر يعلم أن صهره يعمل لديه أمين سر وثيق صلة. إن رآه عرف منه الكثير عن رئبال، عن أخته، عن العراق، لكن الضجة التي أثارها لجوؤه إلى الأردن جعلته يرجئ الأمر بعض الوقت. "من يستطيع رؤيته الآن؟" فقد كانت الصحف، المجلات، الإذاعات، الفضائيات، كلها مشغولة بالحديث عن عبقري بغداد الذي فر بجلده من جلاد بغداد.. الصهر يهرب بزوجته وأولاده من الأب والجد. أي مضحك مبك!؟ وسائل الإعلام مندهشة من ذلك المضحك المبكي، متعجبة من تلك المفارقة التي لا تضاهيها كل ما في الدنيا من مفارقات. الناس كلهم منصبون على حسين كامل: سياسيون، صحفيون، كتاب، مثقفون، معارضون عراقيون، مخابرات أردنية، مخابرات غير أردنية وباقر يتابع ذلك كله، يترصد أخبار حسين كامل ويدهش: "ما من أحد أثار ما أثاره الرجل من ضجة!!" باقر يسأل عنه القادمين من عمان ودائماً يجيب القادمون أن طوقاً محكماً يحيط بالرجل إحاطة سور الصين بالصين، فكيف الوصول إليه؟ هم يريدون حلبه: معطيات كثيرة يريدون الحصول عليها: معلومات عن الصناعة في العراق، وثائق عن المخبآت في العراق، صورة عن المخططات التي نفذت والتي لم تنفذ في العراق، أسرار صدام العائلية والشخصية وحسين كامل أبو الأسرار، أبو المعرفة. يضعونه على كرسي الاعتراف فيحصلون على كل ما يشاؤون. من السكوتلانديارد، من السي آي إي، من الموساد، جاء رجال بأقنعة ورجال بغير أقنعة يسألون ويستفسرون. من الصحف جاء محررون يقابلون ويسألون، وحسين كامل في البؤرة من عدسة اهتمام العالم.
بروتس سدد خنجره إلى ظهر قيصر ودم قيصر ينزف. يصل حتى دجلة.. حتى شط العرب حيث الفرات ودجلة يصنعان أعظم أنهار الأرض. "لاحقوه.. اقتلوه.. أريد رأسه حياً أو ميتاً" كانت تعليمات القيصر ما تزال تتردد. في عمان كانوا يسمعون التعليمات وكانوا يخافون على حسين كامل "زيدوا الاحتياطات. لا تدعوا أحداً يقترب من حسين كامل" وأدرك باقر أن من المحال الوصول إلى الرجل. الطوق المحكم كان يزداد إحكاماً. ضجة الإعلام، الخوف من بغداد، الخوف من غير بغداد كلها شددت إحكام الطوق، وباقر يسأل. بعد أشهر فقط بدأت ضجة الإعلام تخفت، حركة المخابرات تتباطأ، فبروتوس القادم من بغداد كان ما يزال حريصاً على بغداد "لا علم لي.. لا علاقة لي.. لا

ذاكرة لي"، وبدت علائم الخيبة على وجوه جاءت من واشنطن، الإحباط على وجوه جاءت من لندن، من تل أبيب، من عمان والكل ينظر إلى الكل. "لماذا جاء إذن إن كان لا يريد أن يخدمنا؟" فجأة بدأت الأسئلة تتطاير في سماء الصحف، أروقة السكوتلانديارد، السي آي إي وحسين كامل يرفض أن يفشي أي سر، هو الذي كانوا يعلمون أنه يعرف كل سر. يرفض أن يقدم أية وثيقة هو الذي كانوا يأملون أن يكون حاملاً معه كل الوثائق، يرفض الذهاب إلى واشنطن أو لندن، هو الذي يريد من مدن الأرض كلها إلا مدينة عمان.
-لورا، تذهبين معي إلى عمان؟ سألها باقر وقد عزم على الرحيل.
-عمان؟ ماذا تفعل هناك؟ سألته دون أن يخطر ببالها شيء مما يدور في رأسه.
شرح لها باقر فكرته لكنها لم تتحمس.
-حقل ألغام، وأنا لا أكره كحقول الألغام!! ردت بين المازحة والجادة. ادعني لغيرها.
لكنه لم يكن يريد غيرها. عمان كانت قد أصبحت هاجساً. حسين كامل لا يفارق خياله. فضول من نوع لم يعرفه باقر قط كان يسيطر عليه، يدفعه لأن يذهب إلى حسين كامل فيعلم منه ما لا يستطيع معرفته من أحد.
وحيداً ذهب باقر إلى عمان، ووحيداً حاول الذهاب إلى حسين كامل المرة تلو المرة، لكن دون الوصول إليه خرط القتاد. القتاد يدمي الساقين فيرتد باقر كسيراً حسيراً. طوق الأمن يشدد عليه، وهو نفسه يرفض اللقاء مع أحد من المعارضة، وصدمت المعارضة "لماذا فر من طاغية العراق إن لم يكن يريد الانضمام إلى معارضة العراق؟" وبدا جواب حسين كامل جاهزاً "أنا ضد طاغية الوطن لكنني لا أتحالف أبداً مع أعداء الوطن". وكما كانت تعليقاته جازمة "معارضة تمد يدها لمن قتل أطفالنا وذبح رجالنا ونساءنا لا يمكن أن يكون لها علاقة بالوطن.. يدها ملوثة بدم الوطن شأنها شأن أعداء الوطن. "وبدا ذلك يقطع الطريق على كثير من الناس، يقطع الطريق حتى على أمل باقر في أن يرى الهارب من بغداد.
عزم باقر على العودة، لكن قبل أن يعود رفع السماعة يتصل بلبانة.
-باقر!! من زمان هذا القمر ما بان!! أهلاً!! أهلاً بك!! راحت كلمات لبانة تنصب عليه من سماعة الهاتف انصباب مطر الصيف. وقبل أن يستطيع إجابتها أو سؤالها جاءته زخة جديدة. ابن حلال!! أنت.. ابن حلال مصفى!! أتعلم من عندي؟ أتعلم أننا كنا بذكرك قبل لحظة؟
-حقاً!! من عندك؟ سألها مستغرباً أن تكون بذكره هو الذي شط به المزار عنها.
-أبو الليل، ردت شبه هاتفة: تعال باقر!! تعال!! بل لماذا لا تأتي في الحال؟
وذهب باقر في الحال. كانت لبانة قد تزوجت، وكان زوجها ابن عم أبي الليل "الله!! كم هذا العالم صغير!! كم فيه من مصادفات وغرائب!! لبانة التي لم تكن تفكر يوماً بالزواج وجدت نفسها تجري جرياً إلى الزواج، ثم تعدو عدواً لتصبح أماً!! إيه منك أيتها الدنيا!! كم فيك من متغيرات!!".
بالأحضان أخذ أبا الليل، رفيق الأيام الصعبة، ذاك الذي أفلح في إنهاء شتاته، والعودة إلى غزة مسقط رأسه. بالأحضان أخذ ابن عمه، زوج لبانة ذاك الذي لم يره من قبل قط لكن عن بعد مد يده يصافح لبانة "عن بعد؟" سأل نفسه فأجابته نفسه "وماذا في ذلك؟" "ثم طافت على شفتيه ابتسامة ساخرة "أليست الدنيا كلها غرائب ومفارقات؟ لبانة التي كانت ذات يوم أقرب من حبل الوريد، صارت اليوم أبعد من الثريا. حقاً إنها المتغيرات".
متغيرات أبي الليل كثيرة. طوال ثلاث ساعات ظلوا يأكلون ويشربون ويتحدثون. أو بالأحرى أبو الليل يتحدث وهم يسمعون. في جعبة أبي الليل الكثير مما يسمع، اتفاق أوسلو أجدى نفعاً!! أعطى ياسر عرفات موطئ قدم. غزة صارت له. ولا تستهن بغزة!! غزة دوخت الإسرائيليين. ظلت تطاردهم بالحجارة، ترميهم بالمقاليع والنقافات حتى زهق رابين فصرخ. "تعال عرفات!! تعال خذها بحق الله!! لم أعد أريد غزة!! لم أعد أريد غزة!!" ولو لم يستجب عرفات لخرج رابين تاركاً غزة للسماء والطارق، لا يرغب مقابلها بشيء. لكن عرفات لم يكن يريد غزة وحسب. اتفاق أوسلو حدد مراحل: مرحلة أولى تنسحب إسرائيل من كذا بالمائة من أراضي الضفة الغربية، مرحلة ثانية تنسحب من كذا آخر ثم تأتي المرحلة الثالثة، مرحلة النهاية فينسحب رابين من كل شبر من الضفة الغربية. هكذا قال عرفات وهكذا تقول المفاوضات التي تقدمت كثيراً والتي

كانت ستتقدم أكثر لولا أن خرج جني أزرق من بين حشد إسرائيلي يغني للسلام ويصلي للسلام فزرع صدر رابين رصاصاً طار به إلى نوع آخر من السلام.
-لكن ألا تعتقد أنه، بموت رابين، ماتت كل مخططات السلام؟ سأله باقر وهما يشربان الويسكي.
-لا.. لا.. بالعكس. رد أبو الليل بكثير من الثقة: شمعون بيريز أكثر إيماناً بالسلام من رابين، بل هو المهندس الحقيقي لكل مخططات السلام، ألم تقرأ كتابه "شرق أوسط جديد؟".
-لا.. لم أستطع الحصول عليه.
-اسمع باقر. اذهب معي إلى غزة تر بعينك الدولة الفلسطينية وهي تبنى.. الشرق الأوسط الجديد وهو يشاد.
-أنت متفائل كثيراً أبا الليل، تدخل ابن عمه بتجهم بدا غير منسجم مع تفاؤل أبي الليل.
-يجب أن نتفاءل. الضفة الغربية ستعود إلينا.. المطار سيفتح. المرفأ سينشأ، الطريق الواصل بين الضفة وغزة سيقوم. وشيئاً فشيئاً يرتفع علم فلسطين.. تقوم دولة فلسطين.
-هذا إن انتصر شمعون بيريز.
-سينتصر. الاستطلاعات كلها تدل على ذلك.. مراقبو الانتخابات كلهم أكدوا اليوم ذلك.
-بعضهم يقول إن هناك فرصة لنتنياهو، تدخلت لبانة فجأة:
-لا.. لا.. رد أبو الليل بحماسة شديدة، نتنياهو ساقط حكماً. بدليل أن كلينتون اتصل بشمعون بيريز يهنئه بالنجاح.
-لا أدري، عقب باقر بعد إطراقة من تفكير. أنا لست متفائلاً حتى بشمعون بيريز. أليس هو صاحب عناقيد الغضب؟ أليس هو من كانت طائراته تقصفنا ونحن في الجنوب، أم نسيت أبا الليل؟
-لا، لم أنس. لكن هناك دائماً متغيرات، وقد تغير شمعون بيريز كما تغير اسحق رابين من قبل.
-وحده نتنياهو لا يتغير، علقت لبانة بنوع من اليقين المطلق. وإن جاء ضاع أملكم كله بالسلام، بل ربما عاد فاحتل غزة.
-وعدنا نحن إلى الشتات؟ سأل أبو الليل بكثير من الغيظ.
-أو ذهبت إلى القبر برصاصة من رصاص بني إسرائيل؟ تابعت لبانة ضاحكة.
-تعلمين!؟ أجاب أبو الليل زافراً. رصاصة وقبر أهون علي من العودة إلى حياة الشتات.
-أنت على حق، عقب باقر وهو يزفر بحرقة. ليس هناك أصعب من حياة الشتات.
وانقطع فجأة برنامج التلفاز في الغرفة المجاورة ليعلن نبأ عاجلاً صاروا كلهم آذاناً صاغية له:
بفارق 0.5% من أصوات الناخبين انتصر بنيامين نتنياهو!! وانفتحت عيون على سعتها، فيما أسرعت أقدام إلى غرفة التلفاز، ربما لتتأكد من النبأ العاجل الذي رجف له قلب أبي الليل وقد قفز إلى ذهنه فجأة ذلك الخيار: الرصاص أم الشتات؟.

الفصل الثالث عشر

أنا من بقايا أمة تاهت
على درب الردى
صارت لماضيها صدى
لا تذبحوا صحوي وأغنيتي، لأني
مذ رأيت وجوهكم
تلد الدمار
مع الحصار
تحكي بألسنة الرطانة
وتبيح للنفس الخيانة
هذي الحياة غدت سدى
عبثاً.. سدى.. عبثاً.. سدى

كان باقر يردد وهو يتسكع نازلاً شارع الصالحية.. سعيداً وحزيناً في الآن نفسه: هو سعيد لتلك النفثات الشعرية التي راحت تنبجس منه دون سابق إنذار مثلما ينبجس نبع ماء

عذب سلسبيل، فيبرد شيء ما داخل صدره ويستكين، كما تبرد الحصى بماء الينبوع وتستكين. وهو حزين لأنه يوماً بعد يوم بات يشعر أن الحياة تفرغ من المعنى إطاراً بلا لوحة. "أين اللوحة التي ضحيت بحياتي كلها، بهناءتي، بطمأنينتي، كي أراها أمامي؟ أين المطامح الكبيرة التي بدأت بها حياتي، أريدها أن تتجسد واقعاً فتتحقق العدالة وتسود المساواة؟ يغدو الكل سواسية كأسنان المشط لا طبقات ولا تفاوتاً طبقياً، لا رأسمالياً ولا فقيراً، لا برجوازية ولا بروليتارية، بل الكل متساوق متناغم في مجتمع موحد، من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته!! يا لتلك الأحلام، ما كان أجملك!!".
باقر يشعر بأن دنياه اليوم هي دنيا الواقع، وشتان ما بين الأحلام والواقع!! في تلك الدنيا كانت اللوحة قوس قزح زاهي الألوان، حسبك أن تنظر إليه لتأخذ بمجامع نفسك الراحة والنشوة: العالم كله نور وسكينة.. شعوب الأرض كلها أمة واحدة: تعايش وسلام. الغني يعطي الفقير، العالم يعلم الجاهل، البصير يرشد الضرير.. يداً واحدة وصفاً متراصاً. لكن تلك الأحلام ولت كلها. بل عكسها هو الذي حدث. دول الاشتراكية ذهبت. معسكر التقدم والأممية انفرط انفراط سبحة، ومع انفراطه انفرط الأتباع والحواشي. الأحزاب في شرق الأرض وغربيها، راحت تتداعى تداعي أكواخ اكتسحها طوفان. كلها صارت تتخبط، بل قيادته، قيادة "ليلى مراد"، صارت حليفة واشنطن. "من يصدق؟ القيادة المؤمنة بالأممية والبروليتاريا تصبح حليفة الرأسمالية والامبريالية؟" ويشعر باقر بسكين تحز لحمه. كانت الخيوط كلها قد انقطعت بين وبين الحزب. وكان الزمن يزيد الطين بلة، فالخلاف الذي بدأ بزاوية حادة بات الآن زاوية منفرجة. صار هناك أعداء. أحقاد وضغائن. بل بات الرفاق السابقون كلهم يشنون عليه هجمات شعواء. يلصقون به شتى النعوت، يتهمونه بأحط التهم. "لماذا؟ فقط، لأن لي رأياً مخالفاً؟ فقط لأني أشرت إلى الخطأ؟ احتججت على الانحراف؟". ويجرض باقر بريقه. مقاطعة الرفاق له كانت مؤلمة. هو يحن إلى صحبتهم. عمراً طويلاً كان قد قضاه معهم. لكن ها هم أولاء يقطعون كل صلة به. يحاصرونه كما يحاصر العراق. "أتراهم يحسبون نسغ حياتي منهم، يقطعونه فأموت؟ "نسغهم قطعوه لكنه لم يمت. باقر نشيط.. قادر على الحركة. له أيضاً أنصار، أصدقاء. بعضهم يوافقه الرأي. بعضهم الآخر يسبقه، حب الديمقراطية كان يجمعهم وعلى حب الديمقراطية وضعوا أيديهم بأيدي بعض ثم أقسموا أن يعملوا ليس من أجل الاشتراكية والأممية فحسب، بل من أجل الديمقراطية والحرية أرقى نماذج الديمقراطية وكل أشكال الحرية: بدءاً من حرية التعبير وحتى حرية الوطن. التيار الديمقراطي الوطني يتحرك، يحاول كسب الأنصار. باقر أمين سره. هو يكتب النشرات بيده، يطبعها بيده. ثم يوزعها الأصحاب. العمل بحاجة إلى المال وهو لا يملك مالاً. الفقر وحش فاتح فكيه يهدد بالانقضاض دائماً. مع ذلك يعمل. يغمض عينيه ويهجم. الحياة موقف، والموقف الشجاع رأس كل موقف. طوال عمره كان يؤمن بذلك. لكن الشجاعة لا تكفي. في العمل الحزبي.. السياسي.. لا بد من المال." من أين كان الحزب يأتي بالمال؟ " ليلى مراد" "من أين تأتي بالمال؟ "بالأمس كان الاتحاد السوفيتي، أما اليوم فالولايات المتحدة.. لكن من يعطي المال لباقر ورفاقه؟ واشنطن تعلنها صريحة: "كونوا معنا، نفذوا أوامرنا نعطكم ما تشاءون من المال"، وكانت في ذلك العام قد رصدت تسعة وتسعين مليون دولار!! وهو ما تعلنه، فكيف بذاك الذي لا تعلنه؟
شباط بارد، رغم جفافه، رغم غياب أمطاره وثلوجه، جاء بارداً. رياح شرقية وغربية ما فتئت تتعاوره، مع ذلك شارع الصالحية لا يعرف البرد. أولئك الذين بنوه عباقرة. لم يتركوا مجالاً فيه لريح شرقية أو غربية، هو محايد موارب. يحميك من الريح والبرد. ثم جاء بعضهم بفكرة عبقرية "لماذا لا نرصفه فلا تمر به سيارة ولا حافلة.؟ نتركه للمارة فقط، للتسكع فقط." وخلت الصالحية من السيارات. صارت متنزهاً ومتسكعاً. باقر يحب التسكع. به يهرب من الوحدة.. من الهموم. يأتي إلى الصالحية كل مساء.. يلقي بنفسه في زحام الناس فيشعر بالأنس.. يحس براحات دافئة تمسد له عنقه، تمر على ظهره فتسري فيه رعشة دفء. لكنهم يغلقون باكراً. هو يعجب: كيف لعاصمة كبيرة قديمة كدمشق، أن تغلق باكراً؟ بغداد لم تكن كذلك.. بيروت.. القاهرة.. كل المدن التي عرفها باقر لا تغلق باكراً. ولا يفتأ يتساءل. "لماذا دمشق وحدها؟" لكن من يجيب؟ مرة واحدة أجابه أحدهم ضاحكاً: "هل سمعت بقصة أوعَ الزيت؟" "لا" أجابه باقر. "يا سيدي!! أحدهم بنى بناية ثم قرر أن يدهنها دهاناً زياتياً، ولكي لا تتلوث ثياب الناس،

وظف عاملاً يحذرهم من الدهان بترداده الدائم: "أوعَ الزيت.. أوعَ الزيت" انتهت البناية وسكنها الناس والعامل في مكانه يردد "أوعَ الزيت" بعد ثلاثين عاماً عتقت البناية صارت كالحة اللون مسودة من الدخان والعامل ما زال يردد "أوعَ الزيت". ضحك باقر حينذاك وقد فهم مغزى القصة، لكنه لم يفهم لماذا لا يفطن أحد إلى أن الداعي، الذي دعا ذات يوم لإغلاق أسواق دمشق باكراً زال وانتهى، وقد توفرت الكهرباء!!
باقر يود أن يظل شارع الصالحية ساهراً حتى الصباح. إذن... بإمكانه أن يتسكع حتى الصباح، الفراغ من حوله قاتل والوحشة في منزله مريعة. هو لا يحب الذهاب إلى المنزل. لم تعد تغريه اللقاءات الحزبية أو السياسية. لكن ماذا يفعل والصالحية تهم بإغلاق محالها؟ أصوات السواتر المعدنية وهي تنزل من عليائها على أبواب المحال تملأ الأجواء من حوله. الأنوار المشعشعة، وهي تنطفئ، واحداً تلو الآخر، تبعث الوجل في قلبه. بعد دقائق، ستكون الصالحية كلها معتمة.ـ صامتة.ـ خاوية كمقبرة باردة. "أين تذهب يا باقر؟ أين تذهب؟ "لكن قبل أن يجيب، بدت ساق امرأة غضة بضة وهي تنزل من سيارة فاخرة. عينا باقر طارتا إلى الساق الغضة البضة وقد انكشفت إلى منتصف الفخذ. بعدئذ صعدت العينان إلى الصدر الكاعب بنهدين تطاولت قبتاهما عالياً على سفح أبيض محمر.ـ "يا إلهي!! هذه صفية! ونظر إلى الرجل بجانبها "رباه!! إنه يسار!!".
-يسار!!
-باقر!! هتف واحدهما بالآخر وهو يسرع نحوه يأخذه بالأحضان ويشبعه لثماً.
-ألن تدع لي شيئاً؟ احتجت صفية على زوجها وتبادل باقر وصفية القبلات على الوجنتين رغم أعين الناس المتطفلة وقد انفتحت على مصاريعها.
-لندخل.. همست صفية وهي ترى الأعين المتطفلة تسلقهما بنظراتها.
أسرع الثلاثة يدخلون المبنى الواسع متوارين عن الأنظار.ـ كانت السيارة قد وقفت أمام ملهى لم يلفت نظر باقر من قبل.. ملهى بدت لوحته في الخارج قديمة باهتة الألوان، فيما كان صدر صفية مشعشعاً بشتى الألوان.. ذهب، ألماس، زمرد، ياقوت.. أصناف الجواهر.ـ الثمينة كلها كانت تتلألأ على صدر الراقصة التي بدت وكأن الزمن لم يمر عليها البتة. شعرها قبة عالية فوق الرأس، أذناها مئذنتان من أقراط انقلبتا رأساً على عقب، ساعداها، أناملها، كلها مهرجان من حلي وجواهر.
-الله!! ما أصغر هذه الدنيا!! هتف يسار وقد صاروا على درجات سلم يهبط إلى ملهى يغوص في أحشاء الصالحية عميقاً عميقاً لا تراه عين ولا تسمعه أذن.
-صحيح!! العالم قرية صغيرة! ثنى باقر وهو يتفحص كلاً من يسار وصفية. كانت قد مرت أكثر من ثلاث سنوات لم يرهما باقر فيها ولم يسمع عنهما. كانا فصي ملح وذابا. أبو جوني.. أصحاب الحانات كلها في بيروت كانوا قد أضاعوهما. باقر سأل أكثر من مرة عنهما لكنهما كانا قد غابا، ثم ها هما فجأة يظهران.ـ "حقاً!! العالم قرية صغيرة!!".
أسئلة عن الصحة.. الأحوال.ـ العمل.. دارت وهم واقفون على السلم. كان كل منهم يريد أن يعرف شيئاً عن الآخر قبل أن ينزلقا إلى الملهى، ففي الملهى رحى صاخبة تدور ويصعب مع دورانها حوار أو حديث. مع ذلك روى يسار لصاحبه هناك قصتهما مع العالم الخارجي. قبرص، تركيا، اليونان، والميازيب التي تتدفق دولارات.ـ دولارات.
-زوج الملكة إذن؟ سأل باقر مازحاً، وقد جلسا إلى طاولة قرب المنصة، فيما مضت الملكة إلى ما وراء الكواليس.
-وما زوج الملكة؟ إنه الملك!! رد يسار مطلقاً قهقهة مجلجلة، لم تلفت نظر الندل الذين كانوا قد اعتادوها ولا شك.
-لكن ألا تمل؟ ألا تشعر بالفراغ وأنت لا تعمل شيئاً؟
-من قال إني لا أعمل؟ لا.. لا.. لا.. أنا أعمل ليلاً نهاراً فقط. وغمز بعينه، ضارباً كفه بكف باقر، معيداً قهقهته المجلجلة وكأنما يغطي بها شيئاً.
"صحيح، أن تكون زوج امرأة كصفية: عمل، وعمل يستغرق وقتك وجهدك كله. "باقر يعلم من هي صفية؟ يعلم كم هي امرأة متطلبة! يسار نفسه، حين بدأ علاقته بها، كان يروي له كل شيء. "امرأة من نار!! إطفائيات بيروت كلها لا تطفئها"، كان يقول له: "أتراها ما تزال امرأة من نار؟ إطفائيات دمشق كلها لا تطفئها؟".
-تدري باقر؟ وأنا في لارنكة.ـ أثينا، اسطنبول، كنت أتذكرك دائماً.ـ أتذكر أيامنا الحلوة تلك. ترى ما أخبار أبي الليل؟

-أوه.. أبو الليل في غزة يقيم دولة فلسطين!!
-يقيم.. ماذا؟ دولة فـ.. فلسطين؟ رد مقهقهاً هازاً مثل صفية كتفية وخاصرتيه.
-ولم لا؟ ألم يوقعوا اتفاق أوسلو؟
-ذلك كان رابين، أما اليوم فنتنياهو.
"إذن!! لم يغص يسار في حمأة اللهو وحسب، ها هو ما يزال يتابع السياسة... يفهم بالسياسة. "راح يسار يتحدث عن نتنياهو... بيغن الجديد الذي يود أن يجمع ما في فلسطين من عرب ثم يمر عليهم بجنازير الدبابات، مداحل الطرقات، فيسويهم جميعاً بالتراب.
-حقاً!! أنت تعتقد ذلك؟ سأل باقر أخيراً بشيء من استغراب.
-ماذا إذن؟ تظنني جاهلاً؟.. لا.. يا صاحبي. في أثينا، كنت أقرأ الصحف.. صحف عربية تأتي من لندن، باريس، القاهرة. وأنت تريد أن تتسلى.. تشاهد التلفاز، تسمع الأخبار. لا.. نتنياهو أكثر صلفاً وغروراً من أن يقدم الأرض مقابل السلام. جل ما يحلم به العرب مع نتنياهو: السلام مقابل السلام.
-هم.. في غزة يعلمون ذلك. أبو الليل نفسه يعلم، مع ذلك رفض الشتات. أتدري ما قال وهو يودعني؟
-ما قال؟
-اللعنة على الشتات! أموت على أرضي ولا أعود للشتات.
-غبي!! أبو الليل غبي!!
-غبي!؟ معقول؟
-لماذا إذن يلقي بنفسه في جهنم؟ انظر إلي. سنوات طوال وأنا خارج بلدي. ما الذي جرى لي؟ صرت أحسن.. أغنى.. باقر! أنا الآن ألعب بالذهب لعباً. سأبني قصراً في بلدي، وحين تكبر صفية قليلاً، نذهب ونعيش هناك.
-يعني عاجلاً أو آجلاً ستعود إلى بلدك؟ سأله باقر، وقد عاد بذهنه سريعاً إلى البصرة. فطن يسار إلى المنزلق الذي انزلق فيه:
-لعين!! أنت لعين!! ثم ضرب بكفه كف باقر ضربة جعلته يصطدم بالطاولة.
-اللعنة عليك!! صاح باقر، تريدني أن أتقيأ ما سقيتني؟
وضحكا كلاهما. كان باقر قد شرب كأس الويسكي الأولى دفعة واحدة، لكن راح يرتشف الثانية ارتشافاً وقد أحس بأنامل الشراب تدغدغ أطرافه، ثم لم يبدأ البرنامج إلا وهو يشعر بدبيب الويسكي في أوردته وشرايينه.
المطرب الأول كان سمجاً قبيح الصوت حتى بدا لباقر وكأنه حمار ينهق. صرح بذلك ليسار راغباً في أن يوصله للمطرب نفسه غير أن يساراً وضع يده على فمه:
-لا.. أرجوك.. هذا يؤذي صفية.. يؤذيني.
وسكت باقر شاغلاً نفسه بصب كؤوس الويسكي ثم عبها حتى الثمالة. صفية راقصة مبدعة. تلك السنون الطوال أكسبتها مهارة وخبرة. جسدها صار أفعواناً حقيقياً لا عظام فيه، لا غضاريف، لا لحم، بل هو سلم من نايلون يتحرك كيفما شئت. ساقاها، فخذاها، خصرها، صدرها، كل ما فيها يشع أبيض كالثلج "من أين جاءت تلك المصرية بالثلج ومصر لا تعرف الثلوج؟" لكن أحداً لم يهتم بالجواب. حتى يسار لم يكن يهتم بشيء. تعرض لحمها.. تتعرى حتى من ورقة التوت.. لا يهم. المهم أن يصفق لها الجمهور.. أن يرضى عنها صاحب الملهى، أن يظل ميزاب المال يتدفق.
أنهت وصلتها، فلوح لها يسار أن "تعالي.. نحن بانتظارك" لكن صفصف لم تأت. كان زبون آخر على طاولة أخرى في زاوية الصالة يشرب النبيذ وحيداً وكان بحاجة لمن يؤنسه فمضت صفصف تؤنسه. تطلع باقر إلى يسار. وتذكر للتو حانة أبي جوني وتلك المعركة التي خاضها يسار من أجل صفصف. يسار يهمس بشيء في أذن فتاة أخرى تنحني قربه على الطاولة كاشفة رجليها حتى أعلى الفخذين وصدرها على أسفل النهدين ثم يضحكان كلاهما مقهقهين، وكأنما يختمان بقهقهتهما اتفاقاً.
-اشرب!! بصحة قاعدتنا العظيمة!! صار يسار، وهو يربت براحته كفل الفنانة التي غادرت طاولته متراقصة، هناك في البقاع!! تابع غامزاً باتجاه البعيد ثم مطلقاً ضحكته المجلجلة.

شرب باقر لكن دون أن يجد في تلك النكتة ما يدعو للضحك. "يا إلهي!! كم يتغير الإنسان!! قاعدة النضال تلك تتحول إلى كفل امرأة!! من كان يصدق أن يصير يسار إلى مثل هذه الحال؟" لكن صاحبه لم يدع له فسحة أكبر للشرود. كان يريده أن يشرب أكثر فأكثر، أن يستمتع أكثر فأكثر.

-ليلة حمراء سنقضي مع أجمل فتاتين من فتيات الملهى. همس في أذنه وعيناه على كفل الفنانة التي غادرت.

-وصفية؟ سأل باقر وقد وجد نفسه عاجزاً عن فهم أي شيء.

-مالها صفية؟

-أترضى أن تأخذ معك سواها؟

-لا.. يا صاحبي.. لا.. قال يسار وهو يهز رأسه ساخراً. صفية ليست فارغة لنا.. لديها زبون دسم الليلة. أنا أعرفهم.. هؤلاء الرجال المتوحدين الذين يشعرون بالوحشة لا يذهب واحدهم إلا ومعه من يؤنسه. تذهب معه صفية فنذهب نحن مع هذه.

-لـ.. لكن.. يسار.. قاطعه باقر متلعثماً قليلاً.. كيف ترضى لزوجتك أن تذهب مع رجل آخر؟

ضحك يسار ضحكته المجلجلة ثم أجاب بهزة ساخرة أخرى من رأسه.

-ما هذا الذي تقوله باقر؟ لكأنك ما تزال في معسكر الحاصباني.. بعقل الفدائيين أنفسهم. انظر حولك يا رجل. العالم كله متغيرات.

-متغيرات؟

-طبعاً.. وحده الحجر لم يتغير.. ما عداه كل شيء تغير، القيم، الأفكار... المفاهيم.. بل حتى المصطلحات تغيرت.

-كيف؟

-قبل سبع سنوات هل كنت تسمع بمصطلح العولمة؟

-لا، أجاب باقر وقد فاجأه سؤال يسار.

-الشرق أوسطية؟

-لا.

-اعتراف الأردن بإسرائيل؟ اعتراف حتى عرفات بإسرائيل؟

-لا.. لا.. لكن ما قصدك؟

-قصدي.. تلك المفاهيم القديمة: زوجة.. زوج.. رجل آخر.. ترضى.. لا ترضى.. كلها صارت بالية.. الآن هناك مصلحة فقط.. بيزنس.. مال.. فقط. وأحس باقر بشيء كالغثيان يجيش أعلى بطنه ثم يرتفع مع المريء.. المريء.. إلى أن وصل إلى البلعوم.. الفم. في الفم سوائل تفرزها غدد. يشعر باقر أن إفرازات غدده مفرطة. هي تتجمع في فمه شيئاً كالبصاق، بوده أن يقذفه في وجه يسار، قذيفة مدفع تنفجر بين عينيه، لكنه يكبح نفسه آخر لحظة.

-اللعنة عليك وعلى البيزنس!! والمال!! قال من بين أسنانه وهو ينهض عن الطاولة، لكن دون أن يستطيع منع الغضب داخله من أن يقذف بالكأس التي كانت في يده لتتناثر على الأرض شظايا ودوياً ظل يلاحق صاحبه حتى درجات الملهى.

-إلى أين؟ سأله سائق السيارة وقد أشار له على عجل، ثم ألقى بنفسه في المقعد الخلفي على عجل.

-حي الزهور، أجاب دون أن يدري كيف أو لماذا؟ بيته ليس في حي الزهور، مع ذلك نطلق لسانه بالاسم.. أتراه كان جواباً على سؤال سابق.. سؤال عبر ذهنه قبل أن يلتقي بيسار وصفية؟ باقر لا يعلم.. كل ما يعلمه أنه ممتلئ غيظاً من يسار.. من صفية.

"العاهرة!! لم تقعد معي لحظة واحدة!!" كم ألقت حوله من شباك إغواء!! لم تكن يومذاك قد قررت الزواج من يسار بعد، ولم يكن يعنيها إلا أن تصيد. صيد الرجال مهنتهن. هو يعرف ذلك، وهي تتقن المهنة". في الماضي.. الحاضر.. المستقبل.. ستظل بارعة في صيد الرجال، ويسار ذو القرنين. يوفر لها الغطاء. لكن كيف؟ يا إلهي! مائة وثمانين درجة تغير الرجل!! الفدائي المناضل يصبح عاهراً قواداً؟ لا.. لا.. ليس هذا تغييراً، هو الانقلاب الكامل الذي ينذر بالخراب".

-هذا هو حي الزهور، قطع السائق عليه سلسلة أفكاره.

-قدام!! قدام!! أجابه باقر وقد عرف أخيراً لماذا أراد الذهاب إلى حي الزهور.

عند باب من حديد وقف باقر هاماً بقرع الجرس. فجأة لاحظ أن باب الحديد موارب قليلاً. فتحه أكثر ثم دخل. غرف الطابق السفلي مطفأة الأنوار. غرفة الطابق العلوي منارة "الحمد لله.. ما تزال سهرانة". وبنقرة خفيفة أوصل الرسالة إلى الداخل.
-ادخلي.. ما بك؟ جاءه جواب الرسالة فضحك، "تحسبني أختها" ثم دخل.
لورا تنبطح ملء طولها على السجادة. قميص نومها ينحسر عن جسدها حتى أعلى الفخذين. أمامها منمنمة تعمل بها، والمدفأة تشتعل ناراً تملأ الغرفة دفئاً.
-مرحباً لورا! بادرها باقر وهو يلقي بنفسه إلى جانبها. لم تجفل كما أرادها أن تفعل، لم تهتز كما توقع. بل تحركت إلى جانبها الأيسر متكئة على مرفقها ثم شرعت تتأمله.
-وجدت الباب مفتوحاً.. بدأ وكأنه يريد أن يفسر.
-تركته كذلك من أجل لبنى.
-فإذا بلبنى تتحول إلى باقر؟ مازحها ضاحكاً.
-خير بديل لخير بديلة، داعبت ذقنه متوددة.
-يعني لم أزعجك؟
-تزعجني؟ بالعكس. مجيئك يسرني. على الأقل يؤنسني، قالت وهي تمسح بناظريها الغرفة الخاوية على ما يبدو، لبنى لن تأتي؟ تابعت وهي تنظر إلى ساعة الحائط، حيث العقربان يتعانقان على الرقم اثني عشر.
-يعني.. هي تنام في الخارج؟
-ولم لا؟ أنا أنام أحياناً في الخارج؟
-ولا تسألك؟ ولا تسألينها؟
-لا.. لا.. بيننا اتفاق جنتلمان، لا تسأل ولا أسأل.
-لكنكما أختان.
-صحيح. لكن لكل منها حياتها الخاصة.. علاقاتها.. مغامراتها.. فلماذا تتدخل أي منا بحياة الأخرى؟
-صحيح، لماذا؟ ردد باقر وهو يتذكر كم هناك في العالم من متغيرات!!.
-لكن، ما الذي جاء بك في مثل هذا الوقت؟ سألته وهي تبحث عن شيء في منمنمتها على الأرض.
-الغربة.
-إذن، أنا الوطن؟
-تدرين لورا؟ أحياناً أشعر أنك وحدك وطني. لا أحد يلغي غربتي سواك، لا أحد يؤنس وحشتي إلاك.
-ها!! ها أنت ذا تنظم شعراً!!
تعلمين، أنت أروع قصيدة وأجمل شعر. الله!! كم أنا بحاجة إليك!! ودون أن يدري يده، تمتد إلى الفخذين العاريين، تتلمسهما. "يا إلهي!! ما أنعم هذه البشرة!! ما أدفأ هذا اللحم البشري!!" ثم وجد نفسه يهتف "أنا بحاجة إلى دفئك لورا.. حنانك.. أحضانك؟. وبلمحة عين، وجدا نفسهما عاشقين يضم واحدهما الآخر، يشده بين ذراعيه كما أحد أحداً، يلتهم شفتيه كما لم تلتهم شفتان شفتين.. ثم يستغرقان كلاهما في للوصل والغرام مجنونة الأنغام.
في الصباح وجدا نفسيهما ما يزالان على السجادة يضم واحدهما الآخر ويلتحمان لبطن وبطناً لظهر. وسرعان ما عادا عزف معزوفتهما الليلية لتنطلق أنغاماً أحلى الصباح وموسيقى أبدع. "الله!! ما أروعك يا وطناً تسكن إليه النفس فتمّحي آلام وأشباح الوحشة!!".
نهضت لورا بوجه مشع كالنار وجسد متوهج كرغيف خارج لتوه من فرن، كرشاقة الغزلان. اغتسلت.. سرحت شعرها.. ثم جاءت بالقهوة.
-ها.. أنت تقومين بدور الزوجة!!
-لم أجد من يقوم بدور الزوج؟ ردت ضاحكة، مداعبة عنقه، معبرة بعينيها عن كل امتنان.
في الليل كانت هي نفسها قد داهمتها الوحشة. لم تكن قد أعدت نفسها للبقاء في المنزل، لكن لبنى فاجأتها. ورقة صغيرة أخبرتها أنها ربما تتأخر، ولم يكن باستطاعة لورا أن تبحث عن رفيق. بحثت عن سلوى، فجاءت بالمنمنمة، تعمل بها تعديلاً تحسيناً هناك، لكن ظل الشعور بالوحدة يفترسها. ظل شبح الوحدة يطاردها،

سرها وقع الخطا وهو يصعد الدرج. ثم كم كانت مفاجأة سارة حين اكتشفت شيء فوق الأحلام.. فارس أحلام يأتي هكذا دون أن يخطر حتى بالأحلام؟
-تتزوجينني؟ سألها وقد رشف أول رشفة قهوة.
-ماذا؟ ردت باستغراب وقد فاجأها السؤال.
-اسمعي، لورا، صحيح، نحن كنا مجرد أصدقاء. لم نفكر إلا مرات قليلة بممارسة معاً، لكنني الآن أعلم أننا أكثر ما نكون انسجاماً وتفاهماً، فلماذا لا نتزوج؟
-باقر!! أنت تعلم رأيي بالزواج!!
-أعلم. الزواج أسوأ مؤسسة صنعها الإنسان. الزواج مرساة سفينة. الزواج قيود وأصفاد تلغى بها كل حرية. أليس كذلك؟
-وأكثر. هل تريدني أن أكمل؟
-أعرفها.. أعرفها.. كلها. بل هو رأيي نفسه. لكن للزواج أيضاً حسنات لورا.. فلماذا نرى إلا السيئات؟
-اسمع. المثل يقول ثلاثة لا يؤخذ برأيهم. لكنها توقفت فجأة متفحصة إياه.
-هه!! أكملي. حثها باقر: من هم الثلاثة الذين لا يؤخذ برأيهم؟
-الجائع والحاقن ومن ضاقت عليه خفه.
-الجائع والحاقن فهمناهما، عقب باقر، لكن من ضاقت عليه خفه!!؟ ورسم إشارات تعجب واستغراب.
-لا.. لا تستغرب. من ضاقت عليه خفه يصبح عقله في خفه، وفي خفه وحسب.
-لكن ما أنت بمن ضاقت عليك خفك؟ سأل باقر وهو ينظر إلى رجليها الفخذين حتى القدمين.
-لا.. أنا الجائعة. وشرعت تفرك بطنها فوق السرة.
-خسئ الجوع، صاح بنخوة المعتصم ومروءته. لحظة واحدة وأعد الإفطار.
-بل نعده معاً. ردت وهي ترشف الثمالة من فنجان قهوتها ثم يسرعان معاً متخاصرين متراقصين إلى مطبخ يعج بالفوضى ورائحة العفن.
على طاولة نصف صغيرة وضعا بعض صحاف من الزيتون، الجبن، المكدوس ومقلاة قلي فيها باقر البيض. بنهم شرعا يأكلان. لم تكن لورا وحدها الجائعة بل هو أيضاً كان الجنس يستهلك طاقة كبيرة، وهو يعلم ذلك. كل مرة يمارس فيها الجنس يشعر تسكن معدته، تتناهشها. كيف؟ لماذا؟ أتراها الحاجة لمصدر طاقة جديدة تعوض فقده.
-ها!! ها هو ذا طلبك يتحقق!! قالت لورا مبتسمة غارزة عينيها في عينيه، فنبدو زوج وزوجة.
-نبدو!! لكن لسنا حقيقة كذلك! فلماذا لا نتزوج فعلاً؟
-أنا أتزوج؟ ردت ضاحكة متمايلة برأسها ذات اليمين وذات الشمال.
-لم لا؟ ألا أعجبك؟ جنسياً، ألا أرضيك؟
-بلى.. بلى.. ردت لورا وهي تملأ فمها بلقمة كبيرة من البيض ثم تشغل نفسها ربما مستعيدة في ذهنها المرات القليلة التي التقت فيها مع باقر في الفراش. أنت ترضي المرأة، تابعت وقد مضغت لقمتها نصف مضغة. على صعيد الفراش، أنت لكن ليست هذه هي المسألة؟
-ما هي إذن؟
-مسألة الحرية، قالت وهي تطلق تنهيدة طويلة. تعلم باقر؟ يخيل إلى أن على المرأة أن تخوض معركة حريتها بشراسة أكبر، بضراوة أشد وإلا ظلت رهينة العبودية.
-عبودية.. ماذا؟ لورا.. رد باقر بانكماش وهو يتذكر قصتها مع رفيقها المسؤول الرابطة.
-لا.. لا تنكر. أنت نفسك اعترفت لي بذلك ذات مرة. آلاف السنين والرجل يرسخ عبودية المرأة.. دونيتها بالنسبة إليه. يضع في عنقها القيود أطواقاً وعقوداً، في معصميها الأساور أصفاداً، في أناملها الخواتم، في آذانها الحلق، في ساقيها الخلاليل، لا لكي يوثقها جيداً بقيوده فلا تستطيع حراكاً إلا بإذنه، تعيش من خلاله، تتنفس، تشرب، تفكر، وكله به ومنه وبأمره. فيكف تكون لها شخصيتها الخاصة؟ باستقلالها؟ كيف يكون لها وجود أصلاً؟

-وأنت تريدين الوجود والاستقلال؟
-أنا أريد أن تكون المرأة صنو الرجل... نصفه الحقيقي الآخر الذي ينعم بالحرية بها هو، بالاستقلال، بالقدرة على تحقيق الذات. لا مجرد تابعة خاضعة له.. أمة بين يديه.
-وهل تحسبينني أريدك تابعة أو أمة؟
-لست أنت المشكلة باقر. المشكلة هي في النظام الاجتماعي، ذاك القائم على مفاهيم، عادات، أعراف... معظمها خاطئة، صنعها الرجل لكي يمرغ المرأة بالوحل. يسحقها سحقاً فلا تستطيع أن تكون إلا عبدة.
-ربما هي القاعدة، لكن نحن الاستثناء. أؤكد لك أنني أنا الاستثناء، وأنا أضمن لك حريتك، فلماذا لا نعمل معاً من أجل حرية المرأة، خلاصها من عبودية الرجل؟
-والالتزام؟ الاستقرار؟ الأولاد؟
-بصراحة، هذه لا بد منها.
-وأنا ضدها كلها.
-لكن الزواج التزام.. استقرار.. أولاد.
-لهذا لا أتزوج، هتفت بنوع من النصر. باقر! صدقني، أنا لا أكره شيئاً كرهي لأن رهينة أحد، أسيرة رجل طوال حياتي. ما هذا؟ مجرد تصور ذلك يصيبني بالقشعريرة. لا. باقر. أنا اشعر أنني طائر حر عليه أن يتنقل.. يجوب السموات.. يجرب.. يغير.. يبدل. التجربة تغني حياته.. التنقل يوفر له شروطاً أفضل.. يجعله كثير الخيارات.. يحقق كما يشاء.. يعيش حريته كأفضل ما يشاء.
-هذا صحيح، لكنه يفقده الانتماء.. الارتباط..
-هذا العصر عصر اللاانتماء. الناس كلهم يكرهون الارتباط.. القيود، خاصة إن كانوا مثلي، ينتمون للفن وللإبداع والفن والإبداع هما الحرية. بغير الحرية لا يساويان شيئاً، صدقني.
-أنا أصدقك، لكن أنت صدقيني، أنك تبخسينني حقي.. تشكين في إيماني بتحرر المرأة.
-لا، أنا لا أشك بك، ولا بإيمانك. أعلم أنك ناضلت وما زلت تناضل التقدم.. ليس للمرأة فقط، بل للمجتمع كله.. للبشرية كلها. لكن صدقني.. الزواج ليس مشروعي. مشروعي شيء آخر.. وتوقفت فجأة غارزة عينيها في عينيه، بعدئذ استأنفت: أنا راحلة إلى اسكندنافيا!!
-ماذا؟
-أجل. إلى النرويج. في مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم سأكون.
وشرعت ترفرف بذراعيها وكأنهما جناحان تطير بهما في السماء.
فجأة شعر باقر بغصة. اللقمة وقفت في منتصف الطريق من بلعومه. وبعيني راح يحدجها وكأنما وجهت له طعنة في الظهر. باقر يعلم أن لورا فتاة شديدة المطامح.. كثيرة المشاريع، متعددة المواهب. هي سياسية، صحافية، رسامة... لكن مذ تخرجت من الجامعة مهندسة ديكور وهي تحلم أن تضرب ضربتها. هي تزخرف البيوت، المنمنمات، ترسم اللوحات. لكن لا تنسى أبداً كيف قتل أبوها وأخوها. كيف شردت مدينتها، تشعر دائماً أن دمشق.. بلادها كلها.. بل الوطن العربي كله لا يسعها. هي آفاقاً أرحب، عالماً أجمل. وفي ذهنها دائماً أن تبحث عن تلك الآفاق، عن ذلك قبل عامين شاركت في معرض للمنمنمات في بلجيكا، قبل أشهر زارت إيطاليا. كانت تطمح لأن تشارك بلوحاتها في معرض ولكنهم لم يحققوا لها طموحها، فشاركت حضوراً.
لم يفتّ ذلك في عضدها، بل ازدادت إصراراً، وظل العالم الأجمل هو مبتغاها. هي القبح وعالمها قبيح. حيثما تنظر تجد القبح، الفوضى، التخلف، الجهالة، الأعراف، التقاليد، وكلها أطر للقبح لا تتعدى في ذهنها أن تكون مدعاة نفور واشمئزاز.

-أنا لا أصدق، قال أخيراً وقد فزع بآماله، كعادة كل الناس، الكذب لم تجب لورا، بل مطت جذعها كله مادة يدها إلى القريبة، أخرجت منها بطاقة طائرة ثم مدتها إليه.

حتى إذا لم يدع لي صدقه أملاً
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

الخبر صحيح. تفحص باقر البطاقة جيداً ثم أعادها إليها، ودون أن ينبس بحرف. وضع يده في جيب بنطاله ثم خرج مطأطئ الرأس حاني الظهر كأنما هو القدرة على السير.
في المنزل استقبله الدكتور زياد وقد لبس أفضل ما لديه من ثياب:
-هه!! قل لي. هل أبدو "شيكاً"؟ بادره وهو ينظر إلى نفسه في المرآة القريبة من الباب.
على مهل، تفحصه باقر. بشرود ذهن بعيد تأمله، ولم يملك إلا أن يعجب "الذوق وأنت بلا موهبة، فكيف يكون لديك ذوق؟". كان الطبيب يلبس الطقم القميص البني، ربطة العنق الحمراء مع الجوارب الزيتية، لكن ما عساه يقول باقر؟
-شيك.. جداً.. جداً. قال أخيراً وقد أعاد الطبيب سؤاله. لكن.. خير؟ لماذا كل "الشياكة"؟
-أنا مدعو للغداء... عندهم. رد زياد وهو يشير برأسه إلى جهة معينة، ضحوك باسم الثغر. تلك الجهة المعينة يعرفها باقر. مذ سكن لديه بات يعرف جهاته تلك. هو شهرين أو ثلاثة يبدلها، فتكون الجهة شرقاً ثم تصبح شمالاً، غرباً فجنوباً. لعلها تتغير بتغير اتجاه الريح.. تغير اتجاه المصلحة. أول مرة كان الطبيب قد أفضى له بسره. "كل أريده هو أن أتزوج وأستقر". "تزوج واستقر من يردك؟" "لا أحد، لكن مثلي فتاة.. أية زيجة" "بيدك حق"، قال له باقر حينذاك، وهو يتلقى أول إشارات غرور الرجل، "أنت ترى. كل فتيات الأرض يمكن أن يحلمن بي. أنا شاب كامل الأوصاف، السجايا.. أخته تعشقه.. فلماذا أبخس نفسي حقها؟" "أنت محق. على المرء ألا الناس حقهم فكيف بنفسه؟" "لهذا أريد فتاة كاملة الأوصاف مكتملة السجايا، مثلي" "ماذا تعني؟ كاملة مكتملة؟" سأله باقر، وهو يرغب في أن يفهم جاره أكثر أعماقه أكثر. "أقصد: الجمال، المال، السلطة، الحسب والنسب". يعني.. تطبق الحديث الشريف؟" "أجل. أنا مؤمن أسير على هدي القرآن وأطبق سنن الحديث الشريف: تنكح المرأة لأربع.." ولم يكمل المؤمن الحديث الشريف. جاره يعرفه. كما يعرف أن التي أراد نكاحها من قبل هي ابنة مدير عام تتوفر فيها الشروط الأربعة جميعاً: جمال، مال، حسب ونسب، ثم سلطة أبيها واسع النفوذ كثير الأسفار لا يحط في بلد إلى بلد آخر. يعقد الصفقات ويغرف الأموال ليضعها هناك في البنوك لكن حسابات القرايا لم تنطبق على حسابات السرايا. فالطبيب وأمه، جيرانه وأصدقاؤه كلهم موافقين على خطبته لابنة المدير. لم يبق أمامه، شأنه شأن جحا، إلا أن توافق هي وأمها وأبوها. حاول على مدى أشهر ثلاثة، تقرب، تودد.. لكن عاد باقر ذات ليلة إلى فإذا بجاره "يا كباه!! يا تعساه!!" لقد طرده المدير العام من المنزل طرد كلب أجرب.
ميزة الطبيب أنه لا ييئس. آماله دائماً تتجدد كالفطور على المزابل. فلم تمض حتى جاء لباقر بخبر سعيد. "وجدتها"، صاح بصوت ثاقب كصوت الفيلسوف الإغريقي القديم فرحاً يكاد يتواثب تواثباً "من هي؟؟" سأله باقر فأجاب: "ابنة مغترب عاد من البرازيل.. يملك أموال قارون وتملك هي جمال فاطمة المغربية". وطوال أيضاً ظل زياد الخنفساء التي لا تعرف اليأس. تطرد وتعود.. توضع في وجهها الحواجز فتتسلقها إلى أن أفاق ذات يوم، فإذا بالمغترب وابنته قد عادا إلى البرازيل دون أثر.
هذه المرة هي ابنة وزير. حكى له الطبيب القصة منذ البداية. "الوزير يحبني" "أبوها معجب بي" "صرنا صديقين". "لا يستطيع مفارقتي"، راح الطبيب يقول له بين والفينة "وهي؟" سأل باقر أكثر من مرة لكن كل مرة كان يتهرب "هي ليست المهم أبوها وأمها"، "لكن. هي التي ستتزوج". "صحيح. لكن الأم هي التي تدبر والأب هو الذي يوافق أو يرفض" وبدا لباقر أن الرجل واثق هذه المرة من نفسه، يأخذه معه إلى المكتب، يصحبه في جولة، يدعوه إلى عشاء في مطعم، ويأتي في كل مرة بأنبائه المفرحة "تقدم مطرد يتحقق" "خمسون خطوة إلى الأمام" الوزير يزداد إعجاباً بي يوماً بعد يوم". وها هو ذا ينبئه "دعوني اليوم إلى الغداء".
-حاول أن تعرف رأيها، أوصاه أخيراً بعد أن طمأنه على أناقته وجمال مظهره.
-بالتأكيد.. دعوتهم هذه لا تعني إلا ذلك، وعلى ذلك الأمل مضى الطبيب المعجب حتى درجة الغرور، المتسلق كعرائش الدوالي، الراغب في الصعود إلى الأعلى خازوق.

ستة أيام ظل باقر حبيس المنزل. لا يرغب في خروج أو دخول. شعور الاكتئاب يتملكه ولا يدري سببه. في اليوم السابع نهض: حلق ذقنه، لبس أحلى ملابسه يودع هريرة. "إذن، هو ذا سبب اكتئابك؟" راح يخاطب نفسه وهو يسير إلى تريد الاعتراف.. لكن ها هو ذا يظهر من تلقاء نفسه" ووجد باقر لورا وقد تهيأت للسفر يحيط بها عدد من الأصحاب، جاءوا كلهم يودعونها: عدنان، منذر، خليل واثنان لم التقى بهما من قبل. لبنى أيضاً كان لها أصحاب، وكان ثمة صاحبات. خرجوا معاً بقافلة من السيارات تخرج بلورا. لورا تعرف جيداً كيف تنتقي أصدقائها. هي بالانتقاء "الطبيعة كلها تقوم على الانتقاء: انتقاء الأفضل، انتقاء الأجمل، انتقاء ومضى الركب إلى المطار. أكثر من مرة راح باقر يقلب ناظريه برهط الأصدقاء أولئك.
هو يعلم أنهم كلهم ضاجعوها، وهم غيض من فيض "إذن!! كيف أعرض عليها وأطرق برأسه أرضاً "صحيح، يمكن أن يكون المرء متحرراً لكن أن تكون له قرون؟ لا.. مثل هذه العلاقات تحد يومي للزوج، شوكة في الخاصرة، مخرز في العين، نظرت، كلما تحركت وخزتك الشوكة، فقأ عينك المخرز. ولأول مرة مذ رفضت الزواج شعر باقر بالراحة وتنفس الصعداء "الحمد لله أنها لم تقبل بي زوجاً". لورا تكن تخدعه.. سلوكها واضح صريح فكيف غاب عن ذهنه ذلك السلوك؟ العاطفة؟ عشرات المرات رآها تخرج مع هذا الصديق أو ذاك. بل كثيراً ما كانت له "بودي أن أجرب الرجال كلهم فأحيط بكل معرفة". لكنه قلما كان يأخذ كلامها محمل الجد. "وهل باستطاعة امرأة أن تجرب الرجال كلهم؟" هو على يقين أن تكره أحادية العلاقة، ترغب في تعددية التجربة، تنويع الخبرات. لكن أن يسمع ذلك وأن يراه شيء آخر.. رؤيته لأصحابها مجتمعين ولكل منهم دالته وبصمته جعلته يحمد ربه "أجل.. ما كان بإمكانك أن تتحمل ذلك زوجاً".
في ردهة المطار، خطر بباله أن يعطيها عناوين أصدقائه، هناك في اسكندنافيا، الهجرة كانت قد استنزفت الكثير: سعدون، شاكر، كريم، رباح.. كلهم كانوا قد رحلوا إلى هناك. كلهم كانوا يكتبون له.. يغرونه بالمجيء.. بل في أكثر من رسالة وجد شيكاً هذا أو حوالة من ذاك وكلها بالدولار. "تعال، تتخلص من فقرك، عذاباتك" كانوا له. لكنه لم يكن يلبي الدعوة. كان يفرح بالشيكات التي كانوا يرسلونها له لكنه الدعوات، فهل يرسل لهم صديقته؟ هل يجعلها هي تلبي الدعوة؟ "لا.. لا.." هز أخيراً "لا أحتمل ذلك" ونفض رأسه وهو لا يستطيع أن يتصور كيف يمكنه أن صديقه يلغ فيها. "ليلغ فيها الرجال كلهم، لكن أصدقائي لا" وأحس بنفسه يتعجب حدود الدهشة "أأحبها إلى هذه الدرجة؟ أأغار عليها إلى هذا الحد؟" لكنه لم الإجابة، فقد ارتفع صوت مكبر يهيب بركاب الطائرة المغادرة إلى استوكهولم إلى البوابة رقم /12/.
-رافقتك السلامة لورا، قال بانكسار، وهو يأخذها بين أحضانه مثلما فعل الآخرون جميعاً.
-أنت حزين!؟ يجب أن تفرح لي.
-أنا لا أفرح لغربة.. لا أفرح لشتات.
-تدري باقر؟. أنا أشعر بالغربة، وأنا هنا في وطني.
-كلام!! هذا كلام!! وحدها الغربة خارج الوطن، وحده الشتات هناك!!!.
ومضت لورا، وصوت المضيفة يملأ القاعة الشاسعة الواسعة نداءات وأصداء، باقر بيد متعبة وعين مغرورقة بالدموع، يلوح لفتاة بدت له ذات يوم قادرة أن تكون له الوطن، أن تخلصه من الغربة والشتات. لم يستطع باقر العودة إلى المنزل. كان الوحشة.. يخشى أن يعود إليه الاكتئاب. فمضى إلى المقهى. مقهى "الهافانا" ملآن دائماً: شتات العالم العربي يجتمع فيه كما يجتمع في مقاهي الحمراء في الفلسطيني، العراقي، اليمني، السعودي، الجزائري.. كلهم يؤمون الهافانا.
-مرحباً يا صديقي، بادره بلقاسم وهو يجلس وحيداً إلى طاولة قرب الباب.
-مرحباً.. كيف أنت؟ رد باقر فرحاً ببلقاسم، فرحاً بلهجته الجزائرية اللذيذة.. بقصصه التي يجد فيها دائماً الأنس..
-لا بأس.. لا بأس، قال بلقاسم دون أن يبدو عليه اللابأس ذاك. مبدأه: "لا تأخذ الدنيا على محمل الجد" وكان ذلك المبدأ قد أراحه كثيراً ذات يوم. لكن في تلك اللحظة

تخلى عن ذلك المبدأ. على وجهه كانت مسحة من حزن وآثار من هموم، هو الذي لم يكن يكره كالحزن والهموم. في صحيفته، هناك في العاصمة، كان يتابع الأخبار المفرحة دائماً: أخبار المجتمع المخملي، أفراحه، أعراسه، ندواته، أمسياته الشعرية، وكان أن يظهر في أي مكان حتى تفتح له أبواب ذلك المكان. الرئيس الشاذلي نفسه يحبه. فلا تقام مأدبة في القصر إلا ويدعى إليها بلقاسم. لا يجري احتفال.. مناسبة، وبلقاسم ضيف في ذلك الاحتفال أو المناسبة. بلقاسم يعيش بالراحة.. عمله بالراحة، زواجه بالراحة علاقاته بالراحة. وكان لا يفتأ يردد: "Take it easy, Take it easy". لكن ما إن جاءت الانتخابات واكتسح الأصوليون الأحزاب الأخرى، حتى وكأن كل شيء ينقلب رأساً على عقب. سبعون المقاعد لهم. أين إذن جبهة التحرير؟ أين الأحزاب العلمانية؟ أين حركة التقدم والديمقراطية؟ الأصوليون واضحون. يريدون العودة بالبلاد إلى حيث عادت إيران والسودان، باكستان وأفغانستان.. شريعة إسلامية كما كان يطبقها عمر وعثمان: أيد تقطع وظهور تجلد ونساء ترجم، وأحست النخبة الحاكمة بلهب النار يصل ثيابها فانتفضت. النار تحرق، وهم لا يحبون أن تحرقهم النار. لكن ما عساهم يفعلون؟ هم أنفسهم من نادى بالديمقراطية، بالانتخابات الحرة النزيهة، وها هي الديمقراطية تشعل في النار. لم يكن أحد منهم قد ظن أن الناس برمت بهم، سئمت فسادهم، سرقتهم لأموال الشعب، نهبهم حتى تراب الوطن، فمضت تبحث عن بديل تحسب أنه لا يسرق، بديل تزعم أنه سيمنع عنها أهوال الفساد. وكان البديل مشايخ ذوي لحى، يتمسكون بأهداب الدين. أليس الدين هو الأخلاق؟ أليس الأخلاق مكافحة الفساد؟ نشر الصلاح وضرب الطلاح؟ إذن، ينتخبون من يصومون ويصلون، يحجون ويزكون؟ الخطر أحست النخبة بذلك: قادة البلاد، قادة الجيش، قادة الأحزاب الأخرى.. الأصوليون سيمسحونهم عن وجه الأرض.. سيهدمون كل ما بنوه. صحيح، هم سرقوا، نهبوا، أفسدوا، لكنهم في نفسه بنوا. أدلة كثيرة تشهد على ذلك: مدارس، جسور، مستشفيات، جامعات، مراكز ثقافية، صحف، مجلات.. كل شيء يدفع بالمجتمع قدماً كانوا قد بدؤوه. صحيح، أنهم لم يكملوه.. شغلتهم مصالحهم الخاصة عن المصالح العامة، لكن الصحيح أيضاً، أنهم كانوا قد وضعوا قواعد وأسساً إن جاء من يطورها تقدمت البلاد وإن جاء من ينسفها تراجعت. هم على مفترق الديمقراطية التي أرادوها هي تلك التي تساعد على التقدم لا تدفع في طريق الرجعة.. فماذا يفعلون؟

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج

طريقان شتى: مستقيم وأعوج

المستقيم هو أن يتابعوا الانتخابات ثم يسلموا البلاد لرجال ذوي لحى طويلة عريضة وآفاق محدودة ضيقة، والأعوج هو أن يوقفوها. بهذه الحجة، بتلك يوقفونها فلا الديمقراطية أناس لا يؤمنون بالديمقراطية. "لا لمن لا يؤمن بالديمقراطية". بدأت

"مانشيتات" الصحف تخرج في الجزائر، وهران، عنابة، قسطنطينة.. وكان ما يـزال بدء المرحلة الأخـيرة من الانتخابـات خمسة أيـام. "الديمقراطية للـديمقراطيين فقـط." وكان الأصوليون الفرحون بنتائجهم الأولى قد أفلتوا العنان لتصريحات لاهبة في الصحف، وخطب حماسية في الجوامع تندد بـالنظم المسـتوردة من الغـرب... تنـادي بـالعودة عصر الأسلاف وشريعة الأسلاف "فكل ما عـداها كفـر.. وكل ما هو خارجها باطـل." إذن الديمقراطية باطـــل؟" ســـأل صـــحفي أحد رجـــالهم بلحيته الطويلة المحدودة الضيقة، فقال: "بالطبع. الديمقراطية، الحرية، الصحافة، علوم الغرب، أزياء الغرب، مشروبات الغرب، كل ما جاءنا من الغرب هو باطــل". وأدركت النخبة يقرع الباب "إن جاءوا سينسفون كل شيء: الدستور، القوانين، النظم، سيعودون مئات السنين إلى الوراء" ومضت كل من نسائهم تولول "كيف سنلبس الحجـاب؟ من العمـــل؟ التعليم؟ بل حـــتى الخـــروج إلى النـــور؟" وللتو انطلقت احتجاجات، صـدر إثرها أخطر قـرار عرفته الجزائر منذ أن قـررت فرنسا الرحيـل: إلغـاء الانتخابات.

بلقاسم فرح لإلغاء الانتخابات، هلل له وصفق. لكنه لم يهلل ولم يصفق حين الآخـر: اغتيـالات ومـذابح.. صـغيرة متفرقة بـدأت: ضـابط أمن هنـا، شـرطي هنـاك، صـحفي هنـا، كـاتب هنـاك.. أشـباح لا يـدري أحد من أين تـأتي، بيـدها سـواطير، سكاكين لتمـارس فن الـذبح. هي تتقن فن الـذبح. تغـير على بيت فتـذبح كل من النعاج. هم يؤمنون بالعدالة والمساواة، والعدالة والمساواة أن لا يفرقوا، فيـذهب ذبحاً. من قلب الليل، من قلب الدغل، تخرج الأشباح مدججة بالسلاح، رؤوساً صدوراً بلا قلوب.. أفواهاً بلا ألسنة فتهجم على القرية. تخرج رجالها، نسـاءها، أطفالها تصفهم في الساحة.. تلقيهم أرضاً ثم تعمل فيهم خناجرها وسكاكينها ذبحاً وطعنـــاً لتســـيل دمـــاء لم تعـــرف الـــدنس، وتخـــرج أرواح لم تـــرتكب الإثم. بعدئذ الجماعة لتصلي لربها وتشكره، هو الذي مكنها من أعداء أشرين ضـلوا طـريقهم الكافرين.

بلقاسم تابع مسلسل المجازر، رأى الدماء وهي تسيل، سمع الأنـات وهي تنطلـق، الجرحى استغاثات الأطفال. بل رأى بأم عينه خنجـراً يقطر دمـاً وقد شـرخ عنق حمروش، وكان حمروش مجرد حارس مسكين لصـحيفة مسـكينة لا ناقة لهما شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة راحت الدائرة تتسع، الذبح يشتد، المجازر تكبر، حتى بدا وكـأن النـاقمين المنتقمين يريـدون أن يبنـوا أهرامـات مصر من جمـاجم القتلى المذبوحين. أصدقاؤه بدأوا يتساقطون: شمراي.. الميهـوب.. بن سـعدة.. كلهم سـقطوا على درب القلم. واحداً إثر الآخر كانوا يسـقطون. بالرصـاص، السـكاكين، القنابل يجندلون لتجري دماؤهم حمراء قانية لا تقف حتى البحر.

الأمن، الشـــرطة، الجيش، الأحـــزاب المنظمـــات، كلها انـــدفعت تقف في والسكين. لكن الخنجر والسكين لم يتوقفـا. كانا يتسـللان إلى كل قريـة، كل شـارع، ساحة، وكانا ينغرزان عميقاً في اللحم، يحـزان عميقـاً في الرقـاب، يقطعـان عميقـاً الأوصال، ولا يتركان في إثرهما إلا الجثث والدماء. حاجز مفـاجئ ينتصب وسط الطريـق. أشـباح الليل خلفه ينتظـرون. تمر حافلة ملأى بأهل القريـة: هـذا يحمل إوزة، ثالث سطل لبن، رابع سلة بيض، لكن الحاجز ينتصب وسط الطريق، ويقف السائق. يحسـبهم رجـال أمن. يقف لتظهر الأشـباح. يـنزلون السـائق، الفلاحين، الفلاحـات، يبدؤون الذبح.. الذبح.. وتجري دماء حمراء قانية لا تقف حتى البحر.

مع الحواجز، الغارات، الهجمات، راح ينداح شيء آخر، اسمه الرعب. وحش لا وجه قامة، لا شكل، لكن لونه أسود، طعمه حنظل، رائحته كريهة. عن بعد يشم الناس رائحته. عن بعد يذوقون مرارته. يخفيهم لونه الأسود الكالح كقروح جذام.. فيهربون. من يستطع يهرب، لكن من تراه يستطيع؟

بلقاسم هرب. أصدقاؤه كانوا يسقطون، والدائرة تدور حوله.

كتاب، صحفيون، فنانون، مبدعون.. كلهم يصرعون. "ماذا؟ لكأن الأدمغة المبدعة وحدها هدفهم، العقول النـيرة وحـدها مبتغـاهم. هي ثمـار يانعة يريـدون قطافهـا، فلمـاذا يقطفونني؟" وركب بلقاسم الطائرة. قبل قرن ونصف كان ثمة أمير أعلن الحرب على

الاستعمار وقاتل، لكن برهن الاستعمار أنه يملك عدة وعتاداً أقوى، وحوصر الأمير، خيِّر: "أي منفى تختار؟" واختار الأمير دمشق.
بلقاسم، كالأمير، اختار دمشق. فقط لو كان مطمئناً، لو كان مستريحاً، إذن لذاب عشقاً كما ذاب الأمير. لكنه دائماً في بلبال. عقله دائماً هناك.. عيناه على مجازرها.. أذناه لأخبارها.. والجزائر فريسة بين جزارين.
بالأمس كان بلقاسم يشهد أخبار التلفاز، وكان يتصدرها خبر مجزرة. سبعون ذبيحاً قرية "بونجيلة". ورأى بلقاسم بأم عينه الجثث ملقاة على الأرض، الوجوه معفرة بالتراب، الدماء تلطخ الجدران، الأرصفة، الطرق حتى خيل إليه أنها تلطخ العالم كله، العالم نائم، عين العالم مغمضة، فم العالم مطبق.. أمريكا، فرنسا، بريطانيا، الغرب يحتضن قيادات الجزارين. هو يعلم ذلك، يعلم أنه يقدم لهم المأوى، المال، السلاح، يقدم لهم قواعد التدريب حيث يتعلمون فنون الذبح، يتدربون على أساليب القتل، يتقنون تلك الفنون والأساليب يرسلهم إلى وهران، عنابة، سهول الجزائر، جبال ليقتلوا ويذبحوا. الغرب يغض الطرف، يزعم أنه لا يرى شيئاً، لا يسمع شيئاً. بلقاسم ويسمع ولا يملك إلا أن يحزن. يسهر الليل ويحزن، فقد غدا العالم كله وليس الحزن.
-ما بك؟ سأله باقر وهو يعلم سبب حزنه.
-ما الذي ليس بي؟ أنت ما سمعت بمجزرة بونجيلة؟
-لا، أجاب باقر، وقد شغلته شجون وشؤون منعته حتى من رؤية التلفاز.
روى له بلقاسم أخبار المجزرة، وصف له ما رأى بأم عينه على الشاشة ثم يصرخ من فم سكين:
-يا رب السما!! إلى متى يذبح الأبرياء؟ يقتل العزل؟ الشيوخ؟ الأطفال؟
تلك الصرخة لم تنطلق من مقهى الهافانا وحسب، بل من كل قرية وبلدات العالم المتحضر ذاك الذي خرج منذ زمن طويل من ثياب البربرية، خلع منذ زمن طويل جلد الوحوش ليلبس البزة وربطة العنق ويقول إنه ترك الغاب وشريعة ليعيش في كنف المدنية وشرائع المدنية.
-أهي الجزائر فقط عزيزي بلقاسم؟ سأل باقر وهو يرى بأم عينه، سينمائي، صوراً شتى للمعاناة والعذاب: شرقي الوطن، غربيه، شماله، جنوبه، معاناة وعذاب.
-لكن الأفظع هناك في الجزائر، رد بلقاسم وقد ازداد وجهه اربداداً وحزناً. هناك الأخ يقتل أخاه.. الابن أباه.
-ربما، بلقاسم، ربما. لكن ثمة شعوب بكاملها تقتل: في ليبيا، السودان، فلسطين، العراق.. شعبنا يقتل بلقاسم.. يقتل.
-أجل، يقتل، أنا معك. لكن سامحني. جرح الجزائر موجع. أشعر به هنا سكيناً القلب تمزق.. تمزق.
وشرد باقر. وسكين في صميم قلبه تمزق.. تمزق. بعيداً راح خياله. والألم يعتصره. هناك طاف فوق الفرات. جنوباً جنوباً حتى البصرة، حيث العشار.. شط العرب.. البيوت الجميلة ذات الشناشيل.. ألم تحترق بمن فيها؟ ألم تسقط أصحابها؟ ألم تصبح مضغة لصواريخ تتفجر وقذائف تتطاير؟ بيتهم ذاك الذي دفع أبوه دم قلبه حتى اشتراه، ألم يتناثر حجارة وشظايا؟ ألم يحرق كاظم بناره؟ ألم يصبح رماداً؟ باقر لم ير بعينه، لكنه سمع. بعد سنين جاء من يخبره أخبار الأخ الذي التي تشردت لكي تعود من جديد وتموت. قنابل الأنكلو أمريكان ما زالت تجوس البصرة. تقتل هذا وذاك، تحرق البيوت، النخيل، الأشجار، الأزهار. "الفاجعة في كل مكان وطننا العربي!! الكارثة في كل مكان.. يا صديقي!!".
-ماذا باقر؟ أنت لا تسمعني؟ سأله بلقاسم وقد رأى صاحبه شارداً بعيداً.
-اعذرني. كنت أفكر: كل ما حولك يدمي القلب. فأين تنظر؟ على ماذا تحزن؟
-أجل، بيدك حق. في فلسطين نتنياهو يحاصر شعبنا، يقتل أطفالنا.. نساءنا. في أخوان مسلمون أيضاً يقتلون ويذبحون.
-وفي العراق، قاطعه باقر وهو يزفر زفرة حرى، كل يوم طائرات الأنكلو أمريكان تقصف وتدمر. الأطفال يموتون جوعاً ومرضاً.

-آه!! يا إلهي!! لماذا نحن هكذا مستضعفون ممزقون؟ مذلون مهانون؟ وبدت الهافانا، الصالحية، دمشق كلها تردد صيحة بلقاسم بكثير من الغيظ والاحتجاج.. العالم عن رفاه الإنسان، سعادة الإنسان، ازدهار الإنسان.. وحده الوطن العربي يتكلم أبسط حقوق الإنسان: حق الحياة، ولا يعطى ذلك الحق. اليهود في القلب خنجر أبداً، الأمريكان في الشرق والغرب، الانكليز في الجنوب، الفرنسيون في الشمال وكلهم يتربص بالوطن شراً، يريد سلب حرياته، نهب ثرواته، إبقاءه مطية أبد الدهر.
-نحن موتى وشر ما ابتدع الطغيان موتى على الدروب تسير.
ردد باقر ثم نهض معتذراً من بلقاسم. كان قد شرب القهوة لكنه لم يجد السلوان جاء يبحث عنه. شتات المقهى لا يحمل معه إلا الهم والغم.. وجوههم.. عيونهم.. جباههم كلها تقطر هماً وغماً، فلماذا يجلس باقر في المقهى؟ لماذا لا يعود إلى منزله أحزانه؟ لورا سافرت حاملة معها آخر شعاع من أمل في أن يجد الوطن والسكن.. فأين يجد الوطن والسكن؟ أين يجد السلوان؟
-الله بالخير باقر!! بادره اثنان وقد صار على الرصيف.
-الله بالخير جواد! الله بالخير عمر! حياهما، صديقين من عراقه المقطع المجزأ اقتلعاه من شروده.
-أسمعت الأخبار؟
وخيل إليه أنه سيحدثه عن مجزرة "بونجيلة" فقطب جبينه.
-سمعت أخبار الجزائر المروعة.
-لا.. لا.. خبر عن العراق، يمكن أن يكون مفرحاً، قاطعه جواد هاشاً باشاً، هو الذي يشاركه الموقف والرأي في تياره الوطني الديمقراطي.
-مفرح؟ شاكو؟ ماكو؟ شنهو الخبر جواد؟ سأل بلهجة عراقية مفاجئة دفعت بجواد يقترب من أذنه هامساً.
-حسين كامل عاد إلى العراق.
-تقول الحق؟ صاح بلهجته العراقية ذاتها وكأنما هو في أزقة البصرة.
-الحق والصدق.
-يعني.. تصالحوا؟
-هيج يقولون؟ رد عمر باللهجة نفسها. تاري.. هناك مفاوضات سرية.. اتصالات. صدام ما يقدر يتخلى عن حسين كامل وحسين كامل ما يقدر يتخلى عن صدام.
-أحسن، أحسن ما يصير الرجل عميل أمريكا.
-هاه!! ما قلت لك؟ خبر مفرح.
-إي، أنا أفرح بهذا الخبر.. أفرح به.
ومضى باقر في طريقه وقد انفرجت أساريره. أخيراً ثمة شعاع من أمل يخترق تلك الظلمة. ليس من أجل صدام ولا من أجل حسين كامل، بل من أجل رئبال. كانت أخبار رئبال قد وصلته. أثناء زيارته لعمان حاول رؤية حسين كامل، لكنه لم يفلح ظل وهو يحاول لكنه كان يرتد خائباً كل مرة. آخر مرة، التقى بعراقي مثله رؤية حسين كامل، وكان قد جاء لتوه من بغداد، هارباً هو الآخر. "آه ما أكثر الهاربين!! كلهم يريدون النجاة بجلودهم!! وحوش تطاردهم وهم عزل. لحم قبالة أنياب.. جلد مقابل مخالب. فكيف لا يهربون طلباً للنجاة"؟ ذلك الهارب حكى له كل شيء عن حسين كامل.. عن رئبال.. عن أخته "آه!! لك الله يا رقية!! كم عانيت وقاسيت وصلت إليك مخالب الوحوش تنهش وتمزق!!"، فكيف لا يفرح باقر إذا اصطلح وصدام؟ كيف لا يسر إذا عادت مياه رئبال إلى مجاريها؟
مياه رئبال عادت، لكن ليس إلى مجاريها، بل جرت مع دجلة منحدرة من العمارة حيث تشق المدينة شقين: غربياً وشرقياً. بيت رئبال في الغرب الوضاح في الشرق، لكن قرابة نسائية كانت تجمع بينهما وتجعل من محسن صديقين وتجعل رقية تلتقي برئبال وهو طالب جامعي يدرس الهندسة ويصبح فشيئاً فارس الأحلام.
فارس الأحلام خرج من السجن، رجلين من قصب ويدين من عيدان، فغدا هم تعيد الرجلين نخلتين واليدين هراوتين. كانت مصائب رقية كمصائب الناس جميعاً تأتي فرادى. هي تأتي مجتمعة، تتنادى ثم تنقض سرباً من الضباع. ليلة خروجه

ابنهما بالتيفوئيد، بعد ثلاثة أيام جاء أمر تسريحه من العمل ليبقى بلا عمل، حتى تعويضات. سعى محسن لإصلاح الوضع "معقول؟ تدعونه بلا معاش يعيش به هو وأطفاله؟" "احمد ربك أنهم لم يدعوه بلا يدين ولا رجلين" وكانوا على حق. محسن، رئبال، كلهم يعرفون أنهم على حق. المحظوظ منهم من يدخل معتقلاتهم ويخرج برأسه. رجال الأمن في بغداد لا يعرفون المزاح. عقوباتهم: الموت أو الموت. يدهم والمسدس، كل متهم مدان حتى تثبت براءته، ورئبال مدان. هو في قناعتهم مدان. مائة مرة المحقق بلسان كله حقد وأصابع كلها اتهام "بريء؟ كيف؟ ألست سكرتير إذن كيف لا تعرف كل شيء عن حياة حسين كامل؟ كيف تجري المياه من تحت رجليك وأنت غافل؟ أليس من واجبك أن تكشف خيانة الخونة؟ غدر الغادرين؟ أليس الوطن عليك أن تحميه من متآمر قذر كحسين كامل فتبلغ عن كل ما يشتبه يكن باستطاعة رئبال أن يرد على سيل الأسئلة تلك، فتنكتم أنفاسه ويبدو متلبساً بجرم لا شك فيه. محسن وحده هو الذي أنقذه من رصاص الإعدام. "الرصاص!!" كم رئبال وهو في السجن!! فجأة تنطلق زخة من رصاص في مكان ما، من قلب الظلمة والسكون، أو رصاصة مفردة ثم أخرى ثم ثالثة، ويرتعش كل ما في رئبال: لحمه.. عظمه.. جلده.. شعره.. كله يرتعش فقد كانت تقفز إلى ذهنه صورة بائس من السجن، والرصاص يجندله متخبطاً بدمه. كل مرة، كانت تمسك به البرداء فيرتجف في زنزانته ويرتعش مصطك الأسنان مصطك الركبتين وكل ما يتصوره أن الرصاص إليه، فوهة المسدس تقترب من صدغه لتصرعه هو الآخر أرضاً متخبطاً بدمه. "يا إلهي!! لماذا هم قساة هكذا، جلاوذة بغداد؟ كيف يخرجون من صدورهم القلوب ليغدوا قلوب؟ كيف يحولونهم إلى وحوش فاتكة لا ترضى إلا بالدم البشري"؟ لكن ما كان يرد على رئبال. جدران السجن مصمتة. خلفها الغموض، الخوف، الظلام، المجهول، وحسب رئبال أن يظل في زنزانته مفرداً موحشاً لا يفتح عليه الباب أحد ولا هو أعزل لا خنجر لديه ولا سيف فكيف يستطيع الدفاع عن نفسه؟ هو في غابة لا قانون فيها ولا نظام. نزوات الوحوش وحدها تحكمها، أمزجة الوحوش، شهية الوحوش.. أهي بحاجة لطعام؟ إذن يمكنها أن تمزقه. شكله لا يعجبها؟ إذن يمكنها أن تمزقه. وكانت الكوابيس تلاحقه، حتى في نومه كانت الوحوش تلاحقه وكلها تريد تمزيقه. لا طعام، شراب، لا نوم إلا مع الكوابيس فكيف لا يخرج رئبال، رجلين من قصب ويدين من عيدان؟ عشرين، ثلاثين يوماً ظلت رقية تسقيه حباً، تحقنه حناناً، تحشوه طعاماً، إلى الأوراق المصفرة تخضر، والنبتة الذابلة تنتعش رافعة رأسها للشمس والريح. "لنرحل من بغداد"، قالت رقية فوافق رئبال. لكن كان محسن ما يزال يسعى وكان ما أمل "لن أتركهم حتى يعيدوا لك راتبك ووظيفتك" "لا.. لا.. أرجوك.. لا أريد راتبهم وظيفتهم. دعني أبعد عن الشر وأغنِّ له" وذات صباح ركبت الأسرة التي فقدت بالتيفوئيد وابناً آخر بالحصبة، سفينة بائسة مخرت بهما دجلة إلى العمارة، وكل تبعد عن الشر وتغني له.

في العمارة ما تزال العائلة أكثر تماسكاً، هي جزء من العشيرة والعشيرة هي الأساس في المجتمع. أفرادها متكافلون متضامنون. إن قتل أحدهم قتيلاً دفع الكل ديته. إن قتل منهم قتيل عملوا كلهم للثأر له. هم كل واحد: في السراء.. الضراء.. الأفراح.. الأتراح.. فهل يتركون رئبالاً بلا سند أو دعم؟ المهندس الذي كان ذات يوم الهرم، هل يتخلون عنه وقد رأوه يسقط إلى الحضيض؟ هو بلا عمل، بلا راتب فهل يتركونه يجوع؟ النظام العشائري لا يسمح بذلك. هو يكفل الفرد حيث تتخلى الدولة الفرد. وفي العمارة سرعان ما تلقت العشيرة الأسرة العائدة كسيرة حسيرة، مقدمة لها الدفء، الحنان، الرعاية. "ارحموا عزيز قوم ذل" وبدأ رئبال يخرج شيئاً فشيئاً من حضيض الذل.. بدأ شيئاً فشيئاً يستعيد، عافيته، توازنه، كبرياءه.

في العمارة طبيعة أيضاً، والطبيعة أم رؤوم.. حضن دافئ يلقي الإنسان يستمد الدفء والحياة. رئبال يخرج كل صباح إلى الحقل الصغير، ذاك الذي والده على ضفة دجلة. لم يعد الرجل مهندساً أو صناعياً. لم يعد يفكر ببناء المتقدمة والمعامل المتطورة في العراق، بل صار همه كله أن يزرع بضعة الخضراوات... أن يعتني بنخلاته القلائل... أن يطعم دجاجاته السبع فتوفر له دجاجاته، نخلاته، خضراواته شيئاً من الاكتفاء الذاتي. بيت العائلة الواسع كان قد كفل له

رغيف الخبز كان يأتيه. حليب الغنم كان يصله. هو لا يسأل كيف أو من أين؟ بغداد كان يعلم أن العمارة شيء آخر غير بغداد مدينة كبيرة يضيع فيها الفرد والعائلة، العشيرة والقبيلة. هو غريب فيها ليس له سوى محسن. محسن شهم صاحب ونخوة، لكن إن كان صاحبك عسلاً فلا تلحسه كله. حرام!! محسن احتج، فاطمة ذرفت الدموع الغزار. "أنتم في عيوننا. اللقمة نقتسمها بيننا وبينكم" لكن رئبال لا يريد في بغداد. المنزل الذي رأى ضعفه وسقمه، دفن فيه ابنيه الاثنين، لم يعد يتصوره إلا بيت أشباح. بدل بغداد كلها، المدينة التي شهدت ذله، رأت بأساءه تحولت إلى بيت تطيب فيه الحياة.

العمارة ملاذ لكن، شأنها شأن بغداد، شأن البصرة، الموصل، تعاني الحصار، الجوي، العدوان الغاشم الدائم، فلا يمر يوم أو يومان إلا وتهدر في سمائها أشباح أو تدوي على أرضها انفجارات صواريخ وقنابل. الأنكلو أمريكان حريصون، جعلوا العراق عظماً بلا لحم، أن يجردوه حتى من الجلد. فإذا تحركت قافلة عسكرية ضربوها، وإذا رفع رادار رأسه قصفوه، وإذا شال مدفع بسبطانته حطموه. حقداً قدم نبوخذ نصر، كان الأنكلو أمريكان يحملون على العراق. أتراهم اليهود لا ينسون؟ لكن كيف ينسون ومقولتهم: "لتنسني يميني أن نسيتك يا أورشليم". إصرارهم الانتقام لا يكل ولا يمل. في تلمودهم، زبورهم، مزاميرهم، توراتهم غرسوا شتول الأحقاد فنمت مع الزمن وترعرعت حتى صارت غابات متشابكة يسكن جنباتها وأتباع اليهود جميعاً: ماسون، شهود يهوه، سبتيون، أنجليكان، بروتستانت.. والكل يريدون الانتقام من نبوخذنصر في نسل نبوخذنصر. يريدون الثأر من بابل في ما بقي من بابل وكل من يمت إلى بابل. بابل السبي واليهود لا ينسون السبي. لا ينسون وهي تساق إلى بابل، جذورهم، وهي تجتث من الخليل والسامرة فكيف لا ينتقمون وقد صارت بيدهم القوة؟ الأنكلو ساكسون.. الأمريكان.. الفرنساوي.. الطليان كلهم في خدمتهم. أليس بيدهم مصارف العالم؟ إعلام العالم؟ أقوى قوتين في العالم؟ ليسخروا العالم لخدمتهم. ليجعلوه المطية لتنفيذ مآربهم ونفذ العالم مآربهم، مع ذلك لم يقنع اليهود. قتل لهم العراق، لكنهم لم يقنعوا. "يرضى القتيل وليس يرضى القاتل" هم يريدون أن يسحقوه سحقاً، لكن العراق لا ينسحق، يضربونه بقنابل الليزر.. بالرؤوس المشعة، بقذائف اليورانيوم المنضب مع ذلك لا يموت. يحاصرونه.. يمنعون عنه الطعام والشراب، مع ذلك يظل حياً. يسممون نباته، يزرعون ترابه جراثيم، يبثون في الفيروسات والميكروبات، مع ذلك لا يموت. العراق كبير.. العراق واسع.. شعبه حي.. قاوم المغول.. التتار.. الغز.. الترك.. الفرس.. الانكليز.. قتل الكثير من أبنائه.. جرت دماؤهم أنهاراً.. جثثهم تراكمت تلالاً مع ذلك ظل حياً لا يموت، فهل يميته اليوم حظر؟

رئبال يرى الفقر من حوله، يرى الجوع، المرض، الطرق المسدودة في وجوه الآفاق المغلقة، البحار والأنهار المطوقة، مع ذلك يشعر أن العراق لن يموت. الناس يعانون.. يمدون أيديهم لبعضهم بعضاً.. يقتسمون حبة التمر.. كسرة الرغيف ويظلون على قيد الحياة.. نخيل العراق معطاء.. عراجينه تتدلى.. حقوله تعطي قمحاً.. أهواره تنمي أرزاً. وفي دجلة سمك.. في الفرات سمك.. في الأهوار سمك فكيف العراق؟

في الأهوار أهل لرئبال، مثلما في العمارة له أهل. ذات يوم خطر بباله أن يزورهم فذهب رئبال إلى الأهوار. جزيرتهم لا تبعد أكثر من سبعة أميال داخل الماء "والبلم" ينقله بهدوء لتغيبه أدغال القصب والبردي، تحته الماء وفوقه السماء. ذلك العالم من الماء يفتنه.. تلك الدنيا من البردي والقصب تبهره. هايك الجزر من العيدان والأخشاب المحبوكة تسحره.. كيف لا وهو يحس أنه انتقل بأمياله السبعة إلى جزر الواق واق؟ حيث لا ساكسون ولا أمريكان، لا حصار ولا عدوان. أقرباؤه في جزرهم لهم بكل ما يجري على البر. أهوارهم عالم مغلق. كأن بحر الظلمات يفصله عن بر العراق.. لا جسور تصلهم بذلك البر.. لا خطر يأتيهم من ذلك البر. "بأبلامهم" يجوبون الأهوار بشباكهم يصيدون أسماكاً وضفادع، بطاً وإوزاً وعلى جزرهم يستريحون القمراء، يسهرون ويرقصون، يغنون ويهزجون. وخيل لرئبال أنه قادر أن يعيش الأهوار طول العمر.. قادر، إن اشتد الحصار، أن يلجأ إليها، بل العراق كله قادر

إلى الأهوار. يعيش على سمكها وبطها، ضارباً عرض الحائط بكل ما يفعله لخنق العراق.
رقية لم توافقه. "ماذا؟ نحقق للاستعمار مخططاته؟ ننفذ بأيدينا أهدافه فنستسلم ونعود إلى الحياة البدائية، حياة السماء والماء.. أيام جلجامش وأنكيدو؟" "آه!! ليتنا نعود إلى أيام جلجامش وأنكيدو!! نذهب إلى غابات الأرز نبحث عن نبع الخلود!! فلا باستعمار ولا أنكلو أمريكان. ونخلص من الحصار والحظر" "بالعكس، علينا أن أن نهرب. أن ندك أسوار ذلك الحصار بأيدينا، أن نفتح فيه الثغرات لكي نخرج والهواء" "كيف وقد صرنا لا حول ولا طول؟" "العراق لا يعدم الحيلة. أنا أعلم، منفذ، الذكي الحاذق هو من يجد ذلك المنفذ" "يا إلهي!! أنت دائماً متفائلة، دائماً لديك أمل. ليت شعري من أين تأتين بذلك الأمل؟" "من الحياة. رئبال، الحياة نفسها يدك إليها فقط هي تعطيك الأمل. أتذكر؟ حين بدا لكل الناس أن العراق محالة.. ميت لا محالة.. انفرجت الأزمة وجاء الخلاص: النفط مقابل الغذاء" "صحيح!! لكنه غير كاف. هم يعطوننا بالقطارة. قوت اللايموت" "صحيح.. لكنهم يعطون. صار لدينا شيء، وشيء دائماً خير من لا شيء" "الضيق شديد يا رقية، الفقر مدقع. المرض مستفحل" "لكن الشعب يقاوم، الحكومة تكافح، الكل يعمل لكسر الطوق، لتوسيع الفرجة. أتعلم؟ فاطمة حدثتني أمس. بدأوا بإعمار البصرة" "حقاً!! إذن لن تظل البصرة خراباً؟" "لا.. الآن سيعمرونها. بيتنا هناك سيعمرونه وفاطمة ذاهبة إلى هناك تشرف على إعماره" "اذهبي أنت أيضاً" "حقاً؟ تريدني أن أذهب؟" "لم لا؟ ألست أختها؟ ألست شريكتها؟ اذهبي أذهب معك" وبدا الاقتراح مغرياً لرقية.
كانت أشهر طويلة قد فصلتها عن الأخت. لا فاطمة تجيء إلى العمارة ولا رقية إلى بغداد. لكن ها هي ذي البصرة تعود فتجمعهما. البيت الذي هدمته بوارج الأمريكان في حي الخندق كان يدعوهما لإعادة بنائه. "أنعيده كما كان أم تريدان وتغييرات؟" جاءهما السؤال وكانت قد اتفقتا. "بل يعود كما كان: غرفه، ممراته، ردهاته، قبوه" فيستعيدانه: مرتعاً للصبا وأثراً يحمل رائحة الوالدين.
وحدها الغرفة- الكوخ، تلك التي قضت فيها الأم آخر أيامها كانت ستزال.. قبحها سيشوه الفيلا ذات الشناشيل، بسطوحها الواسعة وشرفاتها الجميلة، حيث كانوا يقضون أمسيات الصيف على السطح ونهاراته في الداخل والعاقول على الشبابيك بالماء فيبترد الداخل وتخف حرارته. "الله!! كم كنت جميلة يا تلك الأيام!! ما ألذ برودتك يا أنسام العاقول!!" في اليوم التالي التحق بهم محسن.
-سمعت؟ همس في أذن رئبال وهو ما يزال يضمه في عناق حميم.
-ماذا؟ أعاد رئبال الهمسة، وهو يبتعد عنه، ناظراً في عينيه.
-"المعلم" عاد..
-غير معقول!! هتف رئبال غير مصدق، فأسرعت رقية وفاطمة تسألان ما المعقول ذاك، وفي كنف نخلة كانت ما تزال تشمخ برأسها متحدية صواريخ أمريكان وقذائفهم، روى لهم محسن القصة:
-مذ فر "المعلم" إلى عمان، علم أنه ارتكب خطأ فادحاً، فأنت حين تلقي بنفسك في تيار لا تستطيع أن تقف وسط التيار، بل عليك إما أن تمضي إلى النهاية أو عليه إما أن يكون أمريكياً أو عراقياً ولا توسط بينهما. كانوا يريدون أن يمضي إلى النهاية.. أن يقدم كل ما لديه من معلومات.. أن يفشي كل ما لديه من أسرار، كان باستطاعته ذلك؟ لا، حسين لا يستطيع. كان يظن أنه سيجد في عمان يمكنه الانطلاق منها لتصحيح أخطاء بغداد، لفك الطوق عن بغداد، لكن أمله خاب، يريدون أن يأخذوا منه لا أن يعطوه.. أنه يستغلوه لا أن يساعدوه. وأعاد الرجل القائد هنا أيضاً أعاد حساباته. بعد التهديد والوعيد لان قلبه، غير موقفه، كان صهراه وابنتاه، أحفاده، كلهم غصة في حلقه وشوكة في ظهره. وبدا على أتم الاستعداد يقدم كل تضحية لاستعادة الفارين. بل إن بعضهم قال: القائد اعترف بالخطأ.. همس في آذان بعض المقربين بأن حسين كامل أغلى من عينيه، وأنه لا يوفر استعادته. "خسارة، حسين!! خسارة، هذا العبقري الفذ!! أنا لا أنسى إنجازاته!! لا أنسى إسهاماته في بناء صناعة العراق، في تطوير العراق، فاذهبوا إليه. فاوضوه.. كل ما يملي

من شروط أقبل بها. المهم أن يعود" وذهب المفاوضون إلى عمان. تحت هذه بذلك القناع، كانوا يذهبون، يلتقون ويتفاوضون وها هو ذا حسين كامل قد عاد.
-إذن، عاد عزك يا رئبال!! هتفت رقية فرحة مستبشرة.
-لا تتفاءلي كثيراً!! رد رئبال وقد انكمش شيء في داخله لسبب لم يعرفه.
-ولماذا لا تتفاءل؟ سألت فاطمة وقد تملكها فرح طاغ، عودة حسين تعني عودة رقية إلى بغداد.. تعني لم الشمل، وماذا يفرح فاطمة أكثر من لم الشمل؟
كانت بغداد قد أصبحت خواء بعد رقية، فالأختان التوءمان روحاً كانتا تعرفان جيداً تذللان الصعاب معاً، تزرعان الابتسامات على الوجوه معاً، وتكافحان من أجل حياة معاً. لكن وحدها فاطمة، ماذا تفعل؟ وحدها رقية، ماذا تفعل؟ هما تعلمان أن يداً لا تصفق فكم هو رائع: تعود اليدان فتجتمعان!! نقاش في السيارة، نقاش في رقية وفاطمة تضغطان على رئبال للإسراع إلى بغداد، فيما رئبال خائف متوجس شراً:
-مالي وللعودة إلى بغداد؟ لا.. لا.. ما عدت أطيق بغداد. لكن المرأة لا تحب هي لا تستسلم بسهولة. يغريها شيء فتعمل المستحيل للوصول إليه.
-اذهب مع محسن فاستطلع الجو على الأقل، اقترحت فاطمة فثنى الاقتراح:
-صحيح، ماذا يضيرك أن تستطلع؟
-لا أدري. أنا غير مطمئن، محسن.
-السجن يرعبه، صرحت رقية أخيراً. هو حتى اليوم يفيق مذعوراً يصرخ وقد كابوس من كوابيس السجن.
-أجل أنا أعترف، صاح رئبال دون استحياء. السجن يرعبني.. الموت يرعبني.. أنا السجن والموت. أحب الحياة والحرية، فهل يعيبني أن أحب الحياة والحرية؟
-كلنا نحب الحياة والحرية، ردت فاطمة، لكن ليس أي حياة، بل الحياة الحرة التي ينبغي أن نسعى إليها دائماً.. أم تراك استمرأت الخمول والقعود؟
-أنا استمرأت الخمول والقعود؟ رد بشيء من عصبية. لا، لا، الحقيقة، أنا خائف.
-مم تخاف وحسين كامل عاد؟ معززاً مكرماً "معلمك" صهر القائد عاد، فلماذا إلى الرجل؟ لماذا لا تقتنص الفرصة فتعوض ما فات؟ كان ذلك سؤال رقية، وقد منها الحماسة كل مأخذ. رقية تريد العودة إلى بغداد.. العودة إلى العز. النساء العز. لا يرغبن إلا فيه بكل ما يعنيه العز من مال، جاه، سطوة. "آه منك حواء!! أبداً عينيك الذهب والماس" وطأطأ رئبال رأسه، وقد بدا أنه لا بد من أن يسبح مع التيار.
تيار دجلة يتجه نحو الجنوب، مع ذلك اتجه رئبال نحو الشمال وهم جميعاً على يسبحون مع التيار.. هم جميعاً على قناعة أن عودة حسين كامل ستنهي أزمة كبيرة كان رئبال قد وجد نفسه فيها. كلهم في العمارة، بغداد، البصرة، يريدون أن يعود فقر ولا عوز، ولا تقنين مواد ولا ركوب باصات ولا خوف من مخابرات. أنت إذن الكل يسلس لك القياد، يحني ظهره لتمتطي، فلماذا يعزف رئبال عن السلطة؟ لماذا لا يسعى للعودة إليها؟.
رقية في العمارة بانتظار أن يسبر رئبال الغور، فاطمة حلت محلها، وطوال ظلت تحثه، تحرك الكوامن الخامدة فيه، فلم يصل إلى بغداد إلا وهو يشتعل للعودة "صحيح، بيدها حق رقية. على المرء ألا يستسلم أبداً. بل عليه أن يسعى" وكان على وشك أن يسعى إلى حسين كامل لولا أن كبح محسن عجلاته "الصباح رباح يا رجل.. فانتظر حتى الصباح."
في الصباح فتح محسن المذياع فإذا بصوت المذيع يلعلع "ولقي الخائن المصير يستحق، مصير كل خائن." نبرة الصوت، طريقة الإعلان، فرح النبرة بالعديلين المستيقظين لتوهما من النوم لأن يشحذا آذانهما.
-من هو الخائن؟ سألتهما فاطمة وقد سمعت طرف الخبر.
-تفصيل النشرة، أجاب المذيع بنبرة فرحة، في الصباح أفاق السكان في حي الثورة على أفراد من عشيرة حسين كامل يهجمون على منزله صابين عليه غضبهم ورصاصهم منتقمين لشرف العشيرة وكرامتها، ثائرين من الغادر الخائن الذي سدد لهم طعنة الظهر، وقد سقط الخائن قتيلاً.
-يا إلهي!! ماذا أسمع؟ هتف رئبال مذعوراً.

-شيء لا يصدقه عقل، عقبت فاطمة وقد فتحت فمها على اتساعه.
-لكن يجب أن نصدقه، علق محسن، المذياع يذيع الخبر في نشرة أخبار رسمية.
--لكن كيف؟ لماذا؟ أليسوا هم من جاءوا به؟ أليسوا هم من فاوضوه؟ قال إلى الأعلى والأبعد حيث صورة صدام تفترش الحائط.
-وما ذنبهم هم، إن كانت عشيرته هي التي هاجمته؟ سألت فاطمة بقناعة من شك.
-عشيرته؟ منذ متى كانت العشائر تحمل السلاح وتهاجم الخونة؟ سأل رئبال.
-العراق ما يزال عشائر وقبائل. هذه حقيقة، حاججته فاطمة، وتلك العشائر والقبائل سلحها النظام لمواجهة الغزو الخارجي، أم نسيت؟
-هذا في الريف، في البادية، لكن في بغداد؟ وتوقف رئبال هازاً رأسه والأسفل، محركاً سبابته يميناً وشمالاً.
-ما التفسير إذن؟ سألت فاطمة وهي أكثر حيرة.
نظر رئبال إلى محسن وكأنما يطلب منه التفسير، لكن عبد المحسن التفت ويسرة، وكأنما يقول: الحيطان لها آذان، فلماذا أتكلم؟
-أنا أقول لك، رد رئبال وقد اقترب منها متطلعاً حوله بخوف، مشيراً بطرف الصورة المعلقة على الحائط، قائدنا يعرف كل شيء إلا المغفرة، شأنه شأن حقل الألغام لا يحتمل أي خطأ، بل كل من يخطئ يعاقب دون تسامح أو غفران.
-احمد ربك على كل حال، تدخل محسن. لو ذهبت الليلة والتقيت به لطالك محالة.
-أجل.. أحمد ربي. الحمد لك يا رب!! شرع رئبال يدعو فاتحاً يديه رافعاً السماء. فقد سرى خوف شديد في نفسه لم يستطع إخفاءه.. قلبي كان يدلني، تابع وهو في أشد حالات الخوف. إحساسي كان يحذرني. لم أكن أريد المجيء. أرأيتم؟ علي أبتعد.. علي أن أبتعد. ولم ينم رئبال تلك الليلة إلا وهو في العمارة، فيما كانت المحطات التلفزيونية في العالم كله تتناقل أخبار الانتصار الجديد لحاكم بغداد وقد طريدته إلى شرك محكم سرعان ما سقطت فيه.
-الغبي!! صاح كلينتون محمر الوجه مزرد الرقبة وهو يذرع مكتبه جيئة وذهاباً. يسلم نفسه بنفسه لجلاده؟
-قلنا له ذلك فلم يقتنع. ردت صاحبة الحفظ والصون، مادلين أولبرايت، براحتيها ضرعين أشبه بضرعي البقرة. غرر به صدام!!
-اللعنة!! هو يغرر بالعالم كله!! يمثل دور الحمل فيشفقون عليه.
-ثعلب هو يا سيدي!! ثعلب.. مراوغ!! وما علينا إلا أن نشدد عليه النكير.
-قد شددنا، لكنه يفلت دائماً.
-ينبغي ألا يفلت يا سيدي. فوهات وكره يجب أن تسد كلها، النيران يجب أن فيختنق مكانه ويموت!!
-يا ليت!! منى نفسي أن يختنق ويموت!!
-دع الأمر لي. أنا أرتبه سيدي. ردت وزيرة الخارجية بحماسة وانفعال قل أن رآهما فيها.
-كارت بلانش!! هتف كلينتون بفرنسية مؤمركة، رغم أنه لم يكن يحب الفرنسية الفرنسيات. ذلك أن مونيكا البيضاء البشرة، السوداء الشعر، الرشيقة القد، الهيفاء القوام كانت قد سحرت لبه حين مضى ذات يوم إلى مكتب "الوايت هاوس" يتفقد أحوال الموظفين، خليفة يتفقد أحوال الرعية، وفي مكتب مونيكا ذي السجاد والرخام المرمر أرخى لنفسه العنان وهو يرى أمامه أفروديت الحب والجمال. عيناها غابتان، شفتاها كرزتان، نهداها حمامتان وهو يحب الحمام، يحب الكرز، يحب فيولج في الغابة يأكل الكرز ويصطاد الحمام.
-أشكرك سيدي!! هتفت صاحبة الحفظ والصون، أولبرايت مادلين، وقد دغدغ "الكارت بلانش" شغاف قلبها، ذاك الذي حملته من تشيكوسلوفاكيا لأم يهودية غرست في تعاليم التلمود ونمت في قلبها أحقاد اليهود. أعدك يا سيدي. هذه المرة سأجعلها القاضية لصدام.
في اليوم التالي حطت طائرتها "الشهاب" في أرض الأعراب. إلى يمينها كوهين يسارها مورين، وكلهم شحنة من كهرباء تكفي لدفع سفينة إلى الفضاء.

-يا مرحبا!! يا مرحبا!! طفوا نور الكهربا!! رحب الأمير الهمام بالركب القادم على أجنحة الحمام، فكادت لفرحتها تأخذه مادلين بالأحضان مقبلة لاثمة، وهو لا يخشى فأحضان الأمريكان لا تذهب بوضوء ولا يفسد بها إيمان.
العرب كرماء، حاتمهم الطائي ذبح فرسه الغالية لضيفه ذات يوم، وهو لا يملك شاة أو معزاة فماذا يفعل الأمير وهو يملك الكثير؟ مناسف لحم كويتية، كبسة سعودية، أطباق فرنسية، شرائح بقر انكليزية.. كافيارات قزوينية، المائدة عامرة بكل وطاب.. ﴿وكلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ الرزق كثير والوزيرة ذات الردفين فرس، الضرعين كضرعي بقرة تحب الطعام ولا يمتعها كموائد الكرام. تزينها كؤوس الويسكي والمدام.
-هه!! قل لي أيها الأمير المفدى. أنتم مرتاحون.. مطمئنون؟
-نرتاح؟ كيف، والوحش على حدودنا يفتح فكيه؟ نطمئن، أيش والغول بجوارنا يزمجر؟
-هي ذي المشكلة. تدخل كوهين ملوحاً برأسه حرقة وحسرة، هي ذي المشكلة. قلوبنا معكم والله!! لكن ماذا نفعل؟
-أمريكا!!؟ امبراطورة العالم!؟ ماذا تفعل؟ أجاب الأمير المفدى وقد عب كأساً من الويسكي، لا يا سيدي!! أنتم تراخيتم!!
-نحن؟ تساءلت أولبرايت مستنكرة وكل همها أن تشعل فتيل حماسه.
-طبعاً، وإلا ما هذه التخريجة التي طلعتم لنا بها: النفط مقابل الغذاء؟ أما كان أن تستمروا في شد الأنشوطة حول عنق الوحش؟ أما كان أجدر بكم الرصاص بدل الغذاء؟
-بيدك حق يا طويل العمر، هتف كوهين وقد اشتعلت عيناه فرحاً، هوذا رأيي العمر الوحش لا يستحق إلا الموت. فلنجهز عليه.. لنطلق عليه طلقة الخلاص. لكن سامحه الله، وأشار بيده إلى الأعلى والبعيد. رئيسنا قلبه رقيق، فيه الكثير من الرحمة.
-وماذا كانت النتيجة؟ ها هو ذا الآن يضرب المعارضة، واحداً تلو الآخر يضرب عناصرها.
-أنتم آسفون على حسين كامل، آ؟ سألته هذه المرة أولبرايت وهي تختلس إليه مراوغة كنظرة ثعلب.
-نحن نأسف على كل معارض لصدام.. على كل منافس له. وحسين كامل منافس.
-لكنه أحمق، تدخل مورين غاضباً. نصحناه ألا يعود فعاد. فماذا كانت النتيجة؟
-المهم، ما العمل الآن؟ كيف نعكر له فرحه؟ نحول انتصاره إلى هزيمة؟ سأل الهمام، وقد نفد صبره.
-أجل!! هتف كوهين هتفة كاوبوي أرعن، هوذا السؤال: ما العمل؟
-الاغتيال. همس الأمير المفدى وهو يشير برأسه إلى الوراء والبعيد. لا علاج لصدام الحسام.
-لكننا فشلنا، أجابت هذه المرة أولبرايت، مرات عدة حاولنا، مكافأة مالية وضعنا، خمسة ملايين خصصنا، مع ذلك أخفقنا.
-نضع خمسين مليون يا سيدتي!! رأس صدام يساوي أكثر من خمسة ملايين بكثير.
-وتدفعون؟ سأل مورين المهتم بالدولار والدينار.
-غب الطلب. ما تشاءون ندفع. أوقفوا النفط مقابل الغذاء.. أعيدوا إحكام الحصار.. ضيقوا الخناق على العراق.. اغتالوا وحش بغداد.. ولكم كل ما تطلبون.
-ما يطلبون، وأشارت إلى الوراء والأعلى، خمسة آلاف مليون!! همست مادلين ارتفعت بها نشوة الويسكي والنصر.
-وهو كذلك!! أجاب الأمير المفدى دون أن يرف له جفن، ثم التفت إلى الأمير الهمام، اصرف لهم خمسة آلاف مليون!!
-حاضر!! سيدي الأمير المفدى.
بعد ست ساعات، كان بتلر في بغداد يهدر ويزمجر: "بغداد لا تتعاون معنا.. صدام في وجوهنا الدروب. نحن عاجزون عن المراقبة والتفتيش" وكان كوفي عنان حريصاً كل احرص على أن يخضع نظام بغداد لكل ما تطلبه لجان المراقبة والتفتيش.
-لماذا لا تلتزمون بقرارات مجلس الأمن؟ لماذا تعرقلون أعمال اللجان؟ نزل الحانق على أذني طارق عزيز نزول المطرقة على السندان.

-نحن ملـتزمون. اللجـان فتشت كل شـيء. دمـرت الأسـلحة الكيماويـة، الجرثوميـة، الصواريخ.. كل شيء فماذا تريدون بعد؟
-لا أدري. أجيبوا بتلر؟ اتفقوا مع بتلر.. أجاب كوفي عنـان وهو نافذ الصـبر غاضـب، ساعة واحدة كانت أولبرايت قد قرصت أذنه مهـددة إيـاه بـالطرد، وما عسـاه أعظم الطرد؟
سأل طارق بتلر:
-ماذا تريدون؟
-أن نفتش، رد الآخر مستنفراً متشنجاً.
-لكن أية مواقع لم تدخلوها؟ أية قواعد لم تفتشوها؟
-ثمة الكثير، أجاب بتلر، أوسترالي الجنسية، انكليزي الهوية، أمريكي المصلحة والقضية.
-مثلاً؟
-مواقع الحرس الجمهوري في بغداد!!
-الحرس الجمهوري في بغداد، رد نائب الـرئيس، المعتد كثـيراً بنفسـه، الواثق كثـيراً معلوماته، لديه أسلحة دمار شامل؟
-بالتأكيـد!! معلوماتنا أنكم أخفيتم أسـلحتكم تلك هنـاك، في بغـداد، الجمهوري وثكناته العسكرية.
-لكن عزيزي!! ريتشـارد!! هـذا مسـتحيل!! ثكنـات الحـرس في قلب بغـداد.. في وسط المساكن والناس، فكيف نعرض هذا كله لخطر الدمار؟
-هـذا السـؤال تطرحه على نفسـك. نحن واثقـون مما نقـول، ولا بد من التفـتيش صحته.
-لكن هذا ظلم.. هذا افتئات.
-افتئات أم غير افتئات!! غداً نتوجه إلى الحرس الجمهوري.
-ونحن نمنعكم.
-إذن تحملوا العواقب، رد وهو يكتم فرحه فقد بلغ الغاية المرجوة.
-يـدكم وما تطـول، صـاح وهو يطبق السـماعة في وجه الأسـترالي الجنسـية، الانكلـيزي الهوية، الأمريكي المصلحة والقضية. وللتو فتح هذا هاتفه الخليوي ليتصل بكوهين.
-البشرى لك سيدي، هم يرفضون، هتف مبشراً فرحاً.
-إذن!! علقت السمكة!! رد، يكاد يرقص فرحاً وقد أفلحت خطته.
وللتو بـدأت نـذر العاصـفة: بـرق.. رعـد.. ريـاح.. غيـوم.. راحت تنتشر في الآفـاق العالم، فيما شرارات تنطلق هنا.. صواعق تنقض هناك، وكلها تهدد: إذعان صدام أو الحرب الزؤام.
***

الفصل الرابع عشر

"أصيح بالخليج: يا خليج" كان باقر يدندن وهو يسير على مهل شارداً بعيداً عن الخليج "يا واهب اللؤلؤ والمحـار والـردى". ومع الـردى يتفتت قلب بـاقر لكنه لا يملك "فيرجع الصدى كأنه النشيج" ويلتفت باقر حوله وقد خيل إليه أنه سمع صدى أقرب إلى النشـيج: "يا خليج!! يا واهب المحـار والـردى". "تـرى أين ذهب اللؤلـؤ؟" يخـاطب أشجار الرصيف، حجارة الرصيف، وجوه المارة وهو مصمت الوجه كجـدار سـجن، الشفتين كملزمة مشدودة "لماذا لم تعد تهب غير المحار الفارغ والموت الزؤام؟ لماذا يا خليج صرت سيفاً بيد الجلاد؟ أبارغال لدى أبرهة الحبشي، لا يا خليج!!! هذا أخوك العراق فلا تكن عوناً للأعداء عليه!! لا تفرط بأخوته يا خليج!! لا تطعم لحمه للذئاب!! أنت عربي الوجه يا خليج!! عربي اليد!! عربي اللسـان، فلا تتحـول إلى الأنكلو أمريكـان؟ أنسـيت خليج أن الدم لا يصير ماء؟ أن الأعداء هم الذين يوغرون صـدرك، يشـبون فيك على أخيك، ابن أمك وأبيك، فكف يا خليج!! المؤامرة قذرة حاكها الأعداء ثم ألقوا يوسف في الجب، للعتمة، للأفاعي، فلا تتركه في الجب!! لا تتركه للموت يا خليج!!".
نقرات متتالية على الكتف جعلت سلسلة أفكاره تنقطع وقدميه تتسمران.
-معقول!؟ كان مرتضى صديقه وكان يتساءل معاتباً: مائة مرة أناديك ولا تسمعني؟
-مائة مرة؟ ردد باقر بمزيج من الاستغراب والدهشة، فأذناه لم تلتقطا همسة واحدة.

-من هناك، قال مرتضى وهو يشير إلى الوراء، وأنا لاحق بك، أناديك، لكن لا بماذا تفكر؟ ها؟ بفادية؟
وكان باقر قد حكى شيئاً لمرتضى عن حب جديد ينمو في قلبه، اسمه فادية. فتاة الحنطة، وجنتاها تشتعلان ناراً، قدها أهيف، صدرها ناهد، خصرها ضامر، وجهها تنسدل عليه خصلة شعر لا تفتأ ترفعها فتنزل من جديد ترفعها فتنزل.
-لا. لا. أنا أفكر بالخليج، رد باقر بعد أن صعد زفرة ثم بدأ ينشد بالخليج... يا خليج!!".
-"ما في حدا لا تندهي ما في حدا"، رد مرتضى مردداً، هو الآخر، أغنية فيروز مقهقهاً، لكن باقراً لم يضحك ولم يقهقه، بل علق وهو يزفر زفرة أشد حرقة.
-وهذا ما يؤلمني مرتضى!! الخليج، هذا الأخ الشقيق، يقدم بره، بحره، جوه أمريكان، يضربون العراق.
-هم يريدون ضرب صدام، وهو يستاهل. بيننا؟ يتساهل الرأس العنيد ذاك، يستجيب؟ لماذا لا يذعن؟
-ها!! بعظمة لسانك قلتها! يذعن! إنه الإذعان ما يريدونه للعراق.. الإذلال.. الإرغام.. توقف وقد عاد يزفر من جديد.
كانت الأزمة قد بلغت أشدها.. الأنكلو أمريكان يريدون تفتيش الحرس الجمهوري بغداد. مواقع الكليات، مدارس التدريب العسكري، وبغداد ترفض، "كلية عسكرية قلب بغداد، ما علاقتها بأسلحة الدمار الشامل؟ موقع للحرس الجمهوري هل يكون مصنعاً للأسلحة الجرثومية؟ معهد للتدريب كيف يكون معملاً لغاز الأعصاب؟ "لكن أحداً لم يكن يسمع بغداد "نريد أن نفتش" يقول بتلر، الملكي أكثر من الملك، سنفتش. كل موقع نشير له بإصبعنا يجب أن يفتح أبوابه لنا. نحن لسنا بحاجة لنا. نحن هنا الآمرون الناهون وما على الآخرين إلا أن يسمعوا ويطيعوا." لكن تمنعهم. قيد أنملة لا تتراجع فيتحرك الأنكلو أمريكان، يأتون بالمزيد من البوارج الخليج.. مزيد من الجند المدججين بالسلاح إلى قواعد الخليج، مزيد المقاتلات، الصاعقات، المرعبات إلى مطارات الخليج وينذرون: معكم ثلاثة أيام، يدخل بتلر المواقع التي يشاء، شننا عليكم الحرب" يلتسين، شيراك، زيمين، عنان، كلهم تحركوا، فالعراق الجريح لم يعد يحتمل الجراح. طعنة واحدة تجهز عليه، ولا يريد أحد الإجهاز على العراق. صحيح، هم يرونه مثخناً، متكوماً على الأرض وعشرات الكاوبوي يتعاورونه لكماً، عفساً، رفساً.. لكن الصحيح أيضاً أنهم لا يستطيعون التدخل. الكاوبوي أنفسهم يخيفونهم، فمن يدري؟ قد تأتي المخلص لكمة أو رفسة، تصيبه رصاصة مما يطلقه الكاوبوي العابث المتغطرس الذي لا يرى أحداً ولا يعجبه أحد.
من بعيد كانوا يتوسطون، ليس مع الكاوبوي فهؤلاء لا يعطون أذناً لأحد ولا يعجبهم بل مع المثخن بالجراح. المتكوم على الأرض يتلقى اللكمات والرفسات وكل ما يفعله هو أن يحمي رأسه فلا تحطم ضربة رأسه. هم يضغطون عليه "كفاك مقاومة!! حسبك عناداً!! لا جدوى إلا أن تذعن!! لا حل إلا الاستسلام!!" وينفر نشامى بغداد، رغم الجراح. رغم الآلام، رغم الجوع والعطش، تنفر بغداد شائلة برأسها رافضة الإذعان والاستسلام. بغداد لا تنسى أنها قلعة الأسود، لا تنسى أنها أخت الرشيد.. سيد الناس.. من كان للغيوم "اذهبي أني شئت فحيث سقطت يأتينا خراجك". بغداد لا تستطيع جذورها تمتد عميقاً في تراب الكبرياء، تستمد منه نسغ الكبرياء. تستمر الوساطات والضغوط ويستمر الصمود والتحدي، ويبدو العالم كله وكأنه على كف عفريت.
-أتظن أنها الحرب؟
-بالتأكيد. وإلا لماذا هربت من العراق؟ أجاب مرتضى ممتعضاً هازاً رأسه. قبل شهرين، ومع تفاقم الأزمة، كان مرتضى قد شمر عن ساقيه وولى الأدبار إلى عمان فدمشق، حيث التقى به باقر ذات يوم. كانا زميلين يدرسان في المعهد الصناعي معاً. سنون طويلة كانت قد مضت على ذلك العهد لكن ما إن التقيا في حي السيدة زينب حتى عرف واحدهما الآخر واحتضن واحدهما الآخر. ثمة ذكريات. نضال ومناشير، هروب المخابرات وتخف. باقر يذكر الكثير عن تلك المرحلة. ذات مرة كانا في المقهى يلعبان النرد وكان باقر متحمساً. "شيش بيش" صاح بالنرد فلباه النرد، وفي الحال ملء طوله ضاجاً صاخباً. مع حركته تلك أفلت مسدسه من مكانه، منحدراً

فالساق إلى أن سقط على الأرض. بخبطة واضحة سقط على الأرض، لكن مرتضى أسرع بديهة وأشد خبطة فقد أسقط نفسه على الأرض متكوماً على المسدس، إياه عن العيون وكم في بغداد من عيون!!) حاشراً إياه تحت سترته من جديد.
باقر لا ينسى تلك الواقعة. لقد أنقذه مرتضى آخر لحظة وهو على شفا الهاوية. بعدئذ فرقهما الزمان، إلى أن جمعتهما السيدة زينب. ورغم أنهما وجدا نفسيهما على نقيض، أفكاراً ومواقف إلا أن الصداقة القديمة كانت أقوى: "اختلاف الرأي لا قضية"ـ مرتضى رأى الحرب قادمة بأم عينه فهرب منها "لم يعد بالإمكان التحمل. الحياة في الجحيم ولا الحياة في العراق. لا أمل مع نظام راكب رأسه سادر في بنفسك سعد!! انج بنفسك".
فيما باقر يرى الأمر أكثر خطورة مما يتصور مرتضى. "لم تعد المسألة مسألة نجاة أو خلاص مجموعة، بل هي مسألة نجاة وطن.. خلاص شعب بأكمله". كانت الفكرة بدأت تسيطر على رأس باقر. "ما الفائدة أن يجد الفرد خلاصه إن كان يهلك.. الشعب كله يموت؟" وشيئاً فشيئاً بات لديه ما يشبه الهاجس. "الهرب أخطر ما يفعله المرء ووطنه سفينة تشرف على الغرق"، قال لمرتضى في لقائهما الثاني مرتضى "تدينني على هربي؟ أنت نفسك فعلت ذلك" " أنا أخطأت.. وأنت أخطأت.. بل المعارضة كلها أخطأت.. كان عليها أن تعمل من الداخل.. أن تحاول إنقاذ السفينة.ـ لا تركها والنجاة بنفسها." حين ذاك هز مرتضى رأسه "أفكارك عجيبة باقر!! مائة تغيرت.. لا عجب إذن أنهم فصلوك من الحزب" وضحك مرتضى. لكن باقر قطب حاجبيه عابساً. كان يعلم أنه تغير حقاً ليس مائة درجة فحسب بل مائة وثمانين. ما كان حين فر من العراق لم يعد يقبله اليوم. تصوراته.ـ مفاهيمه.. أفكاره.. كلها مرت عجيب كتحولات الفصول. لم يعد صدام ما يعنيه بل العراق. لم يعد إسقاط النظام يعنيه بل الحفاظ على الوطن. كان قد رأى بأم عينه تكالب الأعداء على وطنه. وكان قد تابع ما يكتبون، وما يخططون. وكانت خططهم مرعبة: يريدون تقسيم العراق، إرجاعه دويلات ضعيفة ممزقة لا تستطيع مقاومة استعمار فيعود الاستعمار جيوشاً، شركات أخطبوطات.. شبكات.. تمتص دم العراق.. وتنهب ثروات العراق، فما تراه يفعل؟ أيكون مع العراق أم مع أعداء العراق؟
-لكنها الحرب، يراها الطاغية المستبد بأم عينه، مع ذلك يقود البلاد كلها إليها.. يلقي في أتونها.ـ فلماذا يفعل ذلك؟ سأل مرتضى صاحبه وقد وصلا إلى نهر بردى، على ضفته ولا ينظران إلى مجراه، فقد تحول النهر إلى جثة هامدة.
-تعلم مرتضى؟ أنا على يقين الآن أن العراق يُجَر جراً إلى الحرب.
-نعم!؟ قاطعه مرتضى بكثير من السخرية.ـ والحرب مع إيران من جره إليها.
-تهديدات إيران، أم نسيت تصريحات طهران يومذاك؟ "نريد العراق جمهورية تابعة لنا" نسيت الشعار الذي طرحه الإمام يومذاك "تصدير الثورة الإسلامية إلى الخارج" ومن الخارج؟ العراق.
-حسن. هناك أنا معك. كان العراق يدافع عن نفسه لكن ماذا فعل في الكويت غزاه؟ هل كان يدافع عن نفسه أيضاً؟
-اسمع، مرتضى! أنا لا أريد الدفاع عن نظام صدام، لكنني بت على يقين أن الهدف يا صاحبي. هذه القوة الاقتصادية، العسكرية، السياسية يجب أن تزول من الوجود. العراق يا صديقي، على مفترق طرق: أن يكون أو لا يكون، فهل ترى الأمر!؟.
-أرى، صحيح.ـ لكن على صدام أن يرى، فلا يضع البلاد كلها على كف عفريت. ولم باقر. كانت أفكار في رأسه تدور وكان يكره أن يطرحها للنقاش "ترى ماذا يفعل إن وجد نفسه أمام خيارين: أن يكون أو لا يكون؟ ألا يغامر، ألا يقامر؟ بغداد نفسها هكذا: مستهدفة من كل الأعداء في الشرق، الشمال، الجنوب. من البحر.. البر.. الجو.. إذن ماذا تفعل؟ ترفع الراية البيضاء ليدخل هولاكو يغتصب نساءها من يقتل رجالها.. يدمر قصورها.. يصبغ بالأحمر دجلتها أم تقف في الزاوية وظهرها الحائط تقاتل أعداءها حتى آخر رمق تدافع عن نفسها حتى آخر لحظة؟".
السؤال يدور في الفضاء.. يسير في شوارع دمشق جنباً إلى جنب مع باقر ومرتضى. كما تتردد أصداؤه في القاهرة، عمان، كل عاصمة عربية، ما عدا عواصم الخليج تلك التي

حط بها الأنكلو أمريكان جنداً وطائرات.. صواريخ ومدمرات. البصرة تنظر إلى الخليج فترتعد فرقاً. فوهات المدافع موجهة إليها. رؤوس الصواريخ مشرئبة بأعناقها نحوها، تنتظر كبسة زر، وباقر يفكر. "متى يكبس الزر، فتشتعل النيران من جديد الأخضر واليابس في العراق؟"

-هو يتحمل المسؤولية، قال مرتضى على حين غرة وكأنما وصلته أفكار صاحبه. وحده صدام يتحمل المسؤولية!!

-لا، مرتضى! حرام عليك! هذا كلام الأنكلو أمريكان، أترضى أن تردد كلامهم؟ هذا منطق أمراء البترول، ترى منذ صرت تتحدث بمنطق أمراء البترول؟

-لكنها الحقيقة باقر. هم يريدون تفتيش مواقع الحرس الجمهوري، دعهم يفتشوا المواقع.

-لكنه افتئات.. محاولة واضحة للتمريغ بالوحل، لا يرضاها إلا الذليل الجبان.

-سيدي، مائة كلمة ذليل جبان ولا كلمة الله يرحمه. ثم إن قبطان السفينة البارع من الصخور.. يلف.. يدور، حتى لا ترتطم سفينته بها فتهلك.

-في هذا أنت على حق. يجب تجنب الارتطام. بأي شكل ينبغي إنقاذ السفينة.

-لكن قبل أن تنقذ السفينة، أنقذ صاحبك، قال مرتضى وهو يضع يده على بطنه، جوعاً؟

-خسئ الجوع!! هتف باقر بنخوة نشامى العراق. قل. تذهب إلى البيت أم إلى المطعم.

-بل المطعم أقرب وطعامه أطيب.

وفي المطعم الأقرب، كان الفول المدمس والبصل خير ما ينتظرهما. كان كلاهما جائعين وكان الفول لذيذاً إلى درجة غرقا معاً في الطعام فلم ينبسا بحرف. بعد الفول الشاي.

-الآن يطيب النوم، واقترح مرتضى، فهل نذهب إلى بيتك أم بيتي؟

-بل نذهب إلى السيدة زينب.

فوجئ مرتضى، ففسر باقر:

-ربما نجد أحداً قادماً من هناك، وأشار إلى الشرق والبعيد، نسأله.. نعلم منه الوطن. مرتضى!! أنا خائف!! خائف كثيراً على الوطن.

-شيء يخيف. عقب مرتضى وقد بدت علائم الخوف على محياه. المهلة تنتهي وأسرع الصديقان وقد جمعهما أخيراً قاسم مشترك أعظم.

عند مقام السيدة زينب نزل الصديقان من "السرفيس" الذي يدعونه الفأر الأبيض والذي يمرق كالسهم هنا وهناك، رائغاً، زائغاً، مكراً مفراً كأنه جلمود صخر حطه السيل من عل.

باقر معتاد مذ جاء إلى دمشق أن يجيء إلى هنا، فالقادمون من العراق غالباً السيدة زينب، عتبة مقدسة كتلك العتبات المقدسة التي يؤمونها في كربلاء وعند المقام كثيراً ما كان يلتقي بأناس من العمارة، بغداد، البصرة.. يمد معهم جسور التعاون وحبال المودة. يتشمم منهم رائحة البصرة، فينتعش، يستعيد ذكريات البصرة فيرفرف جناحاه فرحاً، لكن هذه المرة فوجئ الصديقان بالندب والولولة.

-واحسيناه!! وافجيعتاه!! وامصيبتاه!! قتلوك يا حسين!!

وتسمر الصديقان في مكانهما.

-اليوم عاشوراء!! هتف باقر وهو يقترب بحذر وتمهل من النادبات والمولولات.

(ذات يوم من أيام الصبا كان عاشوراء، أتذكرين يا فاطمة؟ أمك ذهبت إلى مقام تندب، وأنت ظللت في المنزل. أردت أن تذهبي لكنها أخذت رقية وتركتك عليك أن تساعدينا. موكب عاشوراء كان سينطلق من جامع الحسين القريب ماراً بمجالس العزاء، أتذكرين يا فاطمة؟ كان على أخي جبار أن يحمل صندوق التبرعات.. يدور مع اثنين على المحلات.. يجمع النقود من الناس، ثم يخبئ قسماً منها ليشتري بها البوظة والحلويات. طوال عمره جبار جبار، لا يخاف من دين ولا وازع. كل يخبئ قسماً من التبرعات لنا وكنا نفرح. هو الكبير، إذن هو الأعرف. فقط كان يقول لنا "لا تخبروا أمي، فأمي ستغضب." نحن نعلم أنها كانت ستغضب. يوم عاشوراء لديها.. طقوسه مقدسة.. حتى الأموال التي يجمعونها لصندوق التبرعات مقدسة. هي تقول "الأموال كلها تذهب إلى الفقراء والمحتاجين" لكن أبي يشكك "معظمها إلى جيوب أصحاب العمائم والجبات" ويثور بينهما جدال. كلاهما على يقين مما

وكلاهما لا يتراجع عما يقول. نحن نسمع ونفرح "إذن، ما نأخذه من تبرعات حلال، أولى بها من أصحاب العمائم والجبات!!".
في عاشوراء تلك، كان علينا أن ننضم إلى الموكب، أن نشارك في الطقوس. وكان عليك أنت أن تلبسينا الملابس المناسبة: الدشداشة، الكوفية، العقال... أخي كاظم سيأخذ دور الحسين وأنا دور الشمر، قاتل الحسين. أتذكرين يا فاطمة؟ لم أكن أريد ذلك الدور، لكنهم فرضوه علي. ألبستني ثياب الشمر: دشداشة سوداء وكوفية سوداء، فلباس الشر أسود، فيما ألبست أخي الدشداشة البيضاء والكوفية البيضاء، فلباس أبيض. في الموكب سرنا. النساء ينثرن عليه الأزاهير والورود، وأنا يكلن لي الصفعات ويقذفنني بالبصاق، فاطمة!! أتذكرين كم تأسيت، كم بكيت!! لماذا يصفعونني؟ يبصقون علي؟ أنا لم أفعل شيئاً. الشمر قاتل، لكن، أنا ما قتلت أحداً. هذا ظلم.. ظلم.
وحفر ذلك الموكب عميقاً في نفسي، فأقسمت: لا أشارك في موكب عاشوراء ذلك!! لا أقبل الظلم أبداً!!).
وأمسك باقر بيد مرتضى وهو يبتعد سريعاً عن الموكب. هو لا ينسى أبداً ما الموكب. كم تغير بعدئذ!! كم صب من عتب ولوم على نابشي القبور، يعودون الماضي، يعيشون بكل ما فيه، يثيرون أحقاده وضغائنه وكأنما هم بلا حاضر، بلا منذئذ آلى باقر على نفسه أن ينظر دائماً إلى الأمام لا إلى الوراء، أن يضع المستقبل لا الماضي.
-مالك؟ سأله مرتضى وباقر ما يزال يدفعه بعيداً عن الموكب.
-لا أدري. لا أطيق رؤية مواكب كهذه. لي معها ذكريات مؤلمة.
-الحمد لله!! أنا بغير ذكريات كهذه.
كان مرتضى من الشمال وفي الشمال لا يعزون بالحسين ولا يندبون في عاشوراء يولولون وكأنه اليوم ذاته الذي قتل فيه الحسين.
-ترى.. أما زالوا يحتفلون بعاشوراء هناك؟ وأشار من جديد إلى الشرق البعيد.
-وماذا تغير؟ عالمنا الثالث يراوح مكانه. يتقدم العالم كله وهو مكانه لا يتحرك.
واكتسحت موجة حزن جديدة نفس باقر. "أجل. هي ذي المشكلة: التحجر، فلا تتبدل ولا تتغير، لكن أليس ناموس الطبيعة التغير؟ فينقلب الربيع إلى خريف والصيف إلى ثم يدور الدولاب وتتغير الفصول من جديد. وحدنا في هذا العالم المتخلف لا نتغير، حجارة مرمية في زاوية من زوايا التاريخ.
-هلم!! أسرع قال باقر أخيراً وهو ما زال يدفعه.
-ألم تعد تريد رؤية أحد؟
-لا، لا، الموكب أصابني بالاكتئاب. صورة واحدة تسيطر على خيالي.
-أية صورة؟
-العراق هو الحسين. في الماضي.. في الحاضر.. هو الحسين. أمس قتله الشمر يقتله الأمريكان، فأي بلاء تعيشه يا عراق؟
لم يعلق مرتضى، بل سارا جنباً إلى جنب صامتين. منزل مرتضى قريب. "غرفة الدرج!! أي بؤس أيضاً!" لكنها كانت أقرب فمضيا إليها.
-لدي عرق ريان وبزر مالح.. مالح!! اقترح مرتضى فهتف باقر:
-هات ما عندك!! قليل من الخمرة ينعش قلب الإنسان.
وكان مرتضى يؤمن أن الكثير منها ينعش كثيراً أيضاً. صب كأساً له وكأساً لباقر. لم يكن لديه ثلج، فالبراد قطع نادر قلما يدخل الغرف تحت الدرج. مرتضى يعرف ذلك به. ألم يترك بلده وموطنه؟ ألم يلقِ بنفسه في عالم الشتات؟ إذن ليرضَ بما في عالم الشتات: الشح، الضيق، المواجع. بصعوبة وصل مرتضى إلى دمشق، بصعوبة لقي الغرفة، بصعوبة يؤمن قوت يومه. المعارضة تعطيه، لكن ما تعطيه لا يكفيه. فقط أمل. "ترحل إلى أمريكا؟" سألوه في قيادة المعارضة. "لم لا، العالم كله يحمل إلى أمريكا؟" "حسن. هيئ أوراقك" وهيأ مرتضى أوراقه. جاء بها إلى القيادة فهشت القيادة وبشت "ظروفك، شروطك، خلفيتك كلها مناسبة. سيفرحون بك هناك". "من الذي سيفرح؟" سألهم وقد عصي عليه الفهم "المسؤولون الذين سيدربونك" "على ماذا سيدربونني؟" "على أعمال التخريب.. فنون القتال.. حرب العصابات" وفغر مرتضى فاه. كان يحسب أنه سيهاجر إلى أمريكا يعمل ويعيش هناك ككل خلق

يهاجرون، لكن القيادة شرحت له "لا.. لا.. نحن لدينا خطة جديدة: إدخال قوات، النظام حتى إسقاطه". وتلجلج مرتضى لا يدري ما يقول "النظام ضعيف، صدام ورق، وليس علينا إلا أن ندخل إلى العراق ونشعل النار في نمر الورق الأمر صعباً لكنه لم يجد جواباً لكلام القائد العتيد الذي بدا مؤمناً أشد الإيمان بأن النصر بات وشيكاً، طالما قوى المعارضة كلها عقدت مؤتمراً موحداً اتفقت فيه على أي شيء، فقط لإسقاط نظام بغداد. وافق مرتضى وقد وجد نفسه محشوراً في الزاوية لا يملك إلا أن يوافق، لكن ما إن روى القصة لباقر حتى فتح هذا عينيه على سعتهما:

-وتذهب إلى أمريكا تتدرب على حرب العصابات؟

-كلهم يذهبون، ثم الراتب مغر: ثلاثة آلاف دولار وتعويضات ومكافآت أخرى. افرض ظللت سنتين ثلاثاً في أمريكا، تعود بثلاثين أربعين ألف دولار.

-وافرض أنهم أدخلوك بعد شهرين، ثلاثة في العراق.

-لا، لا، قطاعه مرتضى. التدريب لا يقل عن سنة.. آلاف العراقيين ذهبوا الآن إلى أمريكا.

-أعلم، أعلم، وقد عرضوا علي ذلك.

-إذن دعنا نذهب معاً.

-أنا أذهب إلى أمريكا!؟ أنا أصبح عميلاً أمريكياً!؟ صاح باقر، فقاطعه مرتضى:

-ولماذا تنظر إلى الأمر من هذه الزاوية؟ لماذا لا تنظر إليه باعتبار أمريكا يد المساعدة؟

قهقه باقر قهقهة السخرية، بعدئذ قال:

-صديقة!؟ منذ متى كانت أمريكا صديقة الشعوب؟ منذ متى كانت صديقة شعبنا في العراق أو خارج العراق؟ أليست هي الوحش الامبريالي الفتاك في كل ما حزبنا عبر تاريخ حزبنا؟ أليست هي صانعة إسرائيل وحاميتها ومرسخة وجودها مذ وجدت حتى الآن؟ أليست هي القوة الرأسمالية الاستغلالية النهابة السلابة لكل ثروات الشعوب في العالم؟

-باقر!!! باقر!!! قاطعه مرتضى صائحاً بصوت أعلى من صوته. ما هذا الذي تقوله؟ تتحدث وكأنك في الستينات أو السبعينات. ثمة متغيرات يا صاحبي.. مستجدات تلك المفاهيم كلها.

-إلى درجة صار العدو صديقاً والصديق عدواً!!!؟

-نعم!! باقر!! الاتحاد السوفيتي انهار، المعسكر الاشتراكي رحمه الله. أتريدنا أن نراوح في أرضنا؟ لا، يجب أن نتغير مع المتغيرات.. أن نتكيف مع الظروف.

-إلى درجة نصبح فيها السيف الذي يقطع به الجلاد رقبة شعبنا؟

-نحن نريد إسقاط النظام.. التخلص من صدام.. وأمريكا تريد ذلك، إذن لم حلفاء؟

-وأمريكا تريد تقسيم العراق. القضاء على وحدته الوطنية.. نهب ثرواته البترولية نكون حلفاءها في ذلك؟

-لا. لا. أمريكا لا تريد إلا رأس صدام. فإن سقط سلمتنا كل شيء.

-وانسحبت بعيداً زاهدة عفيفة النفس؟

-أجل، هم شرحوا لنا. القوات التي تتدرب الآن سيتم إنزالها في الجنوب، في الشمال، سراً وخفية. هذه القوات تتغلغل إلى الداخل.. تجري اتصالات مع قواعد المعارضة هناك.. مع ضباط الجيش المعارضين. توزع أموالاً.. أسلحة.. وحين تحين المناسبة تضرب ضربتها.

-والنظام العراقي نائم؟ عيناه مغمضتان؟ أذناه مسدودتان؟ لا، لا، يا صاحبي! في اللحظة التي ينزلونكم فيها ستجدون قناصتهم بالمرصاد، يقنصونكم وأنتم تنزلون طائرات الهيلوكبتر.

-لن يكون فارغاً لذلك. يشغلونه بمائة مشكلة ومشكلة.

-ها!! إذن، مشكلة التفتيش الآن مفتعلة والإنذار بالحرب حقيقي؟

-ماذا إذن؟ هو مزحة؟ لا. أمريكا لا تمزح. إن لم يذعن انصبت الصواريخ كوابل المطر. اشتعل العراق كله ناراً لا تبقي ولا تذر.

-اللعنة!! ويسركم هذا؟ يسعدكم أن يدمر العراق؟ يحترق العراق من جديد؟ عملاء.. خونة. كلكم عملاء!! خونة!!

وترك باقر كل شيء خلفه متفتفاً باصقاً ثم خرج. صدره مطبق.. قلبه ممزق.. أنفاسه ثقيلة وقد غدت الدنيا كلها في عينيه سحابة سوداء.
في المنزل وجد الدكتور زياد مطبق الصدر مثقل الأنفاس، الدنيا كلها في عينيه سوداء.
-ما بك؟ سأله وقد ظن أن هم العراق هو الذي يشغله.
-ما بي؟ طردتني اليوم. بصقت في وجهي.
-من؟ سحر؟
-أجل.. زفت!! رد وهو يزفر زفرة حارقة.
-لكن، آخر مرة، كنتما على أحسن ما يرام.
ولوح زياد برأسه حزيناً كئيباً كأنما لم يعرف الفرح قط. آخر مرة كان عيد الوزير، وكان زياد قد تحمم وتعطر، لبس أفخر ما لديه من ملابس، أفخر أحذية، أغلى ما لديه من ربطات العنق، ثم مضى إلى الحفل. وحين عاد كان فرحاً. روى لباقر كيف استقبله أبوها الوزير، كيف رحبت به هي نفسها، كيف هديته: زجاجة عطر باريسي، دفع ثمنها بالدولار، بل همس في أذنه وكله ثقة بالنفس: "من الواضح أنهم يريدونني. من المؤكد أنني سأصبح صهر الوزير". صوته ما يزال أذن باقر وهو يهتف فرحاً مسروراً: "سأصبح صهر الوزير" بل هو في اليوم التالي إليه أن يرافقه إلى الجامعة" ستخرج من محاضرتها الساعة الواحدة. ننتظرها فنراها" قال حينذاك لباقر فرد باقر مستغرباً "ننتظرها؟" "أجل أريدك أن تذهب كي يبدو الأمر وكأنه مصادفة" "لا.. لا.. مالي علاقة. لست فارغاً لأمور كهذه." "أرجوك، باقر!! ساعدني باقر فلا تظن أنني مراهق أطاردها"، وذهب باقر معه. رصداها خرجت، ثم تعرضا لها. كانت معها رفيقتها. سلما عليهما، وحين طلب إليها زياد أن يحدثها على انفراد، ظل باقر مع رفيقتها. تعرف واحدهما إلى الآخر. تبادلا النظرات.. البسمات وكانا على وشك أن يتبادلا المواعيد. أليس هو عصر السرعة؟ "ماذا تدرسين؟" "التاريخ" "تأتين كل يوم؟" "بالطبع، الجامعة أرحب والحياة فيها أعذب" "يمكنني أن أراك؟" "لم لا؟ تبدو شاباً مثيراً للاهتمام" "وأنت فتاة جميلة ساحرة" ثم لم يعد زياد وسحر حتى كان باقر قد اطمأن إلى أن باستطاعته أن يلتقي بفادية، طالبة التاريخ متى شاء.
ذلك اليوم عادا فرحين: زياد وهو يقترب من تحقيق هدفه، وباقر وهو يضع نصب جديد هدفه. كانت لورا قد تركته في فراغ راح يثقل على صدره يوماً بعد يوم، له فادية قادرة على سد ذلك الفراغ: حنطيتها الجذابة، شعرها الفاحم، عيناها الحوراوان، كل ما فيها يذكره بآمال بغداد، تلك التي علمته ذات يوم مبادئ الحب والجنس خير معلم.
بعد ذلك التقى مرتين أو ثلاثاً بفادية، فيما تعذر على زياد أن يلتقي بابنة الوزير، أن ييئس هو يجد لها الأعذار دائماً، يبني عليها الكثير من الآمال. باقر يعلم أنه سلماً يتسلق درجاته إلى أعلى السطح، لكن ما شأنه هو؟ ليتسلق ما شاء. حسبه يستمع إليه وهو يرسم الخطط، يفكر بصوت عال ويبني قصوراً في الأندلس. الوزير يفيد منه: "اذهب بهذا الخبر إلى الصحيفة الفلانية. اكتب لي في المجلة الفلانية." وبدا الدكتور الذي لم يعمل دكتوراً والصحفي الذي لم يكن يوماً صحفياً، نشطاً قادراً تحريك دوائر الدعاية والإعلام، وماذا يريد الوزير غير الدعاية والإعلام؟
-لكن كيف حدث هذا؟ كيف طردتك؟ سأله باقر وهو يتفحص سيماه الحزينة المدلهم هماً وغماً.
-لا أدري. الحق علي. أنا غبي. أنا فأر جبان.
-وأوشك باقر أن ينفجر ضاحكاً وهو يرى صاحبه ينحو باللائمة على نفسه لاطماً مغرورق العينين بالدمع، نادبة من نادبات الحسين في عاشوراء.
-فأر جبان!؟ كيف؟ قل لي.
-يا سيدي. كنت في مكتب والدها أكتب له كلمة يريد أن يلقيها في مناسبة الغد. فجأة دخلت ابنته ومعها كلب.. كلب كبير كأنه الضبع. بول.. فـ.. رغ.. يسمونه، لا أدري ماذا.
-لا، لا، بول دوغ. الكلب- الثور. رد باقر مبتسماً وقد تصور ما جرى.
-تصور. كلب كالثور يأكل كل يوم ثلاثة كيلو غرامات من اللحم.
-معقول؟ قاطعه باقر باندهاش بالغ: ثلاثة كيلو غرامات؟

-هي قالت. هذا الكلب تريدني أن آخذه للنزهة!!
-وماذا في ذلك؟ خذه للنزهة.
-لكنني أخاف الكلاب. أنا رجل يخاف أي كلب حتى ولو كان ابن عم القط.
-طيب، وماذا حدث؟
-ما إن رأيته حتى ابتعدت محتمياً بالطاولة، أرتجف خوفاً.
-وهي، ماذا فعلت؟
-وصمتني بالجبان الرعديد. تخاف من كلب مدلل مثل بوغي هذا؟ أنت لست أرنب رعديد.
-مشكلة!! عقب باقر وبالابتسامة ما تزال على وجهه.
-والمشكلة الأكبر حين اقترب مني وعوى في وجهي. تعلم؟ كدت أقع أرضاً. ذلك اللعين مخيف!! صدقني. لم أر كلباً مخيفاً مثله في حياتي.
-ولاحظت هي ذلك؟
-كيف لا وأنا أرتجف أمامها؟. أسناني تصطك!! ركبتاي ترتعشان!!
-وهزئت منك؟
-بل بصقت في وجهي سابة شاتمة. "متخلف.. جبان.. رعاعي" ثم طردتني شر "لا أريد أن أرى وجهك. لا تعد إلى هذا المنزل أبداً."
وانكب زياد على وجهه سفينة محطمة الأشرعة ممزقة الجنبات.
تلك الليلة نام زياد وباقر على الحزن والهم. الأول للشر الذي أصابه والثاني لما من شر سيصيبه. ففي اليوم التالي كان له موعد مع فادية وكان أخشى ما تفعل ما فعلت سحر بزياد، لكن ما إن رآها في اليوم التالي حتى ذهبت من نفسه كل خشية، فقد جاءت فادية هاشة باشة، متثنية القد متراقصة الخطا وكأنما يشعلها والوجد.
-خفت أن تخلفي الوعد، بادرها وقد جلسا وجهاً لوجه في زاوية موغل في العمق معتم الرؤى يدعونه "الكافتريا".
-ولماذا أخلفه؟
-لا أدري. الشيطان وسوس لي أمس.
-الشياطين هكذا دائماً. شغلها الوسواس في صدور الناس.
-في هذه الحالة، ماذا تفعلين أنت؟
-ألوذ بالمعوذات، قالت ثم بدأت ترتل: أعوذ برب الناس.. مالك الناس.. إله الناس فلحق بها باقر إلى أن ختما السورة، ثم ضحكا كلاهما.
كانت فادية تبدو مشرقة فرحة، فضحك باقر من نفسه "لم ربطت بينها وبين سحر؟ لماذا يكون موقفهما واحداً"؟ لكنها لم تدعه يكمل تساؤلاته، فقد عاجلته لائمة:
-ماذا، تشرد وأنت معي؟
-لا تؤاخذيني، أرجوك!!
-بماذا شردت؟ أصدقني.
ولم يجد باقر بداً من أن يصدقها.
-الحقيقة!؟ برفيقتك سحر.
وضحكت فادية:
-حكى لك؟
-كل شيء.
-يستاهل؟
-حقاً!!؟
-بالطبع. وإلا كيف يخطر بباله، وهو في الحضيض، أن يمد يده إلى نجمة في السماء؟
-هم شجعوه.
-لم يشجعه أحد. اسألني أنا. أبوها ينظر إليه نظرته إلى فتى يمكن أن يكون تابعاً سميعاً مطيعاً.
-وهي؟
-هي أيضاً تريد استخدامه.. الاستفادة منه. تذكر أول مرة تعارفنا؟

-طبعاً، أذكر. يومذاك ظلت تتمشى معه أكثر من ربع ساعة، بل كانت تضحك معه وتقهقه لماذا؟ سألته فادية ثم أجابت، لأنها تريد إغاظة حبيبها.
-إغاظة حبيبها؟
-وإثارة غيرته أيضاً، هو الذي كان ينتظرها في سيارة الشبح في الطرف المقابل الساحة.
-آ!! فهمت. وأنت؟
-أنا، ماذا؟
-أتريدين إثارة غيظ أحد؟ غيرة أحد؟
وانكمشت للتو. وجهها كظم، حاجباها قطبا، ثم مدت يدها إلى الخلف تبحث عن وكأنها تهم بالرحيل.
-ماذا؟ لا، لم أقصد إزعاجك. أنا أعتذر، أعتذر، بادرها باقر وهو يمسك بيدها الباحثة الحقيبة.
-أنت تعلم. أنا شيء مختلف. صحيح هي صديقتي، جمعتنا مقاعد صغيرتين، لكن أنا ابنة مخيم بالأصل، الحظ فقط ساعد أباها فرفعه إلى مرتبة اجتماعية جيدة.
وفغر باقر فاه وهو يستمع إلى قصة فادية. "ابنة مخيم؟" لم يكن قد خطر بباله لقيها أول مرة ظنها دمشقية ابنة دمشقية ودمشقي. لكن على الطاولة، وفي المعتمة من زوايا الكافتريا عرف باقر أن فادية ابنة دمشقية حقاً لكن لأب تترح مع النازحين وسكن المخيم مع الساكنين. ذكاؤه، جده، تحصيله العلمي، حماسته للقضية كلها ساهمت في رفعه إلى الأعلى فصار مسؤولاً لدى إحدى الجهات.
-يا إلهي!! كم هذا العالم صغير!! هتف باقر استغراباً وقد عادت إلى ذهنه فجأة أبيها، أحد قادة الجبهة، يزورهم في جولة من جولاته على معسكرهم في البقاع.
-بعدئذ فرحت فادية كل الفرح وهو يروي لها كيف تعرف إلى أبيها ذات يوم فدائياً يقاتل في صفوف الجبهة، ويخطط للإغارة على قلعة الشقيف.
-أرأيت؟ ثمة قاسم مشترك بيننا، شعرت به منذ أن رأيتك.
-قولي: أكثر من قاسم مشترك.
-ماذا أيضاً؟
-أنت ابنة فلسطين وأنا ابن العراق!! كلانا مشرد، كلانا ينتمي إلى عالم الشتات.
-الشتات!! أجل!! ثم بدأت تترنم: يا أنت يا خارطة الفتات يا أمة الشتات.
-الله!! أنت سياسية؟
-ماذا تريدني إذن؟ ابنة قاسم الرحال، ابنة المعاناة والشتات ولا أكون سياسية؟
-إذن تعرفين أبا الليل؟
-أنا التي أعرفه. قالت وهي تستعيد ذكرياتها عن الرجل الذي كان يزورهم دائماً طفلة صغيرة، وكان باقر يتذكر أيضاً أبا الليل.. الآمال التي بناها على استعادة والخيبة التي صدمته بعد ذلك. "اتفاق أوسلو كان ينبغي أن يطبق: الضفة الغربية إلى السلطة الفلسطينية. على ترابها تقام دولة فلسطين ويرفع علم فلسطين، هي ذي الأيام تمر ونتنياهو يسوف ويماطل. لا اتفاق أوسلو ينفذ ولا انتفاضة تعود، فأية ورطة سياسية وجدت نفسك فيها يا أبا الليل؟".
بعد ذاك تشعب الحديث شعباً شتى. شربا عصير البرتقال، أكلا البوظة، شربا والحديث لما ينته بعد "آه يا لأحاديث القلوب تبدأ ولا تنتهي، لكأنها الدماء في القلوب، ينابيعها الثرة لا تنضب طالما القلوب تنبض!! الله!! يا أحاديث القلوب كم سلسبيل!!".
-هه!! أنت من جديد تشرد، عاتبته لائمة، فماذا تقول هذه المرة؟
-أحبك، قال باقر فجأة، وهو يمسك بيدها في زاوية الكافتريا المعتمة فتستكين العصفورة في عش دافئ.
-وأنا أيضاً؟
-حقاً؟ سأل باقر غير مصدق.
-منذ اللحظة الأولى أعجبتني. لكن الآن، أنا واثقة أنه الحب.
-وما الحب؟ سألها باقر من جديد وفضول شديد يدفعه لأن يعرف كيف تفكر.

-قواسم مشتركة تجمع بين اثنين.. رغبات مشتركة.. مفاهيم مشتركة.. آمال.. آلام.. أم تراني مخطئة؟
-بل تقولين عين الصواب.
وحين خرجا من الكافتريا، كانت يد كل منهما تشد على يد الآخر، أصابع كل أصابع الآخر، عصفورين تدغدغهما أنسام الدفء والربيع فيزقزقان معاً ويحلقان في السماء، وحين ودع واحدهما الآخر كانا فرحين ففي غد موعد. لكن فرحاً بانتظار باقر، إذ ما إن وصل إلى منزله حتى فاجأه صوت المذيع يلعلع من غرفة زياد:
-وافق العراق على طلب لجان التفتيش.
-ماذا؟ أسرع إلى زياد سائلاً. ماذا قال؟
-كما سمعت، أجاب زياد. الخبر تبثه المحطات الفضائية كلها. سيسمح العراق بتفتيش مواقع الحراس الجمهوري.
-يا إلهي!! أي خبر مفرح!! انتهت الأزمة!! انتهى إذن خطر الحرب!!
-لكن أين الكرامة الوطنية؟ أين السيادة!؟ احتج زياد، لكن قاطعه باقر:
-لا يهم. المهم أنهم فوتوا عليهم الضربة.
وشرع باقر يدور على نفسه فرحاً: نجا العراق!! نجا العراق!!
***
في العراق فرح.. الشوارع، الساحات، المدن القرى، كلها تغرق في بحيرة من يسبح فيها الناس وهم يهزجون ويرقصون..
-فُرجت!!
-الحمد لله!! لم يعد هناك حرب!!
-لك الشكر يا الله!! أنقذتنا من الصواريخ والطائرات!!
وكانت تملأ أجواء الحلة، تكريت، السامرا زغاريد وأهازيج. النساء يخفن الحرب. دوي الطائرات ما يزال يطن في آذانهن، هدير المدافع، أزيز الرصاص كله ما يزال الحرب ملء مسامعهن فكيف لا يفرحن؟ رقية، رئبال، فاطمة، الأولاد هنا.. الأولاد كلهم فرحون. سيعود النفط مقابل الغذاء وستتدفق المواد من جديد تسد الجائعة. وحده عبد المحسن غير فرح..
-لماذا؟ سألته فاطمة.
-نحن نتراجع أمام الوحش الامبريالي.
-لنتراجع، أليس خيراً من أن نلقي بأنفسنا بين فكيه؟
-لكن إلام؟ إلى أين؟ سيأتي يوم ونجد أنفسنا بين فكيه لا محالة؟ بالصدمة. محسن يمدها دائماً بالتفاؤل، فلماذا تشاؤمه هذه المرة؟
-محسن يا ابن العم!! اليوم أنت متشائم لا ترى إلا نصف الزجاجة الفارغ.
-وهل ترك لنا الأنكلو أمريكان شيئاً في الزجاجة؟ لا فاطمة!! زجاجتنا كلها فارغة، أرى النصف الملآن؟
-ثمة قسم منها ملآن. أنت نفسك كنت تقول لي ذلك.
-صحيح، كنت. لكن الآن، أرانا نتقهقر على الدوام. العدو يتقدم ونحن نتقهقر، وأخشى أخشاه فاطمة، أن نكون قد وصلنا إلى حافة الهاوية. فأين نتقهقر؟ إذا ما طلبوا مطلباً أدهى وأدق رقبة، ماذا نفعل؟
-وماذا سيطلبون؟
-من يدري؟ ما أدريه أنهم لن يدعونا وشأننا، ما أدريه أنهم سيحاصروننا حتى فماذا نحن فاعلون؟
-أنا واثقة أننا سنجد المخرج دائماً، فلنتفاءل.
لكن عبد المحسن لم يكن ليتفاءل. هو يعلم ما يعني التراجع، يعلم ما يعني أمريكان إلى مواقع الحرس الجمهوري، إلى الثكنات العسكرية في قلب بغداد، يعلم أن اللجان كلها جواسيس وعملاء، سيرصدون كل شيء، يحددون، يدققون، ثم تصل شاردة وواردة إلى واشنطن. يعلم أن كرامة العراق تداس، سيادته الوطنية بالتراب فأي هوان!! أي هوان!!.
ذلك الهوان أحس به ضابط الحرس الجمهوري وهو يستقبل بتلر عند باب به الجند، ضباط الصف، بل حتى الأسلحة، الذخيرة، المهاجع، المخازن أحست به وأيدي

الأنكلو أمريكان تتلمسها، أقدام الأنكلو أمريكان تطأها. "ها قد دخلناك عنوة! ها دسناك رغماً عن أنفك" وكان كل ما في مواقع الحرس الجمهوري يحرق الارم "المفترون الظالمون!! يعلمون أن لا أسلحة تدمير شامل هنا، فكيف يشكون يفتشون"؟ لكن بتلر كان قد جاء إليها بإذن من طين وأذن من عجين وكان في وعلى شفتيه بسمة تشف "لن تفلتوا منا أيها العراقيون!! أنى ذهبتم سنلاحقكم. كيف هربتم سنكون في إثركم إلى أن تنبطحوا أرضاً.. تستسلموا استسلامكم لليأس، إذعانكم للموت".

عبد المحسن يلتقي ببتلر، يرى ما في عينيه من حقد، يسمع ما يدور في تلافيفه من هسيس انتقام، مع ذلك لا يستطيع أن يرد. بوده لو يفقأ عينيه بأصابعه، أن يأكل تفاحة آدمه بأسنانه، لكنه لا يستطيع. الأوامر واضحة، "دعوهم يفتشوا. لا تستفزوهم. لا تفتعلوا معهم أية مشكلة"، وكان ضباط الحرس الجمهوري ملتزمين. عبد المحسن ملتزم، فقط يكظم غيظه، يرقب كلاب الأنكلو أمريكان وهي تتشمم، تنداح في هذا الموقع، ذاك، دون أن يستطيع إيقافهم، فيطلق الزفرات، زفرة إثر أخرى.

فاطمة تطلق أيضاً الزفرات. هي حامل. بطنها شبران أمامها، ولا تدري متى يبدأ الطلق.

-اذهب فائت برقية. قالت له وقد عاد كاتماً للزفرات.

-تشكين بقرب الوضع؟

-طبعاً. أنا ممسية مصبحة. ترى ما أفعل إن جاء الطلق وأنا وحدي؟

أحس محسن بنوع من وخز الضمير. "صحيح، كيف غاب ذلك عن بالي؟" لكن يغيب عن باله، ومعركة لجان التفتيش أخذته كله!؟.

-غداً اتصلي بها، وإن كانت جاهزة أرسل لها السيارة.

وتنفست فاطمة الصعداء. في السابق كانت أمها تأتي، تساعدها في الوضع. حماتها جاءت ذات مرة من العمارة، لكن لا أمها ولا حماتها ظلت على قيد الحياة. العراق من قمح، ومنجل الموت يحصد القمح حصداً. شظف العيش، شح الموات، نقص انعدام الغذاء، كل ذلك كان يمهد الطريق للموت فيعمل منجله في الحقل، يحصد ويحصد. ابن فاطمة وابنتها كانا قد حصدهما منجل الموت. لكنها تحدت الموت حملها الثالث يصيح بصوت تكاد تسمعه: استعدي، أنا على وشك الخروج، فماذا فاطمة؟

الصباح التالي اتصلت بأختها، فرحة أن الهاتف عاد إلى العمل. مرافق كثيرة عادت إلى العمل: جسور، أسلاك كهرباء، قنوات مياه، مستشفيات، مدارس.. كان العراق يعمل ليل نهار لإعادة البناء وكان الطريق طويلاً لكنه كان يسير، وكله على أن يقطع ذلك الطريق.

-أختي رقية، هتفت بها، أنا على وشك الوضع ومالي غيرك.

-تكرم عيونك فاطمة. تريدينني أن أذهب الآن؟

-لا. الظهر تصلك السيارة.

-ولماذا تبعثين السيارة؟ أنا أذهب بروحي؟

-رقية!! ايش هذا الحكي؟ محسن ما يرضى.

-زين. أجهز نفسي لحين وصول السيارة.

-هاتي معك الأولاد. هاتي رئبال. نحن اشتقنا لكم كثيراً.

-لا. لا. رئبال، ما أظنه يجيء. عنده شغل بالحقل. أخليه مع الأولاد.

وحين أطبقت السماعة تنفست هي الأخرى الصعداء. رقية تشعر أنها بأمس لفراق العمارة ولو إلى حين. هي مشتاقة لبغداد. شوق عارم كان يؤجج صدرها العاصمة التي أحبتها طوال حياتها. دار السلام، مدينة المنصور، عاصمة الدنيا ذات كانت تفتنها دائماً. لألاؤها، بهرجها، سحرها، ذاك الساكن في العينين، العصي على يشد عينيها دائماً، لكأنها مسمار قرب كتلة هائلة من المغناطيس. شارع الرشيد، النواس، الشورجة، حيفا، المنصور، كلها تسكن خيالها ولا تفارقه. رقية غادرتها مكرهة. الخروج من بغداد أشبه بخروج أمها حواء من الجنة.

لكن رقية لم تكن قد ارتكبت إثماً. هي تقسم أنها لم تغر آدمها بأكل تفاحة من شجرة معرفة. لكنه سوء الحظ، جعلهم ولا خيار لهم سوى الخروج من الجنة.

في العمارة أرض يمتلكونها وحقول يمكن أن تزرع لتعود غذاء يسد الأفواه الجائعة يمنع الأطفال من الموت. رئبال مهندس صناعي، مارس كل شيء إلا الزراعة. لكن، للضرورات أحكام، والضرورة حكمت عليه أن يعود مزارعاً يعتني بشجر النخيل، الحقول حنطة، ينمي الخضراوات أو مات هو وأطفاله جوعاً. هو رهين حصارين: حصار الآخرين للعراق وحصار العراق له. ألم يكن مدير مكتب حسين كامل؟ ألم يكن يكتشف ما يخطط له في الخفاء؟ حسن حظه فقط أنقذه من دفع الثمن كاملاً. هو بعضه: سجناً، تعذيباً، إذلالاً، لكنه لم يدفع الثمن كاملاً: الحياة في بلده الإنسان هو يعلم ذلك. حياة الإنسان بخسة الثمن. منذ الحجاج، والسيف يقطع الرقاب حساب، لكأن النساء يحبلن ويلدن، فقط كي تقطع السيوف الرقاب. سيف الحجاج يكف عن القطع. هو آلة متحركة دائماً لا تصعد إلا لكي تنزل، فكيف لا يحمد لم تقطع؟.

في الأرض يعمل. إلى الطبيعة يهرب، ففي العمارة عيون ترصد وآذان تتنصت. العمارة مسقط رأسه، والكثيرون يعرفونه.. إن جلس في المقهى سيسألونه بل ربما سيجرونه للكلام، ثم ماذا يفعل في المقهى؟ هو يكره المقاهي.. يكره التبطل.. التسكع. حياته كلها كانت دأباً متواصلاً إلى أن تخرج بتفوق، ثم عمل بتفوق، بل لم يكن اختيار له أمين سر إلا لمعرفته بذلك التفوق. حسين كان يريد أن يبني العراق. رئبال يذكر جيداً خطة "المعلم": نقلة نوعية تنقل العراق من العالم الثالث إلى العالم الأول أو الثاني على الأقل. "وكيف ذلك؟" "بالصناعة". كانت الصورة واضحة في ذهن حسين كامل. "نهضة أوروبا ماذا تعني؟ الصناعة، فلماذا لا نقيم نحن المصانع؟ ندخل التكنولوجيا؟ بأسباب العلم كاملة وندفع بلدنا على طريق التطور؟" وبدأ حسين المشوار. استقدم خبراء، جاء بأدمغة أجنبية، استقطب أدمغة عربية وتحول العراق إلى خلية نحل تعمل ليل نهار. كان حسين كامل يعلم أن عليه أن يسابق الزمن.. أن يحرق المراحل فالأعداء يتربصون. إن رأوه لن يتركوه. في لعبة الشطرنج التي يريدونها، العراق بيدق يتحول إلى فرس أو وزير؟ مصيره، هم الذين يحددونه، مساره، هم الذين فكيف يعمل على تحديده بنفسه أو اتخاذ قراره بذاته؟

رئبال يذكر أيام العز تلك، يذكر الحيوية، النشاط، الحماسة منقطعة النظير تلك التي يعمل بها الجميع: عراقيون، عرب، أجانب.. كلهم كانوا متحمسين، مندفعين. تجربة النقلة النوعية تلك كانت تغريهم. حرق المراحل كان يفرحهم. بثلاث سنوات تجتاز مرحلة ثلاثين سنة، بعشر تجتاز مائة سنة، أية تجربة رائعة؟ أينشتاين نفسه سيفرح لها كيف يمكن للإنسان أن يتلاعب بالزمان؟ "إيه، يا أيام العز كم كنت رائعة!! كم آمالنا فيك كبيرة!! مطامحنا عظيمة!! فلماذا خنتنا يا زمان؟ لماذا غدرت بنا أيها "وأطلق رئبال آهة طويلة وهو يضع المعزق جانباً ليستريح. كان، كعادته، الشمس، يحمل زوادته: خبزاً وتمراً أو خبزاً بلا تمر ففي الحقول بصل كثير. رئبال زاهد، بل الدنيا كلها أزهد لديه من عفطة عنز. هو يعذر من هم فوق إن مسكوا قسوا في حكمهم على أحد. كثرة الأعداء علمتهم الحذر والشك، تلاحق المؤامرات علمهم القسوة في الحكم. حسبه أنهم عفوا عنه. أخرجوه إلى الحرية، حيث يمكن يعمل ويتحرك ملقياً بنفسه بين أحضان الطبيعة، أما رؤوماً تفيض عليه رعاية أحياناً يشعر أنه سعيد، حظه حسن. ساعات فصلت بينه وبين الموت. "ماذا لو الهجوم وأنا في منزل حسين كامل؟ ماذا لو زرته قبل يوم واحد وعرفوا بتلك ويحمد رئبال ربه من جديد. "هي حسنة هؤلاء الأطفال، فمن يعيلهم إن مت؟" وعاد من جديد يعزق الملفوف الذي لم تلتف أوراقه بعد. كان الحقل على ضفة دجلة. وكانت التربة خصبة. "يقولون رأس الملفوف يكبر حتى ليزن عشرين كيلو غراماً. لدي رأس، إذن ستكون الغلة وافرة: أطناناً من الملفوف سأنتج، ولسوف أقبر الفقر". وغرق رئبال في عمله، حافراً عازقاً، فالأعشاب ضارة، تتطفل.. تسلب النبات غذاءه المتطفلين في الأرض الناهبين السالبين.

فجأة جاء صوت طيران: دوياً ملء السماء والأرض. رفع رئبال رأسه عله يرى العمارة في منطقة الحظر محرم أن ينصب فيها رادار.. يتربص مدفع، يتحرك الأنكلو أمريكان يرقبون المنطقة. كل يوم تأتي الطائرات، لكن دويها هذه المرة مختلف.

"هي قريبة من الأرض أعدادها كبيرة"؟ وشرع رئبال يمسح السماء بناظريه محدقاً

الغـرب، فجـأة أحس بصـوت انفجـار وموجة هائلة من دوي تدفعه إلى الـوراء، أرضاً.
وصلت السـيارة من بغـداد ولم يصل رئبـال من الحقـل. رقية تنتظـره بفـارغ الصـبر. مذ اتصلت بها فاطمة تدعو الله أن يصل بسرعة. رئبـال يعـود عـادة مع أذان الظهـر. أحيانـاً يصلي في الجامع وهو في طريقه إلى المنزل، وأحياناً يقعده التعب عن ذلك. رقية تريده أن يعود. لكن لم يعد بعد. هي قلقة عليه، سألت عنه بعض الجـيران، الأقربـاء، لكن لم يره. "ما سبب تأخره؟ أتراه قصف الطـيران؟ "لكن الكل قـالوا إن القصف بعيـد. أين الحقل من مكـان الـرادار؟ خمسـمائة مـتر.. ثمانمائة مـتر، المسـافة الفاصـلة. مع أحست رقية بـالقلق. الانفجـارات الشـديدة هـزت حـتى بيتها في العمـارة. بعض الأطـراف تحطم زجاجهـا، هـذا ما يقوله النـاس. "فهل تحطم زجـاج رئبـال وهو بكثير؟".
رئبال لا يدري ماذا تحطم فيه، لكنه فتح عينيه فوجد كل ما حوله خواء، صمتاً وسكوناً. هز رأسه نافضاً تلافيفه الدماغية فوجدها ما تزال خواء. تلمس رأسه، صدره، رجليه، كل شيء فيه صحيح سليم. لا دماء.. لا كسور.. الدوي وحده كان ما يزال ملء أذنيه. هز رأسه، شد الشحمتين، خض ببنصريه الثقيبين، حاول فتح الأذنين لكن الأذنين لم تنفتحا. سـدادة قد توضعت على الغشاء الطبلي في كل منهما، والدوي الهائل ما يزال ملء أذنيه. الخواء ملء رأسه، الفراغ ملء عينيـه، وهو منبطح على الأرض "ما الـذي حـدث؟" بعد جاءه الجواب: الانفجار. "لكنني سليم.. لم أصب بأذى"، يداه اللتان تلتمسا جسده عادتا بالجواب الشافي. "لأنهض" ونهض رئبال فـارغ الـرأس خـاوي العيـنين أصم الأذنين. نهض. الأفق صاف.. السماء خاوية. لا آثار انفجار، لا دخان، لا غبـار، والشـمس السماء تشق طريقها ببطء ولا مبالاة كأنما لم يحدث تحتها شيء.
-هلم نبحث عنه، قالت رقية للسائق وقد نفد صبرهما حتى آخر قطرة، وأسرعت السيارة برقية على طريق تـرابي يشق حقـولاً خضـراء تسـير مع دجلة العظيم، وهو يهـدر الخريف الأولى. عند طرف الحقل تـوقفت السـيارة، وحين نـزلت رقية تنفست الصـعداء كان رئبال يسير باتجاهها، بطيء الخطا، خاوي العينين، لكنه يسير، بغير معزق، فرحاً مرة أخرى بأنه ما يزال قادراً أن يسير.
-ما الذي أخرك؟ سألته وهي تحدق إليه ممسكة بذراعه، لكنه لم يجب. الصوت الذي جاء مشوشاً مبهماً تـراكبت أحرفه بعضـها فـوق بعض، ومن جديد نفض رأسـه، هز أذنيه ويسرة، أدخل بنصريه في ثقبيهما وشرع يحركهما، يخضـهما.. يريد أن يخلصـهما الدوي الهائل وقد بدا أشبه بجدار مصمت ترتد عنه الأصوات.
-ما بك؟ قل لي. لماذا تأخرت حتى الساعة؟ عادت تسأل بمـزيج من الخـوف هذه المرة، عيناه رصدتا شفتيها، أذناه تنبهتا لكل حرف من كلماتها. واستطاع رئبال أن يفهم. هو لم يسـمع جيـداً لكنه فهم. الـدوي كـان ما يـزال جـداراً صـاداً راداً الكلمات. وبتمهل شديد وتلجلج واضح حكى لها ما حدث.
-يا إلهي الانفجار قريب منك؟ كاد يقتلك؟ حمداً على سلامتك إذن، حمـداً على وبيدين راعشتين راحت تحيطه.. تسنده، دافعة به إلى السيارة..
في المنزل غسـلت له وجهـه.. رأسـه.. يديـه.. عنقـه. ثمة تـراب.. غبـار. نتف من علقت بشعره. موجة الانفجار الطافية حملت معها الكثير ولا شك لكن حسن حظه جعلها أخف من أن تمـزق غشـاءه الطبلي.. أبعد من أن تسـتطيع رفعه عاليـاً في تخبطه على الأرض فيتحطم. بعد ذاك، سقته رقية الماء.. المنعشات، وشـيئاً فشـيئاً رئبال يشعر أن الفراغ داخل رأسه ينسد، الخواء في عينيه يمتلئ، الدوي في أذنيه ينحسر ليسمع من جديد ما كانت رقية تريد إيصاله.
-لا بـأس، لا بـأس، يمكنك أن تسـافري إليهـا. قـال أخـيراً وهو يحملق بنفسه في متعجباً أنه ما يزال على قيد الحياة.
-أسافر؟ كيف وأنت في هذه الحال.
-لا، لا، أنا بخير. رد باذلاً كل جهـده كي يبـدو مرتفع المعنويـات، وأعين الأولاد كلها فيه. كل شيء على ما يرام.
-أتسمعني جيداً؟ سألت وهي تحاول الاطمئنان.

-أجل!! أشعر أن الغمامة انقشعت، شيئاً فشيئاً انفتحت المغاليق، رقية، أذناي فلا تشغلي بالك. أنا بخير.
-لا.. لا أستطيع. سأتصل بها أعتذر.
-لا، رقية. لا، فاطمة بحاجة إليك. اذهبي، قلت لك. ولنحمد الله أنها جاءت سليمة.
طوال الطريق ظلت رقية تحمد الله: "رئبال نجا بأعجوبة وكيف لا أحمد الله؟ الطائرة، لو قصفت أقرب قليلاً ما الذي كان سيجري لرئبال؟ رباه، لم هذا كله يا رباه؟ العراق مباح: ترابه.. مياهه.. نباته.. حيوانه.. كل ما فيه مباح للسيد الكاوبوي امبراطور العالم فإلى متى يا رباه؟" رقية تفكر وخوف غامض يتسلل إلى كل ذرة من "ماذا إن قصفوا سيارتي الآن؟" وشعرت بنفسها ترتعد وهي تتصور جسدها أشلاء تختلط بأشلاء السيارة والكل يتطاير في الفضاء.
-ما بك؟ تساءلت فاطمة وقد رأت رعباً شديداً في عيني أختها.
-رئبال!! كان اليوم.. وأشارت بيدها إشارة الطيران بعيداً في الفضاء.
-فأل الله ولا فألك!! ماذا حدث؟
حينذاك روت رقية لفاطمة تفاصيل ما حدث.. فكادت تولول.
-مسكين!! رئبال!! حتى في الحقل لم يخلص!؟ كم هو سيئ الحظ!!
-ومحسن!؟ إن شاء الله بخير؟ ما من مشاكل؟
-لا، الحمد لله. محسن حسن الحظ.
-أجل، احمدي الله. احمديه.. الدنيا يا أختي حظوظ، ومن كان سوء الحظ يلاحقه، ولا يشقى.
-إن شاء الله تتحسن الأحوال ويرجع رئبال، محسن لم ينسه، ها!!
-صحيح. محسن رائع. هو أخ وليس ابن عم. أين هو؟ ألن يأتي إلى العشاء؟
-بل سيأتي. أجابت فاطمة ناظرة إلى الساعة وكلها توقع أن يظهر محسن بين وأخرى.
وإلى أن ظهر شغل الأختين بطن فاطمة: الوضع وشيك، أخبار الجنين، يتحرك؟ فيما رقية لا تفتأ تتلمس البطن الذي هبط إلى الأسفل حتى صار بين فخذي فاطمة. ثم ما إن جاء محسن حتى عادت أسطوانة الأسئلة تدور حول رقية وأسطوانة الأجوبة تدور هي الأخرى.. محسن يريد أن يعرف كل شيء عن القصف.. عن الذي يحظر منطقة الجنوب.. عن حادث رئبال، ولم يتوقف سيل الأسئلة إلا وقد حط ملاك النوم.
فاطمة سعيدة برقية ورقية سعيدة بفاطمة: أختان توءمان ترى واحدتهما الدنيا في عيني الأخرى.. تجلسان فتستعيدان الماضي، تقلبان الذكريات وتضحكان، تبكيان. ثم رقية إلى بطن فاطمة "ماذا؟ ألن تضعي؟" وفي صميم قلبها تود ألا تضع، عل فرصة أكبر تتاح لها لرؤية بغداد.. للاستمتاع بأحضان بغداد.. رقية تترك أختها وتخرج إلى الشوارع. تجوب هنا وهناك، تطمئن على السليم من بغداد، تحلم بترميم ما خرب وتماشي دجلة. تعبر الجسور التي أعيد بناؤها: الرصافة، المعلق، الثورة، كلها المواضع العزيزة على قلبها. "هنا تنزهت مع رئبال. هنا أكلنا المن والسلوى. هنا قصقصنا البزور والموالح." وتعود مع الظهيرة إلى فاطمة.
يومين، ثلاثة، أربعة أيام؟ وفاطمة لم تضع. ثقيلة متعبة في آخر رمق، مع ذلك لم تضع.
-ماذا؟ هل غيرت رأيك؟ سألها محسن ضاحكاً وقد جلسا إلى مائدة الغداء.
-اسأله هو. ردت فاطمة وهي تشير إلى أسفل بطنها. ولد عنيد.. ابن أبيه.. وضحكت فاطمة ورقية، فالعناد هو السبة التي كانتا لا تفتآن تلصقانها بمحسن.
-ولم العجلة؟ من هو في بيت أهله، على مهله. رد محسن ضاحكاً، هو الآخر، غمزة فاطمة.
-أنا أيضاً في بيت أهلي، عقبت رقية، وفي نيتها أن تطمئنهما أنها أمرها. هي تتصل كل يوم بالعمارة، تطمئن على الأولاد. الابنة الكبرى تسد مسدها، تعمل كل ما ينبغي عمله في البيت. إذن لم السرعة، وهي في بغداد؟
رن الهاتف. همت فاطمة بالنهوض، لكن يد محسن أسرعت وقد نهض بنفسه للرد:
-ألو! نعم. حاضر سيدي. مسافة الطريق سيدي. وأطبق محسن السماعة مباشرة إلى غرفة النوم.

-ماذا؟ ألن تكمل طعامك؟ سألت رقية وقد استغربت ردة فعله السريعة.
-مهمة عاجلة. هم يريدونني الآن. أجاب من غرفة النوم وهو يبدل ثيابه.
-ما هذه المهمة العاجلة الآن؟ هذه المرة سألت فاطمة. هل من أزمة جديدة التفتيش؟
-لا. لم يحن الوقت بعد، رد وهو يتجه إلى الباب.
-هل تتأخر؟
-لا، لا أعتقد ذلك. قال وهو يميل على خدها يطبع قبلة سريعة، ربما مكافأة على لنفسها ثقيلة، متعبة، في آخر رمق، كي تودعه.
لم تأكل فاطمة بعد ذلك، "سدت نفسي". رقية أكلت حتى الشبع، فالتجوال في بغداد كان قد استنفذ كل ما لديها من طاقة وكانت بحاجة إلى تعويض.
-ايه!! رقية!! أرأيت ما أبشع حياتنا!؟
-حياتكم أنتم بشعة؟ ردت رقية باستنكار، ملايين الناس يحسدونكم. لديكم سيارة جميلة، تموين وافر: لحوم.. فراريج.. أسماك.. هنيئاً لك يا أختي!!
-بل هنيئاً لك أنت!! أنت البعيدة في العمارة، لا سلطة ولا مسؤولية. تعلمين أحسد كل من هو بعيد عن السلطة.
هزت رقية رأسها وفي صدرها شيء من غيظ:
-ونحن الذين نحلم بأذيال السلطة، ماذا نقول؟
-لا.. لا تحلمي ولا يحزنون. على الأقل زوجك يظل إلى جانبك. يأكل.. ينام. لا أحد يخطفه منك وهو على مائدة الطعام. لا أحد يستدعيه وهو في عز النوم.
-لكن، لماذا يستدعونه؟ لماذا يخطفونه؟ أليس له نظام عمل ثابت؟
-لا، لا، هو يدعى إلى مهمة، لا يدري متى، كيف، أين، وعليه أن يلبي، رقية!! تعلمين أكره هذه الحياة.. بت أكره نفسي.
-لا، فاطمة! لا تقولي ذلك.
-وماذا أقول إذن، أنا التي لا تشعر بالأمان؟ كأنما هي في قلب الخطر. تسير ألغام.
وتعجبت رقية. كانت أول مرة تشكو فيها فاطمة، وكانت الشكوى مرة، في وحسرة أحست بهما رقية فامتنعت عن الكلام.
كانتا تشربان الشاي. بعد الطعام تحب رقية كثيراً أن تشرب الشاي. فرغت من الأواني.. ترتيب المطبخ. وفاطمة في غرفة القعود مستلقية، تريح جسدها من حمل ثقيلاً متعباً يقطع الأنفاس.
-تعلمين رقية؟ عادت فاطمة للحديث بعد فاصل من صمت. لمن أنا مشتاقة الموت؟
-لناصر، ردت رقية، هي التي تعلم مقدار حبها لأخيها.
-أجل. أدفع نصف عمري لو أعلم أخباره، أسمع صوته.
-بيدك حق. أنا أيضاً مشتاقة إليه. لم يعد لنا سواه.
وشردت كلتاهما، ربما تستعرضان ما فعلت بهما الحرب؟ ما فعلت سبع سنين حصدت فيها أقرب المقربين: أماً، أخاً، عماً، أبناء، بنات كما حصدت معهم الرغد، السعادة، لتزرع الخراب والدمار ليس في البصرة، مربع الصبا والطفولة وحسب، بل في كل مكان من أرض العراق.
-تعلمين؟ آخر مرة سمعت صوته كان قبل الحرب، بيوم أو يومين.
-كان يتكلم من عمان؟
-أجل. أما اليوم فمن يدري أين هو؟ في بيروت؟ دمشق؟ واشنطن؟
-لا، هو ليس كجبار.. لا يمكن أن يرتكب خطأه، فيبيع نفسه للأمريكان.
-تظنين ذلك؟ سألت فاطمة، وكأنما يخيفها بعض الشك في النسف.
-بل أنا واثقة. جبار يمكن أن يبيع نفسه للشيطان، لكن ناصر لا.
-أرجو ذلك رقية. أرجو ذلك، فما أصعب أن تري أخوتك أعداء!! أشقاءك عملاء للأعداء.
-ناصر لا يصير.
-لكن جبار صار.
جبار بلا.. وأشارت إلى جمجمتها إشارة الفراغ والخواء.

-خسارة جبار!! كل عمره كان فارغ الرأس، وأطلقت فاطمة زفرة. كانت أخبار وصلتهم من الشمال عن وصفي- جبار التنكجي- الذي تزوج كردية وباع نفسه الأكراد باعوه لأمريكا فمضى إلى واشنطن يغريه الذهب ويغويه الدولار. حينذاك هاج محسن وماج "عار يلطخنا به جبار!! سبة في جبيننا!! ماذا أقول للقيادة؟ بماذا اتهامات الرفاق؟" ولم تستطع فاطمة أن تهدئه إلا بالكاد. هي تعلم أنه على حق. أخواها الاثنان خارج البلاد. كلاهما معارض. لم يحتج محسن في البداية ولم يحنق. المعارضة من حقهم. كل مواطن حر. يوالي، يعارض.. هي حرية الرأي، فليمارس كل حريته، يصبح مطية للاستعمار؟ أن يبيع نفسه وجسده للاستعمار؟ لا وألف لا. محسن لم يستطع تقبلها. فاطمة نفسها لا تستطيع ذلك. وظل أملها الوحيد أن لا يكون ناصر قد باع للأعداء.

-آخ!! آخ!! انطلقت الآخات على حين غرة.

-يا إلهي!! لا، فاطمة ليس الآن!! هتفت رقية وهي تهب ملء طولها خائفة.. مرتعدة.

-بل الآن، رقية!! إنه المخاض رقية! اتصلي بمحسن.

-محسن!! أجل. محسن!! وأسرعت إلى الهاتف تدق رقماً.

محسن بعيد، لا يسمع رنين الهاتف. هو في مهمة عاجلة لم يكن يدري بها من تلك المهمة تحدث مرتين أو ثلاثاً في العام. لكن يمنع عليه منعاً باتاً أن يعرف قبل أو يتحدث عنها من بعد. القائد، مسؤول القصر الأمني، وحدهما يعرفان المهمة. يحددان زمانها ومكانها ثم ينفذ محسن.

هذه المرة كان عليه: تدشين مصنع أعيد بناؤه، العمال، المدراء الوزراء، كلهم هناك يستقبلونه. يحييهم من بعيد ثم يتقدم فيقص الشريط فيما الإذاعات تنقل الحفل، التلفزيونات تبث صورة القائد الملهم، زعيم البلاد الأوحد، وفي اليوم التالي تخرج الصحف تتصدرها جميعاً الصورة نفسها: القائد بين صفوف العمال.. في قلب الجماهير، هو ابن الشعب البار. حضوره ضرورة. وجوده ملهم. به ترتفع معنويات العمال، الشعب ويطمئن. القائد معه. في كل معركة. كل إنجاز، كل ملمة. هو مع الشعب.

ومضى محسن. موكب السيارات طويل، وهو البديل. نظاراته، سترته العسكرية، شارباه، سمرته، نظرته، كلها تحاكي ما لدى القائد.. تجعله يتماهى معه. من الخلفي، يلوح بيده للجماهير.. يحيي الشعب. تصل السيارة إلى باب المصنع. تسرع أكثر من يد لفتح الباب. يخرج القائد من السيارة، تصفيق الأكف يشق عنان السماء، تدوي: بالدم، بالروح، نفديك يا صدام!!

ويتقدم صدام إلى الشريط، منتصب القامة، مرفوع الهامة يتقدم إلى الشريط، طفلة صغيرة، وعلى صينية من فضة، مقصاً من ذهب، يمسك به صدام، لكن يصل المقص إلى الشريط تنطلق زخة من رصاص، ترتطم بالقائد ثم تهوي به جسده ينابيع من دماء.

***

الفصل الخامس عشر

"اغتيل صدام"، "تحطم الصنم"، "هوى الطاغية" راحت وكالات الأنباء تتناقل العجيب بسرعة الضوء. اليونايتد برس، الأسوشيتد برس، الفرانس بريس وكل من "بريس" في العالم راح يتناقل الخبر، فالرجل الذي بدا عصياً على كاوبوي سنين طويلة يخر أخيراً صريعاً، أية معجزة؟ كيف حدث ذلك؟ ملايين الدولارات رصدت للتخلص منه. ملصقات الأنكلو أمريكان في كل مكان، عليها كلها صورة وعبارة كبيرة بأحرف سوداء "Wanted dead or a live" وخمسة ملايين دولار بانتظار من يأتي برأسه حياً أو ميتاً، مع ذلك، أخفقت كل المحاولات من قبل، فكيف أفلحت المرة؟

كلينتون اتصل بالخليج مهنئاً مباركاً، فصورة الديكتاتور المستبد وهو يهوي أرضاً تفجر جسده ينابيع من دماء تتناقلها الفضائيات كلها. مصور التلفزيون العراقي تابع مراسم افتتاح المصنع: نزول القائد من السيارة، هتاف الجماهير، استقباله بالتصفيق، القائد وهو يمسك المقص ثم زخات الرصاص وهي تنهمر وابلاً من مطر.

الصورة انطلقت عبر الأثير رغماً عنه، ثم تناقلتها المحطات الفضائية، فهلل أمراء. فيما طار الفرح بكلينتون كما لم يطر به وهو مع مونيكا ليونسكي، "ألم أقل لكم؟

سننال منه. يهرب منا إلى أين، ونحن وراءه؟ تهاني الحارة. ألف مبروك!! ألف راح يوزع التهاني والتباريك وهو يدور على نفسه فرحاً! الأمير المفدى.. الملك المعظم.. صبي لندن المدلل.. كلهم كانوا يدورون على أنفسهم فرحاً ويرقصون: أخيراً البعبع. لم يعد هناك من يعكر الأمن والاستقرار في الخليج. النغمة النشاز ولت، ليبقى الكل في أحسن تناغم وانسجام. تريد أولبرايت مقام النهاوند، الكل يعزفون النهاوند. يريد كوهين السيكا، يعزف الكل السيكا فأي انتصار عظيم!! أي إنجاز رائع!!
باقر في دمشق، سعدون في النرويج، كريم في انكلترا.. المعارضة في الخارج، الداخل، سمعت الخبر فهزجت ورقصت وبدأت تتبادل التهاني. "بسقوط الرأس الجسد"، "لا بقاء لنظام بغداد بغير طاغية بغداد"، راحوا يتداولون فيما بينهم وتفاؤل، "الآن نعود إلى العراق"، "الآن ينتهي الشتات"، "المحنة تزول أخيراً". بعد اليوم، بل نحن عائدون إليك يا عراق" راحوا يتحدثون فيما بينهم حيث التقى واحدهم بالآخر. المعارضة كبيرة.. ملايين العراقيين فروا بجلودهم من الموت.. انتشروا أصقاع الأرض كلها وعيونهم تتلفت إلى العراق، قلوبهم تنشد إليه، لكن الموت يحول بينهم وبين العراق، فيلوون أعناقهم ويتحسرون. الآن، انكشفت الغمة، سقطت العوائق والحواجز، فماذا بعد صدام؟
سؤال كبير راح هو الآخر يتردد، بدءاً من امبراطور العالم وحتى رعاة الأغنام العراق. في الداخل، كان ثمة من سمع الخبر وتنفس الصعداء، بل منهم من راح في مكانه فرحاً وقد تأكد أن بابه مغلق وحيطانه ليس لها آذان، لكن معظم الناس سمعوا الخبر فكظموا ووجموا وكأن على رؤوسهم الطير: "هي ذي الطامة الكبرى!!" "هو الخراب الأعظم!!" "يا رب أنقذ العراق من الفتنة!"" "يا رب أبعد العراق عن راحت الأقوال تتردد بين خائف على العراق ومتشائم من المجهول الأسود ذاك الذي ينتظر العراق.
فاطمة لم يصبها الوجوم حين سمعت الخبر وحسب بل أصابها الذهول: عيناها في محجريهما، فمها انفتح على مصراعيه، سيماها كلها سماء تلبدت بغيوم الاستغراب والدهشة.
-معقول؟ أفلحت أخيراً بالإفصاح لرقية، ذلك الصرح العظيم ينهار بزخة رصاص؟
-لا.. أنا لا أصدق!! كررت رقية، المنذهلة هي الأخرى. هو الزعيم الملهم، القائد يسقط صريعاً كأي رجل. لا. لا. أنا لا أصدق.
-أنا أيضاً لا أصدق. هو البطل خارق القوة، أخيل الإغريق، زيوس الأولمب، لا ينال منه الرصاص. تابعت فاطمة، وهي تقفل المذياع برمة مشمئزة، ناسية الطلق كان قد جاءها، ناسية الجنين الذي كان قد بدأ يشق طريقه إلى الخارج. لكأن الرحم به القهقرى وقد تشنج الجسد كله.
رقية أخذت المذياع من فاطمة لتفتحه من جديد:
-يجب أن نتأكد فاطمة. الخبر فظيع إن صح. وراحت تدير قرص المذياع. إذاعة بغداد تبث برامجها المعتادة، تلفزيون بغداد لم يضع قرآناً كريماً.
-يا إليه!! ما السر؟ هتفت فاطمة وقد خطرت ببالها فكرة: لا تلاوة قرآن.. لا برامج، إذن الخبر كاذب. وانفرجت بعض أساريرها.
-لكن المحطات كلها تؤكده. هه، اسمعي.
وكان صوت أمريكا يلعلع كرصاص الأعراس. صوت لندن يطن ويرن كأنما يريد لا أحد يقف في وجه لندن. كل من يرفع رأسه نحطم له رأسه، وعاد الوجوم، أطباق غيوم تتكدس في سمائها. لكن فجأة تنبعث من التلفزيون موسيقى نشرة الأخبار، فتتحول فاطمة ورقية إلى آذان صاغية وحسب، ثم يظهر للتو صدام وكبريائه يخاطب شعب العراق: يا نشامى العراق!! يا ماجدات العراق!!
-يا إلهي!! هذا صوته!! هذا وجهه!! هذا هو!!
-إنه حي يرزق!!
هتفت الأختان وهما تريانه يجلس وراء طاولة مكتبه يوجه كلمة بمناسبة الذكرى للعدوان الأنكلو أمريكي: "تريد أمريكا عدوة الشعوب.. عدوة الحياة أن تنزع منا تريد تركيع رجالنا، تجويع نسائنا، قتل أطفالنا، لكن خسئوا!! قبلهم حاول جنكيز خان أن

يبيد العراق.. هولاكو، مماليك الغز، سلاطين بني عثمان كلهم حاولوا إبادة العراق، العراق، لكن كلهم ذهبوا وظل العراق حياً لا يموت."

-الصورة حية، النقل مباشر!! انظري!! قالت فاطمة لرقية، وهي تشير إلى أكثر علامة على أن الصورة حية والنقل مباشر.

-أجل. القائد لم يمت!! الزعيم حي!! والحديث كله حديث إفك!!

ردت رقية وقد قفزت فرحاً من مكانها لتدور على نفسها هازجة راقصة.

-حمداً لك يا رب!! لم يمت القائد!! خاب فأل الأعداء الحاقدين!! هتفت بدورها وقد هبت تشارك رقية الهزج والرقص، لكن ثقلاً في الرحم جعل ظهرها يلمع كأنه جرس إنذار يقرع، فالجنين الذي نسيته فاطمة لم ينس هو نفسه. كان الرحم قبض عليه، شاداً متشنجاً، لكن ما إن نهضت فاطمة حتى ارتخى وانفتح مطلقاً من ألم اخترقت الجسد كله حتى الرأس.

-آخ!! آخ!! شرعت فاطمة تصرخ هابطة بكل ما فيها على الكرسي الذي غادرته اطلبي عبد المحسن. الحقيني، رقية، قبل أن أضع، راحت تصيح وهي تتلوى ألماً.

-آلو!! آلو!! شرعت رقية تخاطب المهتاف وقد تملكها الخوف. محسن!! أسرع بفاطمة. أسرع فوراً إلى البيت.

لكن حين وضعت السماعة فقط أدركت أن الصوت الذي رد عليها لم يكن صوت محسن.

-هل سيأتي؟ سألت فاطمة.

-أجل. قال، مسافة الطريق فقط. ردت رقية وكلها فضول لأن تعرف لمن ذلك الصوت.

-آخ!! يا يما!! يا يوي!! راحت فاطمة تصيح وقد جاءتها طلقتان متتاليتان كلمعتي تلحق واحدتهما بالأخرى.

-تحملي أختي!! اصبري أختي!!

لكن فاطمة كانت تعلم أن المسألة ليست مسألة صبر أو تحمل، بل مسألة أنت مع الوجع لا تملك إلا أن تفتح فمك وتصرخ، مع الألم لا تستطيع إلا أن تنفث وتصيح. فلماذا تكتم فاطمة؟

رن الجرس فتهلل وجه رقية وهي تجري جرياً إلى الباب، فيما بدأت فاطمة للنهوض.

-من أنت؟ ماذا تريد؟ سألت رقية الطارق طويل القامة متجهم الوجه وقد ضابطاً ذا رتب ونجوم دون أن تربط بينه وبين صاحب الصوت الذي رد عليها قبل قليل.

-أنا العقيد سلام، من القصر الجمهوري. بدا وقد ازداد حيرة وتجهماً.

-نعم، تشرفنا. ماذا تريد؟ حثته رقية وهي تشعر أن في فمه كلاماً.

-أهو السائق؟ أهي السيارة؟ صاحت فاطمة من الداخل لكن دون أن تعيرها رقية فالعقيد المتجهم طويل القامة كان كل ما يستأثر بانتباهها، ومن جديد حثته:

-قل. تكلم. أرجوك.

-للأسف!! العميد عبد المحسن تعرض لمحاولة اغتيال!!

-محاولة اغتيال؟ رددت صائحة كإوزة تختنق.

-ماذا؟ اغتالوا عبد المحسن؟ مات عبد المحسن؟

صرخت فاطمة مقتربة من الباب وقد سمعت آخر كلام رقية، فيما كانت لمعة البرق تنطلق من رحمها من جديد ومن جديد تصل إلى دماغها فتفجه فجاً.

بعد ذلك نسي العقيد ورقية كل شيء ما عدا فاطمة التي انهارت متكومة على رفعاها بسرعة، حملاها بسرعة، وبسرعة أوصلاها إلى المستشفى ليسعفها المسعفون وهي في آخر رمق.

بعد خمسة عشر يوماً فقط سمح لها المستشفى، لكن خلال الأيام الخمسة عشر تلك كانت أجفانها قد تقرحت وعيناها قد احمرتا، وشفتاها قد يبستا، بكاء فالمصائب على ما يبدو لا تأتي فرادى:

إذا نكبة جاءتك جاءت بأختها
وتلك دعت أترابها والحواشيا
مصائب تأتي جملة وكأنها

تداعى كما الأفكار تأتي تداعيا

كان الجنين قد مات رافضاً أن يخرج إلا بعملية قيصرية تركت بطنها شبه مفتوحة أياماً وليالي.. فمها صارخاً متوجعاً أياماً وليالي، المستشفى بلا أدوية ولا معدات، العمليات تسبب أشد الأوجاع، لكن الأدهى والأمر كان انشغالها على عبد المحسن. هم حلفوا لها إنه لم يمت. رقية أقسمت أغلظ الأيمان إنه حي يرزق، لكنها لم تكن كانت قد سمعت بأذنها كلمة "اغتيال" وكانت على يقين أن رقية تريد فقط أن تخدعها.

-إن لم يكن قد مات، فلماذا لا يظهر؟

-هو مصاب، يعالج في المستشفى، رد رئبال الذي جاء يحمل عن رقية بعض حاملاً معه عشيرة أولاده إلى بغداد. فمن غير المعقول أن تظل الأسرة ممزقة: الأم في بغداد، الأب في العمارة، والمصائب أحمال ثقيلة لا بد لها من أشد الجمال كي تحملها.

-رئبال، أرجوك، أصدقني القول. راحت فاطمة تتوسل إليه وهي لا تصدق القصة "عبد المحسن يتعرض لمحاولة اغتيال؟ كيف؟ لماذا؟ ومن هو يغتالوه؟" ولم يجد رئبال بداً من أن يشرح لها، وكانت صدمة أخرى أشد تعذيباً.

-عبد المحسن بديل القائد؟ همست فاطمة وهي تتلفت حواليها، لكن لماذا؟

-أليس هو شبيهه؟ رد رئبال بنبرة الهمس ذاتها، أنت نفسك كنت تشيرين إلى يشبه القائد، كم يشبه القائد؟

-إذن، محاولة اغتيال التي أذاعوا عنها كانت صحيحة؟

-طبعاً، وكان المقصود القائد.

-فأصيب البديل، والبديل زوجي؟

-هي ذي الحقيقة، لكنها ليست للنشر، أو.. وأشار رئبال بيده وقد حولها إلى النصل الذي يحز الرقبة. وأحست فاطمة بسكين أخرى لا تحز رقبتها وحسب عميقاً في قلبها. "إذن، كان عبد المحسن يخدعني!؟ مذ جاء إلى بغداد كان البديل ولا يخبرني!؟ سر خطير كهذا يخفيه عني؟" واسودت الدنيا في عينيها أكثر وأكثر. "صحيح، يا مؤمنة على الرجال يا مؤمنة على الماء في الغربال" لكن لم يكن باستطاعتها بما يجول في نفسها. عبد المحسن بين الموت والحياة، وهي تريد له الحياة. موته يعني ترملها.. يتم أطفالها.. نهاية حياتها هي. أياً كانت خطيئته، المهم أن يظل على قيد الحياة. سأموت إن مات. سأفعل ما تفعله هندية مخلصة يموت زوجها: أقدم نفسي للمحرقة. يحرق جسدي مع جثمانه ليختلط رمادهما معاً وينثرا على مياه الرافدين وكانت دموعها لا ترقأ. ليلها بلا فجر.. نهارها بلا شمس. تريد فقط أن تخرج علها عبد المحسن بعينها فيطمئن قلبها. "قال له ألم تؤمن ياإبراهيم؟ قال بلى، لكن قلبي".

لكن قلب فاطمة لم يطمئن وهي تدخل غرفة عبد المحسن وتنظر إليه، فالرأس تحول إلى كرة من جبس ولفائف، الكتف التي اختفت ترقوة وصدراً وعضداً واللفائف، الحوض الذي صار قالباً من جبس، الرجلان اللتان صارتا بدورهما ولفائف، كلها أطلقت أمواجاً من رعب في قلب فاطمة، كل موجة مكتسحة شواطئ نفسها تاركة عليها الزبد والحطام.

-يا إلهي!! ماذا فعلوا بك؟ المجرمون!! القتلة!! السفاحون!! شرعت تندب داقة صدرها، لاطمة خديها، كأنما تندب الحسين في يوم عاشوراء.

-لا، ليس هكذا فاطمة!! سارع رئبال يهدئها، مشيراً إشارات تحذير من سبابته وحاجبيه.

-أجل. فاطمة، ليس هكذا. ثنت رقية على قول زوجها وحركاته، فالغرفة في والمستشفى مكان عام لا يعرف المرء من يراه فيه أو يسمعه. أوقفت فاطمة الندب وهي تقترب من محسن. عيناه فقط كانت تتحركان. حركتهما بث في نفسها شيئاً طمأنينة.

-أنت حي!! الحمد لله!! أنت لم تمت!! لم تمت!! وانهمرت دموع فاطمة سيلاً ليس مثله سيل مأرب.

-اجلسي. اجلسي. قال رئبال وهو يقدم لها كرسياً، لكن فاطمة لم تكن ترغب الجلوس. كان كل ما ترغب فيه أن تتلمس عبد المحسن، أن تقترب بوجهها من أن تمسك بكفه، فتشعر بذلك الدفء يسري إلى أناملها من أنامله.

-محسن!. حبيبي!! زوجي!! طمئني. قل لي: كيف أنت؟ راحت تحدثه رشاً وهي تنحني بجذعها كله عليه، لكن محسن الحبيب.. الزوج، لا يستطيع الرد. رأسه كرة من ولفائف، لا يظهر منها إلا العينان والأنف، فكيف يتكلم، بل من أين يخرج الكلام؟
-بأعجوبة نجا. رد رئبال وقد وجد من واجبه أن يرد بدلاً من عبد المحسن، فاطمة بحاجة لمن يقول لها إن عبد المحسن نجا بأعجوبة، فالرأس الذي كان يصرخ بذلك صراخاً.
-لكن أين الإصابة بالضبط؟ سألت فاطمة وهي تشير إلى الرأس، ومن جديد موضحاً لها بحركات يديه.
-يا ستي!! الرصاصة دخلت من هنا، ومن أسفل الحنك. اخترقت محطمة بعض في الفك السفلي، صاعدة إلى أسنان الفك العلوي محطمة سنين، ثم خارجة من جانب الأنف.
-يا إلهي!! إذن تحطم فكاه؟
-احمدي ربك. حادت ميليمتراً واحداً عن لسانه وسنتيمتراً واحداً عن رقبته وأقل ثلاثة عن دماغه!!
-الحمد لله!! أجل. الحمد لله!! قالت وكل ما فيها يرتعش فلو صعدت الرصاصة الدماغ لما رأته عيناها قط. وهذه؟ سألت مشيرة إلى الكتف.
-أيضاً، احمدي ربك. الرصاصة مرت فوق الرئة بنصف سنتمتر فقط.
-أوه!! يا الله!! يا رحمن يا رحيم!! هتفت فاطمة، ودموعها تنحدر سيلاً عرماً لا يقف في وجهه سد مأرب، فلو نزلت الرصاصة نصف السنتمتر ذاك لما رأته عيناها أيضاً.
-وهذه، تابع رئبال مشيراً إلى الأسفل، حيث كان الجبس يمتد حتى الخصر، كل ساق ثم رصاصتان، إحداهما أصابت أعلى الفخذ والأخرى عبرت أسفل البطن حيث لم يفصلها عن الفقرات القطنية سوى مليمترات.
-يا إلهي!! خريطة من رصاص!! محسن خريطة من رصاص!! معقول يا ربي!!
-أجل معقول، ولو انحرفت هذه الرصاصة مليمترات لضربت النخاع الشوكي وشلته الحركة.
-لا، لا يفعلها ربك، هو الذي يحمي الأبرياء. هو الذي يحرس من لا ذنب لهم!! حمداً رب!! حمداً لك يا رب!! وانكبت فاطمة على الأرض تقبل البلاط، شكراً وامتناناً لله!
لكن الأمير المفدى لم يكن يلهج بمثل ذلك الشكر ولم يكن يمتن، بل هو حانق سبابه يصل عنان السماء. "قط بسبعة أرواح!! ما كان يموت ونخلص منه!! تباً ثعلب مراوغ!! أرنب جبان!! يخدع الناس بأنه هو الذي يدشن ويفتتح وإذ به سواه.
"شبيه من أشباهه يحل محله! يا للثعلب!! يا للأرنب!!" وكان كوهين وزير حرب يسير في ركابه، يحاول تهدئته. هو مذ انكشفت حقيقة الخدعة وظهر صدام ويهدد، دون أن يتنازل ويذكر محاولة الاغتيال، يحاول تهدئته بالهاتف أولاً، بالفاكسات ثانياً ثم بنفسه ثالثاً. فالخليج كله يئن أنيناً كالنشيج، يريد من صدام أن يموت، يموت.
-خيرها بغيرها!! قال كوهين للأمير المفدى وهو يهدئه. الآتيات أكثر من الذاهبات. اطمئن.
-كيف أطمئن، والبعبع ما زال على قيد الحياة؟ هو المخيف، سيدي الوزير. صدقني، أنام الليل من الكوابيس التي يظهر لي فيها. أنا لا أنسى ليلة الغزو.. لا أنسى كيف هربت من مخدعي بثياب نومي: حافي القدمين.. عاري الرأس.. سيدي الوزير.
-أعلم. هو بعبع مخيف، أكيد. لهذا نحن حريصون على التخلص منه.
-السؤال: متى؟ متى؟.
-التأني من الرحمن والعجلة من الشيطان سيدي الأمير؟
-آه!! ليتني أعلم أين يباع التأني فأشتريه!؟
-أنا أشتريه لك. فقط ادفع أربعة مليارات دولار، سيدي الأمير.
ودفع الأمير لوزير حرب العالم كوهين بن اليعازر بن يهوذا أربعة مليارات من الدولارات، فالتأني غالي الثمن والصبر لا يشتري بالرخيص.
بعد حين من الزمان قدرته الحاسبات والمخابرات رفع بتلر المهتاف متحدثاً مع عزيز:

-سيدي النائب!! نريد تفتيش مقر الحزب: قيادة وفروعاً.
-ماذا؟ هل تحولت مقرات الحزب إلى مصانع كيماوية؟
-التقارير تقول يا سيدي إن كل قبو أو شقة لديكم يمكن أن تكون مقراً لمصنع فيه أسلحة الدمار الشامل.
-تقاريركم عجيبة، سيد بتلر!! علمي، أن التفاعلات الكيماوية والجرثومية تطلق وأبخرة سامة تضر بكل من يتنشقها. علمي أن هناك شروطاً لإقامة مثل هذه المصانع لا تتوفر لأية شقة أو بناء في قلب المدينة!!
-أنتم تخرقون كل الشروط. فما الضمانة ألا تكونوا قد أقمتموها في قلب بغداد؟
-هذا هراء!! وأنت، سيد بتلر تعلم أنه هراء.
-أنا أعلم أن هذه أوامر وعليكم التنفيذ.
-التنفيذ فقط؟
-بالطبع، ولا تنس سيدي النائب، مع القيادات الحزبية سنفتش مقر المخابرات أيضاً!!
-برافو!! قال نائب رئيس الوزراء مصفقاً ضاحكاً: مقرات المخابرات معامل الأعصاب؟ مفاعلات الذرة؟
-ما الضمانة أنها غير ذلك؟
-سؤال وجيه، سيد بتلر!! نعطيك الجواب فيما بعد.
وبينما كانت القيادة في بغداد منشغلة بإعداد الجواب، تبحث ليل نهار كيف ترد الاستفزاز الأنكلو أمريكاني، كانت فاطمة منشغلة بعبد المحسن الممدد على نصفه جبس ونصفه دبس. الدبس حلو لذيذ تحب فاطمة أن تأكله دائماً، لكن الجبس لا يؤكل. تأتي فاطمة إليه، تحاول أكل الدبس فيحول بينها وبينه الجبس، مع ذلك سعيدة. لقد نجا عبد المحسن. أصابته قاسية؟ صحيح. صعبة؟ صحيح، لكنه لم نسيت جنينها الذي مات، بطنها الذي شق، صدمتها بالسر الذي أخفاه عنها، كل ذلك نسيته فاطمة. هي كل يوم معه. في الليل تعود إلى بيتها، تهيئ الطعام لأولادها، في الصباح إلى المدارس ثم تسرع إلى المستشفى. محسن بانتظارها. هو رأسه ما زال كرة مغلقة ليس فيها سوى عينين ومنخرين، لكنها ترى البسمة في عينيه، تقرأ الأفكار في مقلتيه. ألا يقولون: العين مرآة الدماغ؟ فاطمة واثقة من ذلك، صفحة عينيه تقرأ كل ما يعبر تلافيفه الدماغية من أفكار، وفي حالات الاضطرار محسن بيسراه شيئاً ما.. شيئاً قد تفهمه فاطمة وقد لا تفهمه. لكنهما دائماً يتفاهمان. بالحدس، تعرف ما يدور في رأسه، بالشم، باللمس، بالنظر تفهم مشاعره، وهو خطوة خطوة على طريق الشفاء.
كان رئبال قد عاد إلى العمارة، وكانت رقية قد عادت معه. خضراواته بحاجة العمارة لم تعد تستغني عنه. شهراً ثلاثين يوماً، ظل رئبال في بغداد. مكرهاً محسن في حال لا تسمح بأن يتركه.. فاطمة في حال لا تسمح بأن يتخلى عنها، تقدم محسن على طريق الشفا، بات باستطاعة رئبال أن يعود إلى العمارة، خضراواته ويحملها إلى السوق. الحياة صعبة. كل شيء مفقود وإذا وجد فهو فاطمة أنفقت عليهم وهم في بغداد، لكن أتنفق عليهم وه في العمارة؟ رقية رفضت في البداية أن تأخذ رزمة الدنانير التي حشرتها في عبها "أنت بحاجة إليها أكثر مني" أعادتها إليها وقد أخرجتها من عبها "بل أنت أحوج" ردت فاطمة معيدة حشر الرزمة الصدر "ثم هم يعطونني.. القائد لا ينسى شبيهه.. لا يتخلى عنه وقت الشدة"، وسكتت رقية. هي تعلم أن القائد وفي مخلص لا يتخلى عن أي فرد من الشعب فكيف وبدلائه؟ يتلقون عنه الرصاص فيتلقون منه الرعاية. من ظل منهم حياً، أما من فعلى روحه الرحمة وعلى أهله السلام. أكثر من مرة رأت رقية مسؤولاً من القصر إلى المستشفى يحمل الهدايا... يقدم الأموال.. يعرض الخدمات، وكانت فاطمة هو حقها. ذلك ما تشعر به فلماذا ترفض؟ ثم إن رفضت كيف تعيش؟ كيف يستمر أولادها؟ بيتها؟ الأسئلة كانت تشغلها كثيراً وكانت تتطلب أجوبة سرعان ما فاطمة "ليس من أجلي وأجل أولادي وحسب، بل من أجل أختي، رئبال، وأولادهما أيضاً" وصارت تطلب المزيد..: محسن ضحى، إذن من حقه أن يعوضوه عن تضحيته". وكانت على يقين أن القائد لا يضن بتعويض ولا ينسى تضحية.

رئبال على يقين كذلك. هو يعرف القائد. "المعلم" كان يتحدث كثيراً عنه، و"المعلم" يعرفه في الصميم: شديد العطاء، جزيل الجزاء. لهذا السبب يفهم رئبال جيداً يسحب القائد مسدسه ويطلق النار على من يخطئ بحقه.. يفهم جيداً لماذا حسين كامل.. لماذا زج به هو نفسه في السجن، كما يفهم جيداً أيضاً لماذا يحيطون المحسن بكل تلك العناية، يغدقون على فاطمة كل ذلك الخير. رئبال مرتاح. عاد العمارة مطمئن البال، محسن سيشفى. الأطباء كلهم أكدوا ذلك. معيشته مؤمنة. حتى لو يبست الخضار كلها لم يعد يهتم. ثمة فاطمة، وفاطمة أخت حنون رؤوم. رزمة الدنانير الكبيرة شاهد على ذلك، صرر الثياب، رزم المواد الغذائية التي عادت بها العمارة شاهد آخر، والشهود كثر، فلماذا يحمل هماً بعد ذلك؟

لكن سرعان ما ارتد السؤال من جديد. "وكيف لا أحمل هماً؟" كان العراق ما حالة حصار. طائرات الأنكلو أمريكان ما تزال تفرض الحظر الجوي. كلما رأت سبطانة مدفع قصفتها.. قافلة عسكر لاحقتها، منصة للرادار هاجمتها. وكان الرعب منها عشش في رأسه. إن ذهب إلى الحقل لا تفتأ عيناه تطيران إلى السماء، إن سمع سارع إلى أقرب خندق. عودة الطنين إلى أذنيه بين الحين والحين كان ما يزال الانفجار تلك المرة كان قد علمه درساً: في أية لحظة قد ينفجر صاروخ قربك فيمزق غشاءك الطبلي إن لم يمزقك كلك.

رئبال يرقب التلفاز، يتابع الإذاعات. بتلر ما زال يضغط: نريد تفتيش القيادات الحزبية، نريد تفتيش مقر المخابرات، وجواب القيادة لم يأت. هم يماحكون. "ما لكم والقيادات الحزبية؟ هي إدارات مدنية، وشأنكم أنتم شأن العسكر وصناعات العسكر؟" لكن يرد الأوامر الصارمة جاءته وعليه هو الأسترالي الجنسية، الأمريكاني المصلحة والقضية، أن ينفذ الأوامر.

في بغداد خوف، في العمارة ذعر، والبصرة ترتعد فرقاً من أن تندلع الحرب فتنصب عليها سيول القذائف والصواريخ. البصرة عرضة لكل الرياح، تأتيها براً، بحراً، جواً وليس حولها من سياج.

-سمعتم؟ هناك إنزال!! هتف هاتف في كل شارع من شوارع العمارة. أسرعوا الإنزال.

وهب الناس، من كل زقاق، من كل شارع، لمواجهة الإنزال. رئبال في المقدمة. بندقيته كلاشينكوف، يعرف جيداً كيف يحيل فوهتها إلى الجحيم. يعرف جيداً كيف يقاتل. الكل في العراق عسكر يمكنهم أن يحملوا بواريدهم ويقاتلوا.

حشود من العمارة انطلقت في اتجاه الإنزال. بعضهم بالسيارات، بعضهم بالدبابات، بعضهم يمتطون الخيول والبغال. الهاتف الذي هتف في الشوارع قال: الإنزال الجنوب والغرب. أين؟ قرب الأهوار؟ قرب البصرة؟ لا أحد يدري.. ما يدرونه أن أن يسيروا نحو الجنوب والغرب. رئبال في مقدمة السيارة. ألم يكن مسؤولاً ألم يحتفظ ببقية من ذلك المجد التليد؟ إذن؟ لينس كل شيء ولينطلق في المقدمة يدفع عن العراق أعداء العراق. "لكن من هم أعداء العراق أولاء؟ الأنكلو أمريكان؟" سأل أحدهم جاره ورئبال يسمع. "الخصوم الحاقدون" أجاب الجار "من يدعون أنفسهم معارضة ويسلمون أنفسهم للشيطان". عشرين، ثلاثين دقيقة سارت بهم السيارات. طرقاً إسفلتية قطعت، طرقاً ترابية اجتازت، حقولاً بغير طرق. أخيراً سمع الكل الدوي، ثم رأوا الطائرات الحوامة تدوّم وتحوّم. تحط على الأرض، تنزل مسلحين الانطلاق.

-ها هو الإنزال!! صاح شاب متحمس لم يعرف رئبال من قبل أنه هو الآمر.. هيا!! خذوا مواقع قتالية. تهيؤوا للهجوم.

وتدفقت السيارات، العربات، الخيول، البغال.. ليتخذ الكل مواقع قتالية لهم! في الجانب الأيمن. ثمة قوات أيضاً: ميليشيات شعبية.. متطوعون.. مدنيون، وفي الجانب الأيسر متطوعون.. مدنيون. "سنحيطهم إحاطة السوار بالمعصم"، وهيأ رئبال بارودته، ثم ما إن جاء الأمر بالهجوم حتى وجد نفسه يندفع وقد امتلأت الدنيا لعلعة رصاص.

قاتلاً أو مقتولاً كانت المعركة، ولكي لا يخرج رئبال مقتولاً يقتل، زاحفاً، متستراً بأي شيء، لاطئاً وراء كل ساتر كان

الرصاص، وكانت المعركة عشوائية: لا قادة ولا ضباط، لا صفوف ولا أنساق. "غزاة يغزون البلاد. أعداء أنكلو أمريكان." كان يصيحون وكان على الكل أن يردوا الغزاة:

تقضي البطولة أن نمد جسومنا

جسراً فقل لرفاقنا أن يعبروا

وكان الكل يحاولون مد جسومهم جسوراً للوصول إلى الغزاة النازلين على أرض العراق يريدون التغلغل إلى قلبه، غرس خنجرهم هناك، فكيف يدعونهم؟ الكل متحمس.. الكل مندفع.. الكل يضحي، فيما المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمر رئبال نجا من العشواء، فلم تخبطه بخفها.. كيف؟ لا يدري. هو نفسه لم يكن واعياً. كل ما يعيه أن الرصاص كان يئز قرب أذنه اليمنى.. أذنه اليسرى.. عند قدمه اليمنى.. قدمه اليسرى، وكان نثار الغبار في كل مكان من عينيه.. منخريه.. شفتيه. مع ذلك يهتم. الدخان سحابة تحجب الرؤية مع ذلك كانت عيناه تخترقان الحجب. يرى عدواً هنا.. عدواً هناك ويهجم. يسدد من بعيد ويقتل. "هي ذي سنة الحياة. قاتل أو مقتول، رئبال. اقتل الأعداء الغزاة.. ردهم على أعقابهم.. لا تبق منهم أحداً".

حين توقفت لعلعة الرصاص، تلفت رئبال حواليه فإذا هناك جثث ملقاة، تصاعد وأنات جرحى يستغيثون، أعداء، أصدقاء وقد اختلط الحابل بالنابل، فماذا يفعل؟ إلى أول جريح. كان صديقاً، متطوعاً من قرية قريبة في الأهوار. جراحه تنزف. أناته ملء الفضاء. حمله رئبال إلى أقرب سيارة، هناك حيث قامت نقطة طبية الجرحى وتساعد المصابين، لكن حين عاد إلى أرض المعركة من جديد كان الجريح الغزاة، وكان يطلق صرخات كأنها من فم سكين. رصاصة كانت قد مزقت أحشاءه وكان بعضها قد اندلق خارجاً، فلا هو يستطيع الحراك ولا الدماء تتوقف، "تستاهل، عميل الأنكلو أمريكان"، صرخ صوت داخل رئبال وهو يسرع إليه، يكز على أسنانه وكل ما يوده أن يشفي غله. "تبيعون أنفسكم للأعداء!؟ تقتلون أهلكم!؟ تخونون وطنكم"؟ كانت الصيحات تتعالى داخل رأسه وهو يقترب من الجريح الذي ما انفك يصيح. يده الزناد. طلقة واحدة ويخرس صوت الخائن. لكن سرعان ما جاءه صوت آخر: "لا.. إن هو إلا إنسان، ولا يجوز قتل الإنسان. إن هو إلا جريح ولا يجوز الإجهاز على الجريح". وفي الحال رفع فوهة بندقيته عالياً، تنكبها ثم انكب على الجريح يبتغي حمله:

-من؟ جبار؟ صاح رئبال وقد انفتحت عيناه على سعتهما.

-رئبال!! أنقذني صهري!! أرجوك يا ابن العم!!

-اللعنة عليك!! ما الذي جاء بك؟ ما الذي حولك إلى خائن؟

راح يمطره بالأسئلة وهو يحمله على كتفه، مسرعاً لإنقاذه، جام غضبه صبه يحمله، لاعناً، شاتماً لكن دون أن يأتي من جبار جواب.

-تستحي من الرد!؟ تخجل على نفسك!؟ لماذا لم تخجل عليها من قبل؟ نفسك للشيطان؟ لماذا صرت أبارغال يقود فيلة أبرهة الحبشي إلى الكعبة؟ لماذا؟ لماذا؟

لكن دون جواب. فقط حين أنزله عن كتفه، علم رئبال لماذا لم يكن يجيبه، غائباً عن الوعي.

في مستشفى العمارة رقد جبار. عمليات عدة أجريت له. بتخدير. بغير تخدير أجريت له. حصار الأنجلو أمريكان حرم جرحى العراق من التخدير.. من الدواء. من أجهزة تتم بغيرها العمليات. لكنهم مضطرون. بأبسط الأدوات، كان الأطباء يقومون بالعمليات، الجراح لا تنتظر هي تنزف دماً، والدم، إن لم توقفه، يذهب بالحياة. جبار مهدد. أحشاؤه الممزقة بحاجة إلى خياطة، لكن ليس هناك خيطان لحم. أيخيطونها بخيطان الطبيب يهز رأسه: المهم أن نخيطها معاً.. أن نوقف النزف. بإبر الملاحف.. بخيطان القمصان كان الأطباء يخيطون الجروح، فالحصار منع حتى الإبر والخيطان.

رقية سمعت بجبار فهرولت إليه مولولة لاطمة الخدين. فاطمة في بغداد وصلها فولولت هي الأخرى لاطمة الخدين، زوجها ما يزال في مستشفى بغداد أخوها هناك في مستشفى العمارة قيد العلاج، فعلى أي جانبيها تميل؟ قيل لأعرابية أيهم أغلى على قلبك: الابن أم الزوج أم الأخ، فقالت: الابن مولود والزوج موجود

فمفقود، ثم جاء المفسرون ليفسروا الأخ من الآخ، والآخ هو الوجع. هو صرخة دخل الوجع الجسم فكيف لا تصرخ فاطمة على أخيها جبار؟ كيف لا تسرع إليه وقد أنبأتها رقية أنه بين الموت والحياة؟.

أبناء العم.. أبناء العمات.. الجيران.. الجارات، كلهم سمعوا بجبار وجاءوا، كلهم أن يروا الرجل الذي غادر العمارة منذ زمن طويل، والبصرة منذ زمن أقل طولاً، لكن لكي يلقي بنفسه بين أحضان الأعداء. كلهم لائمون موبخون ولم يكن جبار يرفع في وجوههم. كان لومه لنفسه قد بلغ لب الوجدان منه، وكان الشعور بالخزي يملك إلا أن يطأطئ رأسه. في البداية حاول أن يدافع عن نفسه "من أجلكم "فداء لكم ناضلت" "بحثاً عن خلاصكم قاتلت" لكن الكل كانوا يستنكرون.

حججه كلها بدأت تتهاوى كورق خريف جاءته ريح. لم يكن أي منها يستطيع النظرات اللائمة من أبناء العم.. الأهل.. الجيران. "تأتي لتقتلنا، بسلاح الأعداء تهاجمنا؟ تشارك غزاتنا"؟ فيصمت جبار مطأطئاً رأسه يجلله الشعور بالخزي.

رقية حزينة عليه. فاطمة حزينة عليه. كلتاهما تنظر إليه وتذرف الدموع. لم منهما تلومه بل تحزن عليه حزناً أعمق من المحيطات. في أعينهما شعور بالغيظ، وكأنما تقولان له "حتى أنت يا بروتس، تحمل على أهلك مخططات الأعداء"؟ ولا يرى نفسه إلا وهو يبكي، فتزداد رقية حزناً وتزداد فاطمة هما تذكران عبد الجبار، ذلك المناضل العنيد، تذكرانه وهو في ميعة الصبا، يعتلي المتظاهرين، يشق صوته عنان السماء، يهتف للحرية، يقود المتظاهرين المواجهات والقتال. تلك الأيام كان جبار، كأبيه، قدوة ومثالاً. كان ابن العراق، المخلص للعراق، المقاتل العنيد من أجل استقلال العراق وحريته. فاطمة تذكر يوم خرج كله يصب سيول نقمته على الانكليز، يريد طردهم من أرض العراق. "اتركوا الحبانية"، "أخلوا الشعبية"، "لا نريد قواعد أجنبية"، واضطر الانكليز للخروج من الحبانية.. الشعبية وكل ما في العراق من قواعد بحرية وجوية كانوا قد أبقوها مسامير جحا "لكن ها هو ذا جبار، وقد تحول إلى مسمار جحا للاستعمار، لا الانكليز الأمريكان أيضاً، فكيف"؟ كان السؤال ما يزال يحير رقية، هي التي كانت طوال متعلقة بجبار، تحبه حب العبادة ولا تتصور يوماً أن تراه خائباً، خاسراً كما رأته على سرير المستشفى. "كيف؟" أكثر من مرة سألته، لكنه لم يكن يملك الجواب يعلم أن الصمت خير جواب. فقط، هو خائف. الباب مغلق ورقية تراه خائفاً، كان الحرس لا يغادر باب الغرفة وكانوا بانتظار أن يتماثل للشفاء. إجراءات قانونية ستتخذ بحقه. هو يعرفها. لكن ما تراه يفعل؟ أحشاؤه لم تشف بعد. جراح بطنه قد تنفتح في أية لحظة والحرس على الباب. رقية تعلم ما ينتظره. هو نفسه يعلم، ولا يملك إلا أن يخاف. "قد وقع الحر في الشباك فكيف الخلاص؟ "رقية أخت، وأخت محبة. كل همها أن يخلص حرها من الشباك، ولا تستطيع إلا أن تفكر. أخوها مرتكب.. خائن.. باع للأعداء، وقد وقع في الشرك فماذا يفعل صاحب الشرك؟ لا أحد يدري. ما المعارضة في الخارج خيانة عظمى، هذا نص القانون، يشرح لها رئبال، والخيانة العظمى عقوبتها الإعدام.

-إذن، يجب أن نخلصه. همست في أذنه وقد احتواهما ليل العمارة والسرير الزوجي.

-نخلصه؟ مجنونة أنت؟ رد رئبال وقد جحظت عيناه.

-مجنونة إن سلمت عنقه لحبل المشنقة.

-هو الذي سلم عنقه. بنفسه فعل ذلك، أم أنت التي ركبت طيارة الهيلوكبتر ونزلت العراق تريدين غزو العراق؟

-هو مغرر به.

-طفل صغير يغرر به؟

-هو حدثني. في كردستان تعرض لغسل دماغ كامل لم يعد بعده قادراً على التفكير.

-نعم؟ غسل دماغ؟

-أجل. رئبال، صدقني. هناك في الشمال، غسلوا دماغه: أناس حاقدون على كل عربي.. يريدون الانفصال بالشمال كيفما كان وأياً كان. من ورائهم الموساد الإسرائيلي. ضباط كثر يدربونهم.. يرسمون لهم الخطط. هو أسر لي بذلك. مع الموساد هناك الانكليز.

الأمريكـان.. وكلهم مـزودون بـالخبرات مـدججون بـالحجج، مـدربون على غسل الأدمغة فكيف لا يغسل دماغه؟
-قولي جيوبهم ملأى بالدولارات، يغدقون الأموال، وكيف لا تغري أخاك الأموال؟
-ربما. زوجته كـانت تشـجعه. هو روى لي. ليل نهـار كـانت تدفعه للعمل معهم.. للـذهاب متطوعاً إلى الولايات المتحدة، كي تذهب معه.
-ثم ترسله إلى العراق وتبقى هناك؟ سأل رئبال وفي فمه مرارة الحنظل.
-ذلك نفسه يؤكد أنه كـان ألعوبـة، دمية ليس فيها دمـاغ. وإلا، لمـاذا أمريكا؟ لماذا يأتي إلى العراق ويتركها هناك؟
-وهذا نفسه يؤكد أنه يستاهل، يداه أوكتاه وفوه نفخ.
-رئبال، لا تكن قاسياً.
-لا أكون قاسياً؟ كيف وجبار طوال عمره متجبر، عنيد، رأسه كالصـوان. أنا أذكـره.. أذكر اشتباكاتنا الدائمة معه، مع جماعته أيام عبد الكريم قاسم. كانوا يريدون إبادتنا. يسـجنون كل من ينادي بالعروبة، كل من يهتف لوحدة العرب.
-ذلك كان أيام زمان. المهم الآن.
-الآن، هو خائن، أتفكرين بتهريب خائن؟ أتريدين أن نلقي بأنفسنا إلى التهلكة؟
-صحيح، أنا لا أخالفك. لكن.. أقصد.. وتعثرت رقية لا تعرف كيف تتابع. في رأسـها جهنمية لكن لا تجرؤ على إيصالها إليه.
-تقصدين؟ لا تقصدين؟ دعيني من جبار الآن. دعيني أنم.
ونام رئبال. شخيره نما وترعرع حتى بلغ الزقاق.. الشارع الأبعد.. وربما دجلة الـذي يجري متخبطاً مضطرب المياه وقد ذابت ثلوج الأناضول غـاذة خطاها إليـه. رقية هي تفكـر، وحيـدة تفكر "آه!! لو ظلت فاطمة هنـا، لفكرنا معـاً." لكن فاطمة عادت إلى بغداد. زوجها محسن ما يزال في الفراش. صحيح أنهم أخرجوه من المستشفى، لكن الصحيح أيضاً أنه لم يكن قد تماثل للشفاء. ساقاه كانتا قد شفيتا، كتفه كانت قد التأمت، وعاد الجرح فوق الرئة وكأن شيئاً لم يكن، لكن ماذا عن عن الحنك؟ هو لا يستطيع الحراك، لا يستطيع الكلام.. لا يستطيع الطعام. "سيروم" دائم ينقل له الشـراب والغـذاء، وعلى فاطمة أن تغير له السـيروم.. تعتـني بـه.. ترعـاه.. لا ممرضة فحسب بل أم رؤوم بين ذراعيها طفل رضـيع. رقية تـود العمـارة فقط لكي تستشـيرها. فاطمة الأكـبر.. فاطمة ذات العقل الأرجح، يمكنهما أن تفكراً جيداً.. تخططا جيداً. في رأس رقية فكرة عبقرية لكنها خائفة. وحـدها ما تفعل. أرادت أن تشـرك رئبـالاً لكنها لم تسـتطع. بـدأت ثم أحجمت. الفكـرة العبقرية تؤرقها الليل بطولـه. هي تتقلب ذات اليمين وذات الشـمال "جبـار يجب أن ذهب مع الريح" لكنها لم تكن تعلم كيف يهرب. هم يوثقون إحدى يديه إلى رأس السرير. غرفته في الطابق الثاني، على الباب حرس مشرع الحربة دائمـاً فكيف يهـرب؟ أن تبحث معه الأمر. بعد الظهر كانوا يسمحون لها برؤيته كل يوم ساعة وبعض الساعة. كانت تأخذ له الطعام، ومع الطعام الصحف والكتب. أيام زمان كـان جبـار يحب وكان قد تخرج من دار لإعداد المعلمين، يعلم في الإعدادية القريبة من بيتهم في البصرة. رقية تذكر كيف كان يشـيل برأسـه، كيف كـانت الصـبايا يحمن حولـه. يحكن المـؤامرات للإيقاع به، بل بعضهن كن ينتسبن للحزب لا لشيء إلا ليقـتربن منـه. نجم جبـار البنات.. الرفاق.. الأصدقاء كلهم كانوا يحبونه، بقدر ما كـان الأعـداء يكرهونـه. هي كيف حاول الأعداء اغتياله. بعثيون ذاقوا الأمرين منـه، وذات ليلة كمنـوا له خلف اقترب فأطلقوا النار. حسن حظه ربما أنقذه، وربما هي الظلمـة.. الخـوف.. أو ربما كله جعل يد المطلق تـرتعش والارتعاشة حـرفت الرصاصـة، جبـار ألقى بنفسه أرضـاً، ذاك هـرب المطلق وقد ظن أنه صـرعه، لكن جبـاراً لم يصـرع، بل لم ويومذاك لم يتكلم جبار عن محاولة الاغتيال كان قد صمم على الانتقـام سـراً، وقد جبار جبار. رقية تعرفه. إن بحثت معه الأمر قد يجد لها طريقة. هو بـارع دائمـاً الطرق، قادر دائماً أن ينفذ من خرم الإبرة.
-لكنه أضيق من خرم الإبرة، رد وقد فاتحته بالأمر، وأنا جمل، فكيف أنفذ؟

الإنجيل يقول: "لا يدخل غني جنتي حتى يدخل الجمل من خرم الإبـرة"، وذلك ضـرب المستحيل. تماماً كما بدت فكرة رقية ضرباً من المسـتحيل. مع ذلك أغرته الفكـرة. حب الحياة استيقظ في نفسه للتو، فهمس:
-بيدك حق، الأمر مستحيل لكنه يستحق المغامرة.
-أجل. يجب أن نغامر. يجب إنقاذك جبار. يجب أن تهرب.
-أهرب!! أهرب!! راح يردد هامساً متلفتاً حوله بخوف شديد، متطلعاً إلى البـاب أشد. المسألة كيف؟
-هذا ما ينبغي أن نفكر فيه معاً.
-ورئبال!؟ ألا يفكر معنا رئبال؟
-لا.. رئبال، لا، ردت رقية بنبرة الجزم.
-هو ما يزال حاقداً علي، أليس كذلك؟
-بل خائف، بدأت رقية لكنه لم يدعها تكمل.
-رئبال دعه وشأنه. هل تستطيعين أن تأتي لي بمنشار حديد؟
قال بأخفت نبرات الهمس، فيما عيناها لا تفارقان الباب.
-أستطيع، قالت وهي تنظر إلى حقيبة يدها مطمئنة أنها تتسع للكثير من الأشياء.
-حسن.. وحبل.. تابع بعد لأي غارساً عينه في عينيها.
-حبل!! ربما.. لكن. راحت تتعثر وعيناها تتنقلان بينه وبين الحقيبة التي قد لا تتسع لحبل.
-ليس حبلاً بطوله، بل تأتين بجزء منه كل يـوم.. ثم نعقـده معـاً قـال بمسـحة من ارتسمت على شفتيه وهو ينظر إلى الشباك في الخلف.
-أجل، يمكن.
صباح اليوم التالي، ذهبت رقية إلى السوق، اشترت منشار حديد وحبلاً من متراً متراً ثم خبأته حيث لا يمكن لرئبال أن يراه. في اليوم الأول أخذت المنشار. حقيبتها اليدوية الكبـيرة واسـعة والحـرس ألفوها إلى درجة لم يكونـوا يـدققون أو يفتشـون. هي تأخذ لهم شطائر.. تطعمهم فطائر، وأطعم الفم تستحي العين. عيون الحـرس تسـتحي، ورقية تعرف كيف تزيد من ذلك الاستحياء.
وحده رئبال لم يعرف الاستحياء. لم تـدخل قلبه الطمأنينـة. كـان يراها شـاردة، منشـغلة البال، تقوم بحركات لم يعهدها من قبـل. رقية زوجتـه. خمسة عشر عامـاً كانا قد معاً. هو يعرفها كراحة كفه، فما بالها وقد غدت غير رقية تلك؟
-أتخفين عني شيئاً؟ سألها وهما يتعشيان ذات ليلة.
-أخفي؟ ماذا يمكن أن أخفي؟
-لا أدري. مذ حدثتني تلك المرة عن جبار، شيء ما وسوس في صدري.
-إن هو إلا الوسـواس الخنـاس الـذي يوسـوس في صـدور النـاس، ردت رقية الضحك، فاقرأ أعوذ برب الناس من الجنة والناس.
-رقية!! دعك من هذا!! وقولي، ماذا هنا. في هذا الرأس؟ ثم دق بإصبعه صدغ رأسها.
لكن رقية كانت قد صممت على ألا تبـوح لـه. ذاك كـان رأي جبـار أيضـاً. "رئبـال ملكي أكثر من الملك، فلا تدعيه يعرف". ولم تدعه يعرف. كان الهدف الذي نصـبته عينيها لا يحتمل نقاشاً، وكان رئبال سـيناقش بل سـيعترض ويمنـع، فلمـاذا وجع "أخي مرتكب. أنا أعلم أنه مرتكب، والمرتكب يعاقب. أنا أعرفهم جيداً. الرحمة لا تدخل قلوبهم. سيعاقبونه. وما عقوبته؟ الموت؟ وفي أحسن الأحوال السجن والعذاب والموت بدلاً من المرة ألف مرة". كـانت تفكر وهي أرقة في الليـل، سـائرة في الطريـق، في المطبخ. كـان يصـعب عليها أن تتصـور أخاها عبد الجبـار، القـدوة، الحـبيب، بالرصاص، أو ألقي في غياهب الزنازين لا يشم الهواء ولا يرى حتى النور. رئبال قال لها إنه يسـتاهل، لكن هي الأخت المحبة الرحيمة لا تسـتطيع أن تقـول ذلـك. القـانون والأخوة شيء آخر. منطق هذه غير منطق ذاك والصراع بينهما قائم أبـداً، لكن لـدى منتهٍ.. محسوم. "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً"، وهي تعمل على نصـرته بل على من الموت. كل يوم تأخذ قطعة معها. الحبل طويل، وطريق الشـفاء طويـل. لكن رئبال تريان. رقية تكتم، في عينيها ما تحاول إخفاءه، لكن كيف تخفي شيئاً عن رئبال، هو الذي يعرفها كراحة الكف؟

سأل رئبال رقية، حاول أكثر من مرة أن يستدرجها للحديث، أن يعيد النقاش جبار، لكنها كانت تؤثر الصمت. "إلى أن يشفى يفرجها الله" كانت تقول، لكنه كان يلحظ مع كل كلمة "تفرج"، مسحة من تفاؤل ونبرة من ثقة. "أتراها تخطط لشيء؟" ذات عاد رئبال فجأة من الحقل. قال لها إنه مشتاق لجبار، يريد مرافقتها لزيارته. واضطربت رقية.

-لا داعي!! ارتح أنت. أنا أذهب.

ولم تعجبه النبرة. في الماضي كانت تبذل المستحيل لإقناعه بالذهاب فلماذا اليوم لا؟

وأصر رئبال، في سره على أن يتحول إلى أعين ترصد المستشفى تعمد أن يكون الرقيق الملاطف، وانحلت عقدة تشنج. تعمد أن يتحرك تاركاً الأخ وأخته يتحدثان ويضحكان وانحلت عقدة أخرى. في أحد تحركاته كان يذرع وكان يتعمد أن يدير ظهره مدعياً عدم رؤية شيء، عدم سماع شيء. فجأة تفتح حقيبتها، وبسرعة البرق تخرج شيئاً، تناوله إياه ليضعه هو تحت الوسادة.

-ماذا أعطيته؟ سألها وقد خرجا من المستشفى.

-مـ.. مـ.. ما.. ذا؟ أنا.. لم أعطه.. شيئاً، أجابته متلجلجة مضطربة، لكنه كان واثقاً.

طرف الحبل كان واضحاً. رآه بطرف عينه. رأى السرية بينهما، الهمس، لكنها البوح، سألها مرة تلو المرة لكنها أبت أن تجيبه المرة تلو المرة، فما تراه يفعل؟ رئبال حائر يفكر، لكن الآخرين لم يكنوا حائرين ولم يفكروا. كانت عيونهم قد رأت، حيطانهم قد سمعت وسرعان ما وجد جبار نفسه ينقل إلى حيث لا ينفع معه شيطان مريد.

***

باقر، هو الآخر، حيث لا ينفع معه منشار جديد ولا شيطان مريد. بل هو يشعر حرير نسجت حولها خيوط قز، خيطاً خيطاً إلى أن اكتملت الشرنقة. هو يشعر بالاختناق. شرنقته انغلقت فمن أين يأتيه الهواء؟ في البداية كان كل ما يتمناه أن يسحق ونظام صدام. بل حين هرب من العراق لم يكن أمام عينيه سوى طاغية المستبد يرغب فيه أن يرى رأس يتدحرج على الأرض ممرغاً بالتراب بل طوال حربه كان يقفز فرحاً كلما سمع بهزيمة لحقت بصدام. حتى احتلال إيران للفاو جعله يثب فرحاً. لكن بعد حرب الكويت وخراب البصرة، بدأ باقر يرى العراق نفسه.. شعب العراق.. أطفال العراق. شيئاً فشيئاً بدأت تنزاح صورة الفرد ليحل محلها الشعب. بالتدريج راحت تمّحي صورة الحاكم ليحل محلها صورة الوطن. "العراق أرض.. العراق شعب.. العراق ماض.. العراق مستقبل.. فكيف يلغي فرد واحد ذلك كله؟ يختزل رجل واحد شعباً بكامله؟ كيف يمحو الأرض، التاريخ، المستقبل؟" كان بأذنه كيف تلغي الدعاية الأنكلو أمريكية شعباً بكامله ولا تتحدث إلا عن صدام- الفرد، وبدا واضحاً أن الرجل قميص عثمان يريدون من ورائه غايات أخرى. الأنكلو أمريكان يحاصرون العراق. لا يدعونه يستريح أبداً. دمروا جيشه.. عتاده.. اقتصاده.. مجتمعه.. إنسانه. باقر يسمع ممن يأتون من العراق ما جرى فيه وما يجري. التجويع، الإفقار، الإذلال، القتل.. كلها لا يمكن أن تكون مجرد عقاب لصدام، بل هي عقاب لشعب بكامله، فكيف لا يشعر باقر بالاختناق؟ كيف لا يشعر أنه دودة قز انغلقت عليها شرنقتها؟.

أمريكا تهدد. بريطانيا ترغي وتزبد، ولجان التفتيش مصرة: "إن لم تفتش القيادات والمخابرات سننسحب من العراق." وأمريكا تهدد.. بريطانيا ترغي وتزبد: "إن انسحبت لجان التفتيش سنشن الحرب على العراق، حرباً هذه المرة لن تبقي ولن تذر".

يسمع باقر التهديدات فترتعد فرائصه.

-لا. لن يتركوا العراق قبل أن يدمروه تدميراً كاملاً، قال لمرتضى وهما يجلسان المقهى ينفثان دخان السجائر بعد أن يعباه عباً.

-هو مجنون. يوهمه غرور العظمة أنه قادر أن يواجه العالم كله لا أمريكا وحسب.

-ولقد واجه العالم فعلاً، تمتم باقر مذهولاً وكأنه لم ير تلك الحقيقة من قبل.

-وهو، دمر العراق فعلاً.

-لكن، العراق يسترد عافيته، يتماثل للشفاء، فلماذا يصرون على إثخانه بالجراح جديد؟

هو يريد ذلك. قال مرتضى بامتعاض وهو يشير إلى الأعلى والبعيد.

-هو، كيف؟ سأل باقر وقد خيل إليه لحظة من الزمن أنه لا يفهم شيئاً.
-ها!! قلت لي كيف؟ مثل هذا الحصار.. مثل هذا الحظر.. مثل هذا التهديد الدائم بالحرب يجعله أقوى: مقدرات البلد كلها تظل في يده، ثروات البلد، روح البلد تظل في وهذا وحده ما يرضي الطاغية المستبد، صدقني.
-هو، هو، دائماً هو المشكلة. هو الذريعة. وتنسون البلاد.. الشعب.. الوطن؟
وتنشب معركة جدل حامية بين الطرفين. مذ التقيا في دمشق، كانا يتجادلان، يختلفان، يتصايحان، لكنهما يعودان فيصطلحان. كان كل منهما يشعر بحاجته للآخر، كل منهما نفسه بهذا الشكل أو ذاك في الآخر. باقر يعلم جيداً كيف يفكر مرتضى، لماذا الحجة أو تلك، هو نفسه كان يفكر بالطريقة نفسها، يورد الحجج ذاتها الموقع ذاته، وبالعقل ذاته، لكنه تغير. باقر تغير. لكن مرتضى لما يتغير بعد.
بلى. بلى. مرتضى تغير. في البداية كان قد وافق على الذهاب إلى بالانضمام إلى المعارضة هناك والتدرب على فنون القتال وحرب العصابات لغزو العراق.
كان قد قدم أوراقه وهيأ نفسه، لكن جاءه باقر فجعله يتراجع. أياماً وليالي ظلا الأمر. يقلبانه ظهراً لبطن وبطناً لظهر. "نسلم أنفسنا لأعدائنا!؟ نصبح مطايا أدوات في أيديهم!؟ لا. لا". كان يقول له ضاغطاً متحمساً "أنا لا أريد إسقاط صدام فقط.. أرد رأس صدام." كان مرتضى يرد "والوسيلة؟ أمريكا.. عدوة الشعوب.. عدوة العرب.. عدوة الاشتراكية. حليفة إسرائيل.. كيف؟ الوسيلة يجب أن تكون من الغاية. والغاية لا تبرر الوسيلة أبداً". وبدا مرتضى شيئاً فشيئاً يقتنع إلى أن أعلن ذات يوم لقيادة المعارضة أنه لن يذهب إلى أمريكا، لن ينخرط في صفوف المعارضة التي غزو العراق. وحين سمع الأخبار عن القوة التي نزلت بين الأهوار والعمارة ثم بكرة أبيها، حمد ربه أنه تراجع آخر لحظة، وإلا كان سيعرض نفسه للمصير ذاته ذات يوم.
اقتراح آخر عرض على مرتضى وبات يشغله. "إن رفضت الذهاب إلى أمريكا، ترفض الذهاب إلى كندا؟ وبدا له الاقتراح معقولاً. "أمريكا عدوة تحول المعارضة عصابات تقاتل بسيفها، لكن كندا، ماذا"؟ طرح الاقتراح بدوره على باقر، وقد صديقين حميمين قلما يفترقان. "كندا محايدة، لا ناقة لها في الصراع ولا جمل" تابع مرتضى "وهي تقوم بعمل خير. ترانا، نحن الشتات العراقي نعاني، نجوع، نذل يد العون. إذن لماذا نرفضها؟" "لكنها بعيدة، كندا!؟ إن ذهبنا إليها ستنأى بنا المسافات عن العراق". رد باقر بشيء من ضعف، فالحجج القوية التي كان يستخدمها ضد أمريكا لا تصلح للنقاش ضد كندا. "يا رجل!! بعد؟ قرب؟ ماذا تقول؟ العالم كله بات قرية بساعات تقطعه من شرقه إلى غربه." "لكن هنا أنت قريب، ترى أناساً قادمين العراق.. تشم رائحة الوطن!!" "أواه!! باقر!! لا تكن رومانسياً طوباوياً. أرجوك. العرض مغر. يعطون المهاجر إلى كندا راتباً جيداً: ثلاثة آلاف دولار، باقر، فلماذا نموت من الجوع"؟ وبدا السؤال وجيهاً، فباقر مذ انقطع ما بينه وبين الحزب كان يعيش في ضائقة شديدة. المخصصات التي يأخذها من حكومة دمشق لا تكاد توفر له اللايموت. حكومة دمشق تعامله مثل أبنائها، وأبناء الحكومة جياع. موظفوها تحولوا فقراء هنود مرشح كل منهم لأن يكون إما: متسولاً أو مرتشياً. باقر واحد منهم. راتبه ضئيل، لكنه مضطر للقبول به. إنه الشيء الذي هو خير من اللاشيء. وبدا مرتضى وكأنه كسب الجولة الأولى.
بعد ذلك، كانت ثمة جولات وجولات. باقر يكره الشتات، يريد أن يخلص منه لا الطين بلة. قربه من الوطن يجعله يشعر أنه في الوطن. حالة التماهي التي انتقل كانت تلح عليه أن يحاول الاقتراب أكثر، لا الابتعاد أكثر، وظلت معركة الجدال وفر، لا مرتضى قادر على إقناع باقر بالهجرة ولا هذا قادر على إقناع ذاك بالبقاء.
باقر يتنهد كل مرة يشتد النقاش فيها. يزفر زفرة حرّى ثم يترنم بقصيدة كانت هاجساً بالنسبة إليه.. لازمة يرددها، حيثما حل وحيثما ارتحل. وكان يبكي أحياناً. يغنيها فتنساب مع أحرفها الدموع، تشتعل مع كلماتها أنفاسه كأنها خارجة من حريق:
صوت تفجر من قرارة نفسي الثكلى: عراق
كالمد يصعد، كالسحابة، كالدموع إلى العيون
الريح تصرخ بي: عراق
والموج يعول بي: عراق، عراق، ليس سوى عراق

يحاول مرتضى أن يقاطعه كل مرة فلا تأخذ به الشجون إلى هاوية الحزن والألم يستطيع. باقر المتماهي مع العراق يأبى إلا أن يتابع الغناء للعراق:
البحر أوسع ما يكون وأنت أبعد ما تكون
والبحر دونك يا عراق
لو جئت في البلد الغريب إلي، ما كمل اللقاء
الملتقى بك.. والعراق على يديّ.. هو اللقاء
شوق يخض دمي إليه كأن كل دمي اشتهاء
جوع إليه كجوع كل دم الغريق إلى الهواء
ولا يملك مرتضى إلا أن يشارك صاحبه فتنهمر دموعه كما تنهمر دموع باقر. "صحيح، ثمة شوق يخض دمي إلى العراق.. جوع للعراق.. حاجة قاتلة إليه كحاجة دم الهواء" ويتابع.. فيما باقر يترنم متراقصاً على جمر الألم تراقص اللهب على شمعة.
أيخون إنسان بلاده؟
من خان معنى أن يكون فكيف يمكن أن يكون؟
الشمس أجمل في بلادي من سواها والظلام
حتى الظلام هناك أجمل، فهو يحتضن العراق
لكن هنا، يختلف مرتضى وباقر "لا.. لا للظلام، حيثما كان وكيفما كان. لنهرب من باقر.. لنبتعد عن الظلام". "الهروب لا يحل مشكلة، وهروبنا من الظلام هناك لن يعمل إلا على زيادة الظلام. يجب أن نواجهه مرتضى، يجب أن نقاتله في عقر داره. وإلا النور قط، بل ظل السائد هو الظلام". المعركة شرسة بين الصديقين، وكلاهما يقاتل عله يحقق النصر. سلاح جديد داخل المعركة فكان عنصر الحسم. بذكاء استخدمه مرتضى. هو الذي يعلم أن بذرة علاقة قد أنتشت في تربة باقر وفادية. الفتاة تبدي إعجابها وهما يلتقيان. بهذه المناسبة بتلك يلتقيان. باقر حدثه عنها، البذرة التي أنتشت تنمو. تترعرع، إلى أن بدت وكأنها على وشك أن تثمر، سنابل قمح في كل حبة، فلماذا لا يستفيد مرتضى من ذلك الحب؟ فادية تحلم بالهجرة بعيداً. تحلم بأمريكا.. بكندا، بأي عالم جديد يبعدها عن عالمها القديم البالي المتعفن، كما صرحت مرة. مرتضى سمعها. في بيتها.. في بيت باقر.. في المطعم الشعبي حيث كانوا يذهبون، هم الثلاثة، أحياناً. كانت تصرح "فلسطين حلم بعيد، صعب الإمساك به، فلماذا لا نبحث عن عالم جديد؟" لقط مرتضى الحبة فطرح الفكرة. كان باقر إذ ذاك يعد في المطبخ وكانا وحيدين.
-فادية؟ لم لا تهاجرين إلى كندا؟
-كيف؟
-بسيطة!! الفتاة تتزوج كندياً فتصبح كندية، أسترالياً فصبح أسترالية.
-صحيح، لكن أين الكندي الذي أتزوجه فأصبح كندية؟
-باقر!! ألا تحبينه؟
-بلى.
-ألا يحبك هو؟.
-بلى.
-إذن لم لا تتزوجان وتذهبان إلى كندا؟
-يا ليت!!
-الأمر بيدك. هم يعرضون علينا الهجرة، والأوراق لدي. فقط عليه أن يملأها. منذ وأنا أحاول معه وهو يرفض، لا يريد السفر إلى كندا، وشهقت فادية تعجباً.
-لكن لماذا؟
-لا يريد البعد عن العراق.
-ولم لم تقل لي؟ سألته لائمة.
-ها أنذا أقول لك.
-وعلي أنا البقية، قالت بنبرة حاسمة أدرك مرتضى منها أن السهم أصاب مرماه.
بعد ذلك طوقت باقر بذراعيها وقد أخلى لهما مرتضى الجو.
-أحبك.. أحبك.. أحبك. راحت تتمتم هامسة بين اللثمة واللثمة، كأس خمر ترشفها.

-وأنا أحبك. رد وهو يشعر أن حميا جديدة تسري في أوصالها، لم يدر كيف أو أحس بحمية لم يعهدها من قبل في ضماتها، قبلاتها.. باقر يعرفها جيداً. مذ تعرف واحدهما إلى الآخر، شعر بجاذب يجذبه إليه، ثم بخطا متأنية راح واحدهما يقترب الآخر. عرفته إلى بيتها.. قدمته إلى أسرتها. معرفته القديمة بأبيها يسرت السبل، يندمج سريعاً بالبيت.. يدعى إلى غداء.. يحضر عشاء فيتصرف تصرف الرفيق القديم. لكن ذلك ترك على كاهل باقر عبئاً جديداً: نوعاً من الشعور بالمسؤولية: الفتاة منه.. ست عشرة.. سبع عشرة سنة، هو لا يدري تماماً، لكن ثمة فارق، ذلك الفارق يراه في عيني أبيها، عيني أمها كلما نظر إليهما. "هو صديق." هكذا قدمته، ومن حقه أن يكون صديقاً كبيراً في السن أم صغيراً، لكن خطيباً أو حبيباً، هل يقبل أبوها؟
باقر نفسه لم يفكر بذلك الزواج؟ مرة واحدة فكر به مع لورا. بعدئذ أقلع عنها. هو تائه في غابة السياسة والصراع فكيف يفكر ببناء عش يتطلب قبل أي والاستقرار؟ فادية نفسها لم تطرح عليه الفكرة. كانا يلتقيان، يتبادلان التسكع، الأخبار وشيئاً من الغرام دون كثير من الوعود، دون كثير من الأحلام.
الفكرة الجديدة فقط جعلتها تغير التكتيك. "يريدونه أن يهاجر إلى كندا. فلماذا ونهاجر معاً؟" الاقتناع على مراحل: المرحلة الأولى: البوح بالحب والأنفاس الحرى والضمة المحمومة. الثانية: الكلام عن الغد، الآمال، الأحلام. الثالثة: طرح فكرة الارتباط.
أياماً وليالي استغرقت تلك لمراحل. لكن فادية ربان سفينة ماهر، قاد السفينة بين الجزر والأرخبيلات، دون أن ترتطم بصخرة أو تصطدم بجزيرة، وحين وصلت المرسى كان باستطاعتها أن تلقي المرساة دون خوف من رياح أو أمواج.
-ولماذا لا تخطبني؟ سألته وهما يسيران في ممرات إحدى الحدائق يداً بيد وكتفاً كتف وأنفاساً لأنفاس.
-أتريدين ذلك؟ سأل بدوره وقد فاجأه سؤالها ذاك.
-لم لا؟ طالما بيننا حب، لماذا لا يسير في طريق كل حب؟
-أيوافق أهلك؟ وأشار بيده إلى شعرات بيضاء كانت قد بدأت تتسلل إلى صدغيه.
-أهلي هم أنا، رأيهم رأي.. أوافق أم لا أوافق، أنا لي ملء الحرية.
باقر يعلم أن لها ملء الحرية. أمها، أبوها، كلاهما كانا مقتنعين أن يفتحا لابنتهما الحرية على مصاريعها. مذ دخلت الجامعة، كانا قد قالا لها: "الآن أنت طالبة جامعية.. فتاة بلغت سن الرشد، فتصرفي بما يمليه عليك هذا الرشد. لن نسألك أين ذهبت؟ فعلت؟ نحن نعطيك الثقة الكاملة والحرية التامة فعيشي تلك الثقة وهذه الحرية".
ولم تكذِّب فادية خبراً. عاشت حياتها الجامعية بكل ما في الكلمة من معنى: صداقات، معارف، حفلات، رحلات.. كل ما في الحياة الجامعية كانت فادية تريد أن تجربه، باستطاعة والدها أن يقدم لها المال. مكانته في الجبهة جعلت أموالاً طائلة تحت وهو سخي. فلماذا لا تستفيد من ذلك السخاء ابنته الوحيدة؟
باقر نفسه يعرف ذلك السخاء، بل أكثر من مرة استفاد منه. يعرف الحرية التي فادية فكيف لا يكون لها ملء الحرية في اختيار شريك الحياة؟
-حسن، كما تشائين، رد باقر وهو غير واثق مما يقول. كان الأمر كله كأنه في في زمان آخر، يحدث لأناس آخرين. هو نفسه لم يكن يجرؤ أن يطرح مثل ذلك لكن ها هي ذي الأمور تتخذ مسارها بذاتها، تتطور بذاتها، بل تدفعه أمامها السيل الحصاة.
ذهبا إلى الأبوين. الأبوان رحبا بالفكرة. "أتراها مهدت لكل شيء؟" باقر لا يدري، لكن بدا واضحاً أن الأب سعيد.. الأم سعيدة. لقد اختارت ابنتهما شريك الحياة!! حفل بسيط ضم أفراد العائلة من جهتها هي، ومرتضى فقط من جهته هو. ألبسها باقر وألبسته فادية مثله ثم تبادلا القبل، خطيبين متحابين ليس بينهما فارق سن أو تفاوت طبقي، بل قاسم مشترك أعظم: الشتات.
الشتات يجر الشتات كما يجر القمل الصئبان. فادية حريصة أن يجر قملها صئباناً إلى عالم جديد، ألقه يبهر عينيها، وكل ما تطمح إليه أن تلقي بنفسها في بحره الدافئ، تعوم في مياه حريته وتنهب كل ما على رمال شاطئه من متع ولذائذ. أخيراً المرحلة الحاسمة: الإقناع بالسفر. في كل لقاء.. في كل مكالمة هاتفية، بين

والقبلة.. الضمة والضمة، تحدثه فادية عن كندا.. مزايا السفر، مكاسب وتغريه.. تلح وتغريه، ولم يكن باقر إلا ابن أبيه: آدم ذاك الذي قادته من خطمه حواء.

-أحسنت فادية!! هتف مرتضى وقد زفت له بشرى القبول. في اليوم الصديقان طريقهما إلى السفارة. قدما الأوراق، كتبا طلب اللجوء "أخيراً تصبح لاجئاً سياسياً يا باقر!!" وكأنما الأمر قد بت.

-عليكما الانتظار. قال لهما القنصل الكندي وهو يربت كتفيهما معاً.

-ننتظر؟ كم؟ شهراً؟ شهرين؟ رددت فادية وهي تسرع إلى باقر محتضنة لاثمة.

-على الأكثر ثلاثة أشهر، أجاب مرتضى هذه المرة. هكذا الآخرون.

-أية بشرى!! أية بشرى!! هتفت فرحة، ثم دعتهما كليهما إلى مطعم فاخر احتفالاً البشرى.

-لا، اسمحا لي. أنا مرتبط، قال مرتضى، ففتح باقر عينيه وهو يعلم أنه يكذب.

-معقول!؟ ألا تحتفل معنا؟ سألته فادية وقد تهللت أساريرها أكثر فأكثر.

-لا. لا. احتفلا على طريقتكما الخاصة، فلماذا تريدانني عذولاً؟ وانسحب مرتضى مسرعاً.

-عجيب!! مرتضى!! قال باقر وهو يهز رأسه: ينسحب من الدعوة إلى مطعم فاخر؟

-يفهم. مرتضى يفهم. ردت فادية ضاحكة وهي تشبك ذراعها بذراعه شادة صدرها إلى درجة أحس بالدفء يتسرب من نهدها الأيمن أمواجاً أمواجاً إلى ذراعه.

-إذن، لماذا نذهب إلى مطعم؟ سأل، وحرارة نهدها تسري في جسده نزولاً إلى حقويه.

-ماذا؟ نذهب إلى البيت؟ سألته وغمزة كثيرة المعاني ترافق السؤال.

-لم لا؟ في البيت وحده المرء يأخذ راحته، وضحكا كلاهما لاكزاً واحدهما الآخر، دافعاً إياه وكأنما يتسابقان للوصول إلى البيت. زياد خارج البيت، ربما هناك لدى خطيبة المستقبل. ابنة الوزير كانت قد طردته فمضى إلى ابنة زعيم يشارك في الجبهة الوزراء.. لم يكن قد رآها لكنه رأى أباها، تقرب منه، مد استطالته وكل هدفه أن يعرش على سقالة، عريشة ترتفع على أكتاف الآخرين وطفيلية تقتات من عناء وكالعادة تحول إلى مطية للأب.. أداة في يده، فيما عينه على الابنة، لسانه لا "كيف الوصول إلى حماك وليس لي في اليد حيلة؟".

الحيلة بيد فادية. هي فرحة. النصر وشيك. سنرحل إلى كندا. القنصل كان إيجابياً. شهر ويأتي الجواب فلماذا لا تفرح فادية؟ لماذا لا تحتفل بنصرها المؤزر؟

فراريج، حمص، تبولة، متبل، عرق. كل ما يحتاجونه حملاه معهما إلى البيت. الاحتفال بالنصر لا يتم بغير طعام وشراب. صفّا كل شيء على الطاولة، صبا كأسين من العرق ثم رفعت فادية كأسها:

-نخب النصر!! كأس النجاح!!

وجرع كلاهما كل ما في كأسه دفعة واحدة. الفرح الشديد يقتضي الشرب الشديد، فرحان. "أخيراً أجد نفسي.. أخيراً أجد الفتاة التي تحبني.. تخلص لي.. تضع يدها ونمضي معاً، نشق طريقنا معاً فلا يفرقنا شيء".

ولم تكن فادية تخشى شيئاً يفرق بينهما: الخطة نجحت، الحلم يتحقق خطوة وكما تشاء.. فلماذا لا تلحق بجناحي الفرح عالياً في السماء؟

كأساً، كأسين، ثلاثاً جرع كل منهما ثم بدا كل شيء أشبه بالحلم الوردي. بالأحضان أخذها باقر. بالأحضان أخذته. قبلة طويلة تذيب الشفاه، ضمة محمومة تهصر الخصور. كلاهما يشعله الغرام وكلاهما يرغب في الالتحام. "يا إلهي!! أي توق أحسه لذلك الالتحام!! أي شوق مجنون يدفعني لأن أصهره.. يصهرني، نصبح روحاً واحداً.. جسداً واحداً؟" ولم تنتظر فادية.. كان فمها يذوب في فمه قطعة سكر في كأس ماء. لسانه داخل يبحث ربما عن رأس الينبوع فيشرب من مائه حتى يرتوي. لكن كل ما تتمناه به.. أن تنصهر وتصهر. بودها لو يفك أزرار قميصها.. يمد يده إلى صدرها.. ثمة نهدان يتلظيان ناراً للمسة.. ثمة خصر يصرخ به "ضم أكثر.. ضم أكثر.." لكن كيف تقول ذلك؟ هي لا تستطيع البوح. "بل تستطيع" ومدت يدها إلى صدره تفك أزرار قميصه، سرعان ما وجدا نفسيهما جلداً لجلد ولحماً في لحم.

-أنت لذيذ!! لذيذ!! يا إلهي!! كم أنا سعيدة بك!! همست قرب أذنه وقد هدأت بعد اصطخاب. لم يجب باقر كما توقعت، بل بدا كأنه غارق في شيء كالصمت. ماذا؟ ألست سعيداً، باقر؟

-بـ.. بـ.. بلى. رد باقر، لكن بنبرة بدت أبعد ما تكون عن السعادة.
-لعلك فوجئت، تابعت هامسة بعد أن تفحصته قليلاً.
-لا أخفيك. أجل، فوجئت، رد وهو يتحاشى النظر في وجهها.
-كنت تريدني عذراء؟
-لا، لا، بدأ متلعثماً فيما هي تغرس نظراتها في وجهه تستطلع ما وراء الأسطر.
-لا أكتمك سراً، كان بودي أن تكوني عذراء.
-لماذا؟
-لا أدري. كل رجل يريد أن يكون الأول في حياة زوجته.
-الفاتح؟ المقتحم؟ تقصد؟
-سميه ما شئت، لكن بالتأكيد، ما من رجل يريد أن يكون الآخر قد سبقه إلى زوجته.
-لكن، لا مانع أن يسبق هو الآخرين إلى نسائهم؟
وأحس باقر بنبرة هجومية عدوانية تغلف سؤالها، فانكمش انكماشاً على انكماش، بدا فاصل واسع يفصل بين الجسدين اللذين كانا قبل لحظات فقط لحمة وسداة.
-لا، لا تتكلمي هكذا، فادية!
-ولم لا أتكلم؟ الرجل أناني، يبيح لنفسه ما لا يبيح لامرأته. له هو كل شيء وهي محرومة من كل شيء. هو يعيش بحرية وهي عليها القيود.
-أية قيود؟
-غشاء البكارة، أليس هو القيد الذي تقدسونه؟ الغل الذي تريدون من الفتاة عليه؟
-لا، أنا لم أتكلم عن غشاء البكارة. أنا لم أطالب بشيء.
-لا، طالب به وأنت لك ملء الحرية في أن تفعل ما تشاء.. تسرح وتمرح كما تشاء.
-لا تقلبيها مناحة، فادية! أنا فقط.
-أنت فقط صدمت!؟ قاطعته فادية. خاب أملك. حقاً!! كلكم شرقيون سلفيون متخلفون، لا تؤمنون بمساواة المرأة ولا بحرية المرأة.
واهتز شيء ما داخل باقر.. شيء كان في سبات عميق منذ زمن طويل. "الحرية!؟ أجل، هي ذي ما كنا ننادي به طوال عمرنا. تعاليم حزبنا.. تقاليد نضالنا، كلها كانت تنادي المرأة كحرية الرجل، بالمساواة بين المرأة والرجل، فكيف نسيت ذلك باقر؟ تتراجع ذلك التراجع حتى أبدو لها مجرد سلفي متخلف؟" وبكثير من الأسف يعتذر. قبلت فادية العذر وقد تأكد نصرها من جديد. لكن حين خرجا كان هو ما يزال يحمل آثار صدمة خفيفة.. خيبة سرية جعلته يمضي إلى مرتضى خامد الجذوة، كأنه موقد من رماد.
في منزل مرتضى فقط، اشتعل من جديد.
-زال خطر الحرب، فاجأه صاحبه بالخبر.
-معقول؟ هتف باقر فرحاً فجأة متوهجاً فجأة.
-قبل ساعة فقط أعلنوا النبأ: حلت مشكلة التفتيش في العراق.
ولم ير باقر نفسه إلا وهو يقفز، كعادته كل مرة ينجو فيها العراق من خطر، قفزات غزال فرح بالربيع، وكأنما ذهب كل ما في نفسه من خيبات.
***
الفصل السادس عشر
-رحماك، لا.. لا تسأليني كم أحبك يا حبيبة!!
بدأ باقر يترنم غارقاً حتى شحمة أذنيه في بحيرة الحب الدافئة، رغم الثلج الذي يتساقط في الخارج هشائش حائرة على أجنحة ريح تخفق حيناً وتتوقف حيناً.
-بل أريد أن أعرف. أصرت فادية وهي تنظر في عينيه المفعمتين حباً، وتترك يده المتوهجة عشقاً.
-أنا لست أدري كم أحبك، لست أدري.
عاد إلى ترنمه وعيناه راهبتان تتعبدان في محراب حبها. لم تقاطعه فادية. كانت الأخرى تريد أن تتعبد في محراب الحب، فصالة المطعم الكبيرة الواسعة خالية زوجين اثنين عاشقين مثلهما ربما، يلطآن في الزاوية الأخرى ويرقبان هشائش

تترامى في أحضان الأشجار وعلى أكتاف الطبيعة المترقبة ترقب عاشقة لعاشقها طال غيابه.
فهواي ممتد كبير يا حبيبه
وبلا حدود كالسماء
هو مثل بحر تلو بحر تلو بحر
وبداية دون انتهاء
-كأس البحر تلو البحر تلو البحر، همست فادية وهي ترفع كأس النبيذ المتوهج غامزة بعينها إلى البعيد البعيد. دق باقر كأسه بكأسها ثم شرب النبيذ المتوهج كالنار. هي تنتشي حين تسمع بالبحار والأراضي الواقعة ما وراء البحار: كندا.. استراليا.. أمريكا.. هذه كلها الحلم الذي تنسلخ به عن جلد كالح بال ليصير لها جلد جديد نضر. هو تريد كالتخلص من بلد "كل ما فيه متحجر"، كما تقول: "يعيش في القرون الوسطى"، "بلد مهترئ كثوب شحاذ بألف رقعة ورقعة". هو يسمعها تصب لعناتها تلك على العتيق وعلى كل شيء عتيق فيتذكر لورا "يا إلهي! لماذا الكل يريدون الهجرة؟" ولا يملك باقر إلا أن يشعر بالاستغراب والنفور. لكن ما إن يمر بعض الحين حتى والحب يغفر. معرفته بالجيل الجديد، برفضه، تمرده تجد لها المسوغات، الكل يريد الهروب.. كأنما ضاق البلد بالناس، عوزاً وحاجة، فلا يدري أهله كيف يفرون منه.
أوراقه إلى كندا كانت تسير في طريقها الروتيني المعهود. هو ومرتضى راجعا السفارة، طلبتهما السفارة، أكثر من مرة دعاهما القنصل يسأل.. يستفسر، وكان باقر بصراحة وصدق. كانوا يعلمون كل شيء عنه، عن حياته، عقائده، عمله في الحزب، الجبهة الفدائية، مع ذلك كانوا يريدون المزيد، فهل يستطيع باقر إلا أن يجيب وصدق. "لماذا تهاجم أمريكا؟" سأله القنصل آخر مرة "أمريكا عدوة الشعوب.. مصاصة الدماء.. دولة البغي والعدوان"، وأجفل القنصل حينذاك. "لكنك تكره صداماً صدام. أمريكا تكرهه أيضاً إذاً، أنت وأمريكا ينبغي أن تكونا حليفين" "أكره صداماً!؟ نعم. بل أكرهه حتى الموت، لكن أكره وطني؟ لا!! أتحالف مع عدو وطني؟ القنصل من جديد. "كيف؟ لا أفهم!! أمريكا تريد إسقاط صدام!! تفعل كل لتخليص العراق من صدام" وتبسم باقر تبسم المرارة "أمريكا تختزل الشعب كله فرد، تلغي الوطن من أجل حاكم، وهذه هي الجريمة. العراق لا يختزله فرد مجرد حاكم". وطرف القنصل بأجفانه وقد ازداد دهشة واستغراباً "كنا نحسبك لا تتوانى عن التحالف مع الشيطان من أجل إسقاط صدام" همهم القنصل وكأنما يهمهم ثم مضى دون أن ينتظر رداً من باقر.
ذلك كان آخر لقاء. سأله مرتضى عنه فنقل له ما قال، وللتو ضرب كفاً بكف غلط"، فادية قالت الشيء ذاته، بل كانت ردة فعلها أشد.. "بالعكس. كان يجب أن تنهال بأقرع الشتائم على صدام وترفع صلوات المديح والثناء لأمريكا"، قالت فادية ضاحكاً "لا أدري. هذا ما طلع معي" "لكن يجب أن تصلح الخطأ، يجب أن تسافر وأخشى ما أخشاه أن تؤثر أجوبتك هذه في قبول طلبك"، لكن لم يكن باستطاعة باقر شيء. ما قاله قاله، ولن يستطع قول سواه. حتى لو سأله مرة ثانية سيجيبه ذاته. عمره لم يعرف النفاق، طوال حياته يكره الكذب، فكيف يكذب؟ ولم يسع باقر لإصلاح الخطأ. حثته فادية أكثر من مرة على مقابلة القنصل وأكثر من مرة تهرب. بهذه الحجة، بتلك كان يتملص.
-باقر، نبهته من شروده وهي تشير إلى الخارج. هذا الثلج يجعلني أتفاءل. سنراه في كندا.
-أجل، في كندا ثلج كثير وصقيع كثير.
-ادع الله، باقر، ادع الله أن نسافر قبل نهاية العام، نقضي ليلة رأس السنة هناك.
-يمكننا أن نفعل ذلك هنا حتى لو لم نسافر، همس بكثير من الشوق لشفتيها النبيذ رياً واشتهاء.
-لا، لا زواج بلا سفر، قالت بنبرة الحسم.
هوذا موقفها منذ البدء. خطبة؟ نعم. لكن الزواج؟ لا. "وكيف نتزوج؟ في غرفتك زياد؟ بلا دخل مثل العالم والخلق؟" قالت له منذ البدء "وماذا في ذلك؟ نستأجر

صغيراً، نمد رجلنا على قدر بساطنا" "لا، لا، فادية ابنة القائد النضالي الكبير لا يليق بها إلا زواج نضالي كبير"، والزواج النضالي الكبير في نظرها هو أن ترمي بالعالم القديم بالياً لتلبس حذاء جديداً كل الجدة. طوال خمسة أشهر ظلا يتناقشان.

الزواج بحاجة إلى الكثير، وهو لا يملك شيئاً من ذلك الكثير: لا بيت، سيارة، لا دخل يكفي ليعيش هو، فكيف لبناء عش زوجي جديد؟ "بيدها حق" كان غالباً ما يخلص إلى استنتاج "نفقات العرس.. المنزل الجديد، أكبر بكثير مما أملك. إن حلت المشكلة. طائران يخرجان من قفص إلى الفضاء الرحب فأية سعادة لا يصنعانها؟"

-سنسافر، اطمئني. قال وكأنما يطمئن نفسه.

-حقاً!! أنت متفائل؟

-هم يأخذون كل العراقيين. فلماذا لا يأخذونني؟

-إذن، سنكون أجمل عروسين يقضيان أجمل رأس سنة.

-ولسوف ألتهمك، ألتهمك، كما تلتهمين دراقة تذوب عصارة!!

-وأنا ألتهمك. أجل. أنا أتلظى شوقاً إليك. المس يدي قالت وهي تمد يدها له فيشعر وقداً متوهج الجمر، وجنتاي.. جسدي كله يتلظى لهباً.

-فماذا أقول أنا؟ أنا اللهب ذاته.

-وأنا الفراشة. كل ما أريده اللحظة أن أرمي بنفسي إليك. أن أحترق بك أيها اللهب!!

-أجل، الاحتراق، هوذا ما يريده اللهب أيضاً.

-هلم إذن!! نحترق الآن!! قالت وقد لمع عزم شديد في عينيها.

-ماذا؟ هنا؟ الآن؟ رد هامساً وهو يتلفت حوله، حيث نادلان أو أكثر كانا يقفان منهما، وحيث الصالة البلورية تنكشف للفضاء، للأشجار، للثلج وهو يتساقط رقائق.

-بل هناك، في السيارة. همست وهي تمسك بيده وتنهض. السيارة مدفأة فاخرة. أبوها المسؤول يغير سيارته كل عام أو عامين وهي تستفيد منها.. تأخذها منه كلما تذهب إلى السوق.. تتنزه مع صويحباتها.. أصحابها. أبوها يؤمن بالتقدم.. بالحرية، ويطبق ما يؤمن به. في الصباح، رأت الجو ماطراً مثلجاً فجاءت إليه. "أبي، أريد السيارة اليوم" "خذيها" رد وهو ينعم بدفء قبلاتها، تلك التي تعلم كيف تشحنها عذوبة ابنة صغيرة متعلقة بأبيها معجبة به.

الطريق أبيض، الأشجار بيضاء، السماء بيضاء، والأرض كلها عروس مجلوة ليلة يخرج باقر وفادية فيلسعهما القرس، تستقبلهما رقائق الثلج مصفقة بأجنحتها هنا، هناك كفراشات الربيع. متخاصرين، متضامين، اجتازا الفسحة الخارجية إلى السيارة. هما سعيدان. وهج من داخل، قرس من خارج، ويتوحوحان.. ينطان عالياً متخاصران متضامان، لا تكاد وجنتها تفارق وجنته ولا نهدها صدره.

يصلان إلى السيارة فيلقي كل منهما بنفسه في المقعد ثم يسرع لضم الآخر انفصال لحظة. قبلة محمومة وجدا نفسيهما يغرقان فيها. هو ظامئ، هي ظمأى، كل منهما عن ري، وليس في الشفاه ري. هي كماء البحر لا تزيد شاربها وتمتد يده إلى نبع مائها، هناك فقط يمكنه أن يجد الري. تمتد يدها إلى نبع مائه، فقط يمكنها أن تجد الري، لكن سيارة تصف بجانبهما تجعلهما يجفلان، قطاتين طلقة عند منهل الماء.

يد على المقود ويد تداعب خده، مضت فادية بالسيارة الدافئة، الفاخرة/ صوت كرم يلعلع "ما بدي قصور تهديني. ولا بدي كنوز تغنيني. بدي هواك يدفيني. لا.. لا. لا.. لا.. لا.." ولم يكن باقر يريد سوى ذلك الهوى يدفئه، يدغدغه، ينعشه. يدها تدغدغه. يده تدغدغها. ساقاها المتباعدتان وقد انشمر الفستان عالياً تسمح لأنامله أن تتغلغل العمق، تدغدغ فتسري رعشة من نشوة على محياها. وجنتاها تتقلصان ثم تسترخيان، زاويتا فمها تنكمشان ثم تسترخيان ويختلس نظرة إلى عينيها، يجدهما مغمضتين فيجفل.

-لا، لا، سائقة، ومغمضة العينين؟

-أنت على حق!! ردت ضاحكة وهي تفتل مقود سيارتها إلى اليسار. كانا قد اجتازا الجبل المطل على سهل الزبداني، وكانت ثمة غابة من أشجار الصنوبر. الطريق يمضي صعوداً إلى قبة مزار. عند القبة وقفت السيارة. الإطلالة رائعة. هشائش

رائعة، هي ما تزال تسقط. كل شيء في الوجود أبيض، كل شيء بارد ساكن هما، وقد تحولا إلى لهيب نار...
متراقصاً دخل المنزل، متواثباً اتجه إلى غرفة زياد، وكل ما يريده، أن أفراحه.. يعيش معه سعادته، فالفرح والسعادة لا يطيبان إلا جماعة، لكن ما إن دخل الغرفة حتى تسمر وقد قابله صاحبه برأس مطرق ووجه عابس قمطرير.
-زياد.. ماذا بك؟
-ماذا بي؟ مصيبة!! كارثة!!
-أية مصيبة!! قل يا رجل؟ سأله وهو يجلس بجانبه على الديوان فيما التلفاز الصامت علامة من علائم الكارثة.
-أشرعتي تمزقت. سفينتي تحطمت.
-الله، زياد!! ومتى كان لديك أشرعة وسفن؟
-أوف!! تقول هذا وقد رويت لك قصتي كلها؟
-من تقصد؟ جهينة؟ سأله باقر، هو الذي كان قد سمع أدق التفاصيل.
-أجل جهينة، سفينتي للمستقبل، وكانت السفينة تمخر العباب وكانت ثمة آمال كبيرة في أن أصل إلى الشاطئ الآخر.. شاطئ النعيم والسعادة.
-فماذا حدث؟ سأل وقد أحس بالتعاطف فجأة.
-كل شيء انتهى الآن باقر. آمالي كلها خابت. جهينة ضاعت.
-ضاعت؟ لكن، كنت اليوم ستخطبها!! قال باقر وقد تذكر ما حدثه به زياد في الصباح.
-وذهبت. أجل، أخذت المحابس وذهبت أخطبها. لكن..
-ماذا؟ رفضتك؟
-يا ليت!!
-عاد أبوها عن كلمته!!
-لا، لا، أبوها يدفع مئات الآلاف، فقط كي يصرفها عنه.
-إذن، ما الخطب؟ ما الخبر؟
-عند جهينة، قال وهو يشير إلى الوراء زافراً. ألا يقولون عند جهينة الخبر اليقين.
-وما خبرها اليقين، جهينتك هذه؟
-قبيحة!! بشعة!! فظيعة!!
-ماذا؟
-كما قلت لك. هي شوهاء، عرجاء، محدودبة الظهر، قبيحة الوجه.
-يا عيني!! هي كل هذا وأنت لا تعرف؟
-وكيف أعرف وهم يخبئونها خلف سجف وستائر؟ مائة مرة طلبت رؤيتها، لكن كانوا يتهربون. أبوها يغدق علي الوعود "سأرفعك إلى أعلى عليين، سأغنيك إلى ولدك، سأجعلك وزيراً"، لكنه يمنعني من رؤية ابنته. فكيف أعرف؟
-ورأيتها أخيراً؟
-كيف إذن ألبسها الخاتم؟
-اللعنة!! وماذا فعلت؟
-صعقت. قبحها لم تره عيني قط. رأيتها فتركت كل شيء ووليت الأدبار، ولم باقر منع نفسه من أن ينقلب على قفاه ضاحكاً.
-ماذا؟ تضحك مني؟
-المعذرة، زياد. العفو، لم أستطع منع نفسي، لكن، وقد عرفت، ماذا أنت فاعل؟
-لا أدري. صدقني، باقر!! أنا حائر.. محبط.. خائب الآمال.
-ولِمَ، إن كان ما يهمك فقط هو المنصب، ما تريده فقط هو السلطة؟ تزوجها ما تريد.
-لا، لا، مستحيل. أنت لم ترها. هي أبشع من أن تستطيع العين النظر إليها.
-والوزارة؟ المال؟.
-أواه!! هذا ما يغيظني. اللقمة وصلت إلى الفم. فجأة تسقط. شيء قاتل باقر. شيء قاتل. وهب زياد يزفر الزفرة تلو الزفرة وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً.
-مع ذلك، اسمع مني. اقبل بها. كيفما كانت اقبل بها. ستصبح وزيراً يا رجل!! سيغنيك أبوها إلى ولد ولدك!! فقط غض النظر عن شكلها.

-لا، مستحيل. قلت لك مستحيل، كدت أتقيأ حين رأيتها. مستحيل أن أتزوجها.
-إذن، على نفسها جنت براقش، قال باقر ضاحكاً ساخراً وهو يهم بالخروج، أنه دخل وقد طارت فرحته.
-صحيح، جاءه صوت زياد قبل أن يصل إلى العتبة، مرتضى يريدك. ضروري، خبر يريد نقله إليك.
وأعجبته الفكرة. "مرتضى سيشاركني فرحتي. هو صديقي وسيفرح لفرحي، لكن ذلك الضروري الذي يريدني لأجله؟ ما هذا الخبر الهام؟" وقفز إلى مخيلته للتو ربما هناك أخبار جديدة عنه: انفراج ما.. أزمة ما. هو لا يدري، ففي الجو كانت وبشائر معاً. الأنكلو أمريكان لا يتركون خناقه، إلا ليشددوا القبضة عليه، لكن في الجو العربي أشياء وأشياء. الضمير العربي بدأ يستيقظ. وخزاته بدأت تقلق هذا الحاكم العربي أو ذاك فيطلق تصريحاً "يجب تخفيف المعاناة عن الشعب العراقي" "يجب الحصار عن العراق" "يجب إنهاء الحظر" وبدأت ثمة تحركات في الخفاء أولاً العلن. مساعدات طبية ترسل إلى العراق، شاحنات تشحن معلبات النيدو والغذاء، وفد متعاطف دفعته النزعة الإنسانية من هنا، وفد متعاطف دفعته النزعة التجارية هناك. آخر الوفود كان وفداً من رئيس غرفة التجارة في دمشق وخمسة وثلاثين من كبار التجار مضوا إلى بغداد، حيث يمكنهم إعادة الوشائج وفتح الجسور التي تنتقل السلع والبضائع بين سورية والعراق.
-هه!! ماذا لديك؟ أهناك جديد عن العراق؟ سأل باقر وقد فتح مرتضى الباب.
-بل جديد عنك.
-عني أنا؟ وأي جديد؟
-رفضوا طلبك.
-الكنديون رفضوا طلبي؟ سأل وهو يؤكد على كل حرف.
-أجل، بالمصادفة مررت اليوم على السفارة. "ابن حلال" قال لي السكرتير. "كنا سنتصل بك غداً. مبروك. وافقوا على طلبك."
-حقاً؟ وافقوا أن تهاجر أنت؟
-أجل، لكن رفضوا هجرتك أنت.
-الحمد لله!! هتف باقر وهو يشعر بصخرة تنزاح عن صدره.
-ماذا؟ لم يزعجك رفضهم؟
-أنت تعلم أنني تقدمت بالطلب رغماً عني.
-صحيح، لكن الأمر مختلف: تقدمت ورفضوك، ترى ألا يزعجك رفضهم؟
-بل أنا مسرور.. سعيد. سأظل هنا قريباً من العراق. لن تفصلني عنه البحار والقفار.
-وفادية؟ ماذا سيكون ردها؟
-فادية!! كرر باقر وهو يحك وراء أذنه، هو الذي يعلم كم تبني على السفر من آمال.
-أنا أقول لك. فادية لن تكون مسرورة ولا سعيدة.
-لا يهم. المهم أنني أنا فرح.. سعيد، ثم وثب صارخاً: أنا لن أبتعد عن العراق.. عن العراق.
فادية لم تكن فرحة ولا سعيدة، كما قال مرتضى، وفي الوقت نفسه لم تكن الابتعاد عن العراق، الشام وكل ما للعرب من ديار.
-أنت السبب!! صاحت مشيرة بسبابتها وقد نقل إليها الخبر. أنت السبب!!
-أنا؟ وماذا فعلت؟
-صرت تهاجم أمريكا!! عملت ثورياً!! تتكلم عن الامبريالية والرأسمالية!!
-لكنهم كنديون. وما شأنهم هم بأمريكا والامبريالية؟
-ها!! أنت مجرد غر، لا تعرف شيئاً. أليست كندا الحديقة الخفية لأمريكا؟
-ما كنت أعلم ذلك.
-اعلم إذن الآن، وتحمل العواقب الوخيمة.
-عواقب وخيمة؟ لماذا؟ ها نحن بخير. قبلونا؟ خير. لم يقبلوا؟ خير أكثر.
-أنا أعلم، قالت فادية والغيظ يقدح من عينيها شرراً. لم تكن تريد الهجرة. لم حتى بتقديم الطلب، وقد فعلت عامداً متعمداً لكي يرفضوا الطلب.
-لا، في هذا ظلمتني، فادية!!

-ظلمتك؟ لماذا إذن قبول طلب مرتضى، ولم يقبلوا طلبك أنت؟
-اسألهم هم.
-بل أسألك أنت. تريد أن تجلس في حضنهم وتنتف لحيتهم. أليس كذلك العظيم!؟ أيها الطوباوي الأبله!؟
-لا تكبّري كلاماً فادية!!.
-بل سأكبّر أكثر. أنت أبله، ضعيف الشخصية.. متردد.. حائر.. لا تعرف ما تريد.
-فادية!! ما الذي تقولينه؟ أجننت؟
-كيف لا أجن وأنت تخدعني؟ تمنيني الأماني وتكذب علي؟ اغرب عن وجهي. اذهب هنا. لا تدعني أرى وجهك أبداً.
وأحس باقر فجأة بطعنة خنجر، بدم يسيل على أخدعيه. هب ملء طوله، ضرب بقدمه ثم غادر المنزل. أمها حاولت ثنيه، داعية إياه إلى الغداء، لكنه بأدب اعتذر. الأم طيبة. تصرفات ابنتها لا تعجبها، تحاول دائماً كبحها، نصحها، لكن فادية لا تكبح ولا من ينصح.
تسعة أيام ظل باقر في غرفته لا يبرحها. قال لزياد: "كل من يتصل بي: ليست من يأتي إلى هنا: لست هنا"، وأطاع زياد. هو نفسه كان كارهاً للناس راغباً في المصيبة جمعتهما والمصائب تجمع، فقعدا كلاهما يدقان الحزن بالجرن، يشكو ليبكي الثاني ويشكو الثاني ليبكي الأول. "طردتني. قالت لي اغرب عن وجهي" يقول باقر فيردد زياد "وأنا أخدع. يريدون تزويجي من ضبعة نتنة". ثم لا يملكان إلا الزفرات الحرى ويصفنا الساعات الطوال.
كان باقر يعلم أن الرفض سيزعج فادية، لكنه لم يكن يظن أن الانزعاج طرده. هي خطيبته، تحبه، والحب أقصر السبل للغفران. إذن، لماذا ثورتها تلك لماذا تلك الحدة كلها؟ ألا يغفر له أنه يحبها؟ أنه خطبها وريد الزواج منها؟ "ثمة جميلة قضيناها معاً، ذكريات جميلة صنعناها معاً، أفيذهب ذلك كله؟" السؤال يحيره. هو في عزلته يقلب السؤال، ويفكر بفادية. يغضب منها؟ يرضى؟ يغفر لها؟ يرد أسئلة كثيرة تدوم في سماء غرفته. هو يبحث عن جواب لها، لكن دائماً لا جواب.
في البداية، ظن أن غضبها مجرد زوبعة في فنجان. آمال كبيرة راودته في الجرس ليجدها ترتمي بين أحضانه معتذرة مستغفرة، لكن مرت الأيام الثلاثة الأولى دون أن يظهر أحد. مرت بعد ذلك أيام أربعة ولم يرن هاتف "اللعنة!! هي غاضبة حقاً!! رباه!! ماذا أفعل؟" وبدا له أنه في مأزق حقيقي "أيظل غارباً عن وجهها فلا تراه ولا يراها، وإلى متى؟ أم يعود معتذراً مستغفراً تمسكها واحدة عليه فلا يستطيع الإفلات من أبداً؟ هو في حيرة. يريد أن يغادر المنزل ولا يريد أن يغادره. زياد غادره. كبس الملح على الجرح وخرج من جديد يبحث، ربما عن ابنة وزير كبير أو مدير خطير لا شوهاء عرجاء علّ أباها يرفعه إلى أعلى عليين ويغنيه إلى ولد ولده. لكن هو، باقر التنكجي، الشريد الضائع، عم يبحث يا ترى؟ فجأة أصر على ألا يبحث عن شيء. حسبه أنه في معتزله وحيد.. محاصر. "أليس هكذا العراق؟ إذن، لم لا أكون مثله؟ هو فلماذا أبحث أنا عن السعادة؟ هو في بلوى وضيق، فلماذا لا أشاركه البلوى والضيق؟"
وظل باقر في غرفته لا يبارحها. الكتاب صديقه والشعر رفيقه. قصائد صارت منقادة تجرر أذيالها، فلماذا لا يستقبلها؟ كان حسبه أن يفتح ذراعيه لها لترتمي بينهما، وكان يفتح ذراعيه. يكتب، يقرأ "الله!! كم فيك من متعة أيتها القراءة!! كم من متعة أيتها الكتابة!! لأظلن أقرأ وأكتب حتى أنسى كل الأحزان والأشجان".
لكن مرتضى لم يدعه يقرأ ويكتب. في اليوم العاشر جاءه منذ الصباح الباكر:
-باقر، شاكو ماكو!؟ ما تبين؟ شنهو اللي صار لك؟ نسيت رفيقك؟ ها!! قل لي شاكو؟ ماكو؟
راح يوبخه بلهجته العراقية الصارمة وهو يمسك به من رأسه يدعك صدغيه بين راحتيه.
-لا، لا، ماكو شي بعد. معقول أنسى رفيقي؟ رد باقر باللهجة نفسها وهو يحاول برأسه من راحتيه.
-صحيح، أين أنت؟ ما تعلم أني بحاجة لك؟
لا، باقر لم يكن يعلم أن مرتضى بحاجة له. ظنه وهو يعد نفسه للسفر قد وتفصيلاً، لكن ها هو ذا مرتضى يؤكد له أنه على خطأ. كان مرتضى قد سأل

ومرات. بالهاتف، عند الأصحاب، رفاق التيار الديمقراطي، لكن باقراً بـدا وكأنه وذاب. بل حتى البيت جاء إليه، لكن زياداً كان مطيعاً ينفذ الأوامر وكـان يصـده بعبارة "آسف، غير موجود".
-بحاجة لي؟ سأله باقر. أنت رايح لكندا وتحتاجني؟
-طبعاً أغراضي.. أشيائي.. لمن أعطيها؟ أم تريدني أن آخذها معي إلى كندا؟
وبدا باقر كالأبله، فاغراً فمه، جاحظاً عينيه، لا ينبس بحرف. ثم.. قل لي. تتركني دون أن أودعك؟ أسافر ولا أجد أحداً بجانبي؟ أنت صارلك شيء؟ تخبلت؟.
وانهال التقريع حبات برد بحجم الجوزة على رأسه وهو يروغ برأسه هنا، يـروغ البرد على الرأس موجع.
-بيدك حق، اعذرني. كنت أمر بحالة اكتئاب.
-اكتئاب؟ لأنهم رفضوك؟ لكني رأيتك تسر حين نقلت لك الخبر.
-صحيح، لكن فادية، كما قلت حينذاك، لم تسر.
-ونزلت على رأسك القارعة، قاطعه مقهقهاً ضاحكاً.
-وأية قارعة؟ لقد طردتني.
-تستاهل.
-الأمر جد، وقد تفسخ الخطوبة.
-تستاهل أيضاً.
-لكنني أحبها.
-وهي تحب السفر.
-أكثر مني؟
-ربما، من يدري؟
لكن باقراً كـان يـدري. منذ البداية قـرنت فادية زواجهما بالسـفر، وكل مـرة كـان عليها الزواج، كانت تهز رأسها ضـاحكة "نـتزوج هنـاك، حين نصـير على الشـاطئ وتشـير إلى البعيد البعيد حيث شـاطئ الأطلسي الغـربي والبهـرج الـذي يخلب "لكن، لماذا نحرم أنفسنا الآن وباستطاعتنا أن نتمتع ونسعد؟" "لكننا نتمتع ونسـعد. أأنت محروم من شيء؟" "لا، لكن الزواج أفضـل" "الفقـير لا حق له أن يـتزوج، وأنت تملك شروى نقـير.. مشـرد لا تملك سـقف بيت" وينطـوي على جرحـه. هي لئيمة تعرف دائماً كيف تضع الملح على الجرح وتضـغط فلا يملك إلا أن يطـأطئ رأسه هما ابنا شـتات معـاً، لكن هي لـديها سـقف ومـأوى. أبوها ذو مكانـة، حـاش الممتلكـات والأموال، لكن، هو ماذا؟ هو في لجة الشتات، لم يكن قد وصل شـاطئاً ولا اقـترب أمان. "إيه أيها الشتات!! أما لك من نهاية؟"- هيا.. دعني من اكتئابك وعزلتك، وانهض.
ولم يملك باقر إلا أن ينهض. مرتضى سيسافر خلال ثلاثة أيام، وعليه أن فعلاً. ثمة أشياء كثيرة عليهما أن ينهياها معاً.. حاجات.. أوراق.. كتب، عليهما أن ينقلاها إلى غرفته. في آخر يوم فقط، فاجأه مرتضى:
-تعال، سأحاول الاتصال بالأهل، أودعهم.
-ماذا؟ ممكن الاتصال؟ رد باقر هاتفاً متعجباً.
-هكذا سمعت. هناك خطوط فتحت. أحدهم في القيادة قال لي اليوم إنه اتصل.
-أسرع إذن. دعنا نحاول.
ومضيا إلى مركز الهاتف. كان الانفراج الذي بدأ باهتـاً بين دمشق وبغـداد، قد يوماً بعد يوم. وفد غرفة التجارة في دمشق كان قد مهد له. تجار بغداد ردوا الزيارة، وقديماً كان التجار يفعلون ذلك يتبادلون السلع.. البضائع.. فيأتي تاجر دمشق إلى ويذهب تاجر بغداد إلى دمشق. أول بساط طـار عليه السـندباد كـان بين دمشق فلماذا ينقطع بعضهم عن بعض؟ العراق عمق سورية الاستراتيجي وسورية عمق الاسـتراتيجي. النـاس كلهم يعرفـون ذلك فلمـاذا يظلان متباعـدين؟ لمـاذا إنمـاء الأحقـاد والأضغان؟ باقر لا يدري، لكنه يدري من قراءة التـاريخ والجغرافيـة.. الماضي والحاضـر، أن بريطانيا لم تكـره يومـاً كرهها لأي تقـارب بين دمشق وبغـداد، ولم تعمل يومـاً لـدق الأسـافين بين دمشق وبغـداد "الله يا مـدينتي الوليد والرشـيد!! يا ركـني والحضارة!! بكما ينهض عز العرب، وعليكما يتوقف سؤدد العرب!!".

ساعة كاملة ظل باقر يجرب الرقمين اللذين يعرفهما في بغداد: رقم فاطمة يرن أحداً لا يرد. رقم صديقته آمال يرن لكن بشكل مختلف، أتراه معطل؟ مرة تلو حاول باقر لكن عبثاً. مرتضى تكلم مع أهله. أخبرهم بكل شيء وأخبروه بكل شيء، خرج وبسمة تشق شفتيه حتى الأذنين. أخبارهم غير سارة، مع ذلك سر مرتضى. حسبه أنه اطمأن عليهم. بعضهم مات، بعضهم مريض لكن معظمهم ما يزال حياً يرزق. بسرور شديد تلقوا نبأ سفره إلى كندا. "سترسل لنا عوناً يا ولدي!!" ترجته أمه "نحن ماسة للمعونة" أكدت له "نصف ما سأستلم من دولارات سأرسله لكم." "أجل. الدولار هنا يفلح فلاحة يا ولدي." ووعدها وعداً قاطعاً جعل باقراً يشعر بشيء من الذنب ذهبت مثله، أما كان باستطاعتي أن أرسل لهم الدولارات؟ وتذكر أمه. "ماذا حدث ترى؟ كيف تدبر أمر معيشتها؟" باقر يعرف أخبار العراق جيداً لكنه لا يعرف أخبار أخبار البيت في البصرة، الأخوة، الأخوات. هو يعرف فقط الضنك والضيق الذي فيه هناك كي يوفروا لقمة العيش. "فماذا لو هاجرت؟ أما كنت سأتمكن من مد يد العون لهم؟" وأحس باقر بنوع من تأنيب الضمير. من جديد جرب أن يتصل بفاطمة، لكن الرقم ظل حرداً عنيداً لا يرد.

-مرتضى!! قال باقر وقد خرجا من مركز الاتصالات ماداً يده له بالوداع.

-ماذا؟ ألن تذهب معي؟ ألن نقضي آخر ليلة معاً؟

-بلى، بلى، مساءً أذهب إليك. لكن الآن، سأذهب إلى البيت. أريد أن أرتاح.

ومضى باقر إلى البيت حزيناً كئيباً "لو سمعت صوت فاطمة فقط، لو عرفت فقط" كانت ثماني سنوات قد فصلت بينهما لم يسمع صوتها ولم تسمع صوته فتات الأخبار الذي يصله لا يروي عطشه. باقر يشعر أنه متشوق. لكل قطرة من دجلة والفرات، لكل نخلة من نخيل العراق، كل ذرة من تراب العراق. "أهذا الحنين إلى الوطن؟ أهو الحنين الذي قد يشتد بالمرء إلى أن يستحوذ على كل ما فيه من مشاعر وأحاسيس، طارداً كل ما عداها من مشاعر وأحاسيس؟ أهو الذي يتحول إلى وجد مبرح وهاجس مسيطر"؟ باقر وصل إلى هذا الحد. هو يشعر أن الحنين إلى العراق يسد عليه المنافذ كلها. هو لا يرى إلا العراق.. لا يسمع إلا العراق.. لا يفكر إلا بالعراق.. ولا يشعر، وهو يعود متمشياً إلى منزله، إلا وهو يردد:

واحسرتاه متى أنام؟
فأحس أن على الوسادة
في ليلك الصيفي طلا فيه عطرك يا عراق
بين القرى المتهيبات خطاي والمدن الغريبة
غنيت ترتبك الحبيبة
وحملتها فأنا المسيح يجر في المنفى صليبه
يا ريح يا إبراً تخيط لي الشراع متى أعود
إلى العراق.. متى أعود.. إلى العراق..
الريح تصرخ بي: عراق
والموج يعول بي: عراق.. عراق.. ليس سوى العراق
فمتى أعود إلى العراق؟

لكن ما إن وصل إلى المنزل حتى جاءه جواب مغاير لذلك السؤال. زياد قدم كانت قد وصلت قبل ساعة. "من لورا؟" تساءل بفرح واستغراب وهو يقرأ العنوان الظرف. كانت اسكندنافياً قد غيبت لورا منذ أشهر طويلة. خمسة عشر!؟ تسعة باقر لا يدري. ما يدريه أنه حسبها في عداد المفقودين، فمن تراه يلتفت إلى الحضيض، حيث العالم الثالث البائس، وقد صار في رأس الهرم من العالم"؟ لكن رسالتها تأتي. "إذن أنت لم تنسي أيامنا الحلوة، ليالينا الجميلة يا لورا؟" فض الرسالة ثم قرأها. خمس صفحات بخط منمنم دقيق حلو كلوحاتها المنمنمة ذاتها. هي فنانة هو يعرفها، بل كله إيمان أن لها مستقبلاً باهراً، خاصة وقد عرفت أين تبني ذلك المستقبل، "هنا، لا أمل لي"، كانت قد قالت له أكثر من مرة "هنا لا يعرفون قيمة الفن، لكن هناك، في العالم الحضاري المتقدم سيكون لي شأن آخر. أنا وانطلاقاً من تلك الثقة وضعت نصب عينيها السفر، ثم سافرت، فما عساها تقول صفحاتها الخمس تقدم لها الجواب واضحاً. السعادة التي تفيض بين سطورها

كل استفسار: معارضها ناجحة.. الإقبال عليها كبير.. الناس يشترون منمنماتها. "تصور.. إحدى منمنماتي بعتها بثلاثة آلاف دولار"، كانت الرسالة تخبره. "تصور.. إحدى منمنماتي بعتها بثلاثة آلاف دولار. تصور. صديقتك لورا تملك الكثير من المال الآن، تعيش ويسر بعد كل ذلك العناء والضيق، فما أبأس إنساننا في الشرق؟".
وتنهد باقر. قرأ الرسالة وزفر الزفرة تلو الأخرى. "هنا، الأنظمة، القوانين، الدولة.. كل شيء يوظف لخدمة الإنسان، يسخر لتوفير راحته وسعادته. باقر، هنا الحياة جميلة. كل شيء. الطبيعة، المدينة، الرجل، المرأة، العلاقات الإنسانية.. كلها راقية جميلة"ـ وشرد ذهنه إلى الممارسات المرعبة التي تمارسها الدولة، إلى القوانين الجائرة التي الدولة، وكل همها أن تكون لخدمتها هي، لا خدمة المواطن، لسعادة رجالها الإنسان. "المفاجأة عزيزي باقر، صديقك سعدون". وأجفل باقر "سعدون!؟ معقول؟ التقت به لورا؟" وللتو ردت على سؤاله "أجل التقيت به صدفة، كان لي نورمبرغ. أنت لا تعرف نورمبرغ. هي المدينة الأجمل هنا في بلاد الثلج. فيها الكثير من العرب. دعتني رابطتهم لإقامة معرض فذهبت. ليلة الافتتاح كان فيها الكثير الحضور.. لكن ما لفت نظري واحد فقط من ذلك الحضور. كان، بعينيه اللامعتين كنجمتين في السماء، يلفت النظر، وكان شعره الفاحم، شارباه العربيان الجميلان، بشرته الحنطية المقمرة المحمرة كرغيف حنطة خرج لتوه من تنور يلفت أكثر من النظر، فلم أستطع أن أفارقه بناظري. كنت أتحدث مع الجميع وأنا معه وحده، أسمع الجميع وأنظر إليهم، وسمعي، نظري معه وحده. لقد تملكني. لا أدري كيف؟ استحوذ علي بكل ما في، أيضاً لا أدري كيف؟ لكأنه أمسك بقبضته روحي فلا تستطيع صار همي كله أن أستبقيه في المعرض حتى النهاية.. أن أقيم معه جسراً راسخاً الحال.. أن أستحوذ عليه للتو. أجل، تملكني ذلك الإحساس: "يجب أن أستحوذ يجب أن يكون هذا الرجل لي." لكن سويدية صهباء الشعر فارعة القامة متينة البنيان كانت تتأبط ذراعه. كان واضحاً أنها تهيم به حباً.. لا تتركه لحظة. مع ذلك "لتذهب إلى الشيطان، صديقته تلك" بعدئذ أقدمت. تعرفت إليه. هو عراقي. رجولة العراق.. فحولة العراق كلها كانت تتبدى في ملامحه. مع أحرف اسمه تذكرتك. سألته عنك. "أوه!! هو أصدق أصدقائي" وكدت أقفز فرحاً. "قد وجدت القاسم المشترك". أجل، وكنت أنت القاسم المشترك الذي ربطنا تلك السهرة. رأيتك فيه، كما كلانا يحبك، يريد التمسك بك قسماً مشتركاً. لكن كان ثمة الصديقة الشقراء الصهباء. كان كل ما أريده هو أن أصل إليه وبات كل ما يريده هو أيضاً أن يصل يتحقق ذلك والسويدية بيننا؟ من مطعم إلى مطعم تنقلنا، ومن بار إلى بار ترحلنا. نأكل.. نشرب.. ثم نشرب ونشرب إلى أن وصلنا إلى منزله وقد استسلمت الصديقة النوم متخلية عن كل مقاومة، ناسية كل منافسة. مذ ذاك صرنا صديقين حميمين، زرت صديقيك الحميمين أيها القاسم المشترك!" وضحك باقر وهو يعود بذاكرته المدرسة، حين وصل مدرس الرياضيات إلى القاسم المشترك وبدأ يشرح لهم. "كم انحفر ذلك الدرس عميقاً في تلافيفي الدماغية"!! "درس مهم درس القاسم المشترك"، شرح لهم الأستاذ: "ركزوا عليه. افهموه.ـ فلسوف تحتاجون دائماً لمعرفة القواسم المشتركة في الحياة، بين الأشياء، البشر" المعلم كان على حق، فها هو ذا باقر التنكجي، يصبح قاسماً مشتركاً بين كائنين بشريين في السويد.
قلّب الرسالة، وأنامل فرح تدغدغ شغافه. هنا دعوة واضحة له.. تريده هي وسعدون يذهب إليهما. "فقط قل نعم، تصلك بطاقة الطائرة وشيك بنفقات السفر". دعوة كريمة. فهل يقبلها أم لا؟ الزيارة إلى السويد مغرية. تغيير الجو، رؤية الأصحاب، لن يكون مهاجراً. شهراً.. شهرين، يمكن أن يقضي هناك، ثم يعود، فلا ينسى الوطن يبتعد عن العراق، وقفزت إلى ذهنه فكرة، لم يملك معها إلا أن يقفز كله فرحاً. "أجل، أذهب مع فادية شهر عسل" وأسرع في الحال يرتدي ملابسه.
كانت فادية، مذ صاحت به غاضبة، "اغرب عن وجهي"، قد انقطعت عنه. لا اتصال.. لا مرسال.. لا أثر.ـ لا خبر، وكان هو، بكبريائه الجريح، قد آثر الابتعاد، غاضباً كان، كان. مع ذلك لم يستطع الرد، وبماذا يرد؟ أيفسخ الخطوبة؟ فكر باقر في ذلك، يستطع البت. كان قلبه يخفق خفقاناً شديداً كلما فكر بالأمر. الحب يقف بالمرصاد، فيرده على عقبيه كلما طرح ذلك الاحتمال "لا، لا، أنا أحبها. فادية حبيبتي.. خطيبتي.

علاقة جميلة تربطنا.. ذكريات رائعة تشدنا فكيف أتخلى عن ذلك كله؟ كيف أتخلى عنه؟"
وكان يبعد ذلك الاحتمال نافراً خائفاً. في الوقت ذاته لم يكن يريد أن يسامحها طردها له. "خطيئة فاحشة!! تطردني؟ تصيح في وجهي؟ إذن لا بد من عقابها" وكان العقاب أن يهجرها فترة من الزمن تعلمها درساً. فليس لحم الطيور كلها يؤكل، رجال العراق بالنساء. هم يؤمنون أن الرجال قوامون على النساء، وأن المرأة والرجل رجل، ولكل دوره، فلا يأخذ أي منهما دور الآخر. وظل نائياً لا يذهب يتصل بهاتف، لا يقترب من صديق مشترك. الدرس يجب أن يكون قاسياً فلا تتطاول عليه مرة ثانية.
لكن ها هي ذي دعوة تأتي، فتقلب كل الموازين.. تنسيه قراراته.. دروسه، وتجعله يسرع إليها "سأصالحها، وأنا من فوق. هذه المرة سأريها أنني أنا الرجل وأنا الذي يملك دائماً دفة القيادة. تريد السفر؟ ستسافر، وإلى أين؟ إلى مكان أجمل من كندا، من العالم الجديد كله". وتبسم باقر وهو يتمشى وحيداً على رصيف شارع لم يكن قد رآه منذ عشرين يوماً أو يزيد. هو فرح. دعوة لورا وسعدون أسعدته كثيراً. "مشاكل ستحل. آفاق جديدة ستفتح. سعدون يلمح إلى أن بالإمكان تدبير البقاء في النرويج السويد، إن أراد. لا، هو لا يريد البقاء، لكن مجرد التلميح يسعده، فهناك أصدقاء فرصة لأن يختار. فرصة الاختيار ذاتها تسعده. هو حر. حرية الاختيار نعمة وهو فرح النعمة. فادية ستفرح أكثر بها، ومن يدري؟ ربما يسافران في أقرب وقت، أفكار تذهب به، أفكار مجنحة تعود، وهو يسير. لم يرد أن يركب سيارة. المشي أن أنساماً باردة بدأت تتحرك في شوارع دمشق، محركة أغصان أشجارها، هازة أوراقها، لكن الصحيح أيضاً أنه ينتشي بتلك البرودة. كان الليل قد خيم، وكانت الشوارع بالأنوار والسيارات، وكان يشعر أنه طائر مجنح. هو لا يسير في الشوارع بل يطير عالياً في السماء.
عند المنعطف، حيث يتفرع من الشارع الواسع زقاق ضيق، لمح سيارة تلف الزقاق. "هذه سيارة فادية"، تمتم وهو يطرف بأجفانه. هو يعرفها. السيارة نفسها التي ذهبا بها إلى الزبداني، ومن ثم غابة الصنوبر.. المزار.. الحب.. الجنس. حث باقر يريد التأكد من الرقم. الرقم نفسه، لكن السيارة انعطفت مختفية عن ناظريه. وأسرع باقر عله يلحق بها. الزقاق شبه معتم، يصل إلى حديقة متواضعة فيلتف حولها. على أطراف الحديقة أشجار صفصاف وارفة. تتدلى بأغصانها حتى الأرض صانعة وستائر. وصلت السيارة إلى هناك. توقفت تحت العتمة والأغصان، فغذ باقر خطاه. "من في السيارة؟" مرورها السريع لم يتح له أن يرى من في الداخل. "أخوها؟ أبوها؟" باقر يعلم أن الأب سمح كريم يعطي لأولاده الحرية في أن يأخذوا يقضوا حاجاتهم. يتنزهوا.. شأن كل أب سمح كريم.
على خطاه المتسارعة كان خفقان قلبه يتسارع، فالسيارة التي توقفت تحت الأغصان والعتمة كانت قد أطفأت الأضواء. وقفة مريبة تثير التساؤلات. اقترب باقر من السيارة فلم يستطع أن يرى شيئاً. غبش البخار كان قد صنع من البلور حجاباً حاجزاً لا يعبره نظر. مضى إلى الأمام. عبر البلور الأمامي استطاع باقر أن ينظر. كانت خطوط تقطع الغبش وفتحة أو فتحتان. حدق النظر خلالهما، وعلى بقايا ضوء كهربائي هناك، رأى باقر فادية بين أحضان رجل وقد غرقا في حمى قبلة طويلة.
نار اشتعلت في رأسه، فلم يشعر إلا وهو يمضي إلى الباب، يفتحه العاشقان.
-اللعنة عليك، أيتها الغادرة الخائنة!! صاح بها وهو يمد يده إلى شعرها. خائفة انكمشت. خائفة ابتعدت عن اليد، لكن الأخرى كانت قد أمسكت بذراعها ثم جذبتها خارجاً.
-ماذا تريد مني؟ صاحت فادية وقد وجدت نفسها على الأرض، دعني.. دعني.. تابعت الصياح وهو تحاول الوقوف فيما انهال عليها باقر صفعاً وركلاً، وصوتها يلعلع سباباً شاتماً.
-وحش!! كلب!! خنزير!! لكنه لم يتوقف إلا وقد أمسك صاحبها بكلتي يديه.
--ماذا؟ أجننت؟ لماذا تضربها؟ من أنت؟ سأله بتخوف وكأنه يظنه أخاً لها أو أباً.
-أنا خطيبها، هذه الغادرة.. الخائنة.
-خسئت، صاحت في وجهه وقد تخلصت منه.

-أنت لم تعد خطيبي!! خذ. هـذا محبسك ألقيه في وجهـك!! وأتبعت ذلك بحركة سـريعة، أخرجت المحبس من إصبعها ثم رمته به. لم يصب المحبس وجهه بل انحرف بعيداً ثم يحط على أرض الشارع متدحرجاً مصدراً رنينـاً راح يخفت شـيئاً فشـيئاً تلاشى، فيما كانت السيارة تنطلق براكبيها انطلاقة الصاروخ.
مكسر الجناحين، مهدم القوى، دار باقر على عقبيـه. بطيئـاً، متمهلاً بـدأ يسـير. لم بحرف. لم ينظر إلى الوراء. كانت حركتها قد أفحمته. فما تراه يقول؟ ما تراه يفعل؟ في الزقاق المعتم سار. في أثر المحبس مشى. على بعد خطوات شعر بنفسه يتسـمر، كان المحبس قد صار تحت قدمه. ربما هي جاذبية الذهب سمرته، وبحركة لاشـعورية يده إلى محبسه، نزعه من إصبعه، ألقاه أرضاً ثم التفت إلى الوراء، "وهـذا محبسك في وجهك". في اللحظة نفسها كان شيء ما، هناك في أعماق قلبـه، يلفظ آخر أهو الحب يلفظ الأنفاس؟ أهو كـائن، ككل الكائنـات يمـوت؟ بـاقر لا يـدري، لكن اللحظة أحس أن شيئاً في داخله يمـوت. "اللعنة عليـك!! اللعنة على حـواء!! هي حية تلدغ. هي دائماً غدر وخيانة" ورجع القهقرى مكسر الجناحين، مهدم القوى، لكن في منتصف الطريق غير رأيه. لم يكن باستطاعته أن يعـود إلى المـنزل. "سـيكون ستكون الوحدة فوق كل طاقة على الاحتمال"، واتجه صوب منزل آخر. "صحيح، مرتضى بانتظاري، الليلة ليلة الوداع، فلأمض إلى وداعه."
-ما بك؟ لماذا هذا التجهم كله؟ استقبله مرتضى متسـائلاً مسـتغرباً، فقد تركه وهو أكثر إشراقاً وحيوية.
-لا، لا شيء. رد باقر وهو يلقي بنفسه على أقرب مقعد.
-أنت حزين إذن؟ لا تحتمل فراقي؟ تابع مشاكساً مازحاً.
-أجل، سأشعر بعدك بالوحشة، لتقتلني الوحدة. رد باقر وقد وجد منفذاً يهرب منه.
سأبعث وراءك. سأعمل على سحبك بيدي.
-لا، لا أريد، لن أهاجر.
-اسمع مني، باقر! الهجرة تحل لنا مشاكلنا كلها، الهجرة خلاصنا الوحيد.
-خلاصنا الوحيد، ردد وفي نبرته استهجان واستغراب. وماذا عن خلاص العـراق، هذا الحنين للعراق؟ إنه يمرضني مرتضى.
-أسفي عليك!! أنت مريض بذاك المرض الذي يدعونه الحنين إلى الوطن.
-أجل.. مريض بالحنين مرتضى، فماذا أقول للوطن؟ ماذا أقول للعراق؟
-هو سبب تجهمك إذن؟ سأل مرتضى وقد تحركت في داخله نوازع وشجون.
-بل ثمة سـبب آخـر، بـدأ بـاقر وهو يزفـر زفـرة الحرقـة، ثم اسـتأنف بنـوع من السماء!! السماء كئيبة متجهمة.
-مـاذا؟ سـأل مرتضى ثم تبسم سـاخراً، رحم الله الشـاعر ماضي. قد سبقك في قصيدته:

قال السماء كئيبة وتجهما
قلت ابتسم يكفي التجهم في السما

وأشار مرتضى إليه وإلى السماء فلمعت في ذهن باقر فكرة هش لها وبش ثم بالنبرة نفسها والحركات نفسها رد:

قلت التي كانت سمائي في الهوى
أضحت لنفسي في الغرام جهنما

وللتو رد مرتضى وقد أعجبته اللعبة:

قلت ابتسم واطرب فلو قارنتها
قضيت عمرك كله متجهما

وانتفض باقر:
-هو ذاك!! هو ذاك!! أبو ماضي يقول الحق، وأنا أحمد ربي أني لم أقترن بفادية.
-فادية؟ أجرى شيء بينكما؟ أهي السبب حقاً؟ راح مرتضى يرش أسـئلته رشـاً. احك الآن. احك.
وحكى له باقر كل ما جرى معه مذ افترقا ذلك العصر.

-إذن عليك أن تضحك حقاً لا أن تتجهم. علق مرتضى وهو يهز رأسه يمنة اكتشفتها في الوقت المناسب وخلصت منها في الوقت المناسب.
-لكن لا أخفيك. أنا مصدوم.. حزين.. حزين حتى الموت.
-سافر. غيّر جواً.
-أين؟
-ألم تقل أن لورا دعتك إلى السويد؟ هي ذي فرصة ذهبية فاقتنصها.
-ماذا تقصد؟
-أقصد، تذهب فترى الأصدقاء. تستمتع بالسويديات الشقراوات الصهباوات، ثم أحد يذهب إلى المطعم ومعه زوادته؟
-الغبي!! رد باقر فقهقه كل منهما ضاحكاً.
-إذن، لا تكن غبياً. اذهب بمفردك. عش إجازة العمر، وإن وجدت الفرصة سانحة، هناك.
-لا، كل شيء إلا البقاء هناك.
-تريد البقاء قرب العراق؟ قال مرتضى ساخراً.
-أجل، رد باقر ثم شرع يترنم وكأنما نسي قصة فادية كلها:

بلادي وإن جارت علي عزيزة

وأهلي وإن ضنوا علي كرام

مرة تلو الأخرى راح يعيد البيت مترنماً، موقّعاً إياه على إيقاع الموسيقى وكأنما لم يعد في ذهنه سواه، فيما كان مرتضى يتشاغل بحقائبه رازماً مستعداً للرحيل.
مع أشعة الفجر الأولى انطلق الصديقان إلى المطار، وفي الردهة الواسعة الخالية إلا من بعض المسافرين أخذ واحدهما الآخر بالأحضان.
-اذكرني دائماً، قال باقر.
-لتنسني يميني إن نسيتك يا باقر، رد مرتضى مازحاً.
-بأمان الله!!
-بأمان الله!!
طويلاً شد واحدهما الآخر إلى صدره وطويلاً ربت واحدهما كتف الآخر. بعد ذاك الأول إلى الداخل يلوح بيده والآخر إلى الخارج يمسح دمعتين انحدرتا على الخدين، ثم لم يعرف كيف وصل إلى سريره، ألقى بنفسه عليه وغرق في سبات عميق.
مع أذان المغرب أفاق، وعلى غسق كانون خيل إليه أنه شفق الفجر لكن الساعة، حتى أدرك أنه نام النهار فقط وليس النهار والليل. بحيوية غسل وجهه، ارتدى ملابسه وكأنما أعطاه النوم زخماً شديداً، دفعة كبيرة من دم الحياة رأى معها ينطلق إلى مركز الهاتف. كان كل ما في ذهنه أن يتصل مع أخته.. أن يعرف الأهل.. أخبار العراق. دق الرقم فجاءته رنة انشغال. "الحمد لله! هذه المرة سيردون" وانتظر. خمس دقائق.. عشراً.. لا يدري. كانت ساعته قد تعطلت منذ اشتباكه مع بعد ذاك عاد إلى الهاتف يدق الرقم من جديد. هذه المرة رفعت السماعة. "يا إلهي! إنه صوت فاطمة!!".
-مساء الخير فاطمة، وجد نفسه يصيح بفرح طاغ.
-ناصر!! يا مرحبا بأخوي، حبيب قلبي، نور عيني. يا مسا النور. كيفك؟ كيف صحتك؟ أخبارك؟
وبدت رشة الأسئلة بلا نهاية. هو أيضاً كانت رشة أسئلته بلا نهاية. هي أجابت. هو لقد تحققت المعجزة أخيراً. تواصل الأخ والأخت كما تواصلت الأختان التوءمان: دمشق وبغداد. حكت له كل شيء. حكى لها كل شيء. فجوة واسعة كان عليهما أن ثماني سنوات من الزمان، وما كان أطولها من سنوات ثمان.
-ماتت أمي؟ كان الخبر الخطر الذي هز كيانه، بعد أن هزته أخبار أخرى: ضربة موت كاظم، إعدام جبار.. رحمة الله عليك يا أماه!! ردد وهو يمسح دموعاً لم يستطع منعها من الانهمار.
-عد إلينا ناصر. بنبرة رجاء طلبت منه فاطمة وقد انتهت من الأخبار.
-ليتني أستطيع أختاه!!
-ولماذا لا تستطيع؟

-أنا خائف فاطمة.
-لا تخف ناصر!! أنت تعود إلى وطنك!!
-وطني قيود وأصفاد.. سجون وقبور.
-لا، ذاك الوطن تغير ناصر.
-كيف، وجبار أعدم؟
-جبار مرتكب. أدين بالخيانة العظمى، خيانة الوطن. هل خنت أنت الوطن؟
-معاذ الله!! أنا أخون العراق؟
-إذن، لا تخف. عد إلى العراق. العراق الآن أم رؤوم تفتح أحضانها لكل أبنائها، أحضان الأم غير الحب والحنان؟
-تقولين الصدق فاطمة؟
-ماذا إذن؟ أخدع أخي؟ أكذب على شقيق مهجتي؟ لا ناصر. العراق اليوم غير الأمس. هو في أزمة، يواجه أشرس الأعداء ويحتاج لكل الأبناء، لكل الأصدقاء.
-تأكيد لي فاطمة! تأكدي مما تقولين أختاه!! وأنا جاهز، الليلة أعود. أتسمعين؟ أعود.
-لكنني متأكدة ناصر. العراق يرحب بكل من يرغب
ثم طارت مجنحة بأجنحة الفرح تنقل الأخبار لعبد المحسن
فالرصاصة التي اخترقت حوضه، لم تكن قد سمحت له بالحركة بعد.
فرح محسن بأخبار ناصر لكنه احتج:
-كيف تطلبين إليه أن يعود؟
-لماذا؟ ألم تقل لي أنت نفسك إنهم لم يعودوا يلاحقون أحداً؟ إنهم يرحبون يعود؟
-بلى، لكن المشكلة ليست فيهم هم، رد وفي كلامه ثقل. فالحنك الرصاصة ظل بطيء الحركة بعيداً عن المرونة.
-في من إذن؟
-في التطورات الجديدة، ألم تسمعي الأنباء؟
-لا، أية أنباء؟ ردت فاطمة بانزعاج وخوف.
-بتلر يريد تفتيش قصور الرئاسة.
-ماذا؟
-قصور الرئاسة نفسها يريدون دخولها والعبث فيها. الآن أذاعوا الخبر.
-يا ساتر!! يا لطيف!! صاحت داقة كفاً على كف فقد أحست للتو بتشنج وخفقان في القلب.
-أجل، يا ساتر تستر. هذه المرة لن تسلم الجرة يا فاطمة.
-أدري، المرة يفقؤون الحصرم في العين.
-ولسوف يمنعهم القائد. لن يسمح لهم بفقء الحصرم في عينيه. لن يوافق على العراق بالوحل، وهنا الطامة.
-معقول؟ وتعود الحرب من جديد؟
-لم لا وكل ما يريدونه أن يدمروا العراق؟ المرة تلو المرة يحاولون تدميره حتى له قائمة.
-يا إلهي!! لكن هذا حرام، حرام. صرخت فاطمة وكل ما فيها يتوجع. العراق من يقف على رجليه.. أن يضمد جراحه. من حقنا نحن أن نعيش، أن تكون لنا دولتنا الواحدة.. كرامتنا.. سيادتنا.
وبدت صرخة فاطمة، كأنها تنتقل عبر الأثير. الإذاعات، الفضائيات، الصحف، المجلات بدت كلها تردد تلك الصرخة. الأنكلو أمريكان يصرخون بالعراق أن يفتح لبتلر الرئاسة نفسها. ثمانية قصور يريدون تفتيشها: في بغداد.. الموصل.. تكريت، كركوك، وفي كل مكان يوجد حتى كوخ صغير يؤمه الرئيس، فكيف لا يرفض الرئيس؟
-هذه إهانة، ليس لي فحسب، بل للعراق كله.. مس بالكرامة.. إذلال، كان رد وللتو انفتحت أبواق الأنكلو أمريكان:
-ما زال الرجل يخبط.. يقاوم. يجب أن يرفع يديه ورجليه استسلاماً. يجب وحسب، يذعن فحسب.

لكن العالم هذه المرة بدا منقسماً:
-لا، هكذا زادوها كثيراً.
-بل يجب أن يفعلوا ذلك فيكسروا أنفه ولا يرتفع له رأس بعد اليوم.
-لكن ماذا في قصر رئيس الجمهورية؟ أيعقل أن يكون قصراً لصنع غازات الأعصاب؟ لإنتاج قنابل كيماوية أو جرثومية؟
-يعقل. كل شيء مع صدام يعقل.
-لا. لا. ليس من حقهم تفتيش بيت الرئيس.
-بل من حقهم أن يفتشوا حتى إسته.
واحتدم الجدال في العالم: هذا مع، ذاك ضد. ولأول مرة لم يسطع غوبلز الأنكلو أمريكان أن يقنع العالم كله بأنه هو الذي على حق والآخر على باطل. لم يستطع العالم كلها بأن صدام العراق هو إبليس الرجيم الذي يهدد بالخطر العالم، يتركه على كف عفريت، في أية لحظة يتحرك ذلك الكف يتدحرج العالم كله إلى الهاوية. كلنتون أفاعيه تسعى. هنا.. هناك، تسعى أولبرايت، كوهين، الدبلوماسيون، الجنرالات. يحرضون ويقنعون، يهددون ويتوعدون. الأمير المفدى مسرور، يتواثب فرحاً وهو يعد نفسه لمائدة انتقام يشفي بها غله. يسأله كلنتون عن استعداده للدفع فيهتف:
-ماذا تقول يا سيدي الامبراطور؟ أموال النفط كلها تحت تصرفك. أرصدتنا في في أوروبا، كلها في خدمتك، فقط شدد الحصار على صدام، وإن لم يذعن، اضربه هذه المرة الضربة القاضية.
-تكرم عيناك، قالها كلنتون بلهجة بدوية كان قد تعلمها في قفار الدهناء والنفوذ. وأسرع يتصل بتوني بلير، ثم بانكليزية أمريكانية طورها كاوبوي تكساس وأوهايو، أذنه:
-أنا سأحرك الأساطيل الأمريكية كلها إلى الخليج. حرك مدمرتين. أرسل وابعث أكبر قدر تستطيع من الطائرات والصواريخ.
وانصاع بلير، الغلام الذي يتعلم الصنعة على يدي معلم متمرس يتقن جيداً فن والظلم.
الطائرات تحركت إلى قواعد الخليج، المدمرات مخرت عباب الخليج، قوات برية إلى الشواطئ، إلى الشمال، وبدا العالم كله قاب قوسين أو أدنى من الحرب.
-لكن هذا ظلم!!
-هذه جريمة!!
-يريدون تدمير العراق لا صدام.
-يريدون إبادة الشعب لا الحاكم.
راحت الأصوات تتعالى من كل مكان في وطن العرب، كل العرب، حيث انكشفت عن أعينهم الغشاوة، فانجلت الحقيقة واضحة كعين الشمس ومن كل بدأت نفثات الغضب، صيحات الاستنكار تملأ الشوارع، الأزقة، الحارات، البيوت.
-لن نقبل بتدمير العراق. لن نسكت على إبادة أخوتنا في العراق.
وبدا الدم وكأنه لا يصير ماء فعلاً. انطلقت المظاهرات والاضطرابات، السباب والشتائم، الضغوط على الحكام وأشباه الحكام. من عمان.. صنعاء.. الخرطوم.. غزة.. طرابلس.. تونس.. خرجت الحشود مرغية مزبدة، واعدة مهددة، بل حتى في دمشق، بيروت، القاهرة، الرباط، الجزائر. بدا الجيشان يتشكل، والبركان يطلق الدخان منذراً حارقة. روسيا أحست بالحرارة الجديدة في الأجواء. فتململت متحركة محتجة. "لا، هذا ظلم، إجحاف للعراق". الصين، الهند، فرنسا، أفريقيا، آسيا.. كلها لحقت بها، وجدت منفذاً تنفذ منه للتعبير عما في نفسها من مشاعر وأحاسيس. وحده المفدى بدا مصدوماً. خيبة أمل كبيرة أحس بها وهو يرى انكماش العالم عن سيده العالم، إجفالته عما يريد أن يفعل هو وسيد العالم.
-اللعنة!! لماذا لا يقفون معنا كما وقفوا من قبل؟
-أنت مقصر سيدي الأمير. رد وزير حرب العالم بنبرة من توبيخ، قلت لك: دع حلوقهم. أطعم أفواههم تستحي عيونهم فأبيت.
-والآن ماذا أفعل؟ يجب أن يقفوا معنا، يجب أن نظل صفاً واحداً كما كنا الثلاثين. وأسرع الأمير المفدى يتصل.. يدفع.. ينثر الوعود يميناً، شمالاً "فقط ظلوا معنا.

ادعمونا. ابعثوا قواتكم، ونحن ندفع.. بترول.. مال.. ما تريدون نحن ندفع تخذلوني، لا تخذلوا امبراطور العالم."
بعضهم حنى رأسه، مذعناً لأوامر الامبراطور، لكن معظمهم لم يستطع.
-ثمة متغيرات لا بد من أخذها بعين الاعتبار، قال بعضهم.
-الشارع هذه المرة لن يسكت، قال البعض الآخر، الظلم الواقع على العراق يريدون ضربه. حقاً، باطلاً، يريدون ضربه، وهذا حرام، حرام. تابع بعضهم ذاك.
-قد بلغ السيل الزبى، قال البعض الثالث، والشعب لن يرحمنا. سيطيح بنا إن الطغيان. سيسقطنا إن ساندنا البغي.
ووجد الأمريكان أنفسهم، لا سند لهم ولا دعم، وحيدين في الساح. لكن الكاوبوي هو من سلالة البغل. يصعب عليه أن يسلم بالهزيمة. فانطلقت كلابه السلوقية مكان تبحث عن فرائس.. هم يريدون حلفاء كحلفاء الحرب الأولى: ثلاثون.. عشرون.. عشر دول تكفي. يزجونها معهم ولو اسماً، يصنعون منها غطاء يصبغونه بالأزرق، الأمم المتحدة، ثم يفعلون بالعراق ما يريدون: تدميراً، تخريباً، فتكاً، قتلاً. "هذه سنمسح العراق عن وجه الأرض"، راحوا يهددون ويتوعدون، كندا انضمت إلى الأنكلو أمريكاني.. أوستراليا.. جزر الفوكلاند.. النيوزيلاند.. أليسوا كلهم أنكلو سكسون؟ هذه القبيلة التي انداحت في الأرض ذات يوم تعيث فيها فساداً وتملؤها جوراً الشمال حتى قطب الجنوب. العالم كله يعرف أن لهذه القبيلة مبدأ واحداً لا تحيد عنه: نحن السادة، نأمر. الآخرون عبيد، وعليهم الطاعة، أفراد القبيلة كلهم الكاوبوي، كلهم يهددون العراق ويتوعدون: انصع لأوامرنا. نفذ ما نريد. افتح قصور رئاستك.. بيوت رئيسك.. قادة حزبك.. جنرالات جيشك، نفعل فيك وفيهم ما نريد.".
لكن العراق لم ينصع ولم يفتح قصور رئاسته. "المنية ولا الدنية" راح يصيح صيحة بن مسعود الشيباني وقد أطلقها عشية ذي قار "الطعن في الصدور خير منه في والظهور". وفرح امبراطور العالم "الذريعة في يدنا. صدام يرفض قرارات المتحدة." وجاء الإيعاز لبتلر: انسحب بلجان تفتيشك فنقطع الطريق على العراق: لا تراجع، لا تردد، بل ضربة ساحقة.. ماحقة. وبدا العالم كله مذهولاً كأنما يقف الطير.
-محسن، دعنا نرحل عن بغداد، قالت فاطمة وهما يجلسان إلى المذياع يسمعان الأنباء.
-نرحل من بغداد؟ كرر محسن الذي كان كلامه ما يزال ثقيلاً، مشيه ما يزال متعذراً.
-أجل، الإنذار ينتهي الليلة والحرب قائمة لا محالة.
-وأين نذهب؟
-إلى العمارة. هناك رقية ورئبال. الموضع أفضل والخطر أقل.
-لا، لا للرحيل، لا للبداوة.
-بداوة؟ ماذا تقصد محسن؟ سألت فاطمة وقد تعذر عليها فهم مرماه.
-نحن دائماً نتصرف وكأننا ما نزال بدواً رحلاً في بيداء. نشعر بالخطر ونرحل. فاطمة، نحن حضر. لنا مدننا.. بيوتنا.. انتماءاتنا، فكيف نتخلص من ذلك كله ونرحل؟
-لكن، الأولاد. زغب الطيور هؤلاء.
-الأولاد زغب الطيور، قاطعها محسن هازاً رأسه، يجب أن نعلمهم التشبث التمسك بالبيوت.. بالجذور، فلا يظل العالم بالنسبة إليهم مجرد خيمة.
-لكنهم سيدمرون بغداد كلها، هيروشيما أخرى سيحيلونها.
-لا تخافي. بغداد ستبقى. هم من قبل حاولوا تدميرها. أربعين يوماً ظلوا يقصفونها، ها هي ذي بغداد ما تزال حية باقية، لا هيروشيما صارت ولا ناغازاكي.
صمتت فاطمة. الخيار صعب. هي تعلم ذلك. "لكن محسن على حق. يجب الصمود يجب التضحية. المهم ألا نتخلى عن بغداد".
وكان رئبال في العمارة يقول لرقية:
-يجب أن أذهب إلى بغداد، رقية.
-تذهب إلى بغداد؟ لماذا؟.
-ربما يكونون بحاجة إلي، ربما أفيدهم إن وقعت الواقعة.

-لا، حبيبي، لا. ستفيدنا نحن هنا: أولادك.. عائلتك.. كلنا سنكون بحاجة إليك. العمارة نفسها ستكون بحاجة إليك تصد غزاتها، تدافع عن أراضيها.
وصمت رئبال أيضاً. هو يعلم أن العمارة معرضة كبغداد للقصف والضرب وربما جوي كذاك الذي أسر فيه عبد الجبار. المعارضة في كل مكان خارج العراق، نصالها وتسن أسنانها حتى إذا قصم الأنكلو أمريكان ظهر العراق جاءته هي متغلغلة للإجهاز عليه. ورأى رئبال أن رقية على حق. يجب التشبث بالموقع، يجب الدفاع عن النفس.
وحده باقر كان في قلق شديد. الحيرة تأخذه والحيرة تجلبه. "يا إلهي!! ماذا العراق مهدد بالمحق هذه المرة. الأنكلو أمريكان سيجربون فيه كل ما لديهم من أسلحة شيطانية لم يجربوها بعد. سيستخدمون أشعة الليزر، المواد المشعة، القنابل الجرثومية، فماذا تفعل باقر"؟.
لم يجد جواباً. كان البيت قد ضاق فيه، الأزقة، الشوارع، كلها ضاقت به. يريد لأسئلته، لكن أحداً لا يجيبه. العراق مشرع الأبواب، عاري الصدر، بلا جدران تحميه، سقف. وحده يواجه التنين وعينا التنين تقدحان شرراً، فما الذي ينتظر العراق؟.
في مقهى الهافانا وجد باقر بعض الجواب. هناك كان شتى الناس، جو المقهى دخان السجائر يلتف فوق الرؤوس. لغط الألسن وهي تناقش، ملء الآذان. لحظات تسمرت قدما باقر عند الباب. هو يبحث عن أحد، لكن أي أحد؟ هو لا يعلم. حسبه يخفف من قلقه، رفيق قديم ينسيه حيرته. لقد ذهب الأصدقاء كلهم. بعضهم صار اسكندنافيا، بعضهم الآخر في كندا، الثالث في أمريكا. الشتات يتشتت، يوماً بعد يزداد شتاتاً ويشعر باقر وكأنه غصن عار في ليلة مثلجة من ليالي كانون.
-باقر!! جاءه صوت من طاولة في الزاوية، لم يكن قد رآها باقر. وللتو أحس تتوقف في صدره:
-أبا الليل!! ثم أسرع الصديقان، كل منهما إلى الآخر يأخذه بالأحضان.
-أنت في دمشق؟ ماذا تفعل؟
وشرح له أبو الليل ماذا يفعل: تحركات، لقاءات، اتصالات، أخيراً همس في أذنه:
-نحن نعد لانتفاضة.
-حقاً!؟ انتفاضة حجارة من جديد!؟ قاطعه باقر فرحاً.
-أجل، حجارة في البدء ثم سكاكين، رصاص وقنابل.
-إذن، يئستم من المفاوضات؟
-نحن يائسون من قبل. نعرف حق المعرفة أن نتنياهو لن يعطينا الاستقلال، لن بكياننا. الانتفاضة ستجبره على ذلك كما أجبرت رابين على توقيع أوسلو من قبل.
-وإن لم يعترف؟
-سيسقط.
-إيه!! كم يسعدني أن يسقط!!
بعدئذ عرج الصديقان على الذكريات والتحسر على أيام الذكريات.
-إيه!! ما أجمل أيام الكفاح؟ قال باقر وهو يتنهد، قلعة الشقيف!؟ النضال!؟ أتذكر؟
-أنا الذي يذكر. نمر رحمة الله عليك يا نمر! يسار.. وتوقف، فتابع باقر:
-مسكين يسار. صار مدمناً وانتهى حتى صفية تخلت عنه. وتوقف باقر بدوره وقد بلقاسم هباش، صديقه الجزائري الهارب خوفاً من سكين تحز عنقه حزها لعنق أو قنبلة تنفجر فيه على حين غرة كما تنفجر كل يوم في أناس أبرياء مثله المسكين.
-سلام عليكم!!
-سلام عليكم!! وعرّف باقر أبا الليل ببلقاسم ثم لم يجلسوا حتى جاء عادل، ابن الهارب من بنغازي "مستشفى المجانين الذي لا يمكن لعاقل أن يعيش فيه"، يردد دائماً. بعدئذ جاء عثمان ميرخان، ابن السودان، وبدا لباقر أن الهافانا تعود مقهى الشتات؛ من كل قطر أغنية ومن كل واد زهرة. "آه!! يا أنت يا خارطة الفتات!! يا الشتات!!" وفي الحال بدا العراق همّ الجميع وشغلهم الشاغل.
-سيدمرون العراق، بدأ أبو الليل. هذه المرة سيدمرونه، والأمة العربية لا حياة تنادي.

-مسكينة هذه الأمة!! عقب بلقاسم، مبتلاة باستعمارين: استعمار الأنكلو أمريكان واستعمار الضعف والتجزئة. ما يعجز عنه الاستعمار الأول ينفذه الثاني.
-الله!! كم كنت أبحث عن هذه الفكرة!! هتف عادل. أجل، هي بين استعمارين: استعمار خارجي واستعمار داخلي، أي بين المطرقة والسندان.
-حقاً!! شيء لا يصدقه عقل، عاد أبو الليل للحديث وهو يزفر متحسراً. دويلات ثروات منهوبة، والكل راضون، دمى في مسرح عرائس. حلمهم أن يرسخوا هذا الأمر الواقع الذي نعيشه، فلا تقوم لهذه الأمة قائمة.
-قائمة؟ تابع عثمان ميرخان الذي فر من الخرطوم ذات ليلة مظلمة ولم يعد. كيف، ودورهم واضح محدد: جوعوا شعوبكم.. أفقروها.. مرغوها بالوحل فلا يرتفع صوت يفكر أحد بوطن أو أمة؟.
-والأدهى هو ما يحل الآن بالعراق. بدأ باقر والقلق ملء عينيه. أنا خائف على العراق هذه المرة، بل أكاد أموت خوفاً.
-بل كلنا نموت خوفاً، قاطعه بلقاسم، والعراق أعزل.. مريض.. جائع، لا يكاد يستطيع الوقوف على رجليه.
-لكن، هذه المرة لن يكن وحيداً، صاح أبو الليل بحماسة أطفال الانتفاضة. هذه العرب كلهم معه. من مشرق الوطن حتى مغربه معه.
-أتظن ذلك؟ سأل باقر وقد داخله بعض من أمل.
-بالتأكيد، أسرع عادل للجواب. هذه المرة عرفوا الحقيقة. الكل باتوا يعرفون تضللهم. بحجة الفرد تقتل شعباً، بذريعة الحاكم تدمر وطناً. لا، لا، اليوم كلهم يعلمون العراق ليس صداماً، الوطن ليس حاكماً بل هو أكبر من ذلك بكثير.. وأحس باقر من أفكار تجتاح رأسه "صحيح، الوطن أكبر من مجرد فرد. هذا يزول وذاك يبقى. الوطن هو الانتماء، هو الأرض، هو الذي ينبغي أن يكون فوق الخلافات.. فوق الجميع. كرامتنا من كرامته، حريتنا من حريته، بل حياتنا من حياته." وساد صمت فجأة قطع على شروده. نظر حوله فإذا بكل من في المقهى يشرئبون بأعناقهم إلى التلفاز.
-الصواريخ تنهال على بغداد. علا صوت المذيع فجأة، قصف العراق بدأ. ورأى باقر بعينين تكادان تخرجان من محجريهما صور التلفاز تأتي مباشرة من بغداد. قنبلة تنفجر الدوي هادراً مزمجراً، تنطلق أسنة اللهب وتتصاعد فطور الغبار والدخان ويصرخ باقر "يا إلهي!! هو ذا الجسر المعلق" "قذيفة أخرى تنفجر فيصيح "هي ذي الأعظمية"، ثم ينفجر صاروخ فيهتف "هي ذي الكاظمية" فيما أصوات سيارات الإسعاف تطغى على والكل مشرئبو الأعناق جاحظو العيون يتابعون اسراب الطيران في السماء، المدافع المضادة على الأرض وهي تطلق نيرانها، لكن عبثاً. الطائرات أعلى بكثير من أن قذائف المضادات. التوماهوك.. الكروز.. أسرع بكثير من أن تلحق بها قنابل المدافع، وتدوي الانفجارات لتغدو بغداد كلها دوياً وهديراً، غباراً ودخاناً، ويصبح ليلها كله نيران ولهيب حرائق.
لم يغمض لباقر جفن طوال ذلك الليل، مقهى الهافانا كان قد أغلق أبوابه العراق، وكان الشتات العربي قد تشتت من جديد، كل إلى منزله. وكان باقر للوصول إلى التلفاز، يتابع صوره الحية، يرقب طوارئه، يلاحق أخباره "الأمريكيون يردون على أحد. كلينتون غاضب يوجه الضربة القامة لصدام". "لا وساطات مفاوضات مع صدام. إذعان كامل أو دمار شامل." ويرتجف باقر قصبة في مهب الدمار الشامل في عينيه. لحظة بعد لحظة وساعة بعد ساعة يلاحقه. الصور الحية عينيه. يرى قصر الرئاسة يدمر، الوزارات.. الإدارات.. الجسور.. الطرق.. المرافق.. المنشآت. كلها تحترق أمام عينيه. يرى رؤوس النخيل تقطع، الأطفال يقتلون، النساء.. الرجال وهم يتحولون إلى أشلاء تتطاير، فحم يشتعل، فكيف تغمض له عين؟ الدخان، يضرب بقبضة يده الطاولة، يكز على أسنانه، يصرخ غضباً بالغزاة المعتدين وطائراتهم تنتهك سماء العراق، صواريخهم تفجر أرض العراق. يكاد كل ما فيه وهو يرى جثث القتلى، أكوام الجرحى والدماء تنزف. يكاد كل ما فيه يصرخ ألماً وهو يرى جروح العراق تنفتح ودماءه تنزف غزيرة تسيل على الطرق، في الشوارع، الأرصفة إلى أن تصب في دجلة ماء أحمر قانياً كلهب الحرائق المشتعلة في كل من العراق.

-أنجدوا العراق!! انصروا العراق!! دافعوا عن العـراق!! كـان صـوت بغـداد لا يفتأ وعلى إيقـاع تـردده، كـان بـاقر يـرى النـاس أفواجـاً أفواجـاً في بغـداد يحملـون ويندفعون هنا.. هناك، كانوا يندفعون متطـوعين.. حزبـيين، مقاومة شـعبية.. الكل سلاحه ويمضي ونصب عينه أن يذود عن حمى العراق. لم يكن باستطاعتهم أن يواجهوا الصواريخ فيمضوا إلى الخنادق، ولم يكن باستطاعتهم أن يقابلوا الطـائرات فيمضـوا غابات النخيل يستترون بالسواتر ويختفون خلف الجذوع بانتظـار دبابـات قد تهجم قد يتقدمون على الأرض.

-أنجدوا العراق!! انصروا العـراق!! دافعـوا عن العـراق!! ردت أصـوات عربية شـتى عواصم عربية شتى على صـوت بغـداد، ووجد بـاقر نفسه يشـتد ألمـاً ويـزداد حرقـة، الحبيس بين أربعة جدران.

مع أشعة الشـمس الأولى انطلـق، وفي أول حافلة غـادر حارته البعيـدة عن قلب إلى قلب دمشـق، فبـدت دمشق وكأنها تقـذف كل ما في جوفهـا. الـبيوت.. المكـاتب.. الأزقة.. الأحياء البعيدة القريبة، كلها تلفظ من فيها لتمتلئ الصالحية.. الحمراء.. المرجة، أبو رمانة بالزحوف. باقر يلقي بنفسه في لجة البحر، والبحر جماهير غاضبة تلعن أمريكا، تصب جام غضبها على بريطانيا، تريد الانتقام لشعب العراق وأرض العراق.

-هيا!! شباب!! إلى السفارة الأمريكية إلى المجرمين، المعتدين، كانت جماعة تصيح.

-هيا، رجال، إلى السفارة البريطانية.. الأفاكين!! السفاحين!! راحة جماعة أخرى تردد.

-إي، شباب!! للعراق!! هـ.. ي.. يالله!! للعراق!! شـرعت جماعة ثالثة تـردد بلحن موقّع فيردد خلفها الآخرون، "حقاً لماذا لا أذهب إلى العراق؟ وطني هنـاك يقصـف.. يـدمر. هو يستغيث، يستنجد، أأظل أتفرج عليـه، أم أمضي للـدفاع عنـه؟" وفجـأة وجد نفسه صـدام حسـين، دكتاتوريتـه، قسـمه على إسـقاط نظامـه، ينسى كرهـه، خوفـه، وينخـرط في القلب من تلك الجماعـة. الجماعة تتخلص من الزحـام، تبتعد عن الحشـود. الحشـود تصل إلى السـفارتين الأنكلو أمريكـانيتين، تقـذفهما بالحجـارة، تكسر بلورهمـا، تمزق أعلامهما، تحطم أبوابهما، وجماعة باقر تطير إلى أقرب واسـطة نقل إلى هو في القلب منها. الفرح يكاد يصنع له جناحين. الزخم يملأ شـرايينه قـوة، بـوده بساط ريح يحمله إلى العراق فيصله قبل أن يرتد إليه طرفه. دمه نار، صدره لسان يصيح: ها أنذا عائد إليك يا عراق!! أموت معك، أحيا معك، لكن ليس بغيرك يا عراق!!